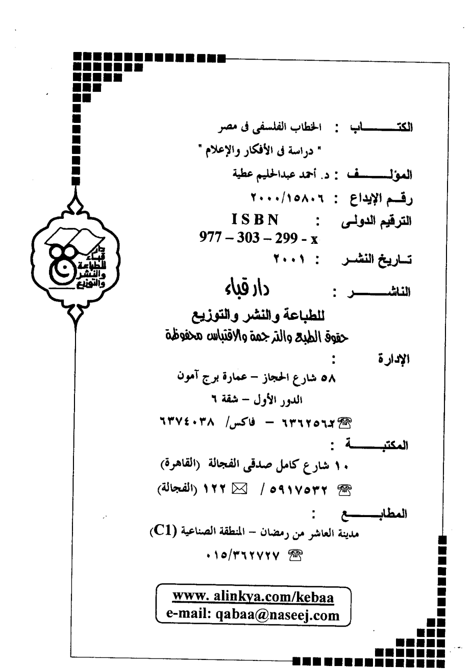
الخطاب الفلسفى فى مصر

دراسة فى الأفكار والأعلام

الدكتـــور
أحمد عبدالحليم عطية

٢٠٠١

الناشـــر
دار قبـــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)



الكتـــــاب : الخطاب الفلسفى فى مصر

" دراسة فى الأفكار والإعلام "

المؤلـــــف : د. أحمد عبدالحليم عطية

رقـم الإيداع : ٢٠٠٠/١٥٨٠٦

الترقيم الدولـى : ISBN

977 – 303 – 299 - x

تـاريخ النشـر : ٢٠٠١

الناشـــــر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :

٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

☎ ٦٣٦٢٥٦٢ – فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨

المكتبـــــة :

١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطابـــــع :

مدينة العاشر من رمضان – المنطقة الصناعية (C1)

☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

www. alinkya.com/kebaa

e-mail: qabaa@naseej.com

الخطاب الفلسفى فى مصر

دراسة فى الأفكار والأعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــداء

إلى هشام شرابى

المفكر والإنسان، صاحب النقد الحضارى للمجتمع العربى، مشروع الجيل الحالى من أجل التقدم والعلم والعقلانية والحداثة والديمقراطية وحقوق البشر والتعددية والاختلاف .

أحمد عبدالحليم عطية

مقدمة

الحديث عن الخطاب الفلسفى فى مصر، يقتضى إثارة العديد من التساؤلات حول هل هناك خطاب فلسفى فى مصر؟ وما هى طبيعته ومعناه، بداياته وتوجهاته؟ أعلامه وقضاياه؟ وعلاقته بالخطاب الفلسفى العربى الوسيط والحديث وكذلك الخطاب الفلسفى الغربى المعاصر وتياراته المتعددة؟

لقد شاع استخدام الخطاب فى الفلسفة والمنطق باعتباره عملية عقلية منظمة تنظيما منطقيا أو تعبيرا عن الفكر بواسطة سلسلة من الألفاظ والقضايا التى يرتبط بعضها ببعض وأصبح الخطاب توجها فى الدراسات الألسنية قائم بذاته عند بنفست ومدرسة تحليل الخطاب الفرنسية وخاصة لدى ميشيل فوكو (الزواوى بغورة: مفهوم الخطاب فى فلسفة ميشيل فوكو ص ٩٣). وقد استخدم هذا المصطلح عنوانا لبعض الكتب مثل حامد طاهر "الخطاب الأخلاقى فى الفكر العربى".

ونحن لا نعنى بالطبع إسهام مصر فى الفلسفة سواء فى العصر الهلنستى أو فى الفلسفة الإسلامية ولكن نعنى بالخطاب الفلسفى فى مصر ما قدمه الأساتذة المصريون فى العصر الحديث من كتابات فلسفية، ونظرا لصعوبة تحديد بدايات الإنتاج الفلسفى فى مصر من جهة، والاختلاف حول طبيعة هذا النتاج الفلسفى من جهة ثانية، فنحن نتخذ من الدرس الفلسفى فى الجامعة المصرية بداية مؤقتة، قد يسبقها بالطبع نتاج فلسفى متمثل فيما كان يلقى فى الأزهر من دروس سواء فى المنطق والشروح عليه أو علم الكلام، أو ما كانت تقدمه الدوريات والصحف مثل الهلال والمقتطف وغيرها أو ما كان يترجم من رسائل وكتب فلسفية. وقد رصدنا بعض هذه البدايات فى إطار محدد هو دراستنا عن "الديكارتية العربية" القاهرة ١٩٨٩ إلا أن الأمر يحتاج إلى جهد مضاعف وعمل فريق من الباحثين لمتابعة البدايات وإلى تحليل تاريخى اجتماعى لدرس هذه النشأة. ومن هنا قولنا إن هذا العمل يأتى فى سياق تأريخنا للخطاب الفلسفى فى الجامعة المصرية، وهو بداية محددة وإن كان يسبقها - كما أشرنا - جهود عديدة فى حاجة إلى رصد. فما هى صورة الفلسفة فى الجامعة المصرية؟

إن الباحث فى تاريخ الجامعة المصرية ونشأتها يدرك أن تأسيسها مع وجود مدرسة دار العلوم من جهة ومدرسة القضاء الشرعى من جهة ثانية، يؤكد على توجه جديد سياسى اجتماعى يتمثّل فى الأساس فى رغبة الأرستقراطية المصرية – إذا جاز هذا التعبير – فى تبنى المدنية الغربية كأساس للتحديث الحضارى، وهذا يعنى كما ظهر لدى أحمد لطفى السيد ومدرسته اتخاذ نماذج الغرب والمناهج العلمية لبناء مصر الحديثة. وهو تفكير قد لا يتعارض مع التوجهات الإصلاحية عند محمد عبده، فنحن نجد من بين تلاميذه، من قام بالجهد الأكبر فى التمهيد لدراسة الفلسفة فى الجامعة بعد تحولها إلى جامعة حكومية، ألا وهو الشيخ مصطفى عبدالرازق وقد حرصت الجامعة على استقدام أساتذة أوربيين للتدريس بها مثل: نللينو الإيطالى أو دفيد سنتيلانا أو لويس ماسينيون أو الكونت دى جلارزا مع بعض الأساتذة المصريين الأزهريين أو الدارعمين قبل أن يعودوا للمبعوثين المصريين أمثال منصور فهمى وطه حسين وعلى أحمد العنانى لتولى التدريس بالجامعة.

ورغم أن الدرس الفلسفى فى مصر بدأ بداية ناضجة محددة المعالم يوازى ويكامل بين دراسة الفلسفة العربية والأخلاقية من جهة والفلسفة العامة وتاريخها عند اليونان والمحدثين من جهة أخرى، فإنه كان يدور فى إطار تاريخ الفلسفة بشكل عام وإن كانت بعض الدروس خاصة لدى سنتيلانا وماسينيون أقرب إلى تناول قضايا فلسفية محددة. أقول رغم هذا – ارتباط الدرس الفلسفى بتاريخ الفلسفة – الذى أصبح سمة تميز الخطاب الفلسفى فى مصر، فإن هذا البدايات تتضح لنا – بعد بحث عميق دام أكثر من عشر سنوات – أكثر نضجا من الدرس الفلسفى الحالى فى أغلب الجامعات المصرية، والعربية بالطبع .

(٢)

ونحن لا نقصد فى هذا الكتاب دراسة الخطاب الفلسفى فى الجامعة المصرية. لأننا كما أشرنا نجد أنه كانت وما تزال هناك جهود فلسفية قدمها أساتذة ومفكرون لم ينتموا يوما إلى الجامعة – تدريسا – ومع هذا فإنه يغلب على هذا

الخطاب أنه نمى وتطور عن طريق جهود الأساتذة فى الجامعة المصرية. وهو يمثل أساس ما أصبح يسمى فيما بعد المشاريع العربية المعاصرة التى لا يمكن أن تفهم وتوضع فى سياقها الفكرى إلا باعتبارها نتاجا مؤسسا وتاليا لجهود هامة طرحها كل من عثمان أمين فى الجوانية وعبدالرحمن بدوى فى النزعة الوجودية الإنسانية وزكى نجيب محمود فى تجديد الفكر العربى، الذى كان البداية الحقيقية للبحث فى الفكر العربى الحديث، وهؤلاء بدورهم مرحلة هامة يسبقها جهود الأساتذة الأوائل فى الجامعة، مصطفى عبدالرازق ويوسف كرم وأحمد أمين وغيرهم. ونحن لا نريد أن نتناول الخطاب الفلسفى العربى تناولا تاريخيا وأن الموضوع نفسه يفرض علينا ذلك وهو ما نعانى منه ونريد الانتقال به إلى مستوى آخر، هو طرح سؤال المنهج، المنهج فى تناول الفكر العربى المعاصر. فقد صار هذا التعبير بديلا عن القول بالفلسفة العربية المعاصرة – من باب التواضع العلمى والدقة الأكاديمية – فهل هناك فلسفة عربية معاصرة؟ وما المنهج فى بحث هذه القضية؟

يبدو المغاربة أكثر جراءة من المشارقة فى القول بوجود فلسفة عربية معاصرة كما يتضح فى العديد من الدراسات التى قدموها مثل؛ أعمال ندوة الفكر الفلسفى بالمغرب المعاصر – (منشورات جامعة محمد الخامس الرباط ١٩٩٣) حيث كان النتاج الفلسفى المغربى هو مركز التفكير (ص٩) وكتب محمد وقيدى: حوار فلسفى، قراءة نقدية فى الفلسفة العربية المعاصرة دار توبقال للنشر، المغرب، ١٩٨٥ كما كتب كمال عبداللطيف "الفلسفة العربية المعاصرة" وعبدالسلام بنعبد العالى "التراث والهوية: دراسات فى الفكر الفلسفى بالمغرب، (توبقال ١٩٨٧) وغيرها بينما يشيع فى المشرق تداول تعبير الفكر العربى المعاصر، ويبدو بالفعل أنه هناك تمايزا فى استخدام الاصطلاحات فالمصطلح "الفكر العربى" يستخدم للدلالة على نتاج المفكرين العرب منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر وكتاباتهم التى تتناول قضايا المجتمع الحديث والعلاقة بالغرب والعلم والمدنية والحرية والاستبداد كما لدى رفاعة الطهطاوى مثلا وخير الدين التونسى وغيرهما بينما الفلسفة العربية المعاصرة فى اصطلاح المغاربة تدل على النتاج الفلسفى

العربى وما قدمه الأساتذة العرب من جهود فلسفية بعد منتصف القرن العشرين وهم يقصدون الأساتذة المغاربة.

ورغم اتفاقى مع هذا التوجه فى عدم الخشية من تداول الاصطلاحات كالقول بالفلسفة العربية المعاصرة، وإن الحوار النقدى يثبت أو ينفى صحتها، ورغم اعترافى بالفضل بما أسداه أساتذة المغرب عبر أجيال متعاقبة من الحبابى إلى العروى إلى الجابرى إلى الجيل الحالى الذى يضم عبدالسلام بنعبد العالى، عبدالرازق الدواى مع وقيدى وسالم باقوت وكمال عبداللطيف ومحمد سبيلا وبنسالم حميش، فإن هذا الجهد يظل باستمرار فروعا لا جذور لها إذا استبعدنا الدور التأسيسى الذى قام به المشرقيون الرواد الذين تناولوا تجديد الفكر العربى وتقديم رؤى ونظرات فلسفية لولاها لما ازدهر النتاج الفلسفى المغربى هنا، أقصد ما قدمه أساتذة المغرب الكبير فى تونس والجزائر أيضا، فالحقيقة أن النتاج الفلسفى التونسى إن لم يكن يتساوى مع النتاج المغربى فهو لا يقل، ويمكن أن نشير بإيجاز إلى جهود؛ فتحى التريكى والجمعية الفلسفية التونسية، مقداد منسية وأبو يعرب المرزوقى وعبدالمجيد الغنوشى ومحمد محجوب وجلال الدين سعيد، فتحى المسكينى، صالح مصباح، عبدالقادر بشته ومحمد على الكبسى وزينب الشارنى وغيرهم ونفس الأمر يتعلق بالجزائر، التى لا نعرف فى المشرق عن الجهود الفلسفية فيها شيئا، ليس لغياب هذه الجهود ولكن لغياب الناشر أو عدم تعامل الناشر اللبنانى لأسباب غير علمية، ربما مالية مع النتاج الفلسفى الجزائرى. لكننا نشير إلى جهود عمار طالبى وعبدالله شريط وعبدالرازق قسوم وبوعمران الشيخ والربيع ميمون والبخارى حمانه والجيل الحالى عبدالرحمن بوقاف والزواوى بغوزة وإسماعيل الزروخى وعمر مهيبل وغيرهم.

أقول إن هذه الجهود الحديثة يمكن مقارنتها مع جهود الجيل الحالى من الأساتذة فى مصر فلا نغفل عما قدمه الجيل الأول والثانى الذى نعرض نماذج من خطابه الفلسفى فى هذا العمل، والجيل الحالى الذى يضم عددا من الأسماء من أصحاب الدراسات المنهجية الدقيقة مثل يمنى الخولى، ورمضان بسطاويسى

ومجدى الجزيرى ووفاء إبراهيم وبهاء درويش وأنور مغيث وعلى مبروك وغيرهم.

و نقول فيما يتعلق بهذا العمل الذى نقدمه اليوم للقارئ إننا لا نستطيع تقديم دراسة شاملة للخطاب الفلسفى فى مصر إلا بصورة أولية مؤقتة لأسباب متعددة مثل :

- إن الخطاب الفلسفى فى مصر، مفهوم جديد يحتاج إلى تحديد دقيق نسعى إلى بيانه فى هذا العمل وفى أعمال تالية، وهو يحتاج إلى جهود متعددة للكشف عن بداياته وطبيعته وحدوده. تحتاج إلى دراسات تاريخية واجتماعية وإحصاءات والاستعانة بما كتبه الباحثون من سير ذاتية وكلها مسائل غير متوفرة ف الوقت الراهن.
- والخطاب الفلسفى فى مصر لا يمكن تناوله إلا فى إطار الخطاب الفلسفى العربى، فهو لغة وموضوعا جزء من الفكر العربى المعاصر الذى أسهم فيه الأساتذة العرب على اختلاف أقطارهم وتوجهاتهم ومناهجهم وما يعالجونه من مشكلات فلسفية. بل إننا نحاصر الخطاب الفلسفى العربى المعاصر إذا اقتصرنا على جهود الأكاديميين، حيث يمكن الكشف عن الإسهامات الفلسفية العربية فى الخطابات الايديولوجية شريطة الوعى بما يميز كل منها .
- والخطاب الفلسفى العربى لا يزال حتى الآن يدور فى فلك تاريخ الفلسفة سواء أكانت الفلسفة العربية الإسلامية أو الفلسفة الغربية فى عصورها المختلفة وما يزال يعانى تداخل حقول معرفية مختلفة معه؛ دينية، أيديولوجية، أدبية، سياسية. فالتمييز بين الفلسفى وغير الفلسفى والوعى بالحدود بينهما أساس للانطلاق من النتائج للفلسفة، السائد فى جامعتنا، بل قل المحاصر فى واقعنا وحياتنا إلى التفلسف.
- ولا زالت المشكلات التى يدور حولها الفكر العربى المعاصر مشكلات ثقافية فكرية عامة تحوم حول قضايا الفلسفة ولا تنخرط فيها، تتناول الأصالة والمعاصرة، التراث والتجديد، العقل العربى أكثر مما تقدم رؤية كلية عامة

حول المشكلات الحقيقية التى تحياها المجتمعات العربية. أى لم تطرح بعد الأسئلة الفلسفية العربية.

يقدم العمل الحالى مادة أولية عامة لدراسة الخطاب الفلسفى فى مصر. ونحن لا نزعم أن هذه المادة الأولية تشمل الخطاب الفلسفى فى مصر. فهى تقدم نماذج لما قدم فى الجامعة المصرية القديمة الأهلية من درس فلسفى، فى الفلسفة العامة وتاريخها أو الفلسفة العربية والأخلاق ومن الأساتذة العرب الذين نهضوا بتدريس الفلسفة كل من: سلطان بك محمد والشيخ الحكيم طنطاوى جوهرى، الذى خصصنا دراسة طويلة عن دوره فى الدرس الفلسفى فى الجامعة المصرية وتأثير هذا الدرس. ويكفى أن نشير إلى تلميذه محمد لطفى جمعه الذى ترجم مأدبة أفلاطون والأمير لميكافيلى وكتب عن تاريخ فلاسفة الإسلام، لبيان أثره فى تطور الفكر الفلسفى فى مصر. كما نتناول فى هذا السياق الدرس الفلسفى عند اثنين من الأساتذة الغربيين هما: لويس ماسينيون المستشرق الفرنسى، الذى درس فى مقتبل حياته العلمية بالجامعة المصرية محاضرات فى المصطلحات الفلسفية، وكذلك الأستاذ الأسبانى الكونت دى جلارزا الذى ظل لسنوات عديدة يقوم بتدريس الفلسفة لطلاب الجامعة واستمع إليه مع طلاب الجامعة عدد كبير من المثقفين والكتاب الذين كانوا يحضرون هذه الدروس ومن هؤلاء طه حسين وزكى مبارك ومن المثقفين والكتاب جرجى زيدان ومى زيادة. وقد قدم أولئك وهؤلاء شهادات حول هؤلاء الأساتذة وهذه الدروس، وظهرت الثقافة الفلسفية فى كتاباتهم المختلفة وأهم ما نتوقف عنده فى هذه الفترة أشهر طلاب الجامعة المصرية وأساتذتها وعميد الأدب والفكر فيها وهو طه حسين، الذى حصل على الدكتوراه فى الفلسفة بمصر قبل بعثته إلى فرنسا وقدم لنا خطابا فلسفيا واضحا فى الفلسفة اليونانية (قادة الفكر) أو الفلسفة الإسلامية (أبو العلاء المعرى) أو الحديثة (ديكارت) وجعل من العقل معيارا للحكم، وجعل من البحث العلمى وطرح اليقينات والشك أساسا للعلم. كما نعرض لجهود الكاتبة مى زيادة وهى من أشهر طالبات الفلسفة التى ارتادت الجامعة المصرية وأخذت عن أساتذتها وأسهمت بالكتابة على صفحات المحروسة والمقتطف للتعريف بأعلام الأدب والفلسفة وحفظت لنا بعض خطبها ملامح أساتذة

الفلسفة الذين نجهلهم مثل الكونت دى جلارزا. وحددت معالم مذاهب فلسفية واجتماعية كانت من أوائل من عرف بها فى كتابها "المساواة".

وتمثل هذه النماذج الخمسة بدايات الخطاب الفلسفى الأكاديمى فى الجامعة سواء لدى أساتذتها أو من تلقوا العلم فيها من طلاب صاروا قادة الرأى فى مصر سواء فى الصحافة أو الجامعة. ولكى تكتمل الصورة هناك حلقات أخرى هامة لم نتوقف أمامها يعطى ذكرها هنا إكمالا لمعالم الخطاب الفلسفى وتحديدا لملامحه، ونقصد بذلك ما قدمه محمد عبده ومدرسته سواء فى جناحها الإصلاحى وما نجم عنه من مدرسة فى دراسة الفلسفة الإسلامية اتضحت لدى الشيخ مصطفى عبدالرازق وتلاميذه أو جناحها الليبرالى لدى أحمد لطفى السيد وطه حسين ومحمد كامل حسين.

وما يجب التوقف أمامه هنا هو جهود كل من الشيخ مصطفى عبدالرازق وما أشاعه ليس فقط بدروسه وكتاباته بل بشخصه فى جيل بأكمله أو أكثر من جيل وأيضا الدور الذى لعبه لطفى السيد بترجماته المختلفة لأرسطو وبإدراكه لرسالة الجامعة هذا الإدراك الذى غاب عن الكثير، والذى علينا تذكره لفهم وضعية الفلسفة فى الخطاب المصرى المعاصر.

ولأننا لا نتناول تاريخ الفلسفة فى مصر أو فى الجامعة المصرية فلن نتوقف أمام حلقات الدرس الفلسفى المختلفة، بل سنتخير بعض العلامات المضيئة على الطريق - وبالطبع هناك حلقات فى هذا الدرس الفلسفى، ربما نعرض لها فى دراسات قادمة - فما يهمنا هو تقديم نماذج توضح لنا فهم هؤلاء الرواد الأوائل لطبيعة الفلسفة ودورها واللغة الفلسفية السائدة كما ظهرت فى الدرس الفلسفى فى مصر.

ونتوقف فى الباب الثانى أمام الخطاب الفلسفى الأخلاقى واتجاهاته سواء فى بداياته (التأسيس للدرس الأخلاقى) كما ظهر لدى أحمد أمين الذى أسهم ليس فقط فى دراسة الحياة العقلية العربية، بل أيضا فى الأخلاق مواصلا دروس الكونت دى جلارزا فى الأخلاق من جهة، وممهدا للدور الكبير الذى قام به توفيق الطويل من

جهة ثانية. وحين نعرض للأخلاق والقيم عند توفيق الطويل فنحن فى الحقيقة أمام جهد متواصل نجده لدى عدد كبير من الأساتذة المصريين والعرب نكتفى فقط بتناول ما قدموه فى مجال الأخلاق والقيم بل نناقش طبيعة فهم كل منهم لطبيعة وحدود مجال الدراسة بين القيم والأخلاق خاصة لدى كل من نازلى إسماعيل، صلاح قنصوه، عادل العوا، على زيعور ممن قدموا إسهاما متميزا فى هذا الحقل الفلسفى وكذلك زكى نجيب محمود الذى لا نعرض لجهوده فى مجال الميتافيزيقا، بل نتوقف أمام إسهامه فى مجال القيم، كما ظهر ذلك منذ كتابه الأول الجبر الذاتى مرورا بطرحه الميتافيزيقا والمنطق الوضعى وصولا إلى تجديد الفكر العربى وكتاباته الأخيرة لطرح إشكالية القيم فى كتاباته وهل تنتمى لما عرف بالوضعية المنطقية أو المدرسة الانفعالية التى تظهرها نزعته الفلسفية.

وفى إطار التأسيس للبحث الفلسفى المعاصر وإعادة النظر فى درس وتحقيق الجهود الإسلامية فى علم الكلام والفلسفة والتصوف نتوقف فى الباب الثالث أمام الخطاب الفلسفى الإسلامى والتحقيقات الفلسفية الذى ظهر لدى أجيال متعاقبة من أساتذة الفلسفة فى مصر. نتناول فى البداية جهود صاحب الكندى محمد عبدالهادى أبو ريدة وما قدمه من تحقيقات فلسفية وكلامية فى التراث الإسلامى وننتقل منه إلى عبدالرحمن بدوى وما قام به من جهد فى رصد التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية وإن كنا قدمنا عشرات الدراسات حول جوانب متعددة من فلسفة بدوى فإننا نتوقف هنا أمام جانب لم نعالجه له من قبل هو تحقيقاته الفلسفية التى شملت التراث اليونانى: الأرسطى، الأفلاطونى الأفلوطينى وشراحهما والتحقيقات الفلسفية الإسلامية لدى الفلاسفة والمناطقة والأدباء وذلك فى إطار ما يمكن أن نسميه مشروعه الفلسفى وفى دراسة تالية نعرض لجهود محمد على أبو ريان الذى توقف أمام الاتجاهات الإشراقية فى الفلسفة الإسلامية، خاصة لدى السهروارى الإشراقى صاحب هياكل النور، والدراسة الرابعة تتوقف أمام النص الصوفى عند التفتازانى الذى يمثل مع ما أبو العلا عفيفى ومحمد مصطفى حلمى أبرز باحثى التصوف فى مصر. حيث تقدم هذه الدراسات صورة للعلوم المتعددة للفلسفة الإسلامية: الكلام والفلسفة والتصوف وبالطبع هناك – كما ذكرنا – جهود مدرسة مصطفى

عبدالرازق وأيضا ما قدمه إبراهيم بيومى مدكور وغيرهم مما ينبغى إضافته حتى تتضح أبعاد الخطاب الفلسفى الإسلامى بحثا وتحقيقا حيث دور إبراهيم مدكور – الذى أهمل حواريوه عمله – فى تكوين فريق جماعى فى تحقيق العملين الكبيرين فى الفلسفة والكلام أقصد الشفاء لابن سينا والمغنى للقاضى عبدالجبار دور أساسى فى الخطاب الفلسفى فى مصر فى فترة الستينيات.

وقد بدأ بتبلور خطابا فلسفيا معاصرا فى النصف الثانى من القرن العشرين فى مصر كان أكثر ارتباطا بمتطلبات الحاضر منه بتاريخ الفلسفة بدا لدى تلميذ مصطفى عبدالرازق عثمان أمين واستمر لدى تلاميذه.

ولن نعدد جهود هذا الجيل الفلسفية خاصة عثمان أمين صاحب الجوانية الذى ضرب للجيل الحالى مثالا بأن التخصص – وقد كان تخصصه الفلسفة الحديثة – لا يمنع، بل يوجب النظر فى فكرنا العربى الإسلامى ومن هنا كانت "محاولات فلسفية" والنظر فى تاريخ الفلسفة "الفلسفة الرواقية"، مما أتاح له هذا المنظور الإنسانى، الذى أدى به إلى صياغة محاولته الفلسفية "الجوانية" ليقرأ من خلالها ليس فقط تأريخ الفلسفة، بل الواقع المصرى الذى سار فى التعامل معه على نهجه أستاذاه محمد عبده ومصطفى عبدالرازق، فكان حلقة الوصل بينهما وبين تلاميذه وفى مقدمتهم يحيى هويدى الذى تتلمذ عليه جيل كامل، هو الجيل الذى انتمى إليه، والذى سعى بدوره إلى إيجاد نظرة فلسفية ذاتية مستقلة عن تاريخ الفلسفة من جهة وعن فلسفات العصر من وجودية وماركسية، فاختار ما أطلق عليه الفلسفة الواقعية الجديدة التى تتيح للروح والعقائد مكانا فى بنائها النظرى. وذلك على العكس من محمود أمين العالم الذى بدأ مثاليا نيتشويا متحمسا ودرس فلسفة العلم وقدم دراسة من أهم أبحاث فلسفة العلوم المعاصرة عن المصادفة . وتبنى الجدلية المادية التى قرأ على ضوئها الواقع وكان له مواقف نظرية وعملية انطلاقا من هذه الفلسفة التى لا يزال يدافع عنها بصدق رغم تحولاتها النظرية إلى ماركسيات القرن العشرين ومدرسة فرانكفورت التى تناولنا موقفه منها من خلال دراسته الأولى عن ماركيوزا أو فلسفة الطريق المسدود ثم دراسته الأخيرة ما الفلسفة؟ ومن المفكرين الذين أثاروا نقاش حاد فى فكرنا ومجتمعنا حسن حنفى،

الذى خصصنا له الدراسة قبل الأخيرة لبيان موقفه الفلسفى والمواقف المنهجية المختلفة من فكره وأكملنا هذا العمل بدراسة ضرورية عن فلسفة الفن وعلم الجمال فى إنتاج الأساتذة المصريين من خلال دراساتهم المختلفة الاجتماعية والنفسية والفلسفية، يوسف مراد، فؤاد زكريا وأميرة حلمى مطر التى جمعت فى عملها الفلسفى مستويين للدراسة الجمالية، الأول هو الدراسة الفلسفية لتاريخ المذاهب الجمالية، والمستوى الثانى الدراسة التحليلية لعناصر الخبرة الجمالية مما أتاح لها أكثر من غيرها توسيع حقل الدراسات الجمالية فى مصر، ومن هنا توسعنا فى بيان موقفها الابستمولوجى فى الدرس الجمالى فى مصر.

الباب الأول

الخطاب الفلسفى
فى الجامعة الأهلية

ماسينيون :

رؤية مستقبلية للقاموس الفلسفى العربى (*)

تمهيد :

هذا مشروع رؤية جديدة، وخطوة أخرى وقراءة مستقبلية تقدم وجهة نظر عربية لمشروع حضارى مهم هو "تأسيس قاموس عربى للاصطلاحات الفلسفية الشرقية والغربية" قدمه المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون فى بداية حياته العلمية وهو مشروع يغلب عليه الطابع الأكاديمى والبحث الدقيق، الذى يعتمد على المصادر والمراجع الأساسية، ومن هنا فهذا الجهد يستحق منا أن نعرض له ونناقش أفكاره من أجل الإكمال والتطوير.

والمحاولة التى تعد أساس عملنا الحالى هى المحاضرات التى ألقاها لويس ماسينيون Louis Massignon فى الجامعة المصرية الحرة "الأهلية" عام ١٩١٢ – ١٩١٣، وهى تتكون من أربعين محاضرة بعنوان "تاريخ المذاهب الفلسفية" أو "تاريخ المصطلحات الفلسفية" كانت موضوع للدراسة فى مادة "تاريخ الفلسفة" وتهدف كما يقول صاحبها إلى تقديم طريقة جديدة فى تاريخ الفلسفة العربية.

فالمقصود من هذه المحاضرات إنما هو إيجاد طريقة فى تاريخ المذاهب الفلسفية، كما يقول ماسينيون فى الفقرة الثانية من المحاضرة الأولى: "تأسيس قاموس عربى للاصطلاحات الفلسفية الشرقية والغربية وبيان فوائدها لإصلاح اللغة الفلسفية الحالية". "فتاريخ المصطلح الفلسفى مثل مرآة تنعكس فيها النظريات القديمة.. الفائدة فى اقتباس ما ينعكس إلينا فى هذه المرآة من أشعة الحياة العظمى، تاريخ الماضى طريق المستقبل"، ولابد لنا من إصلاح مصطلح محاضراتنا فى الجمعيات ومقالاتنا فى الجرائد بمقتضى ما شهدنا فى الأزمنة السابقة[١].

(*) نشرت هذه الدراسة بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٤٨ عام ١٩٨٨، ص١-٥٣.

(١) نعتمد فى هذه الدراسة على محاضرات ماسينيون التى ألقاها بالجامعة الأهلية، بمصر، ١٩١٢ -١٩١٣. وللأسف لاتوجد أية نسخة منهما بمكتبة جامعة القاهرة التى هى امتدد للجامعة الأهلية. وما اعتمدنا عليه هو نسخة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، وهى "صورة" ونسخة ماسينيون نفسه، وهى الأصل لنسخة المعهد إلا أنها أكمل منها من حيث الهوامش والتعليقات المثبتة بخط ماسينيون، وهذه النسخة موجودة لدى الدكتور عثمان يحيى. الأرقام واحدة فيهما فسنشير إلى الصفحات دون تحديد إلا فى حالات الإشارة للزيادة فنذكر نسخة د. عثمان يحيى، انظر مسينيون: محاضرات فى تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية (المخطوط) ص١٠٧.

وليس الهدف من هذه الرؤية مجرد عرض وتقديم ونشر محاضرات ماسينيون، ولكن الهدف منها قراءة ماسينيون قراءة معاصرة ومناقشة مشروعه وتقديم رؤية مستقبلية لعمله تهدف إلى إحياء وإكمال وتطوير مشروع مهم يتجاوز جهد فرد، كما يتجاوز نطاق الأكاديمية الخالصة، أملاً فى إيجاد لغة فلسفية معاصرة تختلف عن اللغة التى سادت الفترة الماضية – وماسينيون نفسه يشير إلى "اصطلاح اللغة الفلسفية الحالية" حيث يبحث فى "الفائدة الحالية التى عادت على اللغة والأدب وبالجملة التمدن"[٢]. وفى محاضرات خمس تالية يتحدث عن إحياء الاصطلاحات الفلسفية والاستفادة منها وعن إحياء التمدن العربى بواسطة أحكام الاصطلاح الفلسفى العربى". ويتحدث فى الفقرة الثالثة من المحاضرة الأولى عن أهمية المصطلح الفلسفى لإحياء التمدن والأدب".

ويظهر هذا الهدف جلياً ليس فى المادة العلمية المكثفة بل والزائدة أحياناً التى قدمها على مدى الثلاثين محاضرة الأولى، ولا فى أسلوب وطريقة تناوله فقط بل فى النتائج، أو الخلاصة التى نجدها فى المحاضرات العشر الأخيرة حيث على التوالى عن: سلوك العربية فى العالم، فضلها لصناعة النحو والكلام (المحاضرة الحادية والثلاثون) وفى صفات العربية وخاصياتها الحاضرة (المحاضرات من الثانية والثلاثون حتى الخامسة والثلاثين). والمحاضرة السادسة والثلاثون فى فلسفة المصطلح الدارج (نظرية ترقى الدارج) ثم المحاضرات الثلاثة التالية فى شروط إحياء التفكير الفلسفى العربى: الأولى منها فى العالم والفلسفة والنقل، والثانية مراكز المدينة العربية فى العالم، والثالثة دعوة العربية بين الأمم. والمحاضرة الأخيرة (الوصية) حيث يقدم ما يطلق عليه "طريق الحق".

ونحن فى عملنا الحالى لا نخرج عن الحدود التى رسمها ماسينيون نفسه، فقد أوضع الأساس ومهد الطريق حيث يقول: "إن هذا العمل مقدمه عظيمة لعمل كبير ومفيد نشتغل فيه معاً — يقصد تلاميذه بالجامعة الأهلية — حتى يكمل، فهو يلقى الضوء وينير الطريق: "سأكون دليلكم حتى أوصل إلى أول باب من أبواب الحقيقة

(٢) ماسينيون: المصدر السابق ص ٣.

فأتركلكم تلجونه، مستشهداً بدانتى فى أنه يحمل المصباح ويتقدم أمامهم مهتدين بنور مصباحه ثم يدخلون وهو لا يدخل" ـ ونحن نسير معه غير مغمضى العينين نهتدى بنور مصباحه إلى طريق الحق: "إرادتنا مائلة إلى حال التأليف والصلح الحقيقى .. أملنا أن نصير معاً من الاختلاف إلى الاتحاد الصحيح فليس الاتحاد مسامحة بعضنا بعضنا فى إباحة الباطل والشر والخلف بل الاتحاد بيننا من تصفية الإرادة وطلب الحقائق"(٣).

وتسعى هذه الدراسة إلى إقامة حوار مع ماسينيون فى عديد من القضايا التى آثارها فى محاضراته سواء فيما يتعلق بالعلاقة بين تاريخ الفلسفة والمصطلحات الفلسفية، أم ما يتعلق بمحاولته، وما تحقق منها، متخذين من عمل ماسينيون نفسه أساساً لتحليل مضمون محاضراته وتحديد مكانة هذه المحاولة بين المحاولات التى تسعى لتأسيس قاموس، وكذلك تحليل تصوره لتاريخ الفلسفة، واستخدامه لمصادره المختلفة، ومناقشة العديد من القضايا التى تبرز أهمية إنجازات ماسينيون من جهة وبيان ما يمكن أن يندرج فى نطاق السلبيات متخذين فى ذلك هدف ماسينيون هدفاً لنا لكن من خلال رؤية ناقدة للعمل تتجاوز المحاضرات إلى نظرة مستقبلية للقاموس الفلسفى العربى.

أولاً ـ هذه المحاولة فى العربية :

يوضح ماسينيون فى المحاضرة الأولى "الطريق" أى الوسيلة أو الخطة المتبعة فى العمل وهى: ذكر المقولات العقلية والأسماء الكلية والمقالات العامة وتخصيص معانيها على مرور الدهور "فى إطار اللغة العربية التى اهتم بها مبكراً ربما منذ لقائه بهنرى ماسبيرو عام ١٨٩٦ حيث تولد لديهما ميلٌ مشترك للدراسات الشرقية، التى استطاع ماسينيون التعمق فيها بدراسته فى المدرسة الوطنية للغات الشرقية بباريس وحصل على دبلومها فى فبراير ١٩٠٦، وأدى لقاؤه بجولد زيهر فى مؤتمر المستشرقين الرابع عشر فى الجزائر فى ١٩٠٥ بأن أوصى جولدزيهر به للتدريس بالجامعة المصرية وتوطدت علاقته بالبلدان العربية فاختير عضواً فى

(٣) نفس المصدر ص ١١٠.

معظم مجامعها العلمية: المجمع اللغوى بمصر منذ ١٩٣٣(٤) والمجمع العلمى فى دمشق والمجمع العلمى العراقى(٥) ويظهر الجانب المهم لماسينيون فى الاهتمام الكبير باللغة العربية والإشادة بها وتخصيص العديد من الدراسات والأبحاث بالمجمع اللغوى لمناقشة قضاياها المختلفة.

فهو يتحدث عن: المعاجم الأوروبية ومدى ما تستفيده لمعاجم العربية منها. ويبدو أن فكرة المعاجم سيطرت عليه فهناك أشياء ضرورية لوضع أطلس لمصطلحات الحرف العلمية. "ويبين المصطلحات العربية فى القرى وإكرام الضيف". وهو فى تعامله مع اللغة العربية يتعامل معها كمستشرق ويكتب "خواطر مستشرق فى التضمين". ويبحث فى "التعاون الثقافى بين اللغة العربية ولغات الغرب" ويقدم "خطرات فى الاحتفاظ بعبقرية النحو العربى" فهو فى تعامله معها ليس نحوياً فقط يدرس "الأصول الثلاثية فى اللغة العربية" أو يتعامل معها كعالم تاريخ وآثار وفنان يهتم بالبحث فى "قيمة الخط العربى لتأسيس فن النقش المجرد"، ويقدم "افتراضات فى مستقبل الخط بالحروف وانعكاساتها على استيفاء الخط العربى" بل هو مفكر وفيلسوف يدرس "فلسفة التضمين" و"ميتافيزيقا اللغة" تلك اسهاماته فى اللغة العربية التى حرص على أن يلقى بها محاضراته فى الجامعة والتى أراد بها تقديم تاريخ للاصطلاحات الفلسفية(٦).

ويبدأ ماسينيون مشروعه بالربط بين الفلسفة واللغة معتمداً على قول الفيلسوف الفرنسى كوندياك Condillac (٧): "الفلسفة ليست إلا استعمال اللغة بغاية الإتقان فى الموضوعات"(٨) ويتخذ من المعجم الفلسفى للجمعية الفلسفية الفرنسية مثالاً يحتذى به مع أحساسه بخصوصية تميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات الفرنسية أو الإنجليزية فنحن "نرى فى اللغة العربية دائماً تخصيصات لغوية" مثل

---

(٤) د. مهدى علام: المجمعيون، المطابع الأميرية، ١٩٦٦، ص ١٥٢-١٥٤.

(٥) انظر مجلة المجمع العلمى العراقى؛ المجلد الثانى ١٩٥٢ ص ٣٩٤.

(٦) د. مهدى علام. المصدر السابق ص ١٥٣-١٥٤.

(٧) انظر عنه بنروبى: مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة فى فرنسا جـ١ ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ــ مكتبة الأنجلو المصرية ط١ القاهرة ١٩٦٤ ص ٨ – ٩.

(٨) ماسينيون: المحاضرات ص ٢.

كثيراً من اللغات إلا أنها فى اللغة العربية خاصة أدق ما تكون واللغة العربية غنية بمفرادتها مدهشة فى اصطلاحاتها[٩] والأساس اللغوى للاصطلاحات إذا كان موجوداً فى القاموس يبدأ بالمعنى اللغوى "فاللغة خزامة الحكمة"[١٠] ولها تميزها ولهذه الحكم ذوق دقيق غريب كما قال الصفدى فى "ديوان المتنبى"[١١] وينبغى أن نشير إلى ماسينيون تراجع عن دعوته ومناصرته لكتابة اللغة العربية بحروف لاتينية[١٢] وأعلن ذلك على الملأ لما رأى مضارها العديد التى منها انفصال الأجيال الجديدة عن تراثها القديم.

إن أهمية اللغة تظهر فى كل محاضرة من المحاضرات. وعلى الرغم من أنه يتناول المصطلحات بداية بذكر معناها اللغوى الاشتقاقى، ثم مصطلحاتها الفرنسية والإنجليزية وأحياناً الألمانية ويمضى منها إلى اليونانية واللاتينية[١٣] إلا أن تركيزه فى الغالب ينصب على اللغة العربية واللغات السامية. نجد ذلك فيما يتعلق بالإلهيات الخاصة، فهو لا يغفل السريانية والعبرية والآرامية وغيرها[١٤] ويمكن أن نشير إلى المحاضرة الحادية والثلاثين "سلوك وفضل اللغة العربية فى العالم" حيث يبين ماسينيون فضل اللغة العربية وهو يناقش آراء رينان، وإذا كان يعرض هذه الآراء بأمانة إلا أنه لا يقبل كثيراً من الأحكام التى يصدرها رينان على اللغة السامية التى تعد العربية وريثتها الوحيدة، وإذا كان رينان يرى أن هناك تضاد طبيعى بين أحكام اللغة العربية ووضع مصطلح فلسفى بها فإن ماسينيون يناقش ذلك: "فرينان فى كتاب (العام للغات السامية) يقول بآراء غريبة كالقول أن اللغات الآرية، واللغة هى اللغة السامية الوحيدة الحية الآن ومن ثم فإن حكم رينان موجه إليها هى. يرفض ماسينيون أحكام رينان فيما يرى الأخير أن هناك ارتباطاً بين المعنى والألفاظ ناتج عن أن ثلاثى الحروف ثابتة تتركب عليها ألفاظ كثيرة ويزعم أن هذا نقص ولكن هذا فيما

---

(٩) ماسينيون: ص ١.
(١٠) ماسينيون: ص٢.
(١١) نفس المصدر: ص ٢.
(١٢) د. إبراهيم مدكور: مع الخالدين، القاهرة ١٩٨١، ص ١٠٥، "ماسينيون المجمعى" فى الكتاب التذكارى عن ماسينيون، جامعة القاهرة ١٩٨٤ ص ٣٦.
(١٣) ماسينيوون : ص ٣.
(١٤) المصدر السابق ص ٧٠.

يرى ماسينيون "فضل" ـــ ويوافقه على ذلك د. إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية[١٥] لأنه ظاهر ولو للعوام من الساميين، بخلاف ما حصل فى اللغات الآرية، ودوام الرابطة بين اللفظ والاشتقاق فضل.

وفى المحاضرة التاسعة والثلاثين "شهادة اللغة العربية بين الأمم وفضلها الخاص فى تاريخ المدينة العامة" يقول: "مقصدنا بيان ما فى تاريخ الفلسفة العربية من الشواهد الدالة على مزايا هذه اللغة العربية إلى سجاياها وسليقتها وخليقتها إلى الطبع الذى انطبع بأمر رجالها على التمدن العام"[١٦] وهو يبين تأثير اللغة العربية على العبرية فى الفلسفة والكلام[١٧] وتأثيرها على أسلوب النثر والشعر فى أسبانيا وإيطاليا وجنوب فرنسا.[١٨]

وانطلاقاً من هذا الاهتمام باللغة العربية يقدم ماسينيون مشروعه، وهو يأخذ مباشرة فى بيان المقولات العامة والأسماء الكلية الراجعة إلى الأحكام الثابتة، ولا يكتفى بما هو متفق عليه من أصول بل يتتبع الفروع التى اختلف فيها، ووجهات النظر المتعددة فى المسألة الواحدة وكأنى به يقوم بما قام به جان فال فى كتابه "طريق الفيلسوف" وهو عرض لتاريخ الفلسفة من خلال تطور المقولات الكلية. وهذه المحاولة فى التقصى عن المقولات الكلية: أصولها وفروعها أفضل طريقة لتدريب الطلاب على قاعات البحث والمراجع القديمة، أى أنها نوع من المحاضرات العملية التى من الضرورى أن يتدرب عليها طالب الدراسات الإنسانية النظرية، فيعرف المصادر، ويتعمق المصطلحات ويتناقش فيها مع غيره من الطلاب، والمهمة هنا لاتقع على عاتق (الأستاذ) ماسينيون وحده بل هو يحدد الطريق فقط، وما هذا العمل إلا مقدمة عظيمة لعمل كبير ومفيد نشتغل فيه معاً حتى يكمل فإذا أردنا أن نعمل للاصطلاحات قاموسها فإن ذلك سهل وعلينا من البداية استعمال القواميس الخاصة بمفردات اللغة.

---

(١٥) د. مدكور: "ماسينيون المجمعى" ص ٣٥ وما بعدها.
(١٦) ماسينيون: المحاضرات ص ١٠٣.
(١٧) المصدر نفسه ص ٩٢ – ٩٣.
(١٨) المصدر نفسه ص ١٠٤.

والطريق إلى ذلك هو طريق المحاضرات التى ذكرناها، وهو النظر إلى الترتيب والنظام فى المقالات العامة وفى المعانى المختلفة. وهذا الترتيب على حروف المعجم مثلما فعل مدرسوا الفلسفة فى باريس، الذين أسسوا جمعية فلسفية يقوم أحدهم فيلقى بحثاً فى اصطلاح ما مستشهداً عليه بأقوال القدماء والمحدثين، ويشير إلى طلابه بنسخة معه مجلد المعجم الفلسفى Vocbilaira philosophie philososphique Societe Francaise de philosophie – وذلك فى عام ١٩٠٢[١٩].

وهو يحدد الخطوات العملية لعمله على النحو التالى:

(أ) ذكر المعنى الأصلى اللغوى، ولا يكتفى ماسينيون بالأصل الاستقاقى العربى، بل يعرض اللفظ المستخدم فى اللغات المختلفة فرنسية، إنجليزية، ألمانية، بل حتى آرامية، سريانية. فحين يتحدث فى المحاضرة السابعة والعشرين عن الإلهيات يذكر معنى الإله فى اللغات السامية (إله) بالعبرانى، والسريانى Elah، وبالأشورية Elu، وبالكدانى Elah هذا فى اللغات السامية وكلها معناها واجب الوجود. ويذكر الله باللغات الآرية كما يلى: بالسنسكرتية ديفا Deva وباللاتينية Dives و Dues، وباليونانية ثيوس Theos، وبالألمانية Gott، وبالإنجليزية God، وبالإيطالية Iddis، وبالفرنسية Dieu. ويذكر ماسينيون أن عند النحويين العرب مذاهب كثيرة فى اشتقاق اسم الإله، ويعطى معانيه المتعددة[٢٠].

وحين يتحدث عن الحياة (المحاضرة الخامسة عشرة) يأتى بالكلمات الأفرنجية لكلمة الحياة وهى Zoe اليونانية، واللاتينية Vite، والفرنسية Vie، والإنجليزية Life، والألمانية Leben[٢١] ويبدو ماسينيون هنا عالم فيلولوجى

---

(١٩) أندرية لالاند (١٩٦٧ – ١٩٦٣) فيلسوف وأستاذ فلسفة فرنسى، أسس وشارك فى الجمعية الفلسفية الفرنسية. أهم أعماله "المعجم النقدى الفنى للمصطلحات الفلسفية" درس بجامعة القاهرة. انظر عنه بنروبى ج٢ ص ٨٠–١١٥ . د. نجيب بلدى. الفلسفة واللغة، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية المجلد ٤ لسنة ١٩٤٨ ص ١٨٠ – ١٩٢.

(٢٠) ماسينيون ص ٧٠.

(٢١) ماسينيون ص ٣٧.

يعرض بالتحليل للفظة وتطورها، ومعانيها المختلفة، بل يرجع كثير من الألفاظ فى اللغات المختلفة إلى أصل واحد.

(ب) يدعم ماسينيون كل مصطلح بالأصل اليونانى. يتحدث عن المقولات العشر فيذكر أمام الجوهر Ousia وأمام الكم To Pasoo وأمام الكيف To poico، والإضافة To-Pros ، والأين To pou، والمتى To pote وهكذا. وحين يتحدث عن الكليات الخمس يذكر: الجنس Genus باللاتينى وGenos باليونانى مع ذكر المصطلح الإنجليزى والفرنسى. ويذكر النوع Eidos، والفصل Diaphora، والخاصة Idion، والعرض Symbelokos [٢٢] وهو هنا يعتمد على أرسطو ـــ جاء ذكره ٦٦ مرة – فهو صاحب اللغة الفلسفية المحكمة، ومن يخالفه يخرج عن التقليد الفلسفى، فخطأ ابن نعمة الحمصى فى ترجمته لكتب أفلوطين المنسوبة إلى أرسطو أنه لم يكن لديه شىء من الاصطلاحات الفلسفية المحكمة[٢٣]. والحقيقة أن على الباحث فى الفلسفة الرجوع إلى الأصل اليونانى الذى ابتعد عنه المحدثون.

(ج) الاصطلاح اللاتينى المنقول من المترجمات العربية القديمة، فمن الأمر المعاد ذكر أهمية الفلسفة العربية كأساس لكل فلسفة العصور الوسطى والحديثة فمن الممكن دراسة نشأة المصطلح الفلسفى العربى النشأة والتطور والتغيرات التى طرأت على المصطلح العربى، هى دراسة حضارية فى المقام الأول تبحث فى نشأة وتطور الحضارة العربية الإسلامية وهى لازمة لتأسيس أى عمل فلسفى جاد، تتبع ذلك دراسة فلسفات العصور الوسطى دراسة مقارنة مع الفلسفة العربية فلا نكتفى فقط بالمقدمات اليونانية بل بالنتائج، ومن الجذور تعرف الثمار "والثمار هى ما حصلته الفلسفة الغربية عن العربية" ويعى ماسينيون ذلك تماماً حين يتحدث عن سيجر دى برابنت Siger de Brabent[٢٤] وهو رئيس تلاميذ ابن رشد فى الغرب اللاتينى، ويتحدث عن تأثير الكلام والمتكلمين العرب من يهود ومسلمين على علم

(٢٢) ماسينيون ص ١٠.
(٢٣) ماسينيون ص ٢.
(٢٤) ماسينيون ص ٥٢.

الكلام عند النصارى شرح القديس توماس الأكوينى على ابن رشد[٢٥] وعلى الترجمات اللاتينية للمصطلحات الفلسفية الإسلامية أخذ الفلاسفة المحدثون: بيكون وديكارت وليبنتز وسبينوزا" فقد استخدموا الاصطلاحات اللاتينية المأخوذة عن العربية. بل إن المترجمين لهذه الاصطلاحات قد قلدوا مؤسسيها تقليداً أعمى"[٢٦].

(د) ويقرن ماسينيون الأصل اللغوى واليونانى بالإضافة إلى ترجمة اللاتينية بالمصطلح العربى المستحدث، فهو يتناول (الحدود) المصطلحات العربية بعد أن تم استقرارها فى عهد الفارابى، ويذكر مع كل مصطلح لأرسطو المصطلحات العربية عند إخوان الصفا والغزالى وابن رشد.

كل هذه الخطوات تضعنا فى إطار تاريخ الفلسفة أو تاريخ الفلسفة العربية إلا أن ماسينيون لا يكتفى بذلك بل يحاول أن يعرب مصطلحات الفلسفة الحديثة ليلائم بينها وبين مصطلحات الفلسفة العربية القديمة لهذا فهو يبحث فى المعنى المعاصر اللفظ مثل مصطلح النشوء والارتقاء المترجم عن Evaluation ، وينظر فى هذه الترجمة ليرى مدى ملائمتها.

وأخيراً يقارن بين هذه المترادفات المختلفة، لذا نجده قد بين كيف أن اصطلاحات هيجل فى المنطق تختلف عن اصطلاحات أرسطو. وأنه يوجد فى الهند مناطقة قبل تأسيس المنطق الصورى الأرسطى ذى المقدمتين والنتيجة[٢٧] وهكذا. ولما كانت محاولة ماسينيون تستعين بالتاريخ فيلزم الإشارة إلى ما سبقها من محاولات فى هذا السبيل.

وتتدرج المحاولات السابقة إلى: محاولات أقرب إلى النموذج والصورة التى يجتذبها ماسينيون ونعنى بذلك المعجم الفلسفى الذى أعد لالاند، أو محاولات سابقة تعد مصادر، يرجع إليها، وتكون المادة الأساسية لعمله مثل: رسائل أحوان الصفا،

(٢٥) ماسينيون ص ١٠٤.

(٢٦) ماسينيون ص ٣.

(٢٧) يمكن الرجوع إلى الدراسات المختلفة عن الفلسفة الشرقية خاصة ماكتبه بول ماسون أورسيل، محمد غلاب كذلك كتب تاريخ العلم والحضارة، سارتون، ول ديوانت حيث نجد التأكيد على وجود مثل هذا النظر العقلى (المنطقى) للشعوب الشرقية.

وتعريفات الجرجانى، وكتب اصطلاحات الصوفية المختلفة. وهناك محاولات سابقة أنجزت عن طريق غيره من المستشرقين مثل هورتن وآسين بلاسيوس.

فقد وضع لالاند (١٨٦٧-١٩٦٣) المثال والنموذج للعمل الذى يطمح ماسينيون فى القيام به. الالاند من الأساتذة الفرنسيين الأجلاء، قام بالتدريس فى الجامعة المصرية. وتخرج عليه العديد من أساتذة الفلسفة المصرية الذين درس لهم مع زملائه: بربيه، ربى، أسريتيه، وأرجييه وبوابيه كما يذكر د. محمد مصطفى حلمى فى تقديمه لترجمة محمود الخضيرى لمقال ديكارت عن المنهج[٢٨] وكذا يوسف كرم فى تاريخ الفلسفة الحديثة والفكرة الأساسية التى انطلق منها لالاند فى (المعجم النقدى الفنى للفلسفة) والتى ــ اعتمد عليها ــ ماسينيون فى مشروعه هى أن الحقيقة ليست نتاجاً لمفكر واحد بل تتكون وتتحدد بالتعاون والاتفاق بين العقول المختلفة كما يظهر فى الفقرة الثالثة من المحاضرة الأربعين "طريق الحق".

ويرجع إلى تعاون لالاند مع اكسافيير ليون Xavier leon قيام الجمعية الفلسفية الفرنسية بالعمل المعجمى يقول ماسينيون: "من التأليفات العامة التى نستفيد منها (فى المحاضرات) ما ظهر فى الجمعية الفلسفية الفرنسية فى ١٩٠٢ تحت عنوان Vocbulair Technique Critique Philosopgie وقد كان لالاند[٢٩] من أهم القائمين بالعمل ويضيف: "وقصدى أن أسلك فى كل باب من أبواب القاموس هذا الطريق"[٣٠]. كانت إذن أعمال الجمعية الفرنسية وجهود لالاند نموذجاً أمام ماسينيون لمعجم نقدى فلسفى أراد تأسيسه فى اللغة العربية، لكن من خلال مصادر أخرى أعطته المادة العلمية لصياغة خطته فما هى هذه المصادر؟

هناك العديد من الجهود التى بذلت فى هذا السبيل بعضها ذكره ماسينيون وبعضها الآخر لم يذكره، ويستخدم ماسينيون هذه الجهود كأدوات فى بحثه، يستمد منها مادته العلمية التى يفرط فى بيانها أحياناً بحيث تطغى على هدفه. وماسينيون

(٢٨) د. محمد مصطفى حلمى: مقدمة تقديم ترجمة الخضيرى لكتاب ديكارت "المقال فى المنهج" ط٢ دار الكاتب العربى بالقاهرة ص ٤٧.

(٢٩) Andrt Lalanda: Vocabulaire Technique et Critique De la philosophie, Presses Universitaires De France, 13e edition, 1980.

(٣٠) ماسينيون ص ٢.

على وعى بقيمة تلك الجهود "ليس عمل الاصطلاحات التى نريدها ببدعة إنما قد سبقنا إليها كثير فى الشرق وفى الغرب قد صنف القدماء والمحدثون فى الكتب فى مبحثنا شيئاً ليس بالقليل"[٣١] يذكر منها ماسينيون :

رسائل إخوان الصفا: التى يعتمد عليها اعتماداً أساسياً يذكرها فى كل محاضراته تقريباً وهو دائماً يقرنها بأرسطو بحيث يذكر المصطلح الأرسطى ويليه إخوان الصفا الرسائل مهمة إذن استخدمت فى العصور الوسطى وتهمنا فى مبحثنـــا، وكلها حدود كثيرة كدائرة معارف ويذكر أيضاً مفاتيح العلوم للخوارزمى وما بعد الطبيعة لابن رشد خاصة، فى مبحث الجوهر وبيان أصله اللغوى الفارسى واليونانى Ousia.

والجزء الأول من إحياء علوم الدين للغزالى (باب من ألفاظ العلوم) ويشير ماسينيوس إلى ما سيستخدمه من صفحاته فى الأحياء (من ٢٤ حتى ٢٩). ويستخدم أيضاً العديد من كتب الغزالى مثل: التهافت، المقصد الأسنى، معيار العلم.

ويلاحظ أن ماسينيون يركز على كتب التصوف كمصدر للمادة العلمية للمعجم أكثر من غيرها "فهى من الكتب التى لابد لنا من الرجوع إليها"[٣٢] والصوفية هم الذين أسسوا تقريباً علم الاصطلاحات. ومن كتبهم التى يشير إليها: التعرف على مذاهب أهل التصوف للكلاباذى والرسالة القشيرية[٣٣] وكشف المحجوب للهجويرى[٣٤] والشطحات لروزبهان البقلى[٣٥] واصطلاحات الصوفية لابن عربى[٣٦] والتعريفات للجرجانى والنجاة لابن سينا ويستشعر القارئ أن هناك

(٣١) نفس المصدر ص ٥.

(٣٢) ماسينيون ص ٦.

(٣٣) يعتمد ماسينيون هنا على الرسالة القشيرية وفى المواد التى كتبها بدائرة المعارف الإسلامية: خراز ــ الشبلى.

(٣٤) يذكره ماسينيون فى مواد: خراز ــ الشبلى ــ سهل التسترى ــ الترمذى ــ زهد ــ حلول.

(٣٥) انظر مادة الشبلى بدائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية جــ ١٣ ص ١٦٥، ومادة شطح.

(٣٦) انظر دائرة المعارف الإسلامية جــ٨ ص ١٨١ (زاهد)، جــ١٠ ص ٤٥ حيث يعتمد على الفتوحات المكية.

بعض المصادر التى لم يذكرها ماسينيون مثل: رسالة الحدود لابن سينا وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى، وكتاب أبى البقاء الحسينى الكفوى (الكليات).

ولا يكتفى ماسينيون ببيان الكتابات العربية التى تمده بالمصادر بل بذكر جهود الغربين من المستشرقين فى هذا السبيل، فهم وإن كانوا لم يؤسسوا قاموساً للاصطلاحات الفلسفية العربية حى وقتنا الحاضر إلا أنه يشير إلى اثنين منهما ذكر أنهما يقومان بذلك هما: آسين بلاثيوس المستشرقين الأسبانى الذى عنى بالبحث العلمى فى تاريخ الإسلام الروحى فى أسبانيا، وقدم دراسات مهمة عن ابن عربى والغزالى وابن حزم وابن مسرة. ولا ندرى إن كان أنجز ما أشار إليه ماسينيون أم لا؟ فلم يأت فى سيرته التى قدم بها د. بدرى ترجمة لكتاب عن ابن عربى أى ذكر لمثل هذا العمل[٣٧]. والثانى هو المستشرق الألمانى هورتن Horten (١٨٧٤-١٩٤٥)، الأستاذ بجامعة بينا والذى كتب عن "النظريات الفلسفية للفقهاء المتأملين فى الإسلام" اعتماداً على مصادر أصلية ١٩١٢"، و"فلسفة الإسلام فى علاقاتها بالنظريات الفلسفية بالجزء الغربى من الشرق" ١٩٢٤، والجزء الخاص بفلسفة الإسلام ــ الطبعة الحادية عشرة من كتاب أوبرفيج ١٩٢٧.

ومازالت المحاولات اللاحقة لعمل ماسينيون ــ والساعية نحو تأسيس معجم مصطلحات فلسفى ــ غير مرصودة، وإن كان هناك اهتمام أكاديمى منذ الخمسينات بعمل مثل هذا المعاجم. ويمكن الإشارة إلى المحاولات المبكرة مثل مصطلحات علوم الفلسفة الحديثة لأمين بك واصف[٣٨] أما المحاولات الأحدث، والتى أشرف عليها مجمع اللغة العربية فتظهر نواتها فى كراسة أصدرها المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمصر عن (المصطلحات الفلسفية) أعدها بدوى وزكى نجيب والفندى وعفيفى، وظهرت هذه النواة بعد ذلك فى المعجم الذى أصدره المجمع بإشراف د. الطويل وهو معجم خاص بالمصطلحات والمذاهب يبغى توحيد المصطلح دون التوسع فى التفصيلات أو الشرح أو التحليلات ــ مثله فى ذلك مثل المعجم الذى أصدره كل من يوسف كرم ومراد

(٣٧) د. عبد الرحمن بدوى: مقدمة ترجمته لكتاب بلاثيوس: ابن عربى، الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٥.

(٣٨)أمين واصف بك، مصطلحات علوم الفلسفة الحديثة، المجمع الملكى المصرى، القاهرة د. ت.

وهبه، والذى ظهر بعد ذلك أكبر حجماً باسم مراد وهبه منفرداً فى ضعف حجمه الأول[٣٩].

وهناك ترجمات لمعاجم وموسوعات فلسفية إنجليزية وروسية، الأولى أشرف عليها د. زكى نجيب محمود[٤٠]، والثانية ترجمة للقاموس الفلسفى الروسى قام بنشرها سمير كرم.

يضاف إلى ذلك بعض المعاجم الخاصة بموضوع أو فيلسوف بمفرده وهى أشبه بملاحق للكتب يخصصها أصحابها للموضوعات التى يعالجونها، **مثل ذلك** قاموس المصطلحات الهيجلية الذى أعده إمام عبد الفتاح فى العدد **الخاص** عن هيجل من الفكر المعاصر القاهرية وأيضاً فى المنهج الجدلى عند هيجل [٤١].

ثم هناك محاولتان أخريان يمكن الإشارة إليهما لاشتراكهما **معاً فى عدة** خصائص، الأولى محاولة جميل صليبا التى صدرت أولاً فى مجلة **المجمع العلمى** فى دمشق ثم اكتملت فى مجلدين تجاوزت صفحاتهم ١٤٨٥ صفحة[٤٢]، **والثانية** نجدها لدى الحبابى فى "المعين" وهو قاموس فلسفى حديث ظهرت بذوره فى أعمال مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة[٤٣]، وكلاهما يمتاز صاحبه بالباع الطويل فى العربية بالإضافة إلى ثقافته الفرنسية التى تظهر فى ثنايا العملين. وهناك أخيراً الموسوعة الفلسفية التى يضطلع بها د. بدوى والموسوعة الفلسفية العربية الى يصدرها معهد الإنماء العربى ببيروت وهى عمل ضخم فى ثلاثة مجلدات ظهر

---

(٣٩) قارن يوسف كرم، يوسف شلالة، مرار وهبة: المعجم الفلسفى، ط٣، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٨٠، القاهرة ١٩٨٠، راجع مقدمات وهبة لطبعات المعجم الفلسفى المختلفة.

(٤٠) Concise Encyclopedia of Western Philosophy and Philosophers. أشرف على ترجمتها وراجعها وأضاف إليها شخصيات إسلامية د. زكى نجيب محمود، والأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٦٣.

(٤١) د. إمام عبد الفتاح: دراسات هيجلية، دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٨٥ ص ٣٣٧ – ٤٠٦ والمنهج الجدلى الخاتمة، دار المعارف، القاهرة.

(٤٢) د. جميل صليبا: المعجم الفلسفى فى جزأين، دار الكتاب اللبنانى بيروت لبنان ط ٧١١ – ١٩٧٣.

(٤٣) د. محمد عزيز الجبابى: المعين فى مصطلحات الفلسفة والعلوم الإنسانية، دار الكتاب المغربى جـ١ ١٩٧٧.

المجلد الأول والثانى[٤٤]. بعد ذلك ينبغى علينا أن نتوقف أمام البنية الداخلية لعمل ماسينيون محاولين. قراء خطته الأولى من خلال العمل الذى قدم مبنين مدى اتفاقه مع المقياس الذى قدمه ماسينيوس نفسه.

١- بين المعجم والتاريخ :

إن مشروع ماسينيون الذى عرضه فى محاضراته هو محاولة فى دور التحقيق وعمل أولى وتحضير لعمل أكبر، ربما تكون أجزاء منه قد ظهرت فى كتابات ماسينيون اللاحقة بصورة أو بأخرى[٤٥]، إلا أنه بالنسبة لنا أملاً فى حاجة إلى التحقيق، فمحاولة "تأسيس قاموس عربى للاصطلاحات الفلسفية الشرقية والغربية" هدف وغاية وحلم، وإن كان لم يتحقق بعد فهناك محاولات عديدة فردية وجماعية نحو صياغة مثل هذا القاموس. وبالطبع فإن القاموس العربى للاصطلاحات الفلسفية ليس هو فقط القاموس المكتوب باللغة العربية مثل "المعجم الفلسفى" الذى أصدره مجمع اللغة العربية بفضل مدكور وإشراف د. توفيق الطويل. ولا هو القاموس المترجم الذى يضاف إليه أسماء الإعلام العرب: ابن سينا، ابن رشد، ابن خلدون.. إلخ"، "الموسوعة الفلسفية المختصرة" بإشراف د. زكى نجيب محمود. ولا هو المعجم الذى ينقل المصطلحات الفلسفية الغربية مع بعض آراء الفلاسفة العرب محتذياً القواميس الغربية أو متخذاً بعض المعاجم (معجم لالاند) مثالاً ونموذجاً كما نجد لدى صليباً ومراد وهبه. بل إن هذا الهدف والحلم والغاية مازال معجم فى طور التكوين ينطلق من اللغة العربية متخذاً وجهة نظر حضارية فى كل تاريخ الفلسفة، لا يكتفى بنقل المادة الغربية وترجمتها والتعليق عليها، بل هو نحت فى اللغة والفكر لاشتقاق مصطلحات جديدة كما نجد ذلك بصورة أولية لدى الحبابى.

فالقاموس العربى هو الذى يتخذ موقفاً موحداً من كل تاريخ الفلسفة ويملك رؤيته الخاصة والمحددة لكل المصطلحات الفلسفية بل وله مصطلحاته المختلفة،

---

(٤٤) معن زيادة (محرر): الموسوعة الفلسفية العربية معهد الإنماء العربى جـ ١ بيروت ١٩٨٦، والمجلد الثانى بقسميه، ١٩٨٨.

(٤٥) نخص بالذكر هنا دراسته (بحث فى نشأة المصطلح الفنى فى التصوف الإسلامى) باريس ١٩٢٢.

يبدأ من الأصول القديمة العربية التى حفظت لنا التراث الفلسفى اليونانى، ويبدأ من الأصول الغربية الى ترتبط بتاريخ الفكر الغربى. أى أن لهذا القاموس هويته العربية الحضارية التى تميزه. وهذا القاموس لم يقدمه لنا ماسينيون وإن كان يسعى إلى تقديمه وتحديد أطره فى هذه المحاضرات، والسؤال إلى أى مدى وصل ماسينيون فى سعيه نحو هذا الهدف؟ هذا ما سيتضح من بيان حدود هذه المحاولة وصلتها بالتاريخ.

لم يقدم ماسينيون معجماً أو قاموساً بل حدد طريق تأسيس مثل هذا القاموس فى محاضراته. وقد كان له فضل السبق فى إرساء قواعد اللغة الفلسفية لتكون أساساً بعد ذلك لمعرفة طلابه بالمذاهب الفلسفية. وحتى تتضح الصورة أكثر نتساءل ما هى هذه المحاضرات؟ وفى أى مادة كانت؟ وما الهدف منها؟ ومن المعلومات التى لدينا نعرف أن هذه المحاضرات القت بالجامعة الأهلية فى العام الدراسى ١٩١٢ – ١٩١٣ وبالتحديد من ٢٥ نوفمبر ١٩١٢ حتى ٢٤ إبريل ١٩١٣. وهى عبارة عن أربعين محاضرة فى الفلسفة ضمن ثمانية مقررات يدرسها طلاب الجامعة الأهلية حينذاك من بينها دائماً مقرران فى الفلسفة إحداهما محاضرات ماسينيون موضوعنا الحالى، والثانى هو ما كان يقوم بتدريسه طنطاوى جوهرى عن الفلسفة العربية وعلم الأخلاق.

وقد سبق ماسينيون فى التدريس بالجامعة المصرية وتلاه عدد، من الأساتذة المستشرفين والعرب أمثال: سنتيلانا (١٨٤٥-١٩٣١) ونللينو[٤٦] والكونت دى جلارزا[٤٧] وكذا سلطان بك محمد وطنطاوى جوهرى[٤٨] ثم فى فترة لاحقة أعضاء

(٤٦) سنتيلانا، مستشرق إيطالى درس بالجامعة الأهلية ١٩١١ "محاضرات فى تاريخ المذاهب الفلسفية".

(٤٧) الكونت دى جلارزا: مستشرق أسبانى، عاش بالقاهرة دروس لمدة طويلة بالجامعة الأهلية سنوات ١٩١٤ – ١٩٢٠ وبمدرسة المعلمين العليا بالقاهرة، نشر جزء من محاضراته فى كتابين عن الفلسفة العامة وتاريخها ١٨ – ١٩١٩، الفلسفية العامة وتاريخها ١٩ – ١٩٢٠.

(٤٨) سلطان بك محمد: درس بمدرسة الحقوق بالقاهرة وعمل مدرساً بدار العلوم ثم انتدب للجامعة الأهلية ومن كتبه: "الفلسفة العربية" و"الأخلاق" القاهرة ١٣٢٩هـ.

البعثة المصرية بعد عودتهم مثل على أحمد العنانى، ومنصور فهمى[٤٩]. ونتوقف عندما سبق ماسينيون من المستشرقين أغنى نلنيو وسنيتلانا ونشير إلى أن حصيلة محاضراتهما بالجامعة كانت نماذج من الأعمال المهمة هى: تاريخ المذاهب الفلسفية وهى دروس فى التعاليم الفلسفية ألقاها سنيتلانا حول العلاقة بين الفلسفة اليونانية والمذاهب الإسلامية بهدف التحقق مما اكتسبته كل فرقة من اليونان وكيف أفرغته فى قوالب الإسلام. مستخدما منهج التأثير والتأثر الأثير لدى المستشرقين مصدراً بعض الأحكام حول الفلسفة الإسلامية تحتاج إلى نقاش ومراجعة.

بينما قدم نللينو وكان له تأثير كبير – هو تأثير .. الجامعة على أدباء ومفكرى مصر فى هذه الحقبة المزدهرة – قدم "تاريخ الفلك عند العرب" ولكل من هذين العملين أهميتها هنا. يشير إليهما ماسينيون ويقتبس منهما فى محاضراته التى اتخذت معهما ذلك المنحى التاريخى، فهى تدور حول تاريخ المذاهب (المصطحات) الفلسفية فى الإسلام، وعنوانها تاريخ الاصطلاحات الفلسفية بالجامعة المصرية. وهو أستاذ تاريخ الفلسفة "الذى يقوم بتدريس مادة الفلسفة الحديثة" – المقصود الفلسفة العامة – كما يقول د. طه حسين الذى ألقيت عليه وعلى دفته هذه المحاضرات "فقد انتدبته الجامعة المصرية أستاذاً لتاريخ الفلسفة" فألقى بالعربية فى تاريخ المصطلحات الفلسفية أربعين محاضرة"[٥٠] أى أنه أستاذ تاريخ الفلسفة وتاريخ الفلسفة الحديثة ومحاضراته فى تاريخ المذاهب الفلسفية.

هذا هو الإطار والشكل العام للمحاضرات التى كان محتواها يتأرجح بين التاريخ والمعجم، أما عن التاريخ .. فالمقصود: تاريخ الفلسفة العربية، فهو يبين "الطريق الذى أخترناه لتبيان تاريخ الفلسفة العربية[٥١] ويقول: "المقصود من هذه المحاضرات إنما هو إيجاد طريقة فى تاريخ المذاهب الفلسفية" "وقد اخترنا أن

(٤٩) الدكتور منصور فهمى (١٨٨٦- ١٩٥٩) ولد بالدقهلية والتحق بمدرسة الحقوق العليا، وأرسل فى أولى بعثات الجامعة الأهلية إلى باريس للحصول على الدكتوراه فى الفلسفة وكانت عن "حالة المرأة فى الإسلام" عاد للتدريس بمدرسة المعلمين، وعين أستاذا للفلسفة بكلية الآداب ثم عميداً لها ومديراً لدار الكتب المصرية.

(٥٠) د. طه حسين: أستاذى وصديقى ماسينيون" الكتاب التذكارى لوفاة ماسينيون دار السلام القاهرة ١٩٦٢.

(٥١) ماسينيون؛ محاضرات ص ١.

نرجع فى تاريخ الفلسفة" ... أى أنه يؤرخ للفلسفة (العربية) من جهة وللمصطلحات الفلسفية من جهة ثانية (تأسيس قاموس فلسفى عربى" يقول: "وقصدى أن أسلك فى كل باب من أبواب القاموس هذا الطريق.."، "فالمحاضرات تتأرجح بين التاريخ والمعجم كما يتضح من عبارات ماسينيون نفسه الذى يبين أن الطريق إلى تأسيس هذا المعجم هو المحاضرات التى ذكرناها". ويمكن القول ونحن على قدر كبير من الصواب أن ماسينيون يحاول من خلال الفلسفة وتاريخها أن يعطى مادة تصلح أن يقوم نفر من طلابه بتنظيمها وترتيبها على حروف المعجم فيما بعد لصياغة قاموس فلسفى أشبه بالمعجم الذى وضعته الجمعية الفلسفية الفرنسية.

٢ – المادة والمنهج :

ذكرنا تأرجح ماسينيون بين التاريخ والمعجم، وتردده بين تاريخ الفلسفة العربية وقاموس المصطلحات الفلسفية، أى أننا فى الجزء السابق كنا بصدد الحديث عن الخطة التى كان يسعى ماسينيون لتحقيقها. وفى هذا الجزء سوف نتناول العمل الذى قام به بالفعل، أى نتجاوز الخطة الطموح إلى التحقيق الفعلى وإن كنا نود أن نشير إلى أن النص الذى بين أيدينا للمحاضرات لا يمثل ما قدمه ماسينيون تمثيلاً فعلياً، فقد أكمل ماسينيون الجزء الأخير للمحاضرات التى بدأها أحد تلاميذه بالجامعة المصرية، ومن هنا فإن بعض القصور قد يكون مرده إلى الطالب ــ كاتب المحاضرات ــ وليس إلى الأستاذ ومما يؤكد هذا الموقف من جانبنا أننا لم نعثر من المحاضرات إلا على صورتين لنسخة واحدة كتبها الطالب توفيق حامد المرعشلى[٥٢] إحداهما بمكتبة المعهد العلمى الفرنسى للدراسات الشرقية بالقاهرة والثانية بمكتبة الدكتور عثمان يحيى والتى وجدنا بها كثير من الإضافات التى جعلتنا نعتمدها معاً فى هذا العرض التوثيقى.

---

(٥٢) درس توفيق حامد المرعشلى بالجامعة الأهلية مع طه حسين وكانا تلميذين لماسينيون، والمحاضرات التى بين أيدينا هى حصيلة كتابته لمحاضرات ماسينيون. وكان ضمن سبعة حصلوا على الدكتوراه من الجامعة الأهلية، عمل مدرساً بالخديوية الثانوية. أول من أدخل درس التربية الوطنية بالمدارس المصرية عام ٢٥-١٩٢٦. كتب فى التاريخ والتعاونيات كتب عديدة.

لن نتناول العمل بالتعليق على المحاضرات واحدة تلو أخرى، ولن نلجأ إلى تقسيم المحاضرات إلى مجموعات بعضها خاص بمصطلحات المنطق والرياضيات أو الطبيعيات والحياة والنفس، أو الاجتماعيات والإلهيات، وتصنيفها وبيان حدود العمل وإنجازاته على الوجه التالى:

تتوزع الحصيلة العلمية بين نوعين من المواد هما: المصطلحات والأعلام وكلا النوعين لا يقتصر فقط على اللغة العربية بل يمتد إلى الفرنسية، ويمكن الرجوع إلى الفهارس العديدة فى نهاية المحاضرات التى وضعها ماسينيون حيث نجد الآتى: بالنسبة لأسماء المؤلفين (الأعلام) نجد فهرسين: الأوروبى صفحة ١١٣، ١١٤ والعربى صفحة ١١٥، ١١٦ ونلاحظ على هذا الفهرس الخاص بالأعلام ما يلى: الربط بين أرسطو وإخوان الصفا، الغزلى بسكال، برجسون والرازى. والفهرست الثانى للمصطلحات الفرنسية والعربية يقدم الأول تحت عنوان Table des technique en francais latin et gerc Vocabulaire des terms techniques de la philosophie en arabe. فى صفحات ١١٧، ١١٨، ١١٩ ثم الاصطلاحات العربية صفحات ١٢٠، ١٢٣. وكما هو واضح فإن العنوان الفرنسى لفهرس المصطلحات يشى بصلة ما بين مشروع ماسينيون وعنوان قاموس لالاند.

ويمكن تقديم الملاحظات الآتية على محاولة ماسينيون :

يتصف هذا العمل بأنه ليس قاموساً غربياً مضافاً إليه هوامش عربية، أى أنه فى الأساس محاولة نحت المصطلح الفلسفى العربى أو العثور عليه من خلال مادة تاريخ الفلسفة العربية. وهو قاموس غير منفصل عن الجهود الشرقية والغربية. فكما يذكر اليونان لا يغفل عن الهند فى صفحات عديدة[٥٣] ومع ابن قزمان من الأندلس يذكر عمر الخيام من فارس، ومع هيرودوت يذكر مؤرخ الصين sse ma taien ٢٠٠ ق. م. ومن هنا ضرورة قراءة متأنية للأعلام لا تقتصر على الفهرس بل تبنى أساساً على النص ذاته والسياقات المختلفة للأعلام داخله.

(٥٣) ماسينيون: محاضرات ص ١، ص ١٠١.

ويأتى فى المقدمة أرسطو الذى يحتل المكانة الأولى. ويذكره ستاً وستين مرة فى ثلاثين صفحة(٥٤)، ذكر بعضها ماسينيون فى الفهرس وأغفل ذكر صفحات أخرى أشار فيها إلى أرسطو بالفعل، وصورة أرسطو عند ماسينيون هى صورة صاحب الاصطلاحات الفلسفية المحكمة التى لم يعلمها الحمصى فى ترجمته لكتاب أفلوطين ومن هنا نسبه لأرسطو وهو مرتبط بمصطحات العدد والرياضيات والطبيعات وما بعد الطبيعة(٥٥). وهو يقابل هيجل الذى ذكره ماسينيون سبع مرات(٥٦) منها أربعة يقابل فيها بينهما، وحين يتحدث عن مصطلحات المنطقية يقرؤها عند أرسطو ويضيف استنتاجها فى مذهب هيجل يقول: وحدود المنطق بقيت على حالها ومؤسسها أرسطو، وهيجل هو أول من بدلها وغير فى أصول أرسطو(٥٧) أنها جزئيات من خواطر هيجل إلا أنها تعتمد على مبادئ أرسطو. ومن هنا نجد أن لغة ماسينيون كما يظهر من الإحصاء السابق أرسطية وليست هيجلية، يونانية وليست معاصرة فهو يتبنى الأرسطية مفهوماً واصطلاحاً ولا يتساوى ارسطو عنده بهيجل على الرغم من ازدهار الهيجلية فى تلك الفترة، فالكثير من المفكرين يرفضان هذه التسمية فقد: "أتى هيجل باستنتاج جديد يعتقد بصحته، وأن أكثر علماء أوروبا يعتقدون بهذا المذهب ولا يودون أن يسموا بالهيجلين".

ويبدو أن ماسينيون قد فهم هيجل خطأ، ذلك لأنه فهمه عبر أرسطو: فالمنهج الجدلى بخطواته الثلاثة "العدم، الوجود، الصيرورة (أسس على النظام المنطقى المعروف (الصورى) المقدمة الكبرى فالصغرى فالنتيجة" بل إن تجديد هيجل وانتقاده لمنطق أرسطو قائم على مبادئ أرسطو"(٥٨) وهو ــ أى هيجل ــ عنده من السفسطائية "مثل جرجياس الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وهيجل الذى عاش فى القرن التاسع عشر بعد الميلاد"(٥٩) وهو يتحدث عنه فى المحاضرة

---

(٥٤) يذكر ماسينيون ارسطو فى محاضراته صفحات ٢، ٤، ١٦، ١٩، ٢١، ٢٧، ٢٨، ٣٧، ٤٥،٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٩، ٦٢، ٦٥، ٦٦، ٧١، ٧٣، ٧٧، ٧٩، ٨٥، ٩٤، ٩٩.

(٥٥) المصدر السابق ١٩، ٢١، ٢٧، ٢٨، ٣٧، ٧١، ٧٣، ٧٧، ٧٩.

(٥٦) نفس المصدر ص ٥، ٧، ٨، ٥٤، ٧٩، ٧٧، ٨٦.

(٥٧) نفس المصدر ص ٧.

(٥٨) نفس المصدر ص ٨.

(٥٩) المصدر، نفسه ص ٥.

السادسة والعشرين عند الحديث عن (مذهب الإجبار الروحانى فى التاريخ (وما التاريخ عندهم إلا إيجاد العقل الكلى بنفسه، إلا أنه يجمع معه كل من ميكافيلى فى "قوة إرادة البرنس" واسبينوزا فى رسالة فى اللاهوت والسياسة(٦٠) وهو (هيجل) مع هيكل Haeckel من فلاسفة "وحدة الوجود" ويذكر معهما اسماً مغموراً تماماً فى تاريخ الفلسفة هو p. Carus مدرس فى شيكاغو — يرى وحدة الفلسفة لا وحدة الوجود"(٦١).

ماسينيون إذن أرسطى يفضل المعلم الأول على هيجل صاحب المثالية المطلقة، بل يفضله أيضاً على فيلسوف فرنسا الكبير ديكارت(٦٢) الذى يشيد به دوماً ويعطى له الأولوية. فهو يذكر عشرين مرة. ولديكارت بالطبع وضع أثير لدى ماسينيون يختلف عن غيره من الفلاسفة. فهو من الفلاسفة والرياضيين معاً مثل نصير الدين الطوسى(٦٣) وهو الذى اخترع الهندسة التحليلية وينسب ماسينيون نظرة الذرة لمؤسسها ديكارت(٦٤).

وديكارت هو الذى أضاف علة خامسة (العلة المنطقية) ولا يكتفى ماسينيون بالإشارة إليه فى مسائل الرياضية والهندسة بل يذكره أيضاً فى مسائل الحياة: فهو من "الآليون" الذين "يعتقدون أن المادة لها حركة ذاتية وأن الحياة حركة المادة". ومن الغريب هنا أن يقرنه بمواطنه وخصمه جاسندى(٦٥). وهو مع أفلاطون من الواقعيين القائلين بأن الإسم له وجود خاص خارج عن الشئ(٦٦). ويذكره أيضاً دون أن ينسب إليه مذهباً أو يعرض رأيه فى قضية، بل إنه يتناول أيضاً — حتى لو لم يكن من المهتمين بالموضوع الذى يعرض له كما جاء فى قوله: "أما فى

(٦٠) نفس المصدر ص ٦٩. وانظر ترجمة حسن حنفى لرسالة اسبينوزا فى اللاهوت والسياسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
(٦١) ماسينيون محاضرات ص ٧٧.
(٦٢) انظر صفحات ٢، ١٨، ٢٣، ٢٨، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٨، ٥٣، ٦٩، ٧٤، ٧٩، ٨٧، ٩٨، ص ٢٩، ٥٤، ١٠٥ حيث يذكره مرتين.
(٦٣) ماسينيون ص ١٨.
(٦٤) المصدر نفسه ص ٢٩.
(٦٥) المصدر نفسه ص ٣٧، ٣٨.
(٦٦) المصدر السابق . ص ٥٣.

الغرب فإنه غير موجود العقل المنفعل"[٦٧] وهو مثل النظام الذى يرى أن الإنسان هو الروح وهذا عين مذهب ديكارت. ومن الغريب أنه يعود فى المحاضرة السادسة والعشرين عن التاريخ ليجعل من ديكارت فيلسوف الإجبارى المادى مع مونتيسكيو وكومت وتارد وكروتشه وماركس مؤسس فلسفة مذهب الاشتراكيين[٦٨].

وديكارت الذى جعله ماسينيون من فلاسفة الإجبار المادى هو "واضع برهان الكمال"[٦٩] وهو القائل بالوضوح والتمييز والبديهى كيقين للعقل وهو الذى رتب العلوم على شكل الشجرة (تصنيف ديكارت للعلوم وحين يتحدث عن الفلسفة والمصطلح الدارج يجعل من ديكارت (الفرنساوى) رئيس مذهب جديد فقد نقل مفكراته Medidation (التأملات) وهى أصلاً باللاتينية إلى الفرنسية[٧٠]. ويقارن ماسينيون تلاميذ ديكارت بتلاميذ الأشعرى فى توسعهم فى مذهب الذرة"[٧١].

وبينما يهتم ماسينيون بأن يؤكد أن ديكارت هو مخترع الهندسة التحليلية وبأنه مؤسس مذهب الذرة الذى نجده لدى ديمقريطس وأبيقور ولوكريس وهى مسألة فى حاجة إلى نظر، فإننا لا نجد نفس الاهتمام لديه فى أن يعطى الأولوية والسبق لابن خلدون فى تأسيس علم العمران أو الاجتماع أو فلسفة التاريخ الذى يرجع إليه الفضل الأول فى طرح موضوعاتها وبيان مسائلها.

على الرغم من أنه يذكر ابن خلدون ثمان مرات، وهو عنده يقدم نوعاً من التاريخ العملى[٧٢] ويشير إليه عند الحديث عن اللغة فأهمية ابن خلدون لغوية (ص ٨٥، ٨٨). وتصنيفه للعلوم أساس الفنون السبعة فى أوروبا[٧٣] ويضع ابن خلدون بين الاعتقاديين مع كل من "ابن تيمية وابن القيم الجوزيه والإيجى والتفتازانى وابن خلدون"[٧٤]. على الرغم من أنه يشير إلى طلاب بالرجوع إلى المقدمة إلا أننا لا

---

(٦٧) المصدر السابق ص ٦٩.
(٦٨) نفس المصدر ص ٧٤.
(٦٩) نفس المصدر ص ٧٩.
(٧٠) ماسينيو ص ١٠٥.
(٧١) المصدر السابق ص ٦٨.
(٧٢) نفس المصدر ص ٨٥ – ٨٨.
(٧٣) نفس المصدر ص ٨٦.
(٧٤) نفس المصدر ص ٩٣.

نجد أية إشارة إلى تأسيس ابن خلدون لعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ، ولا بيان لأسبقيته فيهما، تلك المسألة التى تنبه إليها كثيراً من الغربيين. ولذا فإننا نلاحظ أن هذا الموقف من الفيلسوف العربى ابن خلدون الذى يتخذه ماسينيون (أستاذ علم الاجتماع الإسلامى بالكوليج دى فرانس – فيما بعد – (يختلف عن موقفه من ديكارت الفيلسوف الفرنسى الذى يجعله مؤسس للذرة وصاحب علة خامسة.

ولا يقتصر اهتمام ماسينيون بديكارت فقط من الفلاسفة الفرنسيين، بل يقدم لنا ما يقرب من ثلاثين فيلسوفاً فرنسيًا هم: رينان ويذكره (١٤ مرة). ويذكر برجسون "صاحب الكتب المشهورة فى علم النفس وغيره من علوم الفلسفة[٧٥] الذى جدد مذاهب الحيويين ببراهين جديدة فى زماننا ويذكره ١٢ مرة، فقد دقق فى بلورية العين[٧٦] وهو يقول مثل ابن عربى بالخلق كل وقت[٧٧] ويذكر أيضاً كومت Comte ثمان مرات وكذلك روسو الذى يذكره ستة مرات. ويتناوله فى مجالات بعيدة تماماً عن المواضع الذى يوضع فيه عادة، فهو يتحدث عنه فى حديثه عن الطبيعة والوجود ويذكره بعد أرسطو مباشرة "روسو الفرنساوى يستعمل الطبيعة بمعنى الحالة الأولى الصالحة من كل شىء مثل الإنسان الأول قبل التمدن والطفل قبل التعليم، ولكن بعد المخالطة بخرج من الطبيعة ويندرج تحت الفساد[٧٨]. وهذا الرأى أياً كانت مناقشتنا له إلا أنه أقرب إلى فلسفة التاريخ والسياسة منه إلى مباحث الميتافيزيقيا والأنطولوجيا وهو السياق الذى يستخدمه فيه ماسينيون. فروسو يتحدث عن تصور ما للطبيعة الإنسانية لكنه لا يبحث فى الطبيعة، فهو حديث عن العقد الاجتماعى الذى يفسره ماسينيون فى المحاضرة الرابعة والعشرين بأنه: "حياة الاجتماع نتيجة جهد العقول وأن الترقى الاجتماعى باجتهاد العلماء، (وتلك هى) نظرية الرابطة الاجتماعية عند روسو"[٧٩] وماسينيون يصحح هذا الفهم Conteact social ويجعله سبباً للحركة الفوضوية عند كربوتكين وباكونين[٨٠].

---

(٧٥) نفس المصدر ص ٤٥.

(٧٦) نفس المصدر ص ٤٦.

(٧٧) نفس المصدر ص ٧٢، ٥.

(٧٨) المصدر السابق ص ٢٧.

(٧٩) نفس المصدر ص ٦١.

(٨٠) نفس المصدر ص ٦٥.

ويذكر لا مارك ثلاث مرات ومثلها يذكر باستير وميخلسون وكوندياك ولوبون ويذكر مرتين كل من دور كايم وبوانكاريه وتارد، ثم يذكر كلا من جاسندى ودوهيم، وكلودبرنار وتين وفولتير وجويو وبوتروا مرة واحدة بالإضافة إلى ذكر العديد من العلماء الفرنسيين أيضاً حتى لو لم يكن لهم ذلك الوزن العلمى، فمع دارون ولا مارك وسبنسر (أصحاب نظرية التطور من الإنجليز والفرنسيين يذكر فاير Faure والأخير من علماء الحشرات يعيش الآن كفلاح فى جنوب فرنسا وله تجارب مهمة وتدقيق فى غريزة الحيوان من فصيلة الزنابير[٨١].

ويلاحظ أيضاً كثرة الاستشهاد بأعلام الصوفية وأصحاب الفلسفات الغامضة، فبالإضافة إلى استخدام المادة الصوفية والتركيز عليها نجد ذكر عدد كبير من المتصوفة والغنوصيين وأصحاب الفلسفات السرية أو الباطنية يذكر أخوان الصفا فى معظم صفحات النص (٣١ مرة) فهو يرجع إلى كتبهم (صفحات ٤، ٥، ١٨، ٢٣)، ويربط بينهم وبين أرسطو صفحات (١٠٤، ١١، ١٢، ١٥، ٣٧، ٩٤)، فهم أساس الرياضيات والموسيقى (ص ٢٣-٢٤) ولهم تعريفهم للطبيعة فى الجزء الثالث من الرسائل، وللهيولى والصورة (ص ٢٧-٢٨) والحركة (ص ٣٠) والنفس (ص ٢٣) والغريزة (ص ٤٦-٤٧) والعقل (ص ٥٠) ويورد ترتيبهم للعلوم (ص ٨٦) وتقبلهم الثنائية الطبيعة (ص ٩٤) ويقصد بها ثنائية تفسير الوجود عند أرسطو وهى المبادئ الأولى كالهيولى والصورة.

ويذكر الغزالى ٣٦ مرة فى معظم صفحات المحاضرات من الصفحة الأولى للأخيرة، يستشهد بمعظم كتبه بدأ من الأحياء وما فيه من ألفاظ تدل على معانى العلوم وتفيدنا فى بيان المصطلحات حتى "كتاب المنقذ من الضلال" الذى يعده ماسينيون "تاريخ أحوال النفس ويذكره فى حديثه عن فلسفة التاريخ"[٨٢].

ولايغفل عن ابى عربى ــ الذى يكتبه أحياناً ابن العربى ــ ويعتمد على مصطلحاته الصوفية (صفحات ٦، ٨، ٧٥) ويقارنه ببرجسون (٢٤، ٣٩، ٧٣) وهو عنده يقول بآراء الفلاسفة (ص٣٤) أى أنه من متفلسفة الصوفية يجمع بين

(٨١) نفس المصدر ٤٧.

(٨٢) المصدر السابق صفحات ١، ١١، ١٢، ١٣، ٢٧، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٦٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٨٠، ٨٦، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ١٠٥، ١١٠.

العقل والروح (ص ٥٢) ويتخذ منه ماسينيون مصدراً لمعرفة سهل بن عبد الله التسترى الذى ذكر فى الجزء الأول من الفتوحات المكية (ص ٥٠) وهو ـ أى ابن عربى باحث محقق يرجع البحث المنسوب إلى الغزالى فى "المضنون الصغير" إلى أبى على المسفر السبتى (ص ٥٣، ٩٣) يقول بوحدة الوجود والفناء المطلق (ص ٥٨، ٧٦، ١٠٥) ومن نتائج مذهبه "أن المعدوم شئ لأن المعدوم عين الموجود" (ص ٧٧) ومن تلاميذ: الصدر الرومى وعفيف الدين التلمسانى (ص ٧٧) رد ابن تيمية عليه (ص ٧٦، ٧٧) وتحدث ماسينيون عن نظريته فى وحدة الأزمان دون أن يسميها (ص ٨٠ ــ ٩٦) ويحدد موقعه فى تاريخ الفلسفة العربية (ص٣).

ويتحدث ماسينيون عن القشيرى ورسالته (ص ٦، ٥٧٦، ٢) وعن كتاب روزبهان والكلا باذى والعروسى والهجويرى[٨٣]. وابن برجان السلمى (ص ٦٢، ٩٣) وأبى سعيد بن أبى الخير (ص ٥٧) والحسن البصرى، وابن مسرة، والمحاسبى (ص ٩٢) وعبد القادر الجيلانى (ص ٩٣، ٩٦) وابن سبعين الذى يذكره خمس مرات صفحات (٤٩، ٧٧، ٩٣). وابن سالم والسالمية الذى كتب عنهما فى دائرة المعارف الإسلامية[٨٤] يذكرهما صفحات (٥٠، ٧٦، ٩٢) وأبى طالب المكى الذى يؤكد على أهمية كتابه[٨٥] وابن عطاء الله (ص ٥٢). ويذكر كل من النابلسى ثلاثة مرات (ص ٧٨، ٨٠، ٩٣) وكذلك الجنيد (٨، ٥٧، ٧٦) والكرخى مرتين (١٨، ٧٨) وابن القارض (٥٧، ٥٨) ثم الحريرى والحريرية والرفاعى (ص٧٨) والكاشانى (ص ٦) وابن حمزة البغدادى (ص ٥٦).

ولا يغفل عن اهتمامه الأساسى بالحلاج الذى يذكره عشر مرات[٨٦] كما يذكر أيضاً الحلاجية. فقد فرق الحلاج بين الإرادة (المشيئة) والأمر بالمعروف، الأمر غير مخلوق أم الإرادة مخلوقة (ص ٥٠). والحلاج شهيد المحبة وقتيل الاشتياق يعرض مذهبه فى الحب بعد الحديث عن ســتاندال فى كتـــابه الحب

(٨٣) المصدر السابق ٦، ٥٧، ٦٢.

(٨٤) ماسينيون: دائرة المعارف الإسلامية جــ١١ ص ٦٩، ٧٢.

(٨٥) الموضع السابق ص ٧١، جــ ١ ص ٤٥٢.

(٨٦) اخلص ماسينيون للحلاج، ورأى فيه صورة نفسه وكتب عنه دراسات عديدة أهملها رسالته للدكتوراه عن الآلام الحلاج ١٩٢٢.

De l'amour وعند أفلاطون فى المأدبة (النادى) وبعد أن يتحدث عن كتب ابن داود الأصفهانى ويستشهد بأشعار ابن الرومى وابن الفارض، وبعد أن يذكر المذاهب القديمة فى الحب ويعطيها أسماء غريبة مثل: مذهب طالع النجوم (تسديس أو تربيع) ليطليموس، و(الطبائع) لجالينوس والمغناطيس المذكور فى النادى (المأدبة) لأفلاطون يذكر الحب العذرى ويتوسع فى المحبة الصوفية متناولاً مذهب الحلمانين وهم قوم عباد للجمال ينظرون للوجوه الجميلة ويسجدون لكل صورة حسنة (ص ٥٦) نقف طويلاً مع مذهب الحلاج. والمحبة عنده ذات الإلهية ومحبة العبد للرب أفضل من الإيمان. ويذكر كثيراً من أشعار الحلاج فى الحب والحلول مثل قوله :

للــناس حــج ولى حــج عــلى سكنى تهــدى الأضاحى وأهدى محبتى ودمى

وقوله :

لــبيك لــبيك يـــا ســـرى ونجـــواى لــبيك لــبيك ياقصـــدى ومعـــناى
أدعــوك بــل أنــت تدعــونى إليك فهل نـــأديت إيـــاك أم نـــاديت إيـــاى

وهو يبين مذهبه فى أن (الأمر عين الجمع) (ص ٥٨) ويظهر ذلك من قولته المشهورة أنا الحق (ص٧٨) وهو القائل لكل حق حقيقة ولكل خلق طريقة ولكل عهد وثيقة (ص ٨٠) ويحدد ماسينيون له مكانته فى تاريخ الفلسفة العربية (ص ٩٢) ويقارن قياساته فى الطواسين فى التنزيه باب (١١) والحلول مع قياسات Ramon lull المتوفى سنة ١٣١٥[٨٧].

٣- بين الحقيقة الفلسفية الواحدة والفلسفات القومية المتعددة :

ومن بين التباينات العديدة بين ما أقترحه ماسينيون فى مشروعه وما قدمه بالفعل تأرجحه بين الميتافيزيقا والتجريب أو الوحداية والتعددية الذى ظهر فى التناقض بين القول بحقيقة فلسفية واحدة خالدة وبين القول بفلسفات قومية ودينية متعددة. لقد احتذى ماسينيون فكرة لالاند القائلة بأن الحقيقة نتاج العقول، وليست وقفاً على جهد فرد واحد، وبين ذلك فى خطته بأن مشروعه (القاموس) جماعى

(٨٧) ماسينيون: محاضرات ٥٨، ٧٨، ٨٠، ٩٢.

يصل إليه طلابه بالتعاون وأطلق على ذلك اسم طريق الحق كما يظهر من قوله: "إرادتنا مائلة إلى حال التأليف والصلح الحقيقى والاتفاق الجوهرى بين الأمم والأشخاص، أملنا أن نصير معاً من الاختلاف إلى الاتحاد الصحيح وطلب الحقائق مع نظام" يتضح ذلك من العبارة التى ختم بها محاضراته والتى تذكرنا بمذهب الحلاج وابن عربى فى وحدة الأديان وهى قوله: "جمعنا الله تعالى إلى الأبد فى تحقيقه وتصديقه واشتياقه سبحانه وتعالى"(٨٨).

وعلى الرغم من هذا الإيمان بالحقيقة الواحدة فالفلسفة كما تظهر فى النص الذى بين أيدينا تبدو مرتبطة بالأديان المختلفة أى دينية، وكذلك البلدان المختلفة أى قومية إن لم تكن عنصرية. فديكارت فيلسوف "فرنساوى" (ص ٢٧) وهو ينسب إلى العرب (ص ١٨، ٥٣) وكوندياك الفرنسى (ص ٢) ولا يقتصر ذلك على الفلاسفة الفرنسين فقط فترجعه إلى نوع من الحماسة العاطفية بل يفعل ذلك مع غالبية من يذكرهم من أعلام.

يذكر بوخنر الألمانى (ص ٣٨) وفندت Wundt الألمانى (ص ٨٧) وليبنتز الألمانى (ص ٩٨) والعالم الألمانى المستشرق ديترتيشى (ص ٥)، وهيجل أحد الفلاسفة الألمان (٧) وهيجل الألمانى (٨٦) وفلوجل الألمانى (ص ٦) وتظهر الغمزات العنصرية حين يذكر سبرنجر Sprenger الألمانى، عاش فى الهند وخدم انجلترا (ص ٦) وهورتن الألمانى (ص ٦) و ايسلر Eisler الألمانى (ص ٧) والفيلسوف الألمانى شوبنهور (ص ١١) وجورج كانتور، وهو فيلسوف ألمانى (ص ٢٠) وحقق الألمانى Wairstress (ص ٢٤).

كما يذكر أشهر المؤرخين الصينين (١٢٠) ومحمد بن أحمد أفندى الأسكندارنى ١٢١، والعلامة الأسبانى Ribera (ص ٨٩) واسين بلاثيوس وهو أسبانى (ص ٦) بالإضافة إلى اسبينوزا الهولاندى الذى يذكره صفحات (٢٧، ٩٨) ودى فريس الهولاندى (ص ٤٥) وفى مجال العلوم يذكر نظرية Sorenzl الهولاندى لونهوك (ص ٤٢). ويذكر بيكون انجليزى" (ص ٨٦، ٩٧) الإنجليزى

---

(٨٨) المصدر السابق ص ١١٠.

فور من دالب والفيلسوف الإنجليزى والاس Wallace (ص ٣٥) P. Carus مدرس فى شيكاغو، ودانتى "الطليانى" (ص١) ابن قزمان القرطبى والكلاباذى من كلاباذ (ص ٦) بلدة فى خراسان، وروزيهان البقلى وهو شيرازى (ص ٦) ابن مسرة القرطبى (ص ٩٢) وكذلك يتناول مذهب ديمقرايطس وأبيقورولو كريتس عند اليونان (ص ٣١) وفيثاغوريس أحد فلاسفة اليونان (ص ١١) وهو لا يكتفى بذكر الأشخاص فقط ونسبتها إلى قوميتها بل يتناول كذلك البلدان والأعمال المرتبطة بقوميته الخاصة. مثل: السنغال الفرنساوى (ص ٨٩)، و"دائرة المعارف الفرنسية" (ص ٨٦).

ولا يكتفى بربط الأعلام والأعمال بالقومية فقط، بل كذلك ينسبها إلى دينها: فأسبينوزا يهودى هولاندى (ص ٤٧) وبوئيوس رجل مسيحى (ص ١١) وابن جبيزول من أسبانيا، وهو يهودى (ص ٧٥) ويتحدث عن موسى بن ميمون فى اليهودية[٨٩] وأبيلارد فى النصرانية وابن سينا وابن رشد فى الإسلام (ص ٧٨) ويذكر الفرس الشيعة (ص ٨٨) ويحيى بن عدى فى النصرانية، وابن الحسين يهوذا اهللوى فى اليهودية، والأشاعرة فى الإسلام (ص ٧٨) والشيخان النحويان اليهوديان Jahuda Chayngy وأبو الوليد بن جناح (ص ٨٣) بل إنه يضع بين المتكلمين (علماء الكلام) سعيديا الفيومى اليهودى (ص ٥٢) بين الحكماء قسطا بن لوقا نصرانى، ويحيى بن عدى نصرانى، وعيسى بن زراعة نصرانى، وأبو أيوب جبيرول يهودى، وموسى بن ميمون يهودى وأبو الحسين يهودى، وشبلى شميل نصرانى (ص ٥).

وبعد هذا الوصف التحليلى لمضمون نص ماسينيون، علينا أن نتوقف قليلا إذا كنا نريد تطوير محاولته من أجل بناء (تحديد بنيه القاموس الفلسفى، وذلك من أجل بيان بعضس الملاحظات حول إيجابيات العمل، وأهم إنجازاته، وكذلك ما يندرج فى السلبيات، وما يجب تحاوزه، حتى يتضح فى أى اتجاه يكون التطور وإلى أى الجوانب ينبغى أن يقدم النقد :

---

(٨٩) المصدر السابق ص ٩٣.

ثالثاً ــ النقد والتطوير (السلبيات والإيجابيات) :

إن الوصف التحليلى لنص محاضرات ماسينيون لن يكتفى بعرض المشروع القاموسى، بل من الممكن، وهذا ما يطمح إليه أن يعيد بناء بالمشروع، هذا القسم ــ من الدراسة ــ هو نوع من إعادة البناء، أى إعطاء تصور كامل لسلبيات وإيجابيات المشروع ــ وفى إظهار الأولى والتأكيد على الثانية يمكن دفع المحاولة للإمام .. ولسنا نريد طرح أمنيات ومطالب إلى المؤلف والمؤلف فكلاهما تحدد مكانه فى تاريخ الفكرى، أى أنهما أصبحاً مشروعاً مكتملاً ومن هنا دورنا نحن، ولا نريد بالطبع التهميش على العمل أو الاجتهاد فى شرح المتن أو كتابة حاشية على الشرح أو التعليق على الحاشية والشرح. بل نهدف إلى إعطاء قراءة جديدة لها رؤية مستقبلية للقاموس الفلسفى العربى من أجل تطوير محاولة ماسينيون. ويتم ذلك بانتقاء بعض المواقف وإبراز ما إذا كانت إيجابية أم سلبية.

١- الإيجابيات :

(أ) **١- الاهتمام بقضايا معاصرة:** ويظهر ذلك فى إحساس ماسينيون بالواقع والتاريخ، أى أنه يمتلك كلا المحورين الأفقى والرأسى. فألم يتطور الفكر العربى الإسلامى من جهة، وهو على وعى بعمق الواقع الاجتماعى والسياسى العربى المعاصر له من جهة ثانية. لذا نجده يتناول العديد من القضايا المهمة التى تحفل بها حياتنا الفكرية، وإن كان يمر عليها مر الكرام خشية التوقف والتحليل وتقديم الحلول، يظهر ذلك فى العديد من المسائل التى أثارها: فهو يذكر مراكز المدنية الإسلامية فى العالم ودورها ــ وهى أشبه بالمراكز الثقافية للدول الآن ــ ويبين مدى انتشارها فى آسيا وأفريقية وأوروبا وأمريكا[٩٠] وهو ثانياً يشير إلى المحلات والدوريات الثقافية والفكرية ففى هامش جانبى صفحة (٩٧) يحيل القارئ إلى المؤيد أغسطس ١٩١١، وحين يتحدث عن المستشرق الألمانى هورتن، يشير إلى مقالة ترجمت له فى المؤيد منذ ثلاثة سنوات (ص٦)، كما يشير إلى مجلة العالم الإسلام المجلد السابع (ص ٩٧) وحين يتحدث عن هيجل ومؤلفاته يرجع إلى مجلة Revue des deus monds وكما يشير إلى دائرة المعارف الإنجليزية

(٩٠) المصدر نفسه ص ١٠١-١٠٣.

والفرنسية. وينطلق منها ليطرح قضية مهمة ملحة إلا أنه يتخذ منها مواقف متناقضة. وهى قضية اللغة العربية نكتفى هنا بإبراز مواقفه: الأول يتعلق بتفرقة رينان بين اللغات السامية والآرية، أو بين العقلية السامية والآرية، وقد بينا رأى ماسينيون فى أنه لا يوافق على بعض أحكام رينان. وإن كان عرضه لذلك تم بشكل غامض غير محدد، إلا أن وجهة نظره تظهر أوضح فى الفصل الذى كتبه فى كتابه مع "جب" "مصير الإسلام" حيث يقول: "إن ربط الحوادث المتتالية لتكون سلسلة يظهر فيها التطور وهو المنهج الذى الفناه أكثر من سواه هو (المنهج) الذى يندر وجوده بين المسلمين ... فلا جرم كان منهج المسلمين فى التاريخ ينزع غالباً إلى التجزئة لا إلى ربط الحوادث لتكون سلسلة متصلة الحلقات[٩١].

والمثال الثانى الذى يبين قدرة ماسينيون على أبرز المشاكل الدقيقة فى الفكر العربى المعاصر له يتمثل فى موقفه من مشكلة "اللغة العربية" العامية والفصحى، التى شغلت المفكرين والكتاب والأدباء العرب أمثال: عبد العزيز فهمى، ولطفى السيد، وجميل صدقى الزهاوى وسلامه موسى وغيرهم، ويتوقف ماسينيون طويلاً أمام هذه القضية بحكم دراسته، ويحولها إلى قضية فلسفية، يخصص لها المحاضرة السادسة والثلاثين بعنوان (الفلسفة والمصطلح الدارج). ويعرض لوجهة نظر جميل صدقى الزهاوى الذى يرى أن المستقبل للدارج (العامية) وذلك نتيجة من قوانين نشوء اللغات وتطورها، وأدلة ذلك عنده أن الدارج أوفق للتحليل من الفصيح وأن الدارج هو مرآة الواقع الفكرى والوجدانى ــ وبعد أن يبين الأسانيد التاريخية لرأى الزهاوى، وهو رأى أعتنق هو نفسه لفترة يرجع ثانية فى فقرة مهمة عن ضرورة اللغة العربية تحت عنوان "أنجال الشعوبية وعمومية اللغة العربية"، يتوقف عند هذا الرأى ويفنده برفق، فالعربية الفصيحة عامل توحيد تصل عن طريقها الأمة إلى عموميتها "فإذا تغلب الدارج على الفصيح تفقد الأمة عموميتها[٩٢].

(ب) الإشارة إلى المفكرين المعاصرين: إن وجود ماسينيون بمصر ودراسته السابقة بالأزهر، وانفتاحه على العرب مصريين وعراقيين وشوام ومغاربه عن طريق رحلاته وصداقاته، كل ذلك جعله على صلة بالحياة الفكرية والثقافية فى

(٩١) ماسينيون، جب: مصير الإسلام. محمد عبد الهادى أبو ريدة القاهرة ١٩٣٤ ص ٥.
(٩٢) ماسينيون: محاضرات ص ٩٨.

مصر داخل وخارج الجامعة وعلى بينه بنتاج الكتاب والمفكرين، يقرأ لهم، ويستشهد بآرائهم ويشير إلى أفكارهم، لا يقتصر ذلك على المصريين فقط بل غيرهم من العرب والمستشرقين فبالإضافة إلى إشارته إلى كتابات سنتبلانا ونلينو يذكر جميل صدقى الزهاوى كما يذكر توفيق صدقى[٩٣]، ويتوسع فى شرح نظريتهما ويعرض لشبلى شميل (صفحات ٤٣، ٤٤، ٩٤) ويشيد بعمله ويرى عمله شرح على بخنر نموذجاً للرسائل التى يجب أن ينقل على غرارها إلى اللغة العربية (ص ١٠٠) كذلك يعرض لفارس الشدياق – (ص ١٠٢) ومحمود شكرى الألوسى[٩٤] حين يتحدث عن معنى التاريخ (ص٦٦) ومحمد إقبال (ص ١٠٥) ويشير إلى كتاب الشيخ محمد شريف فى علم النفس (ص ٤٦).

كما يشير إلى كثير من الغربيين المعاصر له مثل p. Carus مدرس الفلسفة فى شكياغو. إلا أن ما يجب أن نتوقف عنده هو إشارته إلى عدد من الإعلام الذين قدموا إسهامات عديدة ومن الممكن إعادة كشف أعمالهم وبيان جهودهم مثل "توفيق صدقى" الذى يكتب عنه فى المحاضرات مضيفاً إلى ما كتبه الناسخ بخط يده ما يلى فى "حديثه عن النشؤ والارتقاء": "وصف مشكلات المبحث ومناقشة الأكثرين شبلى شميل وتوفيق صدقى فى زماننا هذا" مذهب توفيق صدقى فى الأعضاء الأثرية هو القائل بإبقاء النوع تغير صفاتها[٩٥] بالإضافة إلى ذلك يذكر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا (ص٩٣) والكواكبى (ص ١٠٣).

(ج) الاجتهاد فى الترجمة، وتقديم ترجمات خاصة به :

ففى موضوع "الحياة" ومصطلحاتها، المحاضرات من ١٥ حتى ١٨ نجده يقدم ترجمة صوتية لمصطلحات المذاهب الحيوية ينهج فيها نهج القدماء فى نقلهم

---

(٩٣) د. توفيق صدقى عمل فترة مع رشيد رضا، وكتب فى المنار حول تفسير الكتب المقدسة التاريخ الدينى والحديث (السنة النبوية) محاولاً تفسير هذا التاريخ تفسيراً اجتماعياً مما أوجد خلافاً بينه وبين رشيد رضا.

(٩٤) تتلمذ ماسينيون على الألوسى الذى افاده كثيراً إبان فترة وجوده بالعراق. انظر مقدمة تحقيق عدنان الدورى لكتاب الألوسى (إتحاف الأمجاد فى ما يصح به الاستشهاد) ص ١٧، ١٨، ٢١، ٢٥، ٢٨ مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٨٢.

(٩٥) ماسينيون محاضرات ، ص ٤٤.

للفلسفة اليونانية والأفغانى فى "الرد على الدهريين" فيتحدث عن: الميكانيسيم أى الأليون، والأروجانزيم أى العضويون، والفيتاليم أى الحيويون، وأحياناً لا ينقل النطق الأعجمى إلى حروف عربية، بل يجتهد فى أن يصل إلى ألفاظ عربية للمعانى الدقيقة النفسية والشعورية ففى المحاضرة التاسعة عشرة فى "معنى النفس" الإحساس، الفكر الإرادة يعطى قائمة بترجمة حوالى ستة عشر مصطلحاً فى معنى الإحساس فاللفظة Sensation يشتق منها جملة كلمات لكل منها معنى خاص بها نضع لها اصطلاحات عربية على قدر الإمكان مثل: حى، حساس، إحساسية، ثم يذكر من الاصطلاحات الخالصة بذلك فى علم النفس ما يأتى: انفعالات، عواطف. (نزعات) أهواء أوميول شعور، لا شعور، انتباه، هذيان، أنانية، ألفة، انشراح، ألم وغيرها (ص ٤٧، ٤٨).

(د) الوعى بتاريخ الفلسفة ــ يونانية ووسيطة وحديثة ومعاصرة: والذى يتضح فى تحديد خطوات منهجه السابق واستشهاده بالفلاسفة القدامى والمحدثين حسب الأهمية التاريخية والوظيفية لكل منهم. ويظهر ذلك أيضاً فى نزعة التأثير والتأثر التى تطغى على نص المحاضرات. فهو يتعمق تأثير الفلسفة الإسلامية على اليهود والنصارى خاصة تأثير ابن رشد على الأكوينى وسيجر دى برانت من جهة، وأثر المسلمين على التصوف اليهودى من جهة ثانية. ويظهر وعى ماسينيون بتاريخ الفلسفة فى عدة نقاط، منها: بيان التفصيلات الدقيقة داخل مذاهب الفلسفة المختلفة مثل قوله: توسع مذهب الذرة المقتبس من "ديمقريطس بين أصحاب الأشعرى كمثل توسعه بين أصحاب ديكارت، وكما تفرع ديكارت إلى مالبرانش واسبينوزا تفرع الأشعرى إلى الباقلانى وابن عربى"[٩٦].

كذلك يمتلك ما سينيون قدرة فائقة على الربط بين المذاهب المختلفة، فنظرية برجسون فى الزمان هى رجوع إلى نظرية محمد بن زكريا الرازى، والكشف (الحدس وإلهام) عند الغزالى مثل الكشف عند بسكال[٩٧]. ويبين انتقادات زينون للكثرة والحركة، ويوضح كيف تجاوز النظام ذلك إلى القول بالطفرة[٩٨].

(٩٦) المصدر السابق ص ١٠٥.
(٩٧) الموضع السابق، ويبدو أن زكى مبارك اعتمد فى رسالته للدكتوراه عن الغزالى على

(هـ) تنوع المصادر المستخدمة: يرجع ماسينيون إلى المراجع الأساسية التى يحتاجها بحثه سواء كانت غربية أم عربية، ويشير إليها وينقل عنها، ويذكرها. ومن هذه المصادر والمراجع: كتب أرسطو فى المنطق كلها، وكتب أفلاطون: المأدبة، الجمهورية والقوانين، ورسائل إخوان الصفا، ومقابسات أبى حيان التوحيدى وكتب الغزالى: الإحياء، المنقذ من الضلال، ومعيار العلم. وفتوحات ابن عربى المكية بالإضافة للكتب العلمية لداروين أصل الأنواع، وللامارك وشبلى وشميل وكتب الرياضيات عند فيثاغورس والبتانى والطوسى وثابت بى قرة واقليدس وغيرها.

وتوجد بالإضافة إلى الكتب الفلسفية والمنطقية والعلمية مصادر أخرى يشير إليها ويعتمد عليها توسع من الفهم الضيق لمعنى الفلسفة، فهو يشير إلى آيات القرآن، وكذلك الأناجيل، ويرجع إلى ترجمة نشيد الإنشاد، وديوان شعر المتنبى وابن الرومى وأشعار الحلاج، وكتب داود للأصفهانى وغيرها مما يجعل القارئ يشعر برحابة الفلسفة وعدم اقتصارها على المجردات والمقولات الفلسفية الخالصة. حيث يغلب على أسلوبه الثراء والخصوبة اللغوية التى تحل محل جفاف التجريدات.

(و) الاجتهاد فى التخريجات والنتائج: وتبرز النزعة الإبداعية الخلاقة ليس فقط فى الوعى بتاريخ الفلسفة ودقائق مشكلاتها ولا فى تناول القضايا المعاصرة والجراءة فى معالجها، ولكن اللمحات الخاطفة والحدوس السريعة التى تظهر بين الحين والحين مثل: "إن العرب لم يأخذوا النحو عن اليونان، بل إن إبداع عربى خالص وعلى الرغم من أن تلك حقيقة تاريخية إلا أن ميل المستشرقين إلى إرجاع كل إبداع لإبداع سابق، جعل إقرار ماسينيون لهذه الحقيقة لمحة خاطفة ذكية. ونفس الموقف يظهر بوضوح فى تفسيره لنشأة التصوف الإسلامى نشأة بيئية خالصة من عناصر إسلامية تعتمد على بعض نصوص القرآن وحياة النبى وأقواله وحياة الصحابة، دون رد هذه النشأة إلى عوامل خارجية سواء هندية فارسية أم

المقارنة التى عقدها ماسينيون بين الغزالى وبسكال. انظر زكى مبارك: التصوف والإخلاق عند الغزالى ط، مؤسسة دار الشعب، القاهرة.

(٩٨) ماسينيون: محاضرات ١٠٥.

مسيحية، يونانية فقد تحددت معالم التصوف كعلم للأخلاق والنفس قبل التأثر بالعلوم الدخيلة[٩٩].

وفى بيانه إسهامات البيرونى فى فلسفة التاريخ حدس مهم يجب أن يتابع، وتفسير كتاب الغزالى "المنقذ من الضلال" على أنه كتاب فى التاريخ: تاريخ تطور النفس قدرة تخريجية خلاقة، والإشارة إلى رأى توفيق صدقى فى التطور يجعلنا نضع يدينا على أنه أهم أعلام التيار العلمى فى الفكر العربى المعاصر مع شبلى شميل وإسماعيل مظهر وجميل صدقى للزهاوى[١٠٠] وإسماعيل أدهم وعصام الدين حفنى ناصف.

وبالإضافة إلى ذلك نجد الجرأة فى تناول "الاتجاهات الهامشية" فى تاريخ الفلسفة الإسلامية، وتعميقها تلك النزعات التى تستهوى أمثال ما سينيون وكراوس حيث نجده يشير هنا فى المحاضرات وكذا فى دائرة المعارف الإسلامية[١٠١] إلى ابن حائط ــ وابن يانوش والرازى الطبيب، ويتناول القائلين بالتناسخ فى الإسلام ويذكر الزنادقة الثلاثة: أباحيان والرواندى والمعرى وإن كانت الدراسات الدقيقة من الممكن أن تعطى أحكاماً أخرى فى هذه القضية وصورة مغايرة لهؤلاء تضعهم فى القلب من تاريخ الفلسفة.

وبجانب هذه المزايا والإيجابيات التى يمكن أن نضيف إليه إرجاعه إبداع الفلسفة اليهودية إلى فضل المسلمين، ومقارنته لإسهامات العرب مع الفلاسفة المعاصرين مع هذه الإيجابيات هناك العديد من الملاحظات التى تؤخذ على المشروع يمكن إجمالها فيما يلى:

٢- المآخذ والسلبيات :

(أ) التأرجح بين التصورات الفلسفية والمعرفة العلمية، والخلط بين الفلسفة والعلم: يفهم ماسينيون الفلسفة باعتبارها أم العلوم، وهذا صحيح تاريخياً،

---

(٩٩) المصدر السابق، وأبو الوفا التفتازانى: المدخل إلى التصوف الإسلامى.

(١٠٠) يحتاج أعلام التيار العلمى فى الفكر العربى إلى دراسات مستفيضة لبيان دورهم فى الفكر العربى المعاصر.

(١٠١) مثل مواد: زنديق ــ الزنج ــ الحلاج ــ شطح ــ حلول، بدائرة المعارف الإسلامية. انظر هامش ١١٦، الأصول الشيعية للأسرة المستوزرة بين الفرات، المتبنى والعصر الإسماعيلى فى الإسلام، كتب القرامطة. بحوث عن الشيعة المتطرفة فى بغداد.

ومن هنا تقسيمه للمحاضرات إلى محاضرات فى المنطق باعتباره المدخل أو إله الفلسفة أى الأورجانون. ثم يتناول الكليات العلمية وهى على التوالى: أصناف العدد، حساب المعلومات، والمجهولات (الجبر والمثلثات)، ثم السماء والدهر ويقصد بهما (المكان والزمان) أى نظريات الهندسة، ثم علم الموسيقى.

ويتناول فى الأربعة محاضرات التى خصصها "لمعنى الحياة": الحياة ومعناها، الأعضاء والتناسل، أصل الأنواع، النشوء والارتقاء من وجهة نظر عالم لا فيلسوف أى أنه يقدم لنا العلوم ذاتها خالصة بدلاً من فلسفة العلوم طبيعية كانت أم رياضية، ويذكر بالتفصيل العلامات الرياضية المختلفة. >، <، ⁻V، =، ـــ، +، Z

كما يذكر من اخترع هذه العلامات؟ ومتى اخترعت؟ واستعمالاتها(١٠٢) وهو حديث أقرب إلى العلم وتاريخه منه إلى الفلسفة ومذاهبها.

ويغرقنا فى الحديث عن: جيب الزاوية، وجيب التمام والظل، وظل التمام، القاطع، القاطع التمام، والسلسلة المائلة أو سلسلة تايلور، والقاسم المشترك الأعظم والمضاعف البسيط، والعدد المتناسب أو المحدود والغير متناسب أو الأصم، يغرقنا فى دقائق علم الجبر وعلم الحساب ويبعدنا عن الفلسفة. وفى المحاضرة السادسة عشر عن الحياة يتحدث عن الوظيفة والعضو ويذكر العديد من أسماء العلماء مثل برتلوط Bertlalt .، وكانتور وابقراط وجالينوس واقاطنيوس واسلبياد دى بتين وباستير ومنشكوف دون ربط جهودهم بمباحث الفلسفة. وفى المحاضرة السابعة عشرة نجد التوسع فى بيان نظريات وتجارب كل من لوينهوك، وبارى Parry ولوب وباستير وداروين ولامارك وكوفيير ومنديل ودى فريس وويسمان وريزك وينتج عن هذا الحشد إيهام بوفرة المعلومات ولا يعطى فلسفة وينشأ عدد من المغالطات.

(ب) فوضى المعلومات وغياب المنهج:

ينشأ عن الخلط بين العلم والفلسفة مغالطات نتيجة الحرص على تقديم مادة علمية كثيرة ومكثفة، ويؤدى بالتالى ازدحام المعلومات إلى الغرق فى التفصيلات

(١٠٢) ماسينيون : محاضرات ص ٢١.

على حساب الفكرة العامة أى التشتيت والتجزئ بدلا من التعميم والتركيز. ومن يطلع على النص يلمس بنفسه ما تحتوى عليه الصفحة الواحدة من أسماء الأعلام ومصطلحات العلوم والنظريات المختلفة، بل ويجد تفصيلات كثيرة فى الآراء المختلفة فيما يتعلق بأى علم من العلوم. فيذكر فى علم الأحياء أولاً معانيه فى اللغات المختلفة. ثم يذكر اختلاف العلماء فيه "اختلف الطبيعيون والمتكلمون فى معنى هذه الكلمة فاستعمل الغزالى فى كتاب المقصد الأسى" صحيفة ٦٣ – طبعة مصر" كلمة الحياة "ويصححها فى الهامش (الصفة الإلهية) بمعنى عام خلافاً لاستعمال علماء هذا العلم"[١٠٣].

ويبين ماسينيون معنى الحياة عند الانيميسيسم (النفسانيون) Animisme وفلاسفة هذا المذهب يعتقدون أن المادة الحيوية مركبة من سببين: [١] النفس، [٢] العناصر المادية. وأن هذا الرأى يوافق رأى أرسطو، وتبع أرسطو إخوان الصفا (الرسائل ــ جـ٢ ص ٣٣٢). وكتاب تبيان الأسرار الربانية فى النبات والمعادن والخواص الحيوانية لمحمد بن أحمد أفندى الإسكندرانى. وقد أنكر وجود النفس الحيوانية ديكارت وبخلافه فى ذلك ليبنز واستاهل. ثم يتحدث عن الميكانيسم (الاليون) ويعطى كماً هائلاً غير مترابط من المعلومات، فالآليون من الآلة، وهم الدين يعتقدون أن المادة لها حركة ذاتية وأن الحياة من حركات المادة. وهؤلاء قسمان: الذريون (القائلون) بالذرة المذهب الأول من المذاهب القديمة منهم انكساندر وجمماعة يونان، وكذلك جالينوس القائل بالاعتدال بين الأخلاص الأربعة وكذلك مذهب ديكارت وجاسندى من القرن السابع عشر و Buchmer بوخنر الألمانى المتوفى من نحو ٢٠ سنة[١٠٤]، ومذهبه واضح بكتاب النشوء والارتقاء ترجمه الدكتور شبلى شميل، وهو مذهب مادى محض.

ويذكر المذهب الثانى ويمثله أوستولد Astuold ولوب Loeb وبرتلوط Berthclat صاحب النجاب المشهورة فى تركيب المادة العضوية وجداول الأطعمة.. (بيان درجة تحولات القوى الطبيعية والكيماوية إلى القوة الحيوية على اختلاف الأطعمة!! ص ٣٨) ويتابع ماسينيون فى الصفحات التالية ٣٩ و٤٠، حيث

(١٠٣) المصدر السابق ص ٣٧.

(١٠٤) يرجع هذا التحديد إلى تاريخ إلقاء المحاضرات عام ١٢ – ١٩١٣.

يتحدث عن "تركيب الأعضاء عند المتأخرين من فلاسفة الإفرنج عبارة عن معمل متحرك فيه شغل لا يقف أو قوة محبوسة فى صورة محدودة من ضغط الأحوال الخارجية وهذه القوة تجتهد باجتهاد مستمر واحتزاز دائم وتجدد فى كل وقت بشرط اعتدلها الخارجى"(١٠٥).

ويتحدث فى الهندسة عن : [١] مصطلح علم الهندسة، [٢] والمكان القضاء لإقليدس وانتصار لوبتشفسكى Lobathewsky . مسألة التحويل (بقصد الديمومة) فى مذهب برجسون. مذهب انقباض الدهر فى تجارب ميكلسون Michalson.

وهو يفيض فى بيان هذه النظريات بشكل أقرب إلى العلم لا إلى الفلسفة ونفس الأمر نجده فى حديثه عن الموسيقى فى المحاضرة العاشرة.

ويلاحظ أن الحيرة تنتاب القارئ من الإغراق فى الجزئيات العلمية بدلاً من إعطاء التفصيلات فى الفلسفة نفسها، وبدلاً من تحرى الدقة فى مسائل تاريخ الفلسفة. إن طلاب الفلسفة المبتدئين يعرفون أن انكسماندر ليس من الذريين، وأن جماعة يونان اسم واسع فضفاض لا يعنى شيئاً محدداً. وإن طبيعة بحث ومنهج ومجال الطبيعيون يختلف عن المتكلمين، لكن كيف يسلك كل منهم؟ وما هى آرائهم المختلفة فيما نحن بصدده؟ وأين نجد هذه الآراء فى كتبهم، وما هى أهم نظرياتهم فى ذلك؟ هذا ما لم يوضحه ماسينيون. فهو بدلاً من ذكر فلسفة الدين ومكانها فى العلوم الفلسفية يتحدث عن الدين. وبدلاً من الحديث عن القيم أو فلسفات السياسية والتاريخ يتحدث عن جهود أشهر مؤرخى الصين Sse ma laien (٢٠٠ ق.م) الذى جمع من علوم النجوم كل حوادث الكسوف والخسوف لينشئ تاريخ للصين. وأن لكل سلطان من المغول من يكتب له تاريخه.

والإغراق فى تفصيل جزئيات العلم، والذى هو نوعاً من التعالم يؤدى إلى أخطاء أخرى تظهر فى بيان ماسينيون للمذاهب الحديثة فى فلسفة التاريخ، التى يدرج تحتها مسألة تقسيم العلوم التاريخية: (١) علم الآثار إما فى الفنون الجميلة وإما فى الصنايع وله أقسام: للنقود. والخواتيم والشعارات (والآثار الآن تخصص مستقل عن التاريخ)، (٢) ويتحدث عن علم الكتابات وعلم القرطاس) وهو أقرب

(١٠٥) ماسينيون : ص ٤٠.

إلى تخصص الوثائق والمكتبات منها للتاريخ (٣) علم الفرامين وتصحيح الإسناد أى المتون والشهود، (٤) علم الطقوس أى السنوات وعلم الأنساب، (٥) علم الجغرافيا التاريخية وعلم الأساطير.

(ج) تقديم معلومات خام أولية لا تخضع للتصنيف والتبويب والتحليل:

وتعطى صورة فضفاضة ليست محددة، يتضح ذلك بصورة جلية فى المحاضرة الثلاثين، حيث يبدأ ببيان معنى الدين عند نولدكه Noldeke ثم كانط الذى يقول: "أن الدين هو شعور الأمر الإلهى، ليس بواسطة العقل إذ أن العقل عنده ربما لا يوافق حقيقة الأشياء". ويعرض لرأى رينباخ S. Reinbach وهو على قيد الحياة الأن بقول فى كتابه أورفيوس أن الدين مجموعة وساوس وخيالات تمنع النفس حريتها ويضيف: "وهذا المذهب لايجب الأخذ به فى مصطلح الدين بل يجب الرجوع إلى آراء الدينين".(١٠٦) ثم يفيض فى تاريخ أساطير الأولين أو القصص الخرافى ويطلق عليه (علم تاريخ أدب العامة Falklare أى الأدب الشعبى بمصطلحنا الحديث. ويشير إلى كتاب الفهرست حيث نجد كثير من عناوين كتب الحكايات الخرافية الجن والعفاريت وغيرها، ثم يتحدث يتحدث عن جملة مذاهب فى أصل حكايات العامة بالتفصيل عند ماكس موللروكوسكين، وأندريه لانج Andre lang وسبنسر، وفولتير، واميرسون وكارليل، ثم يتحدث عن عمومية الحرمة (التابو) Tabou . ومثال آخر يظهر فى حواره مع آراء رينان (المحاضرة الحادية والثلاثون)، حيث يبدى لنا آراء رينان مجتزأة غير واضحة نستنتج منها فى احسن الفروض عدم الوضوح لدى ماسينيون نفسه. (كتب ماسينيون هذه المحاضرات وألقاها وعمره نحو ٢٩ عاماً ويحاول ماسينيون هنا محاباة من يحاضرهم بعدم عرض آرائه بالوضوح الذى يعرضه فى كتبه الأخرى التى يتبنى فيها آراء رينان فى العرب والعقلية السامية(١٠٧).

(د) ابتلاع العلم للفلسفة: ونتيجة أخرى يؤدى إليها خلط العلم بالفلسفة وهى ابتلاع العلم للفلسفة، التى تتضاءل وتتوارى أمام نظرياته المختلفة فماسينيون المفكر الذى يرى فى نظرية داروين مجرد افتراض قابل للنقاش يقول: "إن مذهب

(١٠٦) المصدر نفسه ص ٨٢.

(١٠٧) تقصد الفصل الذى كتبه فى كتابه المشترك مع هاملتون جب: "مصير الإسلام".

النشوء فرض محض ولو أن أكثر العلماء متمسكون ويعتقدون به، فإن العقل وهو آلة التمييز لا يمكن أن نفهم شيئا متصلا مطلقا (وهو النشوء) بواسطة شيء منفصل (وهو الاختلاف بين الأنواع)[١٠٨] ومع أن نظرية داروين مجرد افتراض وليست حقيقة مؤكدة فإنه يضخم من كل جزئية أدلى بها داروين، جاعلا منها نظرية كبرى، ويتوسع فى إطلاق لفظ مذهب أو نظرية على أقل اجتهاد. ففى كتابه أصل الأنواع ١٨٥٩، ومن مذهبه نشأت النظريات باصطلاحاتها: نظرية تنازع البقاء Struggle Farlife ونظرية الانتخاب الطبيعى Selection naturelle ونظرية بقاء الأصلاح "Surviance des plus aptes" ولا يكتفى ماسنيون بعرضها هنا فقط بل يستخدم هذه المادة مرة ثانية فى حديثه عن الأخلاق: "سنشرح هذه النظريات فى تاريخ الاصطلاحات فى دروس الأخلاق الاجتماعية والحقوق الدولية". ولو أن أكثر العلماء فى علم الحياة صاروا على مذهب النشوء والتحول إلا أنهم لا يعتقدون بالنظريات الثلاثة. ويضيف أيضا: إذا خرجت من الجسم الحى كل قوة داخلية على مذهب داروين فإن هذا الجسم يتقدم "نظرية البقاء للأصلح"[١٠٩].

(هـ) الربط بين الافتراض الفلسفى لفكره والتحقيق التجريبى لها :

بل ونسبتها ليس إلى أهم من قال بها فافتراض اليونانين للذرة عند أبيقور ديمقرايطس ولوكريتس يحول إلى حساب ديكارت فهو "مؤسس مذهب الذرة"[١١٠] ونظرية العقد الاجتماع التى يطلق عليها اسم "الرابطة الاجتماعية" يرجع إلى الفرنساوى روسو، وليست إلى الإنجليزى هربز أولوك ولا حتى اسبينوزا. هذا التضخيم لجهد الفلاسفة الفرنسيين من ماسينون يتفق مع الميل الغريزى للانحياز العرقى والجنسى والعنصرى.

وهذا الميل الغريزى يصبح فى حالة مفكر يزعم البحث ــ عن الحقيقة الكلية المجردة ــ التى تشترك فيها كل العقول الإنسانية ويتساوى أمامها كل الأديان ــ يصبح ميلا غير مقبول بالمرة. إن إبراز دور بعض المفكرين والفلاسفة يأتى على حساب إهمال البعض الآخر وينشأ عن ذلك إغفال متعمدة لجهود بعض العلماء

(١٠٨) ماسينيون المحاضرات ص ٤٥.
(١٠٩) نفس المصدر ص ٤٤.
(١١٠) نفس المصدر صفحات ٢٩-٣١-٣٨-١٠٥.

والمكفرين السباقين إلى الكشف والإبداع فى مجالات عديدة يظهر ذلك فى عرضه لابن خلدون الذى كان فى نظر ماسينيون مجرد لغوى فقط.

(و) الميل إلى تقديم مادة علمية مكثفة على حساب تحديد ودقة الفكرة:

ويؤدى ذلك إلى الانتشار ــ أكثر من التعمق وإلى العرض أكثر من التحليل ويكتفى بإعطاء معلومات دون تقديم بناء متكامل. ومن هنا يكتفى ماسينيون بتناول عناوين فقط، رءوس موضوعات، ولا يتسع له المجال للإلمام والإحاطة بجوانبها المختلفة، فهو يكدس العناوين وقد يصلح كل منها لعمل مستقل بل أحياناً تكفى جزئية من جزئياته لذلك نعطى مثالاً هنا بالمحاضرة الرابعة والثلاثين الذى يوحى عنوانها بذلك (رءوس المسائل ورؤساء المذاهب) فهو حين يقدم على عرض تاريخ للمذاهب الفلسفية العربية ــ لا يجد كتاباً فيه جدول يبين لنا خطوات النشوء، وتقدم الفلاسفة والحكماء لذلك فهو يختار لذلك كتاب الغزالى "المنقذ من الضلال، لحسن تأسيسه وهو دليل اليقين ومقياسه ثم يقسم هذا التاريخ تقسيماً من ثلاثة أقسام من السنة ٢٠٠ تاريخ هجرى إلى السنة ٥٠٠ ومن ٥٠٠ حتماً ٧٠٠ ومن ٧٠٠ حتى الآن ١٣١٩هــ ولنا على هذا التقسيم الذى يقترحه ماسينيون وعلى هذه المحاضرة[١١١] وهى مهمة للغاية ملاحظات هى :

١- يحاول ماسينيون تقديم تخطيط لتاريخ الفلسفة ويسميها الفلسفة العربية وليس الإسلامية ولذلك مغزاه عنده وإن لم يصرح به.

٢- الفلسفة تعنى العلوم العقلية وتشمل: علم الكلام والتصوف والحكمة (الفلسفة) والفقه. مما يجعله أحياناً بضع الفيلسوف الواحد بين (داخل) علمين من العلوم كأن يضع ابن الراوندى بين الحكماء (الفلاسفة) والباطنية الذين يطلق عليهم التعليمية (الزنادقة). وهذا توسع لا لزوم له حيث من الصعب أن نفرد عنماً خاصاً يسمى الزندقة أو حتى مذهباً للزنادقة. كذلك يفعل مع أبى عيسى بن اسحاق الوراق، والسهرودى الحلبى. وبينما يضع عربى "ابن عربى" بين الباطنية والصوفية يضع ابن سبعين والششترى بين الحكماء والباطنية والأفغانى بين المتكلمين والحكماء.

(١١١) المصدر السابق ص ١٠٥.

٣- يقدم فى هذه المحاضرة مراحل تاريخ الفلسفة وليس رءوس المسائل والمقصود بالمذاهب هنا ليس سوى العلوم الإسلامية المختلفة التى يخلطها أحياناً بالفرق: الباطنية، التعليمية، الزنادقة. ويخلطها أحياناً بخصائص العلماء الذين يطلق عليهم (الاعتقاديون) فنحن لسنا بإزاء مذاهب بل بإزاء أربعة علوم وفرقة من الفرق.

٤- تقسيم التاريخ إلى مراحل ثلاثة، هو تقسيم افتراضى يتجاهل البذور التى وضعت فى المائتى سنة الأولى من الإسلام (مرحلة التكوين والتأسيس والترجمة) والتى يعتمد عليها هو نفسه فى كتابات تالية فى تفسيره نشأة التصوف الإسلامى.

٥- اتخاذ التقويم الهجرى أساساً للقسيم التاريخ يتعارض أصلاً مع وصفه للفلسفة ــ وإطلاق لفظ عربية عليها ــ فهو لفظ إسلامى من جهة ويتناول العلوم الإسلامية بمعناها الواسع من جهة ثانية ومن هنا عليه تصحيح التسمية الخاصة بالفلسفة أو اتخاذ تقويم أخر.

٦- يخلط ماسينيون بين المجال (ميدان البحث) والمنهج (وسيلة التبحث) حين يتحدث عن الدليل (المنهج) عند المتكلمين هو التواتر والقياس والإلهام عند الصوفية، لكن حين يتحدث عن الحكماء يضيف العقل (مجال علم الوجود) وعند التعليمية يضع عصمة الإمام، وهما مبحثان أو مجالان للدراسة وليسا منهجين لها.

٧- تحتوى هذه المحاضرة التى لا تزيد على صفحتين فقط على نحو ثمانين أسماً من متكلمين وفلاسفة وصوفية دون حديث عن المذاهب أو غيرهما.

ثالثاً: التطوير والإكمال :

أن العرض السابق الذى يبين المشروع الماسينيونى الخاص بتاريخ المصطلحات الفلسفية العربية بجوانبه المختلفة. وكذلك عرض الملاحظات المختلفة حول المشروع لن يفى فى تحقيق القاموس المنشود بل حاول فقط رصد الهدف وجعله فى بؤرة الملاحظة من أجل قراءة جديدة ورؤية أخرى تعمق وجهة نظر عربية فى المشروع الماسينيونى. من أجل بيان كيفية رعاية البذور الخصبة فى

المحاضرات لتطوير الفكرة وإكمال المحاولة. ومن هنا نكتفى بعرض نماذج من الأفكار التى نستطيع بواسطتها تأسيس قاموس فلسفى عربى، وهى مهمة تحتاج جهد جيل كامل من الباحثين. وسوف أعرض هنا بعض البذور التى يجب الاهتمام بها اهتماماً خاصاً لأهميتها ليس فقط فى المجال الأكاديمى، وإنما تعد من وجهة نظر معاصرة موضوعات ذات أهمية حضارية- أى نستطيع من خلالها "خدمة التمدن بوجة عام بلغة ماسينيون" وهذه الموضوعات هى على التوالى:

١- إعادة كتابة تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية بصورته الشاملة.

٢- تصحيح، وإكمال صورة الفلسفة العربية الإسلامية، والتاريخ الفكرى العربى بتفنيد القراءات الغربية له، وإعادة القراءة العربية النقدية للمواد الفلسفية فى الموسوعة اليهودية التى تزيف كل تاريخنا الفكرى.

٣- إزالة الحواجز المختلفة المصطنعة بين الفلسفة العربية (التى تعتبر فى نظر البعض فلسفة تاريخية ميتة) وبين الفلسفة الحديثة والمعاصرة. ويمكن أن نضيف إلى هذه البذور أفكاراً عديدة مثل:

- استحدث مناهج جديدة غير تقليدية فى دراسة الفلسفة الإسلامية.
- التركيز على دراسة موضوعات معاصرة تظهر جوانب مجهولة من الفلسفة العربية الإسلامية.
- الدراسات المقارنة بينها وبين غيرها من فلسفات
- البحث فى أصل ونشأة وتطور المصطلحات الفلسفية. وهى دراسة مهمة لم يقترب منها ماسينيون بالرغم من أنها الهدف لمحاضراته.

(أ) الصورة الشاملة لتاريخ الفلسفة العربية الإسلامية :

لو تناولنا معظم الكتابات التى تؤرخ للفلسفة العربية الإسلامية نجدها غير مكتملة، نكتفى بناحية واحدة فقط، أو نعرض لاتجاه خاص ينطلق للتأريخ للفلسفة الإسلامية من خلال فرقة ما أو مذهب بعينه صابغاً إياه والفرق والمذاهب المخالفة بما يتبناه هو عقيدة أو مذهب، ويظهر ذلك فى مؤلفات المستشرقين التى تتناول تاريخ الفلسفة الإسلامية مثل كتاب هنرى كوربان، بالإضافة إلى نوعية ثانية أقرب ما تكون إلى المقدمات والتمهيدات مثل الكتاب المهم الذى رسم الطريق للتأريخ

للفلسفة الإسلامية "التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية" للشيخ مصطفى عبد الرازق وهناك تواريخ الفلسفة الانتقائية الجزئية التى تكتفى بإبراز نماذج معينة غالباً ما تقتصر على الأسماء الرئيسة فقط دون غيرها. و تطرق نفس الموضوعات والشخصيات المطروقة فلا نتناول سوى فلاسفة المشرق الكندى، الفارابى، ابن سينا، أو فلاسفة المغرب ابن باجة ابن طفيل ابن رشد. وأحياناً نضيف بعض الشخصيات إكمالاً للصورة فنذكر الغزالى وابن خلدون كما نجد ذلك لدى خليل الجروحنا الفاخورى فى تاريخ الفلسفة العربية. وهناك الدراسات التى نتناول الفلسفة فقط أو التى تكتفى بالتأريخ لمذاهب علم الكلام مثل كتاب عبد الرحمن بدوى "مذهب الإسلاميين".

وغالباً ما نتوقف عند ابن رشد أو ابن خلدون، وبعضها يمد التأريخ إلى فترة لاحقة ليصل إلى العصر الحاضر مثل ماجد فخرى فى "تاريخ الفلسفة الإسلامية". والبعض يكتفى بتناول ودراسة شخصية واحدة أو موضوع معين لدى هذه الشخصية مثل الطبيعة أو المعرفة عند ابن سينا، أو السياسة عند الطوسى أو الفارابى أو إخوان الصفا.

أما التعرض للمناطق الهامشية والشخصيات الخطرة فتلك المسألة أثيرت لدى المستشرقين إلا أنها تبعد بالموضوع أو الشخصية مدار البحث عن السياق العام لتاريخ الفلسفة لتضعه فى الهامش مثلما فعل عبد الرحمن بدوى فى "تاريخ الإلحاد فى الإسلام"، وعبد الأمير الأعسم فى "تاريخ ابن الراوندى" وغيرها. وتظل جزئيات وتفصيلات تاريخ الفلسفة مجهولة ومراحل الانتقال غير واضحة أو محددة، على الرغم من توقف الفلسفة بعد ابن رشد وظهورها بشكل واضح فى علوم مختلفة مثل: علم الكلام أو التصوف كما تشهد بذلك كتب أبى البركات البغدادى "المعتبر فى الحكمة" وكما نعرض لنا كتابات ابن عربى الفلسفة فى اكتمالها داخل غلاف التصوف.

ويظهر فضل ماسينيون هنا فى محاولته للتاريخ ولتأسيس القاموس ويتجلى ذلك فى نواحٍ عديدة مبتكرة وإن كان قد مسّها مساً ولم يتوقف عندها خاصة فى المحاضرة الرابعة والثلاثين. فيضيف أسماء جديدة ويلقى الضوء عليها، ويعتمد على كتابات قديمة يبتعد عنها المؤرخين، ويقارن بين جهود الفلاسفة العرب

والمسلمين وجهود غيرهم من اليونان والمعاصرين لا يفصل بين عصر وعصر، أو بين اتجاه واتجاه. لا يكتفى بأسماء محددة سلفا بل نجد أسماء جديدة تضاف إلى الأسماء المعروف فى تاريخ الفلسفة مثل: المعرى، أبى حيان التوحيدى، أبى كرام، يحيى بن عدى، سعيديا الفيومى، أبى الحسين البصرى، أبى عيسى بن الوراق، ابن زراعة، ابن الهيثم، ابن جبرول، ابن مسرة، القداح، ابن يانوش، الطوسى، الأبهرى، الكاتبى، ابن برجان، الدوانى، خواجه زادة، بهاء الدين العاملى، أمير دماد، صدر الدين الشيرازى، شبلى شميل، فضل الله الحروفى أكبر شاه، أحمد البحرانى، الباب، صبح الأزل، بهاء الله وغيرهم.

وجهد ماسينيون فى إضافة أسماء جديدة كانت هامشية أو منبوذة أو مصنفةً داخلَ أُطرٍ مختلفة يوسع من دائرة التاريخ ويجعله أكثر شمولية، ويظهر ذلك فى نقطة هامةً سنتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد، وهى احتواء تاريخنا الفكرى على شخصيات كثيرة استظلت بظله ونهلت من معينه الخصب، درست على أيدى أئمته بالمدارس والمساجد أيا كانت مواطن هذه الشخصيات أو دياناتها إلا أنها فى النهاية تنتمى إلى تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية أكثر من انتمائها لأى تأريخ آخر فقد أتاح التسامح الديمى والازدهار الحضارى والتفتح الفكرى لغير المنتمين إلى الإسلام أو العربية أن يصبحوا جزءًا من هذه الحضارة المزدهرة ويبدعوا من خلالها وبلغتها أهم تراثهم الفكرى ويذكر لنا التاريخ من هؤلاء: سعيديا الفيومى اليهودى وقسطاً بن لوقاً، ويحيى بن عدى، وعيسى بن زراعة، وأبو أيوب بن جبيرول، وحمزة الذرى، وأبو الحسن يهودى صاحب كتاب الحرزى، وموسى بن ميمون والأبهرى والكاتبى والدوانى وعلى القارى، خواجه زادة والقوقانى ابن كمال باشا، بهاء الدين العاملى وأمير داماد، ومحسن الفيضى وهم على التوالى فلاسفة ومفكرون يهود ونصارى وفرس واتراك. ومن الهند يذكر ماسينيون: كبير تانك، أكبر شاه، ويوسف النبهانى وهى، شخصيات تهم. طوائف دينية معينة حيث يكتب إسرائيل ولفنسون عن ابن ميمون، أو يؤرخ زكريا إبراهيم لكل من يحيى بن عدى، وابن زراعة، وللوارق فى كتابه عن أبى حيان التوحيدى، أو يؤرخ الفرس للأبهرى والكاتبى، الدواينى، والشيرازى، وأمير داماد وغيرهم كذلك يفعل الترك والهنود لمواطنيهم. هذا الاهتمام بالتاريخ الشامل للفلسفة الإسلامية ينقلنا للموضوع

الثانى، وهو عدم الاكتفاء بنقل وعرض تاريخنا والانعزال عن جذوره وتأثيرته والانطواء على الذات، بل يجب الحوار النقدى الدائم مع تاريخنا الفكرى العام بصورته الشاملة التى تحتوى جزئياته المختلفة، بحيث لا نهمل الفلاسفة الكبار ولا نتغافل عن دور المفكرين الذين عاشوا وانتجوا فى ظل الحضارة العربية الإسلامية مثل ابن ميمون مثلاً حتى لا نعطى الفرصة لبعض الكتب أن نحول التلاميذ إلى أساتذة ونقرأ فى إحدى الموسوعات كيف أخذنا نحن العرب عن ابن ميمون الفلسفة والطب وكيف تعلم كبار الفلاسفة العرب على يديه.

(ب) القراءة النقدية للمواد الفلسفية: فى دائرة المعارف اليهودية وغيرها من دوائر المعارف. فهذه الأعمال مليئة بالأغاليط عن الإسلام والعرب وتاريخهم وفلسفتهم وهى تملأ معظم الكتابات التى صدرت وتصدر عن الفكر والفلسفة العربية والإسلامية. والتى يحاول فيها الكتاب والمؤرخون الغربيون إضفاء نوع من العلمية على كتاباتهم التى يشهد كل ما فيها بالعنصرية. إن واجبنا العلمى وواقعنا التاريخى يقتضى إقامة حوار مع الغير والنفس؛ حوار حضارى فى المقام الأول[١١٢]. يلتزم فيه الباحثون الوطنيون بقضية الوطنية والهوية القومية إلى مناقشة للفكر اليهودى القديم والمعاصر ومواجهته حضارياً وكما تدرس الفلسفة الغربية فى العصور الوسطى فى معاهدنا وجامعاتنا علينا دراسة أفكار هؤلاء ومناقشة انتماء تهم المختلفة والقوى التى يعبرون عنها موضحين أهدافهم مظهرين أغاليطهم.

لقد أدرك ماسينيون فى محاضراته ببصيرة نافذة الدور الحضارى للفلسفة العربية الإسلامية، وأهميتها وتأثيرها على غيرها من الفلسفات سواء الغربية فى العصور الوسطى، وتأثيرها على الرشديين اللاتين توماس الأكوينى وسيجردى برانات. أم تتلمذ الفلاسفة اليهود العرب على المسلمين فى بغداد وقرطبة والأندلس والقاهرة. إن القيام بالدور الذى قام به علماء الفرق الإسلامية الذين تناولوا بالدرس والتحليل والنقد الفرق غير الإسلامية هو أحوج ما نحتاج إليه، إن مواصلة جهد

(١١٢) راجع دراستنا "دى بور والأخلاق الإسلامية" وتحليلنا لمنهج المستشرق الهولندى دى بور، وكذلك الأخلاق عند ابن رشد وتحليلنا لموقف الباحث الأمريكى اليهودى لورانس بيرمان فى كتابنا "دراسات أخلاقية" دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١، ص١٣ وما بعدها، وص ٢٠١ وما بعدها.

الشهرستانى وابن حزم والبيرونى هو الدور الذى ينبغى علينا القيام به من أجل تصحيح تاريخنا الفكرى. وتوسيع هذا المنظور الضيق لتاريخ الفلسفة العربية الإسلامية يقتضينا إزالة الحواجز، الحواجز ــ التخصصية وغير التخصصية ــ بين الفلسفات قديمها وحديثها وعقد المقارنات بين مراحلها المختلفة وموضوعاتها المتباينة أى النظرة المتصلة لتاريخ الفلسفة.

(ج) النظرة المتصلة لتاريخ الفلسفة: وإزالة الحواجز بين عصورها المختلفة: القديمة والوسيطة والحديثة والمعاصرة، بل إننى أزعم أن مثل هذه النظرة مقدمة لتاريخ شامل للفلسفة لايقتصر على بلد معين مثلما فعل متز فى تاريخه للفلسفة الإنجليزية فى مائة عام أو جان فال وينروبى فى تاريخهما للفلسفة الفرنسية، أو لوسكى فى تاريخ الفلسفة الروسية، بل يجب علينا كتابة تاريخ للفلسفة يشمل كل التيارات، وتمثل فيه الفلسفة الإسلامية نسيجاً أصيلاً بحيث لا يكتفى المؤرخ بذكرها هامشياً فى أقل من فصل واحد ــ لا يتجاوز عشر صفحات ــ مع الفلسفة اليهودية كما فعل رسل فى كتابه عن تاريخ الفلسفة العربية.

وقد قدم ماسينيون بذوراً صالحة تماماً لذلك فى المقارنات العديدة التى توجد فى كل صفحات المحاضرات. فمع أرسطو نجد إخوان الصفا، ومع الأشعرى وتلاميذه نجد ديكارت وتلاميذه، ومنهج الكشف عند الغزالى هو عينه منهج بسكال، ولا ينقل النظام عن منهج اليونان بل يستخدمه ويوظفه للقول بالطفرة: "فى المنطق: قياس أخيلس والسلحفاة عند زينون شكله فى فلسفة النظام الطفرة (أى النجاة بالعمل عن الاستحالة العقلية). ونجد قياس الكذب من أهل كريت (مغالطة السفسطائية) نجدها فى رد جعفر بن حرب ت ٣٤٨ على الثنوية .. "راجع البدء للمقدسى". ونجد اعتراضات ابن الصائغ على بطليموس. ومقارنة نظرية برجسون فى الزمن مع نظرية محمد بن زكريا الرازى. بل إن أفكار بعض التناسخية مثل ابن يانوش وابن حائط تقترب من مذاهب الروحيين. ومذهب وحدة الوجود عند ابن عربى نجده عند الغربيين وهكذا.

وبالطبع نحن لا نقصد تصيد فكرة من هنا تشبه فكرة من هناك، بل ننبه إلى أن العرض المعاصر للفلسفة الإسلامية قد يجد موضوعات مهمة أكثر حيوية وحداثة بين طيات الألفاظ والمصطلحات التقليدية القديمة، والدراسة الخاصة

بالمصطلح الفلسفى نشأته وتطوره منذ اللفظ اليونانى المنقولة للعربية أو السريانية، ثم تحديد هذا المصطلح وبقائه أوهجره ونسيانه، وتطور هذا المصطلح وارتباطه بتطور الترجمة، ثم استقراره مع بداية الإنتاج الفكرى العربى الإسلامى فى جوانبه المختلفة هو المقدمة الأساسية للمشروع المستقبلى الذى يتناول الألفاظ ودلالتها الحضارية مثلما فعل الفارابى وهى مسألة ربما تتجاوز تاريخ الفكر إلى الواقع السياسى نفسه. ونقصد بالمبادرة هنا مشاركتنا مرة أخرى فى الإسهام الفلسفى بحثاً وإبداعاً ودراسة وتاريخاً، أى قيامنا بالعمل ثانية وتحولنا من مشاهدين إلى مشاركين من مستهلكين إلى منتجين. فقد قام المستشرقون فترة طويلة من الزمان بالعمل على مادة جاهزة خاصة بنا تولوها بالعناية والتحقيق والدراسة فى نطاق حضارتهم هم واهتمامتهم العلمى والسياسى والاستعمارى خدمة لأنفسهم، إلا أن ما قاموا به من عمل وما توصلوا إليه من نتائج تعبر عن واقعهم الخاص واهتماماتهم الذاتية، خدمة لأهدافهم التى تختلف عن أهداف الباحثين الوطنين لقد انتجوا وأبدعوا على هامش كتاباتنا القديمة مثلما فعل ديتريشى على إخوان الصفا. "رسائل اخوان الصفا طبع بمباى ثم طبع منها مقتبسات العالم الألمانى ديتريشى Dieterici فصحح الطبعة الهندية وجمع اقتباسات فى مجلدين". وصحح فإن فلوتن (مفاتيح العلوم للخوارزمى لبدن ١٨٩٥. وكتاب كشف المحجوب للهجويرى ترجم إلى الإنجليزية ـ وطبع باجتهاد العلامة المستشرق نيكلسون Nichalson فى مجموعة جب وكتاب ابن العربى فى اصطلاحات الصوفية طبعه فلوجل الألمانى على هامش كتاب التعريفات للجرجانى. وكتاب الكاشانى طبعة Splenger هذا ما ذكره ماسينيون المستشرق الفرنسى، الذى عمل بدوره على كتابات الحلاج ويمكن أن نذكر العديد من الأعمال الأخرى للدلالة على قيام المستشرقين بالعمل على مادتنا القديمة واكتفائنا نحن بالقراءة وعلى تمكنهم من الإلمام بتراثنا وغيابنا نحن عن الساحة.

وقد آن الآوان الآن للمسح الكامل لتراثنا وإعادة اكتشاف المخبوء ومداومة تحقيقه ونشره وإبراز مواطن القوة فيه وعرضه بالطريقة الجديرة به ولتكن تلك البداية الحقيقية للباحث الوطنى الذى يمعن فى الإلمام بالمناهج المعاصرة من أجل فهم وإحياء المادة القديمة تحقيقاً للرؤية المستقبلية للفكر العربى.

الكونت دى جلارزا :

والمنهج النقدى فى درس الفلسفة

مقدمة :

نتناول هنا جهود أستاذ أسبانى كبير، من الذين شاركوا فى تدشين الدرس الفلسفى المعاصر فى العربية. هو الكونت دى*جلارزا Grualarza الذى ظل لسنوات عديدة يقوم بتدريس الفلسفة فى الجامعة المصرية القديم السنوات ١٩١٤ - ١٩٢٢ وكذلك فى مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة بعد ذلك.

وقد شارك كل من : نللينو C.A.Nallino (١٨٧٢-١٩٣٨)، الذى قام بتدريس "علم الفلك وتاريخه عند العرب" ١٩٠٩ وسنتلانا D.Santllana (١٨٥٥-١٨٣١) الذى درس "المذهب الفلسفية العظمى" وسلطان بك محمد أول من درس "الفلسفة العربية والأخلاق" عام ١٩١٠-١٩١١ فى العام التالى تولى التدريس كل من: لويس ماسينون L.Massignon (١٨٨٣-١٩٦٢) صاحب :الإصطلاحات الفلسفية فى الجامعة المصرية" وطنطاوى جوهري، الشيخ الحكيم، الذى وصل تدريس "الفلسفة العربية والأخلاق" ١٩١٢-١٩١٣ ثم تولى جلارزا تدريس التخصصين الأساسيين فى الفلسفة بالجامعة المصرية معا وهما "الفلسفة العامة وتاريخها" و"الفلسفة العربية والأخلاق" منذ ١٩١٤ وحتى عودة المبعوثين المصريين من الخارج منصور فهمى وعلى العنانى واستمر فى التدريس أيضا بعد عودتهم من بعثاتهم.

أن البحث فى الدرس الفلسفى عند جلارزا هو بيان صورة من صور التعاون العلمى العربى الأسبانى وبيان صفحة هامة مجهولة من صفحاته، حيث لأسبانيا فضل على الفلسفة العربية، ولا يتمثل هذا الفضل فى الحفاظ على التراث الفلسفى المتعلق بفلاسفة المغرب والأندلس بحثا وتحقيقا بالإضافة أيضا إلى اهتمامهم الكبير بفلاسفة المشرق لكن فضلها يظهر جليا فى قيام واحد من ابنه ابنائها بالتدريس فى الجامعة الأهلية القديمة بمصر، وكان له التأثير الكبير على من درس عليه ممن صاروا فيما بعد أعلام الفكر والثقافة والأدب والصحافة فى العالم

العربى مثل: طه حسين ومى زيادة وزكى مبارك وجرجى زيدان الذين افاضوا فى بيان مأثره وفضله.

فمن هو الكونت دى جلارزا؟ وما هى جهوده العلمية الأكاديمية تأليفا وتحقيقا ؟ وما منهجه فى الدرس الفلسفى فى الجامعة مقارنة بغيره من الأساتذة؟ وهذا يتطلب منا بيان وتحديد لمعالم الدرس الفلسفى فى الجامعة الأهلية القديمة فى مصر وتطويره وبيان مكانة الكونت دى جلارزا فيه.

محاضرات جلارزا فى الجامعة المصرية :

لقد ظل جلارزا الأستاذ الأسبانى يدرس فى الجامعة المصرية محاضرات كل من ؛الفلسفة العامة وتاريخها" و؛الفلسفة العربية والأخلاق" لفترة أطول من الفترة التى قام بها كل من نللينو وسانتلانا وماسينيون وسلطان بك محمد، وطنطاوى جوهرى مجتمعين. وحفظ لنا ارشيف الجامعة عدد كبير من هذه المحاضرات، وإن كنا لم نعثر بعد على كل محاضراته التى ألقاها، فقد وفقنا فى العثور على بعض مؤلفاته وعلى نصوص من محاضراته تعطينا صورة واضحة عما قام بالفعل بتدريسه: المحاضرات، وموضوعها، محتوياتها، مصادرها، بنيتها المنهج النقدى المتبع فيها. وهذه المحاضرات هى: ؛تاريخ الفلسفة العامة" ١٩١٥-١٩١٦ وهى تدور حول الفلسفة اليونانية والرومانية بعد أفلاطون وتبدأ بصغار الأفلاطونيين. وكذلك محاضراته عامى ١٨-١٩١٩، ١٩-١٩٢٠ فى الفلسفة العربية والأخلاقية وفى الفلسفة الحديثة.

ويهمنا لإعطاء صورة كاملة عن جهود جلارزا الإشارة إلى محتويات هذه الدروس. وتبدأ بمحاضرات عام ١٥ – ١٩١٦ التى تدور حول تاريخ الفلسفة اليونانية.

الفلسفة اليونانية :

ويتناول جلارزا فى هذه المحاضرات الموضوعات التالية :

مقدمة فى صلة هذه المحاضرات بالدروس السابقة وطريقته فى تناول الموضوع.

- الأفلاطونيون: هراقليطس البنطيقى، سبيوسيبوس زينوقراطس الخاليكدونى، الأكاديمية المتوسطة، أرخيلاوس، كاريناس، الأكاديمية الحديثة، فيلون اللايرسى، انيتوخوس.
- أرسطو: حياته ومؤلفاته، المنطقيات، الفلسفة الأولي، الطبيعيات، الأخلاقيات، السياسات، البلاغة والصنعة، المختصر الفلسفى لمذهبه، انتقاد مذهبه، المشاؤون.
- الرواقيون الأولون: المنطقيات، الطبيعيات، الأخلاقيات، المختصر الفلسفى لمذهبهم، الانتقادات، روقيو الجيل الثانى بانيتيوس، سيدونيوس، رواقيون الجيل الثالث :

سينكا، الرسائل الفلسفية فى الطبيعيات، فى العناية أو علم الله بالمستقبل، المختصر الفلسفى لمذهبه

ابيكتيوس، مذهبه، المختصر الفلسفى لمذهبه، انتقاده.

مرقص أورليوس، حياته مؤلفاته، المختصر الفلسفى لمذهبه، انتقاد مذهب.

- الابيقوريون: ابيقور والأبيقوريون: القانونيات، الطبيعيات، الأخلاقيات، المختصر الفلسفى لمذهبهم، انتقاد مذهبهم.

ويتضح لنا من موضوع هذه المحاضرات عدة حقائق وهي:

١- أن الفلسفة اليونانية كانت جزء من الفلسفة العامة وتاريخها، وهى من أول الدروس التى ألقيت فى إطار تاريخ الفلسفة، فما قدمه سانتيلانا فى محاضراته وكذلك ماسينيون هى دروس فى قضايا فلسفية وليست فى تاريخ الفلسفة، قدم الأول فى محاضراته فلسفات اليونان التى عرفت لدى فرق الإسلام، وخصص الثانى محاضراته للاصطلاحات الفلسفية[١].

٢- تفترض هذه المحاضرات التى ألقيت ١٩١٥ - ١٩٦١ وبدأت بصغار الأفلاطونيين أن هناك محاضرات تسبقها عام ١٩١٤ - ١٩١٥ تحتوى على تاريخ الفلسفة اليونانية منذ بداية نشأتها وحتى أفلاطون وهو ما يتضح من حديث جلارزا. والسؤال هل دونت هذه الدروس أم لم تدون؟ وهل هناك

(١) رجع دراستنا عن ما سينيون وتحليلنا لمضمون ما قدمه من محاضرات فى "رؤية مستقبلية للقاموس الفلسفى العربي: تقديم وتطوير محاولة ماسينيون" مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٤٨ سنة ١٩٨٨ "ص١ :٥٣ وكذلك دراسة الصوفى والسياسى ضمن أعمال ندوة ؛قراءة ثانية فى أعمال ماسينيون" بالقاهرة مارس ١٩٩٩م.

صورة لها تبين موضوعاتها وما ألقى فيها؟ والأمل معقود فى العثور عليها يوما ما حتى تتضح بدايات تدريس الفلسفة والموضوعات التى تطرق إليها الأستاذ الأسبانى فى دروسه.

٣- والنص المتاح بين أيدينا، والذى يبين أول صورة لتاريخ الفلسفة اليونانية فى العربية، له أهميته الكبرى فى بيان الموضوعات والتطور فى مراحل تناولها، والمنهج المستخدم فى دراستها. ويبدو أن الدروس قد كتبت بخط جلارزا نفسه، الذى يعرف اللغة العربية، وألقى بها محاضراته. وهى مطبوعة "استنسل"، ويبدو أنها كتبت على مرحلتين الأولى يعرض فيها الموضوعات على الترتيب المشار إليه سلفا ، والثانية إضافات وملاحق على نفس الموضوعات فى القسم الثانى من المحاضرات، وهذا يعنى أن جلارزا قد أعد الدروس سلفا قبل إلقاء محاضراته ثم إضاف إليها أثناء الدرس أو وهذا هو الأقرب إلى الترجيح أنه تم إلقاء موضوعات هذه الدروس على سنتين متتاليتين والملاحق إضافات العام التالى.

٤- تعطى هذه المحاضرات صورة أولية لتاريخ الفلسفة اليونانية، وتتناول الموضوعات والقضايات والمراحل والأعلام التى ستظهر فيما بعد لدى كل من أرخو للفلسفة اليونانية مع الأختلافات التى ترجع إلى المرحلة التاريخية والتوجهات الفلسفية لمن قاموا بالتأريخ مثل: يوسف كرم، الأهوانى ومحمد على أبوريان وأميرة حلمى مطر ومصطفى النشار وحربى عباس، وغيرهم.

* ثم تأتى محاضرات العامين ١٨-١٩١٩ و ١٩-١٩٢٠ فى موضوعات :الفلسفة العامة وتاريخها" و:الفلسفة العربية والأخلاق" والتى طبعت بمطبعة السعادة بالقاهرة، فى كتابين كل منها يتناول محاضرات عام دراسى يشمل الموضوعات التى درست فيه. وتوضيحا لجهود جلارزا الفلسفية سنعرض دروسه فى كل تخصص على حدة فنعرض للفلسفة العربية أولا من خلال محاضرات العامين الدراسيين معا، ثم محاضرات الأخلاق وأخيرا محاضرات الفلسفة العامة وتاريخها، التى دارت خلال نفس هذين العامين حول تاريخ الفلسفة الحديثة ثم نتناول بعد ذلك فهمه لطبيعة ومعنى الفلسفة ثم منهجه النقدى فى دراستها.

الفلسفة العربية :

تشمل محاضرات الفلسفة العربية التى وجدناها، والتى تبدأ عام ١٩١٩/١٨ على: أولاً الفارابى ويظهر من مقدمة المحاضرات أن الأستاذ الأسبانى تناول الفارابى والسابقين عليه فى محاضرات سابقة - ربما تكون دروس ١٦-١٩١٧؛ أو دروس ١٧-١٩١٨ وهو يتناول موضوع المحاضرات بطريقة محددة حسب منهجه الذى سنشير إليه حيث يبدأ بمقدمة عامة حول "معنى الحكمة" وبيان موضوع المحاضرات، ثم المصادر التى يعتمد عليها ويشير إليها للطلاب تحت عنوان؛ إشارات كتبية" ثم يقدم لنا ملخص مبسط لموضوع الدراسة ثم عرض تفصيلى تحليلى يقوم على قراءة النصوص مع التعليقات والشروح اللازمة ثم ملخصا أخيرا ثم نقدا نهائيا للفيلسوف، وهو هنا يعتمد على تحليل كتاب الفارابى ؛آراء أهل المدينة الفاضلة"، ويضيف بيانا ختاميا باسماء اتباع الفارابي. ثم يتناول ثانيا مسكويه بنفس الطريقة، ويحلل كتابه ؛تهذيب الأخلاق" مشفوعا بتعليقات كثيرة فى كل صفحة تسعى معظمها لرد أفكاره إلى أصول يونانية لدى أرسطو فى الأخلاق إلى نيقوماخوس، وأفلاطون فى السياسة والنواميس وغيرها من محاورات عرفت فى العربية.

وتدور محاضرات العام التالى ١٩-١٩٢٠ على فلسفة ابن سينا التى يعرض فيها بعد الإشارة إلى حياة الفيلسوف ومؤلفاته، لرسالته فى أقسام العلوم العقلية ليبين لنا فهمه للفلسفة وعلومها النظرية والعملية، ثم يتوسع فى بيان مذهبه الفلسفى كما يتضح فى كتاب "النجاة" الذى هو مختصر لموسوعته الفلسفية "الشفاء"، ويخبرنا أنه سوف يعتمد على الملخص ؛النجاة" حيث يبدأ أولا بالجزء المنطقى ثم ينتهى بالطبيعيات ولا يتناول الإلهيات. وواضح أن هناك بقية للمحاضرات ولا ندرى إن كان قد ألقاها أم لا؟ فليس لدينا من النصوص أو الوثائق ما يشير إلى ذلك، ولكن بنية وترتيب موضوع المحاضرات يوحى لنا بأن لها بقية.

وإذا تصفحنا المحاضرات سواء من البداية أم النهاية أم الإشارات والتعليقات التى يقدمها لنا على امتداد صفحات النص الموجود بين أيدينا لاتضح لنا وجود محاضرات سابقة عليها يشير إليها جلارزا كما يتضح من قوله ؛نرجع اليوم بإذن

الحكيم إلى أبحاثنا فى الفلسفة العربية[٢]. فهذه المحاضرات إذن عودة إلى ما سبق من دروس فى نفس الموضوع، والحقيقة أنه قد سبقها عامين دراسيين، فالأستاذ يطلب من طلابه أن يقرءوا "ما طبع من دروس السنتين الماضيتين"[٣] لأنها تمهيد لما سيذكره فى محاضرات هذا العام.

وموضوع الدروس السابقة التى طبعت كما يؤكد جلارزا تدور حول: نشوء الحكمة عند العرب، ومصادرها، ونسبتها إلى الإسلام، والفرق الكلامية ومذهب أخوان الصفا والكندي، والفارابى خاصة فى كتابيه "ماينبغى أن يقدم قبل تعلم فلسفة أرسطو" و"عيون المسائل"[٤].

وبالإضافة إلى هذه المحاضرات - التى لم تصلنا كاملة - فإن نجيب العقيقى يذكر له فى الإشارة المقتضبة التى أشار بها إليه فى الجزء الثانى من كتابه "المستشرقون" المؤلفات التالية، فلسفة الإسلام والغربيون، ومنهج السالك لأبى حيان. ويشير لنا جلارزا نفسه فى المحاضرات إلى كتاباته عن الغزالى[٥]. ومن هنا نفهم إشارة زكى مبارك له فى دراسته الأخلاق عند الغزالى.[٦] كل هذا يوضح اهتمامه الكبير بالفلسفة العربية الإسلامية التى رجع إلى نصوصها الأصلية فى كتابات الفلاسفة أنفسهم سواء مطبوعة أم مخطوطة. بالإضافة إلى الدراسات المختلفة حول هذه الفلسفة فى اللغات الأوروبية المختلفة وهو ما يظهر بوضوح فى قائمة مصادره مثل: دى بور: "تاريخ الفلسفة فى الإسلام" بالألمانية، ومونك "أمشاج من الفلسفة العربية واليهودية"، ورينان "ابن رشد والرشدية"، وكار دى فو "ابن سينا بالفرنسية" وغيرها.

يحدد جلارزا صاحب أول درس فلسفى دقيق فى الجامعة المصرية فى مقدمة محاضرات ١٨-١٩١٩ موضوع درسه وأنه استمرار لمحاضراته السابقة فى الفلسفة العربية، ويبدأ بالفارابى وكتابه ؛آراء أهل المدينة الفاضلة" لبيان أساس

(٢) الكونت دى جلارزا: محاضرات فى الفلسفة العربية، نشرة د. أحمد عبدالحليم عطية، دار النصر للنشر والتوزيع، القاهرة، "ص٥".
(٣) الموضع السابق.
(٤) الموضع نفسه.
(٥) نجيب العقيقي: المستشرقون، الجزء الثاني، دار المعارف بمصر، ص٢٠٣.
(٦) زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي، دار الشعب، القاهرة.

مذهبه موضحا منهجه في عرض أفكار الفيلسوف من خلال تحليل أهم نصوصه. ويعرض للفارابي وحياته ومؤلفاته المختلفة. ويلاحظ نزعة التوفيق في فلسفته بين أرسطو وأفلاطونيي الجيل الثاني ويحيل في هوامشه إلى أصل أفكاره لدى هؤلاء.(٧)

يوضح الأستاذ الأسباني المتعمق أعمال الفارابي في بداية حديثه عن "أراء أهل المدينة الفاضلة" وأنه يتشابه مع كتاب "عيون المسائل" للفارابي أيضا ويزيد عنه بتناول القضايا السياسية والأخلاقية، وإن كان يرى أن "عيون المسائل" أوجز وأحكم تأليفا ، ويعلق جلارزا في عرضه لكتاب الفارابي – في الهامش – على نظرية الفيلسوف الكامل والنبي ويربط بين آراء الفارابي في إمكانية وجود رئيسين للمدينة الفاضلة وبين واقعة تاريخية حدثت في خلافة الراضي بالله (٩٣٤-٤١م) وهو أول خليفة أوجد رتبة أمير الأمراء واضعف بهذا سلطته، وكان أول من تقلدها ابن رائق التركي. يقول جلارزا: "ولعله أشار بالرئيسين إلى أمير الأمراء التركي الحكيم والخليفة الذي فيه الشروط الباقية للملك"(٨). وإن كنا نحن لا نستطيع أن نحكم إلى أي مدى كان ابن رائق حكيماً وبعد تناول آراء الفارابي يعرض مختصر مذهبه ثم نقده. فالفارابي يتحدث عن الإنسان كعقل مفارق مجرد يطلب اللذة الدائمة، وكونه يطلب مع التجرد لذة دائمة فهو طمع إذا أن اللذة لا تدرك على الدوام إلا بواسطة الألم (ص٤٤) ويرى أن غاية الفارابي تشبه غاية أرسطو، ونظرية العقل المستفاد لبعض المشائية وشيء من نظريات الأفلاطونيين ثم يشير في النهاية إلى اتباع الفارابي مثل: يحيى بن عدي والسجستاني.

ويتناول في القسم الثاني من محاضرات نفس العام مسكويه فيعرض لحياته وكتبه بإيجاز، ومحتويات "تهذيب الأخلاق"، فيقدم تعريفه للنفس وقواها واجناس الفضائل ثم يذكر الفضائل المختلفة، ثم يعرض المقالة الثانية في الخلق، والثالثة الخير والسعادة، والرابعة ظهور الفضائل ممن ليس بسعيد ولا فاضل، والعدالة،

(٧) يرد جلارزا أفكار الفارابي إلى أفلاطون صفحات ٣٦، ٣٧، ٣٩ خاصة في محاوراته: السياسية والنواميس وطيماوس ويشير إلى أفلوطين صفحات ٢٣، ٤٥ وأرسطو صفحات ٢٥، ٢٧، ٣٩، ٢٢، ٤٥ والكندي صفحات ٢٧، ٢٩، وانكسمندر، ص٢٦، وكلها بالهوامش.

(٨) جلارزا: الفلسفة العربية، ص٣٦.

والمقالة الخامسة فى التعاون والاتحاد والسادسة دواء النفوس والسابعة رد الصحة على النفس، ثم المختصر الفلسفى لأخلاق مسكويه ونقده.

ويخصص الرائد الأسبانى محاضرات ١٩٢٠/١٩ لفلسفة ابن سينا حيث يعرض بعد مقدمة قصيرة لحياته ومؤلفاته ويوضح فهمه للفلسفة من "رسالة فى أقسام العلوم العقلية" ويحلل بالتفصيل محتويات كتاب "النجاة" الذى يتكون من ثلاثة أقسام: الأول فى أصول المنطق، والثانى فى الطبيعيات، والثالث فى الإلهيات. ويعرض فقط فى محاضرات هذا العام للقسمين الأوليين ويبدأ بالمنطق الذى هو الآلة العاصمة للذهن من الخطأ فى كل تصور وتصديق. ثم بعد أن يتناول المصطلحات المنطقية المختلفة: التصور والتصديق، اللفظ واللفظ المركب، والذاتى والعرضى، يذكر الكليات الخمسة: الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام، ومعناها ثم القضية والحد والقياس والبرهان وبعد أن ينتهى من ذلك يتناول الطبيعيات.

يعرض للمقالة الأولى من الطبيعيات، ويبدأ بمقدمات العلم الطبيعى، والأجسام الطبيعية،، والمقالة الثانية فى لواحق الأجسام الطبيعية: الحركة والسكون والزمان والمكان والخلاء والتناهى واللاتناهى، ويعرض بإيجاز للمقالة الثالثة فى الأمور الطبيعية وغير الطبيعية للأجسام، والرابعة فى الإشارة إلى الأجسام الأولى. فى نصف صفحة والخامسة فى المركبات والسادسة آخر وأطول المقالات "فى النفس".

يعرف النفس وأنواعها وقواها المختلفة،، ثم النفس الناطقة "الإنسانية"، ويوضح ذلك بالجداول المختلفة، ثم الإدراك والقوى، المدركة والفروق بين هذه القوى، ثم اثبات حدوث النفس، وأن النفس لا تموت بموت البدن، وفصل فى بطلان القول بالتناسخ، وآخر فى وحدة النفس، وأخيرا فى الاستدلال على وجود العقل الفعال، وبذا تنتهى طبيعيات النجاة وهى آخر محاضرات فى الفلسفة العامة.

ونجد نفس الأسلوب المنهجى فى الكتابة والعرض والتحليل فى محاضراته عن الأخلاق فى نفس الفترة. وهو على العكس من سابقيه، الذين قاموا بتدريس هذا الفرع من الفلسفة، سلطان بك محمد وطنطاوى جوهرى لا يتناول الأخلاق فى

الفلسفة الإسلامية مثلهما ولا بطريقة ينحى فيها إلى الوعظ والإرشاد، بل يتناول نظريات علم الأخلاق عند الفلاسفة الغربيين المحدثين مثل: بطلر وفلاسفة الحاسة الخلقية وكانط ونقد العقل العملي، الذى قدم لنا جلارزا تحليلا لعمله هو أقرب إلى الترجمة منه إلى العرض، بحيث يمكن القول إنه عرف قراء العربية من طلابه بأهم نص فلسفى حديث فى الأخلاق. ومما هو جدير بالإشارة فى هذا السياق أن أهم أساتذة الأخلاق فى الجامعة المصرية الدكتور توفيق الطول قد نهج نفس النهج الذى قدمه جلارزا سواء فى موضوعاته أو تبويبه أو منهجه أو اتجاهه المثالى المعتدل أو اتباعه للفيلسوف الألمانى كانط،، كما يظهر فى كتابه ؛الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها"[٩]. مما يجعل جلارزا بحق مؤسس الدرس الفلسفى الأخلاقى الذى مازال سائدا حتى الآن فى أقسام الفلسفة فى الجامعات المصرية وإن كان هناك اهتماما بالتيارات المعاصرة فى القيم والأخلاق لدى الجيل الحالى من المتخصصين.

تاريخ الفلسفة الحديثة :

وإذا أستعرضنا محاضرات الفلسفة العامة وتاريخها التى ألقاها الكونت دى جلارزا والتى تبين تعمقه ليس فقط فى الفلسفة العربية بل فى الفلسفات الغربية الحديثة، نجده أسس للبرنامج الذى مازال غالبا حتى اليوم فى الجامعات المصرية وبعض الجامعات العربية كما يتضح فى الموضوعات والمذاهب والأعلام الذين يتناولهم فى محاضراته التى تشمل جهود أربعة من الفلاسفة يتناولهم بعد مقدمة فى معنى وطبيعة الحكمة.

أولا : توماس هوبز، حياته ومؤلفاته، فلسفته الطبيعية، فهمه للفلسفة الأولي، كتابه فى الجسم، كتابه فى الإنسان، الليفثان وفلسفته السياسية والأخلاقية ثم تلخيص مذهبه ونقده.

ثانيا : ديكارت: حياته ومؤلفاته، القواعد لإرشاد العقل، التأملات مع مقارنات عديدة بالرواقية، نجدها تظهر بعد ذلك عند الدكتور عثمان أمين فى كتابه

(٩) راجع دراستنا عن الدكتور توفيق الطويل ودراسات القيم فى العربية فى الكتاب التذكارى الذى أصدرته كلية الآداب جامعة القاهرة عنه، والباب الثانى من هذا الكتاب.

عن الرواقية. ثم يتناول انفعالات النفس ورسائله مع فلاسفه عصره، وردوده على الاعتراضات التى وجهت إلى فلسفته، ومختصر مذهبه، ونقده. وجاسندى معاصرى ديكارت وخصمه ونظرة عامة إلى فلسفته وتنتهى بذلك محاضرات ١٩١٨-١٩٢٠ وتبدأ المحاضرات التالية بالمقدمات[١٠]. ويتناول باسكال، حياته ومؤلفاته وفلسفته اعتمادا على تحليل كتابه "الأفكار" ثم المقالة فى روح الهندسة، ورسائله إلى أحد الرهبان مع تلخيص ونقد مذهبه. ونفس الأمر فى تحليله فلسفة مالبرانش التى يعرضها لنا من خلال كتاب البحث عن الحقيقة وكتاب الأخلاق.

منهج الكونت دى جلارزا :

ويلاحظ على جهود الكونت دى جلارزا فى الفلسفة الحديثة فى محاضراته عامى ١٨ بعض السمات والخصائص التى تميز درسه الفلسفى النقدى وهى:

أولاً : التحليل النصى وقراءة النصوص الخاصة بالفلاسفة والاعتماد عليها اعتمادا كاملا يذكر طبعاتها المختلفة والاستشهاد بها بالطريقة العلمية المنظمة يذكر أرقام الفقرات وهذا ما يظهر خاصة فى تناوله كتابات ديكارت المختلفة وكتاب باسكال الأفكار حيث يذكر كل مادة ورقمها وكذلك فقرات كتاب "البحث عن الحقيقة" لمالبرانش. مع الرجع إلى الطبعات الأصلية لأعمال كل فيلسوف سواء باللاتينية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية كما فعل فى تناوله لكتاب كانط "نقد العقل العملى" الذى يتناول فيه الأخلاق الكانطية فى محاضراته عن الأخلاق، ويعرض أقسامه وفقراته بشكل أقرب إلى الترجمة. فالمحاضرة عنده قراءة وتحليل لنصوص الفلاسفة أنفسهم بلغاتها الأصلية.

ثانيا : يرتبط بمنهج قراءة النص الاعتماد على مؤلفات كل فيلسوف، وهو يشير فى الإشارات الكتبية إلى المراجع التى يعود إليها مثل: كتب تاريخ الفلسفة

---

(١٠) تبدأ المحاضرات بتعريف معنى الكلمة ثم المصادر أو المراجع التى يطلق عليها الإشارات الكتبية التى يقدم فيها كل ما كتب حول الموضوع أو الفيلسوف الذى يتناوله.

المختلفة التى يستخدمها فى سياقين: الأول الربط بين الأعلام والمذاهب ليقدم لنا تاريخا للفلسفة العامة فى العصر الحديث، والسياق الثانى هو استخدام تحليلات أصحاب هذه المؤلفات فى تقديم انتقاداته لكل فيلسوف سواء فى الهوامش أو فى الجزء الخاص بنقد المذهب. ومن هذه الأعمال التى يعتمد عليها كتب باومان Baumann وبالى Buhle وليزلى Leslie وأوبر ك F.Uebervegs. وكما يعود إلى كتب تاريخ الفلسفة يرجع أيضا إلى كتب المصطلحات والقواميس الفلسفية مثل قاموس جيمس بلدوين J.Baldwin.

ثالثا : ربط الفيلسوف سواء: ديكارت أو هوبز أو بسكال أو مالبرانش بتاريخ الفلسفة ومناقشة أفكاره بالمقارنة مع غيره من السابقين حين يقارن الفلاسفة المحديثن بكل من أرسطو وأفلاطون والرواقيين. ويذكر ويستشهد بكل من أخوان الصفا (ص١٢) اسبينوزا (ص٩) بوسويه (ص٣٦) الجرجاني، وابن سينا (ص٣٨) ابكيتوس وسشارون (ص٤١) هيوم (ص٣٤) أفلوطين (ص ١٥) وفى سياق اهتمامه بتاريخ الفلسفة لا يكتفى بالفلاسفة الكبار الذين يعرض لهم، بل يضيف إليهم. فهو بعد أن يذكر هوبز يعرض بإيجاز لكل من: اللورد هربرت أوف شربري، واللورد بروك، ويوسف كلانفيل، ورالف كدورث. وبعد أن يتناول بالتفصيل جهود ديكارت يشير فى صفحتين إلى جاسندى وفلسفته.

رابعاً : المنهج المحدد الواضح الذى يستخدمه حيث نجد أن أهم ما يميز دروس جلارزا هو التناول المنهجى وهو يشير لنا فى أكثر من موضوع إلى منهجه والذى يتمثل فى التالى :

- تقديم أولاً ترجمة لكل فيلسوف وبيان مراحل حياته وتناول مؤلفاته وطبعاتها المختلفة.
- عرض أقوال الفيلسوف المترجم له اعتمادا على نصوصه الأصلية مع تعليقات – غالبا ما تكون فى الهامش وأحيانا فى المتن – على هذه الأقوال حتى يوضح مذهب الفيلسوف.
- تلخيص المذهب مبينا الغاية الأخيرة لصاحبه ووسائل فى الوصول إليها.
- نقد المذهب نقدا شاملا لمبادئه.

يقول موضحا طريقته فى التدريس ومنهجه فى التحليل: "وكما أوافق كانط فى أسلوب تنشيطه العقول أوافقه أيضا فى أسلوب تدريسه حيث أجعل موضوع الدرس تفسير كتاب أحد الفلاسفة وأبدى انتقاداتى وشيئا من رأيى أثناء ذلك، إلا أنى اتبع فى تفسير كتب الفلاسفة الترتيب التاريخى لأن محاضراتنا كما هى فى الفلسفة العامة هى فى تاريخها أيضاً ولهذا ألخص أولاً ترجمة كل فيلسوف مشهور ثم أذكر مضمون كتبه بالاختصار والحقه بتعليقاتى تفسيرا لها وانتقادا عليها ثم الخص المذهب تلخيصاً ثانياً أتم اختصارا من الأول كما يفعل أدق الباحثين المؤرخين، وأنى أختص بأسلوب آخر هو مستنبط من تعريفى الحكمة المذكور آنفا وهو أنى أدل فى التلخيص الثانى على الغاية الأخيرة التى قصدها واضع المذهب واذكر الوسائل التى بها طلب الوصول إلى غايته وأصف نظريته العامة فى جميع الأشياء ثم انتقد مجموعة المذهب انتقادا شاملاً لمبادئه".

خامسا : النقد السمة الأساسية المميزة لدرس جلارزا والتى لا توجد بنفس الوضوح لدى السابقين عليها ممن قاموا بالتدريس بالجامعة المصرية مما يجعلنا نطلق على جهده اسم المنهج النقدى فى التأريخ للفلسفة. وتظهر هذه النزعة على مستويات متعددة الأول: هو إرشاد وتشجيع الطلاب على التفهم الواعى لمذاهب الفلاسفة وأقوالهم وعدم الخضوع لها بتنمية القدرة على النقد فيهم، والمستوى الثانى فى سياق عرضه لهذه المذاهب والثالث فى تخصيص فقرة مستقلة فى نهاية تحليله لنقد المذهب. فهو فى تقديمه للمحاضرات يخبرنا؛ أن الفلسفة يصل إليها الإنسان بتكميل مقدرته العليا وباجتهاده ومن هنا يتحتم علينا النقد وعدم قبول كل ما جاء من آراء فى تاريخ الفلسفة، فلا يخلو تاريخ الفلسفة من أخطاء ومن هنا علينا بيان تلك الغلطات وإصلاحها". ويرى جلارزا أن علينا ؛أن نسمع الآراء الفلسفية ولا نسرع إلى نقض مالا يوافقنا حتى نتفحص فيها جيدا شيئا فشيئا يوما بعد يوم فإذا حانت ساعة نقدها كشفنا عن خطأها الستر أو أشرنا إلى صوابها". ويطالب طلابه بالتروى وعدم التعجل بإصدار الحكم عليها "فالمثابرة

ضرورية ولا غنى عنها فى الفلسفة لأنها تمنع الإنسان من أن يتعجل فى إتخاذ رأى وأن يتعصب قبل التروى الكافى"[11].

وهو فى عرضه مذهب ديكارت يبين قواعد المنهج مشيرا إلى نقد باولى "الأصح بال" Buhle الذى يرى فى هذه القواعد منطق ديكارت، إلا أن ديكارت لم يستعملها جيدا ومازال يخطيء خصوصا فى مسألة بيان المدركات[12]. وحين يتناول الأخلاق المؤقتة يقارنها بحكم سكتوس ويرى أنها قاصرة عنها[13]. ويشير إلى الدور فى قول ديكارت "أنا كائن إذا فكرت" وينتقد استخدام الفيلسوف للمصطلحات وخلطه وتأرجحه بين كونه روحا وعقلاً وشيئا مفكرا حيث يخلط ديكارت جملة ألفاظ دون مبالاة بأى تمييز بينها[14] ويحدد ديكارت بتاريخ الفلسفة ويرجع بعض أفكاره للسابقين عليه خاصة أوغسطين وتعليقا على قول ديكارت ؛أن جميع الأشياء التى ندركها إدراكا واضحا وبينا " يعرض لرأى أبر ك بأن ذلك غير صحيح لأنه نسى أن خبرة الوضوح نسبية ويعلق بأنه قد أصاب أوبرفك فى أقواله المذكورة وكلامة مهم. ونفس الأمر فى عرضه لفلسفة هوبز حيث يقدم انتقادات متعددة له فى عرضه لفلسفته صفحات ١٤، ١٧، ١٨، ٢٦، ٢٧ وذلك قبل تقديمه النقد الختامى لمذهبه.

وبدورنا نتقدم ببعض الملاحظات النقدية على اللغة العربية التى يستخدمها جلارزا وعلى المصطلحات الذى يقدمها لنا، فهو على سبيل المثال يستخدم بدلا من أفكار وشعور أو مشاعر وميول فكرات، شعورات وأميال ويطلق لفظ حزب على مجموعة أو فئة أو فريق كما يستخدم غير الشائع مثل قوله الحنيك وهو يعنى الخبير أو المجرب أو الماهر المحنك. وبالنسبة للمصطلحات وهو بلاشك من أوائل من حاولوا نقل المصطلحات الفلسفية الغربية إلى اللغة العربية، وله فى هذا فضل الريادة، نراه يستخدم المعقولات فى ترجمة الميتافيزيقا فكتاب ديكارت Medition Metophysiques هو التأملات فى المعقولات، وهو يترجم الحدس imtuition

---

(١١) الكونت دى جلارزا: الفلسفة العامة وتاريخها ١٩١٩-١٩٢٠، ص٥

(١٢) المصدر السابق، ص ٤٠ هـ-٢.

(١٣) الموضع نفسه.

(١٤) المصدر السابق، ص٤٤هـ-٢.

بالنظر الداخلي. ويترجم Dogmatic بالاثباتية كما فى Dogmatic ratioalism العقلية الاثباتية ويمكن ترجمتها بالعقلية الإيقانية أو المتزمتة. ويترجم المذهب الحسى عند هوبز Sensualismus إحساسيا وعنوان كتاب ديكارت الشهير المقال فى المنهج يطلق عليه "المقالة فى الأسلوب"(ص٣٨) وغيرها.

يفهم جلارزا الفلسفة بمعناها النظرى المجرد كما عرفت به عند الفلاسفة اليونانية بأنها حب الحكمة وهى عنده أعظم الخيرات، وهى الغاية التى يهدف إليها الإنسان. والحكمة عنده هى التدبير الصحيح للغاية الصحيحة المستندة إلى علم المبادىء، أما الفلسفة فهى الاهتمام بالحكمة والبحث عنها، وهى أكبر الخيرات بعد الخير المحض والحكمة عينها فليس فى العالم شىء يستحق بذل قوانا الروحانية أو الجسدية مثل الحكمة، وليس من يثابر على البحث فيها إلا وقد نال الزلفى لديها ولا من يعشقها ويتألم ويتلذذ رغبة فيها إلا ويتصل بها ولا وحدها أن تعين مقام الإنسان الصحيح". (ص٣)

وكما يتابع الفهم التقليدى الذى ظهر لدى الفلاسفة اليونان لمعنى الفلسفة، فهو أيضا يتابع الفلاسفة المعاصرين خاصة من أصحاب الاتجاه المثالى الروحاني. فقد عرض لكل من ديكارت وباسكال ومالبرانش من أصحاب الاتجاه العقلى مقابل دراسة هوبز صاحب الاتجاه التجريبى الحسي. ويظهر فى مقدمة محاضرات ١٩-١٩٢٠ متابعته لكانط فى فهمه لطبيعة الفلسفة والحكمة وهى عنده كما ذكر "التدبير الصحيح للغاية الصحيحة المستندة إلى علم المبادىء". وهو يوضح ذلك بقوله: "الفلسفة تدبير العالم لغايته والفيلسوف هو طالبها الذى تؤانسه مؤانسة العاقل للمعقول، وهذا التعريف للحكمة يوافق تعريفات الفلاسفة البحاثين ومنهم كانط القائل أن الحكمة معرفة الخير الأسمى وموافقة الإرادة له". (ص٣) وهو يميز بين الفلسفة والحكمة "وقد جرت العادة أن تستعمل اللفظين اليونانية فيلسوف والعربية حكيم بمعنى واحد ولكن تمييزهما أولى".

وهو يميز أيضا بين العلم والحكمة وهو تمييز ضروري. فقد تساهل بعض الفلاسفة فى التمييز بين العلم والحكمة، لكن الأولى أن يميز العلم والحكمة. ومن ثم علينا تحديد أنواع القول الثلاثة، النظريات والأقوال العلمية المحضة، والأدبية،

والمذاهب الفلسفية. ومهمة جلارزا ليست فى أن يقدم معلومات يستظهرها الطالب، ويتابع من خلالها أقوال الفلاسفة السابقين. بل هو يريد تنمية التفكير الاستقلالى لدى الطالب ومن هنا اطلق على أعماله فى مدرسة المعلمين العليا عنوان "محاورات فى الحكمة" لأن الفلسفة عنده تقوم على أعمال العقل، لذلك فالحوار والنقاش هو الأسلوب الأمثل ومن هنا فهو يدرب تلاميذه على ذلك وعلى القيام بأبحاث "رياضيات فلسفية" يقول: "إننا راعينا فى نمط تعليم الحكمة قاعدة مبدئية مهمة شاركنا فى اتباعها بعض الفلاسفة المجتهدين الصادقين مثل كانط وهى أن تدعو المتعلم إلى التفكير الاستقلالى حتى يصير فيلسوفا لا ذاكر كلام الفلاسفة فقط فإن هذا عمل لن يغلب فيه الإنسان-المجلدات الضخمة والآلات الحاكيات" ويستشهد بقول ؛لوك" ؛أن نصيبنا الحقيقى من المعرفة على قدر نظرينا فى الحقيقة والعقل وتحصلنا عليهما وأن طفو أراء الآخرين فى أدمغتنا لا يزيدنا علما البتة وإن صادف أن تكون حقيقية فالذى كان فيهم علما ليس فينا إلا تمسكا برأى مع التصلب فيه.

خاتمة :

لقد ظل جلارزا الأستاذ الأسبانى صاحب المنهج النقدى فى الدرس الفلسفى يقوم لمدة طويلة بتدريس الفلسفة بالجامعة المصرية ومدرسة المعلمين العليا بالقاهرة، أشاد به سامى الكيالى فى دراسته ؛إنتاجنا الفكرى بين الحربين" فى مجلة المعهد الدراسات والبحوث العربية. وتناول كامبفماير G.Kampfmeyer تحليل كتابه "محاورات فى الحكمة" عام ١٩٣٠ فى Orientallische literaturzeitung وأشاد به تلاميذه حيث قال عنه زكى مبارك فى كتابه ؛الأخلاق عند الغزالى" أنه نادرة النوادر فى كرم الأخلاق وله المؤلفات الفلسفية" وهو كما كتب محرر المقتطف فى عدد يناير ١٩١٨ "من الباحثين المحققين فى تاريخ الفلسفة وشئونها، ومن أمر الأوروبيين فى معرفة اللغة العربية والإنشاء فيها، مضى عليه زمن وهو يلقى محاضراته فى الجامعة المصرية فى الفلسفة العامة وتاريخها وعلم الأخلاق". وتخاطبه مى زيادة فى الحفل الذى أقامه طلاب الفلسفة تكريما له فى فندق شبرد قائلة: "تراك ساعيا إلى إنهاض المدارك منا بحلم العالم الذى قد سبق وطوى طريقنا يقودنا الآن فيها كما استحضرت اشارتك الواسعة نوابع الأجيال بتوقد عطاردى،

وبرصانة مفكر قد اعتاد تسنم الذرى العقلية. فسردت مذاهب المتقدمين باسطا أقوالهم مفنداً آراءهم، شارحا مالامس منها الإعجاز آتيا بالنقد عليها ملخصاً نقد الناقدين بسلاسة وإيجاز تكسوهما بلاغة عبقرية"[١٥].

ويشير إليه محمد لطفى جمعه فى "مذكرات شاهد على العصر" ويحدثنا عن فترة وجوده بمصر قبل قيامه بالتدريس بالجامعة المصرية وعن اهتمامه بدراسة الأرواح[١٦]. كما ينشر رابح لفطى جمعه رسائله إلى والده فى "رسائل أعلام العسر على محمد لطفى جمعه[١٧].

أن ما قدمه جلارزا من دروس بالجامعة المصرية، يتميز عما سبقه من دروس فى نفس الجامعة بحيث يمكن اعتباره الصورة الأولية الناضحة للدرس الفلسفى والتى كانت ولاتزال الصورة التى اعتمدها الباحثين وأساتذة الفلسفة التاليين عليه فى كتبهم الجامعية. ونستطيع أن نعطى أمثلة ونماذج لذلك تؤكد على القيمة التاريخية لهذا الدرس النقدى كأول مراحل الدرس الفلسفى بالجامعة، والحقيقة أن أهمية دروس جلارزاً تتمثل أساساً فى تقديمة للفلسفة الغربية وترجمته لها وصياغته لأفكارها الجديدة تماما على القراء العرب، ونحته لمصطلحاتها وهو طريق غير مسبوق فقد مهد الطريق وقدم المصطلحات بلغاتها الأصلية، سواء أكانت اليونانية أو اللاتينية، الفرنسية، أو الإنجليزية أو الألمانية مع ترجمة عربية أقرب إلى الدقة. مما يجعلنا نولى درسه هذا الأهمية الكبرى لما يمتاز به من خصائص نعددها فى العرض التعليمى، التاريخى، التحليلى، النصى، التأصلى، النقدي، فهو بحق صاحب الرؤية الشاملة والمنهج النقدى فى الدرس الفلسفى بالجامعة المصرية.

---

(١٥) مى زيادة: البعث العتيد، المقتطف المجلد ٥٥، عام ١٩١٨، ص١٢٩، وما بعدها.

(١٦) شاهد على العصر: مذكرات محمد لطف جمعة تاريخ المصريين ١٨٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، ٢٠٠٠ ص ٣٩٠.

(١٧) رابح لطفى جمعة : حوار المفكرين، رسائل أعلام العصر إلى محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن، عالم الكتب، القاهرة ص٢٨١-٢٨٣.

طنطاوى جوهرى:

بدايات الدرس الفلسفى فى الجامعة[*]

تحـــتاج حياة وأفكار الحكيم الإسلامى الشيخ طنطاوى جوهرى إلى أكثر من دراســـة تســـتوفى جوانبه المختلفة. فهو ذو اهتمامات متعددة فى مجالات: التفسير والدعـــوة الإســـلامية والنهضة الحديثة والإصلاح الاجتماعى، وهو أيضاً مفكر ذو اهـــتمامات فلســـفية: قراءة وبحثاً، تأليفا وترجمة، دراسة وتدريساً. صاحب رؤية يوتوبية فى إصلاح العالم والسلام الدولى على طريقة الفيلسوف الألمانى كانط الذى تأثر به وترجم له بتصرف كتابه "فى التربية"[١].

وســـوف نتـــناول فى هذه الدراسة الجانب الفلسفى عند طنطاوى جوهرى، فـــنعرض لكتاباته الفلسفية، والأسس النظرية لأفكاره، وأخيراً محاضراته بالجامعة المصـــرية القديمـــة، التى كان من ضمن أساتذتها، وألقى بها عدة محاضرات عن "الفلسفة العربية والأخلاق". وتمثل هذه المحاضرات جزءاً مهماً من بدايات الدرس الفلســـفى بالجامعـــة المصـــرية، الـــذى يمثل بدوره أساساً من الأسس التى كونت الخطـــاب الفلسفى المعاصر فى مصر، والتى تحتاج إلى بحث متعمق لبيان موضع هـــذا الـــدرس من تاريخ الأفكار، الذى لا ينفصل عن تاريخنا المعاصر، وبيان ما اســـتحدثته الجامعـــة مـــن مناهج وطرق فى البحث مختلفة تماماً عما هو سائد فى الحياة العقلية قبلها، سواء فى التعليم العام أو التعليم الدينى، وسواء ما قدمه الأساتذة العـــرب أو الأوروبيـــون؛ حتى نستطيع تحديد مكانة الدرس الفلسفى عند طنطاوى جوهرى داخل هذا الإطار.

وينقســـم بحثـــنا الحالى إلى: مقدمة عامة فى الاهتمامات الفلسفية لطنطاوى جوهرى، ثم دراسة تحليلية تاريخية مقارنة لمحاضرات "الفلسفة العربية والأخلاق" التى ألقاها بالجامعة لوضع هذه المحاضرات فى سياقها التاريخى مع أعمال سنتلانا

(*) نشرت فى مجلة المسلم المعاصر بعنوان الدرس الفلسفى عند طنطاوى جوهرى: قراءة فى محاضرات الشيخ الفيلسوف فى الجامعة الأهلية. العدد(٩٠) ص٤٣-٨٢.

(١) كانط : التربية، نقلته إلى الإنجليزية أنت تشرتون، وإلى العربية طنطاوى جوهرى، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٥٥هـــ.

وماســينون[٢] والكونــت دى جلارزا من جانب وسلطان بك محمد وعلى العنانى ومنصــور فهــمى مــن جانب آخر. والقسم الثالث تحليل للمحاضرات ومحتواها باعتــبارها مــن المحــاولات المــبكرة فى قراءة الفلسفة العربية فى بداية القرن العشــرين. حــتى نلقى الضوء على مفكر مغمور ربما يجهله الكثيرون، أسهم فى الكــتابة والتدريس فى بداية نشأة الجامعة المصرية، وكان له دوره الإصلاحى مع زعماء حركة الإصلاح الحديثة.

القراءة الفلسفية لأعمال طنطاوى جوهرى :

هــناك بعــض المحاولات السابقة التى حاولت تناول أفكار الكاتب والمفكر العــربى المسلم، والذى أطلق عليه "الشيخ الفيلسوف" و"الأستاذ الحكيم"، إلا أن هذه "القــراءات" تناولته من نواح جزئية مختلفة وقدمته فى صور كثيرة كادت تتناقض، أو عــلى أقــل تقدير كانت تضع أفكار الرجل فى مواضع متباينة، ولا تلتقى عند ملامح معينة يتسم بها تفكير وكتابات هذا المفكر الجاد الطموح غزير الإنتاج، الذى نــتوقف الآن أمــام نــتاجه الفكرى وخطابه الإصلاحى ويوتوبياه العالمية ودرسه الفلســفى بالجامعــة الأهلية، محاولين تقديم قراءة جديدة له. ورغم تعدد القراءات الســابقة التى تدل على أهمية الكاتب المفكر، إلا أن أيا منها لم تقدم صورة متكاملة أو رؤيــة شاملة لأفكار المفكر الإصلاحى الذى قورن دوماً بالشيخ محمد عبده، بل عــده الــبعض أكثر جذرية منه. ومن هنا علينا إعادة النظر فى نتاجه الفلسفى من أجل تقديم قراءة جديدة له.

١- لقــد عرف الشيخ فى هذه القراءات "بالمفسر" حيث أبرز كل من: محمد حسين الذهــبى فى "التفسير والمفسرون"[٣] ومصطفى الحديدى "اتجاهات التفسير فى العصر الحديث"[٤] وبنت الشاطئ "القرآن والتفسير العصرى"[٥] الناحية الدينية

---

(٢) انظر دراستنا عن محاضرات ماسينون بالجامعة المصرية "رؤية مستقبلية للقاموس الفلسفى العربى : تقديم وتطوير محاولة ماسينون"، ص١-٥٤، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة، العدد ٤٨، عام ١٩٨٨م.

(٣) د. محمد حسين الذهبى : التفسير والمفسرون، الجزء الثانى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط، ١٩٧٦م، ص٥٠٥ وما بعدها.

(٤) مصطفى الحديدى : اتجاهات التفسير فى العصر الحديث، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة.

(٥) بنت الشاطئ : القرآن والتفسير العصرى، القاهرة، ١٩٧٠.

فى خطابـــه، اعتماداً على أهم وأضخم كتاباته "الجواهر فى نفسير القرآن وما يرتــبط به من كتابات مثل: "التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم" و"القرآن والعـــلوم العصـــرية"، حيث يعد تفسير موسوعة علمية ضربت فى كل فن من فنون العلم مما جعل هذا التفسير يوصف بما وصف به تفسير الرازى. فالشيخ كمـــا يـــرى الذهبى معروف بتفسيره للقرآن على نمط علمى اختصه لنفسه لم يسبقه إلى مثله ولم يقلده فيه أحد[٦]، فهو يبدأ بالتفسير اللفظى للآيات، ثم يتلوه بالشروح والإيضاحات والكشف كما يقول عبدالمجيد عبدالسلام "أى أنه يشرح متوسعاً فى الفنون العصرية المتنوعة"[٧].

وكـــانت صـــورة المفســـر تلك فى هذه القراءة من أهم الجوانب فى كتابات الشـــيخ الـــتى أشـــار إليهـــا وأشاد بها معظم من كتب عنه فهى غير تقليدية وغير مســـبوقة نجـــد ذلـــك لـــدى على الجمبلاطى الذى رأى فيه عالماً فى طليعة أولئك الـــناظرين البصراء إلى حقائق زمنهم، آمن إيمان الدين المتين أن التقدم العصرى رهين العلم"[٨] وكتب رجاء النقاش مقالين: عن "القرآن والفكر الجديد تفسير للقرآن بالخـــرائط والصـــور"[٩] و"حـــول تفســـير القرآن: أضواء جديدة على عالم كبير مجهـــول"[١٠] يتحدث فيهما عن تفسير الجوهرى الذى يقف متميزاً بمنهجه الخاص اللامع بين جميع تفاسير القرآن، "فالشيخ هو أحد علماء الدين البارزين، وواحد من المفكـــرين الـــنابهين فى هـــذا العصـــر، برغم أنه لم يحظ بما يستحق من الدراسة والاهتمام"[١١]، ويرى محمد عبدالجواد أن علم الرجل لا ينحصر فى دائرة محدودة وكـــتابه الموســـوم "بالجواهر" موسوعة علمية إسلامية حديثة أكثر فيها من الكلام عـــن العـــلوم الحديثة: كالفلك والنبات والحيوان"[١٢]، وأشار عبدالعزيز عطية فى

---

(٦) محمد حسين الذهبى : المرجع السابق، ص٥٠٥.

(٧) عبدالمجيد عبدالسلام المحتسب: اتجاهات التفسير فى العصر الحديث، وأفرد الفصل الثالث (التفسير العلمى) للشيخ طنطاوى جوهرى ، ص٢٧٣ وما بعدها.

(٨) على الجمبلاطى : ذكرى طنطاوى جوهرى، القاهرة، ١٩٦٢م، ص٦، ٧.

(٩) رجاء النقاش : مجلة المصور، العدد ٢٥٠٨، ٣ نوفمبر ١٩٧٢م.

(١٠) رجاء النقاش : مجلة المصور، العدد ٢٥١١، ٢٤ نوفمبر ١٩٧٢م.

(١١) المرجع السابق.

(١٢) محمد عبدالجواد : تقويم دار العلوم، القاهرة ، ١٩٤٧م، ص١٩١.

نفـس تقويـم دار العلوم إلى أن أكثر ميل الشيخ كان متجهاً إلى الإصلاح الدينى والاجـتماعى، وكـان أكبر همه أن يذيع فى العالم رسالة السلام عن طريق تعاليم الإسلام"(١٣) وكتب فى نفس المعنى عبدالمنعم البحقيرى فى مجلة "الوعى الإسلامى" مبيـناً كيـف استطاع أن يقدم صورة لتعاليم الإسلام السمحة فى دعوته إلى المحبة والسلام"(١٤).

٢- ومقـابل تلك الصورة الدينية التى عرضت للشيخ ضمن "اتجاهات التفسير فى العصـر الحديـث" سواء فى شكلها التقليدى لدى من تناوله فى إطار "التفسير والمفسـرون" أو فى الدراسـات العصرية التى ربطت لديه بين الدين والعلم الحديـث، فـإن هـناك صورة أخرى وقراءة ثانية - ربما تكون ضد القراءة الأولى وهى تناول الشيخ كرائد من رواد البحث الروحانى اعتماداً على كتابه "الأرواح"، الـذى يدافع فيه عن علوم الروح محاولاً التوفيق بين الآراء الدينية أو الصـوفية وشبيهاتها فى العلوم الروحية الحديثة ويقدم لنا هذه الصورة كل مـن: "عبدالجليل راضى فى "مجلة الروح" ورءوف عبيد فى "مفصل الإنسان روح لا جسـد" فهوعـنده رائـد مـن رواد الروحية، وأبرز علماء العرب المحدثين. وكذلك يكتب عنه أيضاً كل من" عبداللطيف الدمياطى فى "الواسطة الـروحية" وعـبدالعزيز جادو، الذى كتب عنه أكثر من دراسة، فقد تناوله فى الـبداية بالـتعريف والـتأريخ له ولحياته وريادته الروحية فى كتابه "الروح والخلود بين العلم والفلسفة"، ثم خصص فصلاً مهماً عن الشيخ طنطاوى الرائد الـروحى فى كتابه عنه (١٥). ونشرت جريدة الجمهورية مقالاً بتوقيع مستعار عـن "طنطاوى جوهرى الرائد الروحى". وتمثل هذه الكتابات السابقة جوانب مـتعددة مـن اهـتمام المفكـر الديـنى، وتظهـره عالمـاً مفتوناً بدراسات الباراسـيكولوجى متعـلقاً بأهداب الغيبيات مؤمناً بعالم الأرواح والاتصال بها والانقيـاد لأوامـرها يكـتب ما تمليه عليه وما تشير له به. يخوض المعارك

---

(١٣) عبدالعزيز عطية تقويم دار العلوم، القاهرة، ١٩٤٧م، ص١٩٦.

(١٤) عبدالمنعم البحقيرى : مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٥٢، السنة الخامسة، يونيو ١٩٦٩.

(١٥) د. عبدالعزيز جادو : الشيخ طنطاوى جوهرى، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٠م، الفصل السادس.

الفكـــرية والـــتاريخية انطلاقـــاً من إيمانه بها فيكتب عن براءة العباسة أخت هارون الرشيد رداً على ما كتبه جرجى زيدان عنها. وربما لا يكتفى بالتأليف والكتابة بل يصبح أحد أعضاء جمعية الأرواح بل رائداً من روادها[١٦].

٣- وهـــناك قـــراءة أخرى توقف أصحابها أمام الجانب الأدبى عند الكاتب الأديب طـــنطاوى جوهـــرى. وهذه القراءة نجدها لدى محمد محمد حسين الذى يضع الشـــيخ داخل الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، فقد كانت لديه ثقة كبيرة فى نهضـــة المسلمين واستعادتهم مجدهم وعماراتهم الأرض وإصلاحهم ما آل إليـــه أمـــرها مـــن فساد واضطراب، وكانت هذه الفكرة تنزل من نفسه منزلة اليقين الذى لا يخامره فيه شك[١٧]. وربما تجد هذه القراءة ما يؤكدها ليس فقط فى كـــتب الشـــيخ الأدبيـــة مـــثل: "مذكـــرات أدبيات اللغة العربية"، "سوانح الجوهـــرى"، "جوهـــرة الشـــعر والتعريب" بل أيضاً فى كتاباته الأخرى التى يـــتحدث فيهـــا عـــن الطبيعة الإنسانية مثل كتبه عن: "الزهرة فى نظام العالم والأمـــم"، و"نظام العالم والأمم"، و"جمال العالم"، و"جواهر العلوم" الذى وضعه عـــلى هيئة رواية مثل كتاب "أين الإنسان؟"؛ لذا فإننا نجد قارئه كما يؤكد على الجمبلاطى لا يتعثر فى لفظه ولا يستصعب فكرة، كأنه قاص يقص عليك أمتع القصص وأغرب الوقائع"[١٨]. ونفس القراءة يقدمها محمد عبدالجواد فى "تقويم دار العـــلوم" حيـــث يـــراه "حاضـــر الذهـــن، واضح الحجة كثير الاستشهاد بالنصـــوص، كـــثير الإطلاع، أوتى من فصل المقال ما يعز على أهل اللسان والفلســـفة"[١٩]، وقـــد بين عبدالعزيز عطية "أن الشيخ بعد أن روى من معين العـــربية وكوثر العلوم الشرعية والفقه الأكبر وكثير من العلوم طار صيته فى معمور الأرض" [٢٠]. ويجعله عبدالعليم القبانى من رواد الشعر السكندرى "فقد

---

(١٦) المصدر السابق، ص٧٣.

(١٧) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٣١٠-٣١١.

(١٨) على الجمبلاطى : المصدر السابق.

(١٩) محمد عبدالجواد : تقويم دار العلوم، ص١٩١-١٩٢.

(٢٠) عبدالعزيز عطية : المصدر السابق، ص١٩٦.

كان الشيخ يعمل مدرساً بمدرسة رأس التين الثانوية، وكان يلقن تلاميذه بعض الأفكـــار الـــثورية، وكـــان يلقن تلاميذه بعض الأفكار الثورية فى قصائد من نظمه.

ولا تعـــطى تـــلك القراءات - رغم أهميتها الصورة المكتملة لجهود المفكر الكـــبير الـــتى اتسعت لاستيعاب الثقافة العربية الإسلامية وعلومها الدينية المختلفة والـــثقافة العصرية من: فلسفة وعلوم رياضية وطبيعية متعددة، والتى تظهر لنا من خلال كتاباته، التى نجد فيها أسماء لا بلاس ودارون وإيفبرى[٢١] مع كانط وبيكون وأزفـــلد كولبه مع أسماء الغزالى وإخوان الصفا وابن خلدون. وتوضح لنا كتابات طـــنطاوى جوهـــرى مـــدى اتساع ثقافته وتنوع مصادره الفكرية كما ظهرت فى مؤلفاتـــه الكثيرة التى نستطيع عند تحليلها جميعاً قراءة الخطاب الفلسفى الإسلامى المعاصر فى بواكيره الأولى.

ويمكـــن القول إن مجمل كتابات المفكر المصرى ذات أساس فلسفى عقلانى يبـــنى عـــليه ويتفرع منه الخطاب النهضوى الذى يوضح جوانب تفكيره المختلفة، وهى فى مجمـــلها نتيجة ارتباط موقفه النظرى بظروف العصر وإشكالياته المختلفة الديـــنية الإصلاحية، التى تنطلق أساساً من موقف السياسى والاجتماعى كأحد دعاة الحـــزب الوطـــنى (القديم) وكأحد كتاب جريدة اللواء المعبر عنه اتجاهما الوطنى الإســـلامى، كمـــا تمثل فى كتابيه " نهضة الأمة وحياتها"[٢٢] و"نظام العالم والأمم" وغيـــرهما. مما مميز ما قدمه طنطاوى جوهرى عن غيره من مفكرى هذه الفترة بسمة فلسفية واضحة.

والصـــورة التى نقدمها هنا فى قراءتنا الحالية - هى صورة الفيلسوف، فقد عـــرف جوهرى بألقاب متعددة، وكان الغالب عليه لقب بن الفيلسوف الحكيم" وهو

---

(٢١) راجع كتابات طنطاوى جوهرى : "رسالة أصل العالم"، و"رسالة الحكمة والحكماء "التى تظهر مدى تعمقه فى تاريخ الفلسفة.

(٢٢) طنطاوى جوهرى: نهضة الأمة وحياتها، وقد سبق أن نشر هذا الكتاب على شكل مقالات فى جريدة اللواء التى يصدرها الحزب الوطنى القديم، انظر جادو ص٢٥.

الاســم الــذى كان يميل إليه ويسبق اسمه دائماً على أغلفة كتبه[٢٣]، وقد حدد على الجمــبلاطى هدفه من الكتابة عن "ذكرى طنطاوى جوهرى" بأنه يريد تقديم سيرة فيلســوف الإســلام فى العصر الحديث [٢٤]، ويرى عبدالعزيز جادو "أن الفيلسوف والحكيــم (ويقصــد جوهرى) فى مقدمة هؤلاء الأعلام من رجال الفكر العصريين الذين لا نزال إلى اليوم نذكرهم[٢٥]، وهو عنده من فلاسفة القرن العشرين ومصلح ديــنى مجــدد تقدمى[٢٦]، وقد جاء فيما نشرته عنه الجمعية الآسيوية الفرنسية "أنه فيلســوف حكيــم بقدر ما هو عالم دين" [٢٧]، ولقبته جريدة "مصر الفتاة" فى عددها ٣٤٣ الصادر فى نوفمبر ١٩٥٩م بأنه "فيلسوف مصر"، وهو عند محمد عبدالجواد "عــالم أديــب فيلسوف"[٢٨]، وعند سنتلانا المستشرق الإيطالى "أحد رؤساء الحركة السياســية والاجــتماعية التى انتشرت فى طبقات الشعب الإسلامى كافة تحت اسم الجامعــة الوطنية[٢٩]، وكذلك أشاد به مرجليوث فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية مقارنــاً بيــنه وبيــن كانط[٣٠]، وهو نفس ما فعله جب فى جريدة المقطم ٨ يناير ١٩٣٨م، وريتشــارد هارتمــان الذى ربط بينه وبين محمد عبده والغزالى، وكذلك كــارادى فــو فى "مفكــرى الإسلام"[٣١]، ويرى الدكتور محمد يوسف موسى أنه

---

(٢٣) فقد طبعت مطبعة الرشديات بالإسكندرية "محاضرات بين العلم والسياسة" أولها محاضرة "الفلسفة عند العرب" التى ألقاها الأستاذ الحكيم الفيلسوف الشيخ طنطاوى جوهرى بدار نقابة المعلمين. ومثل هذا التقديم جاء على غلاف كتابه "السر العجيب تأليف الأستاذ الفيلسوف الشيخ طنطاوى جوهرى المدرس بمدرسة المعلمين، وكتب على "جوهرة الشعر والتعريب" جملة قطع من النظم لمشهورى شعراء الإنجليز كساها حلة الشعر العربى، حضرة الحكيم العالم الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى.

(٢٤) على الجمبلاطى : ص٧.

(٢٥) د. عبدالعزيز جادو ص٥.

(٢٦) المصدر السابق ص٦.

(٢٧) انظر مقال الجمعية الأسيوية الفرنسية فى كتاب طنطاوى جوهرى: الحكمة والحكماء ص٧١

(٢٨) محمد عبدالجواد ص١٩٢.

(٢٩) سنتلانا: ملخص كتاب أين الإنسان؟ مجلة العلوم الشرقية، ،ترجمة مصطفى بك رياض بعنوان "صدى صوت المصريين فى أوربا" مطبعة دار المعارف بمصر ص١٠.

(٣٠) انظر جادو : ص١٠٨.

(٣١) المرجع السابق ص١١١ وما بعدها.

يســتحق مــن المجــد أكثر مما يستحق الإمام محمد عبده لولا أن زملاءه وإخوانه جهلوه وعجزوا عن نصرته عندما تقدمت الدوائر العلمية لترشيحه لنيل جائزة نوبل كأول مصرى يرشح لهذه الجائزة (٣٢).

وقبل قراءة مشروع المفكر الإصلاحى وبيان أسس تفكيره فإن إشارة موجزة إلى كتاباته تلقى الضوء على خطابه الفلسفى وتحدد محاوره النظرية.

وإذا ما استبعدنا بعض كتابات طنطاوى جوهرى مثل "الفرائد الجوهرية فى الطــرق النحوية" و"مذكرات فى أدبيات اللغة العربية" و"جوهر التقوى فى الأخلاق" أو حتى نحيناها جانباً مؤقتاً باعتبارها ذات منحى تعليمى كتبت للطلاب. وكذلك إذا أبعدنا كتابيه "الأرواح" و"براءة العباسية أخت هارون الرشيد" التى قيل: إن روحها اتصــلت بـــه ليصـــحح أخطـــاء جـــرجى زيدان فى بيان قصتها التاريخية: وذلك لاتجاهــتهما المغاليـــة فى الغيبيات. فأننا نجد أن تآليفه كلها رغم تعدد موضوعاتها يجمعها اهتمام واحد يسرى فى كل أجزائها وكأنها مجلد واحد أو سفر ضخم صدر فى أجزاء متعددة، ويؤكد ذلك رأى الجمعية الآسيوية الفرنسية فى كتابه "نظام العالم والأمـــم والحكمـــة الإســـلامية العليا" ويرتبط بهذا رسالة "الزهراء فى نظام العالم والأمـــم" وهى دراسة مترجمة عن الإنجليزية نقلها عن اللورد إيفبرى (السير جون لوبـــك) الـــذى تأثـــر بــــه كثيراً فى كتاباته. ويتناول فى هذه الدراسة عالم النبات والـــزهور وكل ما يتعلق به، وهى توضح اهتمامه بالطبيعة وتأملها، ذلك الاهتمام الشـــاعرى الرومانسى الذى سيطر على أجزاء متعددة من كتاباته التى يغلب عليها الـــتأمل، ويعد تأمل الطبيعة سمة أساسية فى تفكير طنطاوى جوهرى، بل إن كتبه فى التفســـير تهـــتم فى الأساس، كما يبدو من تحليلها ببيان مقاصد الإسلام ونظام العالم، كما يظهر فى كتابه "التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم" الذى يقسمه إلى اثـــنين وخمســـين باباً أو جوهرة" كل منها تفسير آية من آيات القرآن الكريم على ضـــوء مـــا كشف عنه العلم الحديث، ويلاحظ فى هذا الكتاب أنه استخدم العرض الموضـــوعى لآيـــات القرآن الكريم وشرحها حسب موضوعاتها، ويظهر فى هذا الكتاب المنحى التوفيقى الذى اتخذه المؤلف بين القرآن من ناحية والفلسفة اليونانية

(٣٢) المرجع السابق ص١٠٢.

من ناحية ثانية، والكتاب دعوة صريحة للإسلام موجهة إلى مؤتمر الأديان باليابان ١٩٠٦م، وقد ترجم إلى لغات عديدة، منها : اليابانية والفارسية والهندية والروسية.

وقـد كـان للمفكر الوطنى مواقف ضد الاحتلال الإنجليزى للبلاد، وكانت كـتاباته تهـدف إلى تجميـع القوى الإسلامية المختلفة فى إطار وحدة جامعة على أسـس إسـلامية عقلانيـة مصـحوبة بفهم معاصر لنظم الحياة المختلفة ذى نهج إصـلاحى، وقـد طمـأن هذا النهج الدوائر الغربية، كما يتضح مما كتبته الجمعية المـلكية الإنجـليزية، الـتى تناولت الخطاب الطنطاوى فى الإطار الأبستمولوجى المعـرفى لا السياسى الثورى – تعليقاً على كتاب "نهضة الأمة وحياتها" – بقولها: إن الإنجـليز مطمئـنون إلى أن الشيخ لم يرد بلفظ النهضة ثورة يثيرها وإنما أراد الإصلاح ورقى الأمة، فهو أقرب إلى محمد عبده منه إلى الأفغانى، وليس فى ثنايا كتـبه ما يحض على الثورة أو يشير إلى عصيان[٣٣]. وفى ختام المقال تذكر رأيه فى سياسـة الأمـم، وهو فى الحقيقة مقصود الكتاب الذى وضع للحكومات نظاماً جميـلاً؛ إذ أبـان كيـف يكـون التشابه بين جسم الإنسان ووظائف أعضائه؟ وما الحكومات العادلة؟ وكيف ينوب فريق من الأمة عنها؟ وما طريق الانتخاب؟

وينطـبق نفس الرأى على كتابه "النظام والإسلام" الذى كان أيضاً مجموعة مقـالات نشـرت بالمؤيد، وقد ترجم أيضاً إلى التركية والهندية. وفى نفس الإطار نجد كتابه "جمال العالم" الذى يتفق من حيث الاسم مع "نظام العالم والأمم" و"الزهرة فى نظام العالم والأمم"، ويتفق من حيث المحتوى أيضاً مع هذه الكتب ومعه "التاج المرصـع بجواهـر القرآن والعلوم"؛ حيث ينتقل المؤلف من ذلك النظام والإبداع والجمـال الموجـود فى العالم، ليعبر عن قدرة الخالق الذى أوجد هذا العالم، وهو وإن كـان يستخدم نفس الأدلة التقليدية التى يستخدمها الفلاسفة، إلا أنه يستعين فى ذلـك بالدراسـات العـلمية فى مجال الطبيعة والحيوان، وهى سمة تظهر فى كل كـتاباته؛ مما جعل كثيراً من الباحثين يؤكدون تميز الكتاب وصاحبه بحب الطبيعة حـباً غيـر خفى. وما يستوقفنا هنا هو مناسبة تأليف الكتاب التى توضح الاتصال وعدم الانفصال بين اهتمام الشيخ الدينى والعلمى وهدفه فى ترقية الأمة ونهضتها، فقـد كـان الكـتاب نتيجة نقاش طويل بين الشيخ وشاعر النيل حافظ إبراهيم الذى

(٣٣) المرجع السابق ص٢٥.

اســتمع طويــلاً إلى أفكــار الكتاب ونصحه بقوله : "لو دون هذا الكلام فى كتاب لترقت الأمة المصرية"(٣٤).

ويهــدف بكتابيه : "جواهر العلوم" و"ميزان الجواهر فى عجائب هذا الكون الــباهر" إلى نفس الغاية. الكتاب الأول وضعه على هيئة رواية وهو نفس ما فعله فى "أيــن الإنسان؟" وقد قررت وزارة المعارف على طلابها هذا الكتاب الذى جعله الشــيخ كمــا يذكــر لــنا سلماً إلى فهم ما هو أدق وأرقى فى الفكر هو "وميزان الجواهــر"، وذكر فيه بواطن العالم وقواه وعجائبه الباطنة رابطاً بين آرائه الكونية وأســـها الفلســفية مع المقارنة بين آراء الفلاسفة الأقدمين ومقابلته بكلام الفلاسفة الأوربييــن، ووزن الأقوال بالحجج العقلية. والكتاب الثانى "ميزان الجواهر" يدور أيضــاً حــول التفســير العــلمى لحقائق الكون، وفيه تظهر آراء المفسر مع آراء الســابقين من علماء المسلمين مثل الغزالى والرازى، يقول الشيخ حمزة فتح الباب فى تقديمــه للكــتاب مخاطباً مؤلفه : "ولقد ذكرنى ميزانك ما قاله السعد فى شرح المقاصــد" نقــلاً عــن نالإمام حجة الإسلام فى أثناء تعريف علم الكلام.. وما قاله القطب الرازى فى "شرح مطالع الأنوار" والشيخ الأكبر (ابن عربى) فى فتوحاته.

وفى كــثير مــن أعمال الشيخ ما يؤكد أن كتابته كانت استجابة من المفكر لحاجــات الواقــع. فقد جاءت رسالته فى "أصل العالم" ردًا على تساؤل من الشيخ عــبدالعظيم فهمى يسأل فيه عن أصل الكون ومادته الأولى والنظرية العلمية التى تفســر طبيعــته، وهى مــن الرسائل الفلسفية المهمة التى توضح رأيه فى المسائل الأنطولوجية والكونية الكبرى معتمداً على النظريات العلمية الحديثة التى قال بها لا بــلاس وغيــره من العلماء". وجاءت ترجمته لكتاب كانط فى "التربية"، وأعتقد أنه أول من نقل كانط إلى العربية استجابة لطلب من مجلة النهضة النسائية ليكتب شيئاً يتعــلق بــتربية النشء وطرق معاملة الأطفال والمبادئ التى على الأمم الإلمام بها لإعداد جيل صالح(٣٥).

---

(٣٤) المرجع السابق ص٢٦.
(٣٥) انظر الفقرة الأخيرة من هذه الدراسة تحليلنا لترجمة جوهرى لكتاب كانط فى التربية.

وفى نفس الاتجاه الأساسى لأعمال الأستاذ الفيلسوف يأتى أهم أعماله: "الجواهر فى تفسير القرآن" و"بهجة العلوم فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية" ويبدؤه الشيخ كعادته بقوله: إن الإنسان مهيئ بفطرته لقبول الفلسفة ويتحدث فى تاريخ علومها ويتوقف أمام عناية الدولة الإسلامية بالفلسفة والترجمة ويبين جهود الفارابى، ثم العلاقة بين الدين والفلسفة.. ويتحدث عن تأريخ الأمة اليونانية فى الفلسفة منذ القدم، وسقراط وأفلاطون، وكتابه "القرآن والعلوم العصرية" كما جاء على غلافه : "خطاب إلى جميع المسلمين وإن الصناعات والعلوم يأمر بها القرآن، وإن الأمراء والعلماء وأغنياء المسلمين هم المكلفون بذلك وبإحكام الرابطة بين الأمم الإسلامية عموماً. ويقوم هذا الخطاب على إعمال العقل. فالعقل الصحيح والرأى الرجيح والعمل بهما المنجى فى الدنيا والآخرة"[٣٦]. وفى "سوانح الجوهرى" يبين لنا كيفية ترقية الأمة عن طريق الاقتصاد وترقية الصناعة والزراعة وحركة التعليم من أجل نهضة إسلامية شاملة. وبالإضافة إلى تلك الكتابات الدينية التى تحاول تفسير آيات القرآن بما اكتشفه العلم الحديث وذلك بإعمال العقل الإنسانى فى الكون والطبيعة من أجل دعوة المسلمين إلى النهضة وكيف تعامل العرب مع هذه الفلسفات بحثاً ودراسة.

وتشمل الكتابات والأوراق الفلسفية التى تركها لنا الشيخ بالإضافة إلى محاضراته بالجامعة المصرية التى ألقاها فى العام الدراسى ١٩١٢/١٩١٣م على عدة كتب ورسائل أخرى منها: "رسالة الحكمة والحكماء" [٣٧] التى تحتوى على مجموعة من الدراسات التى تحمل نفس خصائص أسلوب الشيخ وتعبر عن نفس الاهتمامات مثل: المقصود من هذا العالم؟ ووجهة العالم واحدة هى النظام العام، والمقارنة بين فلسفة وفلاسفة الشرق والغرب. وكتابه "المدخل إلى الفلسفة"، الذى يتناول فيه علوم العرب المختلفة وعلوم اليونان، والحديث عن هذه العلوم نجده من أهم محاور محاضراته بالجامعة الأهلية، ويبدو أنه أصدره فى دراسة مستقلة (المدخل إلى الفلسفة) مثلما فعل فى محاضراته عن "الموسيقى العربية" التى تناولها أيضاً فى نفس المحاضرات" [٣٨].

---

(٣٦) جوهرى : القرآن والعلوم العصرية. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ،١٩٢٣م، ص٣.
(٣٧) طنطاوى جوهرى: رسالة الحكمة والحكماء، مطبعة جرجى عرزوزى، الإسكندرية، ١٩١٥
(٣٨) أصدر جوهرى عدة أعمال قبل وبعد محاضراته تدور حول نفس الموضوع مثل : أصل العالم" "رسالة الحكمة والحكماء" "الفلسفة عند العرب"، "المدخل إلى الفلسفة".

وتأتى محاولته الجادة التى يبدو فيها متأثراً بكانط من جهة والعلوم الرياضية مــن جهــة أخرى من أجل صياغة نوع من السلام العالمى واليوتوبيا الشاملة التى تجمــع الشعوب واليوتوبيا الشاملة التى تجمع الشعوب كلها فى إطار وحدة إنسانية، كمـــا يظهــر فى كــتابيه: "أحلام فى السياسة والسلام العالمى"(٣٩) و"أين الإنسان؟" الــلذين اعتز بهما كثيراً وأرسلهما إلى معظم مفكرى العالم المحدثين لدعوتهم إلى نفس رؤيته، واستجاب له كثير منهم وفى مقدمتهم سنتلانا المستشرق الإيطالى الذى ســبقه فى الــتدريس بالجامعة الأهلية حيث لخص الكتاب "أين الإنسان؟" فى مجلة العــلوم الشــرقية التى يشرف عليها وأشاد بالشيخ وأفكاره ، فالكتاب من الصحف العظيمــة الدالــة فى الوقــت الحاضــر عــلى مبلغ أفكار وشعور الطبقة الراقية الإســلامية، والحــق يقال إنه لعمل إنسانى عظيم فى قالب احتجاج سياسى ولم يك كتاباً موجهاً إلى المصريين فقط بل للعالم أجمع، فالمسألة التى يريد حلها هى مسألة العالم كله بالإجماع. ويمثل كل من "أحلام فى السياسة والسلام العالمى" وكذلك "أين الإنســان؟" محاولــة أولى مبكرة فى التفكير اليوتوبى العربى المعاصر؛ حيث (٤٠) نــنجد فيهما صدى لما قدمه كانط، ويمثلان معاً نظرية المفكر المصرى فى السلام العالمى، فهو يسعى إلى مماثلة نظام المجتمع البشرى بما عليه الكون والطبيعة من اتفاق وائتلاف. يريد تحويل النفوس فى المجتمع من الطبيعة السبعية (من سبع) أو الــبهيمية إلى إنسانية بشرية يحل بينها التعاون والتوافق بدلاً من النزاع والصراع. وهــذا مـــا أشـــاد به المستشرقون الذين اطلعوا على أبحاثه وكذلك بعض الباحثين والكتاب العرب المعاصرين.

---

(٣٩) تأثير كانط فى طنطاوى جوهرى كبير يتجاوز ترجمته لكتاب التربية والإشاراتا العديدة له فى "أين الإنسان؟" إلى استلهام محاولة كانط "مشروع للسلام الدائم" فى عمله "أحلام فى السياسة والسلام العام" وقد أكد التشابه بين العملين مرجليوث فى مقالته عن طريق جوهرى بمجلة الجمعية الآسيوية الملكية ١٩٣٧م.

(٤٠) سنتلانا : ملخص أين الإنسان ص١١.

ولأهميـــة هذين الكتابين نعرض بإيجاز أهم أفكارهما لبيان جهود الشيخ فى الدعوة إلى السلام العالمى والأسس التى تقوم عليها هذه الدعوة. فالحكيم الفيلسوف يحـــاول فى كـــتابه "أيـــن الإنســـان؟" بيان استخراج السلام العالمى فى الأمم من "النواميس الطبيعية" والنظامات الفلكية والفطر الإنسانية، وبنيان السياسة على أساس الطـــبيعة، وأن مدنيـــة اليـــوم حيوانية، ودعوة الناس للإنسانية الحقيقية، وبيان أن الإنســـان لـــم يفهـــم إنسانيته ولم يستخرج قوته بعد. وخطاب موجه لفلاسفة الأمم ونوابهـــا ومـــلوكها ودعـــوة الأولين لبحث هذا الموضوع والآخرين للتعاون على العمل. وهذا (الكتاب) عبارة عن رواية بين طنطاوى جوهرى وروح من الأرواح القاطنة بمذنب هالى لمّا اقترب من الأرض وسأل عن السلام فى العالم وعن أخلاق نوع الإنسان وهو عشرون فصلاً" [٤١].

فى الفصـــل الأول مقدمة الكتاب فى أحوال مذنب هالى، والثانى سؤال عن حال الإنسان، وقول كانط الإنسان لم يتعلم العلم من أعلى منه ولو تعلم لكان أرقى، ويـــدور الفصل الثالث فى أخلاق الإنسان، والرابع فى علومه ومعارفه، والخامس فى اســـتعداد الإنسان للعلوم والأخلاق، والسادس فى أنواع الحكومات والفلاسفة،، والســـابع عن المادة والعقل، والثامن يدور حول الحكمة فى المادة والعقل، والتاسع يتـــناول الفلســـفة القديمة والجديدة ، والعاشر فى المنطق والأخلاق والسياسة، وفيه كمـــا يقـــول المؤلـــف الحقيقة المرة فى مقارنة السياسة بالقضاء والتعليم، وتتناول الفصـــول بعد ذلك الصعود إلى كوكب جديد ومقارنة ظلم الإنسانى بالعدل فى عالم الســـماوات، وفى الفصـــل الرابع عشر يقدم تحليلاً للمدنية العصرية، وفى الفصل السادس عشر مسألة الأقوى والأضعف، ويتساءل فى الفصل التالى على أية قاعدة تبـــنى سياســـة الأمم، ويتبعه فى الفصل الثامن عشر فى درس تعليم الأطفال الحب العـــام، والفصـــل التاسع عشر مجلس الحكماء وبيان ما وصلت إليه الأمم وشرح معانى الحكمة، والفصل الأخير بيان السبيل للوحدة العامة فى سائر الأمم والممالك والدول، وفيه مجمل الكتاب.

(٤١) طنطاوى جوهرى : أين الإنسان؟ دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م.

ويحاول فى "أحلام فى السياسة وكيف يتحقق السلام العام"(٤٢). بيان الصورة المـثالية لما ينبغى أن يكون عليه نظام العالم والسبل التى توصل إلى تحقيق السلام العـام بيـن الأمم جميعاً، وقد ذكر المؤلف أنه عرج على السماء وطاف بها حتى وصـل إلى أحد كواكب الجوزاء ووصف ما فيه ولقاءه بالفلاسفة الذين امتحنوه فى الحسـاب والسياسة معاً. وقد برهن على أن سياسة الأمم إذا لم يكن بناؤها لحساب العـلوم المختلفة فإن الدمار سيحل بالنوع الإنسان. ولم يكتف بدور المفكر المتأمل الـذى يبحث فى ائتلاف الكون وإيجاد نظام عام لسياسة الأمم، بل سعى للدعوة إلى هـذا الـنظام بإرسال دعوته إلى كثير من المفكرين ذوى الرأى، فهو لا يكتفى بأن يفكر فى السلام العام بل يعمل من أجله، يقول : إننى أعلم الأمم جمعاء بهذا النظام السياسى الموافق لنظام هذه العوالم التى نعيش فيها أن هذه الطريقة المثلى الطبيعية لسياسة الإنسان فى هذه الحياة".

وقـد رأى البارون كاردى فو - الجزء الخامس من كتابه مفكرو الإسلام - فى عمل الحكيم الفيلسوف مدينة فاضلة حديثة ويوتوبيا معاصرة يقول: و"كتاب "أين الإنسـان؟" هـذا وضـعه المؤلـف بهيئة رواية فلسفية سياسية، فهو فى هذا يشبه الفـارابى مـن حيث أصل الفكرة وابن طفيل من حيث الأسلوب والمنهج، وهو فى الأسـلوب يذكرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا فى أوربا مثل: توماس مور، وكامبانيلا، وألدوس هكسلى".

إن جهود الشيخ الحكيم أهلته للدعوة للسلام العالمى من منطلق إسلامى مبنى عـلى تفهـم واع للعلوم العصرية، وقد أراد مشاركة مفكرى العالم له فى دعوته، فأرسـل لهـم كتاباته ليعلمهم. بموقفه من مشكلات السلام العالم. وقد رشح لجائزة نوبـل للسـلام وكان بذلك أول مصرى يرشح لهذه الجائزة، وقد اهتمت الخارجية المصـرية بهـذا الترشيح، وقام الدكتور مصطفى مشرفة بفحص إنتاج الشيخ؛ لأنه مـن شروط التقدم لهذه الجائزة أن يكون المرشح من أساتذة الجامعة، وأن يرشحه أحـد الـوزراء أو أحد أعضاء البرلمان أو أستاذ جامعى، فتطوع الدكتور مشرفة عميـد كلية العلوم والدكتور عبدالحميد سعيد عضو البرلمان والرئيس العام لجمعية

(٤٢) طنطاوى جوهرى : أحلام فى السياسة والسلام العام، مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، القاهرة ١٩٣٥م، ص٣.

الشــبان المســلمين، وقــد قــامت الخارجية بإرسال مؤلفات الأستاذ إلى البرلمان النرويجي مع تقرير عن جهوده فى سبيل العلم والسلام، وفى أثناء ذلك عاجل القدر الرجل فى ١٢ يناير ١٩٤٠م ليتوقف كل شيء، فالجائزة لا تعطى إلا لعبقرى أدى خدمات للإنسانية وما زال على قيد الحياة.

وإذا كــان الشيخ انتقل إلى مجال التاريخ الرحب فإن السؤال ما هو موضع عملــه وبالــتحديد درسه الفلسفى فى إطار التاريخ؟ وما هو موقع محاضراته بين محاضــرات الجامعة الأهلية؟ أو بمعنى أدق بين دروس الفلسفة التى ألقاها سنتلانا، ولويس ماسنيون، والكونت دى جلارزا، وسلطان محمد، وعلى العنانى، ومنصور فهمى، وهذا هو محور القسم التالى:

محاضرات طنطاوى جوهرى الفلسفية :

قــامت الجامعة المصرية على جهود المصريين وارتبطت منذ البداية برجال الحــركة الوطــنية المصرية واقترنت بأسماء زعمائها وابتعدت عن كل سلطة إلا ســلطة العلم والبحث الحر، فهى "لا تختص بجنس أو دين بل تكون لجميع الشباب عــلى اخــتلاف جنســياتهم وأديانهم فتكون واسطة للألفة بينهم. فهى مدرسة علوم وآداب تفتح أبوابها لكل طالب علم مهما كان جنسه ودينه، وليس لها صبغة سياسية ولا علاقــة لهــا برجال السياسة ولا المشتغلين بها، فلا يدخل فى إدارتها ولا فى دروسها ما يمس بها على أى وجه كان.

لقــد ازدهرت الحركة العلمية بانتعاش الروح الوطنية وسارا جنباً إلى جنب يحدوهمــا الأمل فى رقى الأمة واستقلالها، وكان إنشاء الجامعة بمثابة رئة كبرى فى نهضــتنا العلمية، وغرس لنهضتنا العلمية الفكرية فى مجالات التعليم المختلفة، وأســاس لتحرير عقول المصريين وقلوبهم، وإنقاذ لمصر من مخالب الجهل والعلم المتوســط، كمــا كــان إنشاء الجامعة أشبه شيء بالشعلة القوية الحرة التى انبعث نورها وانبثقت حرارتها فملأت العقول نوراً والقلوب حرارة" [٤٣].

(٤٣) د. عبدالمنعم الدسوقى الجميعى: الجامعة المصرية والمجتمع، مركز الدارسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٧.

بـــدأت الدراسة بافتتاح الجامعة فى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨م، وبدئ فيها بتدريس خمســـة عـــلوم لم تكن الفلسفة أو أى من علومها ضمن هذه العلوم الخمسة، وهى: الحضــــارة الإسلامية، الحضارة الشرقية القديمة، العلوم التاريخية، والجغرافيا عند العرب، والآداب الإنجليزية والفرنسية. وقد تقرر أن تستمر الجامعة فى إكمال هذه الـــدروس أو أن تستبدلها بغيرها فى الأعوام التالية بطريقة التدريج والترقى؛ حتى يكـــون لطلابهـــا إلمـــام بحركة المعارف البشرية والوقوف على تاريخ تقدمها منذ بدايـــتها حـــتى الآن، ثـــم تنـــتقل إلى تدريس علوم خاصة بمجرد دعوة طلبتها من بعثاتهم بأوربا.

وقـــد رأت الجامعـــة فى الســـنة التالية ١٩٠٩/١٩١٠م وجوب إحياء علوم العـــرب فإنهـــا وحدهـــا هى الـــتى يمكنها القيام بهذا العمل المجيد، فقررت إلقاء محاضـــرات فى مـــا وصـــلوا إليـــه فى الفلك والرياضيات، وانتخب لهذا الدرس المستشـــرق الإيطالى نلينو لتخصصه فى هذا الموضوع ولما له فيه من التحقيقات التى اشتهر بها عند أهل الدراسة [٤٤].

وحدث فى العام التالى تطور مهم؛ حيث تم إنشاء "كلية الآداب والفلسفة" منذ ١٩١٠-١٩١١م. فـــلا يخـــفى أن التدريس فى الجامعة كان أول الأمر عبارة عن سلســـلة محاضـــرات تلقى فى موضوعات مختلفة. كان الغرض من ذلك هو تعويد الطـــلاب حضور العلوم العليا، وذلك منذ البدء فى سن نظام نهائى للتدريس، ولما آنســـت الجامعـــة فى طلابهـــا أنهم أكثر إقبالاً على سماع العلوم الأدبية منهم على ســـماع غيرها رأت أنه قد حان لها الوقت لإنشاء كلية الآداب والفلسفة على طراز حديـــث تراعى فهي حاجات أبناء القطر، وقد تم تحقيق ذلك ١٩١٠/١٩١١م وكان مـــن المسائل الأساسية أن ينتخب عند الإمكان بعض من العلماء المصريين ليقوموا بالتدريس بالكلية. وفيما يلى برنامج الدراسة لهذا العام وهو :

- آداب اللغة العربية. ويقوم بتدريسها حفنى ناصف بك.
- تاريخ آداب اللغة، ويقوم بتدريسه الدكتور نلينو.
- علم مقارنة اللغات السامية، ويقوم بتدريسه الدكتور ليتمان.
- تاريخ الشرق القديم، ويقوم بتدريسه الدكتور ملونى.

(٤٤) كارلو نلينو : علم الفلك وتاريخه عند العرب، روما ، ١٩١١م.

- الفلسفة العربية والأخلاق، ويقوم بتدريسها سلطان بك محمد.
- تاريخ التعاليم الفلسفية، ويقوم بتدريسه الدكتور سنتلانا.
- الجغرافيا وعلم الشعوب، ويقوم بتدريسها إسماعيل بك رأفت.
- تاريخ آداب اللغة الإنجليزية، ويقوم بتدريسه المستر جيل.
- تاريخ آداب اللغة الفرنسية، ويقوم بتدريسه المسيو لومونيه.

وقد توقفت بعض المواد فى العام الدراسى التالى ١٩١١/١٩١٢م، ومن هذه المواد مادتى: الفلسفة العربية والأخلاق وتاريخ التعاليم الفلسفية، إلا أنهما درسا فى العـــام الذى يليه ١٩١٢/١٩١٣م وقام بتدريسهما الشيخ طنطاوى جوهرى (الفلسفة العـــربية والأخـــلاق)، والمسيو لويس ماسينون (تاريخ المذاهب الفلسفية). وألغيت مادتى الفلسفة فى العام التالى ١٩١٣/ ١٩١٤م رغم عودة منصور فهمى من بعثته بفرنســا ، ويـــبدو أن مـــا أثير حول جرأته فى موضوع رسالته "مكانة المرأة فى الـــتقاليد الإسلامية"، وثورة أصحاب الاتجاهات المحافظة ضده أبعداه عن الجامعة ولمدة ست سنوات حتى عاد إليها عام ١٩٢٠م، وابتداءً من العام الدراسى ١٩١٤/ ١٩١٥م ولمـــدة ســـبع سنوات قام الكونت دى جلارزا بتدريس مادة الفلسفة "تاريخ المذاهـــب الفلسفية"، ويبدو أن المستشرق الأسبانى الذى درس عليه كثير من نبهاء الجامعة وأشاد به تلاميذها قام بتدريس مادتى الفلسفة وإن كان ذلك فى سنوات تالية عـــلى عام ١٩١٤/١٩١٥م. فقد استطعنا الحصول على أصول لكتاباته فى الفلسفة اليونانيـــة. والفلســـفة الإسلامية (أكثر من درس) والفلسفة العامة (الحديثة) وفلسفة الأخلاق.

ومنذ العام الدراسى ١٩٢٢/١٩٢٣م وبعد عودة منصور فهمى للجامعة قام بـــتدريس مـــادة الفلســـفة العامـــة والأخـــلاق[٤٥]، وكـــان برنامج تدريسه يشمل الموضوعات التالية:

أولاً : مقدمة فى المنطق وطرائق البحث (عشرون محاضرة).

ثانياً : تاريخ الفلسفة العامة : أوجست كونت وفلسفته (نحو عشرون محاضرة).

---

(٤٥) انظر دراستنا عن منصور فهمى فى كتابنا "الأخلاق فى الفكر العربى المعاصر"، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩م، الأخلاق الاجتماعية.

ثالثاً : علم الأخلاق بحث فى الأسرة وما يتصل بها من الحقوق والواجبات.

بيـــنما قـــام بـــتدريس الفلسفة العربية وتاريخها فى العام نفسه الدكتور على العـــنانى، ويشمل برنامج الدراسة الموضوعات التالية: الإسلام والحياة العقلية: أهل السـنة والمتكـلمون، المعتزلة والمتصوفة، الأفلاطونيات الحديثة، فلسفة أرسطو، إخـوان الصفا، الكندى، الفارابى، وابن سينا، الفلسفة العربية فى أسبانيا، ابن باجة، وابـن طفيل، وابن رشد، الإسرائيليون بعد ابن رشد، نقل الفلسفة العربية إلى الحياة العقلية الأوربية، عصور الفتور إلى الوقت الحاضر(٤٦).

واسـتمر قيـام منصـور فهمى وعلى العنانى بنفس البرنامج فى السنوات الـتالية؛ حـتى تحولـت الجامعة الأهلية إلى جامعة حكومية مع تعديل فى برنامج منصـور فهمى الذى قام فى السنة الأخيرة ١٩٢٤/١٩٢٥م بتدريس تاريخ الفلسفة فى القرن السابع عشر فى فرنسا وبيان أثره بدلاً من تدريس أوجست كونت.

وللأسـف لم تصلنا بعد دروس كل من منصور فهمى وعلى العنانى، إلا أن معظـم الدراسـات الفلسفية التى ألقيت بالجامعة موجودة على صورة ما، وبالطبع ليـس هذا الموضع مجال تحليلها كل على حدة، أو حتى التعريف بها، لكن قصدنا وضع محاضرات طنطاوى جوهرى فى سياقها التاريخى فى إطار الدرس الفلسفى بالجامعـة الأهـلية، فهو من أربعة أساتذة مصريين قاموا بتدريس هذا التخصص، وهـم عـلى الـتوالى: سـلطان محمد، طنطاوى جوهرى، منصور فهمى، وعلى العـنانى، وإذا استبعدنا منصور فهمى لتدريسه الفلسفة العامة وعدم قيامه بتدريس الفلسفة العربية لأصبح طنطاوى جوهرى فى موقع متوسط بين سلطان محمد الشيخ الدارعمى أول من درس الفلسفة العربية بالجامعة الأهلية(٤٧) وعلى العنانى مبعوث الجامعـة بألمانيا آخر من قام بذلك قبل تحول الجامعة إلى جامعة حكومية، ويبرز اسم الشيخ مصطفى عبدالرازق أستاذ أساتذة الفلسفة والرائد الأول الذى تخرج عليه

(٤٦) انظر ما كتبناه عن على العنانى فى كتابنا "الديكارتية فى الفكر العربى المعاصر"، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٣٨ وما بعدها.

(٤٧) سلطان بك محمد: الفلسفة العربية والأخلاق، مطبعة المعارف ، القاهرة د. ت.

أعلام الأساتذة[٤٨]. وكما يتضح من التناول السابق فإن هناك تصوراً واضحاً لمعنى الفلســفة العربية وموضوعها وأعلامها موجوداً لدى العنانى أكثر مما لدى سلطان محمــد وطنطاوى جوهرى؛ وربما يرجع ذلك للدراسة النظامية التى تلقاها العنانى فى بعثته فى ألمانيا.

كمــا كان طنطاوى جوهرى زميلاً لمجموعة من الأساتذة المستشرقين، وإن لــم يتعاصر تدريسه إلا مع ماسنيون. إلا أن الموضوعات التى قام بتدريسها هؤلاء الأســاتذة تختلف فى كثير من جوانبها عما قام بتدريسه جوهرى، فقد تناول سنتلانا تــاريخ المذاهــب أو التعاليم الفلسفة اليونانية وهى محاضرات مقارنة بينن الفلسفة اليونانيــة والفلســفة الإســلامية، بيــنما قــام ماســنيون بتدريس تاريخ المذاهب [المصــطلاحات] الفلســفية، وهو رغم اختلاف المجال يقترب من درس طنطاوى جوهــرى أو قل إن الأخير هو الذى يقترب منه، ويمكن لنا أن نقارن مادة الفلسفة العــربية التى قام بتدريسها الكونت دى جلارزا مع محاضرات طنطاوى جوهرى، والمقارنــة لــن تكــون فى صالح الأخير. ومع ذلك تظل الدراسة التفصيلية لهذه الــدروس مهمة فى إلقاء الضوء على الدرس الفلسفى فى الجامعة الأهلية من خلال جهــود أســتاذ تخــرج فى دار العلوم وتطلع للثقافة العلمية فى بدايات هذا القرن وتبلورت جهوده فيما ألقاه من دروس بالجامعة المصرية الوليدة.

موضوع المحاضرات[٤٩].

أول مــا يلاحظ هنا أن عنوان المحاضرات هو الفلسفة العربية"، وهى أول مرة يظهر فيها مصطلح الفلسفة العربية من أستاذ مصرى، صحيح أن الجامعة هى التى حددت العنوان إطاراً عاماً للمحاضرات إلا أن طنطاوى جوهرى وسلطان بك

---

(٤٨) انظر عن الشيخ الكتاب التذكارى الذى أصدره المجلس الأعلى للثقافة بعنوان "الشيخ الأكبر مصطفى عبدالرازق مفكراً وأديباً ومصلحاً"، القاهرة ١٩٨٢م، وكذلك كتاب د. على عبدالفتاح أحمد: مصطفى عبدالرازق، دار المعارف، القاهرة.

(٤٩) لم يطبع المؤلف هذه المحاضرات، ولا نجد عنها أية إشارة فى ببيلوجرافيات الكتب التى صدرت فى مصر منذ بداية القرن. وقد قمنا بتجميع ما نشرته جريدة الشعب المصرية التى كانت تصدر فى العقود الأولى من هذا القرن عن الحزب الوطنى (القديم) والتى بدأ نشرها منذ ١٦ نوفمبر ١٩١٢م بالعدد ٢٣١ وما يليه.

محمد، الذى سبقه فى التدريس جعلاً من العنوان العام عنواناً خاصاً لدروسهما وكذا لكتبهما التى عرضت للموضوع، ويبدو أن الاسم قد تحدد ولم تكن هناك أية إشارة فى هـذا الحيـن لمشكل التسمية رغم وجود العديد من دراسات المستشرقين تحمل عـنوان الفلسفة الإسلامية أو الفلسفة فى الإسلام، والأستاذ المحاضر رغم كونه من دعـاة الجامعـة الإسـلامية والإصـلاح الدينى لم يشأ اختيار مصطلح إسلامية، فالتـناقض بيـن التسـميتين لم يكن موجوداً، والأرجح هو الموافقة الضمنية على التسمية التى ارتضتها الجامعة ذات الميول الليبرالية وهى المعهد العلمى الذى تلقى فيه هذه المحاضرات.

يسـعى المحاضـر فى بدايـة المحاضرات إلى تقديم ملخص، أى رءوس موضـوعات لمـا سيتناوله؛ حيث يعرض لتعريف الحكمة ويصر على إضافة لفظ عـلم قـبل الحكمـة ويصر على إضافة لفظ علم قبل الحكمة "علم الحكمة"، وهو مصـطلح بدأ يتردد هذه الأيام باعتباره بديلاً عن اسم الفلسفة. وتصنيف هذه العلوم إلى "نظـرية" وإن كـان يطلق عليها اسم علمية وعملية، وهذا التصنيف هو نفس التقسـيم الأرسطى للعلوم. فالعلوم النظرية ثلاثة : طبيعى ورياضى وإلهى، ويبين أن المقصـود بـالإلهى هـو "مـا بعد الطبيعة"، وهو يختلف عن علم التوحيد عند المسـلمين، وهـذا صـحيح فى الغـالب لانصـراف اسم علم التوحيد على جهود المتكـلمين، وهـو يختـلف كمـا بيـن ابن رشد عن الفلسفة لاعتماده على الجدل واعتمادها على البرهان.

والحقيقـة أن مسـألة تصـنيف العـلوم وهى المسألة الأساسية التى شغلت طـنطاوى جوهـرى كـثيراً فى محاضـراته من المسائل المهمة فى تاريخ الفكر العربى[٥٠]. فقد شغلت كثيراً من الفلاسفة المسلمين والوراقين والنساخين، فكما اهتم الخـوارزمى فى "مفاتيح العلوم"، وابن النديم فى "الفهرست"، بذكر تصنيف العلوم نجـد تصنيفاً مختلفاً لدى: الكندى والفارابى وابن سينا يغلب عليه الطابع الأرسطى، وبالطـبع يختلف تصنيف العلوم عند العرب عن تصنيف العلوم عند الغربيين؛ لأن كل تصنيف يعبر عن حالة العلوم وطبيعتها وعددها فى عصر المصنف، ومن هنا

(٥٠) عن تصنيفات العلوم العربية، انظر كتابنا دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، القاهرة، ١٩٩٠م، القسم الأول.

فالتصـــنيفات التى نجدها لدى بيكون، الذى يشير إليه طنطاوى جوهرى وأوجست كونـــت تختلف عن تصنيفات المسلمين التى يختلف بعضها – خاصة ما نجده لدى طاش كبرى زادة وحاجى خليفة عن التصنيف الأرسطى.

ويشـــير طنطاوى جوهرى إلى بنية التصنيف، أو أساس منن أسس تصنيف العـــلوم، وهو الأساس الأخلاقى الذى يتناول العلوم عبر المقولات الأخلاقية فالعلوم خيـــرة وشـــريرة، محمودة ومذمومة، نافعة وضارة، والعلوم الضارة هى: السحر والســـيمياء والطلســـمات والحـــروف، وهـــو يعدد هذه العلوم ليبين أهمية الحكمة وضرورتها ومنزلتها من نسائر العلوم.

ويجـــتهد طنطاوى جوهرى فى تقديم تصور عضوى لتاريخ الفلسفة يشبهها فيـــه بالكائن الحى وأدوار حياته – وهو اجتهاد على كل حال خاضع للمناقشة حيث يشبه الأمم بالأفراد فى التدرج والرقى، وكما ارتقى "حى بن يقظان" فى أدوار سنه حـــتى وصـــل إلى نهاية المعارف فإن الأمم ترقى فى العلوم فى نفس الأدوار على ذلـــك المنهج، ويعطى مثالاً لذلك بأمة اليونان ووضعهم بإزاء "حى بن يقظان" جيلا بعـــد جيـــل. ثم بعد اليونان يذكر علماء الإسكندرية ثم فلاسفة العرب. وهو يعطى ممـــاثلات مستحيلة تبحث عن مجرد التشابه السطحى متغافلاً عن اختلاف السياق والعصـــر والتاريخ والتفصيلات. فبالإضافة إلى المماثلة المستحيلة بين تاريخ حياة "حى بـــن يقظـــان" وتاريخ الفلسفة اليونانية، نجد مماثلة أخرى بين تأليف شيشرون وسنيكا من جانب وتأليف الغزالى من جانب؛ لتفرعهما عن أصل واحد وإن كان لم يصـــرح بـــه، والمقصـــود هنا بهذا الأصل هو الفلسفة اليونانية. كما يماثل أدوار الفلســـفة الحديثة بعد بيكون بأدوار الفلسفة عند اليونان بأدوار حياة "حى بن يقظان" ويقـــارن دور هكســـلى وهيجـــل بـــدور طاليس وديمقريطس، ودور والسى العالم المعاصر مؤلف كتاب "عالم الحياة" بدور أرسطو.

وفى إشـــارة مهمة يذكر الفكر المصرى القديم الذى يتضح فيما كشفت عنه الـــبرديات، خاصـــة أشعار بنطاؤر، الذى وصل – فيما يقول – إلى ما وصل إليه أفلاطـــون وأرســـطو، ثم يشير إلى محاورة الإسكندر مع فلاسفة الهند، ويشير إلى آرائهـــم فى الاجـــتماع ونظام الأمم مقارناً بينها وبين آراء أفلاطون والفارابى فى المدينة الفاضلة بشكل سريع ثم يشير إلى كتابه "أين الإنسان؟".

ويكمـل فى الجزء الأخير من المحاضرة الأولى بقية المقدمات تحت عنوان "البدء فى دراسة الحكمة" حيث يبدأ بعلم العدد وخواصه وعجائب جذره وتكعبه التقليد الفلسفى بالرياضيات، وهذا ما نجده أيضاً لدى الكندى أول فلاسفة العرب فى تصنيفه للعلوم كما لا حظ بحق أحمد فؤاد الأهوانى. يبدأ طنطاوى جوهرى بالحساب ثم بالهندسة ثم علم الموسيقى، وقد خصص ماسينون لكل علم من هذه العلوم التى تكون العلم الرياضى محاضرة مستقلة، إلا أن معالجة طنطاوى جوهرى تختلف كما يظهر بالتحديد فيما يتعلق بالموسيقى التى يناقش من خلالها قضايا عديدة متشابكة مختلفة : فالعالم كله موسيقى، حتى جسم الإنسان ونظام أعضائه. ويدخل فى ذلك قضية أرشميدس، ثم ينتقل بشكل مفاجئ له دلالته إلى حكم الأغانى فى الشريعة الإسلامية، وما الحلال منها وما الواجب على الأمة الإسلامية؟ ثم يعرض للأوزان والمقامات الموسيقية المختلفة، ويشير سريعاً إلى الأخلاق ثم المنطق وقضاياه التى سيتناولها فى محاضراته المقبلة، وبهذا تنتهى المحاضرة الافتتاحية الأولى التى نحتاج إلى إيراد بعض الملاحظات المهمة حولها.

يلاحظ أولاً أن فهمه للفلسفة فهم واسع فضفاض غير مقيد بنسق أو باصطلاحات تاريخ الفلسفة كما تحددت بعد ذلك، كما تظهر إلى حد ما فى محاضرات ماسينون الذى يقوم بتدريس الفلسفة فى نفس العام ولنفس الطلاب، والذى نجد صدى لمحاضراته فى نفس موضوعات محاضرات طنطاوى جوهرى، وقد كان ماسينون يبدو مهتماً أكثر بفكرة المصطلح الفلسفى وتطوره وهو اهتمام غائب عن طنطاوى جوهرى الذى يزداد اهتمامه بفكرة تقسيم العلوم ونفس الموضوعات التى يكاد يكررها حرفياً فى معظم المحاضرات.

يتجاوز فهم طنطاوى جوهرى للفلسفة مراحل تاريخ الفلسفة الذى يكاد يختفى تماماً، ومن هنا نجد تقارب الآراء وكثرة فى المقارنات وهى مماثلات مستحيلة أدى إليها فهمه الفضفاض للفلسفة. والملاحظة الثالثة على هذا التقديم هى تركيزه على الجانب السياسى والاجتماعى وآراء أفلاطون والفارابى وفلاسفة الهند فى المدينة الفاضلة، بالإضافة إلى اهتمامه بالإشارة إلى الفكر الشرقى القديم، سواء فى الهند أو فى مصر، وهو جانب لم يهتم بالإشارة إليه أى من محاضرى الجامعة المصرية القديمة.

وتــبدأ المحاضرة التالية ببيان علاقة الحكمة بالعلوم الأخرى، وهو لا يكتفى بإيــراد آراء الفلاســفة القدمـــاء فقط بل يستبين بأقوال المحدثين مثل أزفلد كولبه الألمـــانى، وأبيـــات الشعراء، وآيات القرآن، وتسرى فى المحاضرة نغمة وعظية، فالحكمـــة عنده تضم كل العلوم الأخرى، فهى قائد والعلوم جنوده "ويا حسرة على المتعلم المحروم من الحكمة". ويرتبط بالوعظ تداخل بين المستويين الإبستمولوجى والأخلاقى رغم اختلاف مجال كل منهما، إلا أن الشيخ الحكيم بحكم توجهه الدينى الأساســـى يربط بينهما، يقول: "جربت العلم (=الفلسفة) فألفيته لا يسكن قلباً مسكنه الغـــرور" ورغم الأسلوب البلاغى الذى يقتضيه الحديث فى المحاضرة فإن النغمة الأخلاقية تعلو.

ثـــم أخذ يشرح لغويًّا معنى [محاضرات الفلسفة العربية]، فشرح أولاً معنى المحاضرة، ثم أتبعه بمعنى لفظة فلسفة، ثم قضى بذكر حكمة العرب وفلسفتهم على سبيل التلميح، وأتبع ذلك بذكر نموذج لتحققهم فى الفلسفة عشقاً لها وغراماً، ثم أتبع ذلك بذكر حكماء العرب والعجم والمسلمين ليكون السلف قدوة للخلف.

ويقـــدم تعـــريفاً للمحاضرة مستمداً من "مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى العـــلوم" لفظـــة محاضرة معناها فى اللغة المجالدة وتطلق على المقالة على الحق الـــثابت لـــلغير ثـــم الغلبة فيه، والاصطلاح ملكة يقتدر بها على إيراد كلام للغير مناسب للمقام. ويوضح هذا التعريف الذى اختاره فهمه لمعنى المحاضرة وطريقته فى الدرس، فهو كما يتضح من نماذجه التى يعددها لنا يفهم من المحاضرة ما جاء فى المصـــنفات الآتيـــة: "ربيع الأبرار"، "التذكرة الحمدونية"، "ريحانة "الأدب العقد الفريد "محاضرات الأدباء" "ومحاورات البلغاء" و"الشعراء" للراغب الأصبهانى(٥١)، والمحاضـــرات والمحـــاورات للسيوطى، ومحاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار لابـــن عربى، وتنعكس هذه النوعية من الكتابات فى أسلوبه، فإذا كانت هذه النماذج تقـــوم على انتقاء "ضروب من المواعظ والآداب" فإننا نجد محاضراته تسير بنفس الطريقة.

---

(٥١) عن الراغب الأصفهانى، انظر دراسة د. أبو اليزيد العجمى فى مقدمة تحقيقه لكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط٢، ص٨٧.

ومثلما يعتمد المصادر الأدبية السابقة لتحديد فهمه لمعنى المحاضرة يعتمد أزفلد كولبه [الترجمة الإنجليزية] لتحديد المقصود بالفلسفة التى يفهمها فهماً خاصاً يتضح من استشهاده بعبارة شيشرون التى يقول فيها: "أيتها الفلسفة إنك نظام حياتنا وقوام أمرنا، بك قامت الفضيلة، وحسنت ووصرت الرذيلة وقبحت، وأى معنى لوجودنا، ،وأية فائدة لحياتنا إلا بك، إن فيك السر المكنون لهما، فأنت المقصد وأنت الغاية". ثم يستشهد بأقوال "سيديو" صاحب خلاصة تاريخ العرب(٥٢) الذى ترجمه على مبارك، والأستاذ منرو العالم الإنجليزى فى كتابه "تاريخ التربية" من أجل بيان فضل العرب وإنجازاتهم العلمية وما قدموه من اختراعات لبيان عشق العرب للعلم ودقتهم فى الحكمة وغرامهم بالفلسفة، كما شهد بذلك الأستاذ براون الإنجليزى الذى أكد على فضيلة البحث والتدقيق العلمى لدى الكتاب العرب، ويعطى مثلاً لذلك بابن أبى أصيبعة "الذى حاول تحقيق موت جالينوس، فلم يطق صبراً على تخليط المؤرخين، ولم يأل جهداً حتى استوعب تواريخ قياصرة الروم قيصراً قيصراً"(٥٣).

ثم يعطى أمثله مطولة تبين شوق فلاسفة العرب وحبهم للفلسفة والعلم. مثل ابن سينا، الذى توصل إلى إنجازات طبية فى كتابه القانون ما كانت تخطر على بال أحد، ومثل فخر الدين الرازى الذى تتلمذ عليه السلاطين وحضروا مجالس علمه، ويفيض فى إيراد قصص عديدة حول الفخر الرازى مشفوعة بأبيات من الشعر تحكى مواقف حياته وعلمه وكرمه. ثم يعرض للفارابى ويفترض اعتراضاً من طلابه بأن هؤلاء الذين ذكرهم من الأعاجم ورثوا العلم عن آبائهم. وذلك حتى يمهد السبيل لذكر الفلاسفة والعلماء العرب، فيذكر الحسن ابن الهيثم وموفق الدين عبداللطيف البغدادى، ويمهد للمحاضرة التالية وهى من أهم المحاضرات كما يتضح من تمهيده، لكننا للأسف لم نعثر عليها والاعتراض هو أن هذين وإن كانا عربيين ودرسا فى القاهرة بالجامع الأزهر فما هما بمصريين، فهلا ذكرت لنا فلاسفة مصريين، أليس لوطنك عليك حق، والإنسان مغرم بوطنه عاشق لمآثر

---

(٥٢) سيديو : خلاصة تاريخ العرب، ترجمة على مبارك، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت. [دون أن يذكر الناشر أية إشارة لمترجم الكتاب].

(٥٣) انظر ابن أبى أصيبعه: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، د. ت. ص١١١. وما بعدها.

أجـداده". إلا أنـنا للأسـف لم نتوصل إلى هذه المحاضرة بالذات وهى المحاضرة الثالثة من محاضراته، أما الرابعة فهى حول تعريف الحكمة.

والحكمـة عـلم يبحث عن حقائق الأشياء على ما هى عليه فى نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية. وهى تنقسم إلى حكمة نظرية وحكمة عملية، وكل منهما ثلاثة أقسـام، ويفيض فى الحديث عن الحكمة العملية، وهو فى الحقيقة غير مسبوق فى الاهـتمام بهـذه العـلوم؛ حيث يتناولها بالتفصيل مستخدماً الاصطلاحات الأوربية الحديـثة فى تعـريف هذه العلوم، وهى تتعلق إما بمصالح شخص وتعرف بتهذيب الـنفس وعـلم الأخـلاق والحكمـة الخلقية، ويطلق عليها المتأخرون علم الآداب والحكمة الأدبية. ويقال له بالإفرنجية: (مورال) Morale وفلسفة أدبية Philosophie morale.

وأمـا عـلم بمصالح جماعة متشاركة فى المنزل، وإما علم بمصالح جماعة متشاركة فى المدينة، ويسمى "تدبير المدينة" و"السياسة المدنية" وكلاهما يطلق عليه Economic[٥٤] وقـد يقـال له بالإجمال : الحكمة التدبيرية، وله أقسام يذكر منها: تدبيـر المنزل Economie Domestique وحاصله انتظام أحوال الإنسان فى منزله، والعـرب قـد أخذوا ذلك عن اليونان؛ لأن كلمة "إيكونوميا" معناها تدبير البيت أو قوانيـن الـبيت، وكانوا يريدون بذلك تدبير أحوال العائلة وتنظيمها وما يتعلق بها. ويذكـر الشيخ طنطاوى مثلما يفعل مصنفو العلوم العربية القديمة أحسن كتاب فى هذا المجال وهو كتاب ترينوفون وأرسطو - دون أن يسمى هذه الكتب - ويضيف أن المـتأخرين قد قرنوا مع هذه اللفظة "إيكونومى بوليتك" ومعناها الحقيقى "التدبير المـدنى"، وقد سمى المتأخرون هذا العلم بالتوفير أو الاقتصاد السياسى"، ثم يتناول "عـلم تدبيـر المدينة" أو التدبير المدنى أو السياسى أو السياسة المدينة Economie Politique، وهـذا الفن كما يقرر طنطاوى جوهرى محدث لم يكن اليونان يعرفوه على نحو ما يعرفه اليوم عموم الناس فى اصطلاح السياسة.

---

(٥٤) من الواضح أن المصطلح هنا استقر للدلالة على علم الاقتصاد وربما هناك ما يبرر استخدام الشيخ له وإن كان تبريرا غير مقبول كلية للدلالة على التدبير، إلا أنه اقتصر فى العصر الحاضر على ما يعرف باسم الاقتصاد والاقتصاد السياسى.

ويضـــيف أنواعـــاً أخرى للعلوم، إلا إنه يقع فى التناقض حين يعرض لهذه العـــلوم العمـــلية حين يخبرنا أنها علوم نظرية وهى التدبير الزراعى Economie Rurale وهـــو عـــلم أحـــوال الـــزراعة، وهو علم نظرى، ومن هذا القبيل التدبير الحيوانى Economie Animale وهو العلم بالقوانين التى يقوم بها تدبير المنزل.

ثـــم ينتقل إلى الحكمة النظرية التى كان ينبغى عليه حسب تعريفه البدء بها ويعرفها، ويذكر أقسامها المختلفة: الإلهى والرياضى والطبيعى. والعلم الإلهى وهو ما لا يفتقر إلى المادة قسمان : الأول الذى يتناول المبادئ العامة إلهيًا، والثانى علم كـــلىٌ أو فلسفة أولى. أما حكمة الإشراق فهى من العلوم الفلسفية، بمنزلة التصوف من العلوم الإسلامية، كما أن الحكمة الطبيعية والإلهية منها بمنزلة الكلام.

وبعـــد إيضـــاح قصـــير يتناول فيه تحديد علاقة العلوم بعضها ببعض يذكر تصـــنيف حـــاجى خـــليفة "كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون" الذى يرى أن العـــلوم الفلسفية أربعة أنواع: رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية. ثم يعدد فروع هذه العـــلوم، فالرياضة على أربعة أقسام، الأول هو الأرثماطيقى وتحته: علم الحساب القـــبطى والزيجى وعلم عقد الأصابع. والثانى هو الجومطريا (الهندسة)، ومنه علم رفـــع الأثقـــال وعلم الحيل. والثالث علم الأسطرنوميا وهو علم النجوم وتحته: علم الهيئة والميقات والزيج والأحكام والتحويل . والرابع هو علم الموسيقى، وتحته علم الإيقـــاع والعروض. ثم يذكر العلوم المنطقية وأنواعها. وهو هنا أيضاً يتبع التقليد الهلنستى الذى يبدأ بالرياضيات، والذى يختلف عن التقليد اليونانى الأرسطى الذى يبدأ بالمنطقيات. والنوع الثالث هو العلوم الطبيعية وأنواعها، وهى سبعة: المبادئ، السماء والعالم، الكون والفساد، حوداث الجو، علم المعادن، علم النبات، وأخيراً علم الحيوان، ويدخل فيه علم الطب وفروعه.

والنوع الرابع هو العلوم الإلهية، وفيها كثير من الخلط فهو يذكر أنها خمسة أنـــواع، الأول "علم الواجب وصفاته"، وبالطبع فإن هذا العلم ليس علماً أرسطياً أو عـــلى الأقـــل فـ ـن أرسطو لم يستخدم هذا المصطلح الذى نجده بكثرة لدى فلاسفة العـــرب خاصـ ـكندى والفارابى. والثانى علم الروحانيات، والثالث العلوم النفسية والمقصـــود بها ليس الدراسات السيكولوجية الحديثة ولكن "معرفة النفوس المتحدة والأرواح الســـارية فى الأجســـام الفـــلكية والطـــبيعية من الفلك المحيط إلى مركز

الأرض"، والــرابع هــو علم السياسات، ولا أدرى كيف يدرج هذا العلم فى إطار الإلهيــاتــ وتفاصــيل هــذا العلم تجعلنا نتساءل كيف تكون سياسة النبوة وسياسة المــلك"، وتحته الفلاحة وعلم البيطرة والبيزر" وسياسة الذات (الأخلاق) التى سبق أن أدرج بعضها فى الحكمة العملية جزءاً من العلوم الإلهية؟!

ثــم يفيــض فى الحديث عن المنطق معتمداً على كلام ابن سينا فى "عيون الحكمة"، كما يعتمد على ابن خلدون، ويعرض لتقسيمه للعلوم كما يظهر فى الفصل السادس فى "المقدمة" كما يعتمد عليه أيضاً فى بيان الأمم التى عنيت بالحكمة، وهى الفــرس والــروم والأمم القديمة، ويبين انتقال علومهم إلى العربية وأن العرب لم يتقبــلوا كــل ما جاء من اليونان، "وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول واختصوا بالــرد والقــبول ودونــوا ذلــك فى الدواوين"... ويتحدث عن أول الترجمات من الفارســية واليونانيــة ودور عبدالله بن المقفع وخالد بن يزيد ابن معاوية، ثم دور المــأمون ومــترجمى بيت الحكمة ببغداد، ويعرض لنا صورة الفلسفة اليونانية كما عــرفها العرب، ويفصل الحديث فى كتب المنطقيات وأسمائها ومعانيها ومن نقلها إلى العــربية، وينــتقل مــنها إلى الحديث عن الطبيعيات والإلهيات وأسمائها ومن نقــلها، وأســماء النقــلة، إلا أنــه يخلط فى ذكر أسمائهم بين المترجمين والعلماء والفلاســفة حيث نجد أسماء : الفارابى، والنسفى، وأبى الحسن العامرى(٥٥)، وابن سينا ضمن أسماء النقلة والمترجمين.

وأحياناً يعرض لبعض القصص المتداولة فى الكتب القديمة بغية تصحيحها، مــثل قصة حرق ابن سينا لخزانة كتب المسعودى حتى لا يستفيد أحد منها خاصة كــتب الفــارابى، وفساد هذا الرأى واضح؛ فابن سينا نفسه يعترف بفضل الفارابى عليه.

ويميز بين علوم الفلسفة كما عرفها العرب عن اليونان وبين علم الكلام، كما يميــز بيــنها وبين التصوف "إن الإسلاميين لما رأوا فى العلوم الحكمية ما يخالف الشرع الشريف صنفوا فناً للعقائد اشتهر بعلم الكلام".

---

(٥٥) انظر دراستنا عن العامرى فى مقدمة تحقيقنا لكتابه: السعادة والإسعاد فى السيرة الإنسانية، القاهرة، ١٩٩٨.

وينـــتقد الشـــيخ وهو محقٌ ظاهرة تفشت فى الفكر الإسلامى المتأخر وهى اســـتخدام الحواشى والشروح والابتعاد عن الأصول "إن بعض المحققين أخذ طرفاً مـــن كـــتب الشـــيخ (يقصد ابن سينا): كالشفاء والإشارات وعيون الحكمة وغيرها وجعل له مقدمة ومدخلاً... فصار قصارى هم أهل زماننا الاكتفاء بشيء من قراءة الهدايـــة "لأثيـــر الدين الأبهرى"... ولو تجرد بعض المشتغلين وسعى إلى مذاكرة حكمة العين لكان ذلك أقصى الغاية فيما بينهم".

ثم يعود بعد هذه الانعطافة الطويلة ليعرض للطبيعيات، وذلك من خلال كتب ابـــن سينا خاصة "النجاة" التى يتناولها بالتحليل مقالة مقالة، ثم يشير إلى عدم وجود نسخ كاملة من كتاب "الشفاء" فى الديار المصرية.

ويعرض للكتب الإسلامية المقصود بها جعل الفلسفة توحيداً إسلامياً أى كتب عـــلم الكـــلام. وهى "المقاصـــد فى عـــلم الكـــلام" للإمام السعد وهو ستة مقاصد، و"المواقـــف" لـــلعلامة الآيجى وهو ستة مواقف؛ لينهى بذلك المحاضرة الرابعة فى تعريف الحكمة وعلومها المختلفة.

وتـــأتى المحاضـــرة الخامســـة لتكمل ما سبق؛ حيث يتناول "حصر العلوم" وتعـــريف أهمها وتبيان أجزائها". وهى لا تضيف جديداً بالنسبة لما سبق وإن كانت تعـــرض له بطريقة أخرى فهو يقسم العلم إلى : مقصود لذاته وغير مقصود لذاته، الأول هـــو العـــلوم الحكمية نظرية وعملية، أما الثانى فهو آلة لغيره؛ فإما للمعانى وهـــو عـــلم المـــنطق، ،وإما لما يتوصل به إلى المعانى من اللفظ والخط وهو علم الأدب. ويضـــرب صفحاً عن علوم الأدب فإنها معلومة ويتناول المنطق، وهو علم يتعـــلم مـــنه ضـــروب الانـــتقالات مـــن أمور حاصلة من ذهن الإنسان إلى علوم مستحصلة به وأحوال تلك الأمور وأصناف ترتيب الانتقال فيه. ورتبه أرسطو على تسعة أجزاء يذكرها بالتفصيل، ورغم أنه قد سبق أن عرض لها من قبل.

ثم يعرض للعلم الإلهى وأجزائه وللعلم الطبيعى الذى وضعه أرسطو ورتبه عـــلى ثمانية أجزاء. وبعد تناولها يشير إلى هذه الأنواع الثمانية التى تقرأ عادة فى عـــلم الفلســـفة، وقد وجب تدريسها فى الجامعة جرياً على ناموس المتقدمين، فليس بعالم بالعلم الطبيعى من أغفل فنا منها، أما فروعها فهى لا تدرس فى هذا الفن بل

تجعــل علوماً مستقلة، وهى: علم الطب، علم البيطرة والبيزرة، علم الفراسة، علم تفســير الرؤيا، وعلم أحكام النجوم، وعلم السحر، وعلم الطلسمات، وعلم السيمياء، وعلم الكيمياء، وعلم الفلاحة، ويعرض بالتفصيل لكل منها.

ويتــناول بعــد ذلــك العــلوم الرياضية الأربعة: الأرثماطيقى، والهندسة، والأســترونوميا، والموســيقى، ثم يذكر فروع هذه العلوم بالتفصيل على عكس ما يفعل فى نهاية هذه المحاضرة ولا يزيد.

ويخصـــص المحاضرة السادسة للموسيقى العربية، ويقوم بتكرار ما سبق أن تحــدث عــنه من تعريف للحكمة وبيان لأقسامها حتى يصل إلى الموسيقى، وبعد مقدمـــة إنشائية فى جمال الطبيعة يتحدث عن الفلسفة ويذكر أقسامها، ويتوقف عند عــلم الموســيقى؛ وهو علم له أجزاء: النغمات وأطوالها، الإيقاع وهو اعتبار زمن الصـــوت، بيـــان تأليف الألحان وبيان الملائم منها، وأخيراً إيجاد الآلات الموسيقية وتقديـــرها. ويـــبين أن فى الموسيقى عند فلاسفة الإسلام هو معرفة النسب وكيفية التأليف اللتان بهما وبمعرفتهما تكون الخدمة فى الصنائع كلها ومنها صنعة الغناء. ويعــدد أنــواع الألحـــان المختلفة، فمنها المحزنة وأخرى تكسب النفوس الشجاعة والإقــدام.. فصـــناعة الموســيقى تستعملها كل الأمم وتستلذها جميع الحيوانات ، والنغمات لها تأثير فى النفوس الروحانية.

ويـــربط بيـــن الموسيقى والغناء رغم أن المقصود بالموسيقى هنا الموسيقى الخالصـــة، ولا يجوز الخلط بينهما؛ ولهذا السبب يتناول العروض والقوافى، وهى أدخـــل فى عـــلوم الأدب منها إلى الموسيقى كعلم من العلوم الرياضية، ويدخل فى تفصيلات لا متناهية فى العروض وقوانين الغناء، ثم يتحدث عن مركبات الأغانى العـــربية الـــثقيل الأول وخفيفه، والثقيل الثانى، والرمل والهزج مستعيناً بالأشعار، عارضـــاً مـــا قـــال به الغزالى – تحليلها وتحريمها – فى "الإحياء"، الذى أطلق إباحـــتها، وأفـــاد أن تحـــريمها لا يكون إلا لعارض. ويذكر آراء أفلاطون وفنلون الفرنســـى، وأحـــوال الأمـــة المصـــرية. وكلها تسعى إلى ربط الغناء والفن عامة بالفضـــيلة. ثم بعد ذلك يتناول الموسيقى فى الشعر العربى وينتقل منها إلى النسب الموسيقى فى الخط العربى، وأخيراً يأتى بنوادر وأقوال الفلاسفة فى الموسيقى.

ويفيـــض فى المحاضـــرة السابعة "فى ملخص علم الطبيعة" فى الحديث عن الطبيعة والعلم الطبيعى، ويظهر فيها مدى اهتمامه وشغفه بالعلم، فهو يتناول مفهوم علم الطبيعة وتعريفه وموضوعاته العلمية أكثر من تناوله للحكمة الطبيعية "إن علم الطـــبيعة فى هذه العصور مختص ببعض خواص الجسم العامة والخاصة" ويفيض عـــلماء الفيـــزياء فى القول فى قوتى الجذب والدفع بين الدقائق، ويصفون الجاذبية العامة وجاذبية الثقل والأجسام الساقطة ومركز الثقل ورقاص الساعة، ويبحثون فى الحركة والقوة ونواميس الحركة وما تفرع على ذلك من الميكانيكا، ثم يبحثون عن الســـوائل ثـــم الهـــواء وصـــفاته ودرجاتـــه، ثم الصوت وانتقاله وانكسار الصوت وانعكاســـه، ثم الإبصار والحرارة وماهيتها وتغييرها، والآلات البخارية والظواهر الحيوية ثم الكهربائية والمغناطيسية.

ويعـــود مـــرة ثانيـــة إلى "تقســـيم الحكمة" فى المحاضرة الثامنة، ويتناول بالتفصـــيل فى نهايتها العلوم النفسية والعقلية، ويعدد داخلها عشرة علوم هى أقرب إلى الموضوعات مثل :

- المبادئ العقلية على رأى فيثاغورس والغرض من أنواع الموجودات كالأعداد.
- المـــبادئ العقـــلية على رأى حكماء الإسلام فى البحث عن علة الأشياء وأسباب الكائنات.
- أن العالم كله إنسان كبير ذو نفس وروح.
- فى العقـــل والمعقـــول، والعقـــل الهيـــولانى والعقل بالقوة والعقل بالفعل والعقل المستفاد والعقل الفعال.
- اختلاف القرون والأمصار والدهور والغرض بيان ترتيب العالم وظهوره.
- ماهية العشق ومحبة النفوس ونزوعها وتشوقها إلى الاتحاد.
- ماهية البعث وأقوال العلماء فيه.
- كمية أجناس الحركات ومبادئها وغاياتها وكيفية حركة الطبائع.
- العلل والمعلولات وكيفية رجوع أواخرها على أوائلها.

– الحـدود والرسـوم ومعرفة حقائق الأشياء وماهيتها وأجناسها وأنواعها المركبة والبسيطة والعلوم الناموسية العامة.

ثـم يفيـض فى المحاضرة التاسعة فى الحديث عن المقولات العشر، وينتقل فى المحاضـرة العاشـرة من المنطق ليتحدث عن المحسوسات، وهى صورة من المعقـولات فيذكـر الجوهر وصفاته المختلفة التى تحس من : ملموسات ومذوقات ومشـمومات ومسـموعات ومبصـرات (الكيفيات المحسوسة) وهذه الكيفيات منها الوضـع والكم المتصل الذى هو الأبعاد الثلاثة، وهناك كم منفصل قار هو الأعداد، وكم منفصل ليس بقار هو الزمان.

وكمـا يبحث فى الطبيعيات كلها عن جميع الظواهر، يلاحظ فى علم التاريخ المـتى، وفى الجغـرافيا الأين ، وفى علم تمييز الجمال (الاستطيقا) الوضع، وفى الصـنائع كـلها والحـروف والـتعاليم الفعـل، وفى المواد السائلة والمسبوكات والمصـنوعات والمحكوميـن والمسـجونين الانفعال... فهذه عشر مقولات وهى: الجوهـر والكيـف والكم والإضافة والفعل والانفعال والمتى والأين والوضع. إنما قصـد الفلاسفة بها معرفة هذه المادة وصفاتها بطريق الحصر الوجودى، فالحواس تتعلق بالكيفيات المحسوسات.

ويعـرض فى المحاضـرة الحاديـة عشـرة وهى آخر ما عثرنا عليه من محاضـراته فى الفلسفة قبل أن يتطرق للأخلاق، وإن كانت فى الحقيقة ليست نهاية المحاضرات حيث يبدو، بل من الضرورى، أن تكون لها بقية. فالكلام لم يكتمل – يعـرض فى هـذه المحاضرة التى لم يضع لها عنواناً لعدة موضوعات هى: العالم المحسـوس الجثمانى أو عالم العناصر المشاهدة، ثم عالم التكوين والتقاء العالمين. ثم الحواس الإنسانية والنفوس البشرية، وأصنافها، والقوى الإدراكية للنفس البشرية والانـتقال من البشرية إلى الملائكية والروحانية والوحى بالنسبة للنبى، والفرق بين الوحى والكهانة.

يقـول فى بداية المحاضرة: "أعلم أرشدنا الله وإياك أننا نشاهد هذا العالم بما فيـه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصـال الأكـوان واسـتمالة بعـض الموجودات إلى بعض.. فالعالم المحسوس

الجسثماني أولاً عالم العناصر المشاهدة، ترى كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض، وكل مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً أو هابطاً... والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهى إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل.." يتحدث عن عالم الأفلاك أو الصعود من عالمنا الحسى، عالم العناصر الأربعة إلى "عالم ما فوق فلك القمر" كما يسميه أرسطو، ولكن دون أن يذكر الاسم مكتفياً بعالم الأفلاك.

ويبدو أنه يقترب من نظرية الفيض لكن دون أن يذكرها، فالعبارة التالية مباشرة من حديثه توحى بذلك، يضيف : "إن عالم الأفلاك على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط، وبها يهتدى بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك وجود الذوات التى لها هذه الآثار".

ولا يتضح هذا التفسير لكلام جوهرى إلا بعرض حديثه عن "عالم التكوين"، ورغم أن مصطلح عالم التكوين أقرب إلى الدين منه إلى الفلسفة فهو يعنى مصطلح ما تحت فلك القمر يقول: "انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان (تجدها) على هيئة بديعة من التدرج، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكروم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد أن يصير أول أفق للذى بعده، وعالم الحيوان وإن تعددت أنواعه وانتهى فى تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرؤية، بعرض جوهرى هنا لتطور الكائنات وإن لم يستخدم المصطلح فى المحاضرات، لكنه استخدمه فى مقالة مهمة ظهرت فى العدد ٣٤٣ من جريدة "مصر الفتاة" فى ١٥ نوفمبر ١٩٠٩م بعنوان "مذهب دارون عند العرب" أعاد نشره د. عبدالعزيز جادو فى كتابه عن الشيخ، وهو يكرر فيه ما صرح به هنا فى المحاضرات من اتصال الكائنات، وأن العرب اقتربوا من نظرية التطور كما جاءت لدى الإنجليزى دارون.

ويتناول حواس الإنسان ووظائفها، الحواس الداخلية والحس المشترك والنفس الإنسانية وأنها على ثلاث أصناف:

١- صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحانى فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعانى الحافظة الواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص.. وهو متوجه لإدراك الأوليات.

٢- صنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدراك الذى لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك، فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات.. ويسرح فى فضاء المشاهدات الباطنية، وهى وجدان كلها... وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية.

٣- وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة إلى الملائكية؛ ليصير فى لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل، ويحصل له شهود الملأ الأعلى وسماع الكلام النفسانى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة، وهؤلاء هم الأنبياء.. وتلك اللمحة هى حال الوحى.

ويفيض فى بيان الوحى وحالاته "فتارة يسمع دويًا وكأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذى ألقى فلا ينقضى الدوى إلا وقد وعاه وفهمه، وتارة يتمثل له الملك الذى يلقى إليه رجلاً فيكلمه ويعى ما يقول، والتلقى من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه وكأنه فى لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر لأنه ليس فى زمان... هذا محصل أمر النبوة، وأما الكهانة فهى أيضاً من نواحى النفس الإنسانية؛ وذلك أنه قد تقدم لنا فى جميع ما مر أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية، وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك، وتقرر أنه يحصل من غير اكتساب ولا استعانة بشىء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الأمور، إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملائكية".

والسؤال الآن هل تنتهى محاضرات "الفلسفة العربية" بهذه المحاضرة؟ وهل هى فقط إحدى عشرة محاضرة؟ ليس لدينا من إجابة سوى ما وجدناه بأعداد جريدة "الشعب" القديمة. هل هناك أعداد مفقودة من الجريدة؟ هل الجريدة لم تنشر كل المحاضرات؟ أسئلة لا نجد إجابة عنها إلا من أحد أفراد جيل طنطاوى أو تلاميذه أو أبنائه!

هـذا عـن الجـزء الأول المتعـلق بالفلسفة العربية، والجزء الثانى يتعلق بـالأخلاق ويتناول فيه "آراء العلماء فى السعادة". ولا نجد فى هذا الجزء الثانى أية نظـرية متكاملة فى الأخلاق تقدم لنا ما يتعلق بها، ولا حتى عرضاً لأقوال وآراء ونظـريات الفلاسـفة اليونان أو المسلمين، فما قدمه أقرب إلى الخواطر الإنسانية والمواعـظ العامة، لقد كان فى إمكانه أن يستفيد من تصنيفه وتقسيمه لعلوم الحكمة بحيث يتوسع فى الحديث عن الأخلاق باعتبارها إحدى العلوم العملية كما توسع فى تدبير المنزل وسياسة المدنية إلا أنه لم يفعل.

يشير طنطاوى جوهرى إلى أن كل حى يسعى لسعادته، ولن نرى رجلاً أو امـرأة، مـلكاً أو صعلوكاً أو جاهلاً إلا وهو للسعادة طالب ولراحة نفسه من الألم سـاع مجـاهد. بل إن الحيوان يشارك الإنسان مسعاه نحو السعادة. وهى قسمان: وقـتية ودائمـة، الأولى أقرب ما تكون إلى الوسيلة الدائمة بصفاء النفس والقناعة والصـبر والرضا والشجاعة والحكمة، وبالجملة سائر صفات الجمال من الأخلاق الفاضـلة. ويمكـن تقسـيمها إلى ثلاثة أقسام: السعادة البسيطة، والسعادة المركبة، والسـعادة العامـة. والسـعادة العامة هى ما قرره العالم "جون لوبوك" ويقصد بها طنطاوى جوهرى أن يقابل الإنسان العالم والأشياء بأحسن وجهيها.

والسـعادة المركـبة هى الـتى ذكرها حجة الإسلام فى "الإحياء" وحاصلها يرجع إلى أربعة أركان: النفس والجسد والمال والأصحاب، فالأصحاب هم الأعوان فى الشـدائد والمواسون فى النوائب، وهؤلاء يصلحهم المال (الركن الثالث) فلينفق مـنه عـلى النفس والأهل والأغنياء ليساعدوه والفقراء ليدعوا له. (والركن الثانى) وهـو الصحة فى البدن وقوته، ولا تكتمل هذه كلها إلا بالركن الأول. وفى السعادة البسـيطة يعرض رأى قابس أو ما عرف عند العرب بلغز قابس، ويفيض فى بيان مغـزى هـذا اللغز. وتكاد تكون المحاضرة كلها شرحاً للصور البيانية والتشبيهات والرموز التى يحتوى عليها والتى تدل على السعادة والشقاء فى الشهوة وحب المال وغيـرها. ويـتوقف فى محاضرات الأخلاق عند هذا الحد، ولا ندرى إن كان لها بقية أم لا؟

إن هـذه المحاضرات تحتوى على أجزاء لا زالت مجهولة، وقد يفيد الكشف عـنها يوماً فى بيان الصورة الصحيحة للدرس الفلسفى عند طنطاوى جوهرى. إلا

أنهـا وبصورتها الحالية تلقى ضوءاً مهماً على هذا الدرس. ولن نعيد ما قدمناه من تعـليقات عليها أثناء تحليلنا لها، إلا أننا سوف نتوقف عند سمات مهمة تميز تفكير طنطاوى جوهرى وكتاباته تتضح في هذه المحاضرات وهى:

أولاً : تمـثل المحاضرات صورة مبكرة من صور التعرف أو إعادة التعرف على الفلسـفة العربية فى بداية القرن بعد محاولة سلطان محمد الذى قام بتدريس هذه المحاضرات فى العام السابق، وإن كانت محاضرات طنطاوى جوهرى أكـثر نضـجاً بمعـنى أنهـا تحتوى على قدر من فهم المشكلات الفلسفية والمصطلح الفلسفى لا نجده عند سلطان محمد.

ثانيـاً : تكـاد تغفل المحاضرات تماماً عن الإحساس بتاريخ الفلسفة، وبالتالى أى تحديد دقيق للمشكلات الفلسفية التى أثيرت فى كل عصر من عصور الفلسفة أو كل مرحلة من مراحل تاريخها.

ثالـثاً : الخـلط بين مفهوم الفلسفة ومفهوم العلم، فأصبحت الفلسفة هى علم الحكمة مـع فهـم العـلم بأنه علم الفيزياء. وأصبح هدف المحاضرات هو تعريف الحكمة وتقسيم العلوم المختلفة التى تندرج فى إطارها.

رابعاً : التكرار المستمر فى ذكر العلوم وأقسامها الرئيسية والفرعية مع الاستطراد فى أشـياء ثانويـة لا تندرج مباشرة ولا تخدم هدف المحاضر، انطلاقاً من فهمـه لمعـنى المحاضرة، ومن هنا يذكر أشياء كثيرة حول حياة فلان، وما يحكى عن كرمه أو زهده أو حبه للعلم أو إجلال السلاطين له.

خامساً : التغافل المقصود عما كان يدرس قبله أو معه فى نفس الفترة فى الجامعة، فـليس هـناك أدنى إشـارة إلى محاضرة نلينو فى "علم الفلك وتاريخه عند العـرب" ولا محاضرات سنتلانا أو سلطان محمد اللذين سبقاه ولا ما سينون الذى عاصره، رغم وجود إشارات توضح استفادته من الأخير.

سادسـاً : عـدم وجـود خطة أو تصور محدد لمفهوم الفلسفة العربية سوى ذكر مقـتطفات مـن أقوال الأوائل مع الإشارة لفضلهم تشجيعاً للخلف أن يحتذى بهم مع علو النغمة الحماسية والوعظية.

ســابعاً : المكانـــة التاريخية التى تحتلها هذه المحاضرات باعتبارها امتداداً للفلسفة العــربية القديمـــة فى العصر الحديث، تؤصل وتجدد ما يدرس فى الأزهر ودار العلوم فى الجامعة المصرية الوليدة من أستاذ مصرى.

طنطاوى جوهرى والثقافة الفلسفية :

يهمــنا فى هــذه الفقرة كى نصل إلى معرفة موقف طنطاوى جوهرى من تــاريخ الفلســفة ومراحــلها المختــلفة ومــدى تعمقه فى الثقافة الفلسفية وإلمامه بالمشــكلات وتفصــيلاتها والمصطلحات وتطورها أن نطرح سؤالا أولياً وهو: ما المصـــادر الفلســفية التى استقى منها الشيخ ثقافته الفلسفية؟ وعما تعبر هذه الثقافة؟ وإلى أى مدى وصلت معرفته بها كما تعبر عنها كتاباته الفلسفية؟

لقد درس الشيخ طنطاوى أولاً بالأزهر ثم درس العلوم الحديثة بدار العلوم. فلــنا أن نــتوقع دراسته للعلوم الأزهرية مثل : أصول الدين (=علم الكلام) وبعض الشــروح والحواشـــى المنطقية السائدة مع العلوم الدينية المختلفة من قرآن وحديث وتفســير بالإضـــافة لما تعلمه فى دار العلوم. إلا أن هناك مصدراً آخر استمد من الشــيخ تكويــنه العلمى، هو القراءة الحرة المستمرة والتى تمثلت فى المخطوطات القديمـــة بالكتــبخانة الخديويـــة من جهة والترجمات التى قام بها بعض المتنورين العــرب لكلاسيكيات الكتب الغربية مثل : ترجمات أحمد فتحى زغلول لكتب بنتام وجوســتاف لوبــون التى اطلع عليها كما نستنتج من دراسته "أمراضنا الاجتماعية" الــتى نشرها بالعددين ٦٤، ٦٥ بالنشرة الاقتصادية المصرية، ويتضح إلمامه بكتب الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام والتصوف من شهادة المستشرقة الروسية مدام ليديف الــتى قــرأ معها الأسفار الأربعة للشيرازى والإشارات لابن سينا وكتب الفارابى وابن عربى والرسالة القشيرية وغيرها.

وتعــبر حصيلة طنطاوى جوهرى الفلسفية عما وصلت إليه صورة الفلسفة لدى واحد من المثقفين المصريين فى العقود الأولى من هذا القرن. ويمكن فى هذا المجــال أن نــتذكر جهــد محمد عبده خاصة فى رسالة التوحيد، وسوف نجد أن الأخيــر اهتم اهتماماً متعمقاً بأحد العلوم الإسلامية وقدم فيه عمله المهم، بينما ظل طنطاوى جوهرى باقياً على إخلاصه لفهمه للفلسفة باعتبارها حب الحكمة على قدر الطاقـــة البشرية. وهنا نتساءل عن نتاجه الفلسفى كما يظهر فى كتبه التى نعرفها،

وقــد أشرنا فيما سبق إلى كتاباته الفلسفية وهى: "رسالة الحكمة والحكماء"، "أصل العــالم": "مباحث فلسفية فى الجغرافيا الطبيعية"، "محاضرات فى الموسيقى العربية" بالإضـــافة إلى محاضـــراته فى الجامعـــة الأهلية ودراساته عن "الفلسفة العربية"، و"مذهــب دارون عــند العرب"، و"السفسطائية"، و"الفلسفة عند العرب"، وبالإضافة إلى دراســتين أساسيتين هما: "أحلام فى السياسة وكيف يتحقق السلام العام" و"أين الإنسان؟"، وغيرها.

والســؤال هــو ماذا يا ترى كانت صورة الفلسفة عند طنطاوى جوهرى فى ســياق هــذا النتاج الذى قدمه لنا فى الفلسفة العربية أولاً ثم صورة الفلسفة الغربية الحديثة كما ظهرت فى مؤلفاته وترجمته لكتاب كانط فى التربية ثانياً؟

لقــد تناولــنا محاضرات الشيخ الحكيم فى الجامعة الأهلية التى عرض فيها لــتعريف الحكمــة وأقســامها، والمصــادر التى استقى منها مادته العلمية، وهذه المصــادر لم تكن عربية فقط، بل وجدناه يشير إلى كتب مترجمة وكتب أوربية - إنجـليزية خاصة - وقد حرص فى أحيان كثيرة على أن يضع المصطلح الأوربى إلى جــوار المصــطلح العــربى، بالإضافة إلى الإشارة الدائمة للفلاسفة والمؤلفين الأوربييــن. فهو يقارن تقسيم العرب للعلوم بتقسيم بيكون ويذكر كلاً من شيشرون وســنيكا مــع الغــزالى، كمــا يتناول فتلون والكون دى سيجر إلى جوار طاليس وديمقريطس. ويستخدم مؤلفات: أزفلد كولبه "المدخل إلى الفلسفة" وسيديو "خلاصة تاريخ العرب" مع استخدامه لمؤلفات : ابن خلدون "المقدمة " وحاجى خليفة "مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم".

وتظهــر نزعــته الفلسفية فى رسالته القصيرة "أصل العالم" وهى كما يذكر مــباحث فى الجغرافيا الطبيعية وهى رد على رسالة أرسلت إليه يستفسر صاحبها عــن أصــل العالم. ويحدد الشيخ إجابته فى ميدان "علم ما وراء الطبيعة" وهو فن عزيز المطلب صعب المنال لا يشد إليه الرحال إلا الأقلون. ويعرف هذا العلم بأنه العلم الباحث فى الأمور العامة، وهى لا تخص علماً طبيعياً ولا رياضياً.. ومن أهم المسائل فى علم ما وراء الطبيعة أصل العالم وتكوينه وكيف كان مبدؤه، وقد بحث فى الإنســان فى أقدم عصوره وأبعد دهوره ومن أول نشأته فى هذا الوجود. وهو فى إجابــته يعطينا صورة صادقة عن ثقافته العلمية والفلسفية، فهو يستشهد بشرح

بخنر الألمانى لمذهب دارون، وبعرض لأدوار الفلسفة والرأى السائد الآن فى أصل العـــالم، ويذكـــر كـــلاً مـــن: ابندوقليس، ولا بلاس وديمقريطس وطاليس وأبيقور وانكيمـــانس وبقيـــة الفلاســـفة اليونان: سقراط وأفلاطون وأرسطو وانكساجوراس وبـــروتاجوراس وفيثاغورس، كما يذكر المدارس: الرواقية والسفسطائية وغيرها، مما يدل على فهم متكامل للفلسفة اليونانية.

ونفس الأمر نجده فى "محاضرات فى الموسيقى العربية" وكذلك فى رسالته "الحكمـــة والحكمـــاء" حيث يعرض لأقسام الحكمة (اهتمامات الفلاسفة)، فمنهم من ولـــع بجمـــال هذا العالم، فبحث عن الأفلاك والكواكب والعناصر كطاليس اليونانى وفيـــثاغورس، ومنهم من لم يعن إلا بنظام الأمة وحكومتها وتهذيب النفس وحسن الخـــلق كسولون، ومنهم من آثر تهذيب النفس ولم يعبأ بالعالم والطبائع كديوجينس الكلـــبى.. ومنهم من جمع بين الأمرين كابن سينا والفارابى وابن رشد وأضرابهم، فأولـــئك هـــم قواد الأمم حقيقة.. ويشير إلى الفلاسفة والعلماء الغربيين الذين قلبوا النظام العلمى فى ديارهم مثل بيكون ولوثر وسبنسر ودارون وغيرهم.

وتتجلى ثقافته الفلسفية فى توظيفه لأفكار الفلاسفة والاستعانة بها فى كتاباته الخاصـــة، يظهـــر ذلـــك بأدق صورة فى كتابه (أين الإنسان؟) حيث نجد مصطلح الفلســـفة عـــنواناً لعديد من الفصول : الفصل السادس أنواع الحكومات والفلاسفة، والتاســـع: الفلســـفة العتيقة والفلسفة الجديدة، والعاشر المنطق والأخلاق والسياسة، وفى الفصـــل الـــثانى يستشهد بأقوال كانط فى التربية. وفى السادس يعرض آراء أرســـطو واسنســـر ودارون وينـــتقدها، ويبين فى الفصل التاسع أن نظرية التطور والـــبقاء للأصلح لا ترجع إلى دارون فقط بل إلى إبيقور أيضاً، ويخبرنا فى الفصل الثانى عشر "إن بعض العلماء هم الذين اهتموا بالمشكلات السياسية وحاولوا إقرار الســـلام بيـــن البشر، ويذكر من هؤلاء هربرت سبنسر الإنجليزى والفاضل اللورد ايفـــبرى والعلامـــة مـــاركس الألمانى والمستشرقة المدام ليديف (جلنار الروسية) وكـــانط الألمانى. كما يذكر من العلماء اسحق نيوتن فى الفلك وداروين فى الفلسفة وسبنســـر الإنجليزى، وفلامريون الفرنسى الذى اكتشف جيولوجيا طبقات الأرض، والاشـــتراكيون وأديســـون الأمـــريكى كمـــا يشير إلى القطب الشيرازى والأسفار الأربعة. ويتوقف عند لغز قابس ومعناه الأخلاقى.

ونجد نفس الموقف فى "أحلام فى السياسة والسلام العام" وهى كما يشير فى المقدمـــة "مباحث فى الحكمة والفلسفة والعلوم العقلية والدينية" ويشير إلى مراجعه الـــتى تحتوى على عدد من المراجع العلمية الإنجليزية . ويتجاوز فى هذه الكتابات الفلاسفة العرب واليونان والأوربيين المحدثين.

لقد اطلع الشيخ على بعض الكتب الفلسفية الإنجليزية أو المترجمة إليها مثل كـــتاب أزفلد كولبه "المدخل إلى الفلسفة" وكتاب "التربية" لكانط الذى ترجمته السيدة أنـــت تشـــرتون إلى الإنجـــليزية ونقله الشيخ إلى العربية، وتحتاج هذه الترجمات المـــبكرة لأحد كتب كانط إلى إشارة خاصة وأن كانط قد عرف فى العربية من قبل هـــذا التاريخ من خلال محاضرات ماسينون والكونت دى جلارزا والمقالات التى نشـــرت بالمجلات المصرية. حيث نشر العقاد مقالين عن كانط عام ١٩٢٤م، وقد تأثـــر بهما أستاذ الفلسفة بالجامعة المصرية الدكتور عثمان أمين كما يشير إلى ذلك فى كتابه "الجوانية"، وكتب إبراهيم حداد فى المجلد الرابع عشر من مجلة العصور فى أكتوبر ١٩٢٨م عن "إيمانويل كانط: أعظم فلاسفة القرن الثامن عشر" كما نشر حنا خباز فصلاً مهماً عن كانط فى كتابه عن "فلاسفة الأدهار".

إلا أن أهميـــة تـــرجمة طنطاوى جوهرى لكتاب كانط فى التربية ترجع إلى أنهـــا وضـــعت بين يدى الباحثين مادة مهمة لموضوع كثر الجدل فيه يهم الأسرة والمـــربى والمعلمين، وقد توالت الأبحاث حول التربية عند كانط فكتب حسن كامل عن " هيلفيستوس وكانظ وأثرهما فى التربية" فى المجلد ٨٨ بالمقتطف. كما أثار د. محمـــد فـــتحى الشـــنيطى فى الكتاب التذكارى عن عثمان أمين "خواطر كانط فى التربية" ودرس عبدالرحمن بدوى "فلسفة كانط فى التربية" ١٩٨٤م وأخيراً د. سهام محمـــود العراقى تناولت "فلسفة الدين والتربية عند كانط" ١٩٨٠م، لقد طلبت مجلة النهضـــة النســـائية من الشيخ الحكيم أن يكتب عدة مقالات بها. ويخبرنا أنه لم يجد "موضـــوعاً أشـــرف ولا أجل ولا أكمل من موضوع يفضل تربية الطفل فى مهده ويصلحه فى طفولته ويصقله فى شبابه ويسعده فى نشوئه ويزيده كمالاً وجمالاً فى سائر أيام حياته، ولم يجد أكمل من كتاب ألفه الفيلسوف الألمانى كانط".

ويهــدف الشيخ من الترجمة إلى بيان فائدته العملية فى تربية النشء وتعليم المربين كيفية التربية. والعمل فى الحقيقة ليس ترجمة حرفية كاملة للكتاب، بل هو أقــرب إلى التــلخيص مــنه إلى الترجمة. ولا نهدف من هذه الإشارة إلى عرض الكــتاب أو تــلخيص التــلخيص، فقط نشير إلى كونه محاولة مبكرة فى نقل أحد النصوص الفلسفية، وهى محاولة يمكن مقارنتها بجهد محمود الخضيرى الذى نقل واحــداً من أهم كتب ديكارت وهو "المقال فى المنهج" وهى ترجمة أساسية مزودة بتعــليقات وشــروح ودراسة نقدية وافية عن مؤسس الفلسفة الحديثة اعتماداً على أمهات المراجع الغربية، وقد صدرت قبل صدور ترجمة طنطاوى جوهرى لكانط، وبمقارنـــة العملين يظهر اختلاف الغرض حيث اهتمام الشيخ عملى موجه لجمهور عــريض، بينما اهتمام الخضيرى اهتمام علمى معرفى موثق يخاطب المتخصصين قــبل مخاطبــته للمثقف العام، يقدم منهجاً فى الترجمة من أجل خدمة وفهم التراث الفلسفى العربى بإحياء مصطلحات وبعث لغته، وهذا ما لا نجده لدى الشيخ الحكيم. ومــع ذلــك فللشــيخ فضل المحاولة والاجتهاد والشغف الدائم بالفلسفة؛ مما جعله يــتجاوز كتب التراث الصفراء ويتطلع لمعنى الفلسفة الحقيقى كما يطالعه فى كتب الفلسفة، ويقدم لنا درساً فلسفياً حديثاً فى الجامعة المصرية القديمة.

وتأثيــرات طنطاوى جوهرى الفلسفية متعددة فى تلاميذه حيث نجد عديد من الدراســات والكــتابات الفلسفية فى هذه الفترة تمت من خلال تلاميذه نخص بالذكر مــنها كــتابات محمد لطفى جمعة خاصة: مأدبة أفلاطون، وتاريخ فلاسفة الإسلام وترجمــته لكــتاب ميكافيلى الأمير. وقد أشار لطفى جمعة – الذى يستحق دراسة خاصة – إلى أثر طنطاوى جوهرى عليه وكتب عنه فى عدة مواضع من مذكراته نذكــر منها : محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام[٥٦]، وكذلك رسائل أعلام العصر إلى محمد لطفى جمعة[٥٧].

---

(٥٦) رابح لطفى جمعة : محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام، دار الوزان، القاهرة، ١٩٩١ ص ٩٤-١٠٢.

(٥٧) رابح لطفى جمعة : حوار المفكرين، رسائل أعلام العصر إلى محمد لطفى جمعة، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠ ص٧٤-٨٠.

مى زيادة:

الجيل الأول من طلاب الجامعة (*)

(١)

تنفرد مى زيادة فى تاريخنا الأدبى المعاصر بسمات عديدة تجعل لها مكاناً مميـزاً فى تاريخ الأدب العربى الحديث. ولا تنحصر تلك السمات فى كونها فتاة اقـتحمت عالمـاً، كـان قاصراً حتى تلك اللحظة على الرجال، وبرزت فى عالم الصـحافة والأدب. وكان لها صالونها الذى ارتاده غالبية أدباء وكتاب عصرها بل وبعـض علماء العرب فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، ذلك الملتقى الذى صـور وكأنه جزيرة حضارية فى صحراء مجدبة تارة، أو باعتباره قصر فخم فى قـرية كـبيرة بائسة هى مصر، بينما كان فى حقيقته صورة أخرى لما نجده لدى مدرسة لطفى السيد والتى أقامها فى فصول جريدة السياسة، والتى أخرجت لنا طه حسـين ومحمـد حسـين هيكل ومصطفى عبدالرازق ومى نفسها، أو ما نجده فى الجامعة الأهلية الوليدة. والتى كانت مى أيضاً من طلابها النابهين.

لقـد ارتبطت مى زيادة التى قدمت من لبنان مع والدها إلى القاهرة وقد كان للمـثقفين الشوام بالقاهرة فى مطلع القرن دور ما فى الثقافة والصحافة المصرية، ويختلف إسهام كل منهم حسب طبيعة وميول الصحيفة التى يعمل بها، أو قل حسب القـوى الـتى تعبر عنها تلك الصحيفة. أقول ارتبطت مى ووالدها صاحب جريدة المحروسة وللاسم مصريته الصميمة بقوى البرجوازية المصرية الناهضة وجناحها الليـبرالى الذى قاد الثورة الوطنية فى ١٩١٩ والذى قام بحركة تنوير عامة تمثلت فى إقامـة الجامعـة المصرية وإشاعة نوع من الثقافة العقلانية الجديدة عن طريق كثير من الصحف الحرة(١).

(*) نشرت على عددين فى مجلة أدب ونقد ١٧-١٨ بعنوان مى زيادة قراءة فى كتاباتها الفلسفية. وفى دراسـات عـربية، بيـروت، العدد ١٢/١١ السنة الحادية والثلاثون، سبتمبر- أكتوبر، ١٩٩٥، ص٦٥-٩١

(١) يمكـن أن نستقى كثيراً من عناصر تاريخنا الفكرى المعاصر: أعلامه، قضايا، صراعاته من خلال الدوريات بالإضافة للكتب وقد أدت الصحافة العربية دوراً هاماً للمثقف العربى فى بداية القرن ونخص بالتحديد جهود كل من مجلة المقتطف والهلال والعصور ومجلة الحديث الحلبية وغيرها كالرسالة والثقافة والأديب والأدب.

وهـنا وهناك كانت مى زيادة...، يرتقى اسمها فى ازدهار فى كل المواقع: تكتب فى المحروسة، وفى المقتطف. تخطب فى الجامعة وقاعة وست هول، تجوب المنتديات الثقافية والفكرية تتحدث عن الإخاء والمساواة، تدعو للتمدن وتشيد باللغة العـربية، وفضلها فى صالونها الأدبى المميز، وفى حوارها ونقاشها فى كل لقاء، فى ظـل الحـركة الوطـنية التى تشمل مصر كلها والتى كانت مى تعترف دواما بفضـل هذه النهضة الوطنية العامة عليها وعلى أدبها. تقول فى حديثها إلى طاهر الطـناحى كمـا يقص علينا فى "أطياف من حياة مى"، "وفى خلال الحرب العالمية الأولى الـتحقت بالجامعـة المصرية القديمة فكنت أدرس بها تاريخ الفلسفة العامة، وتـاريخ الفلسـفة العـربية وعـلم الأخلاق على المستشرق الأسبانى "الكونت دى جـلارزا"[٢] وتـاريخ الآداب العـربية عـلى الشيخ محمد المهدى، وتاريخ الدول الإسـلامية للشـيخ محمد الخضرى .. وهنا كانت يقظتى الأدبية الصحيحة والخلق الجديد الذى أمدتنى تلك الحركة بروحه".

وتؤكـد على هذا التأثير مرة ثانية بقولها : "أستطيع أن أقول أن أهم ما أثر فى مجرى حياتى ككاتبة ثلاثة أشياء: أولا: النظر إلى جمال الطبيعة، ثانياً : القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته الرائعة[٣] ثالثاً : الحركة الوطنية التى لولاها ما بلغت هذه السـرعة فى التطور الفكرى"[٤].. كانت كاتبة أدبية وشاعرة إلى حد ما[٥] كما يعلم كـثير مـن المطلعين على كتاباتها وآثارها.. وكانت فيلسوفة وتلك ناحية هامة فى حياة مى ناحية مجهولة نميط عنها اللثام فى بحثنا هذا.

---

(٢) قامت الدراسة فى الجامعة المصرية على جهود أساتذة مصريين ومستشرقين وبالنسبة للفلسفة فقـد تـولى تدريسها من الأساتذة كل من : سانتيلانا المستشرق الإيطالى وسلطان بك محمد ١٩٠٩/١٩١٠ ثـم ماسـينيون الفرنسـى والشيخ طنطاوى جوهرى ١٩١٢/١٩١٣ وتوقف تدريسـها بعـد ذلك حتى جاء الكونت دى جلارزا - وكان محاميا يعمل بالمحاكم المختلطة بمصر وتولى تدريس مادتى الفلسفة العربية والأخلاق. وتاريخ الفلسفة واستمر فى هذا العمل مـدة طويلة منذ العام الدراسى ١٩١٤/١٩١٥. وقد أخذت عنه "مى" دروسها فى الفلسفة فى هذه الفترة.

(٣) طاهر الطناحى : أطياف من حياة مى، كتاب الهلال، القاهرة، ١٩٧٤. "وقد استفادت مى من أحمد لطفى الذى كان يعلمها القرآن قراءة وتلاوة".

(٤) المصدر السابق ص١٣.

(٥) أصـدرت مى ديـوان واحدا بالفرنسية ١٩١١. ولم تكتب أو بمعنى أدق لم تجيد كتابة الشعر بالعربية وكانت إسهاماتها النثرية وليس الشعر هو أهم ما قدمته للأدب العربى الحديث.

(٢)

وكـــانت مى من أبرز طالبات الجامعة المصرية القديمة ولا يذكر لنا التاريخ القريب أسماء من درس منهن فى الجامعة، وقد كن بالطبع قلة فى ذلك العهد. لكن مى كـــانت مـــن هؤلاء القلة اللائى تركت عليهن الجامعة بصمات وبصمات. لقد كانت طالبة مميزة كما يقص علينا واحد من أبرز طلاب هذه الجامعة وهو الدكتور زكى مـــبارك، الذى كان واحدا من سبعة نالوا درجة الدكتوراه من الجامعة القديمة فى الفلسفة وكانت مى منافسة قوية له، كما يخبرنا هو فى مجلة "صوت المرأة" فى عـــدد خاص "بمى" بعنوان عروس الأدب يقول : "ثم تجىء عروس الأدب النسائى فى هـــذا الجيل، وهى فتاة أعرفها جيداً فقد كانت رفيقتى فى الدرس، وزميلتى فى طلب الأدب، والفلسفة بالجامعة المصرية.." لقد كانت مى منافسة خطرة كما يظهر من نفس المقال الذى يكرر فيه عنها.. "وكان لى بالجامعة المصرية زميلة تنافسنى منافسة عنيفة"(٦).

ونـــتوقف قليلاً داخل الجامعة مع "مى" التى تدرس الفلسفة، والتى تعطى لنا وصـــفا لفـــتيات الجامعـــة فى هذا العهد كما كانت معهن فتقول: "كنا نجتمع هناك كمؤتمـــر دولى الـــتأم لعقد الهدنة وتقرير شروط الصلح أو كمؤتمر نسائى غرضه المطالـــبة بحقوقـــه والمجاهرة بمبادئه، على أن الأحاديث الدائرة بيننا لم تكن لتدل على شىء من ذلك لأنها كانت مقتصرة على أخبار الكونسرتات والسينما والأزياء وأشـــكال البرانيط الحديثة. وكان يتخلل هذه الثرثرة النسائية المحضة ضحك طويل "يدب دبيبه".. فى كل موضوع تجاذبت أطرافه فتاتان. فكيف إذا صار ضجة فتيات كـــثيرات".. ومن عجائب الحديث النسائى أن السيدات إما يصغين جميعاً ولا تتكلم مـــنهن واحـــدة، وهذا أندر من النادر. وأما يتكلمن جميعاً فى آن واحد ولا تصغى منهن واحدة (٧).

لقـــد كـــانت تختـــلف هى عن هؤلاء، وكان لها تميزها داخل الجامعة ولها دورها كما أشارت إلى ذلك السيدة هدى شعراوى رائدة النهضة النسائية الحديثة فى

(٦) د. ذكى مبارك : مجلة صوت المرأة القاهرية، ديسمبر، ١٩٤٩، ص٢٦.
(٧) مى زيادة : "وصف غرفة فى مكتبة" مجلة المقتطف مجلد ٥٣ عام ١٩١٨، ص٤٦٥.

مصـــر التى تذكر فى حفل تأبين مى أنه: "فى شهر إبريل سنة ١٩١٤ نظمنا سلسلة محاضـــرات للســيدات فى الجامعـــة القديمة وبينما كنت أغادر القاعة، عقب إلقاء المحاضـــرة ألقيـــت فتاة لفتت نظرى برشاقة حركتها.. استوقفتنى تلك الفتاة قائلة.. ســيدتى هــدى: أنـــا معجـــبة بمشروعك، مقدرة لمجهودك لذلك أضع نفسى تحت تصـــرفك، لا تظنى صغيرة لا أستطيع معاونتك. أنا كاتبة وشاعرة. وأنا أكتب فى الصحف والمجلات أنا "مى" لابد أنك قرأت شيئاً لى ألا تعرفيننى؟[٨]

لقــد كان يعرفها كل زملائها فى الجامعة يقول أشهر طالب ومدرس وعميد لـــلجامعة ولـــلأدب العربى: "لقد عرفت مى" سنة قبل الحرب الكبرى وعرفتها فى الجامعـــة المصرية القديمة فى حفل كان يقام لصديقنا الأستاذ خليل مطران، وكانت تـــتحدث فيه إلى الجامعات لأول مرة فيما أظن وسمعنا نحن طلاب الجامعة لأول مـــرة فى تاريخنا أيضاً صوت فتاة تتحدث إلى الجماهير وكان صوتاً عذباً لا يكاد يبـــلغ الأذن حـــتى يصـــل إلى القلب وتعلقت النفس بهذا الصوت وامتلأت القلوب بصـــاحبته فى أحـــاديث أولـــئك الشبان عندما كانوا يتحدثون بعد أن انصرفنا عن المحفـــل. واعـــتذر لصـــديقنا الأستاذ مطران فأقول لعل هؤلاء الشبان من طلاب الجامعة قد تحدثوا بعد الحفل عن مى بأكثر مما تحدثوا عنه هو [٩].

ويؤكد طه حسين على صورة "مى" طالبة الجامعة الجادة يقول: "وأعود إلى مصـــر فأراها طالبة فى الجامعة المصرية تختلف إلى الدروس مهما يكن أصحابها ومهمـــا تكـــن موضوعاتها ومنذ ذلك الحين لم أراها إلا مشتغلة بالعلم طالبة له فى بيـــتها، وفى الجامعـــة وفى كل المظان التى كان العلم يطلب فيها، ثم مسافرة إلى أوربـــا إذا ســـمحت لهـــا الفرصـــة لتســـمع العلم فى سويسرا أو فرنسا أو إيطاليا وغيرها"[١٠].

والســـمة الهامـــة فى تكويـــن شخصـــية "مى" والتى يؤكد عليها طه حسين بالإضـــافة لتأسيســـها لأول مرة فى تاريخنا المعاصر الصالون الذى استؤنفت فيه الحياة الأدبية المشتركة بين الرجال والنساء بعد أن انقضت عصور بغداد والأندلس

(٨) هدى شعراوى : تابين مى زيادة ، الاتحاد النسائى المصرى، خاص ص١٦.
(٩) د. طه حسين : أثر مى فى الأدب. حفل تأبينها ص٢٣-٢٤.
(١٠) المصدر السابق ص٢٢.

هى التفلســف والتفكير العقلانى يقول: "والشىء الثانى الذى أسجله هو أن "مى" قد تأثــرت كمـــا تأثرنا نحن فى شبابنا بحادث بسيط فى نفسه كل البساطة ولكنه بعيد الأثــر فى حياة كثير من جيلنا هذا الحادث هو محاضرة ألقاها أستاذنا أحمد لطفى الســيد فى نــادى المــدارس العــليا عــن أبى العلاء، وما أكثر الذين سمعوا هذه المحاضـــرة وما أكثر الذين فكروا فيها ولكن هناك قوماً سمعوها وسمعوا الحديث عــنها فــلم ينقض تفكيرهم فيها حتى أخذوا أبا العلاء على أنه موضوع يصح أن يفكــروا فيه، من هؤلاء (مى). فقد أخذت أبا العلاء الذى أظهره لطفى باشا لجيلنا على أنه شىء يجب أن يفكر فيه، فكرت فيه عملت على تتبع ما كان يكتب عن أبى العلاء، وما لقيتها ألا تتحدث فى فلسفته وتشاؤمه وفى عزلته"(١١).

وبالطــبع يمكن تفسير قول طه حسين هذا بأنه تأكيد على فعل التفكير نفسه وليــس مجرد موضوع التفكير (الظاهرى) ألا وهو أبو العلاء.. ولكن ذلك الاتجاه العقــلانى الــذى بدأ بأستاذ الجيل ثم ظهر فى دراسات عميد الأدب العربى الأدبية وتبــلور فى كتابات مى الفلسفية تلك الكتابات التى تمثل جانباً هاماً فى حياة وتفكير "نابغــة الشــرق". إن هذا الجانب الذى مسه برفق طه حسين هو الذى أبصره عن كثب واحد من أهم العقول الجادة وصاحب النظرة العلمية الثاقبة وهو سلامة موسى محــرر المجــلة الجديــدة، وصاحب المؤلفات التى شكلت عقلية جيل من المثقفين المصريين فى هذه الفقرة، الذى يصفها "بالأديبة الحرة" يقول : "كنت أقعد إلى "مى" ونــأخذ فى الحديــث عــن الآداب أو الاجتماع أتعجب من قوة تفكيرها وإبرازها للمعانى الدقيقة والآراء الجريئة التى لم يكن أحد من قرائها يدرى أنها تؤمن بها أو تفكر فيها. فقد كانت فى جميع مؤلفاتها تبدو (ظاهريا) وديعة يقطر الحنان من قلمها تتجــنب الــزوايا الحادة وتسلك الطريق المستقيم ولا تحرف عن القواعد السنية فى الأدب والاجتماع"(١٢).

وقــد كــانت اهتمامات مى الفلسفية العلمية واضحة لدى معاصريها يتبينها المثقف الواعى، فبالإضافة لشهادة كل من طه حسين وسلامة، يبين الأستاذ محمود يوســف أنها "كانت تنفرد بأسلوب يجمع إلى الرشاقة دقة البحث والاستقراء وصحة

(١١) نفس المصدر ص٢٤.
(١٢) سلامة موسى : المجلة الجديدة "الأديبة الحرة".

التعـليل والتدليل والاستنتاج. وكان أسلوبها يمت بصلة وثيقة إلى الرصانة والهدوء العلمى شأن أولئك الذين انقطعوا للدرس ووهبوا أنفسهم للعلم، وكانت مى فى كثير مـن أبحاثهـا تنحو منحى الفلاسفة فى كتابتها وتفكيرها بتأثير تعمقها فى دراساتها الفلسـفية والأدبيـة والاجتماعية، ولها كلمات وآراء تعد أفكاراً حديثة وتصلح أن تكـون رؤوساً لنواح من التفكير جعلتها بحق من أعلام الثقافة ومن قادة الرأى فى العالم العربى"[١٣].

***

"من" و"إلى" "مى" كتبت كثيراً من الرسائل التى تقدم لنا صورة واضحة عن الحياة الأدبية والثقافية فى مصر. بما فيها من الحقائق التى قد لا نجدها فى الكتب. كـتب إليها العقاد وأنطون الجميل وجبران ومطران ولطفى السيد وكثيرون كتابات تفصح عن اهتمامات هؤلاء الأعلام وقراءاتهم وفيما يفكرون فيصح أن تتجاوز هذه الرسـائل الجـانب الشخصى لأصحابها لتكون مصادراً للحياة الفكرية. كتب إليها أنطـون الجميـل فى ١٥ إبـريل ١٩١٥ بعـد أن قرأ مقال من يومياتها بجريدة المحروسـة عـنوانه "غـرفة فى المكتـبة" وكانت مى وقتئذ تتردد على الجامعة المصرية للدراسة فكتبت عن غرفة مكتبتها ووصفتها أبدع وصف أعجب به أنطون الجميـل فأرسل يقول: قرأت اليوم ما كتبته فى "يوميات فتاة" عما جال فى صدرك من العواطف أثناء تلك الدقائق الوجيزة التى قضيتها بين صور مشاهير الكتاب فى إحـدى غـرف الجامعـة المصـرية. وتلوت على مهل كمن يتلو صلاة أو يترنم بأنشـودة، ما أوحى إليك من الهام: منظر أمراء الفكر مصورين على الجدران من ديكارت وكورنيل وراسين وموليير وفولتير وهوجو.

مـا أجمـل هؤلاء الرجال بل أنصاف الآلهة تذيع مفاخرهم بعد أجيال فتاة شـاعرة، وتمجد أرواحهم بلغة لم يعرفوا منها إلا الاسم، وليدة جبل الزيتون وربيبة جبل الأرز تنشر مآثر عظماء أبناء السين بلغة سكان المضارب".

فمـاذا قـالت عـن الجامعة وعن (غرفة مكتبها)؟ وماذا كتبت حتى يتوقف أنطـون الجميل محرر الأهرام ليشيد بها ويثنى عليها "من البداية نقول أن الجامعة بالنسـبة لمى ليست فقط مكاناً للدراسة، بلا هى مهبط للوحى وفكرة للتأمل وعليها

(١٣) طاهر الطناحى : المصدر السابق ص٤٥.

عقدت آمال كبار تتحدث عنها. كأنها تتحدث بلسان الأمة المصرية وهى تقول "يقال أن العـــالم نحـــو ثلـــثمائة جامعـــة (١٩١٥). ولكن الجامعة المصرية أحدث هذه الجامعـــات.. أنهـــا مفتوحة للجميع ولا يقلل من فضلها حداثة سنها. أن كل صغير مســتودع آمال كبيرة لأن له قابلية النمو والتأثر.. ليست الجامعة ينبوع علم وأدب لطلبتها وطالباتها فحسب بل هى مهبط وحى لى حين أبلغها قبل ابتداء الدرس الذى ابتغى حضوره بدقائق اقضيها بالانتظار والتأمل".

وتصـــف لـــنا تأملاتهـــا فى غـــرفة المكتبة وكأنها تقدم لنا تحليلاً لأعمال وشخصـــيات الكتاب والمفكرين الذين تزين صورهم جدران هذه الغرفة تقول: "أنا الآن فى غـــرفة صـــغيرة تابعة لمكتبة الجامعة وليس فى هذه الغرفة من الكتب إلا ثلاثـــة أجهل أسمها ولغتها لأنها خفيت تحت كتاب رابع من تأليف مارمونيل وهو أديـــب فرنســـاوى لم يتفوق فى موضوع من الموضوعات الكثيرة التى عالجها بل اكـــتفى بالإجـــادة فيها جميعاً إجادة معتدلة تاركاً البراعة والتفوق لأستاذيه الكبيرين فولتير وروسو الذى حاول تكوين مجتمع جديد بقلمه القادر البليغ والذى كافح القيود الدهـــرية بـــرأس قلمه الذى لم يكد يلمس القرطاس لرشاقته وخفته حتى نفذ كالسهم إلى أعمـــاق الأفكـــار فابتســـمت لذلك الفوز شفتاه وكانت تلك البسمة الخالدة فجر الحـــرية المنبـــثق مـــن ليل العبودية الأليم ".. هذه مى التى وصفها سلامة موسى تضـــيف" كـــلما رأيتنى وحدى فى هذه الغرفة شعرت بأن فى وجوهها روحاً هى مجمـــوع أرواح الـــنوابغ الحاضـــرين هنا برسومهم وخلاصة الأفكار المطلة من أحداقهم.

ولكـــن لنـــتابعن سيرنا فى الغرفة.. فى منتصف الجدار إلى اليمين صورة هوجـــو فى شـــيخوخته ويـــده تحمل جبهته المثقلة بالأفكار العظيمة... وإلى شمال هوجـــو أرى الفيلســـوف ديكـــارت الـــذى قال فولتير فى وصفه أنه جعل العميان يبصـــرون لأنـــه بين للقرن الخامس عشر أغلاط القرون الخاليات وجمع خلاصة تعاليمـــه فى جملة واحدة: "لتبلغ الحقيقة يجب أن تنسى مرة فى حياتك جميع الآراء والاعتقادات التى شببت عليها ثم تقيم أسساً جديدة لآراء واعتقادات شخصية.

وتستدرك "مى" كأنها تفجر موضوع من أهم موضوعات الفلسفة وهى تهتف "سبحان الله! إلى شمال ديكارت أرى بوسويه[١٤] ترى ماذا يقول ديكارت لبوسويه فى ساعات الوحدة وبماذا يجيبه الأسقف؟ ليست لى سبيل إلى التجرد من جسدى حينا؟ لأسمع محاوراتهما ولو مرة واحدة لأعلم كيف يتناقش الدين والعلم فى عالم الأرواح!.

على يمين هوجر موليير الشاعر المنتقد المضحك الذى ملأ تأليفه تحت لهجة الاستخفاف والظرف والتنكيت انتقادات اجتماعية وعلمية ودينية.. وعلى يمين موليير وجه نحيف جذاب يعبر عن شخصية عبقرية من هذا؟ .. تقول مى .. "لو نسى مصورك كتابة اسمك تحت رسمك. لو درست آثار فكرك وعلمك وانتقادك وطمس الزمان كل ما أيده قلمك. لو أكلت النار وجهك غير مبقية إلا على شفتيك لعرفتك يا فولتير) يالفمك من فم هائل فى كلامه هائل فى بسمته هائل فى سكوته حتى فى سكوت الصور.

وعلى الجدار المقابل لجدار فولتير صورة فينلون مؤلف كتاب "تليماك" المملوء بالانتقاد الدقيق الخفى لحكومة لويس الرابع عشر وللمك العظيم نفسه". تلك هى الصور التى أشارت إليها مى وعلقت عليها ووجدت فى أصحابها من أدباء وفلاسفة صورة أصحاب الاستنارة والتحرر العقلى والاجتماعى. لم تلهم هذه الصور أسماء الروايات والمؤلفات ولا موضوعات كتاباتهم مسرحية كانت أو أدبية بل كانت انطباعاتها عنهم تدور حول نقدهم الاجتماعى هكذا رأت ديكارت وموليير وفولتير.

تلك هى تأملات مى فى "غرفة المكتبة" فى الجامعة المصرية. ولا شك أنها كانت بين المبرزين من طلابها ولا ريب أنه كان لها مكانة رفيعة فى نفوس زملائها بدليل أنهم انتدبوها لتمثيلهم فى إلقاء خطبة باللغة الفرنسية فى تكريم استاذ الفلسفة الكونت دى جلارزا فى الحفلة التى أقاموها له مساء ١٣ أبريل سنة ١٩١٧ فى حديقة فندق شبرد بمناسبة انتهائه من تدريسهم الفلسفة عند اليونان[١٥]. ولم

---

(١٤) مى زيادة : غرفة فى المكتبة. المصدر السابق.

(١٥) درس جلارزا مادتى : الفلسفة العربية والأخلاق كما درس مادة الفلسفة العامة وقد نشر كتابيه فى المادة الأولى وحصلنا على مخطوطاته فى تاريخ الفلسفة اليونانية، الجزء الخاص

يتردد أساتذه الجامعة وطلابها فى تكليفها بإلقاء خطبة وداع الشيخ محمد الخضرى أستاذ تاريخ الأمم الإسلامية والشيخ محمد المهدى أستاذ تاريخ الآداب العربية فى الحفلة التى أقيمت فى فندق شبرد فى آخر كانون الثانى ١٩١٨.

***

ترى ماذا قالت أمام أستاذ الفلسفة المستشرق الأسبانى "جلازا" وذلك الجمع المحتشد فى فندق شبرد من المفكرين المصريين وبينهم سفير أسبانيا وقنصلها فى القاهرة دون كريستوبال فالين، ومسيو دى كاريوس أن مى تبدأ حديثها بقول الفرنسين أن أسبانيا لم تبعث إليهم إلا بملكات صالحات. أما نحن أيها السادة، فقد عرفنا أسبانيا وقد أعجبنا بها. عرفناها بمن أعطتهم من بنيها إلى العالم الرومانى من فلاسفة وفقهاء وخطباء وأباطرة. عرفناها بآدابها وفنونها وبلغتها الموسيقية العذبة.. إلا أن لأسبانيا حسنة خصيصة علينا نحن طلبة الجامعة المصرية لأنها أعطتنا أستاذاً من أمثل بنيها وهى حسنة لا تقابل إلا بجميع الثناء. فلتحي إذا أسبانيا الكريمة الجميلة فى شخص أستاذنا الأسبانى[١٦].

أنها تتحدث بمرارة النفس المثقلة بهموم الجهل والتخلف مشبهة تاريخنا فى بداية القرن العشرين بالقرون الوسطى فى حديثها عن البعث العتيد وهى تحيى أستاذها قائلة : "أيها السادة، تاريخ القرون الوسطى الذى انتهى فى أوربا بابتداء القرن الخامس عشر يكاد يمتد عندنا إلى أواخر القرن التاسع عشر،.. أليست هذه السنوات الأولى من القرن العشرين أشبه شىء بعهد القرون الوسطى نظراً إلى حالة العامة؟.. الشعب هنا مستودع ظلام وجهل ترتع فى ربوعه الخرافات والشقاء ولا أظن أن أما ينقصنا هو اختراع الطباعة لندخل أشعة الفكر مع الكتاب إلى تلك النفوس النائمة. ولكن ننتظر التعليم الإجبارى، ننتظر عمل المدارس الابتدائية منها والعليا ننتظر الوقت أبا العجائب، ننتظر زيادة غيرة (وحماس) فى الرؤوس

بصغار الأفلاطونيين ويظل جزء أول سابق على هذا الجزء مفقود نحاول الحصول عليه لتكتمل مؤلفات جلازرا. الذى يعد من أهم مدرسى الفلسفة بالجامعة الأهلية مع سنتيلانا وماسينيون. والمقتطف السابق من مقالها البعث العتيد بالمقتطف مجلد ٥٥ عام ١٩١٨م ص ١٢٩ ثم نشرت فى كتابها "كلمات وإشارات".

(١٦) المقتطف ١٩١٨ ص١٣١.

المفكـــرة، وزيادة تحفز فى الهمم الناهضة، لنسير فى طريق فوز ميمون إلى عهد جديد يخرجنا من ليل القرون الوسطى إلى نهار البعث العتيد.

اشـــتهر أحـــد الرومان بكلمة رددها سنوات طويلة وهى: "فلنهدم قرطاجنة" وفى نفـــس الفـــئة الراقية عندنا أمنية ثابتة وهى "فلنهدم الجهل" وإنما نهدم المدائن بقنابل المدافع، وأما الجهل فظلام، والظلام لا يهدم إلا بتغلب النور.

النور!.. النور! نريد دواما وفى كل مكان! نريد أن نعرف ذل العبودية، كى نـــدرك عـــز الحرية! نريد أن نكسر قيود الأرغام كى نقيد ذواتنا اختيارا بواجبات ســـامية. نحـــن نعلم أن قيود الحرية أوفر من قيود الظلم عددا، وأرق نوعاً وأواجع وطأة، ولكن فى قيود الظلم إذلالا يسحق الشخصية هابطاً بالإنسان إلى تحت درجة الإنســـان، وفى قيود الحرية عزة تعلو بالمرء إلى قمة العظمة فتصيره إنساناً كاملاً يقـــوى عـــلى الـــنظر مليا فى وجه الإنسانية المجاهدة قائلاً : أنا أبنك وقد صيرنى جهادى أهلا لهذه النبوة المقدسة.

إن مى هـــنا لا تـــنمق عبارات أدبية ولا تصنع من الكلمات شعراً وأدباً إنها تحـــدد فكـــرة الجامعة فى عقول مفكرى مصر وأملهم فى بعث (علمى جديد) أنها تبصـــر الـــتقدم فى نهضة تعقب عصورنا الوسطى وتقف مع طبقتها البورجوازية الناهضة فى قمة لحظة الاستعداد للاستنارة المرتقبة كما تعبر عن ذلك أفكارها فى خطـــبة ١٣ إبريل ١٩١٧ وهى تخاطب "جلارزا" قائلة: أيها الأستاذ الكريم.. نحن جـــزء مـــن الفئة التى ذكرنا. ولقد صدق فينا مثل أهل "اليوجا" الهندية القائل : "إذا اســـتعد التلميذ جاء الأستاذ". ساعة تقف نفوسنا حائرة عند أبواب المستقبل تتجاذبها عوامـــل الشـــك والرجاء فتدفعها حينا وتحجمها حيناً وفى هذه الساعة الخطيرة من حياتـــنا الأدبيـــة نراك عاملاً يدا بيد مع أساتذة جامعتنا الأفاضل ومع نفوس غيورة أخرى تعمل لنهضتنا. ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

وهـــناك فى قاعـــة الـــدرس الصغيرة حيث يدخل شفق المساء على عجل، وتســـرج المصـــابيح سريعاً، كما استحضرت اشارتك الواسعة نوابغ الأجيال بتوقد عطـــاردى، وبرصانة مفكر قد اعتاد تسنم الذرى العقلية. فسردت مذاهب المتقدمين

باسطاً أقوالهم مفنداً آراءهم شارحاً ما لامس منها الإعجاز ملخصاً نقد الناقدين فأتيا بالـــنقد عـــليها جميعاً. ذلك بسلاسة وإيجاز تكسوهما بلاغة عبقرية قد تكون انتهت إلى الأسبان كارث شيشروني.

وبينـــنا بيانك يزيح حجبا ضربن بين المعانى والأفهام إذا بالنفوس منا تشب مطـــلات عـــلى آفاق جديدة. فيلحقنا عطش العلم، وتأخذنا رغبة السؤال.. وروحك الكـــبيرة العاليـــة مـــنهل نور وحكمة كلما استقينا منها معرفة وضياء زادت تدفقاً وتدفقت سخية، وديعة، صافية، يتألق فى تموجها حب العلم وحب الكمال.

نـــراك منحنياً على كتب كثيرة تتصاعد من صفحاتها صور الحياة وخيالات اللانهاية. تقابل بين لغات قديمة ولغات حديثة، وتقارن بين أسلوب وأسلوب وتعبير وتعـــبير، لتـــنقل إلى لغـــة العرب حكمة شقيقتها فى المجد والقدم ومناظريتها فى الفصـــاحة والفـــن: الأغـــريقية واللاتينية. لكنها على شهرتهما لم تنتشر انتشارها. ارتفعتا حيناً إلى أوج الحياة والعظمة ولم يكن أن هبطت كل منهما مع مدينتها. أما أخـــتهما الثالـــثة لغة مكة والحجاز والعراق،، فلها الغلبة ولها البقاء ولا يزيدها كر الدهور إلا فتوة وجمالا لأن لغة القرآن لغة خالدة [١٧].

والـــلغة الـــتى أحببتها وأنزلتها من علمك الواسع منزل الكرامة حتى تملكت أعنة الكلام فيها سوف تجازيك جميلاً وسوف تحفظ تعاليمك بين كنوزها الغاليات، وسوف تفتح كتابها الذهبى لك وتضم اسمك إلى أسماء أبنائها الخالدين.

عـــاش الكونـــت دى جـــلارزا. عاشت الجامعة المصرية. عاشت نهضتنا الحديثة[١٨].

إن مى الـــتى اختيرت لتلقى كلمة طلاب الجامعة أمام أستاذ الفلسفة أختيرت لكونهـــا فيلسوفة تنتقل كما ظهر فى تحيتها الأخيرة من الأستاذ إلى الجامعة إلى نهضة مصر الحديثة ونرى فى الجامعة نوراً يهدم الظلام بالعلم والعقل.

(١٧) المصدر السابق ص١٣١.
(١٨) نفس المصدر السابق.

أن نبوغ "مى" وازدهارها الأدبى يرجع كما أشارت مى إلى الحركة الوطنية المصرية (البورجوازية) خاصة فى جانبها العقلانى، الذى ظهر فى الكتابات الصحيفة الحرة وفيما كانت تشعه الجامعة القديمة من إشعاعات علمية تتجاوز جدران قاعات الدرس. وقد أشرنا إلى تلقيها دروس الفلسفة فى الجامعة وإلى تأثرها بعقلانية أحمد لطفى السيد واهتمامها الدائم بالفكر الفلسفى. وقد سرى هذا الاهتمام بالفلسفة فى كل كيان مى ــ أبصره سلامة موسى فى أحاديثها الخاصة وأدركه طه حسين فى سلوكها العام ويمكن لنا أن نتتبعه فيما ألقته من خطب وخطته من مقالات وسوف نعرض فى الفقرة التالية ما وجدنا وسط السطور التى كتبتها مى فى خطبها ومقالاتها ثم فى فقرات تالية نبين ونحلل الكتابات الفلسفية المجهولة لمى.

اهتمت مى زيادة بقضية المرأة اهتماماً كبيراً ظهر فى تعاونها مع رائدة الحركة النسائية هدى شعراوى وفى كتابيها الهامين عن باحثة البادية وعائشة التيمورية كذلك فى خطبتها الشهيرة عن "المرأة والتمدن" فى النادى الشرقى بالقاهرة فى إبريل ١٩١٤. "ناد شرقى يزينه حضور شرقيون. إن نفس الشرقية تهتز طرباً لهذا الموقف، وسأتكلم بصراحة وثقة كأنى الطفلة الأولى من عائلة كبيرة ذات لطف وتسامح . طفلة تتكلم بلا خوف ولا وجل مستسلمة لرعاية من حولها، مستبشرة بدلائل الانتباه البادية فى انتظارهم وابتسامة التشجيع المرتسمة على شفاهم".

وتحدد قضيتها بقولها "تاريخ المرأة استشهاد طويل أليم، ومن أغرب الغرائب أنها لم تجد لها فى القدم صديقاً ولا بصيراً .. لكنى أرى الأمر عجباً بل فظيعاً من رجال نحسبهم نوابغ زمانهم وقادة أفكار العالم. لم يذكر شعراء اللاتين من المرأة إلا جمال جسدها، وشعراء اليونان: اسخيلوس وأوربيدس وغيرهما يسمونها ــ ببساطة كلية ــ "بلية العالم". أما الفلاسفة فاكتفى بأن أذكر هنا كبيرهم أفلاطون الإلهى، الذى يعتبره تاريخ الفكر أمة بأسرها، أفلاطون ذا الأحلام الغامضة والمبادئ السامية الذى لم يترك موضوع إصلاح سياسى أو أدبى إلا

عالجــه رغبة فى إسعاد العالم ــ أفلاطون لم يفكر قط فى تحسين حالة المرأة ولم يهتم بدرس أخلاقها واستكشاف درجتها العقلية والاستعدادية(١٩).

مــاذا أقول! إن أفلاطون هذا قضى حياته آسفاً لأنه ابن المرأة وكان يصرح بازدرائه بأمه، ويعتقد أن من كان جباناً من الرجال فى هذا العالم فعند ولادته مرة أخرى تتقمص روحه فى جسد حيوان أو جسد امرأة .. وما علم أفلاطون أن امرأة ستعلم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة فى "مدرسة الإسكندرية" وأن تلك المرأة لا يمنعها شــبابها الغض وجمالها الرائع أن تكون أعلم علماء عصرها. تلك هى الفتاة هيباثيا أبــنة ثيونوس الرياضى الشهير، التى قتلت رجماً فى شوارع الإسكندرية فى أوائل القــرن الــرابع، فذهــبت شــهيدة عــلمها وأخلاصها ورغبتها فى أشهار التعاليم الأفلاطونية الجديدة(٢٠).

ويتبين من ذكرها لموقف الفلاسفة ــ وقد اكتفت من بينهم بأفلاطون ــ مدى إلمامهــا الكــبير بتاريخ الفلسفة اليونانية وقد تلقت دروسها على جلارزا بالجامعة. وإن كان يجب علينا فى هذا الموضع تناول موقف سقراط وهو أكثر من أفلاطون تعــبيراً على الحط من قدر المرأة، إلا أن الربط بين كل من سقراط وأفلاطون فى تاريخ الفلسفة يجعل كثيراً من الكتاب يورد أراء أحدهما على أنها للآخر. وصورة أفلاطــون عــندها تعبيراً عما تعتقد فى الفيلسوف، ليس باعتباره مفكراً ميتافيزيقياً تامــليا بعيــداً عــن مشــاكل واقعه الاجتماعى ولكن باعتباره ذا موقف اجتماعى فــأفلاطون عــندها "لم يترك موضوع إصلاح سياسى أو أدبى إلا عالجه رغبة فى إســعاد العــالم ــ إلا أن نقيصته فى رأيها أنه "لم يفكر فى تحسين حال المرأة ولم يهــتم بدرس أخلاقها، وربما يكون هذا موقف سقراط. وكان يمكنها الاستشهاد بما قــدم أفلاطون فى جمهوريته من تصور "شيوعى" للمال والنساء، فى هذا التصور الــذى ترفضــه المذاهب الاشتراكية الحديثة يجعل من المرأة ملكاً مشاعاً لأفضل رجال المجتمع. وبالطبع هذا تصور ترفضه معنا مى.

---

(١٩) مى زيــادة : المــرأة والــتمدن. خطبة بالنادى الشرقى بالقاهرة ٢٣ أبريل ١٩١٤ نشرت بالمجلد ٤٤ من المقتطف ١٩١٤، ص٥٤٣ وما بعد وكذلك بكتاب "كلمات وإشارات".

(٢٠) مى : المصدر السابق.

وبعـد أن تبين مي موقف المسيحية والإسلام الذى سوى بين الرجل والمرأة تـرى أن النهضة النسائية تمتد يومياً فى أقاصى المسكونة إلا أنها تعرض لموقف فولـتير ـ وهى تكن لكتاباته احتراماً وإعجاباً ـ وتعجب من رأيه فى المرأة "وكم قـال فولتير أن فكرها سريع العطب وأنه يتحطم تحطيماً إذا حاول استفهام ناموس علمى. غريب أن يقول فولتير هذا القول وهو الذى استعان بامرأة على فهم كتابات نيوتـن، وهى صـديقته مدام دى شاتليه معربه (مفرنسة) كتاب نيوتن فى ناموس الجاذبية"[21].

فى حفلة النادى الشرقى تحدثت مى عن التمدن ودور المرأة مستشهدة بسير وآراء أعـلام الفلسـفة والأدب امثال سقراط وأفلاطون وبترارك ودانتى وشكسبير وكورنـاى ويوسويه وليبنتز وأغلب هؤلاء كانوا مجهولين إلى حد ما لقراء العربية فى تـلك الأيـام. ويتضح ثقافة مى واهتماماتها الفلسفية فى الخطبة التى ألقتها فى حفـل فندق كونتنتال فى القاهرة مساء الجمعة ٢٨ من إبريل ١٩١٦ احتفالا بمرور مائة عام على إنشاء مطبعة المعارف ووقفت فى مى تتحدث تحت عنوان "العجائب الـثلاث" عـن الكـلمة والحرف والمطبعة فإذا بها تحيط الحاضرين بمعلومات فى الفلسـفة والـتاريخ والفـنون تربط بينها ببراعة فى سياق مشوق جامعة أسطورة "قدموس" بمناقشات ديمقرايطس وهراقليطس وعصرى ديمقراطيس وريتان.

تـبدأ خطبـتها بكلمة لبسكال ـ الفيلسوف الفرنسى ـ ثم تتحدث عن الكلمة والكـلام وتعـرض آراء الفلاسـفة فيها تقول: إن سادتنا الفلاسفة جعلوا من هذه المسـألة (الكلام) موضوع مناقشات شتى بدأت فى القرن الخامس قبل المسيح مع "ديمقـراطيس" الذى كان يضحك دواماً من الجنون الإنسانى "هيراقليتس" الذى كان يبكى حزناً على هذا ولم تنته مع رينان الذى كان يكتفى بالابتسام المبهم قائلاً: "لكل مسألة وجهان". وفى خلال القرون الطويلة التى مرت بين ديمقراطيس ورينان، قال الفلاسـفة أقـوالا جمـة هى كأقوال هذه الطائفة ـ طائفة أنصاف الألهة ـ عادة خلاصـتها تقسـم إلى قسمين: فريق يقول أن الكلمة نتيجة ذكاء الإنسان إذ شعر

(٢١) نفس المصدر السابق.

باحتياج إلى التعبير عما يحول فى نفسه. والفريق الآخر يقول بل الكلمة استعداد غزيزى فى الإنسان هى عمل الطبيعة بالذات، وما تعبر الكلمات إلا عن جوهر المعانى والأشياء. وقد زادت المدرسة اللاهوتية على هذا فى القرن الثامن عشر أن الكلمة أعظم من أن تحسب استعداداً عزيزياً لأنها وحى إلهى (٢٢).

وتناقش فى خطبتها فى الجامعة المصرية فى ٢٩ إبريل ١٩٢١ موضوع من أهم الموضوعات الفلسفية، إجابة لطلب جمعية "فتاة مصر الفتاة" تحاضر فى "غاية الحياة" وتخصص عن المرأة مستشهدة بأقوال قاسم أمين فيلسوف المرأة فى مصر بعد أن عرضت إلى الفيلسوف الفرنسى "كوندرسية" الداعى للمساواة بين الرجل والمرأة تقول: "إن المنادين بحقوق النساء فى فرنسا قد سموا أنفسهم أحفاد "كوندرسية" الفيلسوف الفرنساوى الذى دعا إلى المساواة بين الجنسين. وقد اتخذوا ذكرى وفاته فى ٢٩ مارس من كل عام عيداً يحتفلون فيه بتحرير المرأة. وفى هذا الأسبوع الأخير من شهر أبريل ذكرى وفاة زعيم النهضة النسائية فى هذه الديار واحد مؤسس الجامعة المصرية التى تجمعنا الساعة جدرانها: قاسم أمين .. صاح قاسم فى القوم يهديهم ولكنه لم يفته أن تحرير المرأة فى يدها أكثر منه فى يد الرجل وأن العمل الزم الأشياء لها.. فليحى زعيم النهضة النسائية ولتحى المرأة المصرية ناهضة عاملة(٢٣).

إن مى عروس الأدب النسائى كما يطلق عليها تنتقل فى اهتمامها بقضية المرأة من الأدب إلى الفلسفة فتحلل آراء الفلاسفة فيها وتفندها وتشيد بأعلام الفلاسفة الذين ساندوا قضيتها حتى تحول تأملها وخيالها الأدبى إلى أفكار حية فلسفية يرى فيها الدكتور محمد حسين هيكل وزير المعارف العمومية فى ذلك الوقت موقفاً سياسياً، حيث تحمل كلمته فى تأبينها عنوان "فى السياسة" يقول: "لعل أكثركم قد عرف الآنسة مى "وكلكم ولا ريب عرفتموها من آثارها.. ولمستم فيما قرأتم من هذا وذاك روحها الشعرى الحريص على أن يتقف ما فى الحياة وما فغى

(٢٢) مى زيادة : العجائب الثلاث: من كلمات وإشارات.
(٢٣) مى زيادة : غاية الحياة ، المقتطف مجلد ٥٨ عام ١٩٢١ ص٤٦٦-٤٧٤.

العـــالم مـــن جمال وكمال ولا تحدث عن ناحية أدنى إلى اتجاهى أنا فى الحياة تلك هى ناحية التفكير السياسى لمى".

ولســـت أقصد بالتفكير السياسى حديثاً فى الحزبية والأحزاب، فلم تكن "مى" تـــتجه إلى هـــذا الـــنوع من التفكير، بل لعلها كانت تراه من النوافل التى لا تتفق وميولهـــا الذاتية. وإنما أقصد بالتفكير السياسى لمن ناحية منه لم يكن لها بد من أن تكون صاحبة رأى فيها تلك ناحية المركز السياسى للمرأة فى المجتمع(٢٤).

إن اهـــتمام مى الفلســـفى يتغلغل فى صميم فهمها للأدب وتلك مسالة هامة لـــلغاية فـــلم يكن الفكر إضافة هامشية تزين كتاباتها الأدبية بل هو صميم تفكيرها وفهمها للأدب أداته ووظيفته كما يظهر فى "رسالة الأديب إلى الحياة العربية" وهى المحاضـــرة التى ألقتها فى "وست هول" بالجامعة الأمريكية فى بيروت بدعوة من جمعيـــة "العـــروة الوثقى" فى ٢٢ مارس ١٩٣٨. فمادة الأدب ليس الخيال والتأمل لكـــن "يحدثـــنا الأديب عن النظريات والمذاهب". ومن أجل نشر الأفكار التى تعلى قيمـــة الحيـــاة تقـــول سرعان ما يتصل الحاضر بالمستقبل فى الأديب: جيل جديد يتخرج على آثاره وعلى مؤثراته فيشب حاملاً معه الفكرة التى تنيل الحياة قيمة.

أن مى تربط الأدب بالحياة الاجتماعية وتقدم تفسيراً سيوسيولوجيا له. وترى أن عـــلى الأدب أن يقدم لنا ــ خاصة فى عصر التطور الآلى ــ أيديولوجيا للحياة مقابل تطور التكنولوجيا(٢٥).

وفى رسائلها أيضاً مثل خطبها نجدها تتحدث عن: نيتشه وأمرسون وفولتير وروسو وعلماء الكلام وبرجسون وغيرهم. بل أنها فكرت فى عمل قاموس فلسفى كمـــا يتضـــح فى رسالة انطوان الجميل إليها فى ١٣ يونيو ١٩٢٦ التى يقول فيها "ســـأقرا كـــثيراً قاموســـك الفلسفى"(٢٦). ويبدو أن هذا القاموس لم ير النور. لكننا

---

(٢٤) د. محمد حسين هيكل: مى والسياسة، حفل تأبين مى . ص١٨.

(٢٥) مى زيـــادة : رســـالة الأديـــب إلى الحياة العربية. مجلة العروة الوثقى، ١٩٣٨م. نقلاً عن فاروق سعد، باقات من حدائق مى، ص٤٤٩.

(٢٦) طاهر الطناحى: أطياف من حياة مى ص ٤٨.

نســتطيع مــن كتاباتها أن نتعرف على فهمها للفلسفة والفلاسفة. ويظهر أنها كانت عــلى المام كبير بتاريخ الفلسفة القديمة والحديثة ونظرياتها. فقد أرسلت إلى جبران خــليل جبران ١٩١٩ ــ الذى أرسل لها كتابية "الجنون" و "المواكب كما ــ رسالة ناقشت فيها آراءه النيتشوية بعنف فقد كتبت فى مجلة الهلال تقول "فى المواكب فى المجنون أكاد اتبين تأثير نيتشه وإن كانت بسمة التهكم الفنى التى نراها عند جبران أفــندى لن تشبه أبداً ضحكة نيتشه ذات الجلجلة الضخمة المزعجة.. وتضيف مما يظهــر وعيها بتاريخ الفلسفة إلى ذلك قولها : إن الشاعر العربى جبران أفندى فنى فى كل شىء ونظرة واحدة إلى كتاب المواكب تكفى لتعين ما عنده من ذوق بسيط أنيق ولا تقيم المرارة لديه طويلا لأنه يعود إلى ذكر الطبيعة وحبها.

.. وقد يرتفع أحياناً إلى أعلى ذرى التأمل فتحسب الإمام الغزالى متكلما إذا يقول :

وغاية الروح على الروح قد خفيت فلا المظاهر تبديها ولا الصور

فيجيبه فى الغالب بما يدل على اعتقاده بوحدة الوجود[٢٧].

ويظهر أن اهتمامها بنيتشه كان شائعاً إذا كانت ترفض آرائه، التى نادى بها جبران ــ والتى نجدها أيضاً فى نفس الفترة لدى فرح أنطون. "وكان حكمها قاسياً عليه وعلى شوبنهور أيضاً كما يتضح من رسالة أرسلها إليها لطفى السيد فى أول ســبتمبر ١٩١٣م يقول لها فيها: أخشى أن تكون عصاك أو نفثاتك قد لعبت بعقلى أيضــاً فــاحكم عــلى شوبنهور ونيتشه حكمك القاسى عليهما ثم يقول لها مداعباً ولكننى مع ذلك أقول أن شوبنهور أخطأ خطأ واحداً هو أنه لم يقدر أن سيكون من النســاء، فتاتنا "مى" ذلك هو الخطأ الأساسى الذى لو تدبر فيه لما تمشى فى مذهبه على ذلك النمو".

(٢٧) المصدر السابق، ص١١٧، ١١٨.

ويظهر من رسالتها إلى أمين الريحانى معرفتها بالمفكر الأمريكى أمرسون وتقدما رأيا مخالفاً لرأيه فى السفر[٢٨].

وكتبت إلى الدكتور يعقوب صروف أحد مؤسسى المقتطف ورئيس تحريره وأحــد رجالات النهضة الثقافية فى الشرق الحديث رسالة تقول فيها : "لما جاءتنى رســالتك كنت غارقة فى مطالعة مراسلة شائقة بين فيلسوفين عظميين: فولتير ود المبيــير، مراسلة دائرة حول أعظم أثر أدبى رأته القرون الحديثة: دائرة المعارف الفرنسية"[٢٩].

كــتب فــاروق ســعد فى دراسة تجمعية باسم "باقات من حدائق مى" يقول: "كتــبت مى عن برجسون، وما أندر مثقفى العرب الذين كانوا قد أطلعوا على فكر برجســون، وأمثال برجسون فى ذلك الزمان". وبعد أن يبين أقسام المقال يضيف: "ولا يظــنن أهميــة مقــال مى فى كونها كانت (فقط) السابقة إلى تعريف المثقف العربى بالفلسفة الغربية الحديثة عامة وبالفيلسوف الفرنسى خاصة، بل بما يزخر به (المقــال) مــن معلومات ومعارف أن دلت على شيء فعلى ذلك المستوى الثقافى الرفيع الذى وصلت إليه مى[٣٠]. تقول مى فى بداية مقالها: "من الأسماء ما يرافقه رنيــن مطرب ينبه فى الفكر يقظة وكأن بدأ خفية منه تنقر على جهة معينة فتضح أمــام الــنفس بابــا يشرف على عالم ضياء جهل المرء قبل تلك اللحظة وجوده". وتحــلل اســم برجسون من كلمة Berg ومعناها "جبل" و son ومعناها "ابن" فيكون معــناها "ابــن الجبل" وكأنه صفة المسمى تحل لغز اسمه فى ذهنى لأنى ما ذكرت برجسون مرة إلا تمثلت لناظرى صورة رجل انتصب فوق جبل شاهق مطلاً على آفاق فيحاء ومروج متراميات الأطراف.

ورغــم أن تحليلها لاسم برجسون وارجاعه إلى مقطعين هما "برج" "وسون" إلا أنهــا مقتبعهمــا معناهما فى اللغة الإنجليزية "جبل" و"ابن" ومن المعروف أن برجســون فيلسوف فرنسى ويرتد معنى اسمه إلى اللغة الفرنسية. إلا أننا يمكن أن

(٢٨) من رسالة مى إلى أمين الريحانى انظر فاروق سعد ص٨٦.
(٢٩) طاهر الطناحى ص٧١.
(٣٠) فاروق سعد : "باقات من حدائق مى، ١٩٧٣، ص١٠٤.

نتقــبل مـــنه هــذا التحــليل باعتبار أنه تفسير لما يثيره اسم برجسون داخلها من انطــباعات وليــس باعتباره تحليل علمى لأسم الفيلسوف وهى تؤكد التفسير الأول بقولهــا : "وهــو كذلــك فى الواقع" بمعنى أن شخصيته فعلاً بهذا الوصف" لأن ما امتاز به من واسع العلم وبعيد النظر وصادق الحرية وشريف الاستقلال يدفعه إلى النزوع عن كل رأى وعصر ووسط متفلتا من قيود العقائد والمذاهب تفلته من تأثير فلســفة اسبنيوزا كل ذلك يجعل موقفه فريداً بين فلاسفة هذا العصر. كأنما هو قائم عــلى جبل اشم يجيل النظر فى هذا العالم ولوامعه السطحية وسرعان ما ينتقل إلى مــا وراءه مما هو في تقديره الروح التى تحييه. فتبدو له حجب الوجود سترا رقيقاً وتكاشفه آلهة الغيب بما فى قلب الأشياء وأعماق الصدق.

وتظهر من هوامشها دقة وفهم لموضوع كتابتها فهى تعطى فى الهامش رقم واحــد معــلومات وافيــة عــن برجســون "ولد فى باريس عام ١٨٥٩ وهو الآن (١٩١٨) أســتاذ فى الكوليــج دى فــرانس، كمــا أنه من أعضاء المجمع العلمى والأكاديميــا الفرنســية ورئيــس جمعيــة العلوم السياسية والأخلاقية كما أنها تفهم اســبينوزا جيداً كما يتضح من سطرين كتبتهما فى التعريف بها فى الهامش الثانى قائــلة "فليســوف إسرائيلى هولندى من أصل أسبانى ولد وتوفى فى القرن السابع عشــر وقد عزز بمذهبه مذهب ديكارت" . ومذهبه المدعو "اسبورزسم" قائل بوحدة الوجــود. "وهذا صحيح فاسبينوزا فيلسوف يهودى ويبدو أن يهودى وإسرائيلى كان لهــا معــنى واحد فى هذا الحين، لكن المعروف عن اسبينوزا أنه فيلسوف عقلانى تحــرر مــن العقيــدة الدينية بمعناها الضيق المتزمت لذا أخرجه حاخام اليهود من حظيرة الدين لما كتبه من آراء خاصة فى كتابه رسالة فى اللاهوت والسياسة[٣١].

وتــتحدث عــن فلســفة برجسون فى دقة علمية قائلة: "قام مذهبه يعارض المذاهــب الأيديالستية الألمانية ويفكر أقوالها وتعاليمها مثبتاً أن وظيفة العقل حسية أكــثر مــنها نظــرية وأن الحقيقة المحسوسة أبعد من أن تدرك بالأبحاث الجدلية

(٣١) اســبينوزا : رســالة فى اللاهوت والسياسة، ترجمة د. حسن حنفى مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الثانية، القاهرة.

والتبحر العقلى. فجعلته تصريحاته هذا عميد أتباع مذهب النفعية Pragmatism فى أمريكا وأوربا وقاضى محاكم المعقول والمنقول عندهم الذى بين شفتيه مقطع الحق ومفصل الصواب. وقد وضع زعيم هذا المذهب وليم جايمس كتابه الشهير "A Pluralistic Universe" وأفرد أحد فصوله للثناء على برجسون ودرس مذهبه فقال أنه يشاركه فى كثير من آرائه خصوصاً فيما يتعلق بإعلاء منزلة البداهة. رافقه فى دخوله إلى خفايا الحياة الداخلية وانحنى معه على نهر جار فى أعماق الضمير سمياه (البداهة) لأنهما لم يجدا كلمة أصلح من هذه فألقى تأملهما وبحثهما على حياة النفس نوراً فجائياً فبرزت واسعة بعيدة الغور فيها عجائب حركات وألحان وعوالم ثروة وروعة وألوان.

.. وتحتاج الفقرة السابقة من مقال مى إلى وقفه لنبين للقارئ الحديث بعض المسائل التى قد تقلقه فيما يتعلق بالمصطلحات وترجمتها مثل قولها الأيديالستية والنفعية والبداهة. فهى تقصد بالأيديالستية مصطلح Idealisme وهو عندها كما يظهر من الهامش التوضيحى يطلق على مذاهب عقلية أشهرها مذهب كانط Kant الذى ينكر الحقيقة الشخصية للأشياء ويجزم بأنها نسبية أو خيالية ليس غير. والمصطلح يترجم فى العربية بلفظ مثالية وهو اللفظ المتعارف عليه فى أغلب الكتابات المعاصرة وأن كان ترجمته بالتصورية أقرب إلى الصواب. أما فيما يتعلق بحديثها فى الهامش عن مذهب كانط "الذى ينكر الحقيقة الشخصية للأشياء ويجزم بأنها نسبية أو خيالية".

والحقيقة أن الأشياء عند كانط تنقسم إلى أشياء حسية تجربية هى الظواهر Phenomena وهى التى نلتقى بها فى عالم التجربة الحسية وهناك الحقائق فى ذاتها nomena التى تتجاوز عالم التجربة الحسية وهى حقائق لا نصل إليها إلا بالعقل العملى بينما الظواهر وهى الحقائق التجريبية فهى تتسم بالنسبية كما تقول مى.

... وهى تترجم Pragmatism بالنفعية وقد استقرت ترجمتها الآن "بالبرجماتية" وأن كانت النفعية قريبة من الصواب. وتستخدم مى أسماء الكتب كما

هى بالفرنسية مثلما تفعل فى أسماء المذاهب فتورد اسم كتاب "عالم متعدد" أو متكثر بنفس حروفه الفرنسية A Pluralistic Universe كذلك تقدم لنا "مى" المفهوم الرئيسى فى فلسفة برجسون وهو "البداهة" وهو يترجم ترجمات عديدة مثل: الحدس، البصيرة، العيان ترجمة للمصطلح intuation وهى ما يميز فلسفة برجسون مقابل الفلسفات العقلية، يظهر ذلك من حديثها ذو النغمة الشعرية فى نهاية الفقرة السابقة ونقول: "ولا يعجبن القارئ الكريم لهذه اللهجة الشعرية فى موضوع فلسفى لأن مذهب برجسون على ما فيه من الحقائق العلمية والمبادئ الرياضية ويكاد يكون معظمه مكتوباً بهذه اللهجة الشعرية"(٣٢).

وتتحدث فى فقرة طويلة عن آفات الشهرة ومصيبة برجسون وهى عندها نتيجة كتابات تابعيه التى تشوه فلسفة برجسون نفسها وترى "أن البرجسونية الجوهرية وحدها تعد فى تاريخ الفلسفة كما فى تاريخ الآداب الفرنساوية. فإذا ما خلصت من الشوائب سطعت بجمالها المهيب وأصبحت مذهباً من أنفس المذاهب الفلسفية المعروفة(٣٣).

ونقدم "لمحة فى شخصيته" وفى بداية هذه اللمحة تعطينا تفرقة هامة بين العلم والفلسفة تقول: "تقدمت العلوم فى السنوات الأخيرات تقدما باهرا واستعملت آلاتها واكتشافاتها فى أحوال الحياة اليومية فكاد ذلك يقنع الأكثرية بدخول الفلسفة عالم المجهولات وكشف ستارها. ولكن الفكر البشرى هو دائماً وخبرته النظرية تنمو على مقربة من اقتداره العملى وكل فرع من فروعه ينمو خاضعاً لنظام النشوء والارتقاء. فإن لم يأتنا الفيلسوف بآلة كهربائية وأداة قتل وتدمير فهو يبسط رأياً مستحدثاً دافعاً بنا إلى نقطة أمامية نرى عندها جهة جديدة للحياة. يبحث عن جواب "من أين"؟ و"إلى أين؟" فيستوقفه بينهما سؤال ثالث: "لماذا نعيش وكيف يجب أن نعيش؟" وهذا السؤال وحده كان موجوداً اسمى معانى الحياة وأشرف ما فيها من الأفكار والغايات والمقاصد"(٣٤).

---

(٣٢) مى زيادة : هنرى برجسون، المقتطف أغسطس، ١٩١٨، ص١٤٨.
(٣٣) نفس المصدر ص١٥٠.
(٣٤) نفس المصدر ص١٥٢.

وتتابع وليم جيمس فى قوله "إن لكل مذهب فلسفى نقطة انبعاث محاذية لرأى صـــاحب المذهب وخبرته الشخصية ولا يفسر الفلاسفة الخلقية ويعللون شئونها إلا بمـــا لديهم من ذوق وميل وتجريب.. وترى أن برجسون جمع فى مذهب عناصر فلســفية شــتى بعضـــها مـــن عقائد أهل الباطن Mysticism (والأصح الصوفية) والرومتــتية Romanticism والنفســانيات والـــبعض الآخر من مذهب الحيويين والارتقائيين والعقليين.

وتــتحدث فى فقـــرة هامة عن "العلم والفلسفة". وتبين أن برجسون يستخدم العـــلم فى فلسفته لخدمة الدين تقول: "يستشهد برجسون بالعلوم الوضعية وما تأييد مـــثله الأخلاقى إلا فى مصلحة الدين حتى أن القارئ يشعر أحياناً بأن العلم أصبح حـــليف الديـــن لـــلمرة الأولى منذ فجر التفكير والتبحر. ويسلم الناقدون بأنه خدم الفلســـفة خدمـــة كبيرة بإخراجها من شباك الكلام وتعقيدات المعانى المستعملة فى التعبير عما وراء الطبيعة. على أنهم غير مقتنعين بأن مذهبه يرضى العقل والدين معـــاً.. ويقـــول (تقصـــد برجسون) أن وظيفة العلم الاستدلال التحليلى والاستنتاج الاخـــتيارى لكـــن وظيفة الفلسفة قائمة فى البحث عما هو أبعد من المعروف غوراً وأعمـــق فى الـــنفس أثراً. على الفلسفة استكناهه واستقصاءه فتسبق بذلك العلم إلى حيـــث يتـــبعها بعـــد حين ليبرز إلى الوجود عجائب يجعلها الاستعمال والممارسة مألوفة. ويستفيد على هذه الصورة الفريقان معاً(٣٥).

ثـــم تـــتحدث عـــن فلسفته السياسية أو بمعنى أدق تطبيقات فلسفته فى مجال السياسة تحت عنوان هل هو ثورى؟ والحقيقة أن العنوان مضلل ولكن لمى عذرها فى اخـــتيار هـــذا الاسم خاصة وأن كثيراً من المفكرين والكتاب العرب استخدموا أفكار برجسون فيما بعد فى مجال السياسة العربية والبعث العربى خاصة المفكرين السوريين تقول:

"اقـــترح بعضـــهم إنشـــاء سياسة ديمقراطية وتأليف أحزاب ثورية تستخرج مـــبادئها مـــن مذهـــب برجسون فقالوا. إن غاية الديمقراطية تخويل الفرد ما أمكن

(٣٥) مى زيادة : هنرى برجسون مقتطف سبتمبر ١٩١٨، ص١٥٢.

الحقوق وتعليم الجميع احترام حقوق الإنسان الطبيعية. وكل فلسفة تهتم بالفرد (مثل مذهبي روسو وكانط) إنما هي مساعدة الديمقراطية في تحقيق غايتها. ولما كان برجسون مظهراً من الفرد أعظم قيمة ظهرت حتى الآن بكشفه عن أهمية الأنا الأساسية ومثبتاً أن الحياة الفردية مستودع قوى ثمينة تغطيها حياة الاجتماع برداء الاصطلاحات ومعلناً أن الدرجة التي يستطيع المرء الوصول إليه يجب أن تقاس بقيمته الشخصية وبخبرته الداخلية لا بما هو عليه من ثروة مادية ومركز قومي مما رفع أهمية الفرد إلى هذه الدرجة العالية كان مؤيدا بنظريته سياسة الفردية ومعززاً المثل الديمقراطي الأعلى.

وتعلق مي على رأي هؤلاء بقولها: الديمقراطية روح هذا العصر وفرنسا وطن الديمقراطية في العالم القديم كما أن أمريكا مدرسة الحرية والديمقراطية في العالمين (وكان هذا هو التصور السائد في بداية القرن عن أمريكا لدى المثقفين العرب) وبرجسون أعظم فيلسوف فرنساوي في هذا العصر فلا عجب إذا حاول الديمقراطيون الاتكاء على مذهبه. ولكنهم في تقديرهم مخطئون. وتبين ذلك قائلة: "إذا كانت غاية الديمقراطية تعظيم قيمة الفرد العددية والاجتماعية فهي لا تعبأ بقيمته النفسية والأخلاقية وهي التي أهتم بها برجسون فدعاها أولاً الأنا الأساسية. تلك الأنا التي لا تتزلف للعروش ولا تكبلها القيود والاصفاد ولا تسلبها حريتها وشرفها غيابات السجون. وهي لا غرض لها في الدفاع عن الديمقراطية والتذمر من الأرستقراطية لأنها فوقهما بمراحل[٣٦].

وتابعت في الجزء الثاني من المقال الذي ظهر في العدد التالي من المقتطف سبتمبر ١٩١٨ تناول فلسفته فعرضت رأيه في الكون، الحياة والمادة، النشوء والارتقاء، رأيه في الحرب، العقل والبداهة، ومتمته بـ "الكلمة الأخيرة لم تقل بعد" ثم أهلاً بالضيف الكريم.

تتحدث عن رأيه في الكون وأن : "تحليل العالم سهل لولا عنصر الشرفية.. وقد كان عنصر الشر حجر عثره في سبيل كل مذهب فلسفي وجعلته الأديان عقاباً

(٣٦) نفس الموضع ص٢١٨.

عـــلى اقتراب الأثام". ويفسر برجسون الكون بالطفرة الحيوية كما يظهر فى كتابه الهـــام (التطور الخلاق) الذى تترجم مى اسمه بالنشوء الإبداعى. وتعرض رأيه فى هذا الكتاب:

"يتجــنب برجســـون هذا الموضوع ما استطاع – الشر الكامن فى الكون– بإنـــزاله الغريـــزة الحيوانيـــة منزلة الغاية العقلية فى قلب الأشياء فيقول فى كتابه "النشوء الإبداعى": ليس الارتقاء حركة اندفاع إلى الأمام فحسب بل كثيراً ما يكون لحظـــات جمـــود ظاهرى وقد يكون انحرافاً والتواء وتقهقراً إلى الوراء. ويجب أن يكـــون الأمر كذلك. ويعترف (برجسون) باله حر مبدع الحياة والمادة وقوة إبداعه متواصـــلة نحو وجهه حيوية بترقية الأنواع وتنظيم الشخصيات البشرية. وهو أكثر مـــن قوة كامنة فى الطبيعة لأنه متحد بها اتحاداً كلياً وهو الأصل الذى تصدر منه جميع الأمور حسنة كانت أو غير حسنة.

ولا تكـــتفى "مى" بإيـــراد آراء برجسون فقط بل نراها مائلة أمامنا بالتعليق والـــنقد فـــتقول إن: "احتجاج برجسون على القدرية والجبرية شديد، ،وعنده أننا إذا رســـمنا لنفسنا خطة قيدنا حريتنا وحددنا ارتقاءنا وتنتقد نظريته فى الألوهية قائلة. ولـــئن كانت نظريته فى الألوهية غير متينة ولا نهائية فإنه يصفها بعبارات سامية جليلة، لم يستعملها قبله أحد كقوله أن الله هو البحر الذى نسبح فيه وتغمرنا أمواجه من كل صواب.

وتـــتحدث عـــن مذهـــبه الحيوى القائم على الحرية أو قل الثنائية بين الألية والحرية أو الحياة والمادة تقول: إذا كانت نظرية الألوهية عند برجسون غير مرتبة تمـــام الـــترتيب فإن فكرة الاثنينية واضحة كل الوضوح بل مقررة ثابتة وهى عنده الـــنزعة الحيوية Elan Vital (الدافع الحيوى) والمادة. وعلى النسبة المميزة بينهما أقـــام برجسون نظريته فى الزمن وحرية الإرادة، فالحياة أو النزعة الحيوية حرية والمـــادة ضـــرورة أو اقتضاء. النزعة الحيوية ديمومة والمادة جمود. وكل ما يقيد العـــالم الهيولى من نظام آلى وتحديد ينفلت منه العنصر الحيوى. فالعقل المادى من طـــبعه والذى قد اعتاد أساليب المادة وجعل الحياة آلية وحدد الحرية بالمادة لأنه لا يـــدرك إلا المحســـوس.ولكـــن لنطرحن عنا الصور العقلية محاولين إدراك الحياة بالبداهة نجد أن ماهية الحياة هى الحرية بعينها.

وعـن رأيـه النشـوء والارتقاء نقول لم يفكر أحد قبل برجسون فى تطبيق مذهـب النشـوء والارتقـاء عـلى عـالم الـروح ولم يظن جارياً فى غير عالم المحسوسـات. نقول: "بدأ برجسون بنقض مذاهب الجبريين والآليين وأنكر مذهب العقـليين الـذى ينسـب لـلإدراك البشرى قوة ليست فيه ثم فسر الحياة والارتقاء بالـنزعة الحيويـة. فمـا الارتقاء (عنده) إلا نمو القوة السرية التى سماها "النزعة الحيويـة". أو "النزعة الأصلية" وعنده أن النشوء لا يسير طبق خطة مرسومة بل هـو إبـداع حر متواصل التجدد يظل به المستقبل وما يغمره من الممكنات مفتوحاً أمامنا.

وبعد أن تذكر رأى برجسون فى الحرب. تتناول فلسفته العامة تحت عنوان أن العقـل والـبداهة تقـول ودعى برجسون "فيلسوف البداهة" وهذه أهم نقطة فى مذهبه. وأصل هذه النظرية هى التمييز بين "الزمن المكانى" والديمومة السيكولوجية "فيقـول إن وقت التأمل الهادئ لا يشبه وقتاً يعجله ويدفعه الانفعال أو يطيله الألم. أمـا زمن الساعات زمن التسوية والتعديل فلا يقاس به زمن عواطفنا المتغيرة إلا بحكـم العادة والاتفاق وحركته الآلية المصطنعة لا تشبه حركة أفكارنا وإحساساتنا التى نحياها ونكاد نلمسها فى داخل ضميرنا إلا بالاسم.

يعتـبر العقل أثمن قوة حصل عليها الإنسان إلى الآن لأن به تفوقه الحقيقى الحاضر غير أن خبرات العقل وإدراكاته تعجز عن القبض على أصول الحياة لأنها مـن غيـر نوعهـا فـهى لا ترى شيئاً من الحركات الجاريات فى أعماق النفس المظـلمة. العقل يدرك الماضى المنقضى لأنه صار بحدوثه مادياً من نوعه فيمكنه تقريره بالكلام والتثبيت منه بأدلة الحواس لكنه يجهل الصيرورة (أو الديمومة) التى تدفعـنا إلى الأمـام وهى مـن محفوظات البداهة فلا نتوصل إلى لمس الحقيقة إلا بسيرنا مع السيف الحيوى وبالبداهة والشعور ويكفى النظر إلى وظيفة العقل وتقدير نـتائج عمله لنعلم أنه مناف لغريزة أو البداهة.. وتضيف "وما الإنسانية الكاملة إلا إنسـانية وصل فيها البداهة والعقل إلى أعلى درجة ممكنة من النمو، وما الإنسانية اليـوم عـند هذه الخطوة الصعبة من سبيلها إلا لأن سراج البداهة خبا تحت أثقال الدهور. فإذا شع فجأة الوقت بعد الوقت فهو لا يضيئ إلا لمحات قليلات ولا يقوى على إنارة غير جزء صغير من ظلمات المادة المتراكمة حوله.

يقــول برحسون إن هذا المذهب يرمى إلى استيعاب العقل فى البداهة لحذف فقــط الصعوبات العقلية من جهة وزيادة الرغبة فى العمل وتقوية الحب للحياة من جهة أخرى. لكن أين العالم الاجتماعى الذى يقتحم المجازفة بكل ما لدى البشر من الخــبرات العقــلية والنــتائج الآلية لتطبيق الارتقاء والسعادة على قواعد المذهب البرجســونى المهيــب بجلالــه النظرى وجماله التركيبى لكن القاصر دون حماية مطــالب الحيــاة العملية وشؤونها. على أن هناك أمرا لا جدال فيه وهو أن العقل وحــده لا يســتطيع إيصالنا إلى السعادة وصرنا بفضل برجسون مدركين قيمة هذه الآلاهــة (البداهة) الكامنة فينا شاعرين بعذوبة بسمتها فى أعماق النفوس معترفين بفائدة اشتراكها مع العقل فى تدبير شئون الحياة والسعادة.

وتــبين "مى" أن جوهــر هذا المذهب محصور فىمؤلفات برجسون الثلاثة وتفســيره مبعثر فى مئات المحاضرات والمقالات. يرى فيه الناقدون تناقضاً كثيراً لكــن الآراء العلمية العصرية لا تنقض نظريته فى اندفاع النزعة الحيوية التى هى قــاعدة هذا المذهب. ولئن شغل كثيراً بما وراء المحسوس فله كذلك اهتمام بالحياة العمــلية ولا يســتطيع نبذ ذلك الاهتمام فى مصلحة المذهب ذاته وهذا سبب فوزه الشــامل وترى "مى" أن "جميع نظريات برجسون لم تطبع بالطابع النهائى ولم يقل بعــد فى مذهــبه الكلمة الأخيرة لأنه ما فتئ شاباً فى زهرة شبابه الفكرى. واخيراً تلقى بتحية ترحيب حارة بمناسبة قدوم الفيلسوف.

ومــن يطالع كتاب الأعمال المجهولة لمى زيادة، جمع وتحقيق د. جوزيف زيــدان تقديم غادة السمان، الصادر ١٩٩٦ عن منشورات المجمع الثقافى، أبوظبى يجــد العديــد من الدراسات الفلسفية أو التى تتناول فى سياقها أعلام الفلسفة. مثل دراستها بمجلة الزهور "القدر والمقدر" ص٤٣-٤٧، "وكيف نقيس الزمان" ص٥٨ -٦٢ ، وإشــارتها إلى نيتشــه ص ٩٢، ومقالها بالمحروسة "أرسطو الغلبان" ص ١٤٠-١٤١" وأهم حادث أثر فى مجرى حياتى" ص٢٣٥-٢٣٧ وغيرها.

(٥)

.. والدراسة الهامة التى ينبغى تناولها فى هذا السياق هى بحث "مى" فى المساواة والذى نشر على حلقات فى المقتطف ثم طبع فى كتاب يحمل نفس الاسم[٣٧]. يتناول الفلسفة السياسية أو قل النظم والمذاهب الاجتماعية، وربما يكون بحثنا الحالى أول دراسة تحليلية لما قدمته "مى" فى مقالاتها التسعة بالإضافة للخاتمة التمثيلية التى حذت فيها حذو كتاب فرح أنطون "الدين والعلم والمال" ولهذه التمثيلية أهميتها فى بيان موقف "مى" مما عرضته من المذاهب الاجتماعية. التى تعد "برأينا من أنضج المؤلفات العربية فى الفكر السياسى والاجتماعى والاقتصادى.. والجدير بالذكر أن مى زيادة كانت فى "المساواة" أول من تناول باللغة العربية وعرف وبحث الاشتراكية السلمية على حد وصف مى "نظريات الايتوبيين" (اليوتوبيا والاشتراكية الثورية "أفكار ومؤلفات ماركس وانجلز ولينين" والفوضوية أفكار باكونين وكروبتكين، والعدمية أفكار لغروف وهرزن وبرأينا أنه حتى اليوم لم توضع دراسة باللغة العربية بالمواضيع التى بحثتها فى المساواة بالشمول والدقة الظاهرة فيها".

..والأمر الذى لابد من لفت النظر إليه هو أن مى كتبت بحثها ولم يكن قد مر سوى بضع سنوات فقط على ظهور معالم ومفاعيل الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى عرضت لها وحللتها.. وهذا يدل إلى مدى وصلت "مى" فى متابعة أحداث وأفكار عصرها وإلى أى مستوى ودرجة كانت السباقة إلى التنبيه إليها ودراستها. تقول وداد سكاكينى فى كتابها عن مى أنها ظلت: "تتصدى مع طليعة المفكرين العرب لكل وافد وطارق فى الحياة الاجتماعية وفى الدعوات التحررية والإسلامية فلما ترددت المسألة الاشتراكية فى مؤلفات الغربيين، وقفت عليها وبحثت فى وجوهها ومحتواها، حتى أخذ هذا الموضوع الخطير يهب فى

---

(٣٧) تكون البحث من مجموعة من المقالات فى : الطبقات الاجتماعية، الارستقراطية، العبودية والرق، الديمقراطية، الاشتراكية، السلمية والثورية، الفوضوية ثم حوار تمثيلى تختم به الدراسة وقد نشر فى المقتطف سنة ١٩٢١-١٩٢٢ المجلدات: ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١.

بعض أرجاء العالم العربى مثل تيار يشتد ناره، ويخف حيناً تبعاً للظروف العالمية والأمور الحكومية والشعبية"[٣٨].

تـبدأ مى زيـادة كتابها بداية رومانسية حالمة[٣٩].. وتقدم الكتاب بعبارة تنم عـن ذلـك" من ذا يخلصنى من قسوة التمايز" ص٩. وتعرض فى التمهيد – وهو المقالـة الأولى بالمقـتطف – إلى مظاهر عدم المساواة والتناقض بين الثرى تنهب الأرض سـيارته والمعدم الذى يتمرغ فى الأرض كأنه حشرة تأنف الأرض مسها، أو الحسـناء تـرتدى أفخر الثياب والجواهر ورثة الثوب تحمل طفلاً والذباب يأكل من مآقيها ووجنتيها ما لا تستطيع إزالته لأنها فقيرة حتى من الماء الطهور (ص٩) وتنتقل من هذه اللهجة الأدبية ومن لغة الشعر إلى الحديث العلمى الذى يقتحم صلب المشـكلة تقـول : "تكـاد تكـون المشاكل الدولية الأعيب إذا ما قوبلت بالمشاكل الاقتصادية التى يسمونها اجتماعية. ومشكلة "المساواة" هى الآن أم المشاكل واسمها يطن من كل صوب" (ص١٣) إنها تحدد مشكلة بحثها فى عدد من الأسئلة: ما هى المسـاواة؟ وأيـن هى؟ وهل هى ممكنة؟ هذا ما أرغب فى استجلائه فى الفصول الـتالية دون اندفـاع ولا تميـز، بـل بإخلاص من شكلت من جميع قواها النفسية والإدراكيـة "محكمة محلفين" يستعرضون خلاصة ما تقوله الطبيعة والعلم والتاريخ ليثبـتوا حكمـاً يـرونه صادقاً عادلاً (ص١٣/١٤) وهى بهذا التحديد تمهد تمهيداً منطقياً لما ستختم به دراستها من حوار تمثيلى يستعرض الفكرة من معظم جوانبها وتكون هى نفسها أحد شخصياته.

ولا تنسـى فى المقدمة وفى معظم إجراء الدراسة قضيتها الهامة عن المرأة فباسم المساواة "اعتصمت المرأة فنهضت من تحت قدم السيد الساحقة ووقفت عالية الجـبين إزاء مسالك الحياة وأعمالها (ص١٢) وتستشهد بأسماء المفكرين وأصحاب النظريات حيث تتردد أسماء: ماركس، لاسال، انجلس، برودن، باكونين، كروبتكن، وعشرات غيرهم يدحضون مذهب دارون. وهوبس.

---

(٣٨) وداد سكاكينى : مى زيادة دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ ص١٠١/١٠٢.

(٣٩) مى زيادة: المساواة مؤسسة نوفل بيروت لبنان، ط٢، عام ١٩٨٠، وسنعتمد فى تحديد أرقام الصفحات فى تحليلنا لأفكار الكتاب بذكر أرقام هذه الطبعة أمام كل استشهاد داخل النص.

ثـم تتحدث بعد التمهيد، فى الفصل الأول عن الطبقات الاجتماعية فتعرض أســطورة خــلق البشــر فى الحضارة الهندية من براهما وتفسر نشأة الطبقات كما ظهــرت فى هــذه الأسطورة حيث نشأ عن الآلة طبقات الملوك والجنود والعمال والحثالة وتتابع بتأثير من المادية التاريخية وأن كانت لا تشير إلى ذلك تاريخ العالم مــنذ المشاعية الأولى فتقول بسبق الاشتراكية "فينجلى من هذا أن الاشتراكية سبقت كــل نظــام آخر فى حياة البشر ثم تبين بعد ذلك منشأ الاوتوقراطية والرق وترجع ذلــك الــتمايز إلى ســببه الأساسى وهو الملكية تقول: "كان ذلك الفصل الأول من تــاريخ الاقتصاد البشرى الدائر كله حول ذلك المحور الرهيب الذى يدعى الملك. فالحصــول عــلى الملك والاحتفاظ به من جهة والرغبة فى نزعه من جهة أخرى ســببت هــذا العراك المالى والاجتماعى الذى لا ينتهى" وتتحدث عن تكون الملكية (ص٢١) وطــبقة الارستقراطية (الطبقة الثانية) والطبقة الثالثة (الخدم) وتعينت مع الــزمن الفــروق الاجتماعية واكتسبت كل من الطبقات صفات تنسب إليها وعيوباً بهــا. وتجبرت الطبقات العليا فى سماواتها الوهمية وحسبت نفسها من طينة مختلفة عن طينة الآخرين، لها من ألقابها وثروتها وامتيازاتها ما يفتح لها الأبواب الألوهية على مصراعيها" (ص٢٢).

وهى تشــيد بــالداعيين للمســاواة وتــندد بالمتغافلين عنها. وهى ترجح أن أفلاطون يوم كتب جمهوريته "ضرب صفحا عن هذه الحقيقة. وتستنكر موقفه بينما تشــيد بموقــف روســو الذى نادى هو وأتباعه بالعودة إلى البداوة الأولى لتحصل الإنسانية على الهناء المفقود وترتع فى بحبوحة السلام والحرية. (ص٢٢). ورغم أنهــا تــرى الــتاريخ فى تقدم "يمكن القول أن اتجاه التاريخ البشرى بمعنى التقدم والتحســن وأن كــثرت حركاته الرجعية واللولبية" (ص٢٤) إلا أنها مع ذلك تبرر الأوضاع القائمة حيث تعبر آخر فقرة فى هذا الفصل عن موقفها غير المعلن تقول: "لابــد مــن تنوع الصور وتعدد الطبقات. فلولا التنوع والتعدد ما كانت للفروق من فضــل ســوى شــحذ العــزائم وإرهاف القوى والتسابق إلى الأولوية لكفى لنقبلها محاولين عبورها بما أوتينا من عزم وكفاءة. والفوز للإصلاح دوماً" (ص٢٥).

وتــبين فى الفصـــل الثانى الارستقراطية ونشأتها ومزاعمها. حيث إن هذه الطــبقة ترتــبط بالمــلكية وتستمد نفوذها من الدين وهى ملاحظة هامة صائبة من "مى"، لأن هــذه الطبقة تقوم على "التذرع بأقوى البواعث النفسية من عاطفة دينية وخشــية مـــا وراء المـــنظور. ومن ثم استجارة الملك بالدين والدين بالملك لتبادل المــنفعة، فيصبح الحاكم حامى حمى العقائد ورافع الفضائل ويصبح الكاهن حامل لـــواء الســلطة الفردية وأول شاهد بأنها آتية من الله" وظلت القرون الوسطى بعد الأولى، تـــرى هالـــة الألوهيـــة حول الملكية وتحسب حبل سلطانها مشدوداً بمتكأ العرش الصمدانى"(ص٢٨).

وتـــرى أن الارســـتقراطية ضرورة ومن ثم تبرر وجودها (الطبيعى) وتأتى بـــتعريف أرســـطولها بأنها "أقلية من ذوى الأهلية والفضل يسودون فى جمهورية فيدبـــرون مـــنها الشئون وينفذون القوانين الموضوعة بأمانة ودقة ويقومون بعبء الحكـــم حـــباً بالمصلحة العامة والخير العام. وتأتى بتعريف شيشرون الذى يسمى الارســـتقراطيين الأفضـــلين أو الأماثل فمعنى الارستقراطية الأصلى إذا هو حكم الأفضلين أو حكم الأفضل (ص٣٢).

ومـــن هنا "الارستقراطية ضرورية لمنفعة الأمة" وتفضل أسباب ذلك "فهى قليـــلة الأذى، وقليلة الظلم، وهى مستودع صفات مستحسنة. لذلك ستبقى زمناً آخر لأنهـــا قريـــبة إلى نظام الطبيعة وتطيل فى بيان ذلك وتؤيده بموقف شوبهور الذى طالمـــا هاجمـــته سابقاً لأنه مفيد فى تأييد دعواها وتأكد على ذلك باستمرار "ستظل الارســـتقراطية، ارســـتقراطية الجماعـــة وارستقراطية الفرد مادامت الطبيعة ولو تحولت منها الأنواع وتغيرت المظاهر وتعددت الأسماء"(ص٤٠).

.. وتخصـــص الفصل الثالث للعبودية والرق. التى ترى أنهما شىء هام فى الطبيعة. فمن عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض "ومادام االاستقراطية ضـــرورية فالعبودية تلازمها" إلا إنما الحياة غنية بالمال والذكاء والكرم والصلاح والحـــب والجمـــال والفخار. على أن فى كفتها الأخرى ما يعادل الأولى من شقاء وفقر وخمول وقبح وكره وانحطاط وتستخدم هربرت سبنسر وأبيقورس لتأييد ذلك.

وتفيض فى الحديث عن الديمقراطية فى الفصل الرابع وترجعها إلى اليونان "لـم يهـتدى زعماء الإصلاح إلى أنظمة سياسية غير الثلاثة التى ذكرها أرسطو وهى: المـلكية أو حكومـة الفـرد والارستقراطية وهى حكومة الأقلية أو حكومة الأمـاثل، والديمقراطية أو حكومة الشعب. ولئن دانت المدينة لمتأخرة بالديمقراطية فـإن جـل المديـنات المتقدمة إن لم يكن كلها نما وترعرع ثم توارى فى حضن الملكية" كما فى مدينة مصر القديمة، والحضارة الكلدانية والأشورية، ولدى اليهود، وعـند الفينيقيون والفرس وفى الشرق الأقصى الصينى واليابان وفى اليونان "أخذ الفرد يعرف حقوقه وواجباته. هناك أشرق فجر الديمقراطية"(ص٦٣).

ولم ننسى مصر أبدا فى حديثها فى الفصول السابقة ص١٢، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٥٩ كذلـك تـتوقف هنا وقفة طويلة أمام الدعوة الديمقراطية فى مصر وهى الـتى ساعدت على ازدهار مى الأدبى بفضل الحركة الوطنية المصرية تقول: "وقد لمسـت موجـة الديقمراطية شواطئ الشرق الأدنى - والأصح الأوسط وأول من هـتف بهـا فى مصر لطفى بك السيد، يوم كان بعضهم يطلقون عليه مزاحاً لقب "الفيلسـوف الديمقـراطى" ولم تقف المسألة عند حد المزاج بل هو لاقى فى اعتناق الأفكار الحديثة مصائب واحتمل سخافات" وتبين ذلك بالتفصيل.. ولم تمضى خمسة أعـوام حتى صار لمصر الفتاة حزب يدعى "الحزب الديمقراطى المصرى" تنتسب إليه فئة من أرقى الشباب المتعلمين فى أوربا، العائدين من مدارسها العالية بمعتبر الشهادات ومحترم الألقاب وهو ما يبين طبيعة التكوين الطبيعى للحزب لذا نجد مى نفسـها ترى أنه مقابل (هذه الحرية) وعلى مقربة من هذا التساهل والانصاف تقوم ارسـتقراطية مـزدوجة لأن موقـف الأجير المصرى إزاء صاحب الأرض يكاد يكون- فضلاً عن موقف العامل المصرى إزاء الممول موقف الرقيق إزاء الشريف فى نظام الإقطاع.

إن الديمقـراطية لا تقنع مى كما يتضح مما تصنعه فى مصر. وفى امريكا التى "يخيل إلينا إنها أقرب الأمم إلى الديمقراطية" هل حالت المساواة دون ما يقابل بـه البيض السود من أزورار واحتقار؟ إنها تقف أمام القائلين بالديمقراطية متسائلة

"أيـن المساواة التى تدعون"؟ لذا تستعرض مذاهب أخرى أحدث عهد فى الفصول التالية.

نتـناول فى الفصـل الخـامس الاشتراكية السلمية لأنها ستخصص الفصل السادس للاشتراكية الثورية.

وتتناول الاشتراكية بالتعريف فهى ترى أن كل تطور فى السياسة والتشريع والأخلاق والفكر ناتج عن التكيف الآلى والتحول الاقتصادى وهى ترجعها إلى أقدم مرحـلة فى تـاريخ البشرية وقد أوحت إلى أفلاطون كتاب الجمهورية ومن الكتب الـتى وضعت فيها يوتوبيا توماس مور ومدينة الشمس كامبانيلا واليوتوبيا الجديدة لويـلز الانجـليزى ومى هنا تخلط بين الاشتراكية العلمية والتفكير اليوتوبى الذى سـبقها "وتميـز بين نزعتين فى الاشتراكية: النزعة الألمانية الثورية أو الماركسية والـنزعة السـلمية الـتى يجـوز أن تنعت بالفرنساوية وكما بينت فى حديثها عن الديمقـراطية موقـف لطـفى السيد. نتناول هنا "فى سياق الكلام على الاشتراكية السـلمية "الحـزب الاشتراكى المصرى" الذى أعلن بروجرامه فى شهر أغسطس المنصرم (١٩٢٢) فكان مسالماً إلى حد أغاظ الأستاذ عزيز ميرهم سكرتير الحزب الديمقـراطى، مـن جهة تخوف لتكونه من المحافظون وعلى رأسهم فضيلة السيد محمـد الغـنيمى التفـتازانى شيخ السادة التفتازانية من جهة أخرى قامت بين هذه الـنزعات الثلاث مناقشة أسفرت عن أمر واحد هو أن جميع المتنافسين محقون فى ما يدافعون عنه. (ص٨٣).

وتوضـح مى أن عزيز ميرهم استحث الاشتراكية المصرية على "استكمال اشـتراكيتها" ليـس بصـفته سكرتيراً للحزب الديمقراطى، ولكن بصفته الشخصية المجـردة. ولقد أجاب سلامة أفندى موسى أحد أعضاء الحزب الاشتراكى بما يدل عـلى تصـميم الاشـتراكيين المصريين على المسألة وعلى أن رائدهم الإصلاح الـتدريجى. وتستشـهد بقـول سـلامة موسى: "ومع تمنينا نجاحهم (البولشفين فى تجربـتهم العظيمة فأنا لن ننصح بالطفرة وسيكون رائدنا التدرج والتطور. ولا شك

أن الاشـــتراكية المصـــرية ستكتسب لوناً خاصاً بتأثير الوسط المصرى والمزاج لا يمكنـــنا ولا نـــرغب فى تعيينـــه الآن... ويضـــيف وأظن أنه من الممكن أن نقنع بأفضـــلية الاشتراكية على النظام الرسمالى الحاضر فلا يحتاجون الاشتراكيون إلى اتخاذ خطة عدائية نحو الأغنياء" ويفيض فى بيان ذلك رداً على محمد حسين هيكل وتعـــلق مى عـــلى موقفه هذا بقولها: "هذا ما يقوله الاشتراكى المصرى الذى حذا حـــذو هـــنرى جـــورج وسائر الاشتراكيين المسالمين ابتداء من سان سيمون إلى أوســـيب لوريـــه فى الاستكانة عند أمله بنجاح مساعيه ولن يزد - ترى لو لم تقنع تـــلك "الطـــبقة الكبيرة من الأغنياء" فماذا يحدث؟ لو تراهم لم يزيدوا لأن السكوت أفصح من الكلام فى بعض المواقف؟.

ويتضـــح من ذلك رفضها للموقف المسالم للاشتراكية السلمية لكن هل معنى ذلك موافقتها على الاشتراكية الثورية التى خصصت لها الفصل السادس حيث تبين مصـــادرها الثلاثة وتعرض لها. ولكن لا تتخذ منها موقفاً حازماً محدداً فهى تقول: "الغـــد للاشـــتراكية بـــلا ريب ولكنها ستغلب على أمرها بعد أن تنيل الاجتماع ما تســـتطيع أن تـــأتى بـــه مـــن التعديل. الغد للاشتراكية ولكنها لن تكون أوفى من الديمقـــراطية فى تـــتعيم عودها. الغد للاشتراكية ولكن من بين الطبقات المتساوية بالمســـاواة الجديـــدة ســـتنهض فـــئة فتعـــلوا وتطفو على الطبقات الأخرى، طبقة ارســـتقراطية المســـتقبل التى ستخلفها الكفاءة الشخصية وتقسيم العمل المحتم اليوم والأمـــس والعـــد. العد للاشتراكية ولكن الفردية ستظل منتصبة قربها على الدوام. الغـــد للاشتراكية ولكن ما بعد الغد لنظام آخر سوف ينبثق من قلب الاشتراكية التى هى مذهـــب إنسانى. فهى بذلك خاضعة لطبيعة الإنسان تملأها الحسنات والسيئات ويســـتحيل فيهـــا الكمال - إلا إذا بقى لها ذلك الكمال مثلاً أعلى تتبعه ويظل هاعبا أمامها إلى منتهى الدهور.

وتعـــرض فى الفصل السابع للفوضوية وتحدد الفرق بينها وبين الاشتراكية وتنـــتهى من ذلك إلى "أن الفوضوية مذهب محزن مسروع وهو على حداثة نشأته

ذو تـاريخ مضـرج بالدمـاء" لكـن من خلال تعمق كروبكن وبرودون وباكونين ومقارنـة آرائهـم بالماركسية مقارنة تتم عن فهم ودقة. ثم تنتقل إلى الفصل الثامن عـن العدمية. وتوضح الخلط الذى ألفه الناس بين الغوضوية والعدمية وأوجه الشبه والاخـتلاف بينهما وتعرض أفكار منظرى العدمية أمثال لفروف وهرزن وغيرهم ولا تنـتهى من العدمية إلى موقف واضح ونظر لضرورة الوصول إلى نتائج تعقد فى ختام حلقة أخيرة لكن على شكل تمثيلية بعنوان يتناقشون.

وترتبط التمثيلية بالكتاب ارتباط عضوى وهى تدخل فى صميم دراستها ولنا أن نـتوقع أنها تحمل طابع الحوار العقلى والذهنى أكثر من الدراما لأنها تعيد مرة ثانية الآراء المختلفة التى عرضتها "مى" فى الكتاب دون أن تخرج منها نتيجة عن أى المذاهـب أصـلح لـتحقيق المساواة وأمام عدم التحديد واتفاقا مع آخر سطور المقدمـة "شـكلت من جميع قواها النفسية والإدراكية "محكمة محلفين" يستعرضون خلاصـة ما تقوله الطبيعة والعلم والتاريخ ليثبتوا حكماً يرونه صادقاً عادلاً" ومثل الكـاتب الذى يتوارى خلف شخصيات عمله أوجدت مى زيادة عدد من الشخصيات يتبنون وجهات نظر الاتجاهات المختلفة وكانت هى أحد هذه الشخصيات.

وتعـد مقدمة التمثيلية خلاصة صادقة لموقف "مى" فى الكتاب فحين تقول له السيدة جليلة (وهى أولى الشخصيات التى تذكرها مى معلمة مى فى الماضى. فطنة معـتدلة الـرأى) إنى قرأت مقالاتك عن المساواة "بمنتهى الاهتمام. وانتظر الباقى منها لأدرك النقطة المعينة فى فكرك، وقد هيأت من الاستنتاج والاستدلال ما هيأت لإيصالنا إليها. ترد مى: النقطة المعينة! إذا دل بحثى على أن لدى شيئاً معيناً أقوله فقـد فشلت حتى فى التعبير عن رغبة ساقتنى إلى معالجة هذا الموضوع الجموح. وتقـول ثانيـة: حسـبتنى مقبـلة على موضوع لى أن أعالجه على ما أريد، فإذا بالموضـوع يعالجنى قاذفاً بى من تيار إلى تيار ومن حيرة إلى حيرة وهاندا أردد سؤالا ألقيته على نفسى مراراً خلال هذا البحث: أين أنا الآن؟ أين أنا؟

هـذا هـو موقـف مى زيادة إذن. لكن يبدو أنها أقرب إلى الاشتراكية كما يتضح من تعاطفها الشديد مع شخصية عونى (نجل السيدة جليلة، اشتراكى متحمس

وذو قــلب مخلص نبيل). وكذلك مع شخصية عارف الذى تعرفه بأنه (أديب عرف الــناس وتــألم فــأدت به المعرفة إلى شىء من الجمود ولكنه يخفى وراء مظاهر القســوة والــتهكم طــبيعة حارة صادقة خيرة) وربما كان عارف أهم الشخصيات بالنسبة لها من حيث إنه كان من أكثر الشخصيات إيجابية فى الحديثين: تحدثت مى ثمــانى مرات وعونى أحد عشر مرة بينما تحدث عارف خمسة عشر مرة. وتختم "مى" كتابها بعد التمثيلية برسالة منه.

يقــول لهــا عــونى وهو ينصرف من بيتها بعد انتهاء الحوار: شكراً أيها الآنســة. واســمحى لى أن أردد التعــبير عن ثقتى بأنك منضمة إلى صفوفنا بحكم فطــرتك ونزعتك الفكرية. وبى اقتناع بأن السعادة النسبية ممكنة لبنى الإنسان ولا ســيما وأن فكــرة الارتقــاء والسعادة هى وليدة العصور المتأخرة بعد أن تعاونت الأديان والفلسفات على إقناع الإنسان أنه دودة صغيرة تتمرغ فى التراب أمام وجه الخــالق.. والــثورة أبدع مظهر من مظاهر الاستياء. شرف الإنسان قائم بإنصاف الآخرين كما ينصف نفسه. والنفوس الكبيرة قلقة أبداً لا ترضيها غير اللانهاية.

.. ومــع هذا فإن "مى" تظل حائرة كما يتضح من آخر سطور كتابها حيث تقــول: هــا آنذا وحدى أيها الليل فأفهمنى ما على أن أدرك! ها آنذا مستعدة أيتها الحياة فسيرينى حيث يجب أن أسير!

ستار

ينــبغى عليــنا أن نــتوقف قليلاً أمام كتاب المساواة الذى يعد بحق من أهم كــتابات مى زيــادة والذى يضىء ناحية هامة من نواحى تفكيرها وهو من أوائل الكــتب الــتى تبحث فى الاشتراكية والنظم الاجتماعية المختلفة. وهى تتناول هذه الــنظم بالعرض والتعريف الموضوعى الذى يختلف عن عرض الداعية إلى مذهب مــا. فتحاول أن تكون موضوعية لا تنحاز إلى مذهب دون آخر رغما أننا نستطيع أن نتبين من بين السطور موقفاً ما لها.

.. والكـــتاب يعــبر عـــن مـــدى إلمامها بمختلف المذاهب والأفكار القديمة والحديــثة تعــرض للحضـــارات المختــلفة الهــندية والمصرية القديمة والكلدانية والأشـــورية والفيــنيقية. وكذلــك للأديـــان المنزلة الثلاثة. تعرض آراء أفلاطون وأرســطو وأبيقور وشيشرون كما تعرض اتجاهات ماركس وانجلز ولاسال بجانب آراء بـــاكونين وكروبـــتكن ولغـــروف وهرزن لكن أهم ما فى كتابها هو اهتمامها بمصـــر تـــتحدث عن الديمقراطية فتذكر لطفى السيد وعن الاشتراكية فنجد أسماء عزيـــز ميـــرهم وسلامة موسى يرد على حسين هيكل والتفتازانى صاحب الاتجاه الديـــنى وغيرهما. إن مصر فى تفكيرها والمساواة التى تبحث عنها هى ما عجزت الأحـــزاب المعاصرة لها عن إيجادها وتبحث فى هذه المساواة بأسلوبها الرومانسى من أجل غاية أخلاقية لكنها تظل حائرة.

طه حسين:

أبو العلاء المعرى والخطاب الفلسفى العقلانى (*)

نسعى فى هذا الفصل إلى بيان أن الخطاب الفلسفى هو الأساس الذى تنطلق منه كل خطابات طه حسين الأخرى. وبيان ذلك لا يتم بتناول خطابه الفلسفى باعتباره نتاجاً للتيارات الفلسفية فى فرنسا(١). أو تمجيداً للفلسفة اليونانية التى لعبت دوراً فى الفلسفة العربية. وقدم فيها هو عدة دراسات(٢). وذلك لأن قراءتنا تنصب على إبراز التفكير العقلى المنهجى فى مجمل كتابات طه حسين الفلسفية التى تؤسس مشروعه التحديثى للنهضة، والذى نجده لدى المدرسة الفلسفية الحديثة فى مصر. وقد كان أغلب أعضائها من مفكرى الليبرالية المصرية: أحمد لطفى السيد، مصطفى وعلى عبدالرازق وطه حسين، إسماعيل مظهر ومحمد كامل حسين - تلك المدرسة التى كانت عند البعض تغريبية، تدعو إلى القومية المصرية التى تستلهم الغرب وترجع إلى أصوله الحضارية القديمة لدى اليونان وهذا حق فى بعض جوانبه ولكنه ليس الحق، فإن استلهام الغرب واستخدام أدواته المعرفية عند طه حسين والمدرسة الفلسفية التى ينتمى إليها وتجد أصولها لدى أستاذ الجيل إنما يهدف إلى إعادة صياغة الواقع المعاصر دون الوقوع فى الخضوع للغرب وذلك يجعل المنجز الغربى المعرفى جزءاً من وعينا وبتحويل أصوله اليونانية إلى مكون من مكونات ثقافتنا(٣).

(*) القى هذا الفصل فى صورته الأولى فى مئوية طه حسين بكلية الآداب جامعة القاهرة، نوفمبر، ١٩٨٩، ونشر فى دراسات متعددة بالإضافة إلى هذه الدراسة، انظر مثلا: مجلة الفكر العربى بيروت، العدد ٦٢ ديسمبر، ١٩٩٠. هذا وقد تناولنا جهود العميد الفلسفية فى كتابنا الديكارتية فى الفكر العربى المعاصر، القاهرة، ١٩٩٠، وكذلك فى العدد ١٤ من مجلة فكر، الديكارتية والنقد الأدبى، ومجلة المنار العدد ٥٠.

(١) قارن وليد فستق: طه حسين والتيارات الفلسفية فى فرنسا، ص٨١-١١٢، مجلة المعرفة السورية، العدد ١٥٣، تشرين الثانى ١٩٧٤، (عدد خاص عن طه حسين)، يرجع الباحث الأساس فى تفكير طه حسين إلى الفلسفة الغربية يقول: "وإذا نختار اليوم الجانب الفرنسى من هذه الثقافات الأجنبية فلاقتناعنا بعمق أثره لدى الكاتب. نقول هذا رغم أن الأولوية الزمنية تعود إلى الجانب اليونانى الذى ملك كثيرا من مناحى الفكر والوجدان لديه"ص٨٥.

(٢) رصدنا فى فقرة قادمة عن كتابات طه حسين الفلسفية ما كتبه عن اليونان عامة وأرسطو خاصة.

(٣) قارن دراستنا عن: "أحمد لطفى السيد: أرسطو مكون الفلسفة العربية الحديثة" الفصل الأول من كتابنا "الأخلاق فى الفكر العربى المعاصر" دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩.

ومن هنا نسعى إلى بيان أصول الخطاب الفلسفى لعميد الأدب (الفكر) العربى التى تحددت قبل اتصاله المباشر بالغرب ونتجت عما تلقاه فى الأزهر والجامعة المصرية من ذخيرة فلسفية كانت سنداً له فى تقديم دراسة فلسفية متكاملة عن أبى العلاء المعرى الفيلسوف الفذ الذى التزم ما لا يلزم عند المسلمين فى سيرته ولفظه[٤]. وهذا يقتضى منا أن نتتبع البدايات الأولى لتوجهات طه حسين الفلسفية.

لقد أوغل طه حسين، منذ قدومه إلى القاهرة للدراسة، فى الفلسفة وعلومها وتاريخ ومناهج أصحابها ومدارسها ومذاهبهم وهذا ما تكتشفه قراءة كتاباته الأولى التى تظهر اهتمامه المبكر بدراسة الفلسفة. يظهر لنا حرصه على دراسة المنطق منذ بداياته الأولى فى الأزهر حيث يقص علينا فى الجزء الثانى من الأيام دروسه فى المنطق التى تلقاها تحت قبة جامع محمد بك أبى الذهب [٥]. ويبين لنا خطر ما اكتسبه فى بيئته الأزهرية من العلم بالفقه والنحو والمنطق والتوحيد[٦]. وإلى جانب هذا الاهتمام بدراسة المنطق فى الأزهر وتفوقه فيه ونيله لأعلى درجاته فى الجامعة الأهلية[٧]. فإننا نجد حرصه على درس الفلسفة واهتمامه بالتقرب من أساتذتها من عرب ومستشرقين فهو يذكر لنا نلينو وسانتلانا (١٨٤٥-١٩٣١) الذى يدرسه تاريخ الفلسفة الإسلامية والذى ذهب معه لحضور درس الشيخ سليم البشرى بالرواق العباسى: فقد أحدث سانتلانا نهضة خطيرة فى دراسة الفلسفة

---

(٤) الدكتور طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ص٣١ القاهرة، ١٩٣٧، ص٣٠٧.

(٥) طه حسين : الأيام، جـ٣، ط٢٣، دار المعارف، ص٧٨.

(٦) المرجع السابق ص٩٨ : لقد درس فى الأزهر "متن السلم" للأخضرى مع صاحبه ليفخرا بأنهما يدرسان المنطق، ص١١٧-١١٨. ودرس شرح السيد الجرجانى على "إيساغوجى" وتكرار ذلك عاماً تلو عام "ص١٢٩" فقد أحب المنطق حباً شديداً حين كان يسمع شرح السيد على "إيساغوجى" من أستاذه الشاب فى العام الماضى فأما فى هذا العام فقد جلس لعلم من أعلام الأزهر الشريف وإمام من أئمة المنطق فيه ليقرأ لهم شرح الخبيصى على تهذيب المنطق "ص١٤٠" وحين غضب الأزهر على أحد شيوخهم الكبار سعوا إليه ليلقى دروسه فى بيته وابتهجوا حين حدد الشيخ لقرائه "سلم العلوم فى المنطق"، (ص١٥٢).

(٧) من تقرير ماسينيون عن محاضراته بالجامعة الأهلية بالفرنسية، مخطوط.

الإسلامية وفى فهم الصلة بين هذه الفلسفة والفلسفة اليونانية[٨]. ويأتى مع هؤلاء وربما قبلهم تأثير ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢) العميق فى طه حسين سواء فى سنى دراسته الأولى بالجامعة الأهلية أو فى بعثته فى فرنسا. وقد كان ماسينيون السبب فى إشعال رغبة طه حسين وشغفه بالسفر من أجل دراسة الفلسفة كما تظهر رسائله إلى الجامعة فى هذا الحين[٩]. ورغم التحذيرات التى تلقاها عند مثوله بين يدى الحضرة العليا الخديوية بأن الفلسفة مفسدة، ورغم سفره إلى فرنسا لدراسة التاريخ، فقد أخذ فى مطالعة كتب الفلسفة مع كتب التاريخ والأدب، بل جعل رسالته للدكتوراه فى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية[١٠]. مؤثراً أن تكون الفلسفة فى عنوان رسالته بل إنه يخبرنا أنه أراد أن يتخذ من المقارنة بين أبى العلاء وأبيقور موضوع رسالة فلسفية يقدمها إلى جامعة مونبلييه[١١].

ويمكن الإشارة إلى كتابات طه حسين الفلسفية حتى يتضح لنا مقدار إسهاماته فى هذه الفترة المبكرة من حياته. تلك التى أخذت تتبلور فيه معالم مدرسة فلسفية مصرية حديثة لم يكن بعيداً عنها بل كان فى القلب منها. فقد ترجم كتاب أرسطو "نظام الإثنين" و"كتب عن مذهب أرسطو فى السياسة والاجتماع وقدم دراستين ترحيباً بترجمة أحمد لطفى السيد لكتاب الأخلاق لأرسطو وكتاب السياسة. وقدم الفلسفة اليونانية والفلاسفة اليونان باعتبارهم "قادة الفكر"، وكتاب عن "ديكارت" عدة مقالات وطبق منهجه فى دراسة الشعر العربى فى: "الشعر

---

(٨) طه حسين: الأيام، جـ٣، ص٣٥. يراجع سانتلانا تاريخ المذاهب الفلسفية، (مخطوط) نتولى إعادة تقديمه ضمن عملنا عن دراسة ونشر تاريخ الدرس الفلسفى فى الجامعة الأهلية.

(٩) حرص طه حسين منذ أعلنت الجامعة عن بعثاتها أن يكون أحد المبعوثين لدراسة الفلسفة أو التاريخ يظهر ذلك فيما أرسله من خطابات إلى رئيس الجامعة الذى كتب إليه فى يناير يوم ١٩ سنة ١٩١٤ يقول: "أعود الآن فأرفع إلى سعادتكم وإلى مجلس إدارة الجامعة (رغبتى فى السفر إلى أوربا لدرس العلوم الفلسفية أو التاريخية موفداً من قبل الجامعة (الأيام جـ٣ ص ٦٣) ويكرر نفس الرغبة ثانية بتاريخ ١٨ مايو ١٩١٤ قائلاً: "قد عرضت منذ حين على الجامعة المصرية أن توفدنى إلى أوربا لأدرس فيها التاريخ أو الفلسفة"، المصدر السابق، ص ٦٦.

(١٠) المصدر السابق، ص١٢١.

(١١) د. طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء، ص١٤.

الجاهلى[١٢] كما قام بتقديم عدد من المؤلفات الفلسفية إلى قراء العربية مثل: رسائل إخوان الصفا للزركلى وفجر وضحى الإسلام لأحمد أمين وتحقيق أبو العلا عفيفى لكتاب البرهان من الشفاء لابن سينا. وكتب عن الفلسفة الإلهية و"فولتير" و"رينان" و"الفيلسوف تين" وعن مصطفى أمين عبدالرازق و"أحمد لطفى السيد". و"عثمان أمين".

ويظهر أن اهتمام طه حسين بالفلسفة قديم، إلا أنه يؤول لصالح الفلسفة الغربية سواء اليونانية القديمة لدى أرسطو الذى اهتم به اهتماماً خاصاً أو الفلسفة العقلانية الحديثة لدى ديكارت الذى غرس منهجه فى التربة الثقافية العربية وأثار ما أثار من عواصف ربما لم تهدأ حتى الآن. وليست مهمتنا هنا تتبع الخطاب الفلسفى اليونانى أو الحديث لدى طه حسين فى تفصيلاته وجزئياته أو التأكيد على المصدر الغربى له أو نفيه، فتلك مسألة تتضح بتتبع خطاب طه حسين الفلسفى الذى تبلور قبل سفره إلى فرنسا وقبل إعلانه اصطناع المنهج الديكارتى فى درس الأدب العربى ١٩٢٦. وظهر فى أول كتابة منهجية منظمة له عن "ذكرى أبى العلا" التى تقدم بها كرسالة أكاديمية للدكتوراه إلى الجامعة الأهلية ونوقش فيها عام ١٩١٤ وهى تظهره لنا فيلسوفاً يقدم دراسة فلسفية لأدب أبى العلاء وفلسفته.

ويهمنا أن نقف أمام هذا العمل الذى تتضح فيه القراءة الفلسفية لطه حسين ومعالجته النافذة للمسائل الفلسفية التى تحفل بها أشعار أبى العلاء حتى قبل أن يبحر متجهاً إلى فرنسا وقبل أن يلتقى بالتيارات الفلسفية الغربية.

قدم طه حسين هذه القراءة فى دراسته للدكتوراه بالجامعة الأهلية عام ١٩١٤ بعنوان: "ذكرى أبى العلاء" وطبع عدة طبعات وظهر عام ١٩٣٠ بعنوان "تجديد ذكرى أبى العلاء"، والعمل مقسم إلى خمس مقالات تتناول على التوالى فى بناء محكم، الحديث عن "زمان أبى العلاء ومكانه" المقالة الأولى، حياة أبى العلاء، أسرته ولقبه وتربيته وأطوار حياته" المقالة الثانية "أدب أبى العلاء" المقالة الثالثة

---

(١٢) راجع دراستنا : الديكارتية والنقد الأدبى "الخطاب الفلسفى عند طه حسين" المنار، العدد (٥٠)، ص١٠٩، أيضاً د. حمد السكوت، د. مارسون جونز، طه حسين، مركز الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية، ط٢، ١٩٨٢.

"عـــلم أبى العـــلاء"، الـــرابعة، ويتوج ذلك كله بـــ "المقالة الخامسة والأخيرة عن "فلســـفة أبى العلاء" وهى صلب العمل وأساسه. ويؤكد طه حسين عليها فى مقدمة طـــبعاته للكـــتاب ويرى أنها تحتاج إلى تفصيل[١٣] يقول : "المقالة الخامسة فى هذا الكتاب مع أنها ألمت بأمهات المسائل من الفلسفة العلائية شديدة الإيجاز تحتاج إلى أن يفصـــل فيـــه القـــول تفصيلاً يفى بما بينها وبين حكمة الهند وفلسفة أبيقور من صلة[١٤].

ورغـــم حديـــثه التفصيلى عن العلوم الفلسفية فى المقالة الأولى وهو يتناول الحيـــاة العقـــلية فى عصر أبى العلاء[١٥] وبيانه لاهتمام الرجل بدرس الفلسفة فى

(١٣) د. طه حسين تجديد ذكرى أبى العلاء ص٣، ص١٤.

(١٤) المصدر السابق، ص٣.

(١٥) يحدثنا طه حسين فى هذه الفقرة عن ترجمة كتب الفلسفة ويبين أنه ما كاد القرن الرابع يأتى حتى أثرت هذه العلوم فى المسلمين آثارها، فكان منهم الفلاسفة والحكماء. ويعدد لنا مصادر الفلسفة الإسلامية مثل: فهرست ابن النديم وتاريخ الحكماء (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) للقفطى، والأطباء (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) لابن أبى أصيبعه. ويبين أن للفلسفة عند المسلمين صورتين مختلفتين: إحداهما الصور الفلسفية الخالصة التى أطلق فيها للعقل حظه من الحرية فلم تقيد بسياسة ولا عادة ولا دين. وهى الفلسفة المشائية العربية. وأشهر من مثلوا هذه الصورة الفارابى وابن سينا.

والثانية هى التى تكلفت ملاءمة الدين وموافقته بل حياطته والذود عنه وهى علم الكلام الذى سبق الفلسفة. فقد زها علم الكلام قبل أن تزهو الفلسفة الخالصة فى الحياة الدينية وتقدمت نشأته فى تاريخ المسلمين. ويعلن طه حسين موقفه المتجه نحو الفلسفة مقابل علم الكلام؟. قائلاً: "وقد أنتجت هذه الصورة من الفلسفة الدينية نتيجتها الطبيعية وهى الانقسام أو الافتراق واختلاف الرأى وتباين الأهواء"(ص٨٢).

وهناك صورة ثالثة للفلسفة عند المسلمين يمثلها القرن الرابع ويتبرم به أبو العلاء وهى فلسفة المتصوفة، ويحدد لنا طه حسين العناصر الأولى التى تتألف منها هذه الفلسفة. وأول هذه العناصر وأقدمها عصر فلسفى يونانى هو وحده الموجود لدى الرواقيين، ويفيض فى شرح فلسفة الرواق (ص٨٢-٨٣) حيث يستدعى دروس الأستاذ سانتلانا ويرى أن هذا المذهب الرواقى هندى النشأة ظهر عند الهنود قبل أن يعرف العالم فلسفة اليونان، والعنصر الثانى يونانى أيضاً هو الإشراق لدى أفلاطون وأفلوطين وهذا المذهب هندى أضيف إلى هذين العنصرين شيء من ظاهرة الدين بحيث تكون صورتهما غير منافية للإسلام ونشأ عن هذه العناصر الثلاثة مزاج فلسفى خاص هو الذى أظهره الجنيد والحلاج. ويرى أن التصوف ليس مذهباً إسلامياً خالصاً وإنما هو مذهب هندى أخذ صيغة الفلسفة اليونانية عند الرواقيين والإسكندرانيين ثم أخذ الصبغة الإسلامية أيام بنى العباسى. وهو موقف هندى يختلف مثلاً عن موقف ماسينون فى تحليله لنشأة التصوف الإسلامى راجع كتاب د. أبو الوفا التفتازانى.

إنطاكيـــة واللاذقية وبغداد[١٦] وتحديده مفهوماً للفلسفة يتسع إلى حد يجعله يضم ما جـــاء فى الـــلزوميات. فالـــلزوميات ضمنها آراءه الفلسفية[١٧] فقد عمد بشعره إلى إثـــبات الـــنظريات الفلسفية فى الطبيعة والرياضة والألوهية والأخلاق[١٨] لقد أتقن المعرى الفلسفة والعلوم الفلسفية، فاللزوميات ورسالة الغفران يدلاننا على أنه أتقنها وحـــذق فيهـــا عـــلماً وعملاً، وإن كان لم يضع فيها كتباً على طريقة المعلمين من الفلاسفة[١٩].

ومـــن هـــنا يرى طه حسين أن الفلسفة هى مفتاح فهم أبى العلاء. فالفلسفة العلائيـــة تناولت أطراف العلم الإنسانى ولو أن فلسفة أبى العلاء عرفت للناس كما هى ودرســـت فى مدارســـهم درســـاً مفصلاً لكان للرجل فى آرائهم حال غير هذه الحـــال[٢٠]. ومـــن هـــنا فمهمة طه حسين هى بيان ذلك لمن درسوا أبا العلاء من العـــرب ولـــم يوفوا هذه الناحية حقها، والذين أرخوا له من الفرنج لم يستطيعوا أن يفهمـــوا فلسفته. ويتمثل جهد العميد فى إنجاز هذه المهمة عندما يقول : "لعلنا أول من استطاع أن يفصل الفلسفة العلائية تفصيلاً ويظهر الناس على أسرارها ودقائقها وينزلها من عقولهم منزلة الشيء، الواضح المفهوم ولعلنا أول من ظفر بذلك [٢١].

يتســـاءل طه حسين ونتساءل معه: هل أبو العلاء فيلسوف؟ ويقدم لنا تعريفاً للفلســـفة يدلـــنا على أنه كان فيلسوفاً حقاً. ويرجع منشأ فلسفته إلى ما طاف به من أحوال عصره وبالتالى فهو حين يتحدث فى الفقرة الرابعة عن مصادر فلسفته يرى أن أهمهـــا الحيـــاة نفسها[٢٢] والفلسفة اليونانية التى أتقنها فى بغداد والفلسفة الهندية الـــتى يفيض طه حسين فى الحديث عنها وبيان طرق معرفة المسلمين بها[٢٣] وهى

---

(١٦) طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء، ص١٥٢-٢٥٣.

(١٧) المرجع السابق، ص١٧٠.

(١٨) المرجع السابق، ص٢٢٦.

(١٩) المرجع السابق، ص٢٤٥.

(٢٠) المرجع السابق، ص٢٤٩.

(٢١) المرجع السابق، ص٢٥٠.

(٢٢) المرجع السابق، ص٢٥٣.

(٢٣) المرجع نفسه ، ص٢٥٤، فهو العلاقة القوية بين المسلمين وبلاد الهند ويدلل بكتابات البيرونى معاصر المعرى. ويجزم بأن الصلة الظاهرة بين الفلسفة الهندية والمسلمين (ص ١٥٢) ويبين فى حديث عن التصوف العناصر الأولى التى يتألف منها مثل وحدة الوجود لدى

لـم تؤثـر فى الفلسفة النظرية لأبى العلاء فحسب بل كانت أشد الأشياء تأثيراً فى حياته العملية أيضاً. كذلك الفلسفة الفارسية التى عرفها المسلمون فى أيام بنى أمية. ومـن مصادر الفلسفة العلائية كتب الدين على اختلافه، يدخل فى ذلك بالطبع علم الكـلام والتصـوف. ومـن هذه المصادر تكون المزاج الفلسفى لأبى العلاء فكان مختلفاً متبايناً بمقدار ما يبين مصادره من التباين والاختلاف [٢٤].

وتتضـح ثقافة طه حسين الفلسفية وعمق إلمامه بالفلسفة الإسلامية واليونانية وذلـك حيـن يتـناول الأساس الذى تقوم عليه فلسفة أبى العلاء حيث نجده، تحت عنوان: "أصول فلسفته"، "يعرض لنا العقلانية الأفلاطونية المحدثة (التى ترى العقل يستمد علمه بالأشياء من مصدر غير الحس هو الإشراق).

والسوفسـطائية التى كان لها سلطان عظيم على العقول اليونانية حيث نشأت فلسـفة سـقراط لمحاربـتها. ويتحدث بعد ذلك عن سبل الفلاسفة المتكلمين الذين يضـيفون إلى مصـادر المعرفة "الشرع" الذى يأتى به النبى المرسل من عند الله ويفيـض فى الحديـث عن الأشعرية والمعتزلة، وبعد ذلك يناقش الأصل النظرى لأبى العلاء ويرفض القول أنه سفسطائى كما ذهب الباحثون الغربيون أو شاك كما ذهـب الذهـبى. والواقع أن أبا العلاء لم يتخذ لنظره الفلسفى مذهب أهل السنة ولا مذهـب السوفسـطائية وأصحاب الشك ولا مذهب المعتزلة أيضاً[٢٥] وذلك لأنه لا يؤمن إلا للعقل وحده.

يـرتجى الـناس أن يقوم إمام...	نـاطق فى الكتيـبة الخرسـاء
كـذب الظن لا إمام سوى العقل...	مشـيراً فى صـبحه والمسـاء

ويعـرف لـنا فلسـفة (موضوع فلسفة) أبى العلاء خلال أربعة أقسام هى: الفلسفة الطبيعية أو العلم الأدنى والفلسفة الرياضية أو العلم الأوسط والفلسفة الآلهية

الرواقيين ويشير إلى أن هذا المذهب هندى النشأة وكذلك الإشراق عند أفلاطون أفلوطين هندى أيضاً، (ص٨٢-٨٣).

وحين يتحدث عن التناسخ يبين معرفة العرب به من كتب الهند التى ترجمت للعربية (٢٨٧) وأن أفكار أبى العلاء فى النبوات ذات أصل هندى. وقد تعرف عليها فى بغداد ويوضح طه حسين طرق وصول الفلسفة الهندية إلى المسلمين (ص٢٥٣-٢٥٤).

(٢٤) د. طه حسين، المصدر السابق، ص٢٥٥.

(٢٥) المرجع السابق، ص٢٥٦.

أو العـــلم الأعـــلى والفلســـفة العمـــلية. والواقع أن هذا التقسيم للعلوم الفلسفية، لا للموضـــوعات الفلســـفية، تحدث عنه أرسطو فى بعض كتبه ونقله العرب إلاّ أنهم ميـــزوا بين العلوم النظرية: الطبيعية والرياضية والإلهية والعلوم العملية: الأخلاق والسياسة وتدبير المنزل التى جعلها طه حسين موضوعات للفلسفة العملية.

ويـــأتى طه حسين بأشعار توضح موقفه فى موضوعات الفلسفة الطبيعية فى المـــادة والـــزمان والمكان واللاتناهى، فأبو العلاء يرى أن الأجسام تتألف من مادة قديمة خالدة وصورة تختلف عليها كما فى قوله:

نـــرد إلى الأصـــول وكـــل حى ... لـــه فى الأربـــع القـــدم انتســـاب

فهـــو يـــرى أن المادة، والأربع القدم هى العناصر الأربعة، وكما يرى تقدم المادة يقول بخلودها، عكس رأى المتكلمين فى حدوث المادة وتركيب الأجسام بين الجزء الذى لا يتجزأ. ويرى أيضاً أن الزمان قديم قدم المادة.

نـــزول كمـــا زال آباؤنـــا ... ويـــبقى الـــزمان عـــلى مـــا ترى

نهـــار يمـــر وليـــل يكـــر ... ونجـــم يغـــور ونجـــم يـــرى

كمـــا يـــرى أيضاً قدم المكان، ولا تناهى العالم، ويخرج من ذلك إلى أن أبا العـــلاء قـــد استمد فلسفته الطبيعية من فلاسفة اليونان فوافقهم فى العناصر وقدمها والزمان وخلودهما وأنهم غير متناهيين.

ثـــم يشـــير سريعاً إلى فلسفته الرياضية لأن أبا العلاء لم تؤهله حياته ليكون رياضـــياً. كذلـــك لم يتناول علم الهيئة لأن ذهاب بصره يحول بينه وبين الرصد، وإنما نظر فى النجوم نظر الفلاسفة اليونان فبحث عن قدمها وخلودها وعن تأثيرها فى العالم. إلا أنه يوضح أن بين أبى العلاء وبين فلاسفة اليونان فرقاً ويطلعنا على هذا الفرق[٢٦].

(٢٦) ذلك أن فلاسفة اليونان لا سيما أفلاطون يزعمون أن تأثير الكواكب مصدره أن المبدأ الأول أودعهما نفساً حية وأنابها عنه فى تدبير العالم المادى. أما أبو العلاء فيؤمن بهذا التأثير ويجحد تلك النفس. ويرى أنه تأثير طبعى لم يصدر عن إرادة ولا عقل وليس له علة إلا القوة الطبيعية المبثة فى الكواكب انبثاثها فى غيرها من الموجودات (ص٢٧٠).

وحيـــن يتـــناول فلسفة أبى العلاء الإلهية يقسمها ثلاثة أقسام هى: ما يتعلق بالآله، وما يتعلق بالصلة بينه وبين العالم وما يتصل بالرسل والشرائع. وفيما يتعلق بالإلـــه يرى طه حسين أن اللزوميات ممتلئة بما قال أبو العلاء فى إثبات وجود الله وتمجيـــده ووصفه بما ينبغى أن يوصف به من صفات الكمال وليس فيها إنكار لله. ويتوقف أمام بيت واحد وحيد يقول فيه:

أمـــا الإلـــه فأمـــرٍ لســـت مُدركه   فأحذر لجيلك فوق الأرض إسخاطاً

ويحـــلل هـــذا الـــبيت موضحاً أن مقصد أبى العلاء فقط أنه يجهل كنه الإله وحقيقـــته ولا يســـتطيع أن يحدده تحديداً منطقياً. وينتهى من تحليله الطويل إلى أن الـــرجل إســـلامى الـــنزعة يونانيها فيما أثبته من القدرة الشاملة والوحدة المطلقة. ويـــتعمق طـــه حسين فى موقف أبى العلاء ويرى أنه يفارق المسلمين ويوافق من اليونـــان أرســـتطاليس فى إثـــبات أن الله عز وجل ساكن غير متحرك ولا متنقل فالمسلمون ينزهون الله عن أن يوصف بالسكون والحركة. لأن السكون عجز ولأن الحركة عرض وكلاهما عليه محال. ويحلل تحليلاً فلسفياً عميقاً له جدته هذا الفارق حيث يحس القارئ أننا أمام فيلسوف له تمكنه من القضايا والمصطلحات والأدوات الفلســـفية يـــتعامل معهـــا بـــبراعة تظهـــر إلمامه العميق بتاريخ الفلسفة اليونانية والإسلامية وإشكالياتهما.

فهو يرى أن البحث فى قول أبى العلاء بأن الله عز وجل ساكن غير متحرك لا يمكـــن إلا بـــبيان معـــنى الحركة التى نفاها أبو العلاء، وأرسطو عن ذات الله. ويوضح أن للحركة معنين متباينين عند أرسطو: أحدهما الحركة المادية وهو الكون فى زمانين وفى مكانين، ويفصل ذلك ببيان أنها الانتقال من حيز إلى حيز فى آنين مختـــلفين، ويؤكـــد أن هـــذه الحركة منفية عن الله لأنها لو ثبتت لأخضعته للزمان والمكـــان ولجعلـــته جسماً ولأصبح ممكناً وهو واجب، وهذا خلف. والمعنى الثانى للحركة هو الانتقال من القوة إلى الفعل وهذا المعنى لا يقتضى حيزاً ولا جسماً ولا زمانـــاً بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ وهو حركة الفلك وينزه ذات الله أن تتصف بهذه الحركة لأنها لم تكن قوة فصارت فعلاً وإنما هى مخرجة الأشياء من القوة إلى الفعـــل، وقـــد نص أرسطو على أن الله فعل محض. وهذا يساوى القول أنه حركة محـــض، والحـــركة لا توصـــف بالحركة فى الخارج. لا يريد بالحركة إلا المعنى

الثانى (الفعل المحض) أى التحقق الثابت فى الخارج. ومن هنا فالحركة التى نفاها أبو العلاء عن الله هى الحركة المادية بدليل أنه قد أثبتهما للكواكب ونفاها عن الله.

أما ترى الشهب فى أفلاكها انتقلت ... بقــدرة مــن مــليك غيــر منتقل

ومـــن هنا فهو يوافق أرسطو أتم الموافقة فى قوله بالمحرك الذى لا يتحرك ويرى أنه فى ذلك يتفق مع المسلمين فى تنزيه الله، خاصة المتكلمين من المعتزلة، وهــو فى هــذه المعــركة كما يخبرنا طه حسين إسلامى النزعة يونانيها أيضاً. ثم يتــناول بعــد ذلك موقف أبى العلاء من: الجبر، الروح، التناسخ، الجن والملائكة، النبوات، البعث.

فالمعرى قائل بالجبر وحياته المادية وشعره فى اللزوميات ينطق به ويدلان عــليه لا يحتملان شكاً ولا تأويلاً بل إنه قد نص فى مقدمة اللزوميات على أنه لم يؤلــف هــذا الكتاب مختاراً وإنما ألفه بقضاء وقدر لا يعرف كنه[٢٧]. ويفيض طه حسين فى صفحات طوال فى الحديث عن الجبر.

وبالنســبة للروح فقد ظهر لأبى العلاء موقفان مختلفان : أحدهما أفلاطونى وهو أنها جوهر مجرد قد أهبط إلى هذا البدن ليبتلى فيه ثم هو عائد بعد الموت إلى العــالم العقلى، فمعذب أو منعم بما بقى فيه من تذكار . والثانى هو مذهب الماديين مــن قدماء الفلاسفة وهو أن الروح نار يخمدها الموت. ومع أن أبا العلاء أكثر من ذكر المذهب الأفلاطونى ولم يذكر المذهب المادى إلا قليلاً فإن طه حسين يميل إلى أنه يرى رأى الماديين فى بعض أطواره[٢٨].

ويــبين طه حسين رفض أبى العلاء للتناسخ رغم شيوعه ومعرفة العرب به خاصــة مــن كــتب الهــند التى ترجمت للعربية وإيمان الشيعة به مع ذلك فقد ذم المعرى التناسخ وشنعه فى رسالة الغفران واللزوميات[٢٩] وقد أنكر الجن والملائكة وكذلك والنبوات[٣٠] ويوضح طه حسين أسباب ذلك ويرجعها لما عليه الحياة الدينية

(٢٧) د. طه حسين : المرجع نفسه، ص٢٨٠.
(٢٨) المرجع نفسه، ص٢٨٦.
(٢٩) المرجع نفسه، ص٢٨٧-٢٨٨.
(٣٠) المرجع نفسه، ص٢٨٩.

فى عصر أبى العلاء وما وجده فى فلسفة اليونان والهنود من إنكار ويرى أن خطأ أبى العـــلاء أنـــه حمل الدين ذنب أهله وعاب الشرائع بآثام أصحابها[٣١] ويرى أن موقف أبى العلاء من البعث فيه اضطراب شديد فمرة يثبته ومرة ينكره وتارة يقف منه موقف الشاك وتارة يجزم برأى أفلاطون فى الروح ويؤكد طه حسين أنه مهما يكـــن مـــن شك أبى العلاء أو انتحاله للشك فى أمر البعث فإنه لا يرتاب فى قدرة الله[٣٢].

وفى تناولـــه للفلسفة العملية عند شاعره الفيلسوف يتحدث عن أصل الإنسان وغرائـــزه ويـــرى أن الإنسان شرير بطبعه ، وقد ذم الدنيا، ولذا كره الوجود وآثر العدم، ومن هنا رفض الزواج.

ثـــم يـــتحدث عن الأخلاق أهم فروع الفلسفة العملية وطه حسين يشعر بذلك ومـــن هنا لا تكفى عدة صفحات أو فقرات فالأمر يتطلب دراسة وافية ورغم عقد العـــزم على تناول ذلك فى دراسة مستقبلة "فالحديث عنها يستغرق كتاباً يعدل هذا الكتاب بأسره" لذا فهو يكتفى ببيان القاعدة التى بنى عليها المعرى رأيه فى الأخلاق وهى: "قـــاعدة اللذة" التى وضعها أبيقور الفيلسوف اليونانى وهو يخبرنا أن التوسع فى ذلك يستلزم استعداداً خاصاً يقول: "المقالة الخامسة من هذا الكتاب كانت تحتاج إلى تفصـــيل فى المقارنـــة بيـــن أبى العلاء وبين أبيقور ولكنى أعرضت عن هذا التفصيل لأن فلسفة أبيقور لا يتقنها إتقاناً تاماً إلا من قرأ فى اللاتينية شعر لوكريس ونـــثر شيشـــرون. وذلك ما لم أوفق إليه الآن"[٣٣]. وكان طه حسين يود لو قدم فى مونبـــلييه رســـالة يـــدرس فيه أبيقور وأبا العلاء. ويستشعر الحيرة التى قد تنتاب القارئ حين يجده يقارن بين لذة أبيقور وزهد أبى العلاء فيتوقف ليبين فلسفة أبيقور الـــذى عرف فقط بأنه صاحب مذهب اللذة. فالدارس المستقصى لفلسفة هذا الحكيم اليونـــانى وحياته يرى أن الفرق بينه وبين أبى العلاء لم يكن عظيماً. فأبيقور حين يلـــتمس الـــلذة ويرفض الألم يرى أن الألم القليل يعقبه راحة النفس وصحة الجسم خيـــراً مـــن اللذة الكثيرة يعقبها الألم والشقاء، ولذلك أنفق حياته فى مثل حال أبى

(٣١) المرجع نفسه، ص٢٩١.
(٣٢) المرجع نفسه، ص٢٩٥.
(٣٣) المرجع نفسه، ص١٤.

العلاء من الزهد والقناعة. وهو إنما عرف باللذات لأن تلاميذه أخذوا بظاهر رأيه. وهكذا يحلل آراء المعرى فى مجالات الفلسفة العملية فى السياسة، الاقتصاد وحين يفـرغ مـن ذلك يتناول خصائصه الفلسفية ليختتم كتابه الذى يصح أن يسمى بحق فلسـفة أبى العـلاء المعـرى لأنـه يدور حول موضوعات الفلسفة المختلفة التى تتضـمنها أشعاره. والمتصفح للمقالات الأولى من الكتاب يجدها كلها تمهد للمقالة الأخيرة[٣٤] التى يعنونها بعنوان يفضل أن يكون عنوان الدراسة "فلسفة أبى العلاء" يقول:

"ومـن هذه المقالة التى فصلناها فى فلسفة أبى العلاء تعرف أن المسلمين لم يعهـدوا بينهم فى قديمهم وحديثهم فيلسوفاً مثله قد جمع بين الفلسفة العلمية والعملية ثم بينهما وبين العلم واللغة. وأبو العلاء هو الفيلسوف الفذ الذى التزم عند المسلمين فى سيرته ولفظه[٣٥].

وكذلـك أيضاً طه حسين الذى كان حديثه عن أبى العلاء أشبه بالحديث عن الـنفس وكان تحليله لآرائه وأفكاره تحليل باحث فلسفى متمكن ومؤرخ للفلسفة ألم باتجاهاتهـا وبتياراتها المختلفة فى عصورها المختلفة. ويتأكد هذا أيضاً إذا أضفنا إلى كـتابه هذا الذى يعد فصلاً فى تاريخ الفلسفة العربية جديداً مبتكراً إسهاماته فى الفلسـفة اليونانية والفلسفة الحديثة"[٣٦]. حتى تتضح لنا مقولاته الأساسية التى تمثل فى نفس الوقت آراء المدرسة الفلسفية الحديثة فى مصر.

نـريد الآن أن نـتوقف أمام المدرسة الفلسفية المصرية الحديثة حتى نتبين موقـع طـه حسين من هذه المدرسة. وهذا يقتضى منا أولاً التأكيد على أن هناك اتجاهاً فكرياً عاماً شارك فيه عدد من المفكرين قدموا إسهامات فلسفية تدعم وتعبر عـن وضـعية الفلسفة فى مصر منذ مطلع القرن العشرين سواء فى إطار الجامعة المصرية أو قبلها بقليل. ونشير فى الآن نفسه إلى هوية هؤلاء المفكرين وما قدموا

---

(٣٤) راجع إشارات طه حسين للمقالة الخامسة، صفحات: ٣-١٤-١٧١-١٧٢-٢١٧-٢١٨.

(٣٥) المرجع نفسه، ص٣٠٧.

(٣٦) راجع "الخطاب الفلسفى عند طه حسين" مجلة المنار، العدد ٥٠، ص١٠٦، وما بعدها. وأيضاً مجلة فكر العدد ١٤، ص٤١ وما بعدها ، ودراسة د. أحمد عتمان تفاعل الآداب الأوروبية فى تراث طه حسين (الأدب اليونانى، والأدب اللاتينى)، ص٢٥٥- وما بعدها.

محاولين تحديد بداية هذه المدرسة وفيلسوفها المؤسس وهذا يقتضى منا إعادة النظر فى بعـض أحكـام ريادة الفكر الفلسفى، ثم نقوم بعد ذلك ببيان إسهام عميد الأدب العربى والفكر العربى فى هذه المدرسة وفى أى موضع بالضبط يقع هذا الإسهام.

لا نجـد بين القوى الاجتماعية التى تبلورت فى نهاية القرن الماضى ومطلع هـذا القـرن قـوة تحددت سياسياً فى إطار حزب سياسى يجمعها وأصبحت تعى أهدافهـا وتدافـع عنها سوى الأرستقراطية المصرية أو طبقة الأعيان التى أسست حـزب الأمـة وكونـت من صفوة أبنائها عقولاً مفكرة تعبر عن مصالحها. وكان أقطـاب هذا الحزب الذين سيجتمعون بعد ذلك فى حزب الأحرار الدستوريين، هم طـليعة الليبرالية المصرية وزعماءها، وهم نفس الوقت منظروها ومفكروها ومن هؤلاء أو ممن اتصل بهم يحدد الباحثون ريادة الفكر المصرى الحديث وهى مسألة تحتاج إلى نقاش وإعادة نظر.

يشـير الـبعض إلى مصـطفى عـبدالرازق أول مـن قام بتدريس الفلسفة الإسـلامية بالجامعـة مـن المصـريين وسليل آل عبدالرازق قطب حزب الأمة. باعتـباره صـاحب المدرسة الفلسفية الحديثة فى مصر. فهو "أول مدشن للخطاب الفلسـفى النهضـوى فى الفكـر العربى الحديث" كما يخبرنا الجابرى فى الخطاب العـربى المعاصر(٣٧) وهو أول رائد للفلسفة الإسلامية فى مصر(٣٨) كما يشير إلى ذلـك تلاميـذه رواد الفكـر الفلسفى فى الجامعة المصرية (٣٩) ويصلون بينه وبين الأستاذ الإمام(٤٠).

ويذهـب الـبعض إلى أن محمـد عبده هو "رائد الفكر المصرى"(٤١). وهى ريـادة حقيقية وإن كانت لا تقف عند الفكر الفلسفى بل تتسع لتعبر عن الفكر الدينى

(٣٧) د. محمد عابد الجابرى: الخطاب العربى المعاصر، دار الطليعة بيروت، ١٩٨٢، ص١٣٨.
(٣٨) د. على عبدالفتاح المغربى: المفكر الإسلامى المعاصر مصطفى عبدالرازق، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٧، ص١٨.
(٣٩) راجع مقالات د. توفيق الطويل، د. يحيى هويدى، د. أبو الوفا التفتازانى فى الكتاب التذكارى الذى أصدره المجلس الأعلى للثقافة عن مصطفى عبدالرازق القاهرة، ١٩٨٥.
(٤٠) د. عثمان أمين : أستاذ الجيل والأستاذ الإمام "الكتاب التذكارى الذى أصدرته محافظة الدقهلية فى الذكرى الأولى لوفاة أحمد لطفى السيد، ١٩٦٣.
(٤١) د. عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥.

الإصـــلاحى فى العصـــر الحديث. والحقيقة أن الصلة قوية بينهما، فقد كان الأستاذ الإمـــام صديق حسين عبدالرازق، أستاذاً لأبنائه مصطفى وعلى عبدالرازق، وأيضاً درس جيـــلهم بالأزهـــر. وقـــد اتصل به أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد كما اتصل بالأفغانى. ويبين لنا عثمان أمين مؤرخ حياة رائد الفكر المصرى العلاقة بين "أستاذ الجيل والأستاذ الإمام"(٤٢).

ونحن ما نزال فى حاجة إلى قراءة فلسفية لأعمال أحمد لطفى السيد الفلسفية الـــتى تعد الأساس لفهم الدور الحضارى لأستاذ الجيل باعتباره المعبر عن تطلعات الأرســـتقراطية المصـــرية فى التمدن والرقى، وباعتباره طليعة الصفوة المثقفة فى ريادة الفكر المصرى وتأصيله، لنحدد فى ذات الوقت مكانته الرئيسية فى المدرسة الفلسفية المعاصرة التى تميزت انطلاقاً منه عما عداها من اتجاهات. هذا ما أشرنا إليـــه سابقاً(٤٣). ونعود لنؤكد عليه. فقد كان لطفى السيد المحور والعقل المفكر لتلك الجماعة التى ضمت بالإضافة إليه طه حسين، ومصطفى عبدالرازق، ومحمد كامل حســـين، وإســـماعيل مظهـــر والتى كان لها دورها الفعال فى تلك الحركة الفكرية النشـــطة التى سيطرت على الثقافة المصرية فى العشرينات والثلاثينات. وليس هنا مجـــال الحديث عن كل واحد من هؤلاء على حدة وإن كان من الممكن أن نتناول السمات العامة لهذه المدرسة كما تمثلت لدى مؤسسها أحمد لطفى السيد.

ونـــزعم أن أستاذ الجيل هو رأس هذه المدرسة رغم أنه لم يكن فى يوم من الأيـــام من أساتذة الفلسفة المحترفين ورغم قلة إنتاجه الفلسفى فإنما ترجع ريادته – بالإضافة إلى أفكاره المنشورة فى كتاباته بالجريدة وترجماته – إلى تأثيره فى جيل كامل من المثقفين المصريين وفى طليعتهم مفكرو حزب الأمة. من آل عبدالرازق والأحـــرار الدســـتوريين مثل طه حسين. لقد عرف الأستاذ بالفيلسوف عند كل من كتب عنه وتدلنا سيرته على اهتمامه الدائم بالفلسفة فقد درس المنطق بكلية الحقوق بمصـــر ومـــبادئ الفلسفة والاجتماع فى الدراسات الصيفية بجامعة جنيف. ويرى بـــدوى أنـــه ربما غشى بعض دروس الفلسفة أثناء زيارته لباريس. وتظهر مقالاته

(٤٢) د. عثمان أمين : أستاذ الجيل والأستاذ الإمام، سبق ذكره.

(٤٣) د. أحمد عبدالحليم عطية : أحمد لطفى السيد أرسطو مكون للثقافة العربية فى "الأخلاق فى الفكر العربى المعاصر". دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩.

بيـــن ١٩٠٧ و١٩١٤ على أنه كان ذا اطلاع واسع غير قليل على كتب الفلسفة ثم تـــزايد اهـــتمامه مـــنذ ١٩٢١ وكانت أول ثمار هذا الاهتمام ترجمته "الأخلاق إلى نيقومـــاخوس" ويتسع طولاً وعرضاً. ولم تقتصر اهتماماته على ترجمات أرسطو. وإذا كـــان الـــبعض يرى فيه داعية لأرسطو فإن طه حسين يرى أنه داعية الفلسفة بوجه عام والفلسفة السياسية بوجه خاص قبل أن يكون داعية أرسطو(٤٤).

وهو يرى أن الترجمة وسيلة إلى النهضة وتلبية لحاجات تاريخية يستشعرها المجـــتمع. فـــإذا كان قد توجه إلى أرسطو فهو لم يترجم كتابات أرسطو بل اختار مـــنها مـــا يلائـــم حاجـــات عصره ويلبى الأهداف التى يتطلع إليها. لقد اختار من أرســـطو مؤلفاته فى السياسة والأخلاق والاجتماع.وهى أبقاها على الزمن وأقربها إلى تفكيـــرنا الحديث. وليس الأمر كذلك فى كتبه الأخرى التى فقدت كل قيمتها إلا الـــتاريخية. والسؤال عن: لماذا اختار أرسطو؟ الرأى عندى كما يقول محمد كامل حســـين: أن مصر وقد أخذت كل علمها الحديث عن الغرب لابد لها إن أرادت أن تصل من هذه المدنية الغربية إلى غايتها أن يقوم تفكيرها على ما قامت عليه هذه. ولا شك أن الفلسفة اليونانية أساس من أسس المدنية الغربية وسيظل التفكير الغربى فى مصـــر مســـتعاراً مـــا لـــم يـــتطور تاريخ الفكر عندها على غرار تطوره فى أوروبا(٤٥).

وســـنجد لدى طه حسين الذى ترجم دستور الاثنيين لأرسطو ١٩١٩ - قبل تقديـــم لطـــفى الســـيد ترجماته - فى "مستقبل الثقافة فى مصر" و"قادة الفكر" "نفس الإجابـــة الـــتى قدمها لطفى السيد فى تصدير "الأخلاق إلى نيقوماخوس" التى يقول فيهـــا: "إذا شـــئنا أن تكون لنا فلسفة مصرية تأتلف ومعلوماتنا وجب علينا أن نجدد الفلســـفة العربية التى فقدت أعيانها ولم تبق إلا آثارها، أو بطريقة أقرب أن ندرس فلسفة أرسطوطاليس" ويقول: "لا جرم أن نتخذ نحن فلسفة أرسطو الطريق الأقرب

---

(٤٤) د. طه حسين : كتاب السياسة لأرسطوطاليس ترجمة أحمد لطفى السيد، الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٧/٤٦ ص٤٧٨-٤٧٩.

(٤٥) د. محمد كامل حسين : أحمد لطفى السيد والدعوى إلى أرسطو، مجلة الكاتب المصرى، ص١٠٣.

إلى نقــل العلم إلى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثلما أنتج فى النهضة الغربية"(٤٦).

المهــم إذا لــدى لطــفى السيد وطه حسين ومحمد كامل حسين هو إحداث النهضـــة الشرقية بالإستعانة بنفس الأدوات والوسائل التى أحدثت النهضة الغربية. ولا نكــتفى فقــط بقشور الحضارة الغربية بل علينا العودة إلى الأسس التى قامت عــليها. لذا فلنتجه إلى الحضارة اليونانية إلى فلسفة أرسطو، الذى قامت الحضارة العربية الإسلامية على أساسها. هكذا كانت الفكرة المحورية التى دار حولها تفكير، المدرســـة، فمصر هى الأساس وهى الواقع المتردى الذى يجب علينا جميعاً السعى لنهضته وتقدمه فنشر طه حسين ترجمته "دستور الاثنيين" لبيان الأسس الديمقراطية الــتى ينــبغى أن تقوم عليها السياسة المصرية وكذا كان من ترجمات لطفى السيد الذى كان الداعية الأول الهدف للنهضة لذا فقد وجدت أفكاره السياسية والاجتماعية الــتى تعــبر عن تطلعات طبقته فى طه حسين المعبر الحقيقى الأكثر وضوحاً عن هذه الأفكار التى تحدد توجهات المدرسة الحديثة فى مصر.

ومــن هــنا فهمــا، أى لطــفى السيد وطه حسين، رأسا هذه المدرسة التى تجــاوزت تجديد الدرس الفلسفى فى إطار الجامعة مثلما فعل مصطفى عبدالرازق إلى الحيــاة الفكرية المصرية. كما أنها لم يكتفيا بالإطار الدينى الاصطلاحى الذى نجده لدى محمد عبده بل تجاوزاه للتأسيس الفلسفى لأفكار النهضة والتقدم والحرية.

(٤٦) أحمد لطفى السيد: تصدير ترجمة كتاب أرسطو الأخلاق إلى نيقوماخوس، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤.

الباب الثاني

الخطاب الأخلاقى واتجاهاته

أحمد أمين :

التأسيس للدرس الأخلاقى (*)

(١)

تعطيـــنا مؤلفـــات أحمد أمين صورة صادقة عن اهتماماته: الأدبية والفلسفية والعلمية، التى شغف بها فى حياته الممتدة بين عامى ١٨٨٦-١٩٥٤م. كما تصور بطريقة بارعة العناصر الأساسية فى تكوينه الثقافى والفكرى، وهى نفسها العناصر الرئيسية فى الثقافة التى سادت مصر والتى شكلت الفكر العربى فى النصف الأولى مـــن القرن العشرين، وهذه عناصر تغلغلت فى تكوين أحمد أمين، عاش بها ولها. بحيـــث يمكنـــنا القول إن تكوينه العلمى يجسد صورة العلم والثقافة السائدة بمصر آنـــذاك. وقـــد أدرك ذلـــك معاصر فربطوا بينه وبين وطنه من جانب، وبينه وبين أجيال عديدة تتلوه، تأخذ عنه وتتعلم منه وتبحث فى أعماله وتناقش آراءه من وجهة ثانية.

وربمـــا يكون جيلنا الحالى من هذه الأجيال التى تكشف بعض أعماق الرائد، وتـــلقى أضواء على أعماله، قد يكون هذا الجيل هو الذى أشار إليه محمد فريد أبو حديـــد بقوله : "سوف يتحدث الكثيرون عن أحمد أمين كما نتحدث نحن عنه الآن، لأنـــه مـــنذ رحل عن دنيانا صار صديقا للجميع زميلاً لأجيال كثيرة لم تخلق بعد، يعيـــش معهـــم فى عالم الضوء حياة أكمل من الحياة التى يعيشها معنا. ويشغل من عقولهـــم ونفوســـهم جوانـــب أرحب من الجوانب التى كان يشغلها معنا"[١]. سوف تـــتعاقب الأجيال ويكتشف كل جيل من هذه الأجيال التى تسعى للحفر والتنقيب فى الثقافة الوطنية مدى ارتباط فكر أحمد أمين بواقع وتاريخ هذه الأمة فقد كان ارتباط

(*) يتضمن هذا الفصل البحث الذى شاركنا به فى مؤتمر أحمد أمين أربعون عاماً من الرحيل الذى أقامته الثقافة الجماهيرية فى دمنهور البحيرة ١٩٩٤ ونشر فى مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة إشراف د. يوسف زيدان ودراسات عربية، بيروت، العدد ٨/٧ مايو – يونيه ١٩٧٧ ص١٠٣-١٧٧.

(١) محمد فريد أبو حديد : شخصية أحمد أمين فى كتاب أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٥ ص٩١.

أحمد أمين بها عميقاً نلمس ذلك فى كتابه "حياتى"، وفى "قاموس العادات والأمثال. الشـعبية" بـل ونجده بصورة ما من الصور فى معظم كتاباته وفى مقدماتها كتاب "الأخلاق".

وقـد شهد عميد أدبنا العربى بذلك وكتب يقول "فإذا لم يكن أحمد أمين مثلاً رائعـاً لـلجد المنـتج، والنشاط الخصيب، والمثابرة التى لا تعرف كللا ولا مللا، والمقاومـة التى لا تعرف ضعفا. ولا فتورًا، والثقة التى لا تعرف شكا ولا ترددا فـلا ينـبغى للمصريين أن ينتظروا مثلاً رائعا من أى مواطن أخر.. أما أنا فاؤمن بـأن أحمـد أمين قد كان صورة رائعة صادقة لوطننا هذا الخالد.. وهل مصر إلا جذوة قوية تكاثف عليها الرماد بجهاد المؤمنين الصادقين من أبنائها من أمثال أحمد أمين"[٢].

(٢)

وإذا كان الرائد الكبير عرف بين إنتاجه الغزير والمتنوع بأبحاثه عن الحياة العقـلية فى الإسلام، والتى تبرز لنا الجانب الفكرى فى كتاباته، وهو الجانب الذى أشـاد به كل من تناول أعماله[٣] فترك كتابا هاماً – لم يحظ بنفس القدر من العناية رغـم أهميته الكبرى فى بيان توجه أمين الفلسفى تتبع بدايات هو كتاب "الأخلاق" الـذى يسـاعدنا مسـاعدة كبيرة، ليس فقط فى بيان تفكير أحمد أمين الفلسفى فى الأخلاق، بل أيضاً تتبع بدايات الدراسات الأخلاقية المعاصرة فى العربية[٤].

ورغـم تباين الأحكام حول قيمة وأهمية الكتاب إلا أنه على ما نعلم لم يحظ بالـبحث والاهـتمام الجدير به، ليس فقط باعتباره ممثلاً لجانب جوهرى من تفكير رائد هام من رواد الدراسات العقلية فى العربية، بل أيضاً باعتباره اجتهاداً معاصرا يمـثل كمـا سـنرى إضـافة حقيقية نحو بناء نظرية أخلاقية معاصرة لذا سيكون

(٢) د. طه حسين : أحمد أمين العالم، المصدر السابق ص٦٤.

(٣) راجع كل من : د. شوقى ضيف : أحمد أمين الجامعى ص٥٣، د. أحمد فؤاد الأهوانى: أحمد أمين الفيلسوف ص٢٧، ٣٠، ٣٤، ومحمد عبدالواحد خلاف: أحمد أمين ناشر الثقافة ص٨٨، والأمير مصطفى الشهابى: أحمد أمين الكاتب ص ١٠٥ من المصدر السابق.

(٤) راجع كتابنا : الأخلاق فى الفكر العربى المعاصر، دراسة تحليلية للاتجاهات الأخلاقية الحالية فى الوطن العربى. دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨.

اهتمامـــنا فى الفصـــل الحال بهذا العمل الذى يمثل خلاصة تطور فكر أحمد أمين الفلســفى الأخــلاقى. وإذا كان كتاب فجر، وضحى، وظهر الإسلام يمثل مشروعاً فكريا كان من المفترض إن يشارك فى جوانبه الثلاثة رواد الدراسات الإنسانية فى بلادنـــا: طه حسين فى التأريخ للحياة الأدبية والعبادى الحياة التاريخية، وأمين فى الحيـــاة العقـــلية[٥]. وقد أنجز رائدنا الجزء المتعلق به عن تطور الحياة العقلية فى الإســلام، أو "العقل فى الإسلام" بلغتنا المعاصرة، سابقاً بذلك معظم من يتحدثون عـــن "العقـــل العـــربي بنيته، وتكوينه (الجابرى)[٦] أو "العقل الإسلامى" تاريخيته وعلميته (أركون)[٧] فإن كتابه الأخلاق يمثل جهدا متميزاً فى مجاله، ويقف علامة من علامات تطور الدراسات الفلسفية فى الأخلاق.

وينقلنا هذا العمل من دراسة الأخلاق بطريقة وعظية إرشادية باعتباره علما حاثـــا عـــلى القيـــم والسلوك الأخلاقى مكتفيا فقط بالحديث عن الفضائل والرذائل والـــبحث فى الخيـــر (ســـلطان بـــك محمـــد)[٨]، والسعادة (طنطاوى جوهرى)[٩] والأخـــلاق والواجـــبات "عـــبدالقادر المغربى"[١٠]. أو مكتفيا بإيراد الآيات القرآنية والأحـــاديث النبوية الداعية إلى الخلق والتقويم: والخلق الكامل: محمد جاد المولى، الأخـــلاق فى الحديث وفتاوى ابن تيمية (محمود قراعة)، أو ترجمة للكتب اليونانية فى الأخـــلاق (أحمـــد لطفى السيد) أو دراسة عنها (إسماعيل مظهر). بل إنه عمل

(٥) يقول أحمد أمين عن "الحياة العقلية": كان ذلك تمهيداً لمشروع واسع فى البحث وضعناه نحن الثلاثة الدكتور طه حسين والأستاذ عبدالحميد العبادى وأنا، خلاصته أن نقوم بدرس الحياة الإسلامية من نواحيها الثلاث فى العصور المتعاقبة من أول ظهور الإسلام، فيختص الدكتور طه بالحياة الأدبية والأستاذ العبادى بالحياة التاريخية واختص أنا بالحياة العقلية" أحمد أمين: حياتى ص٢١٣-٢١٤.

(٦) انظر د. محمد عابد الجابرى: تكوين العقل العربى. دار الطليعة بيروت ١٩٨٤. وأيضاً بنية العقل العربى. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

(٧)انظر محمد اركون : تاريخية الفكر العربى، ترجمة هاشم صالح مركز الانماء القومى بيروت د.ت، وأيضاً الفكر الإسلامى قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومى، بيروت، لبنان، ١٩٨٧.

(٨) سلطان بك محمد : الفلسفة العربية والأخلاق، مطبعة المعارف القاهرة، بدون تاريخ.

(٩) طنطاوى جوهرى : محاضرات فى الفلسفة العربية والأخلاق. منشورة بجريدة الشعب المصرية، الحزب الوطنى القديم، نوفمبر ١٩١٢ العدد ٢٣١ وما يليه.

(١٠) عبدالقادر المغربى : الأخلاق والواجبات . بدون تاريخ.

يمــثل بلغة ميشيل فوكو قطيعة معرفية لما سبقه من دراسات، ويسعى لتقديم رؤية خاصة استنادا إلى مصادر متعددة عربية قديمة وإسلامية ويونانية وغربية معاصرة تجعله مختلفا عما سبقه من محاولات.

ومــن هــنا فــإن هذه الدراسة الحالية تسعى إلى بيان الأخلاق، عناصرها، ومصـــادرها، وتكويــنها، والــنظرية الأخلاقية وعلاقتها بالثقافة السائدة لدى أحمد أميــن. يلزمنا منذ البداية بيان المحاولات الأخلاقية السابقة على أحمد أمين لبيان ما قدمه من إضافة فى مجال علم الأخلاق.

وكتاب أحمد أمين من الكتب المبكرة فى الأخلاق كما يخبرنا توفيق الطويل" فى مقدمــة ترجمته لكتاب سدجويك المجمل فى علم الأخلاق[١١] والذى اعتمد عليه من قبل أحمد أمين فى كتابه.

وقــد اختــلفت الأحكام حول الكتاب فهو لدى أحد الباحثين "لا يتضمنن شيئاً عــن أخلاق الإسلام سوى فقرة يتيمة" وهو رأى تدحضه قراءة فاحصة للكتاب. إلا أن الباحث لا يكتفى بذلك، بل يرى أن هذه الفقرة اليتيمة بالكتاب ليس من أثر سوى بذر الشك فى وجود مضمون أخلاقى متميز للإسلام يستحق الدراسة[١٢]. ورغم أن القضــيتين منفصلتان، فعدم تضمن كتاب أحمد أمين شيئاً عن أخلاق الإسلام – لو صــح ذلك – يختلف عن القول بعدم وجود مضمون أخلاقى متميز للإسلام يستحق الدراســة. ورغــم كــثرة استشهادات أمين بالآيات القرآنية الأخلاقية على امتداد صــفحات الكــتاب، والــتوجه العام للعمل نفسه. فنحن هنا لسنا بصدد مناقشة هذا الــرأى – إلا أنــنا فى حديثــنا عن بنية وتكوين الكتاب ومصادره سوف نعرض للإسلام كمصدر من مصادر تكوينه.

---

(١١) يقول توفيق الطويل : أما العربية فقد خلت من هذا الصنف من كتب الأخلاق، فتراثها القديم كما يبدو فى آثار [ابن] مسكويه والغزالى وابن عربى ومن إليهم أنظار أخلاقية يلتقى فيها النظر الإسلامى بالتفكير اليونانى غالباً. وليس فيها كتاب واحد فيما نعلم يعرض لتأريخ مذاهب الأخلاق. ولسنا نعرف فى الحديث من المؤلفات العربية كتابا يسد هذا النقص مع استثناء الجهد المشكور الذى بذله أستاذنا أحمد أمين بك فى كتابيه "الأخلاق الكبير (١٩٣٠) والصغير (١٩٣٣) مقدمة ترجمة كتاب سدجويك "المجمل فى تاريخ الأخلاق" بدار نشر الثقافة بالإسكندرية ١٩٤٩ ص٣٧.

(١٢) د. أحمد عبدالرحمن: الفضائل الخلقية فى الإسلام، نشر دار العلوم الرياض، ١٩٨٣ ص٢٩.

والعمـــل نفســـه لـــدى بـــاحث آخر عمل ذو سمة استشراقية يتابع جهود الغـــربيين، ويكرر أحكامهم، وينظر بعين غيره، فهو قريب من نظرة (كارادى فو) فى دائـــرة المعارف الإسلامية، يرى أن الاتجاهات الأخلاقية فى الفكر الإسلامى توجـــد لدى مسكويه، وهو يقرر عدم الارتباط بين الفكر الأخلاقى فى الإسلام وبين القـــرآن والسنة، ولا يرى إلا اتجاهات غلب عليها فكر غير إسلامى [(١٣)]. وواضح أن باحثنا هذا ينتقد العمل على أسس تختلف عن الأسس التى يقيم عليها أحمد أمين عملـــه، فهو يضع معايير محددة هى ارتباط الأخلاق بالقرآن والسنة – وهى قضية تحتاج إلى حوار جاد لبيان ما إذا كان القرآن وإذا ما كانت السنة تمثل مكونات لعلم أخـــلاق نظرى – وأن عمل أحمد أمين لم يلتزم هذا المعيار، وذلك لسبب بسيط هو أنـــه ينظر نفس نظرة كارادى فو. وهو حكم ينطبق على عمل أمين من الخارج لا يـــنفذ إلى لـــب العمـــل، ولا يتـــناول جزئياته المختلفة، ولا يناقش بنيته ومكوناته، وعناصـــره الـــتى تـــتجاوز عـــلم الأخلاق التقليدى لدى الفلاسفة المسلمين، ولدى اليونـــانيين الأوائل، ذلك لأنه يعتمد أساساً على ثقافة علمية يجعل منها مبدأ يتضافر مـــع ثقافـــة فلســـفية غربـــية معاصرة لم تتوقف عندها الدراسات السابقة عليه فى العربية.

ومن هنا علينا أن نعرض للدراسات الأخلاقية السابقة عليه فى العربية حتى نلقى الضوء على أحمد أمين، ويتضح لما الفروق بينه وبينها وما أضافه إليها وذلك بتقديم قراءة للنص لا تكتفى بعرضه وتلخيصه وإنما توضح تمايزه واختلافه وتفكك مكوناته، وتبرز المسكوت عنه فى خطابه الأخلاقى.

(٣)

يمكـــن فى الـــبداية مقارنـــة عمل أحمد أمين بما قدمه سلطان بك محمد من محاضـــرات الفلســـفة العربية والأخلاق فى الجامعة الأهلية القديمة، الذى خصص المجلد الثانى من كتابه هذا للأخلاق[(١٤)]. وكذلك طنطاوى جوهرى الذى درس نفس التخصـــص وتطرق إلى نفس الموضوعات بنفس المنهج وإن كان أكثر استفادة من

(١٣) د. أبو اليزيد العجمى : هل أرخ المسلمون لعلم أخلاق إسلامى حوليات دار العلوم، العدد الحادى عشر، ١٩٨٣، ص٢٢٥.
(١٤) مرجع سبق ذكره.

كتابات الفلاسفة عن سابقه[15]، وهذا ما نجده أيضاً لدى أصحاب الكتابات الأخلاقية التى ظهرت فى العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن مثل كتاب عبدالرحمن زغلول "الأخلاق"، الذى نشره صاحب تقويم دار العلوم محمد عبدالجواد ١٩١٨[16] وكتاب عبدالقادر المغربى "الأخلاق والواجبات" وهو بحث فيما ينبغى أن يكون عليه سلوك المسـلم[17] وعمل محمد جاد المولى "الخلق الكامل" ١٩٢٢ الذى يكاد يكون أقرب إلى اسـتلهام السيرة النبوية منه إلى علم الأخلاق، وكتاب محمود قراعة "الأخلاق فى الحديث وعن فتاوى ابن تيمية"[18].

وقـد حـدث تحول فى الدراسات الأخلاقية فى العقود الأولى من هذا القرن فـترة تكـون نـص الأخلاق الذى كان يلقيه أحمد أمين فى محاضراته فى مدرسة القضـاء الشـرعى وذلك عن طريقين الأول: محاضرات المستشرقين فى الجامعة الأهلية القديمة وأخص منها بالذكر محاضرات الكونت دى جلارزا عامى ١٩١٨-١٩٢٠، والـتى قصر فيه درسه على تناول الأخلاق لدى الفلاسفة الغربيين أمثال: جوزيـف بطـلر، وإمـانويل كانط[19] وعن مالبرانش (محاضرات الفلسفة العامة ١٩٢٠) وهـذا قـبل وأثـناء صـدور كتاب أحمد أمين، ويندرج فى هذا الاتجاه محاضـرات فى الفلسـفة الأندريـة لالانـد التى طبعتها الجامعة المصرية والتى خصص الأستاذ الفرنسى جزءها الثانى للقيم[20].

والطـريق الـثانى : وهـو الـترجمة ونقل الكتابات الأخلاقية اليونانية إلى العـربية، والدراسـة الحديثة لهذه الأخلاق. وتأتى فى مقدمة هذه الأعمال ترجمة أحمـد لطفى السيد – الذى أثر تأثيرا كبيرا هو ومثقفو حزب الأحرار الدستوريين:

---

(١٥) انظر طنطاوى جوهر وبدايات الدرس الفلسفى فى الجامعة المصرية فى هذا الكتاب.

(١٦) وهو من أوائل الدراسات التى ظهرت هذا القرن يضعه أبو اليزيد العجمى فى دراسته السابقة ضمن الدراسات العامة التى تفتقد النظرة المنهجية لعلم الأخلاق. العجمى ص٢١٦.

(١٧) وهو من الأعمال الوعظية الإرشادية العملية وليس عملا علميا.

(١٨) هذا العمل نموذجا مستحدثاً لكتاب الفضائل الإسلامية المبنية على الأحاديث والسيرة النبوية.

(١٩) انظر نشرتنا لهذا العمل فى إطار الدرس الفلسفى فى الجامعة المصرية.

(٢٠) اندرية لالاند : محاضرات فى الفلسفة، نفسية الأحكام التقويمية" ترجمة يوسف كرم مطبوعات الجامعة المصرية، القاهرة ١٩٢٩ ص٣٤ وما بعدها.

مصـــطفى عـبدالرازق[٢١] وطه حسين[٢٢] فى مرحلته المبكرة على أحمد أمين – لكـتاب أرســطو الأخـــلاق إلى نيقوماخوس والذى نجد فقرات مطولة عديدة منه متضمنة فى كتاب الأخلاق بحيث يمكننا القول إنه مصدر أساسى من المصادر التى اســتخدمها صـــاحب الأخلاق[٢٣] ويسير فى هذا الاتجاه أو على الأقل يرتبط به – اتجـاه دراســـة الأخـــلاق اليونانيـــة عمل إسماعيل مظهر فلسفة اللذة والألم، الذى يتطرق لدراسة جهود القورنيائية فى مجال الأخلاق [٢٤].

نحـــن إذن بإزاء اتجاهين الأول: مصدر إسلامى خالص سواء أكان مصدرا فلســفياً، أو يقــوم عــلى القــرآن والسنة، فيه اعتماد على مسكويه وإخوان الصفا والغزالى، أو الفضائل القرآنية والسلوك النبوى وفتاوى ابن تيمية، وهذا هو الاتجاه الذى سار فيه زكى مبارك فى "الأخلاق عند الغزالى "وعبدالعزيز عزت" فى فلسفة مســكويه الأخلاقيـــة ومصـــادرها، والاتجاه الثانى هو الاكتفاء بالمصادر اليونانية القديمـــة ترجمة لطفى السيد أو دراسة وبحث إسماعيل مظهر والمصادر الأوربية الحديثة مثل أعمال بطلر وكانط التى عرفت فى أعمال الكونت دى جلارزا واندريه لالاند. ونحن نشير إلى هذه الأعمال لسببين:

الأول : بيان عناصرها ومكوناتها واختلافها عن عمل أحمد أمين.

والـــثانى : الوقوف على العناصر التى تداخلت مع غيرها وكونت بنية كتاب أحمد أمين الأخلاق. وهو بالطبع وإن كان قد عرف معظم هذه الأعمال، إلا أن ما أثـــر فى تكونيه منها القليل: وعلينا أن نتوقف أمام هذه المصادر المؤثرة فى تكوين تفكير أحمد أمين وعمله.

---

(٢١) يذكر لنا أحمد أمين اتصاله بحزب الأمة بجريدة "الجريدة" التى كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفى السيد، حياتى ص١٢٣ كذلك حضوره اللقاءات الفكرية والسياسية فى منزل مصطفى عبدالرازق، المصدر ص ٩٨، ١٦٧.

(٢٢) عن علاقة أحمد أمين بطه حسين يمكن الرجوع إلى ما كتبه العميد كتاب أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه ص ٦٢ وما بعدها.

(٢٣) راجع أحمد أمين كتاب الأخلاق ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٣ صفحات ٦، ٧، ٩، ٦٤، ٧١، ١١٧.

(٢٤) إسماعيل مظهر : فلسفة اللذة والألم، مطبوعات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٣٦. وكتابنا الأخلاق فى الفكر العربى المعاصر، ص١٤.

(٤)

يمكن أن نحدد ثلاثة مصادر أساسية ساهمت فى تكوين أحمد أمين الأخلاقى، وظهرت واضحة فى نصه هى:

١- دورس مدرسة القضاء الشرعى، خاصة محاضرات عاطف بركاته الشخصية ذات التأثير القوى الحاسم فى حياة وتفكير أحمد أمين منذ تعيينه مدرساً بالمدرسة، وعمله معه فى دروس الأخلاق ومشاركته فى إعداد هذه الدروس وفى معرفة مصادرها الأصلية فى لغتها الإنجليزية، ويذكر لنا أحمد أمين فى كتاب (حياتى) هذا التأثير بقوله : "وهذا هو عاطف بك بركات يدخل علينا يوميا فيجد مدرسا من دار العلوم يدرس لنا الأخلاق من كتاب (أدب الدنيا والدين) فلا يعجبه ذلك ويترلى تدريس هذه المادة بنفسه من المصادر الإنجليزية فيدرس لنا أحيانا كتاب ماكنزى فى علم الأخلاق وأحياناً كتاب مذهب المنفعة لجونن سيتورات مل. وهكذا مما لم يكن له نظير فى أى مدرسة أخرى"[٢٥] ويضيف موضحاً أثره فى مرحلة تالية بقوله: "واختارنى معيدا معه فى دروس الأخلاق وهذا كان سببا فى شدة اتصالى به واستفادتى منه فكنت أذهب إلى بيته فى كثير من الأيام عند تحضير درس، وكان يحضره من كتب الأخلاق الإنجليزية فكان يقرأ بالإنجليزية ويملينى بالعربية.. وكان له غرام بالبحث وصبر على الجدل وطول نفس فى المناقشة"[٢٦].

---

(٢٥) أحمد أمين : حياتى ص٦٥.

(٢٦) المصدر نفسه ص١١٩. ويخبرنا عبدالوهاب عزام فى "ذكريات عن أحمد أمين بوقع تدريس الرائد على طلابه يقول": حينما كنت من طلبة القسم العالى درس لنا الأستاذ علم الأخلاق أو فلسفة الأخلاق وكان تلقاه عن أستاذه محمد عاطف نفسه وكان أحمد أمين حريصا على متابعة التلقى عن أستاذه فكان يوضع له كرسى فيستمع إلى درس الأخلاق معنا. وكان موضوع الدرس حينئذ رسالة فى مذهب المنفعة العامة للفيلسوف الإنجليزى جون ستيوات مل، وجاء فى مقدمة هذه الرسالة كلام عن الأخلاق منذ جلس الشاب سقراط يتلقى العلم عن الشيخ فيثاغورس فاولع الطلبة منذ قرأوا هذه الجملة أن يلقبوا أحمد أمين الشاب سقراط" ص٧٧-٧٨ من أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه.

٢- دروس الجامعـــة المصـــرية الأدبية والفلسفية [٢٧] وتعاليم رجالها من المفكرين المصريين: أحمد لطفى السيد، ومصطفى عبدالرازق[٢٨] وقد كان للأول تأثير كـــبير عليه من خلال شخصيته وكتاباته فى الجريدة وترجماته وأهمها ترجمة الأخلاق بحيث يكاد يفوق أثر أى مصدر آخر باستثناء دروس عاطف بركات.

٣- الـــثقافة الفلسفية الأخلاقية الإنجليزية عن طريق أستاذته الإنجليزية – مس بور Power الـــتى أصـــقلت تفكيـــره وفـــتحت أمام عقله أبواب الثقافة الكلاسيكية والحديـــثة وأهمها كتب الأخلاق، يقول: اخترت أن اقرأ معها كتب أخرى فى الأخـــلاق أحيانـــاً وفى الاجتماع أحياناً وفى آخر المرحلة قرأت معها فصولاً كثيرة من جمهورية أفلاطون بالإنجليزية"[٢٩].

نســـتخلص مما سبق أولا أن كتاب أحمد أمين لم يكن أول الكتب المطبوعة فى هـــذا القرن فقد سبقته محاضرات فى الجامعة المصرية وبعض الكتب الأخرى، وعـــدم الأسبقية الزمنية لا يعنى عدم ريادة أمين للبحث فى علم الأخلاق، بل يؤكد هذه الريادة، فهو عمل لم يأت من فراغ لكنه يتميز عما سبقه بحيث يمكن أن نعتبر أن الأعمال السابقة ما هى إلا تمهيد للعمل الرائد.

وثانيـــاً : إن هذا العمل يجمع عناصر ثقافية متعددة الروافد، دينية إسلامية، فلسفية يونانيـــة، عـــربية حديـــثة، وأدبية لغوية وعلمية يضم العلم إلى جانب الدين ويســـتفيد مـــن تطـــور الدراسات النفسية والاجتماعية والسياسية والقانونية. ويقدم لنا نسيجا متميزا من هذه الروافد، وكان هذا العمل أساساً موجه لكثير

---

(٢٧) يذكر أحمد أمين فى كتابه "حياتى" حضوره دورس الجامعة الأهلية خاصة محاضرات نللينو "تاريخ الفلك عند العرب " وسانتيلانا" محاضرات فى الفلسفة الإسلامية" وغيرها ص١٠٠.

(٢٨) المرجع السابق ص٩٨،، ١٦٧.

(٢٩) يقول أحمد أمين: "عدت إلى مدرسة القضاء كما كنت، ودرست كما كنت أدرس أهم دروس، دروس الأخلاق، وبجانبها فقه أو تاريخ أو منطق. وأحسست ثانية حاجتى الشديدة إلى لغة أجنبية فدروسى فى الأخلاق مصدرها مذكرات عاطف بك التى نقلها عن الإنجليزية وأنا شيق إلى أن أتوسع فيها، ومن حوالى من الأساتذة المصريين يستفيدون أكبر فائدة فى مادتهم التى يدرسونها من اللغة الإنجليزية أو الفرنسية. وقد أخفقت فى تعليم الفرنسية فلأجرب حظى فى تعلم الإنجليزية" ص١٤١. ويضيف "ووقفت إلى سيدة إنجليزية كان لها أثر كبير فى عقلى ونفسى مس بور" ص١٤٣.

من الأعمال الأخلاقية فقد اتجه د. محمد مندور إلى ترجمة عدة دراسات فى الـثقافية الأخلاقية بعنوان "من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث" للأساتذة: بوجلية، بريية، دى لاكروا، بارودى ومقدمة لبول لابى، وهو يتقدم بالإهداء للاستاذ أحمد بك أمين "من كبار رجالنا الذين عنوا بالدراسات الأخلاقية" فقد تفضل أستاذى بمراجعة الترجمة"[٣٠]. ويمكن القول أن جهد أستاذنا المرحوم الدكـتور توفيق الطويل الذى تتلمذ على أحمد أمين فى كتابه "الفلسفة الخلقية نشـأتها وتطورها" فى خطوطه العريضة وفى معظم موضوعاته ومراجعه يشير إلى تأثيره بجهد أحمد أمين.

وقـبل بيـان مصـادر كـتاب الأخلاق، علينا أولاً التعريف بالعمل وبيان الموضـوعات الـتى تناولها، والمنهج الذى أتبعه، والتحليلات التى قدمها، والنتائج الـتى وصـل إليهـا، والنسق العام للعمل حتى نستطيع أن نحدد مكانته فى تطور الدراسات الأخلاقية.

(٥)

لم يظهر كتاب "الأخلاق" بصورته الحالية دفعة واحدة،، فالعمل قد طبع عدة مـرات، وفى كل طبعة جديدة يتولاه صاحبه بالنظر والتعديل والإضافة، وقد طبع فى حيـاة صاحبه ست طبعات الأولى عام ١٩٢٠، وهى طبعة يغلب عليها التوجه العمـلى، فقد وضعه للطلاب ليكون مرشدا لهم فى حياتهم الأخلاقية، وبين لهم أهم نظـريات العـلم، ليعدهم للتوسع فى علم النفس والأخلاق والاجتماع وقد قسمه فى هـذه الطـبعة إلى ثلاثـة أقسام، تناول فى القسم الأول موضوعات نفسية كالعادة والإرادة، وذكـر فى القسـم الثانى أهم نظريات علم الأخلاق وتاريخه، واهتم فى القسم الثالث بالمسائل العملية التى تعرض للإنسان فى حياته. ويستشعر أحمد أمين جـدة وأهميـة ما قدمه فهذا العمل "لعله أول كتاب فى اللغة العربية من نوعه من حيث موضوعاته ونمطه"[٣١].

---

(٣٠) بول لابى وآخرون : من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث ترجمة د. محمد مندور، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة.

(٣١) أحمد أمين : الأخلاق، مقدمة الطبعة الأولى.

وتصـــدر الطـــبعة الثانية بعدها بعام ١٩٢١، وتزيد عن الأولى فى تناولها لـــلغريزة، والوراثـــة والبيـــئة، وتتوســـع فى موضوعات كالحرية وضبط النفس والمحافظـــة عـــلى الزمن وتصدر الطبعة الثالثة عام ١٩٢٥ وفيها أضاف بحثاً فى علاقـــة "علم الأخلاق بغيره من العلوم" فى المقدمة وفصل عن الباعث فى الكتاب الأول. وفصل عن الشعور الأخلاقى" وآخر عن علاقة النظريات الأخلاقية بالحياة العملية "فى الكتاب الثانى، بل تقدم زيادات عدة تكاد تكون فى كل فصل.

ونعـــلم ممـــا جـــاء فى الطـــبعة الرابعة عن لجنة التأليف والترجمة ١٩٣١ مســـألتين: الأولى أن وزارة المعـــارف قـــررت تدريس هذا الكتاب فى المدارس الـــثانوية ومدارس المعلمين الأولية. والثانية تمايز عملين فى الأخلاق لأحمد أمين، هـــذا العمـــل (المدرســـى) وكتاب الأخلاق الكبير، وهو أوسع من هذا الكتاب مادة وأشـــمل موضـــوعاً ويقع فى (٣٢٠ صفحة) مطبوع بمطبعة دار الكتب المصرية (يقصـــد الطـــبعة الثالثة) معنى ذلك أن الطبعة الثالثة والرابعة ليستا طبعتين لكتاب واحـــد بـــل هما كتابين يسمى أحدهما "الأخلاق الكبير" والثانى "الأخلاق الصغير" وكـــان أحمـــد أميـــن يـــتابع ابـــن رشد والشراح القدامى فى تقديمهم للملخصات والمطولات، أو الشرح الصغير والكبير، وهى سُنة فلسفية نجدها واضحة لدى رائد البحث الأخلاقى المعاصر فى العربية.

(٦)

ويهمـــنا هـــنا تحـــليل الموضوعات التى تناولها أحمد أمين فى عمله، الذى يـــتكون فى طبعـــته السادســـة ١٩٥٣ من مقدمة وثلاثة كتب. تدور المقدمة حول تعـــريف "عـــلم الأخلاق" لاحظ جيداً تحديد المجال والمصطلح فهو (علم الأخلاق) وليـــس فلســـفة الأخـــلاق وموضوعه، وفائدته، وعلاقته بالعلوم الأخرى. فهو علم يوضـــح معـــنى الخير والشر، ويبين ما ينبغى أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم لبعضاً وشرح الغاية التى ينبغى أنن يقصدها الناس فى أعمالهم، وينير السبيل لفعل مـــا ينبغى (ص٣).. وموضوع علم الأخلاق هو الأعمال التى صدرت عن العامل (الفـــاعل الأخـــلاقى) عن عمد واختيار يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل. وهذه

هى التى سيصدر عليها الحكم بالخير أو الشر، وكذلك الأعمال التى صدرت لا عن إرادة وشـعور ولا تكـن الاحتياط له فليس من موضوع علم الأخلاق"(ص٤-٥). ويحدد لنا الفائدة من علم الأخلاق بأن دارسه يكون أقدر على نقد الأعمال وتقويمها تقويما مستقلاً عن طريق معرفة نظريات العلم وقواعده ومقاييسه.

ويحـدد لـنا علاقـته بغيره من العلوم، فهو فرع من الفلسفة ويتوقف أمام علاقـته بعلم النفس، ويرى أن لعلم النفس الاجتماعى تأثير مباشر مثلما هو الأمر مع علم النفس الفردى. ثم يتناول علاقته بغيره من النظم الاجتماعية، فالمثل الأعلى الـذى يرسخه علم الأخلاق للفرد يجب أن يقرن بوضع مثل أعلى للنظم الاجتماعية يعيـن الفـرد على تحقيق غرضه، والذى يتكفل بذلك هو علم الاجتماع (ص٨) ثم يعرض علاقته بالقانون، ويبين الفرق بينهما.

ويشير بإيجاز إلى أقسام الكتب (الثلاثة) يتناول الأول: الموضوعات النفسية كالغريـزة والإرادة والوجـدان (الضمير) وهى موضوعات لابد من دراستها من الوجهـة الأخلاقيـة. ويـبحث فى القسم الثانى فى نظريات المقياس الأخلاقى وما يتعلق به ومع إشارة تاريخية لنظريات العلم. ويعرض للحياة الأخلاقية الواقعية فى القسـم الـثالث وهو قسم عملى تطبيقى. وموضوعات هذه الأقسام كما يتضح من عناويـنها جديـدة عـلى دراسـة الأخلاق فى العربية، يتضح ذلك إذا ما تناولناها بالتفصيل على الوجه التالى:

الكتاب الأول فى "مناقب نفسية لابد منها فى الأخلاق"، وأسس السلوك" وفيها يؤكد على علمية الأخلاق وموضوعية قوانينه وثبات الأسس التى يقوم عليها، "أثبت العـلم أن أخلاق الإنسان ليست خطا يمنح حسب المصادفة والاتفاق، ولكنها تصلح وتفسـد وتـرقى وتـنحط تبعا لقوانين ثابتة لا تتخلف، وأنا إذا عرفنا هذه القوانين وعملـنا عـلى وفقهـا اسـتطعنا أن نصلح أخلاق الإنسان بقدر ما تسمح طبيعته (ص١٤) و"دراسـة الأسـس النفسـية ومعرفته قوانينها تمكن الإنسان من التربية الصحيحة"(ص١٥).

ويعـرض لـلغريزة ويذكر أهم الغرائز: حفظ الذات، حفظ النوع، الخوف. ويعـتمد عـلى كتب علم النفس فى تعريفها، فهى ملكة يقتدر بها على عمل يوصل

إلى غايـــة مـــن غير سابق نظر إلى تلك الغاية، ومن غير سابق تدريب على هذا العمـــل"(ص١٩). ويرفض التفرقة القديمة التى ترى أن الحيوان يعمل عن غريزة والإنســـان عن عقل فقط، فالإنسان يعمل عن غريزته وعقله معا ولا يمكن انفصال أحدهمـــا عـــن الآخر، فالغريزة تعين الغاية المطلوبة والعقل يؤيد الوسائل لتحصيل تـــلك الغاية. ويؤكد إمكانية تربية الغريزة، فهى قابلة لأن تثبت وتنمى بالتربية كما إنهـــا قابلة لأن تضعف بل تفنى بالإهمال (ص١) فالغرائز عند أحمد أمين إذن هى المادة الأولى التى تتكون منها الأخلاق.

ويتحدث عن العادة وتكوينها موضحاً أن كل عمل خيراً كان أو شراً يصير عـــادة بشـــيئين: ميـــل النفس إليه، وإجابة هذا الميل بإصدار العمل مع تكرار ذلك تكـــراراً كافيـــاً. ويســـتعين بعلم وظائف الأعضاء لبيان أن أفعال الإنسان وعاداته مرتـــبطة بجهازه العصبى. ويعرض لخصائص العادة مستشهداً بأقوال عالم النفس جميس (ص٢٩) وجان جاك روسو (ص٣٠) وتغير الإمكانية تغيرا العادة والقواعد الـــتى يجـــب اتباعها لتغييرها التى حددها "بين" و"جيمس" نقلاً عن عاطف بركات ومستشـــهداً بآيـــات القـــرآن الكـــريم" (ص٣) ثم يعرض للفكر والعادة استناداً إلى القوانين النفسية (ص٣٤).

وينـــتقل إلى بيان "الوراثة والبيئة" فهو يؤمن أشد الإيمان بتأثير الوراثة على الإنســـان وقـــد طـــبق ذلك على نفسه فى كتابه "حياتى"[٣٢]. فالوراثة من القوانين الطبيعية. فقد أصبح قانون الوراثة على الإجمال من القوانين الثابتة الصحيحة التى لا مجال للشك فيها نحن لا نرث من آبائنا غرائزنا. ولا ملكات ناضجة وإنما نرث

---

(٣٢) يقول أحمد أمين مؤكداً إيمانه بالعلم وبأهمية عامل الوراثة فى أول صفحات كتاب حياتى: "ما أنا إلا نتيجة حتمية لكل ما مر على، وعلى أبائى من أحداث، فالمادة لا تنعدم كذلك المعانى (ص١).. ولو ورث إنسان ما ورثت وعاش فى بيئة كالتى عشت لكان أياى أو ما يقرب منى جداً (ص٢)... ثم يضيف لقد عمل فى تكوينى إلى حد كبير ما ورثت عن أبائى، والحياة الاقتصادية التى كان تسود بيتنا، والدين الذى يسيطر عليا واللغة التى نتكلم بها، وأدبنا الشعبى الذى كان يروى لنا ونوع التربية الذى كان مرسوما فى ذهنى أبواى ولو لم يستطيعا التعبير عنه ورسم حدوده ونحو ذلك، فأنا لم أضع نفسى ولكن ضعها عن طريق ما سنه من قوانين الوراثة والبيئة" ص٣.

مــنهم اســتعدادات فقــط (ص٤٢). ثم يتحدث عن الصفات المكتسبة، والبيئة، ثم العلاقة بين الوراثة والبيئة.

ويميــز في الفصــل الرابع "الإرادة" تمييز دقيقا بين كل من الميل والرغبة والإرادة. فالميل المتغلب يسمى رغبة. ثم يأتى العزم أو التصميم على العمل، وهذا العــزم هو المسمى بالإرادة ثم يتبعها العمل. والميل الإرادى يتضمن: ١- شعوراً، ٢- ميلاً ٣- ترويا، ٤- عزماً وهو المسى بالإرادة، ثم العزم بعد ذلك يكون أو لا يكــون. (ص٥٣) ويــربط الإرادة والأخلاق، حيث يتناول فى هامش طويل موقف كــانط من الإرادة كما عرضه فى أسس ميتافيزيقا الأخلاق[٣٣] ويعرض لأمراض الإرادة مــثل: ضــعف الإرادة، أو اتجاهــا للشرور، ويبين أنواع علاج الإرادة، وحــرية الإرادة. وموقــف الفلاسفة من هذه المسألة[٣٤] سواء اليونان أو المحدثين أمثال: سبينوزا وهيوم ومالبرانش.

ويــناقش فى تناولــه الباعث على العمل، هل الباعث دائماً اللذة، ويعرض لمذهب بنتام فى ذلك، ويرى أن القول باللذة الفردية "الأثرة" حط من شأن الإنسانية (ص٦٣) وينــتقد ذلــك اعــتماداً عــلى ســانتيهلز المترجم الفرنسى للأخلاق إلى نيقوماخوس (ص٦٤) ثم يعرض رأى سينسر فى الأثرة والإيثار.

ويعــرض للخــلق، وتــربية الخلق بتوسيع دائرة الفكر، وصحبة الأخيار، ومطالعــة سير الأبطال والتابعين، وعمل الخير، ثم يوضح علاج الخلق استناداً إلى أقوال أرسطو. ويخصص الفصل السابع للوجدان (يقصد الضمير) ويعرض لنشأته،

---

(٣٣) اهتم الباحثون العرب التاليون اهتماماً كبيراً بكانط وفلسفته الخلقية وأضافوا فى شرحها وترجمة أعماله خاصة تأسيس ميتافيزيقيا الأخلاق التى ترجمت ثلاث مرات إلى العربية (راجع عن فلسفة كانط الأخلاقية) ما كتبناه فى الأخلاق الهيجلية، المجلة الفلسفية العربية التى تصدرها الجمعية الفلسفية العربية الأردن، العدد الثانى المجلد الثانى يناير ١٩٩٣، ص٥٣.

(٣٤) اهتم جداً بحرية الإرادة من الناحية الأخلاقية الدكتور زكى نجيب محمود الذى شارك أحمد أمين فى إصدار عدد من الكتب الفلسفية مثل: قصة الفلسفة اليونانية، وقصة الفلسفة الحديثة، وقصة الأدب فى العالم، وذلك فى عمله الهام الأول "الجبر الذاتى الذى كان موضوع رسالته للدكتوراه عام ١٩٤٨ بالإنجليزية، وصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٣ بترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام ومراجعة د. نجيب محمود.

واخـــتلافه، وخطئه، وتربيته، ودرجاته: الشعور بالخوف ، ضرورة أتباع القوانين، اتباع ما نراه حقا. حتى يصل بنا إلى المثل الأعلى" آخر موضوعات الكتاب الأول، ومـــم يـــتكون ؟ (ص٨٥)، وبهـــذا يكتمل الكتاب الأول الذى يدور حول المباحث النفســـية ذات الصـــلة الوثيقة بالأخلاق وهى تمهيد ضرورى لابد منه حتى يتسنى تـــناول نظـــريات العلم وتاريخه فى الكتاب الثانى، وهذه التمهيدات بمثابة العناصر التى تتكون منها الأخلاق.

ويضـــرب الكـــتاب (القســـم) الثانى فى صميم علم الأخلاق كما يتضح من موضـــوعاته: الشعور الأخلاقى، مقياس الخير والشر، الحكم الأخلاقى وذلك تحت مسمى "نظريات العلم وتاريخه" حيث يبدأ بالشعور الأخلاقى، وهو من أهم المسائل التى يبحث فيها علماء الأخلاق، مقياس الخير والشر، والذى يفصل الحديث فى أهم أمثلته بدئا من العرف. الذى يرفض أن نتخذ منه مقياسا فبعض أوامره غير معقول وبعضها ضار (ص٩٤).

ومذهـــب السعادة (مقياس آخر). ويقصد به اللذة Hedonism الذى يميز فيه بيـــن: الســـعادة الشخصية، والسعادة العامة، وهو يقصد كما يتضح من شرحه لهذه الآراء المختـــلفة مذهب المنفعة الفردية أو الأنانية، ومذهب المنفعة العامة. فالأول هـــو القـــائل إن الإنسان ينبغى أن يطلب أكبر لذة لشخصه، ويجب أن يوجه أعماله للحصـــول عليها. ويتوقف فى هامش ثلاث صفحات عند أكبر زعماء هذا المذهب ابيقـــور وهو بز وأتباعه. وعيب هذا المذهب من وجهة نظر أحمد أمين أنه يجعل صاحبه أثراً (أنانياً) لا ينظر فى أعماله إلا لنفسه ويذكر الاعتراضات التى وجهت إلى هذا المذهب[٣٥].

ثـــم ينـــتقل إلى مذهب السعادة العامة وبين قوسين (المنفعة العامة) ويستخدم المصـــطلحين Univoslistic Hedonism و Utiletaranism : ومـــن أكبر دعاته بنتام Bentham (١٧٤٨-١٨٣٢) وجون ستيورات مل (١٨٠٦-١٨٧٣) ويعطينا

---

(٣٥) وهو موضوع اهتم به اهتماماً كبيراً وأصدر فيه عدد من الدراسات الدكتور توفيق الطويل، راجع عنه الكتاب التذكارى الذى أصدرته كلية الآداب جامعة القاهرة ديسمبر ١٩٩٤.

هامشـــا عن كل منهما اعتمادا على سدجويك الذى اعتمد عليه بدوره تلميذه توفيق الطويل. ويتناول اللذة فى رأى النفعيين، وينقل صفحات طوال عن مل فى الغالب اعتماداً على عاطف بركات. ويذكر الاعتراضات المختلفة عليه.

ويعــرض لــلحدس تحت عنوان مذهب اللقانة، الذى يقدم تعريفه له المستمد مــن لسان العرب، ويشير المصطلح الإنجليزى الذى يذكره intuition إلى تأرجح أحمد أمين فى تحديد المصطلحات، حيث استقر هذا المصطلح - الذى يترجم أحياناً بالبصـــيرة أو الــبادهة، أو العيــان أو الــلقانة - الحــدس. وقد خصص محمود الخضـــيرى مقالة كاملة لبيان كيفية ترجمة هذا المصطلح(٣٦). وهو المذهب الذى يرى أن فى كل إنسان قوة غريزية باطنة يميز بها الخير والشر. ويقارن بينه وبين مذهبه السعادة، ويعلى من شأنه، فهو يرى أن الفضائل فضائل فى جميع الظروف. وأنها أمور بديهية، وأنها ليست محلاً للشك ويشير للفلاسفة الحدسيين مثل أفلاطون مقــابل أرسطو، والرواقيين وابكيتوس، وكانط فى العصور الحديثة الذى يفيض فى الحديث عنه.

والمذهب الرابع هو النشؤ والارتقاء" وهو مذهب أثر تأثيرا كبيرا على أغلب المثقفين المصريين فى الثلاثينات ومنهم أحمد أمين الذى اهتم به فى مجال الأخلاق كما يذكر فى كتابه "حياتى"(٣٧). ويشير إلى تطبيق سبنسر له فى الأخلاق، ويلخص إراء سبنســر (ص١٢٤-١٢٨) الذى يتخذ مقياس العمل تعديل النفس على وفق ما يحيــط بهــا مــن الظروف. ويبين أن هناك آراء أخرى فى تطبيق مذهب النشوء

---

(٣٦) محمود الخضيرى : كيف نترجم المصطلح intintion؟ مجلة علم النفس، المجلد الأول، العدد الثالث، القاهرة، فبراير ١٩٤٦.

(٣٧) يذكر لنا أحمد أمين اهتمامه الشديد بنظرية التطور (النشوء والانتقاء) ومتابعة لكل ما يكتب عنها أو يلقى فيها من محاضرات. فقد استمع إلى محاضرة للشيخ العمروسى فى أحد المحاضرات العامة لمدرسة القضاء الشرعى عن سبنسر: حياتى ص٩٦. ويقول: "شغفت أياماً بنظرية التطور لداورن فقرأت فيها كتب شبلى شميل بالعربية وبعض الكتب الإنجليزية التى تعرض للموضوع ، واعددت محاضرات فيها القيتها على طلبة مدرسة القضاء الشرعى وبعض اساتذتها بحضور ناظرها وكانت إحدى المحاضرتين فى معنى النشوء وما يرمى إليه والثانية فى تطبيق النشوء على الأخلاق كما اتجه إلى ذلك سبنسر وغيره: (حياتى ص١١٦).

والارتقـــاء وانتقادات له وأن كان لا يذكرها. ونجد التوسع فى نفس الموضوع فى كتاب توفيق الطويل "الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها".

ويخصـــص الفصـــل الـــتالى للحكم الأخلاقى (نشأته وارتقاؤه) اعتمادا على ماكـــنزى، فالحكم الأخلاقى ينمو من العادة إلى القانون، ثم يتابع نموه إلى أن يصل إلى المـــبادئ المبـــنية عـــلى النظر، وهو يتدرج من حكم على الأعمال الخارجية وحدهـــا إلى أن يصل إلى حكم على الخلق. وهو ينتقل من عادات تكونت فى بيئة خاصة إلى مبادئ عامة صالحة لكل أمة وفى جميع الأحوال (ص١٤١).

ويتوج هذه النظرية بتناول علاقتها بالحياة العملية. فنظرية المقياس الأخلاقى تختلف من حيث أثرها فى الحياة العملية (ص١٤٢) ويتوقف عند القانون الأخلاقى والقوانيـــن الأخرى، موضحاً الفروق بين القوانين الأخلاقية والوضعية. ويرى أن السعادة للإنسان فى هذه الدنيا لابد من خضوعه للقوانين المختلفة.

ويختـــتم الكـــتاب الثانى (القسم النظرى) بنظرة إجمالية فى تاريخ البحث فى الأخـــلاق ابـــتداء باليونـــان مـــنذ السوفســـطائين الذيـــن يقدم لهم صورة منصفة فالسوفســـطائى يعنى الحكيم. وهم طائفة من الفلاسفة كانوا معلمين يجمعهم غرض واحـــد، هـــو إعداد شبان اليونان ليكونوا وطنين صالحين أحراراً. يعلمون ما يجب عـــليهم لوطنهم، وقد أداهم النظر فى هذه الواجبات إلى النظر فى أصول الأخلاق. "كـــانوا أبعـــد من معاصريهم نظرا وأشدهم اجتهاداً فى إيقاظ العقول وتحررها من الأوهـــام" وهى نظـــرة موضـــوعية أكثر انصافاً للسوفسطائية من نظرة مؤرخى الفلســـفة القـــدامى والمحدثين من اليونان والعرب، وهى نفس نظرة هيجل لهم فى كتابه تاريخ الفلسفة. وقد أشار إلى ذلك أيضاً توفيق الطويل. وسقراط عنده مؤسس عـــلم الأخـــلاق، ويبين أحمد أمين أثره على المذاهب الأخلاقية المختلفة: الكلبيون والقورينائيون، ثم أفلاطون وأرسطو، والرواقيون والأبيقوريون وهو يتابع سدجويك فى ذلك وأن كان لا يذكره فى المتن ولا الهامش.

ثـــم يعـــرض للأخلاق فى القرون الوسطى (ص١٥٥-١٥٦) وعند العرب، الذيـــن لـــم يعـــرفوا فى جاهليتهم فلاسفة دعوا إلى مذاهب معينة وإنما كان عندهم

حكمـــاء وبعـــض الشعراء دعوا إلى الفضائل مثل: لقمان الحكيم، وأكثم بن سيفى، وزهيـــر بـــن أبى سلمى وحاتم الطائى. وكم كنا نتوقع أن يتوسع أحمد أمين بثقافته الأدبيـــة والتاريخية فى هذا الجانب. لكن يشير باقتضاب وينتقل سريعاً للأخلاق فى الإســـلام ويتوقف أمام البحث العلمى فى الأخلاق عندهم مؤكداً على "أن الدين كان عماد كثيرا مما كتبوا فى الأخلاق، كما نرى فى كتاب الإحياء للغزالى وأدب الدنيا والديـــن لـــلماوردى. ويذكر لنا أشهر من بحث فى الأخلاق بحثاً علمياً، الفارابى، وإخوان الصفا، وابن سينا ومسكويه. ثم الأخلاق فى العصور الحديثة. ويتوقف عند ديكـــارت[٣٨]. يذكـــر سريعاً أسماء: بنتام ومل وجرين وسبنسر وسينبوزا وهيجل وكـــانط وكـــوزان وكونت ويعتمد فى ذلك على سدجويك كما يذكر لنا (ص١٦٢) ونختـــتم هـــذا الجزء والكتاب الثانى بتقرير إنه منذ مل وسبنسر والبحث الأخلاقى قاصـــر على إيضاح هذه النظريات السابقة، أى ليس هناك إضافة جديدة فى ميدان الأخـــلاق. وإن كـــان هذا الرأى صحيح فى طبعة الكتاب الأولى فإنه خلال العقود التى تفصل هذه الطبعة الأولى عن الطبعة التى بين أيدينا (السادسة عام ١٩٥٣) نجد كـــثيرا مـــن الـــتطورات الحديـــثة فى هـــذا المجال لدى الوضعيين والبرجماتيين والوجوديـــن وأصـــحاب الاتجاهات اللغوية الانفعالية والحدسية من أمثال: جورج إدوار مـــور، وجون ديوى، وسارتر بحيث استحدثت نظريات وفروع لعلم الأخلاق ومـــناهج جديدة فى التحليل المنطقى للأحكام الأخلاقية وظهرت دراسات فى الميتا أخـــلاق meta Ethics والـــنظرية العامة فى القيمة لم يشر إليها صاحب الأخلاق. ومعظم هذه الجهود درست وعرفت فى العربية.

(٣٨) يفيض أحمد أمين فى الحديث عن ديكارت أكثر من غيره مع قلة كتاباته الأخلاقية بالقياس إلى سواه وقد أفردنا الفصل التاسع للأخلاق عند ديكارت فى كتابنا : الديكارتية فى الفكر العربى. القاهرة ١٩٩٠.

(٨)

ويتــناول أحمد أمين فى الكتاب الثالث (الفهم العملى) وحده المجتمع وعلاقة الفرد به، ويناقش مسائل هامة مثل: القانون والرأى العام، القانون والحرية، احترام القــانون، الرأى العام، وسلطانه، ثم الحقوق والواجبات ويعرض لحق الحياة، وحق الحرية. وأنواع الحريات: حرية الرأى، حرية الاجتماع والخطابة، حرية الصحافة. الحــرية السياســية وحــق المــلك، وحق التريس . ويفيض ربما بتأثير قاسم أمين وكــتابات منصور فهمى فى بيان "حقوق المرأة" وهو موضوع أخلاقى على درجة عالية من الأهمية ربما لم يعرض له فلاسفة الأخلاق، وإن ازداد الاهتمام المعاصر به وينتقل إلى الحديث عن الواجب. فيعرض لأقسام الواجبات وأهمها مثل الواجبات عــلى الإنســان لله. وواجب الإنسان لأمته (الوطنية)[٣٩]. ويذكر مظاهر الوطنية، وهى مســائل غايــة فى الأهمية لباحث أخلاقى مصرى يكتب عن الأخلاق عشية ثــورة ١٩١٩م (صــدرت الطبعة الأولى عام ١٩٢٠) فيذكر مظاهر الوطنية مثل: الدفاع عن البلاد وقف الحياة على خدمة الوطن، أداء الواجب، تشجيع المصنوعات الوطنية وتفضيلها على غيرها من الحاصلات الأجنبية (ص٢٢٠).

ويذكــر بعــد ذلك الفضائل الأخلاقية التى حددها أفلاطون وأرسطو وشغف بــالحديث عــنها الفلاسفة المسلمين مثل: الفضيلة الصدق، الشجاعة، العفة (ضبط الــنفس) العــدل. ويضــيف إليها الاقتصاء، والمحافظة على الزمن. ثم الأمراض الأخلاقية وعلاجها.

بالنســبة للفضــيلة (الخــلق الطيب) يعرض لاختلاف الفضائل، وأقسامها. ويستشــهد بالفلاســفة اليونــان: سقراط وأفلاطون وأرسطو ويفيض فى الاستشهاد بالأخيــر (ص٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١) ويعرض لنظرية الوسط فى الفضائل. ثم يختار

(٣٩) يتفق ذلك مع ميل أصيل لدى أحمد أمين فى الاهتمام بالوطنية بالمعنى العميق الجاد بعيدا عن الاهتمامات السياسية الضيقة، وهذا ما لاحظه بحق الدكتور عبدالرازق السنهورى فيما كتبه عن أحمد أمين المجاهد. انظر أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه، ص٦٨-٧٦.

بعـــض الفضائل للحديث وهي: الصدق والشجاعة. فيذكر (الشجاعة الأدبية، ويقدم أمثلة لها بابن رشد الفيلسوف، وابن تيمية الفقيه، وجاليليو العالم، وكامبانيلا الفلكي. ثـــم يتـــناول العفـــة (ضبط النفس) ويستشهد بالماردي، وسنيكا ويعرض للزهد: ويستشـــهد بجـــون ستورات مل. ثم يعرض لأهم أنواع ضبط النفس مثل : ضبط الـــنفس عن الغضب، وعن الاسترسال في النقباض والسخط، وعن الاسترسال في الشهوات الجسمية، وضبط الفكر بتركه يهيم في كل واد.

ويـــتوج الفضائل متابعاً أفلاطون بالحديث عن العدل. فهو عنده نوعان: نوع يوصــــف بــــه الفـــرد، ونوع يوصف به المجتمع أو الحكومة[٤٠]. ويعرض للعدل والمســـاواة موضحاً حجج: هوبز، جيفرسون، ثم العدل والرحمة، وبعد ذلك يتناول الاقتصـــاد مستشـــهداً بجون سيتورات مل. والمحافظة على الزمن، وأوقات الفراغ وكيـــف نقضيها. وينتهي الكتاب بالحديث عن الأمراض الأخلاقية وعلاجها. ويشير إلى الكـــتب الـــتي اعتمد عليها وأقتبس منها ليرجع إليها من شاء التوسع في العلم. وتتكون من كتب عربية وإنجليزية.

(٩)

وقـــراءة فاحصـــة لهذه المحتويات، وتلك الموضوعات التي يثيرها ويناقشها أحمـــد أمين ويدخلها في صلب نصه توضح ثقافته المتنوعة المتعددة الروافد. حيث يكشـــف نـــص الأخلاق عن طبقات عديدة في بناء أحمد أمين الفلسفي. قد لا تظهر لأول وهلة، فهذا العمل أشبه بالبناء. وقد لاحظ محمد تيمور ذلك وهو يحاول رسم "صـــورة أحمـــد أمين" الذي يصفه بالبناء العظيم، الذي يرمي دائماً من وراء سعيه إلى هدف مقصود، وذلك أن له رسالة واضحة يبتغي تجديد العقلية العربية وامدادها بما يعينها على ملاحقة الزمن في سيره الحثيث[٤١].

(٤٠) راجع أفلاطون : جمهورية أفلاطون ترجمة ودراسة د. فؤاد زكريا. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الكتاب الأول عن العدل.

(٤١) محمود تيمور : صورة أحمد أمين، في أحمد أمين بقلمه ص١٠٢.

وداخـــل بـــناء أحمد أمين نجد طبقات من الثقافة الإسلامية خاصة القرآنية . ومـــن الثقافة العربية الأدبية. وبالطبع الثقافة الفلسفية القديمة والحديثة لدى اليونان والعـــرب والمحدثيـــن. بالإضـــافة للاهـــتمام الكبير بالعلوم الإنسانية: علم النفس والاجـــتماع والعلوم الطبيعة السائدة فى عصره. وسوف نعرض لهذه الثقافات كما ظهرت فى كتاب الأخلاق.

الثقافة الدينية القرآنية والتى حصلها فى الأزهر "كان من الأزهريين القلائل الذيـــن أوتوا دقة النظر، وحرية الفكر، وسعة الأفق. فكان فى الدين صاحب اجتهاد وكان فى اللغة صاحب رأى، كان همه من الكتابة أن يقرر، وأن يقنع، لا أن يؤثر ويمـــتع. ولعل منشأ ذلك فيه أن عقله كان أخصب من خياله، وأن علمه كان أكبر مـــن فـــنه"[٤٢]. وتتضح هذه الثقافة الدينية فى عدم فصله بين الدين (الإسلام) وبين الأخلاق وتأكيده على اعتماد الفلاسفة المسلمين على الدين. وعلى عكس ما صرح بـــه بعـــض من أشاروا إلى كتابه فهو لا يترك الاستشهاد بالآيات القرآنية فى أى موضوع من موضوعات كتابه. فهو يستشهد بالقرآن فى حديثه عن أثر البيئة على الإنســـان (ص٤٧) وفى حديـــثه عن الضمير ودرجات الضمير فى القول بما يراه الإنسان حقاً (ص٨١) وفى نقده للعرف كمقياس للأخلاق (ص٩٤) فى تحليله للحكم الأخلاقى (ص١٣٧) وحين يعرض للأخلاق فى الإسلام (ص١٥٧) وفى الواجبات على الإنسان لله (ص٢١٥) وفى حديثه عن الوطنية (ص٢١٩) وحين يتناول العفة (ص٢٥٦) والعدل (ص٢٦٣). كما يستشهد أيضاً بالأحاديث النبوية فى قواعد تغير العادة حيث يذكر حديث الرسول "إنما الصبر عند الصدمة الأول" (ص٣٣).

وتتجـــلى ثقافـــة أحمد أمين الأدبية فى الاستشهاد بالشعر العربى عدة مرات وفى صفحات عديدة فهو يذكر فى حديثه عن الوراثة والبيئة قول الشاعر القديم:

---

(٤٢) أحمد حسن الزيات: أحمد أمين الأديب، المرجع السابق ص.

رأيــت العقــل عقلين فمطبوع ومصنوع[٤٣] كما يذكر قول الشاعر "إذا مت ظمــآن فلا نزل القطر" عند حديثه عن السعادة الشخصية[٤٤] وفى حديثه عن وحدة المجتمع وعلاقة الفرد به يذكر: والناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وأن لــم يشعروا[٤٥] ويذكر أشعاراً لأبى العلاء، والبارودى[٤٦] وغيرهما[٤٧] خدمة وفى تأريخــه للبحث الأخلاقى عند العرب يذكر حكماء العرب الشعراء أمثال زهير بن ســلمى وحــاتم الطــائى ويذكــر لقمان الحكيم واكثم بن سيفى[٤٨] كما يشير إلى الجاحظ[٤٩].

وعليــنا أن نقف وقفة أمام الجانب الفلسفى من ثقافته، وهو جانب غلب عليه وعــرف بــه وكتب فيه، لذا لم يجد ابناؤه استدلالاً للكتاب الذى صدر فى الذكرى الأولى لوفاتــه ســوى مخاطبته بوالدنا العزيز: عشت حياتك للفكر الخالص، توجه أبناء الأمة نحو الخير والعلم، فكنت مفكر الشرق وحكيم الإسلام، وفى نفس الكتاب كــتب الأهــوانى عــن أحمد أمين الفيلسوف، مؤكداً أنه فى كتابه الحياة العقلية فى الإســلام فيلســوفاً، فإذا كانت الفلسفة تحليل العقل البشرى، فلم يفعل أمين أكثر من ذلــك، حاول أن يلتمس العلل البعيدة التى غزت العقلية الإسلامية.. نظر إلى العقل الإســلامى فشــرحه فى حرية شديدة وانتقل من التحلل إلى الأفكار التركيبية التى انــتهت إليها العقلية حتى تحققت فى الحياة.. ويرى أنه لا غرابة فى أن يكون أحمد أميــن فيلسوفاً معاصراً موجهاً للشرق الحديث[٥٠]. وهو يؤكد فى نفسه هذا الميل

(٤٣) أحمد أمين الأخلاق : ص٥٠.
(٤٤) المرجع السابق ص١٠١.
(٤٥) المرجع السابق ص١٦٨.
(٤٦) المرجع السابق ص٢٢١.
(٤٧) المرجع السابق ص٢٧٨.
(٤٨) المرجع السابق ص١٥٦.
(٤٩) المرجع السابق ص١٧٠.
(٥٠) أحمد فؤاد الأهوانى : أحمد أمين الفيلسوف، فى أحمد أمين بقلمه.. ص٢٩-٣١.

والاتجـــاه إلى التفلسف "ومزاجى فلسفى أكثر منه أدبياً، حتى فى الأدب، أكثر ما يعجبنى منه ما عزز معناه ودق مرماه"(٥١).

وكـــتب فى "صورة من حياتى": "ومما أحس به أيضاً أننى الآن أكبر حرية فى الفكـــر، كـــثير النقد، لا اتحرج من انتقاد بعض المسائل الفقهية وما يتبعها . وأكثر ميلى هذه السنة إلى القراءة فى علمى الاجتماع والأخلاق"(٥٢). أن وصف أميـــن بالفيلسوف بدأ منذ عين فى مدرسة القضاء الشرعى حيث يخبرنا عبدالوهاب عـــزام بتسمية تلاميذ أحمد أمين له بسقراط الفيلسوف، وفى فترة لاحقة من حياتهم كانوا يعتبرونه "الشيخ الرئيس"(٥٣).

فهـــا هو يترجم كتاب "مبادئ الفلسفة" عن الإنجليزية ويكتب فى الأخلاق ويســـتند إلى المصـــادر الفلســـفية العـــربية والإنجـــليزية فى الفلسفة اليونانية، والإســـلامية والحديـــثة. يذكر السفسطائيين وينصفهم كما يذكر سقراط وأفلاطون وأرســـطو وكذلـــك الكلبيين والرواقيين والابيقوريين والقورينائيين كذلك ابن سينا والفـــارابى ومسكويه والماردى وابن طفيل والفلاسفة المحدثين هوبز وبنتام ومل وكـــانط وهيجـــل وجـــرين. وغيـــرهم يرجع للأصول العربية فى الأخلاق وكذلك النصـــوص الإنجـــليزية. وإن كـــنا نأخذ عليه عدم استقرار المصطلح أو استخدام تـــرجمات له لا تـــتفق مـــع ما استقر بعد ذلك مثل استخدام "العامل" للدلالة على "الفـــاعل" الأخـــلاقى، أو ترجمة الحدس (intintion) بمذهب اللقانة. وأيضاً عدم التفرقة الدقيقة بين مذهب المنفعة والسعادة واللذة حيث يستخدمهم بمعنى واحد.

وبالإضافة للثقافة الدينية والأدبية والفلسفية فإن ما يميز كتاب أحمد أمينن فى الأســـاس الاعتماد الشديد على العلم والثقة بقوانينه. يتضح ذلك فى اختياره اسم علم الأخلاق واستخدامه بدلاً من فلسفة الأخلاق وتأكيده على علمية وموضوعية علوم

(٥١) أحمد أمين : حياتى، ص٣٤١.
(٥٢) أحمد أمين : أحمد أمين بقلمه، ص٦.
(٥٣) المرجع السابق، ص٨١.

الـــنفس والاجـــتماع وثبات قوانينهم، بل وتأسيسه لكثير من الآراء عي ما أحرزته العـــلوم الطبيعية من تقدم خاصته فى مجال الإحياء بتأثير نظرية داروين ومشايعته لـــتطرية النشـــوء والارتقـــاء والتطـــبيق الأخلاقى لها. وتأكيده على دور الدوافع والغرائز والوراثة والبيئة على سلوك وأخلاق الإنسان.

لقد تشابكت وتضافرت هذه الثقافات التى شعلت بها الحياة الفكرية فى مصر سواء فى الأزهر أو مدرسة القضاء الشرعى أو الجامعة أو الكتابات المختلفة التى يقدمها الكتاب وتغلغلت فى فكر أحمد أمين عبر مصادر متعددة وظهرت فى نسيج مـــتميز فى عمـــل لم يلتف إليه الباحثون بصورة كافية هو كتاب الأخلاق. وإذا كنا نتفق مع طه حسين فى قوله أن أحمد أمين صورة صادقة لوطنه الخالد، فإنه يمكننا أن نقـــول أن كتاب الأخلاق مرآة لثقافة أحمد أمين بمختلف فروعها وروافدها التى هى فى نفس صورة للثقافة فى مصر فى هذه الفترة.

توفيق الطويل:

ودراسات القيم فى العربية (١)

يرتبط التنقيب فى تاريخ علم الأخلاق، وتحليل واقع الدراسات الأخلاقية فى العـــربية، وتصنيف الاتجاهات الأخلاقية المختلفة التى عرفت طريقها إلى الكتابات العـــربية، باســم الدكـــتور توفيـــق الطويـــل رائد هذه الدراسات ، وواضع أسسها المـــنهجية، وصـــاحب الأبحاث العديدة فى الأخلاق نشأتها، وتطورها، والاتجاهات العقلانية والتجريبية فى الفلسفة الأخلاقية.

والســـؤال الـــذى تطرحه هذه الدراسة هو؛ إلى أى مدى يعد توفيق الطويل فيلســـوفاً أخلاقيـــاً؟ وليس المقصود بالسؤال هنا نفى أو إثبات علاقة الرجل الوثيقة بالدراســـات الأخلاقية، بل المقصود بيان مكانة الدراسات المتعلقة بالقيم والأخلاق فى كتابتها توفيق الطويل ، وذلك ببيان إسهاماته فى إطار الكتابات الفلسفية العربية المعاصـــرة، ويســـتلزم ذلـــك تناول هذه الإسهامات فى سياقها التاريخى وظروف كـــتاباتها، وهـــل كانت هذه الإسهامات نتيجة اهتمام علمى أكاديمى خالص أو أنها ترتـــبط بظـــروف العصـــر فى الأربعيـــنيات ومـــا كانت تمر به الحياة السياسية والاجـــتماعية والاقتصـــادية والفكرية فى مصر إبان الثلاثينيات (معاهدة ١٩٣٦) والأربعيـــنيات (الحرب العالمية الثانية) والخمسينيات (الثورة المصرية)، وهل هذه الكـــتابات ترجمة ونقل ، أو صياغة جديدة لكتابات فلسفية مبنية على نسق الكتابات الغـــربية موضوعاً، ومنهجاً، وتبويباً، وغاية، أو أن كتابات الطويل اختطت لنفسها مـــنهجاً وغاية فى التاريخ للفكر المصرى فى مجالات متعددة، ونفس الأمر بالنسبة للكـــتابات الأخلاقية التى تجاوزت إسهام السابقين عليه فى الثقافة العربية. ويتضح ذلـــك بمقارنة ما قدمه مع الكتابات القليلة التى سبقته فى العربية. وعلى ذلك يكون الســـؤال عن دور وجهود، وإسهامات الطويل فى تطوير دراسة القيم والأخلاق فى

---

(١) ظهر هذا الفصل فى الكتاب التذكارى الذى أصدرته كلية الآداب جامعة القاهرة تكريماً للأستاذ الدكتور توفيق الطويل عام ١٩٩٥.

العربية. وهل مارست بلغة ميشيل فوكو قطيعة مع الدراسات السابقة عليه، ودشنت عصـــراً جديـــداً فى الكتابات الأخلاقية أو دارت فى الإطار القديم المتعارف عليه، والـــتى اختلطت فيه علم الأخلاق مع الفضائل الأخلاقية والخلق والعبر والمواعظ، وإذا مـــا كـــانت كتابات الطويل الأخلاقية تختلف عما هو سائد فى العربية، وهى مسألة يمكن حسمها عن طريق الدراسة التاريخية، والمقارنة مع ما هو معاصر لها أو ســـابق عـــليها، فهل كتاباته الأخلاقية، أعنى ما طرحه الطويل من تصور لعلم الأخـــلاق، طبيعـــته، وتعـــريفه، اتجاهاته المختلفة: المثالية فى صورها المتعددة، اليونانيـــة والوسيطة والحديثة، العقلية، والتجريبية، سواء تمثلت فى مذاهب اللذة، أم المـــنفعة، أم الـــتطور، والأحكام الأخلاقية، والفعل الأخلاقى، وهل هى إضافة لما قدمـــه فلاسفة ومؤرخو علم الأخلاق؟ أو نقل للنظريات الأخلاقية الغربية التى تقدم لـــنا عـــلم الأخلاق الكلاسيكى، أو أن جهد الدكتور الطويل لم يتوقف عند مستوى فلســـفة الأخـــلاق وعرض الدراسات والاتجاهات التى تسود هذه الفترة فى أوربا؛ وأعـــنى بها الاتجاهات التحليلية، والوضعية ، واللغوية فى تحليل الأحكام والأقوال ونقـــد التصورات الأخلاقية، أو ما يطلق عليها "الميتا أخلاق"؟ وهل توقف الأستاذ بجهـــوده فى الفلسفة الأخلاقية عند نظريات علم الأخلاق؟ أو تناول الأخلاق كجزء مـــن الاتجـــاه المعاصر الذى نشأ فى نهاية القرن التاسع عشر وازدهر فى العقول الأولى مـــن هذا القرن العشرين باسم نظرية القيم، أو علم القيم. وتبلور فيما أطلق عـــليه "النظرية العامة للقيمة"، وهل كانت القيم عند الطويل امتداداً للأخلاق، بمعنى المـــثل والمـــبادئ الأخلاقيـــة العـــليا، والتى تندرج بالتالى فى نطاق علم الأخلاق التقـــليدى، أو أنها نظرية عامة تندرج فيها فلسفة الأخلاق باعتبارها أحد فروعها؟ كـــل هذه الأسئلة وغيرها تثار فى ذهن الباحث حين تصدى لدراسة توفيق الطويل، ودوره فى دراســـات القيـــم فى العـــربية، باعتـــبار الأستاذ المعلم رائداً من رواد الدراســـات الأخلاقية فى العربية، ودراسة جهوده هى فى نفس الوقت، وبشكل من الأشكال دراسة للاتجاهات الأخلاقية فى العربية، ودورنا هنا هو بيان إسهام توفيق الطويل فى سياقه التاريخى، ليس بالنسبة للسابقين عليه فقط، بل بالنسبة لمعاصريه، واللاحقين عليه.

أولاً : الكتابات الأخلاقية قبل الطويل :

إن ما قدمه الطويل من جهود وكتابات متعددة فى مجال فلسفة الأخلاق يمثل مرحلة ريادة وتأسيس للدراسات الأخلاقية؛ يتضح ذلك بالنظر إلى الدراسات السابقة عليه التى يهمنا أن نشير إليها بإيجاز مقارنين إياها بجهود الأستاذ ، ويأتى فى مقدمة هذه الدراسات محاضرات الجامعة الأهلية فى مصر، حيث كانت دراسة الأخلاق أحد التخصصات الرئيسة التى تدرس ضمن دروس الفلسفة، والتى قام بتدريسها على التوالى كل من: سلطان بك محمد[٢]، وطنطاوى جوهرى[٣] فى مادة "الفلسفة العربية والأخلاق" والتى طبعت بعد ذلك بنفس الاسم.

وقد قام الأستاذ الأسبانى الكونت دى جلارزا بتدريس هذا التخصص فى إطار تاريخ الفلسفة، حيث حاضر فى الأخلاق فى العام الدراسى ١٩١٨-١٩١٩ عن "بطلر" الأسقف الإنجليزى صاحب "مذهب الضمير"، وعام ١٩١٩-١٩٢٠ عن الفيلسوف الألمانى كانط صاحب "مذهب الواجب". والذى قام بتحليل واف لكتابه نقد العقل العملى، بشكل يكاد يكون أقرب إلى الترجمة الحرفية. وكان جلارزا أكثر ميلاً للاتجاهات المثالية فى فلسفة الأخلاق كما يتضح من الموضوعات التى قام بتدريسها من جهة وتقديمه لدروسه من جهة ثانية[٤].

وكان لترجمة أحمد لطفى السيد لكتاب أرسطو "علم الأخلاق إلى نيقوماخوس[٥] عن ترجمة سانتهلير الفرنسية للنص اليونانى أثر كبير ليس فقط فى تدعيم الدراسات الفلسفية، بل أيضاً فى توجيه الانتباه إلى الاتجاه العقلانى فى دراسة الأخلاق مما دفع بعضاً من صفوة المثقفين إلى تناول اتجاهات أخلاقية

---

(٢) سلطان بك محمد : الفلسفة العربية والأخلاق، وهو ملخص المحاضرات التى ألقاها فى الجامعة المصرية. (الجزء الثانى فى الأخلاق)، مطبعة المعارف، القاهرة ١٣٢٩هـ.

(٣) طنطاوى جوهرى : الفلسفة العربية والأخلاق. محاضرات الشيخ الحكيم فى الجامعة الأهلية، إعداد الدكتور أحمد عبدالحليم عطية (تحت الطبع).

(٤) الكونت دى جلارزا: محاضرات الأخلاق فى الجامعة الأهلية، إعداد وتقديم الدكتور أحمد عبدالحليم عطية. (تحت الطبع).

(٥) أرسطوطاليس: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة أحمد لطفى السيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤.

أخرى غير أرسطية كما فعل إسماعيل مظهر فى كتابه "فلسفة اللذة والألم"[٦] وقيمة جهـد لطـفى السـيد لا تتمثل فقط فى ترجمته لكتاب أرسطو، بل فى تلك المقدمة الطويلة التى صدر بها الكتاب.

ومقابل محاضرات الجامعة الأهلية التى تغلب عليها النظرة التقليدية للأخلاق باعتـبارها وسيلة لترقية السلوك، وترجمات لطفى السيد التى تقدم لنا نصاً من أهم نصـوص فلسفة الأخلاق عند اليونان تقدم لنا محاضرات أندريه لالاند فى الجامعة المصـرية، خاصـة القسم الثانى منها فى "القيم" والذى ترجمه إلى العربية يوسف كـرم عـن "نفسية الأحكام التقويمية"[٧] والتى تضم ستة دروس هى على التوالى: الأحكـام الـتقويمية والأحكام التقريرية، وتنوع الأحكام التقويمية ووحدتها، ثم القيم والحيـاة الفـردية (الـدرس الثالث والرابع) والقيم والحياة الاجتماعية. حيث ينقلنا لالاند، الذى عرف جيداً فى العربية من مجال الأخلاق إلى أحكام القيمة[٨].

ويكتب لنا توفيق الطويل فى مقدمة ترجمته لكتاب هنرى سد جويك "المجمل فى تاريخ علم الأخلاق" عن وضع الدراسات الأخلاقية فى مصر قبل تقديم كتاباته. فقـد كـتب أحمد أمين عن الأخلاق كتابه الكبير عام ١٩٣٠ والصغير ١٩٣٣ [٩]، والكـتيب الـذى وضـعه الأستاذ محمد يوسف موسى فى هذا الصدد[١٠]. وكتاب

---

(٦) إسماعيل مظهر : فلسفة اللذة والألم ، أرسطبس وشيعته أصحاب المذهب القورينى، مطبوعات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٦.

(٧) آندريه لالاند : محاضرات فى الفلسفة، ترجمة أحمد حسن الزيات ويوسف كرم، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٢٦.

(٨) عرف آندريه لالاند Lalande ١٨٦٧-١٩٦٣ فى العربية، حيث ترجم كتابه "العقل والمعايير" ترجمتين، إحداهما للدكتور عادل العوا، وصدر عن جامعة دمشق عام ١٩٦٦، والأخرى للدكتور نظمى لوقا، وصدر عن الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٧٩ وترجم له الدكتور عبدالرحمن بدوى فى كتاب بنروبى: تيارات الفلسفة المعاصرة فى فرنسا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٠، والجزء الثانى ص٨٤-١١٥ وخصص له الدكتور زكريا إبراهيم أحد فصول كتابه دراسات فى الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر ١٩٦٨ ص١٠٥-١٢٠.

(٩) أحمد أمين: الأخلاق، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (الطبعة السادسة، ١٩٥٣)

(١٠) محمد يوسف موسى وله عدة كتب هى : تاريخ الأخلاق، مطبعة أمين عبدالرحمن، القاهرة، ١٩٤٠، وفلسفة الأخلاق فى الإسلام وصلتها بالفلسفة الإغريقية، مطبعة الأزهر، القاهرة،

آندريه كريسون Andre Cresson وهو كتاب بسيط ترجم شطراً منها إلى العربية د. عبدالحـليم محمود وأبو بكر ذكرى تحت عنوان "المشكلة الأخلاقية والفلاسفة"(١١) وما عدا ذلك لا يعدو أن يكون مجرد آراء شخصية فى الأخلاق(١٢).

تـلك هى صورة الدراسات الأخلاقية السابقة على جهود الأستاذ، وقد اطلع عـليها بـلا شك، صحيح أنه لم يذكر لنا سوى بعضها، لكنه بلا شك عرفها جيداً، وتظهـر لنا كتاباته عمق هذه المعرفة. كما تظهر لنا الاختلاف الكبير بين ما قدمه وبيـن سـابقيه، ويتضـح لـنا ذلك باستعراض جهوده، ومناقشة وضعها بالنسبة للدراسـات المعاصرة والتالية لها. ويقتضينا تناول دراسات الأستاذ تحديد أساسين لهذا التناول: الأول وضعها فى السياق التاريخى لها حيث ترجم "المجمل فى تاريخ عـلم الأخـلاق عـام ١٩٤٩ وكـتب عن "المثل الأعلى بين الشهوة واتباعها"(١٣) "والعقـليون والتجريـبيون فى فلسـفة الأخلاق"(١٤) وعن مذهب المنفعة العامة فى "فلسـفة الأخـلاق" ١٩٥٣(١٥) ثـم "فلسـفة الأخلاق نشأتها وتطورها" وهو عمله الأساسـى"(١٦)، و"جون ستيورات مل" (١٧) ويتضح من تواريخ إصدار كتب الطويل أن إنتاجه الأخلاقى بدأ بعد الحرب العالمية الثانية، ومع قيام الثورة المصرية، ومع تحولاتها بعد ١٩٥٢.

١٩٤٢، ومباحث فى فلسفة الأخلاق، مطبعة الأزهر، ١٩٤٣، وانظر عنه الفصل السادس من كتابنا "الأخلاق فى الفكر العربى المعاصر"، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩ ص ١٣٢ وما بعدها.

(١١) آندريه كريسون : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة: ترجمة د. عبدالحليم محمود وأبو بكر ذكرى.

(١٢) د. توفيق الطويل: مقدمة ترجمة كتاب هنرى سد جويك: المجمل فى تاريخ علم الأخلاق. دار نشر الثقافة بالإسكندرية، ١٩٤٩، ص٣٨.

(١٣) د. توفيق الطويل : المثل الأعلى بين وأد الشهوة واتباعها، مجلة علم النفس، يوليو، ١٩٥٢.

(١٤) د. توفيق الطويل : العقليون والتجريبيون فى فلسفة الأخلاق، مجلة كلية الآداب، العدد الأول، المجلد ١٤، مايو ١٩٥٢.

(١٥) د. توفيق الطويل: مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٣.

(١٦) د. توفيق الطويل : فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، دار النهضة العربية، القاهرة.

(١٧) د. توفيق الطويل: جون ستيورات مل، دار المعارف بمصر، د. ت.

والأســاس الــثانى - بيان منزلة كتاباته الأخلاقية فى إطار إنتاجه الفلسفى الــذى بــدأ مبكراً منذ ١٩٣٦. وبناء على هذين الأساسين يمكننا تناول وتحليل هذه الجهود انطلاقاً من تلك الأسئلة التى طرحناها فى صدر البحث.

ثانياً : السياق التاريخى لكتابات الطويل :

يســتطيع المتتبع لجهود وكتابات توفيق منذ شبابه حتى آخر ما سطرّه قلمه مــن كــتابات، وهو كتاب "الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية" [١٨] أن يبصر تنوعاً وتجدداً فى طبيعة ونوعية هذه المؤلفات فقد بدأ بالكتابة الأدبية، وقضايا النقد الأدبى مــنذ الثلاثينيات فى مجلة النهضة الفكرية وغيرها[١٩]، ثم تحول إلى نوعية مــن الكــتابات الأدبية التاريخية التى تسيطر عليها النظرة الفنية الأخلاقية[٢٠] التى تــبرز العقلانية، وقيم المحبة، والتسامح، والعدالة كما نجد فى كتبه : "قصة الكفاح بيــن روما وقرطاجنة"، و"قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام"، و"قصة الــنزاع بين الدين والفلسفة"، ثم ظهر امتزاج النزعة العقلانية بالنزعة التاريخية مع الدراســة الاجــتماعية فى دراساته فى التصوف، وأذكر هنا كتابيه: "التصوف فى مصــر إبــان العصر العثمانى"، و"الشعرانى إمام التصوف فى عصره". يلى ذلك اهــتمامه بمجــالين أساسيين شغلاه فى هذه الفترة هما؛ الفلسفة العامة التى قدم لنا فيهــا: "مشــكلات فلسفية" بالاشتراك، وعمله الكلاسيكى "أسس الفلسفة" الذى صدر مــنه فى حيــاة صاحبه ثمانى طبعات، والمجال الثانى هو العلم وتاريخه ومنهجه:

---

(١٨) د. توفيق الطويل: الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٠.

(١٩) كتب الدكتور الطويل عدة دراسات فى مجلة النهضة الفكرية، تدور حول أدب عبدالقادر المازنى، وأصول كتاباته، وسرقاته الأدبية، وثارت قضايا عديدة بينه وبين أدباء عصره، كما كتب فى العديد من المجالات، والجرائد السيارة، مثل مجلة الحسان، ومجلة البنات، وترجم فى مجلة الصباح قصة "الحب الخالدة" لتوماس كارو، وكذلك فى مجلة الرسالة، وكوكب الشرق عن "الضاحك الباكى" لمؤلفه فكرى أباظة، وفى "البيت والشارع" لمؤلفه محمود كامل، و"الورد الأبيض" لمؤلفه محمد أمين حسونه وغيرها.

(٢٠) راجع دراسة د. سيد العشماوى : النظرة الفنية الأخلاقية لوظيفة التاريخ، تصورات أولية فى بعض كتب توفيق الطويل، الكتاب التذكارى الذى أصدرته كلية الآداب عن توفيق الطويل، القسم الأول.

حيـث كـتب عن: "الاستقراء العلمى" عام ١٩٥٥، و"عن العرب والعلم فى عصر" الإسلام الذهبى"، و"خصائص التفكير العلمى بين تراث الغرب والغربيين"، و"لقطات عـلمية مـن تاريخ الطب العربى"، و"العلم وتحديات العصر"، و"أثر الفكر العربى الأوربى فى عصـر الإسـلام الذهبى"[٢١]. كل هذه الكتابات كانت تمهيداً لاهتمامه الأساسـى وتخصصه العلمى الذى عرف به فى مجال الأخلاق والقيم الذى بدأ منذ عام ١٩٤٩ واستمر معه حتى النهاية.

الحقيقـة الـتى نود أن نؤكد عليها هنا، بعد أن استعرضنا فى لمحة تاريخية الجهـود السـابقة عـليه فى مجال دراسة الأخلاق، وأوضحنا تطور اهتماماته من الكـتابة الأدبية ثم التاريخية ثم الفلسفية العامة ثم الأخلاق، وأن الكتابات الأخلاقية عـند توفيق الطويل لديه ارتبطت بميل نحو المشاركة فى القضايا العامة التى شغل بها المواطن والمثقف والسياسى المصرى فى هذه الفترة من تاريخنا القومى.

فقـد شارك فى العمل الثقافى فى داخل الجامعة من خلال عقد لقاءات ثقافية مع كبار الأدباء أمثال : العقاد، سلامة موسى، مى زيادة، أنطون الجميل، وغيرهما كمـا أسهم فى حركة النشر بتأسيس لجنة الجامعيين للنشر، التى أصدر من خلالها بعـض كـتاباته الأولى. وقد شغل فى الثلاثينيات ونفر من أبناء مصر المخلصين بالأزمة الاقتصادية التى مرت بها البلاد بالدعوة إلى التحرر الاقتصادى من سيطرة رأس المـال الأجنـبى، واتخذوا لدعوتهم اسم "عيد الوطن الاقتصادى"، وكتب عن "صـيحة الوطنية فى شتى الدول" فى العدد الثانى بمشروع عيد الوطن الاقتصادى فى مجـلة كـل شىء سنة ١٩٣٣، وكذلك عن "الجهاد، ونهضة وعبث" فى كوكب الشـرق صـفحة خاصة بعيد الوطن الاقتصادى، واستمر توفيق الطويل فى العمل العـلمى، والعمل الثقافى العام طوال حياته، حيث شارك بدراسات عديدة فى الثقافة الوطـنية بصفته مقرراً فى لجنة الثقافة والاجتماع بمجمع اللغة العربية، وبالمجلس الأعـلى للـثقافة. وبصـفته عضـواً بالمجلس القومى للثقافة فى المجالس القومية المتخصصـة، وكـتب العديـد من الدراسات حول "علاقة الشعب بالحكومة وكيف ينبغى أن تكون؟" "كيف ينبغى أن يكون تكوين المواطن العربى؟" و"المكتبات العامة

(٢١) والدراسات الأخيرة نشرت فى مجلة عالم الفكر الكويت على التوالى فى المجلد الثالث، الأول من المجلد الخامس، والرابع من المجلد السادس.

فى أقـــاليم مصـــــر".. "والـــثقافة فى الجامعــــة كيف ينبغى أن تكون؟" ودور الدين والأخـــلاق فى بـــناء الـــثقافة فى مصر المعاصر"[٢٢] وغيرها. هذا الاهتمام وهذا الإســـهام فى العمـــل الـــثقافى تجعـــلك تشعر بأنه أراد أن يكون سياسياً فقنع بدور المشرع، وأراد أن يكون مصلحاً فقنع بدور الأخلاقى، وأراد أن يكون زعيماً وطنياً اختار لذلك طريق البحث العلمى الأكاديمى فى مجال الأخلاق، ويلخص لنا ذلك ما كتـــبه الشيخ الأكبر مصطفى عبدالرازق فى قوله يصف تلميذه توفيق الطويل: "إذا تكـــلم كـــان خطيباً وكان يعده للتأثير الخطابى صوت خلاب وسمت جذاب، وذكاء وثـــاب.. وبعد عمله بالجامعة قال عنه "لا يزال صاحبنا حيياً ذكياً لكنه ليس خطيباً همـــه أن يهـــز المشاعر ويحرك أعواد المنابر، ولكنه باحث مدقق يريد أن يصل بعقلـــه إلى بواطن الأمور، وظواهرها، وأوائلها، وأواخرها وهو يعتمد على العقل صرفاً، ويريد أن يؤثر فى عقول الناس لا فى قلوبهم"[٢٣].

وفى إطـــار هذين المستويين: العام الذى يؤثر فى الناس، والمستوى العلمى الأكـــاديمى القـــائم عـــلى الـــبحث العقلى كان توجه توفيق الطويل إلى الدراسات الأخلاقيـــة التى جمعت كل سمات تفكيره وكتاباته، هذه السمات التى لم تشمل فقط كمـــا يذكـــر محمـــد فـــريد أبـــو حديد: دقة فى البحث ونفوذاً فى النظر وأناقة فى الأســـلوب"[٢٤] بـــل أيضـــاً عقلانية متحررة، ونزعة تاريخية واضحة، وميل إلى الدراسة الاجتماعية، ومثالية فلسفية ذات توجه أخلاقى لا تخفى على الباحث المدقق ولا المثقف العام، فهو الرائد الأول للدراسات الأخلاقية فى العالم العربى، والريادة هنا لا تعنى الأسبقية الزمانية بل الجهد الدائم والمتواصل فى مجال فلسفة الأخلاق.

ودورنـــا هـــنا ليس التأكيد على اهتمام توفيق الطويل بالدراسات الأخلاقية، ولكـــن على طبيعة فهمه لنوعية هذه الدراسة، ومجالها، ومنهجها، وهل تنتمى إلى مجـــال الأخلاق Ethics أو فلسفة الأخلاق Moral Philosophy أو شملت التطورات الحديـــثة التى تدور حول دراسة التصورات الأخلاقية، وتحليل النظريات المختلفة

(٢٢) وقد ظهرت بعض هذه الدراسات فى كتابه: قضايا من رحاب الفلسفة والعلم، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.
(٢٣) الشيخ مصطفى عبدالرازق، تصدير كتاب الأحلام، للدكتور توفيق الطويل.
(٢٤) محمد فريد أبو حديد ، مقدمة كتاب قصة الكفاح بين روما وقرطاجة، للدكتور الطويل.

في الأحكـــام الأخلاقيـــة، ولغة الأخلاق، أو ما يعرف mete Ethics تلك الاتجاهات الـــتي يدرجهـــا في إطار علم الأخلاق، أو الاتجاهات التجريبية في الأخلاق، وهل دراســـة الطويـــل في فلســـفة الأخـــلاق تنتمي إلى مجال القيم أم الأخلاق، هذا ما يســـتدعي مـــنا عـــرض جهود الأستاذ لبيان إسهاماته، وتحليلها، وبيان موقفها من دراســـات القيـــم في العـــربية التي نشأت في معظم الأحوال انطلاقاً منه، وتطويراً لآرائه ، أو نقداً له، ورداً عليه.

ثالثاً : دراسات الطويل بين الأخلاق والقيم :

لقـــد بـــدأ الأســـتاذ دراســـاته الأخلاقيـــة بـــتقديم وترجمة كتاب سد جويك H.Sidqurick "المجمل في تاريخ علم الأخلاق" في نهاية الأربعينيات، واقتصر على تقديـــم الجـــزء الأول منه(٢٥). والحقيقة أن هذا العمل يقدم لتوفيق الطويل الخطوط العامـــة الـــتي ستتضح فيما بعد في دراساته الأخلاقية؛ خاصة في عمله الأساسي "فلســـفة الأخلاق نشأتها وتطورها"، ذلك لأنه في ترجمته للمجمل في علم الأخلاق يســـتفيض في بيـــان بعـــض الجوانـــب التي لم يذكرها سد جويك بالتفصيل، وهي الاتجاهات الاجتماعية الفرنسية، والنفعية والإنجليزية التي قسمت اتجاهات الأخلاق إلى قسمين كبيرين هما "العقليون والتجريبيون"، "الطبيعيون والمثاليون" وهو الخيط الـــذي يســـري في كل كتاباته، ويمثل ثنائية حادة أشبه بتلك الثنائية التي أشار إليه هوســـرل والتي شطرت الوعي الأوربي إلى شطرين سعى كانط والفلاسفة التاليين عليه، وهيجل إلى تجاوزها، وزعم صاحب الفينومينولوجيا أنها اندمجت في فلسفته بيـــنما تـــركها صـــاحب المـــثالية المعدلة كما هي ثنائية حادة تشمل تاريخ الفلسفة والأخلاق.

وإذا كـــان الطويـــل قد تبنى ما أطلق عليه المثالية المعدلة، والتي تقوم على الاعـــتراف بمبادئ نظرية مشتركة بين البشر، متمثلة بالاستعدادات والغرائز القابلة للـــتوجيه بفعـــل العقل الذي يشكل القيم، والمعايير المطلقة، التي تبنى عليها فلسفة الأخلاق. ومن هنا شعر الدكتور الطويل في أعماق نفسه، التزامه بموضوعية أعلن

(٢٥) هنري سد جويك : المجمل في تاريخ علم الأخلاق، ترجمة د. توفيق الطويل بالاشتراك، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، ١٩٤٩.

عنها، وعقلانية تبناها، نهجاً علمياً محايداً أن يقدم لنا الطرف المقابل لوجهه نظره، والـذى تمـثل فى الاتجاهـات المضادة للمثالية، والتى أفرد لها مساحة واسعة من أبحاثـه، مثـلما فعـل فى مقدمـة ترجمـته لكتاب جويك فيما كتبه عن المدرسة الاجـتماعية أو النفعية، والتى خصص لها دراسة مستقلة عام ١٩٥٣. والتى كتبها بعـد عودته من إنجلترا ويغلب عليه التعمق فى الاتجاهات الإنجليزية والأمريكية. فهـو يقسم عمله إلى ثلاثة أبواب يتناول فى الأول مقدمات النفعية عامة، ومذهب الـلذة الأنانى، ومن الأنانية الفردية إلى المنفعة العامة فى الباب الثانى، كما ظهرت لـدى أعلامها الإنجليز، بنثام وجون ستيورات مل الذين مثلاً نموذجاً حاول توفيق الطويل اتباعه فهما من رجال القانون والتشريع، والإصلاح، والأخلاق، وفى الباب الـثالث يعـرض أهـم صور النفعية واتجاهاتها المختلفة: اللاهوتية، والبراجماتية العمـلية عند ديوى، والنفعية المعاصرة فى القرن العشرين، ويختتم دراسته بمناقشة نقديـة واضـعاً "النفعية فى الميزان" ناقداً توحيد النفعيين بين اللذة والسعادة رافضاً القول باللذة كمعيار للسلوك الإنسانى ومعيار للأحكام الخلفية(٢٦).

وتكـتمل دراسـته للاتجاهـات المخالفـة لمثاليته المعدلة بكتابه عن جون سـتيورات مـل الـذى يكمـل دراسته عن مذهب المنفعة العامة. ويقف عند هذا الـتعارض وتـلك المفارقـة التى تميز علم النفعية، حيث يرجع تفرده عن أسلافه ومعاصـريه إلى إيـثارة مصـلحة المجموعة حين تتعارض مع مجمل مذهبه فى الـنفعية ويـبين أن إسهام مل الحقيقى يتمثل فى جانبيين الأول: النظر إلى المفاهيم الأخلاقية نظرة طبيعية بمعنى أنها مستمدة من الخبرة الحسية.

والـثانى : جعـل علم الأخلاق فرعاً من العلم الطبيعى، موضحاً أهم ما فى فلسـفته الأخلاقيـة مـن جوانب جديدة،، وهو الانتقال من منفعة الفرد إلى منفعة المجموع ويناقش مذهب مل، وينتقده(٢٧).

---

(٢٦) د. الطويل: مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٣.

(٢٧) فهو حين يتحدث عن تفرد مذهب مل يذكر لنا كيف اخطأه التوفيق فى التدليل على صحة دعواه (ص٩٠) ويشير إلى مسألة احتواء بعض صفحات كتبه على أغاليط منطقية وأخطاء أخلاقية (ص٩٩) ويبين مواضع الضعف فى مذهبه (ص١٠٤) توفيق الطويل: جون ستيورات مل، دار المعارف، القاهرة. د. ت.

الاتجاهـات النفعية إذن تمثل الاتجاه الرئيسى الثانى فى الدراسات الأخلاقية (الاتجاهـات التجريـبية) مقـابل الاتجاهات العقلية المثالية. هذان الاتجاهان اللذان يظهـران فى كـل دراسـاته الأخلاقيـة ويتجليا بأوضح صورة فى كتابه "فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها". وهذا العمل الأساسى لتوفيق الطويل يتكون من كتابين: الأول "فلسـفة الأخلاق عند القدماء"، ويدور الكتاب الثانى على "فلسفة الأخلاق عند المحدثين والمعاصرين" سواء فى اتجاه الواقعين أم المثاليين والاتجاه الحدسى عند المحدثين، ومذهب الحاسة الخلقية، والضمير الأخلاقى عند بطلر، مبدأ الواجب فى فلسـفة كـانط (المـثالية الكلاسيكية) ثم المثالية المحدثة، وأخيراً يعبر عن مذهبه الخاص الذى أطلق عليه "المثالية المعدلة".

والـذى يحدده لنا فى مقدمة الطبعة الأولى للكتاب بقوله: "واضح من جميع تعقيباتـنا أنا مع تقديرنا البالغ لمذاهب التجريبيين والوضعيين وأمثالهم ندين بالولاء لـنوع جديد من المثالية الأخلاقية المعدلة التى برئت من التزمت المقيت، وتحررت مـن قيود النزعة الصورية التى شابت المثالية الكانطية المتطرفة فتمثلت فى تحقيق الـذات بإشـباع جميع قواها الحيوية فى غير جور على قيم المجتمع، أو استخفاف بمعاييـره فالإنسان فى هذه المثالية يبدو كلا متكاملاً يجمع بين العقل والحس فى غيـر تصارع ينتهى بالقضاء على أحدهما[٢٨] ويخصص الفصل الأخير من كتابه لتوضيح مفهوم المثالية المعدلة الذى ينطلق من مثالية كانط الأخلاقية أساساً متفاديا الانتقادات المختلفة التى وجهت إلى فلسفته.

وهى تقـوم عـلى تحقيـق الذات بكل قواها الحيوية، وهذا التحقيق يتطلب الإلمـام بحقيقـة الطبيعة البشرية، ومعرفة إمكانياتها، ووضع مثل أعلى رفيع يكفل وحدتهـا، ويعمق تكاملها وفى ظله يشبع الإنسان قواه جميعاً الحسى منها والروحى بهدايـة العقل وإرشاده، ويزول العداء التقليدى بين توكيد الذات ونكرانها إذ يخلص الفـرد لواجبه نحو نفسه فى الوقت الذى يدين فيه بالولاء للمجتمع الذى ينتمى إليه، وبذلـك يتصـل الفـرد بكمـال المجمع،، وتقترن السعادة بالفضيلة دون أن تكون إحداهما ضحية للأخرى.

---

(٢٨) د. توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، دار النهضة العربية ط٣ القاهرة ١٩٧٦ ص٢٣، ٢٤.

يؤســـس الطويل مذهبه على نتائج الدراسات السيكولوجية الحديثة التى تشهد بصـــحة الأســـس التى أقام عليها مثاليته المعدلة[٢٩] ويعتمد خاصة على مادفليد فى كتابه سيكولوجيا الأخلاق Psychplpgy of Morale[٣٠].

يتضـــح لـــنا مما سبق اهتمام الدكتور الطويل بالتأريخ للأخلاق، والمذاهب، والنظريات الأخلاقية، التى يردها إلى اتجاهين أساسيين: المثالى والطبيعى، ويتبنى وجهـــة نظـــر تســـعى لتطوير المثالية الأخلاقية الصورية المتزمتة عند كانط إلى المثالية المعدلة. أى أنه يدور فى إطار "فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها". وتلك هى الصـــورة التقليدية المعروفة عنه، والتى ينتقدها البعض بأنها نقل ومتابعة للأخلاق الغربية. وعلى الرغم من أن الدراسة الفلسفية للأخلاق لا يمكن وصفها بأنها غربية أو عربية، مسيحية أو إسلامية. إلا أن الرجل لم يسلم من وصف البعض له بالتبعية للغرب[٣١].

فإنـــنا هـــنا لـــن نتخذ موقف الدفاع عنه، لأننا لا نعترف بعنصرية العلم أو لاهوتيته، إلا أن كتابات الأستاذ المختلفة لا تخلو من بحث عميق فيما قدمه فلاسفة الأخـــلاق المســـلمين مـــن إسهام فى عديد من القضايا الأخلاقية مثل : حديثه عن الإلـــزام الخـــلقى عـــند علماء اللاهوت فى الغرب وأهل السلف فى الإسلام، وعند أفلاطونيى كمبردج والمعتزلة[٣٢] ونفس الموقف تجده فى دراسته مفهوم السعادة فى فلســـفة الأخـــلاق[٣٣] وكذلـــك الفلسفة والعلم فى التفكير العربى فى عصر الإسلام الذهـــبى، ويتناول اتجاهاته التفكير الأخلاقى عند المسلمين وعند مسكويه، ثم المثل

---

(٢٩) المرجع السابق ص٤٦٨-٤٧٢.

(٣٠) حسن فاضل جواد: الأخلاق من منظور فكرى عربى معاصر، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد ، ١٩٨٨ ص٦٥-٩٦ ، ٤٧٣-٤٧٥.

(٣١) راجع هذا الموقف فى الفقرة الأخيرة من هذا البحث.

(٣٢) د. توفيق الطويل: المشكلة الخلقية، الإلزام الخلقى ومصادره، فى كتاب مشكلات فلسفية، القاهرة ١٩٥٤ ص٥٦-٦٠.

(٣٣) د. توفيق الطويل: مفهوم السعادة فى فلسفة الأخلاق، انظر القسم الثالث، من المجلد التذكارى عن توفيق الطويل، الكتاب التذكارى، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٩٥.

الأعـــلى عند صوفية الإسلام[٣٤] كما شارك بدراسة عن الأخلاق عند محيى الدين بن عربى فى الكتاب التذكارى عنه[٣٥].

إلا أن ما يلفت النظر فى كتابات الأستاذ، هو اهتمامه الكبير بالأخلاق، وقلة الاهـتمام بالدراســة المـنهجية للقيم، اللهم فى إطار البحث التقليدى فى قيم الحق والخيــر والجمـــال ، باعتــباره المــبحث الثالث من المباحث الفلسفية دون تناول الـــتطورات المعاصـــرة التى تجعل من الأكسيولوجيا دراسة مستقلة لعلم القيم أو "نظرية عامة فى القيمة"، وهذا هو النقد الذى يوجه للجهد الكبير الذى بذله الأستاذ، الـــذى انصـــرف فى معظمه إلى فلسفة الأخلاق . ومع هذا يمكننا أن نلمح متابعة للاتجاهـــات الحديثة فى هذا المجال فى بحث مبكر كتبه عام ١٩٥٢ عن "العقليون والـــتجريبيون فى فلســفة الأخـــلاق" أشار فيه للاتجاهات التجريبية المعاصرة لدى أصـــحاب الوضـــعية المنطقية، والتى نجد صدى لها، أورد غير مباشر عليها فيما كتـــبه زكى نجيـــب محمـــود فى الفصـــل الـــرابع من كتابه "خرافة (موقف) من الميتافيزيقا".

لقد تابع الدكتور الطويل أحدث اتجاهات التجريبية، مذهب الوضعية المنطقية المعاصـــر. وأوضح الاختلافات الدقيقة بين دعاته فى تفسير الأخلاق يقول "يختلف أصـــحاب الوضـــعية المـــنطقية اختلافاً يسيراً فى فهم القضايا الأخلاقية، فالأستاذ كارنـــاب يـــرى أنهـــا مجرد أوامر Commands أما أير فيميز بين الأحكام الخلقية الفعـــلية والمواعـــظ الخـــلقية، وهى الأوامر فى رأيه ويرى أن الأولى تعبير عن انفعـــال، وفى كلـــتا الحالـــتين لا تعتبر قضايا الأخلاق قضايا علمية تجريبية يمكن التثـــبيت مـــنها بالـــتجربة[٣٦] وبين لنا أن اير إن اختلف مع كارناب فى القول بأن الأحكـــام الخـــلقية أوامـــر إلا أنـــه اتفـــق معه فى القول بأن جميع الأحكان تتميز

(٣٤) د. توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، الكتاب الأول، ص١٣٦-١٤٨.

(٣٥) د. توفيق الطويل: الأخلاق عند ابن عربى، الكتاب التذكارى عند محى الدين ابن عربى، القاهرة، ١٩٩٥.

(٣٦) د. توفيق الطويل: العقليين والتجريبيون فى فلسفة الأخلاق، مجلة كلية الآداب، الجزء الأول، المجلد الرابع عشر مايو ١٩٥٢، ص٥٨-٥٩.

بخاصـــيتين: الأولى أنهـــا تعبر عن حالة عقلية وأنها تؤكد أو تقرر شيئاً ما، إلا أن الأحكام الخلقية لا تقرر شيئاً واقعياً بل هى مجرد تعبير عن حالة عقلية تشير إلى حبنا لنوع من السلوك مع رغبتنا أن يتبعه غيرنا من الناس.

أى أن الأخلاق فى نظر الوضعية المنطقية تتمثل فى صورتين: الأولى لدى كارناب، الذى يرى أن الأخلاق ليست إلا أوامر فى صيغة لغوية مضللة. والثانية عـــند آيـــر، فالأحكام الخلقية مجرد صراخ أو صياح يعبر عن انفعالات تشير إلى عواطف أو تمنيات فردية أو جماعية. وإذا كانت الأحكام الخلقية تعبر عن مشاعر صاحبها ولا سبيل إلى التثبت من صحتها فهى ليست قضايا علمية. ويناقش الأستاذ هذه الآراء ويستشهد بنقد دفيد روس لها، وستيس، وأيونج، ويرى أن الحكم الخلقى إذا كـــان يعـــبر عن حالتى النفسية، ويشير إلى ميلى إلى فعل أو نفورى عنه، فإن مـــن الواضـــح أيضاً إنى لا أحب أو أبغض من غير تفكير يبرر الحب والكراهية. ولا يمـــانع الطويل فى استخدام المنهج التجريبى فى الأخلاق.. ولكن اصطناع هذا المـــنهج ينبغى ألا يقف بالبحث الخلقى عند الوصف والتقرير بل ينبغى أن يتجاوز هذا إلى دراسة ما ينبغى أن يكون"[٣٧].

إن هـــذه المحاولـــة المـــبكرة توضح متابعة الأستاذ، ومناقشته لشتى الآراء الأخلاقيـــة؛ يعقب، ويفند، ويناقش، ويرفض الاتجاهات المعاصرة"، ويكاد ينقلنا من مجال الأخلاق إلى القيم، وهذا ما ظهر فى دراسته الطويلة التى تتناول "القيم العليا فى فلســـفة الأخـــلاق" الـــتى نشرت لأول مرة عام ١٩٧٦ ويعرض فيها للمحاور الآتية:

القيم وطبيعتها فى اتجاهات فلاسفة الأخلاق. لدى الطبيعيين، وفى الدراسات السيكولوجية، والأنثروبولوجية، ثم لدى المثاليين المتزمتين والمعتدلين.

مصـــدر القيـــم العـــليا فى مذاهـــب الفلسفة الخلقية سواء لدى من ردها إلى المجـــتمع، أم إلى الأحوال الاقتصادية، أم إلى الإنسان، أم الله، أم الطاغية المستبد، أو إلى طبائع الأفعال الإنسانية.

ويقدم لنا نماذج من تاريخ البحث فى القيم العليا. ثم ملاحظات أخيرة.

---

(٣٧) المصدر السابق، ص٦٦.

وبعـد حديـثه عـن مجمل الدراسة يقدم فى فصل تمهيدى عن الإنسان بين تمجيد القدماء واستخفاف المحدثين، وفى الفصل الثانى القيم وطبيعتها فى اتجاهات فلاسـفة الأخـلاق يعـرض للـنزعة الذاتية ولموقف أصحاب النظرية الانفعالية Emotional theary لدى كارناب، وآير، ووستر مارك، ثم يعرض للفلاسفة المثاليين ويفيض فى تناول مصدر القيم العليا فى مذاهب الفلسفة الخلقية معقباً على رأى كل فـريق مما يردونها إلى المجتمع أو الأحوال الاقتصادية، أو دعاة النزعة اللاإنسانية قديماً وحديثاً خاصة عند نيتشه وفرويد وسارتر، ومن يردونها إلى الطاغية المستبد من أمثال توماس هوبز أو إلى طبائع الأفعال الإنسانية، ويشير بطريقة خاطفة إلى نشـأة مبحث القيم بمعناه المعاصر وهى إشارة مهمة لم يتوسع فيها الأستاذ(٣٨) وفى الفقرة الخامسة الختامية يقدم لنا ملاحظات أخيرة.

ونسمح لأنفسنا أن نناقش أستاذنا بتقديم ملاحظات أولية على دراسته الوحيدة التى حملت فى عنوانها لفظ القيم، وأولى هذه الملاحظات التى تدور حول القيم فى مجـال الأخـلاق. واقتصـرت على قيمة واحدة، هى قيمة الخير فى إطار النظرة التقليدية التى ترى أن القيم ثلاثية: الحق والخير والجمال بينما تسرى فى الدراسات المعاصـرة نظـرة مغايـرة لا تكتفى بهذه القيم الثلاث بل تمتد لتشمل كل ما هو موضع رغبة، أو ميل، أو اهتمام لدى الإنسان فى كافة مجالات حياته بحيث تشمل، الدين والعلم، والتربية، والحرية، وغيرها.

ثانيـاً : حـتى فى التصـور التقليدى للقيم لم يعرض الأستاذ إلا لقيمة واحدة دون الاهـتمام بالقيمتين الأخريين خاصة القيمة الجمالية فإن كان كل من سانتيانا ودويـت باركـر مـن الفلاسفة الأمريكيين المعاصرين غلب على أبحاثهم الاهتمام بالقيم الجمالية فإن الأستاذ كان أكثر اهتماماً بالقيم الخلقية.

ثالـثاً : إن الأستاذ لم يغفل عن الاتجاه المعاصر فى مجال القيم فقد أشار إليه، وإن كانت إشارته عابرة، كنا نتمنى أن يتوسع فيها ويضيف إليها.

---

(٣٨) د. توفيق الطويل "القيم العليا فى فلسفة الأخلاق" فى كتاب "قضايا من رحاب الفلسفة والعلم"، دار النهضة العربية القاهرة، ص٧٨.

رابعـاً : إن كتابات الأستاذ أثارت اهتمام عدد كبير من تلاميذه للكتابة ليس فقط فى مجـــال الأخـــلاق التقـــليدية كما فعل كل من إمام عبدالفتاح إمام فى "فلسفة الأخـــلاق"[٣٩] وفيصل بدير عون وسعد عبدالعزيز فى "دراسات فى الفلسفة الخلقية"[٤٠].

بـــل إنـــه يمكـــن القول أن بعض من انتقدوه نقلوا ما كتب، ولم يطوروا فى الموضـــوعات التى تطرق إليها، ولم يضيفوا إليها جديداً[٤١]، ونضيف أن كثيراً من باحـــثى القيـــم فى مصر قد تتلمذوا على الأستاذ، وساروا على نهجه، وأن اختلف موضوع الدراسة عندهم نذكر هنا على سبيل المثال كل من : د. صلاح قنصوة[٤٢] ومحمد محمد مدين[٤٣]، وأحمد عبدالحليم عطية[٤٤] وغيرهم.

وســـوف نتـــناول فى الفقـــرات القادمـــة المواقف المختلفة التى عرفت فى الدراسات العربية المعاصرة لبيان موقع توفيق الطويل منها.

رابعاً : زكى نجيب محمود والقيم فى الوضعية المنطقية :

يتســـق موقـــف زكى نجيب محمود من القيم مع نزعته الفلسفية التى عرفت بالوضـــعية المنطقية، والتى تسعى لأن تكون فلسفة تجريبية علمية، ومن هنا فهى

---

(٣٩) د. إمام عبدالفتاح: فلسفة الأخلاق، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٨.

(٤٠) د. فيصل بدير عون: د. سعد عبدالعزيز: دراسات فى الفلسفة الخلقية، مكتبة سعيد رأفت،، القاهرة، ١٩٨٣.

(٤١) انظر الفقرة الأخيرة من هذا البحث.

(٤٢) نتناول جهد الدكتور قنصوة فى مجال القيم فى الفقرة سادساً من هذا البحث.

(٤٣) قدم الدكتور محمد مدين عدد من الأعمال فى مجال فلسفة القيم حيث درس القيم عند جون ديوى فى رسالته للماجستير، وتحليل التصورات الأخلاقية عند مورفى رسالته للدكتوراه بالإضافة دراسة موسعة عن الفيلسوف الأخلاقى ايونج، وبحث عن الحدس الخلقى.

(٤٤) يهتم د. أحمد عبدالحليم عطية بدراسات الأخلاق والقيم، فقد أصدر دراسة موسعة عن القيم فى الواقعية الجديدة، وأخرى عن الأخلاق فى الفكر العربى والمعاصر، وترجم كتاب وولش عن الأخلاق الهيجلية، وترجم لايربان نظرية القيمة ونصوص أخرى، كما عرض لميتافيزيقا القيم عند دويث باركر. وتحتاج جهود تلاميذ الدكتور الطويل إلى دراسة تحليلية نقدية لأعمالهم نرجو أن نتمكن من القيام بها قريباً كنوع من النقد الذاتى لأعمال هذا الجيل الذى ننتمى إليه.

تـــرفض الميتافيزيقا وما يندرج تحتها من علوم فلسفية، وقد استبعد زكى نجيب فى كــتابه الــذى يعــلن فيــه برنامجه العلمى، والصادر عام ١٩٥٣ بعنوان "خرافة الميـــتافيزيقا" أولاً ثــم بعد ذلك "موقف من الميتافيزيقا "باعتبارها خالية من المعنى لأنهـــا تبحث فى أشياء لا تقع تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً. ومن بين هذه الأشياء غيـــر المحســـة التى يكتب عنها الفلاسفة الخير والجمال[٤٥]. يقول فى أول فقرات الفصـــل الـــرابع الذى خصصه عن القيم: "ونحن نسلك العبارات التى تتحدث عن الخيـــر وعـــن الجمال فى زمرة الميتافيزيقا بالمعنى الذى حددناه لها، وبالتالى فإننا نرى العبارات التى تتحدث عن هاتين القيمتين فى الأشياء قيمة الخير وقيمة الجمال خالية من المعنى، ولا تصلح أن تكون علماً ولا جزءاً من علم"[٤٦].

وهـــو من البداية يرفض وجهة النظر الموضوعية فى القيم، التى تعترف لها بوجـــود مســـتقل عـــن الإنسان، ويدافع عن وجهة النظر الأخرى التى تجعل قيمة الشـــىء خيراً كانت أو جمالاً مجرد شعور ذاتى عند الإنسان نحو الشىء، وليست هى بكائنة فيه.

ويعـــطى لـــنا مثالاً على ذلك بأن الجمال فى وصفى لوردة بأنها جميلة هو شـــىء أضـــيف لهـــا من عندى، وصف لشعورى إزاءها لا وصف لها هى. وهو موقـــف أقرب إلى موقف سانتيانا فى الإحساس بالجمال، وبيرى فى النظرية العام لـــلقيمة"[٤٧]. ويستنتج منه زكى نجيب على عكس صاحبا الواقعية النقدية والواقعية الجديـــدة من أن العبارة التى تحتوى على قيمة "جمال" هى عبارة تتحدث عما ليس يحس أنها عبارة ميتافيزيقية.

---

(٤٥) واضح هنا أن زكى نجيب محمود يرد فى كتابه الذى صدر عام ١٩٥٣ - فيما يبدو لنا - على بحث توفيق الطويل "العقليون والتجريبيون فى فلسفة الأخلاق، الذى نشره فى مجلة كلية الآداب المجلد الرابع عشر، الجزء الأول مايو ١٩٥٢ والذى يعرض فيه لموقف الوضعية المنطقية من القيم ص٥٨ وما بعدها.

(٤٦) زكى نجيب محمود : موقف من الميتافيزيقا، دار الشروق ط٣، القاهرة، ١٩٨٧، ص١١٠.

(٤٧) راجع كل من ج. سانتيانا الإحساس بالجمال، ترجمة محمد مصطفى بدوى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ورالف بارتون بيرى: أفاق القيمة، ترجمة د. عبدالمحسن عاطف سلامة، النهضة لمصرية، القاهرة، ١٩٦٨، ودراستنا القيم فى للقيمة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٨، ص٣١ وما بعدها.

يــتابع زكى نجيــب فتجنشتين فى موقفه هذا فهو يرفض موضوعية "القيم" ويتبــنى وجهة النظر الأخرى التى تسرى فى معظم مذاهب الفلاسفة المعاصرين. وتشــير كلماته إلى هذا الموقف الذى يعود إلى صاحب الرسالة الفلسفية المنطقية، ولا قناعــنا بأن القيم جزء من ذاتنا ، وأن العالم الخارج عنا لا خير فيه ولا جمال إنما هو عالم من أشياء (٤٨).

ينقلنا زكى نجيب محمود من الميتافيزيقا إلى العلم عن طريق اللغة، موجهاً مجهوده إلى إثبات أن العبارة التى تتحدث عن "قيمة" شىء ما هى عبارة فارغة من المعــنى. والــلغة عــنده كمــا عــند كارنــاب Carnap وظيفــتان هما : التعبير والتصــوير(٤٩). أو كما عند ريتشاردز A. J. Rietords الذى حدد اللغة بالاستعمال؛ فهى إما تستعمل استعمالاً علمياً، أو "استعمالاً انفعالياً" حيث تجىء اللغة معبرة عن الحالــة الوجدانية لقائلها(٥٠)، وعلى هذا الأساس يقسم مذاهب الأخلاق إلى قسمين: مذاهب تصويرية وتعبيرية. يتبنى الفريق الأول القول بأن القيمة "موضوعية تدرك وتوصــف بعــبارة وصفية علمية، والفريق الآخر يرى أن العبارة الأخلاقية جملة تعــبيرية تعبر عما فى نفس قائلها مما لا يمكن مراجعته فيه، فهى أشبه بالصراخ مثلاً أو بقهقهة الضحك" وزكى نجيب ينتمى كما يخبرنا إلى هذا الفريق الثانى(٥١).

فهــو يــتابع ستفنسون Stevenson فى بيان وجهة نظره انطلاقاً من تحليله لمعــنى الاخــتلاف فى الحكــم الأخلاقى: فالاختلاف يكون أحد ضربين؛ فهو إما اخــتلاف عــلى وصــف أمــر وتفســيره وصفاً وتفسيراً يراد بهما مطابقة الواقع الخارجى "اختلاف الرأى"، وإما أن يكون اختلافاً فى الميول، والأهواء، وعندئذ لا

(٤٨) نجد هذا الموقف واضحة فى بداية كتاب فنتجشتين رسالة منطقية فلسفية حيث يقول "معنى العالم يجب أن يكون خارج العالم، كل شىء فى العالم هو كما يحدث، فى العالم لا يوجد قيمة، وإن وجدت فليس لها قيمة، لو أن هناك أية قيمة بمعنى القيمة، فإنها خارج الكل.

(٤٩) يتابع زكى نجيب موقف كارناب فى تحديده لطبيعة اللغة ويجعل منه أساساً لفهمه للقيمة ويردنا إلى كتابه : Philosophy and logical syntan P.33.

(٥٠) راجع كتاب ريتشاردز: فلسفة النقد الأدبى، الذى يعتمد عليه زكى نجيب محمود ويستعين بتقسيمه لوظائف اللغة ليقسم على أساسها مذاهب فلاسفة الأخلاق.

(٥١) زكى نجيب محمود : المصدر السابق، ص١١٤.

يكــون ثمـــة ســبيل إلى الاتفاق، إلا أن يكره أحد المختلفين على قبول أمر لم يكن برضاه، وليس الإكراه اتفاقاً بالمعنى الصحيح(٥٢).

ويـبدو أن زكى نجيب لا يرفض القيم كلية ولا يستبعدها نهائياً كما قد يفهم مـن حديثه، بل هو يعنى فقط بكيفية إدراكها، ومدى خضوعها للمعرفة العلمية لذا فهـو يميز بين حديث الإنسان عن رغباته الخاصة ووصفه لميول الناس إن كانت الأولى فـهى فارغـة من المعنى، لأنه لا سبيل إلى تحقيقها وأن كانت الثانية فهى عـبارة مقـبولة عـنده، إذ يمكن الرجوع إلى ملاحظة ميول الناس كى يتحقق من صدق القائل، إن هذه التفرقة ضرورية عند الرجل لتعلم متى يجوز الكلام عن القيم ومـتى يجـوز. وينـتقد زكى نجيـب آراء جود التى انتقد فيها المذاهب الوضعى المنطقى بقوله:

"إن أصـحاب المذهـب الوضـعى المنطقى حين يجعلون الجمل الأخلاقية والجماليـة بغيـر معـنى سوى التعبير عن أهواء قائليها فهم يقصدون إلى الجمل الحملية لا الشرطية فهم إذ ينكرون أن يكون هناك معنى لعبارة (س خير) يوافقون بالطبع على وجود معنى للألفاظ الدالة على القيم إذا استعملت لتدل على أنها وسائل لغايات(٥٣).

إن مـا يخـبرنا بـه داعيـة الوضعية المنطقية فى مصر يحيلنا إلى موقف البراجماتية مشيراً إلى رأى س. بيرس ch. Pierce فى "كيف نجعل آراءنا واضحة" فالجمـلة الأخلاقيـة أو الجمالية ليست بذات معنى، لأنها لا تشير إلى عمل يمكن آداؤه للـتحقق من صدق معناها، ولا تكون الجملة بذات معنى إلا إذا أمكن تحويلها إلى عمل؛ فكل جملة لا تدلك بذاتها على ما يمكن عمله، بحيث يكون هذا العمل هو معناها الذى لا معنى لها سواه"(٥٤).

---

(٥٢) المصدر السابق ص ١١٧ يعتمد زكى نجيب محمود على ستفنسون ربما أكثر من أير وكارناب وينقل عنه أمثلته ويستشهد به الصفحات من ١١٤ إلى ص ١١٧ مما يجعله أقرب إلى النظرية الانفعالية من الوضعية المنطقية راجع بحث سحبان خليفات.

(٥٣) زكى نجيب محمود : موقف من الميتافيزيقا ص ١٢١.

(٥٤) كان اهتمام زكى نجيب بالبراجماتية والكتابة فيها والترجمة لأعلامها ونقل أهم كتب فيلسوفها جون ديوى للعربية يماثل اهتمامه بالوضعية المنطقية، ومن هنا يستعين بآراء بيرس لتوضيحه موقفه من القيمة، راجع المصدر السابق، ص١٢٢.

يــنكر زكى نجيب أن تكون القيم علمية أو موضوعاً للدراسة، لأنها مما لا يمكــن التحقق منه، الجملة الأخلاقية أو الجمالية ليست بذات معنى، ولذلك فهى لا تصـــح أن تكون جزءاً من علم، لأن الشرط الأساسى الذى يجب أن يتوافر فى أية قضية علمية، هو إمكانية التحقق من صدقها يقول: "العبارة الأخلاقية وكذلك العبارة الجمالية ليست بذات معنى، وإنما توهمنا أنها جملة مفيدة لأن تركيبها النحوى يشبه تركيب الجمل المفيدة(٥٥).

ويتســـاءل زكى نجيب عما تدل عليه كلمة "خير" أو كلمة "جميل" أو غيرها مـــن الكلمات الدالة على "قيم"؛ حين ترد فى عبارات الحديث بين متكلم وآخر؟ إنها كما يخبرنا تدل على حالة نفسية عند المتكلم نفسه، إنها تدل على أن للمتكلم انفعالاً بالحب أو الكراهية نحو شىء بعينه؛ إذا نظر الرائى إلى شىء، فقال عنه "هذا خير" أو "هــذا جميل" كان بقوله هذا مشيراً إلى حالته الداخلية إزاء هذا الشىء، دون أن يدل على شىء خارج نفسه".. إن المتكلم هنا يعبر عن ذات نفسه أو قل إنه "ينفعل" انفعـــالاً معيناً، ويضع انفعاله هذا فى كلمة يقولها مثل كلمة "خير" أو كلمة "جميل" وبالطـــبع لا ســـبيل إلى مناقشة المنفعل فى انفعاله" إن عبارات القيم لا تضف شيئاً ولا تقـــرر شـــيئاً إنمـــا هى تعبير عن انفعال المتكلم"(٥٦). وهى تقال لعلها تثير فى السامع انفعالاً شبيهاً به، إننا هنا بإزاء متابعة دقيقة لما يؤكده كل من أوجدن ogden وريتشاردز. Richards فى كتابهما "معنى المعنى" أن استعمال كلمة خير إن هو إلا وسيلة للتعبير عن انفعال المتكلم.

ويـــرد عـــلى النقد الذى قدمه دفيد روس للنظرية الانفعالية فى كتابه "أسس الأخـــلاق" ويـــبين تذبذبـــه بين القول بموضوعية القيم وذاتيتها فى كتابه "الصواب والخير"(٥٧).

---

(٥٥) يستند رفض زكى نجيب لإمكانية الدراسة العلمية للقيم، لأنها مما لا يخضع ولا يمكن التحقق منها. وقد أفاض عدد كبير من الباحثين فى دحض مبدأ التحقيق باعتباره وسيلة علمية دقيقة لدراسة القيم، وفى دراستنا عن القيم عند زكى نجيب محمود سوف نناقش بالتفصيل هذا المبدأ.

(٥٦) زكى نجيب، المصدر السابق، ص١٢٦.

(٥٧) المصدر السابق : ص ١٢٩.

وينتقل زكى نجيب من موقف الوضعية المنطقية الذى يرفض القيم باعتبارها عـبارات ميتافيزيقية خالية من المعنى إلى تبنى النظرية الانفعالية يقول: "والنظرية الانفعاليـة الـتى نقدمهـا لك الآن، وندافع عنها تسوى بين الخير والجمال فى أن كليهما معتمد على الذات المدركة لا على صفة فى الشيء المدرك[٥٨]". هو يريد أن يطمـئن الـناس على قيمهم التى يعتزون بها "فلسنا نلغيها، وإنما نضعها موضعها الصـحيح، وهو أنها تقديرات ذاتية لا وجود لها فى عالم الطبيعة، ولا تناقض بين أن يكون التقدير ذاتياً وأن نعتز ونذود عنه[٥٩]".

ويحلل نقد الأستاذ بتون Paton للنظرية الانفعالية فى القيم Motvie Theoary ذلـك لأن بتون يهاجم النظرية الانفعالية بطريقة خطابية لا بطريقة منطقية، وثانياً لأنـه دافع فى نهاية حديثه عن هذه النظرية التى جعلها موضع هجومه موضحاً أن المـبادئ الأخلاقيـة العليا تختلف فى تطبيقها باختلاف الظروف القائمة، وهو نفس موقـف زكى نجيـب محمود، والنظرية التى يدافع عنها، هى أن الحكم الأخلاقى تعبير عن انفعال المتكلم إزاء شيء ما، محاولاً أن يحدث انفعالاً شبيهاً عند السامع. وإذن فـلا صدق قيمة ولا كذب، لأن الانفعالات النفسية ليست مما يوصف بصدق أو كـذب، ويستشـهد بـأقوال أير فى كتابه فى "اللغة، الصدق والمنطق، "فالحكم الأخلاقى لا إثبات له ولا نفى، حكمه فى ذلك حكم صرخة الألم أو كلمة الأمر وما إلى ذلك من الأشياء التى تعبر عن حالة شخصية ولا تصور أمراً خارجياً" [٦٠].

ويؤكـد زكى نجيـب موقفه ويلخصه فى : أن العالم لا خير فيه ولا جمال، بمعـنى أنـه ليس بين أشيائه شيء اسمه خير وشيء آخر أسمه جمال،... فالشيء نفسـه يكـون خيـراً أو شـراً، جميلاً أو قبيحاً حسب ما تراه أنت فيه؛ والمحيط الاجـتماعى والمصلحة الذاتية هما اللذان يحددان لك ما تراه فى الشيء من خير أو جمال أو غير ذلك.

---

(٥٨) المصدر السابق : ص ١٣٠.
(٥٩) المصدر السابق : ص ١٣٢.
(٦٠) المصدر السابق : ص ١٣٥.

وهـذا مـا نجده مرة ثانية فى كتابه "نحو فلسفة علمية" الذى يعود فيه ليؤكد نسـبية الأخلاق فى الفصل الثانى عشر "من المطلق إلى النسبى" فقد كشف التحليل المـنطقى للأحكـام الدالة على القيم أنها ليست من المعرفة إطلاقاً، فضلاً عن أن توصف بما يوصف به أدق أنواع المعرفة من يقين" مؤكداً أن المماثلة بين الأخلاق والعـلوم سينتهى بها الأمر إلى وبال على الأخلاق نفسها[٦١] يقول: "ليست الأخلاق ومبادئها من قبيل المعرفة العلمية بنوعيها الرياضى والطبيعى.. وإن أصر الفلاسفة على أن يماثلوا بين الأخلاق وبين العلم، كانت النتيجة الحتمية لذلك زوال الأخلاق نفسـها، لأننا عندئذ سنكتفى فيها بالعبارات الوصفية وتخرج منها جانب الأمر، أى أنـا نكـتفى بـأن نصف الطرائق التى يسلك بها هذا المجتمع أو ذاك فى ظروف حياتهم المختلفة دون أن نصف هذه الطريق بقيمة معينة؛ مع أن صميم الأخلاق هو أن تكـون معياريـة، أى أن تضع للناس ما "ينبغى" أن يكون لا أن نكتفى بمجرد وصف ما هو كائن – لكنها إن رسمت لنا ما "ينبغى أن يكون فقد خرجت من نطاق العـلم الموضـوعى ودخـلت فى نطاق آخر من الكلام، وهو الكلام الذى يعبر به الإنسـان عن رغباته وآماله، وفى ذلك قد يختلف الناس دون أن يكون فى اختلافهم تناقض يأباه العقل ومنطقه[٦٢].

ويسـتخلص مراد وهبه من تحليل زكى نجيب اللغوى نتيجتان تخصنا منهما الـثانية التى ترى أن القيم "تعبير ذاتى صرف لا شأن له بالعالم الخارجى" ومغزى ذلـك أنـه إذا اختـلف اثـنان فى حكم تقويمى "فلا سبيل إلى الرجوع إلى مقياس خارجى لنفصل به، أيهما مصيب وأيهما مخطئ" ويرجع دافع زكى نجيب إلى تبنى هذا الموقف دافع اجتماعى، لأنه يقرر أن الأخلاق مرتبطة بالطرائق التى يسلك بها هذا المجتمع أو ذاك فى الحياة ولما كانت الأخلاق تقع خارج نطاق العلم فلا ينطبق

(٦١) يتفق هذا الموقف تماماً مع موقف ريشنباخ فى نشأة الفلسفة العلمية، الذى يقول إن الأخلاق لو كانت ضرباً من المعرفة لما كانت على نحو ما أرادها الفلاسفة الأخلاقيون أن تكون، أى لما كانت تقدم توجيهات أخلاقية.. ويضيف إن التحليل الحديث للمعرفة يجعل الأخلاق المعرفية مستحيلة، فالمعرفة لا تشتمل على أية أجزاء معيارية، وبالتالى لا تستطيع تفسير الأخلاق" ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة د. فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ص٢٤٢.

(٦٢) زكى نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٣٦٢.

عـليها مـبدأ عدم التناقض، ومن ثم تصبح جميع الأخلاقيات مشروعه، ولهذا ليس ثمـة داع إلى تغييرها، والنتيجة المحتومة بعد ذلك أنه ليس ثمة مبرر لالتزام الفرد بقضية اجتماعية" (٦٣).

إن زكى نجيـب محمود الذى يتخذ موقفاً نسبياً "ذاتياً" من القيم متبنياً موقف كـل مـن الوضعية المنطقية والنظرية الانفعالية يستشهد بعبارة سبينوزا القائلة أن الـناس يظنون أنهم يرغبون فى الأشياء لأنها خيرة، بينما تكون الأشياء خيرة لأن الناس يرغبون فيها"، وهى نفس العبارة التى يشهد بها الفيلسوف الأمريكى الواقعى الجديـد رالـف بارتون بيرى، وإذا كان مفكرنا العربى يوظف هذه العبارة لتأكيد موقفـه الذاتى معارضاً موقف مور Moore الحدسى فإن بيرى يؤسس على عبارة اسـبنيوزا نظـرية عامة فى القيم تؤكد إمكانية الدراسة العلمية للقيم مع قبول ذلك الـتحدى الذى يطالبنا بالمجازفة التى تبدو فى ظاهرة تناقض بين قبول القيم اليومية الذاتيـة النسـبية والـتدرج منها للوصول إلى المعنى العام للقيمة الذى لا يختلف باختلاف الشخص المقيم ولا الشىء موضوع التقييم من خلال مفهومه عن الاهتمام بصرف النظر عن نوعية هذا الاهتمام.

خامساً : نازلى إسماعيل والقيم فى الروحانية المعاصر ة :

ونجـد لدى الدكتورة نازلى إسماعيل تحديداً لمعنى القيم وطبيعتها يتفق معه الاتجـاه المعاصـر فى دراسـة القيـم باعتبارها علماً للقيم أو "النظرية العامة فى القيمـة". وهـو الاتجـاه الذى بدأ فى نهاية القرن التاسع عشر وازدهر فى القرن العشـرين. ويـرجع اهتمامها بدراسة القيم منذ فترة دراستها للدكتوراه فى باريس، حيـث تتـلمذت على أهم أعلام التيار الروحانى فى فلسفة القيم المعاصرة: "رينيه لوسين" Le sonne الذى بحثت تحت إشرافه أطروحة بعنوان "الفعل فى فلسفة لويس لافيـل" عام ١٩٥٦. وقد ظل هذا الاهتمام بارزاً فى أعمالها، وترجماتها سواء فى كـتاباتها فى الفلسـفة المعاصـرة، أم ترجمـتها لكـانط والكانطيـة، وهوسرل والفينوميـنولوجيا، وقد تبلور ذلك فى عدة دراسات قدمتها فى مجال القيم الدراسة

(٦٣) د. مراد وهبه : مقالات فلسفية وسياسية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص١٢.

الأولى بعـنوان "الإنســان والقيم" ١٩٨٠. الذى عدل وطور فى كتابها فلسفة القيم ١٩٨٣ ثـم ظهر بشكل مختلف موسع معمق فى دراستها عام ١٩٩١ "نظريات فى فلسفة القيم".

إن هـذا الاهـتمام الـذى اسـتمر لأكثر من ربع قرن منذ إنجاز رسالتها للدكـتوراه بالفرنسـية عـن لافيل ١٩٥٦ وحتى ظهور كتابها "نظريات فى فلسفة القيم"[٦٤] يؤكد توجه الدكتورة نازلى إلى دراسة الأكسيولوجيا، ويحدد طبيعة فهمها لفلسفة القيم باعتبارها تتجاوز وتتمايز عن الدراسة التقليدية للأخلاق، كما يظهر لنا انـتماءها تبنيها للتيار المثالى الروحانى الذى ساد الفلسفة الفرنسية المعاصرة. وهو الـتيار الـذى نبصـره حاضراً حضوراً مباشراً فى أعمالها ذات التوجه الفرنسى، والـذى يميـزها عـن بقيـة الباحـثين الذين اهتموا بهذا المجال من ذوى الثقافة الإنجليزية.

وهى تتـناول فى عملها الأخير أهم النظريات المعاصرة فى فلسفة القيم لدى أبـرز الاتجاهـات الـتى تشـغل عالم الفلسفة اليوم مثل : فلسفة الحياة (نيتشه)، والـنظرية الـبراجماتية، والفلسـفة الـروحانية المعاصرة (لافيل) و (جوبلو) أو الفينوميـنولوجيا (مـاكس شـيلر) كمـا تعـرض لنظريات القيمة فى المجالات : الاقتصادية، الأخلاقية، الروحية (الدينية) والجمالية.

وتـبين الهـدف من عملها فى المقدمة التى تسعى إلى بيان معنى ومجالات القيمـة، وتميـز القيمة بمعناها فى الاقتصاد عن القيمة الإنسانية، التى تمثل المثل الأعـلى الـذى لا يتحقق إلا بالقدرة على العمل، والعطاء، ونقاء النفس، والإرادة الحـرة (المعـنى المثالى للقيمة) الذى يقف على النقيض من المعنى الاقتصادى[٦٥]

---

(٦٤) للدكتورة نازلى إسماعيل اهتمام عميق بدراسة القيم فى الفلسفة المعاصرة كما يتضح من مؤلفاتها: L’ Acte danse la philosophie de louis lavelle 1956 دكتوراه الدولة من السربون
La dialectique 1956 بالإضافة إلى ترجمتها كتاب كانط "مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة" ١٩٦٨، وكتاب هوسرل "تأملات ديكارتية" ١٩٧٠، وكتبها فى القيم: "الإنسان والقيم" ١٩٨٠، فلسفة القيم ١٩٨٣، "ونظريات فى فلسفة القيم" ١٩٩١.

(٦٥) د. نازلى إسماعيل : نظريات فى فلسفة القيم، القاهرة، ١٩٩١، ص٤

وتحـدد المجـالات المـتعددة التى تشكل النظرية العامة فى القيمة وهى: الاقتصاد السياسـى، والأخلاق والفن، والدين فالقيم الأخلاقية، والاقتصادية، والفنية، والدينية لهـا تشكل عالماً خاصاً للقيم حيث يتكامل بعضها على بعض اعتماداً على (لافيل) فى كتابه "مبحث القيم"(٦٦).

وهـذا يقتضـى مـنها تناول النظريات المختلفة للقيم عند أبرز أعلام فلسفة القيمـة خاصة نظرية نيتشه، والنظرية البراجماتية باعتبارهما مقدمات لفلسفة القيم المعاصـرة خاصـة لدى كل من لوسين ولافيل، "إن فلسفة نيتشه دعت إلى تحطيم وهدم القيم القديمة" ونادت البرجماتية بضرورة تقدير النجاح العملى فى الحياة، هذا فى الوقـت الـذى بـدأت فيـه نيران الحرب العالمية الأولى تشتعل وتنفجر أزمة الضمير الغربى، هنا ظهرت فلسفة القيم لتحاول أن تجيب عن أهم سؤال أخذ يتردد بيـن هذه الشعوب وهو، ما قيمة الحياة الإنسانية؟ وما معنى الحياة؟ وما هى غاية الوجود الإنسانى؟(٦٧).

وتنقلـنا إلى قلب نظرية القيم المعاصرة حين تتناول تحت عنوان "عالم القيم واحـد"، حيث نعرض نظرية لويس لافيل اعتماداً على تحليل كتابه "مبحث القيم". وتؤكـد عـلى ضرورة عدم فصل القيم الاقتصادية عن القيم الروحية، لأنها وسيلة لـتحقيق الغاية الأخلاقية والروحية، وتميز بين نظريتين مختلفتين عن طبيعة القيم. الـنظرية الأولى تفترض أن للقيم الاقتصادية نوعية خاصة، وطبيعة خاصة تجعلها تختلف عن سائر القيم الأخرى. والنظرية الثانية وهى نظرية لا فيل التى تؤكد على أن القيم كلها يجب أن تكون من نوعية واحدة، وأن القيم الاقتصادية لها طبيعة القيم الإنسانية الأخرى، ولا تختلف عنها إلا من حيث إنها وسائل لتحقيق القيم الأخلاقية والروحية(٦٨).

---

(٦٦) يظهر توجه الدكتورة نازلى إلى دراسة القيم من خلال فهمها لما يسمى النظرية العامة للقيمة، أو القيمة المتكاملة التى توحد بين المجالات المختلفة للقيم فى إطار واحد كما نجد لدى فلاسفة القيمة المعاصرة.

(٦٧) د. نازلى إسماعيل : المصدر السابق ص٥٩.

(٦٨) المرجع نفسه، ص٦٤.

وتقـــدم لنا نظرية واحد من أهم فلاسفة القيمة الفرنسية وهو جوبلو[٦٩] الذى يفرق بين أحكام الوجود وأحكام القيمة فى كتابه "منطق أحكام القيمة" والذى يصف فيه أحكام القيمة على النحو التالى:

أحكـــام تتعـــلق بالغايـــات والأهداف، أحكام تتعلق بالوسائل التى تحقق هذه الغايـــات، وموضـــوع علم القيم أو الأكسيولوجيا هو التمييز بين الغايات النهائية أو القيم فى ذاتها، والغايات الثانية التى تستمد قيمتها من الغايات الأولى.

ومـــن هنا تعرض لنا أولاً للخير والكمال (القيمة فى ذاتها) من خلال دراسة تحليـــلية لهذيـــن التصـــورين عـــند جوبلو، ثم مراتب الوجود ودرجات الكمال، ثم الوسائل والغايات حتى يمكن أن نصدر أحكاماً على القيمة.

ومن لافيل وجوبلو إلى ماكس شيلر[٧٠]. الذى يعد أهم من درس القيم دراسة فينوميـــنولوجية، وبعـــد أن تتناول مؤلفاته فى مراحل تفلسفه المختلفة، تحلل فلسفته مـــن منظور الحب، والمشاركة الوجدانية، ثم تحلل لنا القيم العاطفية. اعتماداً على لافيـــل الـــذى يـــرى أنـــنا يجب أن نبحث فى العاطفة عن أصل الوعى الإنسانى، فالعاطفـــة مـــرآة للقيمة لأنها تعكس فى ذاتنا جميع الفروق الممكنة بين القيم، فمن الواضح أن ارتباط القيم بالانفعال معناه أن الأنا لا تسعى إلى تحقيق القيم المجردة، ولا معـــنى للقيمة دون مشاركة الإنسان وانفعاله تجاهها، فالفيلسوف الفرنسى لافيل يعطى للانفعال قيمة إيجابية.

تختـــلف إذن دراســـات الدكتورة نازلى إسماعيل من جهة عن اتجاه الدكتور توفيـــق الطويـــل المـــثالى المعـــتدل الذى يجعل من القيم امتداداً لدراسة الأخلاق، فالدراســـة الوحيدة التى خصصها للقيم دارت حول "القيم العليا فى فلسفة الأخلاق" والـــذى اعـــتمد فيهـــا عـــلى التقليد الأرسطى الكانطى[٧١]. كما تختلف عن اتجاه

(٦٩) راجع د. نازلى إسماعيل ص ٧٧-١٠١.

(٧٠) د. نازلى إسماعيل : الفلسفة المعاصرة، دار البيان للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٨٩-١٣ وانظر أيضاً الدكتور زكريا إبراهيم: دراسات فى الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة، ص٣٩٢-٤١٦.

(٧١) يقدم لنا أستاذنا الدكتور توفيق الطويل اجتهاده فى مجال الأخلاق باسم "المثالية المعدلة" متابعاً فيها الأخلاق المثالية عند كانط وإن كان الأساس الذى له السيادة هو أخلاق الاعتدال

الوضعية المنطقية لدى زكى نجيب محمود الذى درس ابستمولوجيا القيم أو ما يعرف بالميتا اثيكا فى "موقف من الميتافيزيقا".. وغيرهما بينما كان جهد نازلى إسماعيل متجهاً إلى دراسة القيمة فى ذاتها؛ طبيعتها، ومجالها، وتعريفها، والعلاقة بين القيم المختلفة، ثم النظريات المعاصرة فى القيم مما يجعلنا نرى فى عملها جهد علمى أكاديمى يسعى لتدشين دراسة القيم بشكل مستقل عن علم الأخلاق.

سادساً : قنصوة وقيم الفاعلية الإنسانية :

ويسير فى هذا الاتجاه الدكتور صلاح قنصوة فى دراسته "نظرية القيم فى الفكر المعاصر" الذى يهدى عمله " إلى أستاذى الجليل الدكتور توفيق الطويل أول من شق الطريق فى اللغة العربية أمام السالكين فى درب "نظرية القيمة"[٧٢].

وهو ينطلق من الجهود العربية السابقة عليه، يشير إليها ففى إشارته لنشأة البحث فى القيم والاجتهادات المختلفة المؤيدة لقيام فلسفة القيم أو المعارضة لها يتناول آراء د. زكى نجيب محمود تحت عنوان القيمة بين الإقرار والإنكار، وفى إطار تقديمه لتصنيفات مذاهب القيمة يحلل آراء عبدالرحمن بدوى فى إطار المذاهب الوجودية، وتوفيق الطويل فى إطار المذاهب المثالية. ويضيف إلى ذلك تصور يتعلق بالنظر إلى القيم المختلفة الفنية والأخلاقية والدينية والعملية انطلاقاً من الفاعلية الإنسانية.

والعمل الذى يقدمه[٧٣] لا يقنع بعرض مختلف وجهات النظر إلا ريثما يكشف عن الطابع الإشكالى للقيمة، لكى يمضى بعدئذ إلى اقتراح وضع جديد لمشكلة القيمة، من منظور إنسانى شامل، يستوعب كافة الجوانب، ويرتفع بها،

عند أرسطو كما لاحظ بحق الدكتور فيصل بدير عون فى دراسته أخلاق البصيرة العقلية عند توفيق الطويل، ونحن نتفق معه فى ذلك.

(٧٢) د. صلاح قنصوة : نظريات القيم فى الفكر المعاصر ، دار التنوير، بيروت ط، ١٩٨٤، الإهداء.

(٧٣) يقدم لنا نديم علاء الدين عرضاً وافياً لنظرية القيم فى الفكر المعاصر وهو تحليلاً لكتاب صلاح قنصوة وعرضاً لمحتوياته فى شكل دراسة عامة عن القيم مجلة "الباحث" اللبنانية، ص ١٢٠-١٣١.

ويــتجاوزها إلى تصور مركب، ولا يجعل هذا التصور من القيمة مجرد جانب من جوانــب النشاط الإنسانى، أو خصيصة من خصائص أخرى، بل يجعل منها طابع وجــود الإنسان، ويسعى العمل فى نهاية الأمر أن يؤكد هذا التصور عندما يطبقه على الدين والفن والفلسفة والعلم"[٧٤].

ويعرض للتطور الحديث لتصور القيمة الذى انطلق من كانط، ويتابع جهود الكانطيـــة الجديـــدة فى هـــذا المجـــال فى تناوله لميلاد نظرية القيمة، ومثل توفيق الطويـــل يناقش موقف الوضعية المنطقية فى الفصل الذى عقده "للقيمة بين الإنكار والإقرار".

ويعالج مكانة القيمة من المذهب الفلسفى، حتى يتسنى له تقديم مناقشة فلسفية عميقـــة لمســـائل القيمة ومباحثها و"للقيم طابعها الإشكالى البارز" فهى ذات دلالات مختلفة تتعدد بقدر ما تتعدد المجالات التى تطلق عليها، فعلى الرغم من أنها نظرية حديـــثة فى الفلســـفة، إلا أنها مفهوم له ماصدقاته الهائلة وعلى ذلك يناقش مسائل تتصـــل اتصـــالاً عميقـــاً بالقيمة مثل: القيمة "والنيبغية" أو الإلزام، القيمة والتقويم، والقيمـــة وأحكام القيمة، طبيعة القيمة، أنماط القيمة حتى يتسنى له فى الفصل الثانى مناقشة مواقف القيمة.

وبعـــد تمهيـــد فى تصـــنيف مواقف القيمة يعرض لهذه المواقف: الطبيعة، والمـــثالية، والـــبرجماتية، والوجوديـــة وعلى العكس من أستاذه يختلف مع جود، وماكـــنزى وبرييه فى نظرتهم لتصنيف القيمة التى يرجعونها إلى اتجاهين فقط أو ثلاثـــة: مـــثالى وتجريـــبى[٧٥] مقابل من يرجعون تصنيف القيم إلى عدد كبير من الاتجاهـــات. وهـــناك فريق ثالث يتوسط هؤلاء مثل فرانكنا Frankena الذى يقسم مواقف القيمة إلى النظريات الانفعالية الحديثة، ونظريات الحدسيين، واللاطبيعيين، ونظريات الأخلاق الميتافيزيقية والطبيعية. ويبادر قنصوة إلى مسلمة الأفتراض بأن كل من يتحدث عن القيمة إنما يتحدث عن الإنسان بماله من فاعلية تسعى إلى غاية

---

(٧٤) المرجع السابق ص٨.

(٧٥) راجع صفحات ٥٥، ٥٦، ٥٧، من المرجع السابق، وقارن ذلك بموقف الطويل الذى يشايع هؤلاء فى كثير من آرائهم فى فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها.

مهمـــا يكـــن من أمر تلك الفاعلية أو تلك الغاية. فهو لا يقر رؤييه على فصله بين نظـــريات طبيعية ونظريات فاعل طبيعى لأنهما معا يفترضان وجود إنسان فاعل، فيطلق عليها معا "المواقف الطبيعية" باعتبارهما وسائر المواقف تفترض قيام فاعل إنسانى يلتزم بالقيم. على أنه تنطوى تحت المواقف الطبيعية: النظريات البيولوجية، والنفســـية، والاجـــتماعية، والاقتصــــادية[٧٦] أما النظريات الواقعية القائلة بالوجود العيـــنى لـــلقيم فيضـــعها تحـــت عـــنوان "المواقف المثالية، ويندرج تحتها المثالية الموضـــوعية، والمثالية الذاتية، والاتجاهات الفينومينولوجية، ويضم إليها نظريات القيمـــة بوصـــفها مشاركة فاعل عند لافيل ولوسن، ويقرر للبراجماتية فئة خاصة تـــنطوى تحـــتها الـــنزعة الإنسانية عند الفيلسوف الإنجليزى شيلر، ووسيلية جون ديوى. أما الوجودية فيعرض فيها لكل من نيتشه وسارتر.

ويلتزم ذلك التصنيف الرباعى المفترض لنظريات القيمة الطبيعية، والمثالية، والبرجماتية، والوجودية بعرض المواقف الصريحة من القيمة بوصفها مبحثا حديثا من مباحث الفلسفة.

ويجـــتهد فى تقديم وجهة نظر يعرضها فى الفصل الثالث على أنها تمهيد أو اقـــتراح، أو بداية تحت اسم "نحو" نظرة شاملة للقيمة، فهو يتقدم إلينا بدعوة للحوار حـــول قضية ليس فى وسعنا أن نفلت من مواجهتها سواء فى الفكر أم السلوك[٧٧] فـــبعد نقـــد المواقـــف السابقة بالكشف عن جوانب القصور فيها والتى تتجلى لدى المواقـــف الطبيعية فى ردها للقيمة إلى نشاط طبيعى يخضع لحتمية صارمة تختلف نوعيتها باختلاف المواقف البيولوجية، والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتى تتـــبدى لـــدى المواقـــف المـــثالية فى رد القيمة إلى وجود موضوعى مستقل عن الإنسان، والتى تبرز لدى البراجماتية فى رد القيمة إلى مجرد وسيلة، والتى تظهر لـــدى المواقف الوجودية فى رد القيمة إلى الحرية الذاتية المطلقة والتى تخلقها خلقا متجددا كل لحظة.

---

(٧٦) راجع تناوله لهذه المواقف صفحات ٦٥-١٠٣.
(٧٧) قنصوة : المرجع السابق ، ص٨.

ويوجـــه نقده للماركسية أحد المواقف الطبيعية حيث يرى أن الماركسية ترتد إلى ضرب من النزعة المثالية، وذلك عندما تضفى على الطبقة العاملة كل صفات الكمـــال، وذلـــك لأن الطبقة العاملة هى التى تحمل تبعة نقل المجتمع إلى المرحلة الـــتالية، هى التى تحقق المثالية. فهذا حلم لا يختلف عن أحلام أصحاب اليوتوبيات القديمة إلا من حيث المادة التى تبنى مدنهم الفاضلة.

وليـــس فى وسع المواقف المثالية كما يرى أن تفسر التغير الذى يلحق بالقيم الإنسانية، فهى تقف بالإنسان والعالم عند حدود لا يقدر واحدا منهما على اجتيازها فـــالقيم هى بعيـــنها مـــنذ وجد الإنسان، وموقفه منها هو بعينه منذ لقيتها، وحسب الإنســـان أن يعرفها لكى يلتزم بها. وهذا الموقف المثالى من القيم موقف يغلق دون الإنســـان آفاقـــاً فى قدرته أن يرتادها ما دام يجد نفسه رهين عالم تكتنفه الماهيات الثابتة، وزعتها بالعدل والقسطاس عناية إلهية أو عقل كلى أو روح مطلقة، وهكذا لا يســـتطيع الإنسان شيئاً سوى ما تمليه عليه ماهيته، وما تجذبه ماهيات الأشياء. كما أن الإنسان لديها عاقل رشيد، والأشياء معقولة مصفوفة تحمل قيمها كما تحمل عناويـــنها، وهـــذا من وجهة نظر قنصوة يقلل من شأن فاعلية الإنسان فى اكتشافه لـــلقيم والـــتزامه لها، وتغييرها والتمرد عليها، بل وخلقها أحياناً، لأن الإنسان فى اكتشافه للقيم والتزامه لها، وتغييرها والتمرد عليها، بل وخلقها أحياناً، لأن الإنسان لم يمتلك فاعلياته دفعة واحدة بل يضيف إليها دوماً، وكذلك قيمه بينما تضع المثالية القيـــم خـــارج الزمان، فهى لم تتغير، ليس لها ماض ولا مستقبل(٧٨) وهو نقد فى الحقيقـــة يوجـــه إلى أســـتاذنا الذى يتمسك بالمثالية المعدلة ويتبنى موقف أصحاب الـــنظرية الموضوعية فى القيمة، بل وليس فى مقدور البراجماتية أن تقدم لنا فهماً يســـتوعب القيـــم جميعـــاً، لأنها هى نفسها قد اجتزأت منذ البداية بجانب من القيمة وأقـــامت فلســـفتها بأسرها على موقف خاص هو إيثار العمل على النظر، أى أنها بـــدأت بموقـــف مســـبق من القيم أرسلت القول فيه بغير استقراء، ولم تبدأ بتحليل للفاعـــلية الإنســـانية. وهو يشير إلى قصور منهجهم فى تحليل القيمة لأنهم يحللون

(٧٨) صلاح قنصوة، المصدر السابق ص١٩٢.

القيـم جميعـاً وهـم قابعون داخل قيمة بعينها، ومن ثم فلا يمكن أن نأمن لتحليلهم لسـائر القيم، وقد كان من الأسلم منهجياً أن يبدأ المذهب شاملاً بنظرته كافة صور القيم ليقف إيثاره فى نهاية الأمر على قيمة دون أخرى وليس العكس(٧٩).

ينـتقد قنصوة الاتجاهات السابقة، ويقدم لنا نظرته الخاصة التى أطلق عليها الفاعلية الإنسانية بحيث نستطيع أن نقول إن جهده يمكن أن يعلم امتداداً حقيقياً لجهد الدكـتور الطويـل ينطلق منه ويتمايز عنه، لا يكتفى بالتأريخ، بل يسعى ليقدم لنا محاولـة فلسـفية، يطور دراسة القيم العليا فى الأخلاق إلى نظرية القيم فى الفكر المعاصر.

سابعاً : عادل العوا والقيم الوجدانية الشخصية :

نشـير فى هـذه الفقـرة والفقرات التالية إلى مواقف بعض الأساتذة العرب الباحـثين فى مجال القيم مثل عادل العوا، فى سوريا، والربيع ميمون فى الجزائر، وعـلى زيعور فى لبنان، يهتم الأول بما يطلق عليه الاتجاه الوجدانى، وقد سبق لنا تـناول وجهـة نظـره فى دراستنا "الأخلاق فى الفكر العربى المعاصر"(٨٠) تحت عنوان الاتجاهات الأخلاقية الوجودية، وهو من أهم الأساتذة العرب دراسة، وبحثاً، وترجمة وتأليفاً فى مجال القيم مثل : "الأخلاق" ١٩٧٥، "أسس الأخلاق الاقتصادية" ١٩٨١، "دراسات أخلاقية" ١٩٨٢، "العمدة فى فلسفة القيم" ١٩٨٦ "بحوث أخلاقية" ١٩٨٨، "الفلسـفة الأخلاقيـة" وكلاهما عام ١٩٨٨، "الأخلاق والحضارة"، "أخلاق الـتهكم" ١٩٨٩، "مذاهـب السـعادة" ١٩٩١، وتـرجم عدة كتب مثل: "عالم القيم" لـريمون رويـه ١٩٦٩، "السعادة والحضارة" ١٩٧٣، "القيمة والحضارة" ١٩٧٥، "الأخلاق والحياة الاقتصادية" ١٩٨٠، "القيمة" ١٩٨٣، "الانتحار والأخلاق" ١٩٨٧، "الأخـلاق والسياسة" ١٩٨٨ بالإضافة إلى عدة دراسات فى نفس المجال كتبها فى الموسوعة الفلسفية العربية، وإذا كان الغالب على الدكتور العوا دراسة الأخلاق كما يتضح من عناوين أبحاثه إلا أننا نراه يترجم عدداً كبيراً من الدراسات حول القيمة،

---

(٧٩) المرجع السابق ص١٩٤.

(٨٠) د. أحمد عبدالحليم عطية: الأخلاق فى الفكر العربى المعاصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩ ص٨١-٨٥.

ويعتبر كتابه العمدة فى فلسفة القيم الكتاب الأساسى الذى نعتمد عليه فى بيان موقفه من القيم.

فبعد التمهيد الذى يتناول فيه: القيمة فى واقع الممارسة، والقيمة فى التعبير، (يقصد التعبير فى اللغة العربية) والقيمة فى التأمل، حيث يعرض لاشتقاقات اللفظ فى القرآن، وفى لسان العرب، وكليات أبى البقاء، وأهمية مشكلة القيمة اعتماداً على لويس لافيل[٨١] يعرض فى الفصل الأول لنشأة فلسفة القيم فى العصر القديم، والوسيط والحديث، وهو فى هذا أيضاً يعتمد على لافيل [٨٢].

ويخصص الفصل الثانى لممثلى فلسفة القيم: شوبنهور ونيتشه، وبرنتانو، وميننونيج، وفون ارنفلس، وهوسرل، وماكس شيلر، وهارتمان، وبيرس، ووليم جيمس وديوى وبيرى، وسانتيانا، وكونت، ودوركايم، وبوجله، ولالاند، ودوبرل، وسارتر، ولافيل، ولوسين، وبولان، وهو من أطول فصول الكتاب يعرض فيه لأعلام المدرسة الألمانية والاتجاه البراجماتى، وعلماء الاجتماع، وفلاسفة القيمة المعاصرين وهو يتعمد على أصحاب الاتجاه الروحانى لافيل، ولوسين مثله فى ذلك مثل وإن كان يعتمد فى عمله هذا على بحثه القيمة الأخلاقية وترجمته لكتاب فلسفة القيم لريمون رويه ويثير فى الفصل الثالث إشكال التسمية "علم قيم" أو "فلسفة القيم" حيث يعرض لدلالات القيمة، وأحكام القيمة والواجب القيمى، اعتماداً على لافيل مؤكداً على أن فلسفة القيم المعاصرة هى انطولوجيا جديدة وميتافيزيقا معاصرة[٨٣].

ويخصص الفصل الرابع للنشاط القيمى عارضاً للفاعلية القيمية، والخامس لخصائص القيمة فيعرض لمشكلات القيمة، القيمة والوجود، القيمة والتعالى، القيمة والمطلق، القيمة والسوى، القيمة والتركيب، القيمة والتكامل، قضية القيمة، أما الفصل السادس "القيمة والقيم" فيعرض لتجربة القيمة وتصنيف القيمة، ويعرض

---

(٨١) د. عادل العوا: العمدة فى فلسفة القيم، دار طلاس، دمشق ١٩٨٩ ص٤٢-٤٣-٤٤.

(٨٢) المصدر السابق ص٦٣، ٦٤، ٧٤، ١١١، ١١٤، ١١٦، ١٢٩، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٥٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٠، ٢٣١، ٢٤٦.

(٨٣) المرجع السابق ص ٣٤٠-٣٠٧.

لـــلقيم الاجــتماعية، والاقتصـــادية، الأخلاقيـــة فى الفصل السابع تحت عنوان قيم أساســية، ثــم يتناول فى الفصل الثامن مبحث القيم عبر النهج الدينى لدى: الغزالى والمـــاوردى، والنهج الفلسفى خاصة فى النظرية النقدية، ونظرية الإرادة والفلسفة الوجودية، ثم النهج العلمى فى النظرية الاجتماعية والنظرية الابستمولوجية، ويختتم عملـــه بالبحث فى الوعى القيمى، وباستعراض العمل يتضح حجم تأثير لافيل سواء فيمـــا خصصه له من فقرات مثل حديثه عنه ضمن ممثلوا القيم (الفصل الثانى) أم تصنيف القيم (الفصل السادس) أو على امتداد صفحات العمل.

ويتضـــح تأثيـــر العوا أيضاً فى توجيه طلابه لدراسة فلسفة القيم كما يتضح لـــدى الـــباحث الجزائـــرى الدكتور الربيع ميمون فى كتابه "نظرية القيم فى الفكر المعاصـــر بين النسبية والمطلقية" حيث يرى أن فلسفة القيم هى فلسفة العصر فهى لم تظهر كفلسفة مستقلة لها منهج، ومشاكل وفلاسفة إلا فى بداية هذا القرن أو قبله بقـــليل.. إنها فلسفة مستقلة عن كل فلسفة غيرها، وهى فلسفة شاملة تهم الإنسان أيا كـــان وإيـــنما كـــان فهى تهتم بالقضايا الأساسية التى ما زال يطرحها على نفسه ويحاول الإجابة عنها(٨٤).

ويعـــرض لموضوع القيم بين النسبية والإطلاقية فى أربعة أبواب، يخصص الأول منها "التعريف بالقيمة" وبيان صلتها بالوجود، وبيان أنواعها الأساسية: الحق الخيـــر، الجمـــال، والحب، حيث أوضح أن القيمة أيا كانت الزاوية التى تنظر إليها من خلالها هى وجوب يسبق الوجود الواقعى ليخرجه إلى الفعل، ويتناول فى الباب الـــثانى نشأة نظرية القيمة موضحاً الظروف التى ظهرت فيها فلسفة القيم فى بداية هـــذا القرن، موضحاً دور العلم فى ذلك؛ ففى الفقرة التى خصصها للبرجسوسونية والعلم تناول فلسفة كل من كانط ونيتشه حيث كانت فلسفة كل منهما تمهيداً لظهور فلسفة القيم بمعناها المحدد فى عصرنا.

وخصص الباب الثالث بفصوله المختلفة للقيم بين النسبية والمطلقية موضحاً معانى نسبية القيمة ومطلقيتها، صفات القيمة، العلاقة بين القيمة والحرية - عارضاً

---

(٨٤) د. الربيع ميمون : نظرية القيمة فى الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠، ص١٦.

للسوفسطائية كنموذج لفلسفات النسبية والأفلاطونية كنموذج للفلسفات المطلقية[٨٥] والفصل الثانى نظريات نسبية القيم خاصة لدى فرويد، وسارتر، وماركس، ودوركايم، ونظريات مطلقية القيم فى الفصل الثالث خاصة: ماكس شيلر، وهارتمان، رينيه لوسين ولويس لافيل، حتى ينقلنا إلى الباب الرابع حيث يعرض لطريقة دراسة فلسفة القيم رافضاً القول بنسبيتها ومطلقيتها منادياً بمطلقيتها النسبية، وذلك فى أقسام خمسة تناول فيها: وجود الإنسان، الإنسان والقيمة، نقد النظريات النسبية، والمطلقية، القيم مطلقة نسبية، ثم موضحاً مكانة فلسفة القيم، ويلاحظ ليس فقط اعتماد الباحث الجزائرى على أعمال الأستاذ السورى بل أيضاً على مصادره الفرنسية لوسين ولافيل. كما يلاحظ تكرار وتشابه نفس المحاور المثارة ونفس الموضوعات فى دراسة الأستاذ المصرى الدكتور صلاح رسلان تقريباً بنفس العناوين فى كتابه "القيم الأخلاقية بين الذاتية والموضوعية الصادر عام ١٩٨٩.

ثامناً : على زيعور : القيم والحكمة العملية للذات العربية :

ونأتى لأعمال الدكتور على زيعور الذى اهتم بالتحليل النفسى والأناسى للذات العربية فى عدد من أعماله وهى تحتاج إلى دراسة خاصة موسعة والاتجاه العام لدى زيعور هو محاولة تطبيق قواعد "القيم" كما ظهرت لدى كل من: لوسين، بولان، لافيل من أقطاب المدرسة الفرنسية ذات الميول الكاثوليكية على الفكر الإسلامى، ويذكر لنا نديم علاء الدين تصور زيعور للقيم كما يظهر فى محاضراته فى القيميات العامة بالجامعة اللبنانية فى أربعة أقسام الأول : نشأة فلسفة القيم.

(أ) التفكير القيمى الضمنى فى العصر القديم والوسيط والحديث.

(ب) نشأة فلسفة القيم فى العصر الحالى لدى نيتشه والبراجماتية.

---

(٨٥) انظر الربيع ميمون نظرية القيم فى الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية ١٩٨٠ ص١٣٠-١٣٨، وقارن صلاح رسلان الذى تناول الموضوع تحت عنوان القيم الأخلاقية بين الذاتية والموضوعية خاصة الفلسفة السوفسطائية نموذجاً للفلسفات الذاتية ص٤٤-٥٦ وأفلاطون نموذجاً لفلسفات الموضوع ٥٦-٦٨ وراجع أيضاً ما كتبه ميمون عند الكانطية وفلسفة نيتشه ص٨٢-١٠١ ورسلان كانط نموذجاً لفلسفات الموضوعية، نيتشه نموذجاً لفلسفات الذاتية ص ٧٣-١٢٤!!!

ويتــناول فى القسم الثانى المذاهب الأساسية فى فلسفة القيم سواء النظريات الطــبيعية (لدى أصحاب مذهب اللذة والمنفعة والتحليل النفسى والمادية الجدلية) أم نظــريات الفــاعل الأخــلاقى لدى شوبنهور ونيتشه ودوركايم، ونظريات الفاعل الــروحى (كــانط وبرونشــفيج ووبــرال والوجوديـــة) والــنظريات الحديــثة: الفينوميــنولوجية لــدى شــيلروهارتمان، ولوسين، ولافيل ويقدم فى القسم الثالث: التحــليل العلمى للقيم خاصة لدى لالو، وروبيه، وأهم مشكلات القيم هى موضوع القســم الــرابع مثل : أحكام القيمة وأحكام الوجود، معايير الفعل، القيمة الأخلاقية، القيمة الجمالية، القيمة والحرية، القيم الاجتماعية والنظرة المستقبلية.[٨٦]

وسوف نتوقف هنا عندما خصصه منها لدراسة "الحكمة العملية أو الأخلاق والسياســة والتعامــلية" وهى دراســة بطبيعة الحال تتناول الفلسفة فى ميدان الفعل والمعيار والعلائق الاجتماعية التى أصدرها عام ١٩٨٨.

يــرى زيعــور أن الحكمة العملية تشكل البعد الاجتماعى الأغنى فى الذات العربية فقد عملت تلك الحكمة على تنظيم الاندماج الثقافى الاجتماعى وفق المعايير المثالية، وإخضاع الفعل للخير والرغبة للقيمة، وهى تشمل وفق تصوره مدى شديد الاتســاع: السلوك، المؤسسات والنظم، علاقات الفرد والعائلة والحلقات الاجتماعية والدولــة، إنــه هــنا مــثل هيجــل يتناول الأخلاق بمعناها الاجتماعى، أو الحياة الأخلاقيــة، وهو مجال يتسم بالمثالية والروحانية لذا فإن التعمير للوعى الأخلاقى أى الإغــناء المستمر للمثل والقيم، هو المميز لتلك الحكمة التى يطلق عليها حسب رؤيــته "الأنا الأعلى الجماعى" وهو مقام احتوى فى بنيته الكبرى: المثل الجماعية والقيــم والمعايير للفعل. وهو يؤكد على ارتباط هذا المجال بمشروعه فى الدراسة النفســية الاجــتماعية والتحليل النفسى الأناسى للذات العربية فيها تناول للينبغيات ولأنســاق القيم وسلم المعايير وشتى مكونات الأنا الأعلى، أى أن تحليل زيعور هنا اتجــاه إلى الوعى وإلى العقل وإلى الأنا الاجتماعى وفى إطار مشروعه يرى "إن

(٨٦) نديم علاء الدين: المصدر السابق ص١٢١-١٢٢.

فى نسق القيم أى فى القيميات (ميدان أو مبحث القيم)، فى شكله الأصلى الأولى فى التجربة الثانية ثم فى جدلية الراهن اليوم مع المستقبل، خللاً يستدعى الدراسة وبفرض إعادة النظر والتدبر»[٨٧] إن الحكمة العملية أعطت وحدة وديمومة وانسجاماً للذات العربية، لقد لونت تلك الحكمة بطابعها طرائق النظر والمعيار والتدبير وقادت الفعل والعلائق والقيم، وهى عنده تمثل أحد الخصائص الركيزة فى مقومات الشخصية العربية[٨٨].

بحث زيعور فى القيم هنا هو بحث فلسفى نفسى اجتماعى للذات العربية، أى القيم فى الفلسفة الإسلامية؛ الذى يفضل تسميتها الفلسفة العربية الإسلامية. إن تدبر هذه الفلسفة كما يخبرنا، هو قراءة نقدية استيعابية لما هو عملى فى تلك الفلسفة ذات التأثير العميق فى فكرنا عبر التاريخ، وتلك القراءة التاريخية للجانب العملى هى تعقب للقطاع الاجتماعى والسياسى والأخلاقى الذى يرتبط بالركيزة النظرية ويقوم على توجيهات ميتافيزيقية لذا فإن الاهتمام بالإنسان بجذوره الاجتماعية هو الأساس فى عمله الحالى[٨٩].

ينقسم عمل زيعور إلى ثلاثة أبواب تدور على التوالى حول : التجربة العربية المنوالية فى صياغة الحكمة (الباب الأول) فى فصلين : الأول مرحلة التكوين والإنعتاق، والثانى ميادين الحكمة العملية وقطاعات العقل العملى. ويعرض لنا فى الباب الثانى بفصوله الثلاثة "قطاعات الحكمة العملية أو العقل العملى موضحاً أن إصلاح النفس هدف الحكمة الأكبر متنقلاً إلى الحكمة فى الميدان العائلى ثم علم النظم السياسية مستقلاً عن الدين والسياسة الشرعية، متابعاً تقسيم أرسطو للحكمة العملية فهو يعرض فى القسم الأول من الفصل الأول: سياسة النفس والأخلاق الشرعية وعلم الأخلاق المحض، ويقدم فى القسم الثانى الغزالى

(٨٧) د. على زيعور : الحكمة العملية أو الأخلاق والسياسة والتعاملية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨، ص٩-١٠.
(٨٨) المصدر نفسه، ص١٣.
(٨٩) الموضع السابق.

عيــنة ممثــلة بارعة لذلك. ويتناول فى الفصل الثانى بأقسامه الأربعة الحكمة فى الميــدان العائــلى: السياســة الحكميــة للنفس، الحكمة فى ميدان الكسب والإنفاق، السياســة الحكميــة للمرأة والنظرة المنظمة للعلاقات الزوجية، والينبغيات الحكمية تجاه الرقيق.

ويعــرض فى الفصل الثالث (بقسيمه) علم النظم السياسية المستقل عن الدين والسياســة الشــرعية فى القســم الأول: علم السياسة المحض أو الفلسفى، والثانى قطاعاته وممثلوه من الفلاسفة.

ينقلــنا هذا الباب الثالث "العقل العملى عند أهل البرهان" أطول أبواب الكتاب (حــوالى ثلثيه) الذى يتناول فيه أثنى عشر فصلاً جهود الفلاسفة العرب وإسهاماتهم فى ميدان الحكمة العملية التى تدور على التوالى حول الموضوعات التالية:

الحكمــة العملية أو الخير فى الفعل عند الكندى، الحكمتان الخاصية والذاتية عــند إخوان الصفا، والحكمة عند الفارابى، الحكمة العملية عند ابن سينا، الخير فى العقــل والعلائــق والإنسان عند مسكويه، خطاب التوحيدى فى الحكمة ، ابن أبى الــربيع، الخطاب الاجتماعى والمتعدد عن ابن باجة، ابن طفيل والبحث فى قضية الخيــر عــند ابن رشد، نصير الدين الطوسى محافظة العقل العملى على المتشابه والموحد.

ويلاحظ على عمل زيعور تناوله للقيم فى إطار الأخلاق التقليدية، أو بعبارة أخــرى تحويلــه دراســة الحكمــة العملية إلى بحث فى القيم ليس بمعناها الفردى المــتعارف عليه، مسألة الضمير الأخلاقى كما لدى كانط ولكن بمعناها الاجتماعى الذى يتمثل فى الفرد من خلال علاقاته بغيره، وبالنظم والمؤسسات المختلفة، وذلك فى إطــار عمل أوسع هو تحليل الذات العربية انطلاقاً من تحليل وتأويل النصوص الــتراثية لتفســير الــذات العربية الواقعية فاصلاً بين الخطاب الفلسفى البرهانى، والخطاب الدينى الوعظى.

على العكس مما سبق فإن هناك دراسات عديدة تناولت القيم بردها إلى دين متجاهلة الفرق بين القيم والفضائل الأخلاقية من جانب والدراسة العملية للقيم من جانب آخر، ونود أن نشير إلى هذه الدراسات إشارة سريعة لبيان إلى أى مدى تنتمى إلى مجال الأكسيولوجى وهل أضافت إلى جهود الأستاذ الرائد أو تخلفت عنه؟

تاسعاً : دراسات القيم تراجع أم تقدم؟

تتناول فى هذه الفقرة عدة دراسات تجمعها سمات مشتركة يمكن أن نطلق عليها دراسات فى القيم، بمعنى بحث فى المبادئ والغايات والمثل العليا التى يعتنقها الإنسان بالمعنى الأخلاقى، وليست بحثاً فى الأكسيولوجى أو علم القيم، بمعنى النظرية العامة للقيم، وهى ترد القيم إلى الدين وإلى القرآن بالتحديد.وهذه الدراسات هى: فلسفة القيم للدكتورة فوقية حسين أستاذة الفلسفة الإسلامية بكلية البنات، والقيم الإسلامية بين الذاتية والموضوعية ١٩٩٠ للدكتور صلاح رسلان، والذى نشر من قبل بعنوان "القيم الأخلاقية بين الذاتية والموضوعية" ١٩٨٩ دون تغيير أى شىء فى المحتويات" والقيم الأخلاقية دراسة نقدية فى الفكر الإسلامى والفكر المعاصر" للدكتورة سامية عبدالرحمن المدرس بكلية البنات وتلميذة الدكتورة فوقية والذى كان كتابها مرآة صادقة لكتاب أستاذتها فى الأفكار وكثيراً من العناوين. ويجمع هذه الأعمال عدة سمات أهمها وأولها تأكيدها على أن علم القيم نشأ فى الفلسفة الأوربية المعاصرة فى القرن التاسع عشر ومع ذلك يرجعون نشأة هذا العلم إلى الإسلام.

ترى فوقية حسين أنه لكى يكتمل مفهوم القيمة يجب ألا نحصر أنفسنا داخل مجال الفلسفة وحسب، وإنما علينا أن نطرق مجال الدين حيث للقيمة قدرها الكبير، ليس فقط بالنسبة للدور الذى تلعبه فى حياة الأفراد، ولكن أيضاً بالنسبة لبيان أبعاد

مفهومهـــا فى تفاصيله، وهو ما تقع عليه خاصة فى الإسلام(٩٠) وتضيف إلى ذلك مؤسســـة لهذا الاتجاه الذى يمكن أن نطلق عليه أسلمة علوم القيمة وهو اتجاه دينى أكـــثر مـــن كونه علمى أو فلسفى "يجب أن نثبت هنا أن المفكرين المسلمين... قد أسســـوا علوماً فى مجال القيمة منذ وقت مبكر أى عقب ظهور الإسلام فسبقوا أهل الغـــرب بقرون وقرون فى مجال علوم القيمة.. إذ إن هؤلاء لم يلتفتوا إلى "القيمة" إلا فى غضـــون القـــرن الماضى (التاسع عشر) ولا يستبعد أن يكون قد استيقظوا عـــلى مـــا سبق وقدمه علماء المسلمين فى هذا المجال كما سبق وانطلقوا فى علوم الطبيعة وغيرها اعتماداً على وقفه علماء المسلمين منه"(٩١).

وقـــد حرصـــت عـــلى تتبع مفهوم القيمة خلال العصور القديمة فى الشرق والغرب، ولدى اليونان وفى العصر الوسيط ثم العصر الحديث تماماً كما تفعل كتب الأخلاق التقليدية دون تمييز بين القيم والمبادئ الإنسانية العليا التى تدرج فى إطار الأخـــلاق والفضائل وبين علم القيمة بمعناه المحدد كما ظهر فى القرن التاسع عشر وتفيـــض فى بيـــان القيمـــة فى القرآن (وهى تقصد الأخلاق) حيث تعرض للإلزام الخلقى، المسئولية، الجزاء فى الشريعة، سمات القيمة فى الإسلام(٩٢).

يقـــول صـــلاح رسلان : "يعتبر بول لأبى فى مؤلفه منطق الإرادة، وفون هارتمـــان عـــام ١٩٠٦ أول مـــن اســـتخدم لفظ القيمة أو الأكسيولوجيا فى القرن العشـــرين.. أما أول من كتب بحثاً أكسيولوجيا منظماً فى هذه القرن فهو الفيلسوف الأمريكى أوربان التقويم طبيعته وقوانينه ١٩٠٩... وقد كان لنجاح فلسفة الفيلسوف الألمـــانى نيتشـــه ١٩٠٠ أثـــر كـــبير فى شيوع استعمال كلمة القيمة بين جمهرة

---

(٩٠) د. فوقية حسين: محاضرات فى فلسفة القيم ، شركة أخوان رزق للطباعة الأوفست، القاهرة، ١٩٨٤، ص٥.

(٩١) المصدر نفسه ص١١-١٢.

(٩٢) المصدر نفسه صفحات ٢١٣-٢٤٤.

المــثقفين..."[٩٣] وبعد الإشارة إلى حداثة البحث فى القيم يعود ليتحدث عن القيم فى الشرق القديم اعتماداً على فوقية حسين[٩٤] سواء فى فارس، أم الحضارة الهندية فى الــبرهمية والــبوذية، ثــم فى الصــين، ثم يعرض للقيم فى الفلسفات القديمة لدى السوفســطائية وأفلاطــون، وفى الفلســفات الحديثة لدى كانط، ونيتشه وهى نفس الموضوعات التى طرحها الأستاذ الطويل وتعرض بنفس التبويب والتقابل الموجود لــدى الربيع بيمون ثم يعرض للقيم فى الإسلام ومصدرها وهو التعاليم المنزلة فى القــرآن الكــريم اعــتماداً على الآيات القرآنية، والقيمة عنده هى الخير[٩٥] والحق والجمــال. والكتاب بشكل عام محاولة للعودة بعلم جديد هو، النظرية العامة للقيمة إلى الديــن وإلى حضــارات وفلســفات قديمــة، لم تتناول هذا المجال، وطبيعته، وحدوده، وهو أقرب إلى المحاولات التى يطلق عليها أسلمة المعرفة.

وتتــناول ســامية عــبدالرحمن القيــم الأخلاقية فى الفكر الإسلامى والفكر المعاصر وتطلق على عملها دراسة مقارنة مخصصة فى كتابها البالغ ١٣٨ صفحة بعــد الفصــل الأول " مدخــل إلى عالم القيم" ٦٢ صفحة للقيم الأخلاقية فى الفكر الإســلامى الفصل الثانى، وعند مفكرى الإسلام (الفصل الثالث) بينما اختص الفكر المعاصــر بــ٣٩ صفحة، وقد عرضت بشكل تقليدى لنفس الموضوعات المطروقة فى كتب القيم العربية حيث تابعت صلاح قنصوة فى الفصل الأول: مدخل إلى عالم القيــم الــذى عرضت فيه للموضوعات التالية: الإنسان والقيم، ماهية القيم، ميلاد نظــرية القيمة، القيمة فى دائرة الإنكار، طبيعة القيمة، شمول القيمة، وتعرض فى الفصــل الــثانى "القيم الأخلاقية فى الفكر الإسلامى" حدود القيمة مصادر وسمات الأمر الخلقى، وشروط القيمة، وخصائص القيم التى جاءت كما فى كتاب الدكتورة فوقيــة حســين عــلى الوجــه التالى: عامة ومطلقة تجمع بين الدنيا والآخرة، بين

(٩٣) د. صلاح رسلان: القيم فى الإسلام.. دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠، ص٧.
(٩٤) المرجع السابق، ص١٣ هامش ١٧.
(٩٥) المرجع السابق، ص١٣٨.

الأصـــالة والـــتطور، بين حق الفرد والجماعة تهدف إلى بناء مجتمع سليم، غايتها ســـعادة الداريـــن، والفصـــل الـــثالث: القيم عند بعض مفكرى الإسلام: مسكوية، الغزالى، الصوفية وهى دراسة فى الأخلاق وليس فى القيم.

وتخصـــص الفصـــل الـــرابع لـــلقيم الأخلاقية فى الفكر الحديث: كانط وقيم الواجـــب، بنـــتام وقياس القيم، شوبنهور وقيم العاطفة، ويدور الفصل الخامس على القيـــم الأخلاقيـــة فى الفكـــر المعاصر: جون ديوى، ومذهب الذرائع وتغيير القيم، نيتشـــه وقلب القيم السائدة، والخاتمة القيم الأخلاقية رؤية نقدية، ورغم تأكيدها على أن القيم يرجع اكتشاف أهميتها إلى القرن التاسع عشر، ولعل اكتشافها هو أعظم ما حققه ذلك القرن، وقد تحققت على يد نيتشه والبراجماتية تعود لتقرر أن القيم قديمة قـــدم الإنســـان نفســـه وتعرض لها فى تاريخ الفلسفة (٩٦) ثم تعرض لها فى الفكر الإسلامى (٩٧).

يـــتم الـــتعامل فى هذه الدراسات إذن على مستويين، نشأة علم القيم كدراسة مســـتقلة تحـــددت فى القرن التاسع عشر، ثم العودة بها مرة ثانية إلى الحضارات القديمـــة والإســـلام. التأرجح هنا بين القيم بمعنى الفضائل السلوكية، والقيم بمعنى الدراســـة النظرية والإصرار على نشأتها فى أوربا فى القرن التاسع عشر وإسقاط المصـــطلح الحديـــث عـــلى دراسة قديمة، بالزعم أن الغزالى ومسكويه أسهما فى دراسة القيم، وهذا ما تجنبه توفيق الطويل بدراسة للقيم أو بمعنى أدق الأخلاق عبر تاريخها الغربى.

---

(٩٦) د. سامية عبد الرحمن: القيم الأخلاقية، دراسة نقدية فى الفكر الإسلامى والفكر المعاصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٦.

(٩٧) المرجع السابق ص ١٧ وهى تتابع فى كتابها معظم ما جاء فى كتاب د. فوقية حسين، خاصة فى الموضوعات التالية: الالزام الخلقى المسئولية، الجزء فى الشريعة، القيمة عامة وباقية تجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين حق الفرد ومصلحة الجماعة انظر: د. فوقية ص ٢١٣ – ٢٤٤، ود. سامية عبد الرحمن ص ٣٨ – ٤٠ وص ٣٧ – ٦٠، وسمات الأمر الخلقى، الطابع الشخصى الأساسى الجوهرى فى العمل والحرية د. فوقية ص ١٩٧ – ٢١٨.

وهذا ما أخذه عليه بعض الباحثين، الذين اعتمدوا عليه فى دراساتهم بالعودة إلى ما كتبه دون الأصول الأوروبية للفلاسفة أنفسهم، ثم عادوا لينتقدوا الأستاذ اقتصاره على دراسة الأخلاق بمعناها الغربى، ولم يذهب أىُّ واحد منهم إلى تناول موضوعات أخرى لم يتطرق إليها الأستاذ، فقد تناول الدكتور حمدى عبدالعال "الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين" فيعرض فى الباب الأول تعريف علم الأخلاق، وموضوعه، وغايته،، ويتناول المعيار الخلقى فى الباب الثانى حيث يعرض فى الفصل الأول منه للسوفسطائيين، سقراط، أتباع سقراط، أفلاطون، أرسطو، الرواقيين، الأبيقوريين، الشكاك وفى الفصل الثانى كانط، ومذهب المنفعة لدى هوبز وبنتام وهم نفس الفلاسفة الذين تعرض لهم الدكتور الطويل بينما يضيف إليه المعيار الخلقى فى الإسلام فى الباب الثالث[٩٨].

وهذا تماماً ما نجده لدى د. مصطفى حلمى من دار العلوم الذى يحمل كتابه عنوان "الأخلاق بين الفلسفة وحكماء الإسلام" ويتناول فيه الأخلاق عند اليونان وفى الفلسفة الحديثة نفس تناول توفيق الطويل، ثم يعرض فى الباب الثانى بفصليه لمذاهب أخلاقية فى الفكر الإسلامى، وهو يعترف لنا بذلك فى مقدمة كتابه قائلا: "لعل الأخلاق فى الفلسفة الغربية قد حظيت بأغلب الأبحاث منذ إدخال الفلسفة إلى جامعاتنا بمباحثها المختلفة ... ويضيف ولا نزعم أننا سنأتى بجديد فى مجال هذه الدراسات ولكننا ندلف إليها من نفس الباب الذى دلفنا منه إلى ما سبق من قضايا الفكر الإسلامى"[٩٩] فهذا النوع من الدراسات يتناول موضوعات الفلسفة الأخلاقية الغربية كما تناولها المفكر الأخلاقى العربى توفيق الطويل مع إضافة كتابات الفلاسفة المسلمين مثلما نجد فى كتاب الدكتور محمد عبد الستار نصار "دراسات فى فلسفة الأخلاق"[١٠٠] وكتاب الدكتور عبد الحميد مدكور الذى يحمل عنواناً

(٩٨) د. حمدى عبد العال: الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين، دار القلم، الكويت، ١٩٨٥.
(٩٩) د. مصطفى حلمى: الأخلاق بين الفلسفة وحكماء الاسلام، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٦ ص أ.
(١٠٠) د. محمد عبد الستار نصار: دراسات فى فلسفة الأخلاق، دار القلم، الكويت، ١٩٨٢.

مشابهاً هو "دراسات فى علم الأخلاق"(١٠١) ويصل الأمر إلى أقصى مداه فى كتاب محمــد عــبد الله الشــرقاوى "الفكر الأخلاقى، دراسة مقارنة" الذى يعرض" الفكر الأخلاقى الإغريقى عند سقراط، وأفلاطون وأرسطو مسبوقاً بالأخلاق عند القدماء ممهدا لذلك بدراسة تفصح عن موقفها الرافض لجهود الفلاسفة بعنوان الأخلاق بين الأصــالة والتــبعية، والأصالة هنا ما جاء فى القسم الثالث من كتابه الأخلاق فى الإســلام، وبينما التبعية هى الأخلاق عند الفلاسفة فهو يعرض للفكر الأخلاقى عند أفلاطــون وأرسطو لكى ينتقده، بل ينتقد من اعتمد عليهم فى دراسته حيث لم يذكر لنا مصدراً واحداً بلغه أوربية، وهو يلاحظ أنه فى مجال علم الأخلاق أن المراجع الرئيسة المتداولة لا تنحو نحواً غربيا أو تصطبغ بلون غربى فقط، لكن تحدثنا عن الأخلاق فى الحضارة الغربية بكل خصوصيتها، ويتبع هذه الملاحظة اتهام "وتردد معظــم هــذه المراجع كافة التصورات الغربية فى (تبعية) مقززة تثير اشمئزازنا. وإن كانت – فى نفس الوقت تبعث إشفاقنا على مؤلفيها لأنهم يقدمون هذه المؤلفات عــلى أنهــا [عــلم الأخــلاق] بشكل عام، وهى – فى حقيقتها – [علم الأخلاق فى الغرب]، وتاريخ الأخلاق من وجهة نظر غربية" (١٠٢).

ثــم يضــيف ليوجه نقده المردود عليه – بعد ذلك – إنهم يضعون "الأخلاق الإســلامية" فى ركن ضيق .. يحشرونها حشراً بين الأخلاق عند الغربيين وكأنها جــزء مــنها، لا تتمــتع بخصوصية ذاتية، ولا تتمثل باستقلال، ويعطى مثلا لذلك بكــتاب الدكــتور توفيــق الطويل، الذى يتهمه بالغربية فهذا كتاب ينبغى أن يكون عــنوانه "فلسفة الأخلاق فى الغرب نشأتها وتطورها" أما كتابته بالشكل الحالى فقد أعــطى انطباعاً بأن الأستاذ يرى أن الأخلاق الغربية هى الأخلاق يخلط الشرقاوى هــنا بين الأخلاق التى قد تختلف بين الشعوب والحضارات والأديان، وهى تختلف بــلا شك، وبين علم الأخلاق الذى يسعى الباحثون لتناول مبادئه العامة، نظرياته،

---

(١٠١) د. عبد الحميد مدكور: دراسات فى علم الأخلاق، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٩٠.

(١٠٢) د. محمد عبد الله الشرقاوى: الفكر الأخلاقى، دراسة مقارنة مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٨

مـــناهجه بصرف النظر عن الفضائل الأخلاقية لأمة من الأمم. وهو ما أدركه بدقة وموضـــوعية الدكـــتور توفيـــق الطويل الذى لم يخلط بين الأخلاق وعلم الأخلاق، والـــذى لم يرد "علم الأخلاق" أو "فلسفة الأخلاق" إلى أمة دون أخرى، أو دين دون دين آخر، فالأديان تقدم لنا القيم والمبادئ الأخلاقية وقواعد السلوك، والأخلاق تقدم لـــنا الـــنظريات العـــلمية التى تفسر السلوك والمبادئ الأخلاقية، وهذا ما لم يدركه بعضـــا ممن كتب فى الأخلاق بعد توفيق الطويل مما يؤكد لنا انه على الرغم من تاريخية كتابه الذى صدر فى الخمسينيات، إلا أن رؤيته لا زالت أعمق منهجية من كثير من التلاميذ.

زكى نجيب محمود:

القيم بين الوضعية المنطقية والمدرسة الانفعالية

مقدمة (*):

رغـم تعدد وتنوع اهتمامات رائد التفكير الفلسفى العلمى فى العقود الخمسة الأخيرة من القرن العشرين الدكتور زكى نجيب محمود والانطلاق منها إلى التأكيد عـلى العـلم والحـرية والديمقـراطية ونـبذ الخرافة والتأكيد على القيم الإنسانية المـتعارف عليه. فإن الاهتمام بدراسة القيم عند زكى نجيب لم يلق نفس العناية من الدراسة.

نهدف فى هذا الفصل تناول فهم رائد الاتجاه الفلسفى العلمى العربى لطبيعة القيم، ووجودها وإمكانية إدراكها، وهو جانب مهم من جوانب فلسفته. شغل به منذ بدايـة كـتاباته وأفـرد له عـدد كبير من الدراسات، ومع هذا لم يشغل من عناية الباحـثين الذين شغلوا بجوانب عديدة من فلسفته إلا حيزاً قليلاً أو لم يهتموا به إلا نادراً. فهو جانب لم يحظ كما ذكرنا بالاهتمام الكافى على الرغم من انشغال المفكر الكـبير بـه مـنذ فترة مبكرة فى حياته الفلسفية، وهو جانب مسكوت عنه من قبل هؤلاء الذين أمعنوا النظرى فى القضايا التى أثارها زكى نجيب، وكتبوا عنها سواء بالتأييد والمتابعة أم التحليل والنقد.

كما نهدف إلى تأكيد الاتجاه العلمى عند المفكر العربى فى دراسته للقيم وإن كـان الاتجـاه ينطلق من التوجه العام الذى تبناه فى فلسفته وظل يؤمن به، ويطبق منهجه فى كل كتاباته ــ تقريباً ــ منذ رسالته للدكتوراه عن "الجبر الذاتى" ١٩٤٨، وحتى "حصاد السنين" ١٩٩١. ونحن فى هذه الدراسة نتبنى وجهة نظر مؤداها أن الدكـتور زكى نجيب ظل مفكراً علمياً نقدياً داعياً إلى منهج الوضعية المنطقية فى كـتاباته المـتأخرة؛ الـتى انصبت على تجديد الفكر العربى وقضايا التراث، وهى مسألة لها أهميتها التى نحرص على تأكيدها.

(*) يمثل هذا الفصل الدراسة التى أسهمنا بها فى الكتاب التذكارى الذى أصدره المجلس الأعلى للثقافة عن الدكتور زكى نجيب محمود أشراف الدكتور حسن حنفى، القاهرة، ١٩٩٨.

فمــا يميــز زكى نجيب محمود هو وحدة المنهج، وعلى ذلك فنحن نستبعد القــول بــتعدد مراحل تفكيره وتطور كتاباته، أو القول بتحول معرفى، أدى به إلى الانــتقال مــن مرحلة ميتافيزيقية إلى أخرى وضعية منطقية، إلى ثالثة ذات صيغة عربية إسلامية(١).

إنــنا نهــدف إلى تحــليل فهم زكى نجيب للقيم ومعالجته لقضاياها وتحديده لطبيعتها، وموقفه من وجودها. وذلك فى إطار اهتمامه المبكر والمستمر بدراستها، وكــتاباته المتعددة فيها؛ والتى تدخل فى إطار اهتمام الفلاسفة المعاصرين بدراسة هــذا المجال. محاولين الإجابة عن عدد من الأسئلة التى تمثل صلب نظرية القيمة المعاصرة؛ خاصة فى الاتجاهات التجريبية الطبيعية وثيقة الصلة باتجاهه العلمى.

ويــأتى فى مقدمــة هذه الأسئلة العلاقة بين القيم والوجود؛ انطولوجيا القيمة وطــبيعة وجودها. والعلاقة بين القيم والمعرفة؛ ابستمولوجيا القيمة وكيفية إدراكها، والــتى تــؤدى بنا إلى قضية أساسية تتعلق بطبيعة فلسفة القيم .. فهل أنكر مفكرنا القيــم أو اعــترف لها بنوع من الوجود؟ وما طبيعة وجود القيم فى نظرته العلمية الوضعية؟ وهل هو إنكار لوجود القيم أو لإمكانية إدراكها ودراستها دراسة علمية؟ حيــث إن إنكــار القيم عند الوضعيين يؤدى إلى هدم البحث فى القيم، أو على أقل تقديــر يــلقى بهــا إلى ميــدان علم النفس وعلم الاجتماع، كما يرى بعض أقطاب الوضعية المنطقية، فهل كان الفيلسوف العربى وضعياً منطقياً حقيقة فى نظرته لها أم تحول عن هذا الموقف إلى موقف آخر؟

كــل هــذه أسئلة وغيرها مما سيأتى فى سياق هذا البحث تنطلق من اهتمام زكى نجيــب محمــود الكبير بهذا المجال؛ القيم والأخلاق والجمال، أو بعبارة أدق

---

(١) يشير البعض إلى تحولات فى موقف زكى نجيب محمود الفلسفى وانتقاله من المرحلة العلمية أو الوضــعية المــنطقية إلى مرحــلة تجديد الفكر العربى والمعقول واللامعقول، انطلاقاً من اخــتلاف موضــوعات البحث، بينما تفترض الدراسة الحالية وحدة المنهج فى أعمال زكى نجيب رغم اختلاف الموضوعات. ومن أصحاب التفسير الأول نجد إمام عبد الفتاح إمام فى مقدمــة ترجمــته للجبر الذاتى: الذى يؤكد على الجانب الميتافيزيقى عند زكى نجيب السابق عــلى المرحلة العلمية، وكذلك منى أبو زيد فى زكى نجيب ومراحله الفكرية، مجلة المنتدى؛ الإمارات العربية عدد ٩٤ ما يو ١٩٩١، ص ٣٤ والفصل الأول من الفكر الدينى عند زكى نجيب محمود، دار الهداية القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٥ وما بعدها.

بالإنســـان الـــذى كان الشغل الشاغل له منذ البداية. ولمناقشة هذه الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها علينا أن نحلل أعمال رائد الاتجاه العلمى فى فكرنا الفلسفى، ونناقش أفكاره حول القيم منذ كتاباته الأولى.

١ – البدايات: الإنسان، الحرية والقيم :

فى تقديمـــه تـــرجمة "الجبر الذاتى" إلى العربية؛ وهو العمل الذى حصل به عـــلى درجـــة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن عام ١٩٤٧، كتب زكى نجيب متسائلاً عن ثبات موقفه الفلسفى؛ إذ يقول: "ترى هل يكون الإنسان إنساناً أكمل لو ظـــل عشرات الأعوام ثابتاً على فكرة بعينها؟ أم أن الكمال مرهون بالصدق وحده سواء اقتضى هذا الصدق ثباتاً على الفكرة أو انقلاباً عليها؟ .... ويضيف "الحمد لله الـــذى أنعم علىّ بصفة الإخلاص لنفسى، أقف عند الفكرة التى أؤمن بصدقها غير عـــابئ بهجمة الناقدين" .. إن زكى نجيب حين راجع ترجمة كتابه إلى العربية بعد خمســـة وعشـــرين عامـــاً مـــن تأليفه وجد نفسه ثابتاً على مضمون الدعوة. وما مضـــمونها الـــذى يؤكده لنا سوى حرية الإنسان وقدرته على الخلق والإبداع. تلك قضية أساسية ينطلق منها، ودعوة مستمرة يدعو إليها.

إن بقية إجابته :تقتحم مجالاً ــ كادت كتاباته التالية تنسينا إياه ــ لا تثبته ولا تـــنكره، فهى منطقة مجهولة فى تفكيره أو قل منطقة مسكوت عنها، ولن تتضح إلا بإلقاء الضوء عليها فى دراسات أخرى، وفى سياقات مختلفة، هى منطقة الإنسان، العـــالم الباطـــنى الداخـــلى أو مملكة الحرية بلغة كانط. يقول: "فما زالت حتى هذه اللحظة أومن إيماناً راسخاً بأن الإنسان كائن مريد حر فى اختيار ما يريده، وأنه ــ دون ســـائر الكائنات ــ ليس حصيلة سلبية للعناصر الخارجية المحيطة به، بل هو مـــبدع خـــلاق يـــأتى بالجديد الذى يضاف إلى الوجود خلقاً جديداً، يكون له فضله وعليه تبعته[٢].

ونـــتوقف عند قوله: "فما زالت حتى هذه اللحظة" الذى جاء فى بداية العبارة الســـابقة، والـــتى يؤكـــد فيها على إيمانه الدائم والسابق والحاضر والمستمر بهذه

(٢) زكى نجيـــب محمـــود: الجـــبر الذاتى: ترجمة أمام عبد الفتاح أمام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، ص ٤.

الدعــوى، أى القــول بحــرية الإنســان، أو بأن البحث فى الإنسان هو البحث فى الحرية، وأن كتاباته المختلفة بعد رسالته فى الدكتوراه، وحتى ترجمتها إلى العربية ــ خاصـــة؛ خــرافة الميتافيزيقا" ١٩٥٣، والمنطق الوضعى ١٩٥٦، "ونحو فلسفة عــلمية" ١٩٥٨ ــ والتى تؤكد على إيمانه بالعلم والمنهج العلمى والفلسفة الوضعية والـــتحقق التجريبى للقضايا العلمية أو إمكانية هذا التحقق، أى الإيمان بعالم الحس ووقائعــه المختــلفة التى لا وجود لسواها؛ والاقتصار على العالم التجريبى، الذى تحكمه القوانين الطبيعية، ولم ينف أبداً إيمان الفيلسوف بعالم آخر هو عالم الإنسان والحــرية. هذا هو الأساس العام الذى لا يعلنه صراحة، لا فى رسالته بالإنجليزية، ولا فى تقديمه لترجمتها العربية.

هــل لــنا أن نفــترض أن زكى نجيــب فى بحثه "الجبر الذاتى" كان بازاء فلسفتين؛ الأولى آمن بها إيماناً قوياً وجعلها بديهية أساسية لم يعلن لنا عنها. والثانية رفضـــها فى هــذه اللحظة وشك فيها وانتقد صاحبها، وجعل محور دراسته دحض أفكارهــا؟ لا يخــفى على القارئ أننا نقصد فلسفتى كانط وهيوم. إن التعارض بين هــاتين الفلســفتين قائم فى ذهنه، ويتضح لنا من استقراء عمله الحالى. وغيره من أعمــال. إن موقفــه مــن كانط باطن فى إيمانه بعالمين ميز بينهما صاحب الفلسفة النقدية؛ الأول الذى خصص له هذا العمل "الجبر الذاتى" وهو عالم الحرية الداخلية الباطــنية للإنسان المبدع المتحرر الخلاق، والثانى عالم الطبيعة بما فيه من حتمية وجبر، والثانى هو ما تظهره التجربة الحسية.

ويمكنــنا إن اســتمرت المقارنة بين زكى نجيب وكانط أن نجد أوجه اتفاق شــديدة ودقيقة وعميقة بينهما انطلاقاً من الفكرة الأساسية التى تمثل محور "الجبر الــذاتى"، وهى نفــس الفكرة التى قدمها كانط فى كتاباته الأخلاقية المختلفة "أسس ميــتافيزيقا الأخــلاق" ١٧٨٥، الذى جعله بمثابة تمهيد لــ "نقد العقل العملى" كتابه الرئيســى فى الأخــلاق ١٧٨٨، وكتابه الثالث والأخير "ميتافيزيقا الأخلاق". وذلك مقــابل معارضته للقطب المضاد لكانط، ألا وهو الفيلسوف الحسى الإنجليزى هيوم D. Hume الــذى ســيكتب عــنه ١٩٥٨، جاعلا منه أحد رواد اتجاهه الوضعى المنطقى؛ إلا أنه فى هذا العمل يرفض ابستمولوجيته حين كتب يقول: "حين أنشأت هــذه الرســالة العــلمية فقد رأيت عندئذ أن أعارض اتجاهين فكريين فى تحليلهما

للـنفس الإنسـانية: همـا مذهب هيوم فى المعرفة ومذهب السلوكية فى ميدان علم الـنفس، على حين أنى اليوم أبدأ من هذين الأساسيين لأقيم فكرى، ذاهباً معهما إلى آخـر مـا يسـتطيعان... على أنى مع الأخذ بهذين المذهبين فى تحليلهما للمعرفة والسـلوك أعـتقد أنهما لا يستنفذان الإنسان كله، بل يتبقى من الإنسان بقية ملغزة تستعصـى على التحليل هى على وجه التحديد البقية التى يكون فيها الإنسان الفرد المتميز، المريد الحر فيما يريد، المبدع، الخلاق"(٣).

يؤكـد زكى نجيـب محمود فى هذه المقدمة المهمة التى كتبها بعد ربع قرن على إيمانه بالأسس التى قام عليها بحثه. "فالنتيجة التى أصل إليها اليوم هى نفسها النتيجة التى وصلت إليها فيما مضى، وإن اختلفت خطوات البرهنة والتدليل"(٤).

ونستخلص من هذه العبارة قضيتين أساسيتين نظن أنهما مازالا ساريين منذ هذا العمل فى أعمال زكى نجيب التالية، وهاتان القضيتان هما:

١- إيمـان زكى نجيب محمود الراسخ بحرية الإنسان ــ فى إطار الجبر الذاتى ــ وأنـه مبدع خلاق يأتى بالجديد، الذى يضاف إلى الوجود خلقاً جديداً يكون له فضـله وعليه تبعته. وما يستخلص من هذه القضية من نتائج قد لا تجد تعبيراً عـنها فى هـذا العمل الأول، لكنها تظهر بوضوح فى أعماله التالية، مثل أن العـالم الداخلى وحرية الإرادة، وما يبدعه الإنسان من أعمال القيم عصية على الدراسـة العلمية، فهو جانب يعترف بوجوده من جهة وعدم قدرتنا على تناوله بالتحليل المنطقى وتحديده فى صياغة أو قوانين علمية من جهة أخرى.

٢- إيمانـه الدائم بالعلم وقدرته على تناول القضايا التى تتعلق فقط بالوجود المادى الفيـزيقى للأشياء، وذلك عن طريق إمكانية التحقق من قضاياه، واستبعاد ما لا يخضع منها للتحقيق.

بهـذا يمكـن تفسـير ما قد يراه البعض من تباين بين وجهين لرجل واحد، الأول مـناداته بطـرائق للتحليل ــ "الوضعية المنطقية" ــ دون أن تضيف للناس فكـرة إيجابيـة تحل لهم إشكالاً، والثانى حديثه عن الإنسان وكأنه جمع فى بوتقة

(٣) الموضع السابق.
(٤) نفس الموضع.

واحـــدة عـــدة فلســـفات معاصرة؛ الظاهراتية والوجودية والتطورية والبرجسونية. ويرفع زكى نجيب هذا التناقض أو التباين بين الموقفين. فالفرق بينهما ــ كما يراه ــ هــو فــرق بين منطق التحليل حين يكون مجرداً (كما فى معظم أعماله التالية)، وهذا المنطق التحليلى نفسه حين يدخل ميدان التطبيق (كما فى الجبر الذاتى)؛ فهذا العمـــل ــ فى حقيقـــته ــ إن هو إلا موضوع استخدم فى بحثه أدوات التحليل التى من شأنها تفتيت الفكرة المحملة إلى عناصرها البسيطة، فيلقى ضوء على محتواها حـــتى إذا مـــا عهدنا إلى وضعها فى السياق كانت أقدر على توصيلنا إلى نتيجة أو نتائج(٥).

ومهمتـــنا فى هـــذا الجـــزء مـــن دراستنا ــ هى أن نناقش هذين الجانبين ونحلـــلهما، ونســـعى لاســـتخلاص ما ينشأ عنها من نتائج تتعلق بفهم زكى نجيب لطبيعة ووجود ومعنى القيم. ولم نلجأ إلى عرض أو تلخيص قضايا "الجبر الذاتى"، بـــل ســـنحلل نـــتائج هذا البحث وصولاً إلى بيان مكانته التأسيسية من فلسفة زكى نجيب محمود فى القيم.

٢- الجبر الذاتى بين الرؤية الميتافيزيقية والدراسة العلمية:

يؤكـــد المفكـــر على اهتمامه الذاتى بمشكلة حرية الإنسان، ويحددها لنا فى إطار علمى، مطبقاً عليها قانون كونت فى المراحل الثلاث، فقد كانت فى صورتها البدائية البسيطة مشكلة لاهوتية، وكانت فى المرحلة الثانية من النمو العقلى للإنسان مشـــكلة ميـــتافيزيقية بصفة خاصة، وأصبحت فى العصور الحديثة ــ بعد أن سلم العـــلم بـــنظرية الـــتطور ــ أكثر دقة وأكثر عمقاً، وأصبحت مشكلة الحياة نفسها: والنتيجة التى يقدمها لنا فى هذه المشكلة؛ هى أن الإنسان حر لا بمعنى حرية إنعدام القـــانون أو الخضـــوع للعشـــوائية، لكـــنه حر بحرية منظمة تنظيماً سببياً، فالفعل الإرادى معلول، وهو حر فى آن، وهذا ما يسميه الجبر الذاتى"(٦).

إن زكى نجيـــب يحـــدد بهـــذا العمل بداية مرحلة فى تفكيره؛ إنه يمثل بداية تفلســـفه، أو قـــل بداية تبنيه للنظر العلمى، وهو يعترف لنا بذلك: "وإنى لأعلم علم

(٥) المرجع السابق، ص ٤ – ٥.
(٦) المرجع السابق، ص ٢١ – ٢٢.

اليقيــن مقدار التحول الذى طرأ على اتجاهى العقلى، ذلك لأن أثره علىّ قد جاوز الــنطاق الضيق لهذا البحث؛ فأدى إلى تحول فى طريقة تفكيرى أيما كان موضوع هــذا التفكير"(٧) إن معالجة هذه القضية ــ إذن ــ تمثل مرحلة جديدة؛ هى مرحلة الدراسة العلمية والتحليل المنطقى لقضايا الأخلاق. أو قل بداية تفلسف زكى نجيب. فما يشغل الرجل هنا هو تحديد المصطلحات تحديداً علمياً، حتى نستطيع أن نتجنب المجــادلات الميــتافيزيقية التى لزوم لها. "وأنا حين أذهب إلى أن الإنسان حر فى أفعالــه الإرادية يجب علىّ أولا وقبل كل شىء أن أحدد تحديداً دقيقاً قدر المستطاع مــا أعــنيه بكلمــتى "حر" وإرادة"، ومثل هذا التحديد ضرورى كذلك لمعنى كلمه: النفس "أو الذات"(٨).

إنــه يقســم الــنظريات الممكنة عن النفس إلى مجموعتين رئيسيتين يطلق عــليهما: اســم "الــنظريات المركــزية" و"الــنظريات اللامركزية"، ويأخذ هيوم" و"واطســن" كممثلين لصورتين من النظرية اللامركزية. الأول استخدم الاستبطان منهجاً للبحث، بينما استخدم الثانى منهج الملاحظة الخارجية للسلوك. ويناقش زكى نجيب هيوم، وينتقد نظريته، ويتبنى المنهج الذى استخدمه ديكارت حين أثبت وجود نفســه بوصــفه عملية تفكير. فديكارت لم يزعم أن الذهن موجود لأنه اكتشفه عن طريق الاستبطان، لكنه زعم وجوده لأنه اكتشف أنه متضمن فى موقف معين كان يقــوم بفحصــه، ووجد أن إنكار الذهن لا يعنى سوى إعادة إثباته من جديد، فنحن أثناء عملية الاستبطان نكون على وعى مباشرة بالحالة النفسية التى نقوم بفحصها، لكنــنا بالإدراك الجدلى الذى نقترحه هنا لاكتشاف الذهن نستنتج وجوده؛ لأننا نجد أنه من الضرورى أن يكون متضمناً فــى المــواقف السيكولوجية"(٩).

بعــد رفض النظريات اللامركزية التى ترد النفس إلى مجموعة من الحالات دون أى مركــز موحد يوجد بغض النظر عن مجموعة العلاقات الخاصة بين هذه الحــالات، لأنهــا غيــر كافية، وبعد رفض إحدى صور النظرية المركزية، وهى

(٧) المرجع السابق، ص ٢٣.
(٨) المرجع نفسه.
(٩) المرجع السابق، ص ٤٤.

النظرية التى تقبل وجود مركز موحد؛ لكنها تعتبره الكتلة الشعورية البدنية المتصلة والمطردة. نجده يسلم بالنظرية التى تقول بوجود مركز؛ لكنها ترفض أن يكون هو نفسه جانباً من جوانب الخبرة. ونستطيع أن نميز بين تصورين لهذا المركز، الأول هو تصوره على أنه موجود بسيط أو كائن لا زمانى، أو روح قائمة فى البدن ومرتبط به. والثانى على أنه مبدأ للوحدة يكمن وراء خبرة الفرد دون أن ينفصل عن هذه الخبرة بحيث يصبح قانون الكائن الحى نفسه، ينظم طرقه فى الإدراك والتفكير والفعل؛ لكنه ليس له وجود بمعزل عن الكائن الحى" [١٠] .

ويأخذ زكى نجيب محمود بهذا التصور الثانى؛ وهو تصور براجماتى وظيفى ينقلنا إلى الأصول التى اعتمد عليها صاحب "الجبر الذاتى ونظرتها للذات أو العقل"[١١] — سواء أكانت هذه الأصول من: البراجماتية، أو التحليلية، أو الواقعية الجديدة —.

ويحدد هذا المركز فى "الفعل المتضمن فى عملية الإنتباه"؛ فالنفس هى فعل بواسطته يجمع الفرد ما يبدو أنه يساعده فى حفظ وجوده. هذا الفعل هو المبدأ الموحد لمحتويات خبرة الفرد بحيث تكون واحدة فى أية لحظة على الرغم من تعدد المحتويات وتنوعها، إنه الشرط الذى بدونه تصبح الرغبة والنفور والإنتقاء والرفض أموراً مستحيلة. وبدون افتراضه — من ناحية أخرى — لا يستطيع الفرد أن يشعر ويدرك ويفكر؛ إنه الصورة أو الخاصية الأساسية للفاعل السيكوفيزيقى التى تجعله ينتقى العناصر التى لاغنى عنها لوجوده. وفى كلمة واحدة — كما يخبرنا زكى نجيب — المركز الموحد: هو الفعل المتضمن فى عملية الانتباه"[١٢].

وهذا التحديد قريب من فهم الفيلسوف الأمريكى صاحب الواقعية الجديدة رالف بارتون بيرى R. B. Rerry (١٨٧٦ – ١٩٥٧) [١٣] فالانتباه الذى يقول به

---

(١٠) المرجع نفسه، ص ٥٢– ٥٣.

(١١) راجع الفقرة الثالثة الذى خصصناها عن القيم عند زكى نجيب محمود فى الفصل السابق توفيق الطويل ودراسات القيم فى العربية.

(١٢) زكى نجيب محمود: الجبر الذاتى، ص ٤٥.

(١٣) راجع موقف بيرى فى د. أحمد عبد الحليم عطية: القيم فى الواقعية الجديدة عند رالف بارتون بيرى، القاهرة ١٩٨٨، الباب الثانى، الفصل الثانى.

زكى نجيــب هــو الاهتمام interest الذى يؤكد عليه بيرى، ووصف الإنسان عند المفكــر العربى بالفاعل السيكوفيزيقى يذكرنا بقول بيرى بأن الإنسان جماع مواقف الحيــاة الوجدانيــة الحــركية. وهو ما يتضح فى شرح زكى نجيب لمفهوم الفاعل الســيكوفيزيقى بــالكل المــتحد الذى يقوم بعمل رئيسى واحد فى وقت معين (الكل العضــوى)، وهو يعنى بذلك "طريقة فى السلوك تعتمد على تعاصر أفعال الأجزاء التى يتألف منها هذا الكل بتلك الطريقة التى تؤدى إلى تركيز الكل فى عمل رئيسى واحد فى وقت معين.

وســوف نلاحظ أن تحليل الفرد إلى أجزاء متحدة الاتجاه فى أفعالها ليس إلا دراســة موضــوعية، أو عــلى أحسن الأحوال دراسة تالية ــ وإن كانت ذاتية ــ لموقــف لا يمكن مطلقاً دراسته دراسة ذاتية أثناء عملية السير. لكنه يمكن فقط أن يخــبره الفاعل كفعل؛ والفاعل السيكوفيزيقى فى حالة الفعل ليس شيئاً بالنسبة لنفسه ســوى فعــل، فهــو لا يشعر بأية أجزاء أو أعضاء وهى تعمل، أو حتى بتكوينه العضوى ككل يعمل بطريقة تامة وكاملة[١٤].

إن هذه النظرة الوظيفية التى يؤكد عليها نجيب هى نفسها نظرة بيرى للعقل الــتى ترجع إلى اعتناقه نظرية "الواحدية المحايدة" التى نجد أصولها لدى كل من: تشــارلز بيرس وبراترند رسل وألفرد نورث وايتهد ووليم جميس وبيرى. وهى ما يؤكــد عــليه نجيب باسم "الانتباه"؛ فالانتباه لا يمكن تصوره دون موضوع، سواء أكــان هــذا الموضوع داخلياً أم خارجياً. ومن هذه الثنائية: الانتباه/ إلى شىء ما، تــتألف نظرتــنا إلى الــنفس فالانتباه هو الجانب الذاتى، وما ننتبه إليه هو الجانب الموضــوعى. والــنفس هى وحدة الذات، والموضوع "أو هى ثنائية" الصورة ــ المــادة" والصــورة هى فعل الانتباه. والمادة هى الموضوع الذى يقع عليه الانتباه. ومــن الواضــح أن الجانــبين لا يمكن أن ينفصلاً على الرغم من أنهما يمكن أن يتمايزا. فالفرد المنتبه وموضوع انتباهه يتضمن كل منهما الآخر، وهذان الجانبان لازمــان لتكوين الخبرة أياً كان نوعها: منهما تبدأ الخبرة وبهما معاً تستمر. وليس

(١٤) زكى نجيب محمود: المرجع السابق، ص ٥٤، الحاشية.

في اســتطاعتنا مطــلقاً أن نحللهما، ونردهما إلى فرد منتبه بدون موضوع أو إلى موضوع بدون الفرد المنتبه"(١٥).

وعمــلية الانتباه عنده عملية مستمرة ومتصلة" من الواضح أن عملية الانتباه بوصفها فعلاً لفاعل سيكوفزيقي، هي دائماً شيء واحد وهي هي نفسها، إذ لا توجد اخــتلافات كمية أو كيفية بين الحالات المختلفة للانتباه. وقل مثل ذلك في أي فعل بمــا هــو كذلــك، فالرؤية واحدة باستمرار وهي هي، والمرئيات هي التي تختلف وتتــنوع، والسمع واحد دائماً، والأصوات هي التي تختلف وتتنوع."(١٦) معنى ذلك أن فعــل الانتــباه يقبع خلف حياة الفرد النفسية بأسرها، وما يبدو لنا أنه تنوع في الأفعــال السيكولوجية ليس في حقيقة الأمر سوى تنوع للجانب الموضوعي، فليس هــناك ســوى فعل أساسي واحد هو الانتباه، ثم موضوعات متعددة ننتبه إليها في أوقات مختلفة.

ويقــترب موقــف زكي نجيب محمود في الانتباه (الذي يساوي الشعور عند جميس والخبرة عند ديوي، والاهتمام عند بيري) اقتراباً شديداً من أصحاب الاتجاه التجريــبي في القيــم خاصة الفلاسفة الأمريكيين سواء ديوي البراجماتي أو بيري الواقعي الجديد في ربطهما بين الانتباه والنفع أو المصلحة(١٧). فالسبب الذي يجعل الضــوء اللامــع أو الصــوت المــدوي يجذب الانتباه أكثر من الضوء الخافت أو الصوت الضعيف هو "نفع الفرد ومصلحته"(١٨). يقول: "وسواء أكانت الظروف في ظاهــرها ذاتية أم موضوعية فإن النفع الحقيقي للفرد هو الذي يحدد باستمرار اتجاه الانتباه"؟

فهــو يجعــل من نفع الفرد ومصلحته القيمة القصوى أو الخير الأسمى فيما يطــلق عــليه "لذة الحياة" يقول: "ما أشرنا إليه على أنه "نفع الفرد ومصلحته" ليس

---

(١٥) المراجع السابق، ص ٥٥.
(١٦) المرجع السابق، ص ٥٨.
(١٧) راجــع هذا الموقف كل من محمد محمد مدين: القيم عند جون ديوي، رسالة ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة القاهرة. وأحمد عبد الحليم عطية: القيم في الواقعية الجديدة عند رالف بارتون بيري، القاهرة ١٩٨٨.
(١٨) زكي نجيب محمود: المرجع السابق، ص ٦٤.

شـيئاً آخـر سوى لذة الحياة التى هى نفسها جزء وجانب من الحياة .. ولذة الكائن الحى هى أن يستمر فى الحياة، وأن يحدد نفسه باستمرار كحياة جديدة ... ولا يخلو مـنها لـون من ألوان الحياة، فلذة الحياة هى العامل المشترك بين الكائنات جميعاً. والـناس يوجهـون انتباههم إلى موضوعات تختلف باختلاف منافعهم، وباختلاف بالمجـالات الـتى تنتمى إليها هذه الموضوعات"[١٩] ومعنى ذلك أن الانتباه عملية انـتقاء ورفـض: انتقاء لما يبدو أنه يلبى منافع الفرد ورفض لما هو عكس ذلك. والانـتقاء شـرط ضـرورى للغرضـية، الـتى هى الخاصـية الأساسية للجانب السـيكولوجى بوصفه جانباً متميزاً عن الجانب الجسمى، بل إن الغرضية عنده ــ كما هو الحال عند بيرى ــ تؤخذ كمقياس لوجود الذهن[٢٠].

وعـلى هذا الأساس الذى يحدده لنا زكى نجيب فى الفصل الأول من كتابه الـذى يخصصـه لتعريف النفس، وهو تعريف مستمد ــ كما رأينا ــ من النظرية الوظيفيـة ــ نجده يتناول ــ فى الفصل الثانى الذى خصصه لنشاط الذات ــ الجبر الذاتى. والذى يعرفه لنا على النحو التالى:

"الخبرة هى مرجعى النهائى للبرهنة على أننى فى حالة الانتباه لا أسلك فى فعـلى بسـبب عوامـل خارجية ذلك لأننى حين أنتبه أكون شيئاً ولا أكون ممتلكاً بشـىء مـا، أعـنى أننى أنتقى، وأقبل بديلاً من البدائل الموجودة أمامى، فأختاره وأجعلـه مالكـاً لى وأوحد بينه وبين ذاتى، ذلك هو الجبر الذاتى أو التحديد الذاتى الذى يضع فيه المرء ذاته ويجعلها على ما هى عليه"[٢١]. إن كانطية زكى نجيب ــ الـتى لم يعلن عنها فى هذا العمل ــ تظهر فى تحديده للحرية بالعالم الداخلى، عالم الإرادة مقـابل العالم الطبيعى عالم الحتمية. ويتضح ذلك فى قوله "إن فكرة الحرية بالمعـنى الذى تفهم به فى نظرية الجبر الذاتى على أنها تظهر فى فعل الفاعل حين ينتـبه ويخـتار موضوعه ــ هذه الفكرة مستمدة مباشرة من خبرتى العينية كما أن فكـرة الضـرورة مستمدة من الفكرة الأصلية عن الحرية وفكرة القانون التى هى أسـاس العـلم ــ وبالتالى أساس المذهب الجبرى ليست إلا تصفية للوقائع العينية الموجودة فى خبرتى الخاصة".

(١٩) المرجع السابق، ص ٦٥.
(٢٠) المرجع السابق، ص ٨٣.
(٢١) المرجع نفسه، ص ١١٥ – ١١٦.

إنـــنا نؤكد هنا على كانطية زكى نجيب، ليس فقط من ناحية نقده لهيوم، بل أيضـــاً مـــن خلال تبنيه لمفهوم الإرادة واتخاذه من الإرادة العاقلة، أو الذات العاقلة معيـــاراً خلقياً يقول: "إن المعيار الخلقى الذى أخذ به واعتبره صادقاً هو الآتى؛ إن الذات الحق هى التى يمكن أن توصف حقاً بأنها ذات عاقلة، وأنها ذلك العالم الذى نشـــغله فى أعمق لحظات حياتنا حكمة وروية وبصيرة.."[٢٢] وهذا المفهوم يتكرر لديه ويزداد وضوحاً ويكاد يقترب من قول زكى نجيب "بالذات المثالية".

ويـــرى أنـــه عـــلى الرغم من تعدد الأنظمة المختلفة للحياة فإن هناك نظاماً مـــثالياً يمكـــن أن يتحقق عن طريق الذات المثالية (وهى الذات العاقلة)، فالأخلاق تعـــنى الســـلوك تحـــت سيطرة العقل والفاعل بهذا السلوك يحقق ذاته الحق. وليس معـــنى ذلك أن كل فعل إرادى لابد من أن يكون فعلاً أخلاقياً، لأن الفعل الإرادى ليس إلا تحقيقاً لذات الفاعل فحسب، وكلما سار المرء فى أفعاله وفقاً للعقل سماً من الناحية الأخلاقية"[٢٣].

يضـــيف زكى نجيـــب فى فلســـفته الأخلاقية ــ المبكرة ــ للانتباه، خاصية الجهد والرغبة، فالفعل الأخلاقى يقوم على الجهد ويستلزم الرغبة.

ويـــناقش صاحب الجبر الذاتى رأى روس Ross الذى يقول إن العقل لا يقل فى خيريته كلما أصبح سهلاً عن طريق العادة: لأن الخيرية لا تقاس بشدة الصراع وإنما بقوة التكريس للواجب، فكلما كانت الدوافع التى تعارض فعل الخير قوية كنا عـــلى يقين من أن الإحساس بالواجب لابد أن يكون قوياً، لكنه قد يكون قوياً أيضاً حتى تكون الدوافع المعارضة ضيقة أو غير موجودة"[٢٤].

والسؤال الذى يطرحه هو كيف يمكن أن تظل القيمة الأخلاقية باقية كما هى ســـواء أكـــانت المقاومة ضعيفة أم قوية؟ وإذا سلمنا بأن السلوك الخير يظل خيراً، فهـــل تظـــل القيمة الأخلاقية التى تعزى إلى هذا السلوك فى الظروف المختلفة هى هى...؟ هل نبدى نفس الإعجاب للرجل الفاضل الذى يعيش وسط إغراءات الغواية

(٢٢) المرجع نفسه، ص ١٥٠.
(٢٣) نفس الموضع.
(٢٤) المرجع السابق، ص ١٥٢.

ولكنه مع ذلك يسلك سلوكاً فاضلاً، والرجل الذى يسلك سلوكاً فاضلاً دون أن تكون حوله غواية ولا إغراء يشدانه إلى الاتجاه الخاطئ[٢٥].

ينـتقل بـنا زكى نجيب نقلة هامة تقربه من سارتر، فالفعل الأخلاقى أشبه بالخـلق الفنى، هو إبداع على غير مثال، لذا فهو يرفض أخلاق العادة. ويؤكد على أخـلاق الجهد، حيث يميز بين السلامة والقيمة فى الفعل الأخلاق. فالفعل الأخلاقى كلما أصبح سهلاً عن طريق العادة ظلت سلامته الأخلاقية تامة غير منقوصة، لكن قيمـته الأخلاقيـة تتـناقص بالـتدريج مع تناقص الجهد المطلوب، فهو يعُد الفعل الأخـلاقى خيراً بناء على الجهد الأخلاقى الذى يبذل فى هذا الفعل قبل أن يتحول إلى عـادة سهلة ميسورة. يقول: "إن الفعل الأخلاقى ـ فيما اعتقد ـ أشبه ما يكون بالإنـتاج الفنى، أعنى أنه لون من الخلق: فإذا ما تكرر الفعل حتى أصبح عادة فإن الخلق الحقيقى الأصيل يعزى فى هذه الحالة إلى الأفعال الأولى فى السلسلة بينما لا تكـون الأفعـال الـتالية سوى "تقليد" أو محاكاة"[٢٦] الجهد إذن أساس خيرية الفعل الأخلاقى ومصدر قيمته الخلقية.

وبالإضـافة إلى التأكيد على الفعل الأخلاقى القائم على الجهد يقول بالرغبة هدفاً محركاً للفعل الأخلاقى، والرغبة هى تحديد لما سبق أن أسماه لذة الحياة. وهو فى هذا يقترب من معظم النظريات التجريبية المعاصرة فى القيم، ويستشهد بعبارة اسبينوزا التى استشهد بها الفيلسوف الأمريكى رالف بارتون بيرى "فنحن لا نرغب فى الشىء لأنه يسرنا بل على العكس أنه يسرنا لأننا نرغب فيه"[٢٧]. وعلى الرغم مـن استشـهادات زكى نجيب العديدة من اسبنيوزا، إلا أنه يختلف عنه، وهو يؤكد عـلى هـذا فى قوله: "إن وجهة النظر التى يأخذ بها هذا البحث تختلف عن وجهة الـنظر الـتى تنسب عادة لاسبنيورا وهذا الإختلاف يكمن فى أن البحث الحالى لا ينظر إلى طبيعة الفاعل على أنها معطاة ومقدرة سلفاً" لأن طبيعة الفاعل ـ إلى حد معيـن ـ مـن صـنعه. معـنى ذلك إنه حريص على تأكيد الحرية الداخلية ضد الحـتمية، وأيضاً اللاحتمية لأن مصدرها الذات. وهو يكرر أن لا يريد أن يستنبط

(٢٥) المرجع السابق، ص ١٥٣.
(٢٦) الموضع نفسه.
(٢٧) المرجع السابق، ص ١٩٦.

حريتنا من اللاحتمية فى العالم الطبيعى، وحتى إذا كان العالم المادى تحكمه حتمية مطـلقة "سوف أظل على اقتناع تام بأن الإرادة البشرية تحدد نفسها ولا يمكن التنبؤ بها"[٢٨].

وإذا أردنـا أن نواصـل متابعة الفيلسوف وتحليل أفكاره فى "الجبر الذاتى" لتأكيد فكرتنا القائلة بكانطية زكى نجيب محمود فى قوله إن الإنسان مملكة الحرية، وهـو مصـدر التشريع وأنه ملك ومواطن فى مملكة الأخلاق وجمهورية العقلاء والأفعال الحرة.

فالإنسـان مصـدر القـانون الـذى يشرعه لنفسه وحريته نابعة من داخله، فـالإرادة حـرة ومشروطة "إن من الممكن أن يكون للإرادة سبب، وأن يكون هذا السبب الفاعل نفسه مع ذلك حر"[٢٩]. فالقول بأن الإرادة مشروطة وحرة معاً هو ما يعينه بالجبر الذاتى، فالأفعال الإرادية ترتبط ارتباطاً سببياً بمقدمات معينة تقوم فى طبيعة تكوين نفسه ما دامت هذه الأفعال تعبر عن طبيعة الفاعل وتحقق ذاته، وهى فى نفـس الوقت حرة لأنها ليست نتاجاً ضرورياً لشىء آخر خارج طبيعة الفاعل نفســه، فبمقدار ما يكون الفاعل مكتف بذاته فى تفسير الفعل الإرادى فهو حر إلى هـذا الحـد فى هـذا الفعل، وهو بإنجازه له على هذا النحو يكون محدداً بذاته أو مجبراً ذاتياً[٣٠].

يـتأكد ذلـك فى الفقـرة الأخيرة من كتابه التى يقتبسها من برجسون والتى تقـول: "نحن أحرار حين تنبع أفعالنا من شخصيتنا بأسرها حين تعبر هذه الأفعال عـن تلك الشخصية بحيث يكون بينهما تشابه لأحد له. وهو التشابه الذى نجده بين الفـنان وإنـتاجه. ولا يهم أن يقال بعد ذلك إننا عندئذ نستسلم للأثر القوى الشامل لشخصيتنا: لأن شخصياتنا فى النهاية هى نحن"[٣١].

يظهر لنا زكى نجيب فى "الجبر الذاتى" فيسلوفاً أخلاقياً، يهتم بمشكلة أساسية هى حـرية الإرادة. يتجنب فى عرضه لها التناول اللاهوتى والتناول الميتافيزيقى،

---

(٢٨) المرجع السابق، ص ٢٤٦.
(٢٩) المرجع نفسه، ص ٢٥٦
(٣٠) الموضع نفسه.
(٣١) نفس المرجع، ص ٢٩٤.

ويصـــيغها صـــياغة علمية. ولا يمكن لنا أن نستنتج من اهتمامه بهذه المشكلة أنه صاحب تأمل ميتافيزيقى، فالمهم هنا ليس حل المشكلة التى طالما شغل بها الفلاسفة بقـــدر مـــا هو حرص المفكر فى بداية تفلسفه على صياغتها صياغة علمية محددة تجنـــباً للمجادلات اللفظية العقيمة، وذلك بتحديد المصطلحات المستخدمة فيها تحديداً مـــنطقياً. وعلى ذلك يمكننا أن نستنتج أن بحث القضايا الأخلاقية من المسائل التى شـــغل بهـــا مـــبكراً فى مرحلة دراسته للدكتوراه، التى تمثل تحولاً معرفياً أصيلاً، وبدايـــة للمرحـــلة العلمية الوضعية التى انتهجها فى كتاباته اللاحقة وهذا الاهتمام الأخـــلاقى المـــبكر الـــتى يدور حول مشكلة أخلاقية تقليدية يوضح الاهتمام الكبير بالإنســـان ومحاولـــة دراســـته دراســـة عـــلمية. ونستخلص من هذا العمل بعض الملاحظات الأولية التى تمهد لنا تناول أعمال زكى نجيب فى مجال القيم وطبيعتها ووجودها.

ـــ ينـــتمى عمـــل نجيب محمود الأول "الجبر الذاتى" إلى مجال الأخلاق أو الدراســـة العـــلمية للأخلاق والتحليل اللغوى المنطقى لقضاياها التقليدية، أكثر من انتمائه إلى الدراسة المعاصرة للقيم. فهو وإن كان يوضح اهتمام صاحبه بالأخلاق، فهـــو يســـعى لتجاوز المناهج التقليدية إلى النقد المنطقى لحلول القدماء وتفسيراتهم لهذه القضايا.

ـــ يـــتعامل زكى نجيـــب محمـــود ليس فقط مع درس تاريخ الفلسفة بل مع مشكلات الفلسفة المعاصرة فى وقت كتابة عمله وإذا كان المتفحص لقائمة مراجعه واستشهاداته يجده يتعامل مع أفلاطون وأرسطو وكتاباتهما المختلفة، وليبنتز وهيوم ولـــوك واســـبنيوزا، وكـــانط ومل من القدماء والمحدثين. ونجده أيضاً يقتبس من: رســـل، ووايتهد، ووليم جيمس ويناقش تحليلاتهم للعقل والوعى، وهو لا يعرض أو يحـــلل أعمالهم مكتفياً بدور الباحث الملخص بل يوظف هذه الكتابات لتقديم فرضه الأساســـى، ويتضـــح مع تحليل ومناقشة زكى نجيب محمود لمشكلة حرية الإرادة إيمانـــه الشـــديد بالإنســـان وحريته وقدرته اللا محدودة على إبداع أفعاله وإن هذا العالم، عالم الإنسان الحر يقابل عالم الحتمية فى الطبيعة. ثنائية لا يعلن عنها زكى نجيـــب وإن كان يؤمن بها وتتأكد على امتداد صفحات عمله؛ عالم الطبيعة المادية الفيـــزيائية والتى تخضع ظواهره للحتمية وهو موضوع العلم، وعالم الإنسان الحر

الذى تستعصى ظواهره على الخضوع للحتمية، والذى يسعى لبحثه بحثاً علمياً دون أن يصل إلى تأكيد إمكانية هذه الدراسة العلمية لسلوك وأفعال الإنسان وقيمه أو نفى هذه الإمكانية. وهذا ما نجده فى دراساته اللاحقة وفى مقدمتها "موقف (= خرافة) الميتافيزيقا". التى جاء بياناً وبرنامجاً لتوجهه الفلسفى الجديد مقابل الاتجاهات السائدة لدى زملائه العاملين فى مجال الفلسفة فى ثقافتنا العربية المعاصرة.

٣- موضوعية العلم وذاتية القيم

يحدد لنا زكى نجيب فى كتابه "موقف من الميتافيزيقا" موقفه من نسبية القيم. وهو الموقف الشائع عنه، والقائل بنسبية الخير والجمال. وفى هذا العمل يقدم لنا فلسفته؛ والتى تسعى لأن تكون فلسفة تجريبية علمية. من هنا فهى ترفض الميتافيزيقا وما يندرج تحتها من علوم فلسفية. وقد استبعد فى هذا الكتاب كل العبارات الميتافيزيقية باعتبارها خالية من المعنى لأنها تبحث فى أشياء لا تقع تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً ومنها الخير والجمال. يقول: "ونحن نسلك العبارات التى تتحدث عن الخير وعن الجمال فى زمرة الميتافيزيقا بالمعنى الذى حددناه لها، وبالتالى فإننا نرى العبارات التى تتحدث عن هاتين القيمتين فى الأشياء ــ قيمة الخير وقيمة الجمال ــ خالية من المعنى ولا تصلح أن تكون علماً ولا جزء من علم"(٣٢).

وهو من البداية يرفض وجهة النظر الموضوعية فى القيم التى تعترف لها بوجود مستقل عن الإنسان، ويدافع عن وجهة النظر الأخرى التى تجعل قيمة الشىء مجرد شعور ذاتى عند الإنسان نحو الشىء وليست هى بكائنة فيه. ويعطى لنا مثلاً على ذلك بأن الجمال فى وصفى لوردة بأنها جميلة هو شىء أضيف لها من عندى، وصف لشعورى إزاءها لا وصف لها هى. وهو موقف أقرب إلى موقف سانتيانا فى كتابه "الإحساس بالجمال" وبيرى فى "النظرية العامة للقيمة"(٣٣)

---

(٣٢) زكى نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا، ط ٣ دار الشروق، القاهرة ١٩٨٧ص ١١٠.

(٣٣) راجع كل من د. سانتبانا؛ الإحساس بالجمال، ترجمة محمد مصطفى بدوى، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ورالف بارتون بيرى: أفاق القيمة ترجمة د. عبد المحسن عاطف سلام، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٨ ودراستنا: القيم فى الواقعية الجديدة، القاهرة ١٩٨٨.

ويستنتج منه زكى نجيب محمود على عكس صاحبا الواقعية النقدية والواقعية الجديدة أن العبارة التى تحتوى على قيمة "جمال، هى عبارة تتحدث عما ليس يحس، أنها عبارة ميتافيزيقية.

ويتابع زكى نجيب فتجنشتين فى موقفه هذا، فهو يرفض موضوعية القيم، ويتبنى وجهة النظر الأخرى التى تسرى فى معظم مذاهب الفلاسفة المعاصرين. وتشير كلماته إلى هذا الموقف الذى يعود إلى صاحب الرسالة الفلسفية المنطقية، ولا قناعتنا بأن القيم جزء من ذاتنا، وأن العالم الخارج عنا لا خير فيه ولا جمال إنما هو عالم من أشياء [٣٤] ينقلنا من الميتافيزيقا إلى العلم عن طريق اللغة موجهاً مجهوده إلى إثبات أن العبارة التى تتحدث عن "قيمة" شىء ما هى عبارة فارغة من المعنى. واللغة عنده كما عند كارناب Carnap وظيفتان هما: التعبير والتصوير [٣٥] أو كما عند ريتشاردز A.G Rietcher الذى حدد اللغة بالاستعمال؟ فهى إما تستعمل استعمالاً علمياً، أو استعمالاً انفعالياً" حيث تجىء اللغة معبرة عن الحالة الوجدانية لقائلها [٣٦] وعلى هذا الأساس يقسم مذاهب الأخلاق إلى قسمين: مذاهب تصويرية وأخرى تعبيرية. يتبنى الفريق الأول القول بأن القيمة موضوعية تدرك وتوصف بعبارة وصفية علمية، والفريق الآخر يرى أن العبارة الأخلاقية جملة تعبيرية تعبر عما فى نفس قائلها مما لا يمكن مراجعته فيه فهى أشبه بالصراخ مثلاً أو بقهقهة الضحك". وهو ينتمى كما يخبرنا إلى هذا الفريق الثانى [٣٧].

وهو يتبنى تحليل ستفنسون Stevensen للاختلاف فى الحكم الأخلاقى، الذى يكون على أحد ضربين: إما اختلاف على وصف أمر وتفسيره وصفاً وتفسيراً يراد بهما مطابقة الواقع الخارجى "اختلاف الرأى"، وإما أن يكون اختلافاً فى الميول

---

(٣٤) نجد هذا الموقف واضح فى بداية كتاب فتجنشتين: رسالة منطقية فلسفية، حيث يقول: "معنى العالم يجب أن يكون خارج العالم. كل شىء فى العالم هو كما يحدث، فى العالم لا يوجد قيمة، وإن وجدت فليس لها قيمة، لو أن هناك أية قيمة بمعنى القيمة فاتها خارج الكل".

(٣٥) يتابع زكى نجيب موقف كارناب فى تحديده لطبيعة اللغة، ويجعل منه أساساً لفهمه للقيمة ويردنا إلى كتابه Philosophy and logical Syntex ص ٣٣.

(٣٦) راجع كتاب ريتشاردز: فلسفة النقد الأدبى؛ الذى يعتمد عليه زكى نجيب محمود ويستعين بتقسيمه لوظائف اللغة ليقسم على أساسها مذاهب فلاسفة الأخلاق.

(٣٧) زكى نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا ص ١١٤.

والأهـواء، وعندئذ لا يكون ثمة سبيل إلى الاتفاق، إلا أن يكره أحد المختلفين على قبول أمر لم يكن برضاه، وليس الإكراه اتفاقاً بالمعنى الصحيح[٣٨].

لا يرفض زكى نجيب القيم كلية ولا يستبعدها نهائياً كما قد يفهم من حديثه، بل هو يعنى فقط بكيفية إدراكها ومدى خضوعها للمعرفة العلمية لذا فهو يميز بين حديث الإنسان عن رغباته الخاصة ووصفه لميول الناس، وإن كانت الأولى فهى عبارة فارغة من المعنى، لأنه لا سبيل إلى تحقيقها، وإن كانت الثانية فهى عبارة مقبولة عنده، إذ يمكن الرجوع إلى ملاحظة ميول الناس كى يتحقق من صدق القائل، أن هذه التفرقة ضرورية عند الرجل لتعلم متى يجوز الكلام عن القيم ومتى لا يجوز.

ويوضـح نقـده لاراء "جـود" عنصـراً هاماً فى فهمه للقيم وهى أداتيتها وارتـباطها بـالفعل، يقول: "إن أصحاب المذهب الوضعى المنطقى حين يجعلون الجمل الأخلاقية والجمالية بغير معنى سوى التعبير عن أهواء قائليها فهم يقصدون الجمـلة الحملية لا الشرطية فهم إذ ينكرون أن يكون هناك معنى لعبارة (س خير) يوافقـون بالطبع على وجود معنى للألفاظ الدالة على القيم إذا استعملت لتدل على أنهـا وسـائل لغايات[٣٩] وهو هنا يحيلنا إلى موقف البراجماتية خاصة رأى بيرس Ch. Pierce فى "كيـف نجعـل أفكارنا واضحة؟": "فالجملة الأخلاقية أو الجمالية ليسـت بذات معنى لأنها لا تشير إلى عمل يمكن اداؤه للتحقيق من صدق معناها، ولا تكـون الجمـلة بذات معنى إلا إذا أمكن تحويلها إلى عمل: فكل جملة لا تدلك بذاتهـا عـلى ما يمكن عمله، بحيث يكون هذا العمل هو معناها الذى لا معنى لها سواه"[٤٠] تكون جملة فارغة من المعنى.

يـنكر زكى نجيب أن تكون القيم علمية أو موضوعاً للدراسة، لأنها مما لا يمكـن التحقيق منه، الجملة الأخلاقية أو الجمالية ليست بذات معنى، ولذلك فهى لا

---

(٣٨) المصـدر السـابق، ص ١١٧، يعـتمد زكى نجيب على ستفنسون ربما أكثر من أير وكارناب، ويـنقل عنه أمثلته، ويستشهد به الصفحات من ١١٤ حتى ١١٧ مما يجعله أقرب إلى موقفه الذى يرجع القيم إلى الانفعالات.

(٣٩) زكى نجيب فى موقف من الميتافيزيقا، ص ١٢١.

(٤٠) المصدر السابق، ص ١٢٢.

تصـــلح أن تكون جزءاً من علم، لأن الشرط الأساسى الذى يجب أن يتوفر فى أية قضــــية علمية، هو إمكانية التحقق من صدقها "فالعبارة الأخلاقية ــ وكذلك العبارة الجماليـــة ــ ليست بذات معنى، وإنما توهمنا أنها جملة مفيدة لأن تركيبها النحوى يشبه تركيب الجمل المفيدة"(٤١).

ويتســـاءل زكى نجيب عما تدل عليه كلمة "خير" أو كلمة "جميل" أو غيرها مـــن الكلمات الدالة على "قيم"؛ حين ترد فى عبارات الحديث بين متكلم وآخر؟ إنها كما يخبرنا تدل على حالة نفسية عند المتكلم نفسه، إنها تدل على أن للمتكلم انفعالاً بالحب أو الكراهية نحو شىء بعينه، إذا نظر الرائى إلى شىء فقال عنه "هذا خير" أو "هـــذا جميل" كان بقوله هذا مشيراً إلى حالته الداخلية آزاء هذا الشىء، دون أن يـــدل على شىء خارج نفسه، إن المتكلم هنا يعبر عن ذات نفسه أو قل إنه "ينفعل انفعـــالاً معيناً، ويضع انفعاله هذا فى كلمة يقولها مثل كلمة "خير" أو كلمة "جميل" وبالطـــبع لا ســـبيل إلى مناقشة المنفعل فى انفعاله، إن عبارات القيم لا تصف شيئاً ولا تقـــرر شيئاً إنما هى تعبير عن انفعال المتكلم" وهى تقال لعلها تثير فى السامع انفعـــالاً شبيها به"(٤٢) إننا هنا بإزاء متابعة دقيقة لما يؤكده كل من أوجدن Ogdem وريتشاردز Richards فى كتابهما "معنى المعنى" أن استعمال كلمة خير إن هو إلا وســـيلة للتعـــبير عن انفعال المتكلم. ويرد على النقد الذى قدمه دفيد روس للنظرية الانفعالية فى كتابه "أسس الأخلاق" ويبين تذبذبه فى القول بموضوعية القيم وذاتيتها فى كتابه "الصواب والخير"(٤٣).

ينـــتقل زكى نجيـــب من تبنى موقف الوضعية المنطقية، الذى يرفض القيم باعتـــبارها عـــبارات ميتافيزيقية خالية من المعنى إلى تبنى النظرية الانفعالية كما يتضـــح فى قولـــه "النظرية الانفعالية التى نقدمها لك الآن، وندافع عنها تسوى بين الخيـــر والجمال فى أن كليهما معتمد على الذات المدركة لا على صفة فى الشىء

---

(٤١) يســـتند رفض زكى نجيب لإمكانية الدراسة العلمية للقيم، لأنها مما لا يخضع للمنهج العلمى ولا يمكـــن التحقق منها. وقد أفاض عدد كبير من الباحثين فى رفض مبدأ التحقيق باعتباره وسيله علمية دقيقة لدراسة القيم.

(٤٢) زكى نجيب، المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٤٣) المصدر السابق، ص ١٢٩.

المـــدرك"(٤٤) وهو يريد أن يطمئن الناس على قيمهم التي يعتزون بها "فلسنا نلغيها، وإنمـــا نضـــعها موضعها الصحيح، وهو أنها تقديرات ذاتية لا وجود لها فى عالم الطبيعة، ولا تناقض بين أن يكون التقدير ذاتياً وأن نعتز به ونذود عنه"(٤٥).

ويحـــل نقد الأستاذ بتون Poton للنظرية الانفعالية فى القيم؛ ذلك لأن بتون يهـــاجم الـــنظرية الانفعالية بطريقة خطابية لا بطريقة منطقية، وثانياً لأنه دافع فى نهايـــة حديـــثه عن هذه النظرية التى جعلها موضع هجومه موضحاً أن المبادىء الأخلاقيـــة العـــليا تختلف فى تطبيقها باختلاف الظروف القائمة، وهو نفس موقف زكى نجيـــب محمـــود والـــنظرية التى يدافع عنها، والتى تقول أن الحكم الأخلاقى تعبير عن انفعال المتكلم إزاء شىء ما، محاولاً أن يحدث انفعالاً شبيهاً عند السامع، وإذن فـــلا صدق قيمة ولا كذب، لأن الانفعالات النفسية ليست مما يوصف بصدق أو كـــذب، ويستشـــهد بـــأقوال أير فى كتابه عن "اللغة، الصدق والمنطق" فالحكم الأخلاقى لا إثبات له ولا نفى، حكمه فى ذلك حكم صرخة الألم أو كلمة الأمر وما إلى ذلك من الأشياء التى تعبر عن حالة شخصية ولا يصور أمراً خارجياً" (٤٦) .

ويؤكد زكى نجيب موقفه ويلخصه فى أن العالم لاخير فيه ولا جمال، بمعنى أنـــه ليـــس بين أشيائه شىء اسمه خير وشىء اسمه جمال ... فالشىء نفسه يكون خيـــراً أو شـــراً جميـــلاً أو قـــبيحاً حســـب ما تراه أنت فيه، والمحيط الاجتماعى والمصـــلحة الذاتيـــة هما اللذان يحددان لك ما تراه فى الشىء من خير أو جمال أو غير ذلك.

وهو يناقش هذه القضية فى الفصل الرابع فى كتاب "نحو فلسفة علمية" تحت عـــنوان (الكلمات ومدلولاتها) حيث يخصص الفقرة الخامسة للكلمات الوجدانية بعد أن عـــرض لـــثلاثة ضـــروب من الكلمات هى: اسم العلم، والاسم الكلى، والكلمة المـــنطقية وليس فيها ما هو رمز كامل يدل على وجود مسماه وجوداً فعلياً فى دنيا الأشـــياء إلا اسم العلم. ثم يتحدث عن الكلمات التى تدل على قيمة خلقية أو جمالية "الكـــلمات الـــتى تدل على أن فى المتكلم انفعالاً من نوع معين، لكنها لا تشير إلى

(٤٤) المصدر السابق، ص ١٣٠
(٤٥) المصدر السابق، ص ١٣٢.
(٤٦) المصدر السابق، ص ١٣٥.

كـــائن خارجى إن كلمة جميل وما يدور مدارها من كلمات لا تشير إلى شىء قائم فى عالم الأشياء الخارجية، بل تشير إلى حالة نفسية يحسها قائلها. "إنه مهما تعددت الآراء فى تحديد معنى الجمال فهى جميعاً على اتفاق بأن جزءاً من المعنى ـــ على الأقـــل ـــ هـــو التأثر الداخلى الخاص الذى يتعرض له من يشهد شيئاً جميلاً؛ لكن اخـــتلاف الآراء يظهـــر بعـــد ذلك فى تحديد الجانب الخارجى الإدراكى من معنى الجمال"(٤٧).

خلاصـــــة الأمـــر عنده هى أن الألفاظ الدالة على قيمة جمالية أو قيمة خلقية ليســـت مـــن قبيل الأسماء التى تسمى شيئاً بذاته فى عالم الأشياء كأسماء الأعلام؛ وليست هى من قبيل الأسماء الكلية التى تدل الواحدة منها على مجموعة وصفية قد تـــتحقق عناصرها فى شىء بذاته من أشياء العالم الخارجى، وليست هى من قبيل الكـــلمات المنطقية، بل هى نوع رابع وفريد، إذ هى لا تشير إلى أى مدلول خارج الإنســـان الـــذى يسوقها فى كلامه ليخرج منها انفعال أحس به وربما أراد أن يثير انفعالاً شبيهاً به عند سامعه(٤٨).

الأخـــلاق إذن نســـبية وهذا مدار الفصل الثانى عشر من "نحو فلسفة علمية" الـــذى جعـــل عنوانه (من المطلق إلى النسبى) فقد كشف التحليل المنطقى للأحكام الدالـــة على القيم أنها ليست من المعرفة إطلاقاً فضلاً عن أن توصف بما يوصف به أدق أنواع المعرفة من يقين، مؤكداً أن المماثلة بين الأخلاق والعلوم سينتهى بها الأمـــر إلى وبـــال على الأخلاق نفسها(٤٩) يقول: "ليست الأخلاق ومبادئها من قبيل المعرفة العلمية بنوعيها الرياضى والطبيعى .. وإن أصر الفلاسفة على أن يماثلوا بين الأخلاق وبين العلم كانت النتيجة العلمية لذلك زوال الأخلاق نفسها، لأننا عندئذ سنكتفى فيها بالعبارات الوصفية وتخرج منها جانب الأمر، أى أنا نكتفى بأن نصف الطـــرائق التى يسلك بها هذا المجتمع أو ذاك فى ظروف حياتهم المختلفة دون أن

(٤٧) زكى نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٠٩.
(٤٨) المصدر السابق، ص ١١٣.
(٤٩) ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة د. فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩، ص ٢٤٢.

نصــف هذا الطريق بقيمة معينة. مع أن صميم الأخلاق هو أن تكون معيارية، أى تضع للناس ما ينبغى أن يكون، لا أن تكتفى بمجرد وصف ما هو كائن ــ لكنها إن رسمت لنا ما ينبغى أن يكون فقد خرجت من نطاق العلم الموضوعى ودخلت فى نطــاق آخر من الكلام، وهو الكلام الذى يعبر به الإنسان عن رغباته وآماله، وفى ذلــك قــد يختلف الناس دون أن يكون فى اختلافهم تناقض يأباه العقل ومنطقه[٥٠] ويــتفق هــذا الموقف تماماً مع موقف ريشنباخ الذى يقول: "إن الأخلاق لو كانت ضرباً من المعرفة لما كانت على نحو ما أرادها الفلاسفة الأخلاقيون أن تكون، أى لمــا كــانت تقدم توجيهات أخلاقية .. ويضيف أن التحليل الحديث للمعرفة يجعل الأخــلاق المعرفية مستحيلة، فالمعرفة لا تشمل على أية أجزاء معيارية وبالتالى لا تسطيع تفسير الأخلاق"[٥١].

ويســتخلص مراد وهبة من تحليل زكى نجيب اللغوى نتيجتين تخصنا منها الــثانية الــتى ترى أن القيم "تعبير ذاتى صرف لا شأن له بالعالم الخارجى" مغزى ذلــك إنه إذا اختلف أثنان فى حكم تقويم "فلا سبيل إلى الرجوع إلى مقياس خارجى لنفصــل بــه، أيهما مصيب وأيها مخطىء ويرجع دافع زكى نجيب إلى تبنى هذا الموقف دافع اجتماعى، لأن يقرر أن الأخلاق مرتبطة بالطرائق التى يسلك بها هذا المجــتمع أو ذلــك فى الحياة ولما كانت الأخلاق تقع خارج نطاق العلم فلا ينطبق عليها مبدأ عدم التناقض ومن ثم تصبح جميع الأخلاقيات مشروعة، ولهذا ليس ثمة داع إلى تغييرها والنتيجة المحتومة بعد ذلك أنه ليس ثمة مبرر لإلتزام الفرد بقضية اجتماعية"[٥٢].

والحقيقة أن نقد مراد وهبه صحيح تماماً إذا تعلق الأمر بموقف زكى نجيب فى "خــرافة الميــتافيزيقا" و"نحــو فلسفة علمية" وهما عملين يغلب عليهما عرض موقف الوضعية المنطقية وليس الموقف العام للمفكر العربى الذى أشرنا إلى بداياته فى الفقرات الأولى من هذا البحث، والذى يتجلى فى الجبر الذاتى ويتضح بعد ذلك

(٥٠) زكى نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، ص ٣٩٢.
(٥١) ريشنباخ: الموضع السابق.
(٥٢) د. مراد وهبة: مقالات فلسفية وسياسية، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ص ١٢.

فى مؤلفاته المختلفة خاصة: "وجهة نظر" و"من زاوية فلسفية" و"ثقافتنا فى مواجهة العصر". ويظهر باوضح ما يكون فى "تجديد الفكر العربى". وما يهمنا الإشارة إليه قبل تحديد معالم هذا الموقف هو أن زكى نجيب فى هذه الأعمال لا يغير من موقفه بـل أنـه يوسع من فهمه للقيم ويفصل فى بيان هذا الموقف الذى جاء عرضاً فى "خرافة الميتافيزيقا" و "نحو فلسفة علمية" وأسيىء فهمه، وأن زكى نجيب محمود لا يتخذ الوضعية مذهباً بل أداة وطريقة علمية فى التفكير يقول: "أجدنى قد اتخذت من اتجاهـات الفلسفة المعاصرة اتجاهاً هو فى حقيقته "منهج للتفكير" لا "مذهب" يورط نفسـه فى مضـمون فكرى بذاته، فكنت كمن وضع فى يده ميزانا يزن به ما يشاء دون أن يملأ يديه بمادة معينة لابد أن تكون هى وحدها موضع الوزن والتقدير"[٥٣] إن "وجهة نظر" د. زكى نجيب، هى ضرورة اجتماع العلم المشترك والقيم الخاصة الموروثـة فى مركب واحد، منه تتكون الشخصية العربية الجديدة، لا أنس أن العلم ليـس هـو القيم، الأول موضوعى، "الثانية ذاتية دون أن تكون موضوعية الأول فخـراً له، ولا ذاتية الثانية مسيئة لها، "يقول بحرارة "لست أنوى الإفاضة فى هذه الـتفرقة، بل إنى لم أذكر عنها شيئاً فى هذا الكتاب وكفانى ما قلته عنها وما لقيته بسـببها"[٥٤] إن زكى نجيـب يقـول بثنائية العلم والقيم ويعترف للأخيرة بنوع من الذاتيـة. وإذا تساءلنا عن كنه هذه الذاتية التى تتحدث عن الإرادة أو حرية الإرادة والفعل وهذا محور الفقرة القادمة.

٤- نحو نسق شامل للعلم والقيم :

إن طـبيعة القيـم عند زكى نجيب طبيعة مزدوجة. وهو يشير فى دراسته "أزمـة القيـم فى عصر الانطلاق" إلى ازدواجية القيم بين العالم الخارجى والعالم الداخـلى وأن هذا الازدواج هو الحالة الطبيعية بين أفراد أمة مع أفراد أمة أخرى. لكـن عـنده، ليـس الحالة الطبيعية بين أبناء الأمة الواحدة إلا فى مراحل الانتقال والـتطور. ونحن فى حالة انتقال من طور الزراعة إلى طور الصناعة لكنا مازالنا مثقـلين بأخلاقيـات المجـتمع الزراعى مثل فهمنا لقيمة الزمان وللتفاوت الطبقى.

(٥٣) زكى نجيب مجتمع جديد أو الكارثة، دار الشروق ط٤ عام ١٩٨٧، ص ٢٤٦.
(٥٤) زكى نجيب وجهة نظر، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٧، ص.٠

يقـول: "إن أول مـا يلفت أنظارنا، ونحن على مشارف المرحلة الثالثة من مراحل السـير، مرحلة الإنطلاق، هو ازدواج القيم فنحن مشدودون اليوم بين قديم وجديد، نعمـل بأجسادنا على نحو ونفكر بعقولنا ونحس بقلوبنا على نحو آخر"(٥٥) يتحدث زكى نجيب فى هذه الفترة الهامة ١٩٦٧ عن التحول الاجتماعى، وعن أهمية القيم ودورها فى هذا التحول. ويرى أنه لن تستقيم الأمور وتتناغم جوانب حياتنا إلا إذا أحدثنا الثورة فى القيم كما أحدثناها فى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية(٥٦).

ويـرى فى دراسـته "إرادة التغير" أن الإرادة هى نفسها العمل الذى يحقق الهدف المنشود، وأنه حيث لا عمل فلا إرادة وأن كل عمل إنما هو تغيير لأوضاع الأشـياء "وإذن فنحن إذا قررنا لشخص أو لجماعة إرادة فقد قررنا بالتالى أن هذا الشخص أو هذه الجماعة تعمل عملاً تغير به أوضاع الحياة قليلاً أو كثيراً. والثانية هى أنـه لا تعارض بين حرية الفرد الواحد فى طريقة حياته وبين أن يكون ملتزماً بالأهداف والمبادىء والقواعد التى أقامها المجتمع الذى هو أحد أفراده" (٥٧) يتحدث زكى نجيـب هـنا عـن ثنائية بين العلم القائم على التحقق والأخلاق القائمة على الإرادة. لا يلغى القيم ولا يستبعدها بل يؤكد عليها ويجعلها جزءاً أساسياً من موقفه الفلسـفى العام الذى عرضه فى "تجديد الفكر العربى". وكما أكدنا من قبل فما قدمه فى هـذا العمـل هـو اسـتخدام المنهج الوضعى العلمى فى بحث التراث الفلسفى العـربى، فهو ليس تحولاً أو تغيراً بل تأكيداً لقدرة المنهج على دراسة موضوعات أخـرى أو قل أن زكى نجيب هنا يوسع من فهم العلم والمنهج العلمى ويضيف إليه أبعـاداً جديـدة فى حيـاة الإنسان. وأن هذا الفهم ليس جديداً فاهتمامه الأول وهو الإنسان وحرية الإرادة، موضوع بحثه الجبر الذاتى.

يقـدم لـنا فى الفصل الثامن من "تجديد الفكر العربى" فلسفة عربية مقترحة وهى فلسـفة ثنائية، ثنائية بين السماء والأرض، بين الطبيعة والفن يقول: "إننا أميل بفكـرنا إلى الثـنائية وهى نظرة تأبى أن ينطمس الفرد الإنسانى الحر المسئول فى

(٥٥) المصدر السابق، ص ٢٢٨.
(٥٦) نفس المصدر، ص ٢٣١-٢٣٢.
(٥٧) نفس المصدر السابق، ص ١٢٩-١٣٠.

عجيـنة واحـدة مع سائر مفردات العالم الطبيعى .. وهى نظرة تجعل للإنسان – دون سـائر الكائنات – ضرباً من الإرادة الحرة المسئولة، التى لا تخضع للقوانين الطـبيعية كـل الخضـوع. إن زكى نجيب يواصل ما قدمه فى الجبر الذاتى كما يتضـح فى قوله: "من هنا ترانا [الضمير يعود عليه] لا نطمئن بالاً حين يقال عن الإنسـان إنـه ظاهرة تخضع كلها للتقنين العلمى وتحرص على أن تبقى منه جانباً يستعصـى عـلى ذلـك التقنين، لأنه جانب مريد خلاق مسئول عن خلقه وإرادته ويبـتكر الفعـل ابـتكاراً قد يغير به تسلسل الأسباب والمسببات كما يتصوره العلم الطبيعى"(٥٨).

إن زكى نجيـب كمـا أشرنا من قبل يقترب كثيراً من كانط، ليس فقط فى الـتمييز بين عالم الطبيعة الموضوعى وعالم الأخلاق الذاتى؛ عالم الحرية الفردية والإرادة الخـبرة والواجـب وغيرها فهو يرفض أن يكون مدار الأخلاق المنفعة. ويرى أن الفضيلة هى جزاء نفسها، أرادها لنا الله وعقلناها، فإننا نقيم الأخلاق على أسـاس الواجـب لا على أساس الفائدة وهذا لا ينفى أن الواجب قد يجىء مصحوباً كذلـك بنتائج نافعة فوق كونها واجباً، ولكنه واجب يؤدى قبل أن نفكر فيما يترتب عليه من خير نفع"(٥٩).

إن ما يقدمه زكى نجيب من فلسفة عربية مقترحة مبنية على ثنائية الأرض والسماء يفتح إمامنا آفاقاً مغلقة. فهى ثنائية تضع الإنسان على قدميه فوق الأرض، وتـرفع رأسـه إلى السماء أى أنها تتيح له أن يعيش لهما معاً ففى الأرض يسعى عـلماً وعملاً بكل ما يتطلبه العلم من دقة وما يتطلبه العمل من صبر ودأب، وفى السماء يهتدى بالمثل التى ترسم أمامه لتكون له على الطريق أهدافاً وغايات(٦٠).

هنا قد يعترض معترض بالقول إن هناك تناقضاً فى هذا الموقف الذى يقدمه زكى نجيـب وقوـله بنسـبية القيم. ومن هنا فهو يوضح هذا الموقف ويرفع هذا الـتعارض بقوله "لا أرانى قد بعدت كثيراً عما كررت الدعوة إليه. وذلك لأنه ثبات

---

(٥٨) زكى نجيب محمود: تجديد الفكر العربى، دار الشروق، ١٩٧١، ص ٢٧٦.

(٥٩) المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٦٠) المصدر السابق، ص ٢٨٤-٢٨٥.

القيمة فى إطارها العام، لا ينفى تغير مضمونها بحسب تفصيلات العيش فى عصر من العصور. فحرية الإنسان. مثلاً ــ هى مبدأ مقطوع به، أو يجب أن يكون، لكن مضـــمون الحـــرية يتغير، لأنه يتسع مع نمو الإنسانية ونضجها[٦١] ومن هنا فهو يضـــيف إلى موقفه السابق القيم. فالفلسفة السائدة، فلسفة تحلل العلم وقضاياه لترى متى تكون الصيغة العلمية المعينة صادقة ومتى لا تكون ولكنها لا تعبأ بالإنسان إذ تترك أمر الإنسان للأدب والفن قلنا عندئذ أن نقول لهم؛ لا، إننا نسايركم فى فلسفة العلم لكننا نوجب أن تضاف إليها فلسفة للإنسان الحى، الذى ينبض فى صدره قلب ويطمح فى حياته إلى أبعد الغايات.

وتحـــت عنوان (الإنسان العربى كيف يواجه الطبيعة) فى الفصل العاشر من "تجديـــد الفكـــر العربى" يقدم لنا ما يقوله مفكروا الغرب فى مشكلة المواجهة التى يواجه بها الإنسان الطبيعة. وحاول أن يقدم لنا ما يكن أن يقوله مفكراً عربياً حول هـــذه العلاقـــة. فـــإذا كان محور المواجهة بين الإنسان وما يحيط به عند مفكرى الغـــرب هو "العلم" فمحور المواجهة عند المفكر العربى هو "الأخلاق" وهو يستخدم لفظ الأخلاق ليعنى به "مبادىء السلوك الصحيح تجاه مختلف المواقف". ويرى أن مـــن أهـــم الإضـــافات التى أضافتها الثقافة العربية ــ صادرة فى ذلك عن العقيدة الإســـلامية ــ تـــنظيمها لأخلاقية الفعل. بعد أن كانت الأخلاقية قبل ذلك مقصورة عـــلى النية والضمير. فلابد أن توضع النية الحسنة على محك الفعل، ومحك الفعل عـــادة هو الآخرون، هو المجتمع، هو الإنسانية وبغير هذا الطرف الخارجى لا تتم للموقف أخلاقيته[٦٢].

يقـــول زكى نجيـــب محمـــود ــ مثل كانط بالواجب أساساً للأخلاق "فقوام الأخلاق عندنا هو "الواجب" لا "السعادة"[٦٣] والواجب عنده كما يتضح لنا مكون من الضـــمير المبنى على حرية الإرادة والفعل الذى يتجاوز حدور الفرد إلى بقية أفراد المجـــتمع. وهـــو يؤكـــد على ضرورة الوجود الاجتماعى ليكمل الفرد. يقول: "إن

(٦١) المصدر السابق، ص ٢٨٥.
(٦٢) المصدر السابق، ص ٣٨١.
(٦٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٧ – ٢٩٨.

احـــتكام الفاعل إلى قانون أو شرع، لا ينفى احتكامه. إلى ضميره بل يضيف إليه، فالاكـــتفاء بمحكمة الضمير وحده قد لا يلزم الإنسان بالانغماس فى حياة العمل"[٦٤] ويقـــدم لنا فى نهاية كتابه استشهاداً ذا دلالة حيث ينقل القيم من ميدان المعرفة إلى ميـــدان الإرادة. ومن الفرد إلى المجتمع "لقد رأى إمام من أئمة الفقهاء المسلمين — وهو ابن تيمية — أن معرفة الله من حيث هو ماهية، مستحيلة على الإنسان وأنه لا ســـبيل أمـــام الإنسان لمعرفة الله إلا بمعرفة إرادته التى كشف عنها لأنبيائه، والتى ينحصـــر واجـــب العباد فى طاعتها وما إرادة الله إلا مجال القيم التى يراد لسلوك الإنســـان أن يســـير على مقتضاها. ولما كان هذا السلوك المراد يغلب أن يكون ذا صـــلة بحيـــاة الآخرين فى المجتمع كانت فكرة الأمة ذات أهمية بالغة[٦٥] ومن هنا كـــان تـــراث الأمة هو مصدر تحديد القيم عند فيلسوفنا حيث يرصد لنا فى الفصل العاشـــر "نموذج الإنسان فى تراثنا"، فهو يرسم خطوط تصور نموذج الإنسان كما تمـــناه أربعـــة مـــن أعـــلام الفكـــر العربى القديم هم: مسكويه والغزالى والرازى والجاحظ. إن ما يهم زكى نجيب محمود هو الإنسان لذا فهو يرى أن علينا أن نغير مـــن زاويـــة النظر التى ينظر بها المفكر الغربى للطبيعة. فالمواجهة فى الغرب — بين الإنســـان والطبيعة — تنتهى بعلم وعندنا مواجهة للمجتمع الإنسانى تنتهى بالقيم ويدرك كل من الفريقين بأى طابع يتميز وما الذى ينقصه ليكتمل الإنسان إنساناً[٦٦].

يميـــز زكى نجيـــب بيـــن عالم الطبيعة الذى يخلو من القيم، فهى ليست من موجوداتـــه وبالـــتالى فـــهى ليست علم أو جزء من العلم وعالم الإنسان أو مملكة الحـــرية، وهـــو عالم الضمير والفعل — أحياناً يحدثنا عن العالم الأول فقط مؤكداً ذاتيـــة ونسبية القيم وأحياناً يضمهما فى نسق ثنائى الأبعاد يجمع العلم والقيم وهو ينشغل بالحديث عن "قيمة القيم" فى كتابه "من زاوية فلسفية" فيجعل منها ربانا يقود سفنية المرء فى حياته. شبه السفنية وربانها يكون الإنسان بما يغمر رأسه من قيم، هى قيـــم يدركهـــا بالفطـــرة حينا، وحيناً آخر تبث فى نفسه بثاً، فإنك لترى هذا

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٣٨٢.
(٦٥) المصدر نفسه، ص ٣٨٥.
(٦٦) المصدر السابق، ص ٣٨٦.

الإنســان فى صخب الحياة صاعداً هابطاً ساخطاً راضياً مستسلماً أو ثائراً، فتدرى أنــا وأنــا لا تــدرى فيم سخطه ورضاه، لأن الشواهد المنظورة قد لا تكفيك للفهم والتعليل، وذلك لأنها من المعانى فى رأسه التى تسيره وإن شئت فقل إنها مجموعة القيم التى تمسك بزمامه وتوجهه، ففهمه على حقيقته هو فهمها(٦٧).

ويــرجع زكى نجيــب نشاط الإنسان إلى القيم الثلاثة "تنطوى شتى المعانى الــتى تضــبط مســالك الإنسان فى خضم حياته، وهى الحق والخير والجمال. فى مقابل: الإدراك والسلوك والوجدان. "هى قيم ثلاث تدور عليها حياة الإنسان دوران الــرحى حول قطبها وعنها تتفرع معان يضحى الإنسان بنفسه ولا يضحى بها"(٦٨) وبسبب هذا الموقف من القيم قال بعض أساتذة الفلسفة بتغير فى موقف زكى نجيب مــن القيــم وابــتعاده عن نظرية الوضعية المنطقية فى القيم مع أن ما يقدمه زكى نجيب هنا هو تفصيل وتحديد لموقفه العام من القيم وهو ما يتضح فى ختام الدراسة المشــارة إليهــا حيث يقول: "وهكذا تقلب البصر فى مسرح الحياة الإنسانية فتراها مرتكزة آخر أمرها على مجموعة من القيم أو المعانى لا تكون أبداً موضع اختلاف لــلرأى مــن حيث الأساس، وإن اختلف الرأى عليها فى الشرح والتطبيق ويضيف مواصــلاً "لــو نفــدت ببصرك إلى أعماق النفوس لألفيتها على عقيدة راسخة بأنه لابقــاء بغير مجموعة القيم التى أدركتها بالفطرة السليمة حيناً أو بثت فيها بالتربية القويمــة حيــناً آخر، فإن أعوج السلوك الظاهر عن إملاء تلك المعانى الشريفة لم يحــتج الأمــر إلى تغيــر فى فطرة الإنسان، بل احتاج إلى تربية جديدة تنسق بين الظاهــر والــباطن فيسلك الإنسان عندئذ سلوكاً سوياً يجمع الإنسانية كلها بمثل ما يجمع اليوم أفراد الأسرة الواحدة(٦٩).

---

(٦٧) زكى نجيب محمود: من زاوية فلسفية، ص ١٢١.
(٦٨) المصدر نفسه، ص ١٢٣.
(٦٩) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

خاتمة :

ومما سبق يظهر أن الاهتمام بالقيم عند زكى نجيب محمود من أول اهتماماته الفلسفية وأكثرها استمرارية واتساعاً بدأ فى الجبر الذاتى وشغل مؤلفاته التالية ذات الصبغة العلمية الخالصة؛ "موقف من الميتافيزيقا" و"نحو فلسفة علمية" واستمر فى مؤلفاته التالية خاصة فى: "تجديد الفكر العربى" وهو يشير فى عمله الأول إلى جانبين للإنسان مؤكداً على أنه كائن مريد خلاق مبدع؛ وهذا الجانب هو ما يستعصى على العلم. وجاء فى مؤلفاته التالية أن العلم الذى ينشغل بعالم الطبيعة الموضوعى ليس به قيم، وأن ما نطلق عليه الخير والجمال هى أمور إنسانية ذاتية نسبية. وأكد "تجديد الفكر العربى" وما يليه على أنه بالإضافة إلى نظرة الغرب التى تستبعد القيم فى مواجهتها للطبيعة هناك نظرة الشرق التى تؤكد على الأخلاق وأن القيم والغايات هى ما يوجه حياة البشر. معنى هذا فى رأينا يتمثل فى النقاط التالية.

ـ أن الموقف الوضعى المنطقى من القيم الذى ظهر بأوضح ما يكون فى "خرافة الميتافيزيقا" والقائل بنسبية الخير والجمال ليس هو الموقف الأول ولا الوحيد ولا الدائم للدكتور زكى نجيب من القيم، حيث يسبقه "الجبر الذاتى" ويلحقه كتابات متعددة تعترف للقيم بوجود موضوعى فى حياة البشر.

ـ الجبر الذاتى يقدم ثنائية ظلت مستمرة لدى زكى نجيب محمود منذ كتابه "الشرق الفنان"، وحتى "تجديد الفكر العربى"، ظهرت فى البداية غير واضحة أو بمعنى أدق غير معلنة، فها صدى فلسفة كانط النقدية وتمييزه بين عالم الطبيعة وعالم الحرية. وظهرت محددة تماماً فيما أطلق عليه "فلسفة عربية مقترحة تؤمن بثنائية السماء والأرض، الفن والطبيعة" تؤكد أن الأرض والعلم لا يكفيان دون السماء والقيم.

ـ أن الاتساق هو ما يميز موقف زكى نجيب من القيم على الرغم من ما يبدو فى الظاهر من تعارض بين موقف وضعى منكر للقيم وموقف آخر يقر لها

بــنوع مـــن الوجود أو بين القول بنسبيتها فى موضع وإطلاقيتها فى موضع آخر. وهو النقد الذى يوجهه أحد الباحثين فى "الوضعية المنطقية والتراث العربى"(٧٠).

— أن القيم تقع خارج مملكة العلم وداخل مملكة الإنسان، تظهر النسبية عبر نظرة العلم لها وتعامله معها وتظهر موضوعية عبر نظرة الإنسان لها، وهى ذات وجــود أنطولوجى من وجهة نظر الثنائية بل إنها ذات وجود إلهى خالد فمصدرها السماء. والحقيقة أن القيم فى مملكة الإنسان أشبه بالقوانين فى مملكة العلم.

— يعطينا زكى نجيب محمود تحديدات متعددة انطلاقاً مما سبق هى أن القيم تمــثل عالم حرية الإرادة وتكتمل بالفعل، وأن الفعل الذى يحقق القيم ليس هو الفعل الفــردى — فى أطـــار الضــــمير — بـــل فعل الفرد فى علاقاته مع الآخرين. وأن المقصـــود بهـــا ليس فقط تحقيق السعادة ولكن أداء الواجب... ومن هنا فهى ذات بعدين — البعد الذاتى النسبى المتغير كانفعال ورغبة وأمنية وعاطفة على نحو ما تقول به المدرسة الانفعالية والوضعية المنطقية والبعد الموضوعى كفعل متحقق فى سلوك الإنسان الفردى والاجتماعى.

أن لـــلقيم مصـــدرها الســـماوى ومجالهـــا الإنســـانى وطبيعـــتها التاريخية والاجــتماعية كمـــا يؤكد فى "إرادة التعبير" و"القيم فى عصر الانطلاق". وهى مما يمكـــن تنميته وتغيره وتطويره بالتربية "قيمة القيم" مما يوضح اهتمام زكى نجيب محمـــود الكـــبير بدراســـة طبيعة القيمة ومصدرها ومجالها ويرجع ذلك كما أكدنا لاهتمامه الكبير بالإنسان.

---

(٧٠) عـــبد الباســـط ســـيدا: الوضعية المنطقية والتراث العربى نموذج فكر زكى نجيب محمود الفلسفى، دار الفارابى، بيروت ١٩٩٠، ص ٢٢٧- ٢٣٠.

الباب الثالث

الخطاب الفلسفى الإسلامى
والتحقيقات الفلسفية

أبو ريدة :

تحقيق النصوص فى الفلسفة والكلام

مقدمة [*] :

كـــان "الكندى" أول فيلسوف عربى يعبد الطريق لمن جاء بعده من الفلاسفة العرب الذين أسسوا لمن أتوا بعدهم من الفلاسفة. وكما كان من حسن طالع الفلسفة الإسلامية أن يستهلها الفيلسوف العربى المسلم قديماً فى القرن الثالث الهجرى، فقد كـــان صاحب "الكندى" محمد عبد الهادى أبو ريدة من الطليعة الواعية التى أسست الـــدرس الفلسفى المعاصر فى العربية منذ ثلاثينيات هذا القرن، مع إنشاء الجامعة المصرية بالقاهرة.

لقد كان من العلامات المميزة لحياتنا الثقافية إنشاء الجامعية المصرية الحرة فى بداية هذا القرن. وكان دور الجامعة لا ينكر فى ترسيخ الثقافة العلمية القائمة عـــلى المناهج الحديثة. وقد شارك فى ذلك كثير من الأساتذة المصريين والأجانب، وحيـــن تحولت من جامعة أهلية إلى جامعة رسمية فى عام ١٩٢٥، ظهر الأساتذة المصـــريون الذين تولوا التدريس بها، وفى مقدمتهم الشيخ مصطفى عبد الرازق[١] صاحب المدرسة الفلسفية الحديثة فى مصر، والذى تخرج على يديه عثمان أمين[٢] ومحمـــود الخضـــيرى وعـــلى سامى النشار[٣] وأحمد فؤاد الأهوانى وثابت الفندى وتوفيـــق الطويل ومحمد عبد الهادى أبو ريدة الذى اختط منذ البداية خطة واضحة

(*) هذا الفصل نشر فى الكتاب التذكارى الذى أصدرته، جامعة الكويت، عن الدكتور أبو ريدة، إشراف د. عبدالله العمر، الكويت، ١٩٩٣، وسبق ننشره فى مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، العدد ٣٥، يناير، يونيه، ١٩٩١، ص ١٣٣-١٤٧.

(١) ينبغى التأكيد على الصلة بين الشيخ مصطفى عبد الرازق وتلاميذه الذين واصلوا تدعيم الدراسات الإسلامية وفى مقدمتهم محمد عبد الهادى أبوريدة وعلى سامى النشار، راجع عنه: د. إبراهيم مدكور (مشرفا): الكتاب التذكارى عن "الإمام الأكبر مصطفى عبد الرازق مفكراً وأديباً ومصلحاً"، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، القاهرة ١٩٨٢ د. على عبد الفتاح المغربى: المفكر الإسلامى المعاصر مصطفى عبد الرازق دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧.

(٢) راجع د. إبراهيم بيومى مدكور (مشرفاً) دراسات فلسفية مهداه إلى روح الدكتور عثمان أمين، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٩.

(٣) راجع كتاب المشكاة، ودراسات مهداة إلى روح الدكتور على سامى النشار. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥.

محـــددة المعــــالم لدراسة الفلسفة الإسلامية والتزم بعمق وجدية بما حدده لنفسه من البداية فلم ينشغل بغيرها من الدراسات.

لقـــد هيــأ أبـــو ريدة نفسه لهذه المهمة بالإعداد المتأنى الجاد، وذلك بالسعى لامـــتلاك أدوات الـــبحث العـــلمى التى يفتقر إليها كثير ممن ساروا فى التخصص نفســـه، فـــاتقن الألمانيـــة والفرنسية والإنجليزية والأسبانية والفارسية ومن اللغات القديمـــة اللاتينية واليونانية بالإضافة لطول باعه فى العربية، وراجع كل المصادر الأساســـية فى لغاتهـــا المختلفة، واختار جانباً محدداً واضحاً مال إليه وانشغل به، وكـــان سبيله لقراءة الفلسفة العربية الإسلامية هو الجانب العلمى أو ما أطلق عليه القدماء "الحكمة الطبيعية" منذ أول دراساته عن النظام وحتى آخر تحقيقاته عن ابن الهيثم.

وقـــد كـــان "أبـــو ريدة" على وعى بمهمته ورسالته ودوره فى بداية نشاطه الفلســـفى، الـــذى بدأ منذ تخرجه فى قسم الفلسفة بالجامعة المصرية عام ١٩٣٤، وهو تقديم "تاريخ واسع شامل للفكر الفلسفى الإسلامى". وقد رأى أن ذلك لا يمكن ان يـــتم إلا من خلال وسائل ثلاث متاحة أمام الباحث الجاد وهى: الترجمة الأمينة للكـــتب الأساســـية فى الـــلغات المختـــلفة التى تتناول الفلسفة الإسلامية، وتحقيق المصــــادر الأصـــلية فى فـــروع الفلسفة وعلم الكلام وتاريخ العلم، بالإضافة لتقديم دراســـات مبتكرة تحيى الجوانب الهامة فى هذه الفلسفة وهى عنده الجوانب الفلسفية والعـــلمية التى اهتم بها كثيراً وتابعها طوال حياته، وفى مقدمتها رسالتاه: "إبراهيم بـــن ســـيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية" ١٩٣٨ (٤) بجامعة القاهرة، والغزالى ومعارضـــته للفلســـفة اليونانيـــة Al Ghazali und Seine Widerlegung der griectischen Philosophie من جامعة بازل سويسرا عام ١٩٤٥ (٥).

والـــباحث فى أعمـــال أبو ريدة يلاحظ أنه بدأ بالترجمة التى شغلت المرحلة الأول مـــن أعمالـــه بـــدأت منذ تخرجه واستمرت حوالى اثنى عشر سنة بعد ذلك

---

(٤) د. محمد عبد الهادى أبو ريدة: إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية: دار النديم للصحافة والنشر ط. القاهرة ١٩٨٩.

(٥) Al ghazali und seine widerlegung der griechischen philosophie, tahafut al falasifah, madrid, 1952.

وتدخلت مع تقديمه لأبحاثه الأكاديمية. وإذا عرضنا لترجمات محمد عبد الهادى أبو ريـــدة فسوف نجد أنه اختار بعناية عدة نصوص هامة فى تخصصه الدقيق، توسع من فهمنا للفلسفة الإسلامية من جانب وتؤكد الناحية العلمية من جانب آخر. ويهمنا أن نشـــير إلى مســـألتين هامـــتين قبل بيان جهود أبو ريدة فى الترجمة؛ الأولى أن الـــترجمة كـــانت بمـــثابة إعداد وتمهيد وتوفير للنصوص الفلسفية اللازمة للتأريخ للفلســـفة العربية الإسلامية، فهى نقطة انطلاق أولى لهدف أعم وأشمل والثانية أنها جهـــد فلســـفى فى الأســـاس من حيث توظيف الأدوات البحثية الأساسية ومراجعة المصادر الفلسفية باللغات المختلفة والاعتماد على المخطوطات الأصلية والاستعانة بهـــا، وتقديم الترجمة للعربية بدراسة وافية تضع النص المترجم فى سياقه بالنسبة لتاريخ الفلسفة الإسلامية ومشكلاتها.

أولاً : ترجمات أبو ريدة والتأريخ للفلسفة الإسلامية :

قدم لنا الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ترجمة لخمسة كتب أساسية اهتمت بالحضارة والفلسفة الإسلامية لبيان صورة الفلسفة والحضارة الإسلامية كما تجلت فى كتابات الأوروبيين بالإضافة إلى ترجمة عدد كبير من المواد الفلسفية فى دائرة المعارف الإسلامية.

والعمـــل الأول الـــذى قدمه وهو لم يزل طالباً أو فور تخرجه ـــ هو كتاب "وجهة الإسلام: نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الإسلامى" كتبه مجموعة من المستشرقين وأشرف عليه هاملتون جب ولويس ماسينيون [٦]. وهذا الكتاب يعرض لـــنا تطور الشعوب الإسلامية، وخطوات هذا التطور وظروفه التاريخية والعوامل التى ساعدت عليه ومسلك المسلمين إزاء المدنية الغربية ومقدار قبولهم أو رفضهم لها، ووسائلهم فى حل مشكلاتهم الحاضرة وما أصابوا من نجاح، ثم وجهة الإسلام فى جملـــته، ومحاولـــة التوفيق بين أنظمته وبين العصر الحديث. فإذا تساءلنا عن أهميـــة هـــذا العمل "فإنها ترجع إلى أنه يوجه أكبر العناية إلى تحليل تيارات الفكر

---

(٦)- هـــ جب ، ل . ما سينيون: وجهة الإسلام، المطبعة الإسلامية ترجمة محمد أبوريدة القاهرة ١٩٣٤.

الداخـلية بين شعوب الإسلام وما يتردد بينها من[٧] نزعات، ويفصل ما يشغل بالهم مـن الـناحية الديـنية والاجتماعية والحقيقة أن هذه النوعية من الكتب تثير الشك والتساؤلات وتطرح العديد من علامات الاستفهام حول السبب فى تأليفها والغرض مـنها ونوعية المتلقى لها من الغرب، وإذا كان أبو ريدة لم يشغل نفسه بالبحث فى ذلـك فإنه توقف من خلال التعليقات لمناقشة بعض الأفكار التى يعرضها المؤلفون وكـلها تـتجه نحو تصويب بعض الأفكار الجزئية. يقول: "لم أجد فى ثنايا الكتاب كثيراً مما يحتاج إلى التعليق ولم أعلق إلا على بعض الأفكار فى اختصار "[٨].

والعمـل الـثانى هو كتاب دى بور De Boer "**تاريخ الفلسفة فى الإسلام**" الـذى بـذل فيـه الجهـد الكبير "ليعطى قارئه فكرة شاملة عنها منذ نشأتها ويبين تطورهـا ومشـهورى رجالهـا ويهديـه إلى مسائلها، فيهيئه لدراستها الـدراسة الوافيـة"[٩]. ويوضح لنا المترجم أهمية دراسة تاريخ الفلسفة وأنها وإن نهضت فى أوروبا فى القرن التاسع عشر فهى لا تزال حديثة العهد فى مصر، ويشير إلى قلة الكـتب العامة فى تاريخ الفلسفة الإسلامية فهناك كتاب "مونك" وكتاب دى بور ــ الذى يقدم لنا ترجمته ثم كتاب كارادى فو، والحقيقة أن جهد أبوريدة فى هذا العمل يجعلـنا دون أدنى مبالغة ننسب العمل إلى "أبو ريدة ــ دى بور" معاً. فالمؤلف قد رغـب فى الإيجـاز فـلم يذكر المراجع التى رجع إليها ولا المصادر، حتى كان يترجم النص العربى ولا يدل على مكانه، فبحث أبو ريدة حتى اهتدى إلى الأصول العـربية وأضـاف كثيراً من التعليقات بحيث جاءت الترجمة فى أكثر من ضعفى حجمهـا الأصـلى مزودة بالإشارات والتنبيهات والتعليقات، ووسع ما هو موجز، وأضـاف معلومات هيأتها البحوث الجديدة حتى جاء الكتاب أوفى وأعم نفعاً وبداية لجهده فى تأريخ أوسع للفكر الإسلامى "لقد أشار علىّ بعض أساتذتى أن أترجم هذا الكـتاب ليكون مجملا شاملاً فى تاريخ الفلسفة الإسلامية .. لقد حاولت الاستكمال

(٧) المرجع السابق، المقدمة، ص ٣.

(٨) المرجع السابق ص ٤.

(٩) د. أبوريدة: مقدمة ترجمته كتاب دىبور تاريخ الفلسفة فى الإسلام. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة (١٩٣٨) ص د.

والاستيفاء بقدر ما اتسع بذلك جهدى لأجعل هذا الكتاب .. توطئه لتأريخ أوسع للفكر الإسلامى"[١٠].

والكتاب الثالث الذى يقدم لنا ترجمته إلى العربية هو كتاب آدم متز "الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع" ويخبرنا أبوريدة أن الذى حبب إليه القيام بهذا العمل، إنه ليس فى كتب المستشرقين على كثرة تأليفهم إلا كتب قليلة تبحث فى تاريخ الحضارة الإسلامية على النحو الذى سلكه آدم متز.

ويحدد لنا أبو ريدة طريقته فى العمل لنقل هذا الكتاب إلى العربية وهى التحقيق العلمى للمصادر والأصول التى استقى منها متز نصوصه. يقول: "كان لابد لى من البحث عن هذه المصادر فى فهارس المكتبات الأوروبية للمطبوعات والمخطوطات ومراجعة ذلك. وقد استطعت أن أحصل على المواضع التى أشار إليها المؤلف فى المخطوطات، وكذلك مراجعة الأصول العربية، ووسّعت بعض النصوص وبينت مناسبتها، وذكرت أسماء الأعلام كاملة وعلقت تعليقات قليلة جداً يتطلبها المقام، على إنى راجعت كل شىء تقريباً على الأصول التى ذكرها المؤلف مراجعة دقيقة طلباً للدقة والضبط"[١١].

وترجم كتاب بينس S. Pines "**مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب اليونان والهنود**" أثناء فترة دراسته بباريس وبازل وحالت ظروف الحرب العالمية دون نشره حتى ١٩٤٦ وهو كتاب يسير فى الاتجاه العلمى الذى شغل به منذ كان طالباً وظهر فى دراسته الأولى عن إبراهيم بن سيار النظام واستمر معه طوال حياته، فقدم للكتاب بدراسة وافية مع ملحق عن "مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين الأولين فى الإسلام"[١٢] ويهمنا مقدمة ترجمته التى تظهر لنا بوضوح اهتمامه العلمى المبكر. فهو يدرس موقف المتكلمين والفلاسفة من الكون على ضوء

(١٠) الموضع السابق.

(١١) د. محمد عبد الهادى أبوريدة: مقدمة ترجمة كتاب آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٠ص ز – ح

(١٢) أضاف د. أبوريدة إلى ترجمته لكتاب بينس ترجمة مقال أوتو بريتزل OTTO PRETZL "مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين الأولين فى الإسلام" عن مجلة الإسلام، المجلد التاسع ١٩٣١.

إنجـــازات العـــلم، ويرى أن العلم يؤيد متكلمى الإسلام القائلين بالذرة على فلاسفة الإســـلام الذيـــن انكروها: "لا شك أن متكلمى الإسلامى كانوا فى كثير من الأحيان أرزن وأقـــرب إلى روح العلم من فلاسفته وذلك يتجلى فى رفض المتكلمين للعلوم الخادعـــة. وقـــد كانوا من وجهة أقرب إلى روح الفلسفة لتناولهم الأفكار الفلسفية بالـــنقد، وخصوصـــاً لأبحاثهم فى المعرفة الإنسانية ونقدهم لها.[١٣] ومهما يكن من شـــىء فـــإن القول بالجزء الذى لا يتجزأ كان له شأن كبير فى علم الكلام لإثبات بعض العقائد الإيمانية الكبرى مثل: حدوث العالم، المفضى إلى إثبات جود الصانع، كما كان أساساً لوجهة نظر فى الكون تنبنى على القول بالخلق المستمر[١٤]. وتظهر مقدمـــة أبو ريدة أهمية الجوهر الفرد فى الفلسفة الإسلامية. وإنه يكشف عن نواح جديدة ويبعث الاهتمام بمشكلات يجب دراستها فى الفكر الإسلامى" وكما أوضحت فـــإن أبو ريدة حتى فى ترجماته يرجع للأصول ويعتمد على المصادر المطبوعة والمخطوطـــة التى يحققها ويشير إليها فى كل عمل من أعماله وهو يوضح لنا ذلك فى مقدمـــات تـــرجماته وتعـــليقاته عليها بقوله: "وكان من حسن حظى أنى عرفت مؤلفـــه العلامـــة بينس فى باريس فرجعت إليه فى إيضاح ما احتجت إلى إيضاحه تحـــرياً للدقة، كما أنى استطعت وأنا فى باريس مراجعة نصوصه التى لا تحصى فى مخطوطاتهـــا الكـــثيرة الـــتى رجـــع إليها المؤلف، ولم يكن هذا علىّ بالأمـــر اليســـيـــر"[١٥] ويضـــيف فى الفصـــل المعنون مصادر فلسفة الرازى وهو يعرض لتحليل بينس للذة والألم عنده واستشهاده ببعض الأيات القرآنية التى تركها المؤلف "كان محل هذه الآيات بياض فى الأصل، وقد عثرت على فصل عنوانه: "فى بيان الـــنفس" فى آخر مخطوط رقم ٦٩٦ بمكتبة الأسكوريال، والغالب أنه كتاب "الفوز الأصـــغر" لابـــن مســـكويه، وهو حكاية عن مذاهب الحرنانيين، ومنه أكملت هذه الآيات"[١٦].

---

(١٣) مقدمة د. أبوريدة لترجمة كتاب بينس: مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب اليونان والهنود، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٦ صط.

(١٤) نفس الموضع السابق.

(١٥) المرجع السابق، المقدمة ص ط.

(١٦) المرجع نفسه ص ٦٣ الهامش.

وكتاب فلهوزن: "**تـــاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأمويـــة**" هو العمل الخامس الذى يقدمه أبو ريدة إلى العربية. وهو كما يتضح من عـــنوانه فى الـــتاريخ العربى يعرض فى فصول تسعة لقيام الدولة الإسلامية حتى ســـقوط دولة بنى أمية. ويخصص أبو ريدة مقدمة للحديث عن المؤلف وأخرى عن الكـــتاب. فالرجل عالم بارز فى دراسات الكتاب المقدس، وباحث محقق فى ميدان التاريخ العربى وهو مفكر متحرر يعتد بالعقل ويعنى بالنقل، وفى عمله هذا لم يكن مـــتميزاً أو صـــاحب أفكـــار مسبقة مع أو ضد العرب، فقد جمع بين الجدّ العلمى والعمـــق والعدالـــة، وجمع بين روح العالم وموضوعيته وروح الفنان وذاتيته(١٧) والكـــتاب يعـــرض فـــترة مجد العرب الخالدة وفترة التجربة الكبرى فى تاريخهم، ويوضـــح كيف قامت دولة العرب على أساس الدين وقوة الإيمان، والجنس العربى وخصائصه.

ويمكن أن نستنتج خصائص ترجمات أبو ريدة ومنهجه فى الترجمة من تلك الإشارات التى يعلن بها فى بداية كل نص كيف تعامل معه. فهو يرى أنه لابد لمن يريد ترجمة كتابه بلغة أجنبية فى موضوع إسلامى أن يكون ملماً بالموضوع عارفاً بالاصـــطلاحات العـــربية(١٨) وأن يراجع كتب التاريخ والتراجم وكل ما رجع إليه المؤلـــف مـــن مؤلفات المفكرين العرب، والاستعانة بالاصطلاح العام الذى جرى عـــليه الإســـلاميون. وبالإضـــافة للعودة إلى الأصول والإلمام بالمصطلح العلمى العـــربى وعـــليه أيضاً إدراك إنه مترجم عربى يقدم عملاً للقارئ العربى، وبالتالى فمـــن الممكن أن يتوسع فى الموجز ويفصل فى المختصر ويحقق الأسماء وتواريخ الميـــلاد والوفـــاة لأى ممن تحدث عنهم المؤلف دون تفصيل(١٩) وإذا كان أبو ريدة حريصاً على دقة الترجمة بحيث يقدم فكر المؤلف بشكل يكاد أن يكون حرفياً، فهو فى أحيـــان أخـــرى يعطى نفسه حرية أكثر كما فى ترجمته لتاريخ الدولة العربية الذى نشر عام ١٩٥٨ حيث لم يكن بدّ فى بعض الأحيان من ترجمة المعنى ترجمة

---

(١٧) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ترجمة د. محمد عبد الهادى أبوريدة ، القاهرة ١٩٥، والمؤلف معروف فى العربية ترجم له د. بدوى كتابه عن الخوارج والشيعة، القاهرة ١٩٥٩.

(١٨) د. أبوريدة : مقدمة ترجمته تاريخ الفلسفة فى الإسلام، ص د.

(١٩) د. أبوريدة: مقدمة ترجمة الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع.

دقيقة وافية بالغرض دون تعنت فى التمسك بالترجمة الحرفية، خصوصاً إذا كانت الألفاظ العربية المؤدية للمصطلحات الألمانية لم تتوطن بعد فى أذهان غالبية القراء العرب"[٢٠] والحقيقة أن السمة الأساسية التى نريد أن نستخرجها عرضنا لإشارات أبوريـدة لطريقـته فى الـترجمة هى التأكيد على أهمية التحقيق والضبط والعودة للأصـول العربية ـ وأغلبها فى هذه الفترة كان مخطوطاً أى أن التحقيق والعودة للمخطوطات ـ كانت أيضاً جزء من عمله فى ترجمة وتقديم النصوص الغربية فى الفلسفة إلى اللغة العربية.

ثانياً : أبحاث أبو ريدة والتحقيق العلمى

وكما اتضحت طريقة الأستاذ فى الترجمة التى كانت بالنسبة إليه الوسيلة الأولى لتقديم المادة العلمية التى تساعد الباحث بعد ذلك فى تقديم تاريخ أشمل للفلسفة الإسلامية، تلك الطريقة التى ظهر فيها كيفية تعامل أبو ريدة مع النص المترجم وكيفية نقله إلى العربية من خلال العودة إلى المصادر والأصول وضبطها وتحقيقها، فإننا نجد فى أبحاثه بالإضافة إلى كشفها لميادين بكر لم يرتدها الباحثون العرب قبله، وميله إلى بحث الناحية العلمية فى التفكير الإسلامى "الكلامى والفلسفى" ذلك الضبط المنهجى المتمثل فى امتلاك الأدوات البحثية كالتمكن من كثير من اللغات الأوروبية، والإلمام بالمصطلحات الفلسفية العربية، والمعرفة الواسعة بالمصادر والأصول.. وسوف نعرض فى هذه الفقرة لأصول البحث العلمى كما ظهرت فى أول أبحاثه للماجستير عن "إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية" ولن نتوقف عند الموضوع والمحتوى الذى يعالجه والذى قدمه لنا فى بابين الأول: مدخل عن حياة النظام، ثقافته، نواحى نشاطه الفكرى والاتجاهات الغالبة على تفكيره ومكانته بين مفكرى عصره ومميزاته الشخصية ومؤلفاته، والباب الثانى آراء النظام سواء فى الإلهيات أو الإنسان أو العالم المادى أو المسائل الأخلاقية والسياسية، فما يهمنا هنا هو التوجه العام المتمثل فى مغزى دراسته للنظام والذى يتضح فى حديثه عن الاتجاهات الغالبة على تفكيره: النزعة المادية الحسية، الاتجاه العلمى، الاتجاه الجدلى، الاتجاه إلى التعمق (الناحية العقلية المنطقية) ومن تخصيصه أكبر أجزاء بحثه للحديث عن آراء النظام الطبيعية.

(٢٠) د. أبوريدة مقدمة ترجمة تاريخ الدولة العربية.

إن اهــتمامه بالــنظام جزء من اهتمامه بعلم الكلام الإسلامى الذى شغل به كــثيراً ربمــا بشــكل يوازى اهتمامه بالفلسفة أو يزيد. وهو فى هذا يتفق مع على سامى النشار الذى رأى فى الكلام الفلسفة الإسلامية الأصيلة. ومن هنا كان توجيه أبوريدة جل أبحاثه إلى هذا الميدان. فعلم الكلام الإسلامى وكبار علمائه، خصوصاً المتقدمون منهم، فى حاجة إلى مجهود كبير يوجه إلى دراسة المذاهب الخاصة بكل متكــلم، وإلى بيــان وجهــة الــنظر الموحدة لفرق المتكلمين، ولجملة هذه الفرق باعتبارها ممثلة لوجهة نظر تقابل الفلسفة الإسلامية كما يمثلها كبار فلاسفة الإسلام مــن جهة، وتكون فى ذاتها فلسفة لها خصائصها التى تتميز بها من جهة أخر.[٢١] هذا هــو الهدف الذى وجهه من البداية لدراسة النظام وتحقيق كتاب "التمهيد" للباقلانى وتــرجمة "مذهب الذرة عند المسلمين" لسلمون بينس. فكيف أدى عالما هذه المهمة فى بحــثه: "لقد اعتمدت فيه على ما استطعت الوصول إليه من مراجع مطبوعة أو مخطوطــة فى مصــر وفى بعض بلدان أوروبا، كما إنى جعلته مستوفياً لأبحاث المستشــرقين الأوروبيــن فى الموضوع".[٢٢] وهذا ما سنحاول إيضاحه. لقد أراد أبوريــدة ربــط آراء النظام بأصولها الأولى الإسلامية "حاولت أن أربط بين أقواله وأفســر بعضــها ببعض محافظاً على ما أنا مقتنع به من ضرورة مراعاة التطور الطــبيعى لــلفكر الإسلامى من حيث منشأ المشكلات وما قيل فيها من آراء تحت تأثير الأصول الكبرى للإسلام. ولم أتابع المستشرقين فيما جروا عليه من رد آراء المتكــلمين إلى مصادر أجنبية يعينونها مع التعسف والمبالغة فى بعض الأحيا".[٢٣] يتضــح ذلــك فى مناقشته آراء المستشرق الألمانى هوروفيتز Horovitz فى رده بعــض آراء الــنظام إلى آراء الفلاسفة الرواقيين وتأثير الفلسفة اليونانية فى تطور علم الكلام الإسلامى.

ونشــير هــنا إلى مصادر أبوريدة المختلفة التى رجع إليها فى لغاتها الأصلية. فبالإضــافة للأصــول العــربية، هــناك كــتابات كل من: فستنفيلد F. Wustenfeld ومــا كدونــالد Macdonald وأوليــرى O'leary وكارادى فو Carra de Vaux[٢٤]

(٢١) د. أبوريدة : إبراهيم بن سيار النظام. كلمة المؤلف ص. ح.
(٢٢) نفس الموضع.
(٢٣) المرجع السابق ص . د.
(٢٤) المرجع السابق ص١.

وكريمـــر Kremer[٢٥] وماكس هورتن Max Horten الذى كثيرا ما يعتمد على كتاباته المـــتعددة[٢٦] وبروكلمان Brockelmann ومارتن شرينر M.Schreiner[٢٧] وهوروفتز Horovitz[٢٨] ويريتزل Pretzl ونيبرج Nyberg وريتان Renan وفورلانى Furlani وريتر Ritter [٢٩] وغيرهم.

وتـــأتى المخطوطات لتمثل مصدراً أصيلاً يحرص أبو ريدة على الاعتماد عليه والإشـــارة له، وبيان ما يتعلق به من ذكر المخطوط ورقمه ومكانه. فهو يذكر فى كتابه عـــن النظام مراجعه فى الهوامش والملاحظات وفيها المخطوطات التى رجع لها مثل: "عيـــون الـــتواريخ" لأبـــن شاكر مخطوط رقم ١٥٨٨ بالمكتبة الأهلية بباريس(ص١) وكتاب البرهان فى عقائد أهل الإيمان مخطوط رقم ٣٢١ عقائد بالمكتبة التيمورية بدار الكـــتب بالقاهـــرة (ص٢، ٩٠) وكـــتاب عيـــون أخبار الأعيان فيما مضى فى سالف العصـــور والأزمـــان لأحمد بن عبد الله البغدادى مخطوط رقم ٦٦٧٧ بالمكتبة الأهلية بـــباريس(ص٣، ١٩٤). ويشير إلى كتاب الذهبى "تاريخ الإسلام" وهو يوجد مخطوطاً فى بعـــض مكتبات أوروبا ويعلق عليه "إن بعض نسخه غير كاملة" (ص٥) وكتاب أبو المعيـــن النســـفى بحر الكلام مخطوط رقم ١٥٤ عقائد بالمكتبة التيمورية (ص١٤٧،٦) والتبصـــير فى الديـــن للإسفراييني مخطوط بمكتبة الأزهر (ص٧، ١٣٠) وكتاب أبو هـــلال العســـكرى "الأوائل" مخطوط رقم ٥٩٨٦ بالمكتبة الأهلية بباريس(ص٨، ٦٧) والـــبحر الزاخـــر الجـــامع لمذاهب علماء الأمصار مخطوط رقم Claser 230 بمكتبة بـــرلين(صفحات ١٣٤،١٦،، ١٦٢). والأحكام فى أصول الأحكام لابن حزم مخطوط رقـــم ١١ أصـــول بدار الكتب(ص١٧-٢١) وكتاب القاسم بن إبراهيم الحسنى + ٢٤٦ هـــ "الرد على الرافضة" مخطوط بمكتبة برلين رقم Glaser ١٠١ (ص٢٨-١٥٠)

---

(٢٥) واستشهاداته بهم على الوجه التالى: فسنقليد ص١، ماكدونالد، صفحات ٥،، ٨٩،، ١١٩، ١٧١، أوليرى صفحات ٥، ١١، كاردى فوا ص٥، ٦٩، ١٧٢، وكريمر ص٥، ٨٩.

(٢٦) راجع صفحات ٥، ١٦، ٦٦، ٧٤، ٨٥، ٨٦، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٧، ١١٧، ١٤٢، ١٥٨، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢.

(٢٧) ص ٦، ١٧١. ومارتن شرينر صفحات ١٣، ٥٣.

(٢٨) على امتداد صفحات الكتاب ٤٧، ٧٦، ٨٥، ٨٦، ٩٤، ١٠٢، ١٠٧، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٣٩، ١٤١، ١٦٨.

(٢٩) ويشير إلى بريتزل وينبرج ص٥٤. وفولارنى ، ص٧٧، وريتر ص٧٩.

مخطــوط "التمهيد" للباقلاني الذى حققه فيما بعد مع الأستاذ محمود الخضيرى مخطوط رقــم ٦٠٩٠ بالمكتــبة الأهــلية بــباريس(ص٢٨-٣٥) وكتاب البيهقى تاريخ حكماء الإســلامى الــذى يشــير إليــه فى كثير من أعماله مخطوط رقم ٣٦٦٦ بدار الكتب المصــرية(ص٧٠) والمجموع من المحيط بالتكاليف مخطوط رقم ٣٥٧ عقائد بالمكتبة الــتيمورية بــدار الكــتب المصرية(صفحات ٨٣، ١٣٥، ١٣٦)، والصحائف الإلهية للسمرقندى وشرح الصحائف للعلاء الإسفرايينى وهما مخطوط واحد تحت رقم ١٢٤٧ بالمكتــبة الأهــلية بباريس(صفحات ١١٠-١٧٤) ومفصل المحصل بمكتبة باريس رقم ١٢٥٤[٣٠] والعقــائد الماتريدية مخطوط رقم ١٤٧ عقائد المكتبة التيمورية (ص١٢٣) وكــتاب فخــر الديــن الرازى المباحث المشرقية مخطوط بمكتبة برلين Or-Ouarta (ص١٢٣) وشــرح الإشارات للطوسى مخطوط بمكتبة باريس رقم ٢٣٦٦ (ص١٢٣) والإبانــة للأشــعرى مخطوط رقم ١٠٧ عقائد بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية (ص٧٠).

ونجــد نفس الاستشهاد بالمخطوطات فى ترجماته أيضاً فهو يستعين فى تعليقاته عــلى ترجمته لكتاب دى بور "تاريخ الفلسفة فى الإسلام" بعدد كبير من المخطوطات. فــفى حديثه عن كتاب التفاحة يخبرنا عن مخطوط به بقوله: "وقد رأيت مختصراً لهذا الكــتاب مخطوطــاً ضــمن مجموعة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية وعنوانه "مختصــر كــتاب الــتفاحة لسقراط"[٣١] ويشير فى نفس الموضع إلى تاريخ المذاهب الفلســفية لســانتيلانا وهو مصدر بمكتبة الجامعة المصرية والتبصير فى الدين، وعيون الــتواريخ لابن شاكر الذى يعتمد عليه أيضاً فى كتاب النظام كما أشرنا وتاريخ حكماء الإســلام للــبيهقى ونــزهة الأرواح وروضـــة الأفــراح للشهرزورى مصور بمكتبة الجامعــة[٣٢] وبيــن أن فى المكتــبة التيمورية بدار الكتب المصرية مخطوط رقم ٥٥ يتضــمن رسالة للكندى فى النفس ضمن مجموعة[٣٣] وفى حديثه يذكر مشاهدة أو عثر

(٣٠) ص ٩٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٦، ١٢٣، ١٣٠، ١٥٨، ١٦٠.

(٣١) راجع هوامش وتعليقات أبوريدة فى ترجمته كتاب ديبور تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٢٩ هـ١.

(٣٢) راجع صفحات ١٠٠، ١١٧، ١٢٧، ١٦٥، ١٨٤، ١٨٩، ٢٠٩.

(٣٣) ص ١٢٠.

عــليه مــن مخطوطات كما فى قوله: "وقد عثرت على مخطوط ينسب له (يحيى بن عدى) وذلك بالمكتبة التيمورية تحت رقم ٢٩٠ أخلاق بدار الكتب[٣٤].

وفى كـتابه "نصــوص فلسفية عربية" ١٩٥٥ يقدم لنا مجموعة من النصوص، غرضـــها تمـــرين قارئها على الانتفاع بالكتب الفلسفية العربية على نطاق واسع. وما يهمنا أن نشير إليه فى تقديم أبو ريدة لهذه النصوص هو قيامه بإعدادها علمياً فيما يشبه الــتحقيق كمـــا يخبرنا: "فقد رأيت أن أضبطها وأصلح من أمرها بحيث تكون من غير شك أصح من الأصول التى نقلت عنها"[٣٥] وهو بالإضافة لتقديم النص يشرح الكلمات الصـــعبة ويــلخص الفكـــرة الإجماليـــة له. وهذا ما يتضح بأجلى صورة فى تحقيقاته المعـــروفة. وفيمـــا يـــلى تحـــليل لبعض جهوده فى مجال تحقيق النصوص والرسائل الفلسفية والكلامية والرسائل القصيرة فى علم البصريات.

ثالثاً : التحقيقات :

١- رسائل الكندى الفلسفية

"إن الدراســـات عـــن الكـــندى لم تنقطع، وهى فى تزايد يوماً بعد يوم. فمنذ أن عـــرفت رسائله وأصبحت متوفرة للقارئ والباحث، توالت دراسات وكتب عديدة حول الكـــندى وفلسفته تعتمد على النشرة المحققة الجيدة رسائل على يد الأستاذ الدكتور محمد عـــبد الهـــادى أبوريـــدة".[٣٦] هكذا كتب الدكتور حسام الألوسى فى مقدمة كتابه "فلسفة الكندى وآراء القدامى والمحدثين فيه" الذى نجد فى بدايته إهداء يقول:

إلى الإنسان الذى يقترن أسمه واسم الكندى دوماً ويشهبه فى طيبة الطوية وحب الإنســـانية والســـيرة الفلسفية الرحبة الأخ والصديق محمد عبد الهادى أبوريدة رائد كل دراســـة عند الكندى بحق ورمز العالم الفاضل أقدم هذا الكتاب حقاً لقد توالت الدراسات عـــن فيلســـوف العـــرب وتضـــاربت الآراء حـــول فلسفته ويمكن القول "إن الأحكام المعاصـــرة عـــلى مكانـــة الكندى الفكرية تختلف بين مرحلتين يفصل بينهما نشر عبد

(٣٤) ص ١٥٥.
(٣٥) د. محمد عبد الهادى أبوريدة: نصوص فلسفية عربية. النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٥ المقدمة.
(٣٦) د. حسام محى الدين الألوسى: فلسفة الكندى وآراء القدامى والمحدثين فيه. دار الطليعة بيروت ١٩٨٥ ص ٧.

الهادى أبوريدة مجموعة أياً صوفيا من رسائل الكندى"[٣٧] لقد كتب الباحثون عن الكندى عن "الكندى ورأيه فى العالم بالمقارنة مع أفلاطون وأرسطو"[٣٨] وحققوا بعض رسائله مثل "فى الصناعة الكبرى"[٣٩] متتلمذين على صاحب الكندى ورائد الدراسات المعاصرة حوله. وقد يعيد البعض تحقيق بعض رسائل الكندى – لظهور مخطوطاً جديدة لها – كما فعل الدكتور عبد الأمير الأعسم فى دراسته الهامة "المصطلح الفلسفى عند العرب" – إلا أن ذلك يؤكد فيما يؤكد فضل أبوريدة "إن نشرتنا هذه لرسالة الكندى فى الحدود والرسوم لا تلغى الجهد البارز الذى بذله الدكتور أبوريدة فى **إخراجها أول** مرة، لكنها تصحح القراءات الغامضة فى نشرته وتفصح عن كل مسألة **استوقفته حينا** فى القراءة أو التعلق[٤٠]. تلك شهادة باحثين محققين فى الفلسفة الإسلامية.

بل إننى أزعم أن بعض الانتقادات التى وجهت إلى تحقيقاته، **وهى قليلة، تفصح** عن تناقض أصحابها. فالدكتور عبد الرحمن بدوى ينتقد فى كتابه "**رسائل فلسفية**" ١٩٧٣ تحقيق أبو ريدة لرسالة الكندى فى "العقل" تمهيداً لإعادة تحقيقها "**فقد تبين بعد** الفحص الدقيق أن نشرة هذه الرسائل كلها (رسائل الكندى) **حافلة بالأخطاء ولابد من** إعادة تحقيقها كلها من جديد"[٤١] فهى – رسالة العقل – على صغرها تحتل مكانة ممتازة، ومن هنا كان الاحتفال بها وكثرة الدراسات التى تناولتها، كما أن هذه الدراسات اعتمدت على مخطوط واحد هو مخطوط أيا صوفياً ٤٨٣٢. ويبدو أن بدوى نفسه – رغم نقده هذا – اعتمد أيضاً فى تحقيقه على نفس المخطوط الواحد. إلا أن ما يهمنا هنا هو حكم بدوى على تحقيق أبوريدة لرسالة العقل الذى يناقض مع حكم آخر على نفس تحقيق أبوريدة لهذه الرسائل أصدره بدوى فى تحقيقه لكتاب أرسطو فى النفس ١٩٥٤، فهو تحقيق ممتاز كما يتضح من قوله "راجع النشرة الممتازة لرسائل

---

(٣٧) انطون سيف: الكندى ومكانته عند مؤرخى الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥ ص ١٧٢.

(٣٨) عزمى طه السيد أحمد: الكندى ورايه فى العالم بالمقارنة مع أفلاطون وأرسطو. رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة الكويت أشراف أ.د. محمد عبد الهادى أبوريدة ١٩٧٩.

(٣٩) الكندى: فى الصناعة الكبرى تحقيق. عزمى طه السيد، دار الشباب للنشر والترجمة والتوزيع، قبرص ١٩٨٧.

(٤٠) د. عبد الأمير الأعسم: المصطلح الفلسفى عند العرب. دراسة وتحقيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط٢ القاهرة ١٩٨٩ ص ٢٨.

(٤١) د. عبد الرحمن بدوى: مقدمة تحقيقه: رسائل فلسفية، الجامعة الليبية، بنغازى ١٩٧٣ ص٩.

الكندى الفلسفية التى قام بها الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة والمقدمة التى صدر بها هــذه الرسائل"[٤٢] ويأخذ الدكتور الأهوانى على محققنا إغفاله نسخاً مصورة للمخطوط موجــودة بــدار الكتب المصرية كانت تغنيه عن تلك المشاق التى يصفها لنا من أجل الحصــول عــلى المخطوط. ويظهر لنا الأهوانى أسبقيته فى تقديم رسائل الكندى، فقد نشــر له ثــلاث رســائل هى: كتاب الكندى فى الفلسفة الأولى القاهرة ١٩٤٨، رسالة الــنفس، مجلة الكاتب القاهرة أكتوبر ١٩٤٨، رسالة العقل ١٩٤٩[٤٣] بينما تمت نشرة أبوريــدة للرســائل فى جزءين عامى ١٩٥٠ – ١٩٥٤. والحقيقة أن تحقيقات أبو ريدة لرســائل الكندى سبقت إصدار الأهوانى لرسالة الكندى فى الفلسفة الأولى ـــ كما يشير هــو نفسه. صحيح أن الأهوانى نشر تحقيقه ١٩٤٨، ونشر أبو ريدة الجزء الأول من رســائل الكــندى ١٩٥٠ إلا أن محققنا نشر عدة رسائل للكندى قبل هذا التاريخ بمجلة الأزهــر عــام ١٩٤٩ هى: رسالة فى حدود الأشياء ورسومها "الأزهر مجلد ١٨ عدد صــفر ١٣٦٦هـــ، كما نشر ثلاث رسائل أخرى هى: "فى إيضاح تناهى الجرم"، "فى ماهية ما لا يمكن أن يكون لا نهاية له وما الذى يقال لا نهاية له"، والثالثة "فى وحدانية الله وتــناهى جــرم العــالم" بمجلة الأزهر المجلد ١٨ عدد ربيع الثانى ١٣٦٦هـــ[٤٤]. وتدعونــا تلك الشهادات التى توضح ريادة أبوريدة فى دراسة الكندى إلى الوقوف أمام تحقيقه لرسائل الكندى الفلسفية.

يقــدم لنا أبوريدة فى الجزء الأول من رسائل الكندى الفلسفية أربعة عشر رسالة فلســفية مــع مقدمــة وتصــدير، المقدمــة عن المخطوط ومنهجه فى تحقيق الرسائل والتصدير حول فلسفة الكندى وفى الجزء الثانى يقدم لنا الرسائل العلمية للكندى.

والكــندى هو أول فلاسفة الإسلام على الحقيقة وهو أيضاً أول علمائه. ويحدثنا عــن مؤلفاتــه فى كــتابات المسلمين فى الشرق كما يعرض لهذه المؤلفات فى الغرب ويشــير للترجمات اللاتينية لها. فأكبر مجموعة من آرائه توجد فى رسالة لاتينية تحوى

(٤٢) د. عبد الرحمن بدوى: مقدمة تحقيق كتاب أرسطو فى النفس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٤ ص ٦.

(٤٣) د. أحمد فؤاد الأهوانى: مقدمة تحقيق كتاب الكندى فى الفلسفة الأولى، القاهرة ص ٥٧ وما بعدها. وانظر أيضاً كتابه عن الكندى فيلسوف العرب، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ص ٧٣.

(٤٤) د. الأهوانى: مقدمة تحقيق رسالة الكندى فى الفلسفة الأولى، ص ٥٨.

نقـدا لآراء الفلســفة الــتى نشرها P. Mandunnet فى لوفان سنة ١٩١١ وفيها آراء كـثيرة تنسـب للكـندى ونجدها بمعناها فى رسائله. وقد نشر أوتو لوت Otto Loth رســالته فى "ملك العرب وكميته" ونشر البينو ناجى A.Nagy رسائل ثلاثا مترجمة إلى اللاتيـنية هى: رســالة فى العقــل، ورســالته فى النوم والرؤية، ورسالة فى الجواهر الخمســة فى جــزء من مجموعة تاريخ العصور الوسطى ١٨٩٧. ونشر ريتر Ritter رســالة "الحيل فى دفع الأحزان". كما يشير إلى تحقيق الدكتور الأهوانى لكتاب الكندى فى الفلســفة الأولى" "وقد خالفناه فى قراءة كثير من المواضع". وهو يعود بالفضل إلى أهلــه ويذكر جهود المستشرق الألمانى ريتر Ritter الذى اكتشف مجموعة من رسائل فيلســوف العرب بمكتبة أيا صوفيا ضمن مخطوط ٤٨٣٢ . وقد كتب عنها هو وبلسنر Plessner فى مجلة الأرشيف الشرقى، المجلد الرابع ١٩٣٢.

ويصــف لنا مخطوط الرسائل، التى تشتمل على قسمين الثانى يبدأ بترقيم جديد يحتوى على رسائل الكندى مع ثبت بأسماء الرسائل الموجودة وبعضها رسائل رياضية ليســت للكندى. أما رسائل الكندى كما يصفها لنا فهى مكتوبة بخط قديم من خط النسخ الكــوفى، خالية من التنقيط، ترجع للقرن الخامس الهجرى وربما تكون لأبن سينا لكنها ليست من خطه.

- والرسائل بخط واحد قديم، وأسلوباً واحد والروح التى تسرى فيها واحدة.
- وهى متشابهة فى الغالب فى الديباجة والخاتمة.
- وفى بعضــها إشــارات للبعض، وقد نجد مسألة أو استدلالا فى إحداها مذكوراً فى الأخرى بنصه تقريباً.
- ويستنتج من ذلك أنها مجموعة رسائل بقلم مفكر واحد وأن اختلفت فى موضوعاتها.
- وتتطابق أسماء هذه الرسائل مع الأسماء الموجودة فى أقدم إحصاء لمؤلفات الكندى.
- أمــا الاصــطلاح المســتخدم فيهــا فيبدو أنه من عصر متقدم، يشبه اصطلاح المتكلمين الأولين فى بعض الأمور.
- ويســتنتج مــن أسماء الرسائل وتطابقها مع أسماء مؤلفات الكندى ومن مقارنة محتواها والترجمات اللاتينية لها على التطابق التام وأنها تنسب للكندى(٤٥).

---

(٤٥) د. محمد عبد الهادى أبوريدة: مقدمة تحقيق رسائل الكندى الفلسفية.

- ويقـدم لنا أبوريدة بياناً بأسماء الرسائل وترتيبها كما وردت فى المخطوط[٤٦] ثم يذكـر لـنا بعـد ذلك المخطوطات الباقية لكتب الكندى الموجودة فى غير هذا المخطوط وهى:

١- كتاب فى كيمياء العطر والتصعيدات، أيا صوفياً رقم ٣٥٩٤.

٢- رسالة فى علم الكف ذكرها بلسنر ومنها نسخ بدار الكتب المصرية.

٣- رسالة فى اختيارات الأيام، مكتبة ليدن تحت رقم ١٩٩.

٤- رسالة فى استخراج الأبعاء بذات الشعبتين ليدن رقم ١١٩ وإذا كانت الرسالتان ٤،٣ توجـدان فى الجزء الثانى من رسالة الكندى "العلمية"[٤٧]، فهو يعيد ترتيب رسـائل مخطـوط أيـا صوفيا ٤٨٣٢ التى ستقدم فى الجزء الأول بحيث يبدأ بالرسـائل ذات الصـبغة الفلسـفية الخالصة مراعياً فى إعطائنا صورة لمذهب الكـندى. وهـو يضيف لهذه المجموعة رسالة النفس، الموجودة ضمن مجموعة رسائل فى الحكمة تحت رقم ٥٥ بالمكتبة التيمورية بالقاهرة.

إن المشـكلة الأساسـية فى مخطـوط الرسـائل تكمن فى رداءة الخط وقراءة عـباراته. "فى نـص الرسـائل أخطاء كثيرة جداً بعضها فى الإملاء وبعضها فى النحو" ويـبدو أنها كانت فى الأصل إملاء من ممل لا يدقق فى التمسك بقواعد الأعراب، ثم نسـخها ناسخ غير جيد المعرفة لما تحويه. والكلمات تكاد تخلو من التنقيط. والصعوبة هـنا فى أن الكـلمة تقبل أكثر من قراءة، ومن هنا فإن المحقق كما يخبرنا قد حل هذه الصـعوبة على وجهين، الأول إنه ترك بعض الكلمات التى تحتمل أكثر من قراءة دون تشكيل لكى يقرأها القارئ على الوجه الذى يرتضيه، والوجه الآخر هو قيامه بتصحيح بعـض الأخطـاء من الناحية اللغوية، وإن كان لا يشير إلى ذلك فى الهامش. "أما فيما أشـرت إليـه فقد حاولت أن أعطى للقارئ مجالاً لقراءة النص من وجهة نظره. وفى بعـض الأحيان تعمدت إبقاء الأصل على حاله، وذلك رغبة فى المحافظة على الأصل وتجنباً للمساس بأسلوب المؤلف.[٤٨]

---

(٤٦) المرجع السابق ص ل، م، ن.

(٤٧) الكندى: رسائل الكندى العلمية، القاهرة ١٩٥٤ الجزء الثانى.

(٤٨) مقدمة أبوريدة لرسائل الكندى الفلسفية، الجزء الأول ص .

وينصـــحنا المحقق بأن نضع النص فى سياقه التاريخى، فعلينا أن نتصور أنفسنا فى النصــف الأول من القرن الثالث الهجرى، إذ كان الكندى يقوم باستخدام اللغة لأول مرة فى تاريخها فى التعبير عن المعانى الفلسفية.

ويحــدد لــنا جهوده فى معالجة النص. ففى حالة النقص فإن عمل المحقق هو إكمـــال هــذا النص بحسب مواضع أخرى من الرسائل. وأحياناً يضيف كلمة أو بضع كــلمات للإيضـــاح ويضعها بين [قوسين مضلعين] مع استخدام علامات الترقيم نظراً لطــول الجمــل. ومن أجل مساعدة القارئ فهو بالإضافة إلى تقسيم النص إلى فقرات، وبالإضـــافة إلى شرح الاصطلاحات العامة يقدم لنا مقدمة تحليلية لكل رسالة على حدة توضح موضوع الرسالة. ويمكن أن نعطى بعض الأمثلة لما قام به المحقق.

يعطيــنا الدكــتور أبو ريدة تعليقات متعددة على النص، وهى تعليقات شارحة قارئــة موضـــحة مفســـرة، تظهـــر معنى كلمة أو توضح قراءاتها المتعددة أو توضح اصــطلاحاً وتحــدد معناه كما فى المثال الذى نجده فى كتاب الكندى فى الفلسفة الأولى حيــث يتــناول كــلمة (إنية) فى هامش طويل يمتد خمس صفحات (٢٦-٣٠) يعرض معــناها عند الجرجانى فى التعريفات وأبى البقاء الكندى فى الكليات وبيانه لمصدرها ويــناقش وجهـــة نظــر عبد الرحمن بدوى ويعرض لبحث أغناطيوس يعقوب الثالث بطريـــرك أنطاكيـــة وسائر المشرق الذى ألقاه فى الاحتفال الألفى بالكندى ١٩٦٢، وما جاء فى كتاب المحيط بالتكليف للقاضى عبد الجبار، ومقال هورتن Horten عن معنى الكــون من حيث هو اصطلاح فلسفى الذى نشره فى مجلة جماعة المستشرقين الألمان، ويشـــير إلى مـــا ذكـــره كراوس فى مقاله عن ابن المقفع فى مجلة الدراسات الشرقية Orientalia الــتى تصـــدر فى رومـــا، مجــلد ١٤ عام ٣٣- ١٩٣٤ ورأى دى بور De Boer الــذى يــتابع ديــتر يتشـــى Dietrici فى دائرة المعارف الإسلامية المجلد المــلحق مـــادة Annya ، ومـــا أوردته الباحثة الفرنسية الآنسة جواشون فى قاموسها للمصـــطلاح الفلســـفى عند ابن سينا باريس ١٩٣٨ عن لفظ الإنية عند ابن سينا. ويورد قـــول أرسطو فى كتاب الطبيعة تحقيق بدوى (ص ٣٣٣) وتعليق بدوى عليه، وتفسير مـــا بعـــد الطـــبيعة لابن رشد، وعند الصوفية كما جاء فى الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلانى[٤٩] وبالإضافة لهذا التعليق المطول نجد تعليقاته الأخرى على امتداد الرسالة.

(٤٩) المرجع السابق، ص ٣٠.

ويضـــيف فى الطـــبعة الـــثانية مـــن تحقيـــق رسالة الكندى "فى حدود الأشياء ورســـومها" إضافات جديدة ويشير فيها إلى وجود نسخ ثانية فى مكتبة بروسه رغم أنه لـــم يـــتمكن من الحصول عليها، ويتحدث عن مخطوط ـــ بالإضافة للمخطوط الأصلى الذى اعتمد عليه أيا صوفيا ٤٨٣٢ وهو مخطوط رقم Add 7473 بالمتحف البريطانى بـــه عـــدة رسائل من بينها رسالة الكندى "فى ملك العرب وكميته" (ورقة ١٧٦-١٧٨) وبـــه عـــدد من التعريفات التى يطابق الكثير منها من حيث النص تعريفات الكندى فى رســـالته لكنها ليست بنفس الرتتيب، وتناول الأستاذ S.M. Stern هذه الورقة فى بحثه Notes on Al- Kindi's Treatise on Definitions JRAS 1959 P.32-42 وهـــو يستشـــعر أن تـــلك الحـــدود ليست للكندى لأنها تتردد فى رسالة التعريفات من رسائل إخـــوان الصـــفا (الرســـالة ٤١١ بحسب طبعة القاهرة ١٣٤٧ج٣) ويتحدث عن تأثير تعـــريفات الكندى فى الفكر والأدب فى العصور الوسطى[٥٠] وغير هذين المثالين نجد تعليقات عديدة بامتداد نشرة أبو ريدة للرسائل.

إلا أن مـــا يهمـــنا أن نشير إليه هو تلك الظاهرة التى نجدها فى عدد من أعماله وهى معـــاودة الـــنظر فى كـــل طبقة جديدة بناء على النشرات والكتابات التى صدرت حـــول الموضـــوع وإضـــافة وتعديـــل بعض الآراء التى قال بها نجد ذلك فى رسائل فيلســـوفه الأثيـــر إليـــه "الكـــندى" حيث يخبرنا بتواضع العالم الحقيقى إنه رغم ظهور دراســـات أخرى لفلسفة الكندى لها صيغة أكاديمية فإن دراسة فلسفته وآثاره الموجودة بالعربية أو فى ترجماتها اللاتينية لا تزال بعيدة عن الإحاطة والكمال، وبعض مصنفاته الهامة لا يزال مخطوطاً. ومن هنا فإن أبوريدة يخبرنا أنه منشغل فى هذه الفترة بإعداد هذه النصوص للنشر وأنه بصدد دراسة وافية لفلسفة الكندى وآثاره.[٥١]

٢- التمهيد للباقلانى فى علم الكلام :

وإذا مـــا انتقلنا من تحقيقاته الفلسفية إلى تحقيقاته الكلامية سنجد العمل المشترك الـــذى قدمه مع الأستاذ محمود الخضيرى وهو "التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضـــة والخـــوارج والمعتزلة "للباقلانى ١٩٤٧. والكتاب من أجل كتب الكلام من

(٥٠) المرجع نفسه، ص ص ١١٠- ١١٢.

(٥١) المرجع نفسه، تصدير الطبعة الثانية.

أجـل كتب الكلام الإسلامى خصوصاً ما يتعلق فيها بالرد على المخالفين "ونحن ننشره ليكـون حـلقة فى سلسـلة الكتب الكبرى التى تبين تطور علم الكلام من جهة وتبرز المسائل الأساسية التى كانت موضع خلاف بين رجاله ومخالفيهم من جهة أخرى"(٥٢). وأبوريـدة من المهتمين بعلم الكلام اهتماماً خاصاً وكانت رسالته للماجستير عن النظام وآرائـه الكلاميـة والفلسـفية، ففرق المتكلمين تعتبر ممثلة لوجهة نظر تقابل الفلسفة الإسـلامية وتكـون فلسـفة لهـا خصائصها المتميزة وهى أقرب إلى أن تكون فلسفة الإسلام الأصيلة.

وكـتاب الـباقلانى "التمهيد" يعبر عن فترة نضج المؤلف "أما التمهيد الذى بين أيدينا فلاشك أن الباقلانى لم يؤلفه إلا بعد أن كان قد نضج عقله واستحكم فى فن الجدل وعرف أصول مذاهب المخالفين، لأن هذا كله يتجلى فى كتابه ومما يؤيد ذلك أنه يشير فيـه إلى بعض كتبه السابقة"(٥٣) وموضوعه يدور على مسائل الخلاف بين أهل السنة وبين مخالفيهم جميعاً إسلاميين وغير إسلاميين.

ويحدثـنا المحقق عن نسخ التمهيد المخطوطة. فهناك نسختان أشار إليهما ريتر همـا: نسـخة أيا صوفيا رقم ٢٢٠١ ويرجع تاريخها إلى عام ٤٧٨هـ. ونسخة مكتبة عـاطف تحت رقم ٢٢٣ يرجع تاريخها إلى عام ٥٥٥هـ. ويبدو أن المحققين لم يطلعا عـلى هـاتين النسـختين حيث اعتمداً نسخة ثالثة هى المخطوط رقم ٦٠٩٠ بالمكتبة الأهـلية بـباريس "اعـتمدنا عليه وحده فى هذه النشرة نظراً لصعوبة الحصول على غيـرها أيـام إعدادنا الكتاب للنشر"(ص٢٩) ويرجع تاريخ هذه النسخة إلى عام ٤٧٢ هـــ أى إنها أقدم من النسختين الأخريتين ويصفها المحققان فهى تقع فى ٩٨ ورقة من مقيـاس ٢٢×١٦ تشـمل كـل صفحة على ٢٣ سطر. والخط أندلسى واضح يتصف بالجمـال. ويصـف لـنا المحققان محتويات المخطوط، ويشيران إلى وجود ترجمة للـباقلانى عـلى صفحة العنوان الملحقة بهذه النشرة. ويوجد على ظهر الورقة الأولى

---

(٥٢) د. محمد عبد الهادى أبوريدة، محمود الخضيرى محققاً كتاب الباقلانى :التمهيد" دار الفكر العربى القاهرة ١٩٤٧ والحقيقة أننا لا نستطيع أن نحدد ــ إلا بصعوبة شديدة ــ جهد كل من المحققين وأيهما ينسب للأول وأيهما جهد الثانى.

(٥٣) المرجع السابق ص ٢٨.

فهـــرس بمـــا يحيويــــه الكـــتاب من أبواب لكنه بخط آخر ولا يطابق الكتاب من حيث تفاصـــيل المحتويات. وتلك مشكلة هامة سوف نناقشها بعد قليل، ويناقش المحققان اسم الكـــتاب "التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة" ويرجح المحققـــان أن هذا العنوان الطويل إضافة من أحد العلماء أو الناسخين بالإضافة إلى أننا لا نجـــد للكـــتاب هذا الأسم عند أحد ممن ذكره، فاسمه "التمهيد" كما جاء لدى القاضى عيـــاض فى ثـــبت كـــتب الباقلانى، ومن هنا ففى الأسم زيادة. ويخبرنا المحققان فى المقدمـــة بطريقة إعدادهما للنص المحقق. فقد اثبتا بين قوسين مضلعين ما يشير إلى ما تحويـــه أبـــواب الكتاب ومسائله، كما وضعا فى أحيان قليلة كلمة أو بضعة كلمات بين قوســـين لتوضيح المعنى بالإضافة للتعليقات التى زودا بها التحقيق مع ترجمة للباقلانى لم تنشر من قبل جاءت فى كتاب المدارك للقاضى عياض.

والذى يستوقفنا فى تحقيق أبوريدة وزميله للتمهيد هو تلك الملاحظات والتعليقات الـــتى توضح كثيراً من المسائل التى وردت بالنص، أهمها تلك الملاحظات التى توضح وتفسر ما جاء فى التمهيد عن النصارى وبيان مواضيع الآيات المختلفة وأقوال المسيح كمـــا وردت فى الأنـــاجيل(٥٤) وتعليق المحققين على ما ذكره الباقلانى عن الأريوسية حيـــث أفاضا فى الحديث عنها بسبب قلة معرفة المسلمين عن الأريوسية، إذ لم يظهر عنايتهم بها مع إنها أقرب المذاهب المسيحية إلى التوحيد الإسلامى ويرجعنا إلى بعض المراجع عن الأريوسية.

ويوضـــح تعـــليق أبوريـــدة على الخرمذنية أو الخرمدنية مدى إلمام المحقق بالفارســـية وإتقانه لها. فالخرمدنية أو كما يقال الخرمية على سبيل الاختصار اسم فـــرقة تستمد مقالاتها من أصول إيرانية مما قبل الإسلام. ويوضح أبوريدة الآراء المختـــلفة فى اشـــتقاق هـــذه الكلمة فيرفض اشتقاق الكلمة من خرم اسم بلدة تابعة لأردبيل، كما ذهب إلى ذلك ياقوت الحموى فى معجم البلدان ومرجليوث فى دائرة المعارف الإسلامية. كما يستبعد الرأى الثانى القائل إنها نسبة إلى خرما اسم زوجة

(٥٤) تنسب هذه الملاحظات فى الغالب للأستاذ محمود الخضيرى الذى كان أكثر اهتماماً وتعمقاً فى الفلسفة المسيحية فى العصور الوسطى.

فــردك، ويتفق مع الرأى الثالث القائل بأن اكلمة مركبة من لفظتين فارسيتين هما خــرم وهى صــفة معــناها فرح و"دان" أو "دين" بمعنى الدين. ويشير إلى حديث الــباقلانى عنهما وأنه ربما كان مستمداً من كتاب الحسن بن موسى النوبختى عن فــرق الشــيعة ويقــدم لــنا مراجع لها مثل كتاب السيد غلام حسين صديقى عن الحركات الدينية الإيرانية فى القرنين الثانى والثالث.

والقضــية الأساســية الــتى يثيرها تحقيق أبو ريدة/ الخضيرى للتمهيد هو اعتمادهما نسخة واحدة فقط رغم معرفتهما بوجود نسخ أخرى للكتاب. مما جعلهما يصــدران أحكامهمــا على أساس محتويات هذه النسخة دونما اعتبار لما جاء فى غيــرها مــن نسخ. ففى تعليقهما على موضوعات الكتاب وأنها جاءت كاملة كما يتضــح من خطبة التمهيد التى وجهها القاضى أبو بكر إلى ابن عضد الدولة "وهذا فى نظــرنا دليل على أن النص كامل لم يقع فيه خروم ولم يمسه شيء من الحذف.[٥٥] وحيــن يذكــر الــباقلانى أنــه سيتكلم عن التعديل والتجوير فالأمر محسوم "فلعل الباقلانى سها فلم ينجز ما وعد مكتفياً بعبارات متفرقة فى هذا الموضوع ذكرها فى مناسبات مختلفة فى أكثر فصل من فصول التمهيد"[٥٦].

ويــناقش المحقق السبب الثانى الذى يمثل أقوى دليل على عدم اكتمال النص وهى مناقشة تحتاج إلى مناقشة. فهناك فهرست ملحق بالمخطوط الباريسى – الذى اعــتمد عــليه المحققان – يقع فى ظهر الورقة الأولى أى قبيل ورقة العنوان وهو بخط مخالف وإن كان بمداد شبيه بمداد الكتاب. وينشر المحققان هذا الفهرست الذى يحتوى على ٦٨ فقرة (أو فصل) منها ٢٥ فقرة غير موجود بالمخطوط[٥٧] ويعلق المحقــق على هذا التباين بين الفهرست وما ورد بالفعل فى النص فهناك تكرار فى موضــوع الفقــرة ٢٦، ٣١ كمــا أنــه ذكر التعديل والتجوير فقرة (٤٣) فى ثنايا الفصــول المختــلفة بالإضــافة إلى أنه استبعد بعض الفصول التى تدخل فى كتب الكــلام إلا بعــد عصــر الباقلانى الخاصة بموضوع الأرزاق والأسعار الفقرتين

(٥٥) المرجع السابق ص ٢٦٠.
(٥٦) الموضع نفسه.
(٥٧) راجع المرجع نفسه ص ٢٦١- ٢٦٢.

٣٨,٣٩[٥٨] كمــا أن الفقــرة ٤٢ المتعــلقة بالــلطف من تجديدات متكلمى الشيعة. ويجــدان عــذراً لنقص الفقرات من ٤٤ حتى ٤٩ التى تدور حول الهدى والضلال ومعــنى الديــن والإيمان والإسلام بحجة أن المؤلف يميل إلى الاختصار والفقرتين ٥٠، ٥١ فى النــبوة والأمامــة لأنهمــا تكرار لموضع استوفى المؤلف بحثه من عناوين أخرى مفصل.

ويــتوقف المحققــان عــند الفقــرة رقم ٣٠ المتعلقة بالإستواء على العرش المذكورة بالفهرست وغير ورادة بالنص. فقد اقتبس ابن تيمية وتلميذه ابن القيم هذا الفصل، وعرض له الثانى فى كتاب "اجتماع الجيوش الإسلامية" ويستشهد المحققان بعــرض ابن القيم ويستنكرانه" نحن نجد عند تأويل هذا معنى نستشعره فيه بشىء من التجسيم يتعارض من مذهب الباقلانى واتجاهه فى التوحيد" وعلى هذا يستنتجان عــدم صــدق نقل ابن تيمية وابن القيم عن الباقلانى. نحن هنا أمام مأزق؛ فالقول بصــدق نقــل ابن تيمية وابن القيم معناه أن النص الذى يقدمه أبوريدة والخضيرى نــاقص، والحل الآخر هو القول بتباين بين كلام الباقلانى وما نقله ابن تيمية وابن القيــم. يقــول المحققــان "إننا لا نستطيع عند ملاحظة التعارض البين بين مذهب الباقلانى ومعنى ماينسبه إليه هذان المؤلفان المعروفان بالتمييز إلا الشك فى صحة نقــلهما ومــن هنا يصدران هذا الحكم ــ الذىيحتاج إلى نقض ــ ونحن نثق على حال بنسخة التمهيد التى بين يدينا ثقة أقوى من ثقتنا بنقل ابن تيمية وابن القيم[٥٩].

والحقيقة أنه أمام معرفة المحققين بمخطوطين آخرين لنص التمهيد لم يرجعاً إليهمــا، وعدم معرفتهما بمحتواهما، فالسؤال المطروح هو ما فى مخطوط باريس الذى اعتمد عليه مطابق لما فى مخطوط أياً صوفياً ٢٢٠١، وعاطف رقم ٢٢٢٣. وإن كان هناك تباين فى المحتوى بين المخطوطات الثلاثة فأيها الأصح؟ إن احتمال

(٥٨) ويبدو أن الذى دعا المتكلمين المتأخرين إلى إدخال هذين الموضعين فى علم الكلام هو مشاهداتهم أن كتب الفلسفة كانت تحتوى على أبواب فى تدبير المنزل وهى تعالج مسائل الكسب والأسعار ونظراً لأن المتكلمين رغبوا فى أن يقوم الكلام مقام الفلسفة فإنهم أقحموا فى كتبهم كل ما اعتاد الفلاسفة أن يعنوا به.

(٥٩) المرجع نفسه ص ٢٦٥.

وجــود الفقــرات الناقصة من مخطوط باريس فى المخطوطين الآخرين مطروح، ويدعمه الفهرست الملحق المثبت يظهر صفحة العنوان. ويزيد ترجيح الرأى القائل بنقص مخطوط باريس اعتماد مؤلفين إسلاميين عليه ونقلهم عنه. وعلينا بالتالى أن نــناقش قضية اختلاف تفسير ابن تيمية وابن القيم لأقوال الباقلانى. فاحتمال النقص أو الحــذف جائــز لأن الأجــزاء الناقصة هى الفقرات من ٢٧ حتى ٥١ أى جزء متصــل مــن الخطوط وليس أجزاء منفصلة. ومن هنا يكون احتمال فقد أو ضياع هذه الصفحات أمراً وارداً، أو ربما ــ وهذا هو الاحتمال الثانى وهو احتمال ضئيل ــ يكــون فهــم الناســخ ــ وهــو كما يخبرنا المحققان من العلماء المحققين لنص الــباقلانى ــ شبيها بفهم المحفيين. لذلك فقد فضل حذف هذه الأجزاء واعتقد أننا لا نســتطيع الحسم فى هذه المسألة ما لم نقم بمقارنة بين نسخ الكتب المخطوط الثلاثة لمعــرفة هــل هناك نقص فى مخطوط باريس أم هو كما يزعم المحققان مكتمل، وبالــتالى مــا هى حقيقة نقل ابن تيمية وابن القيم عنه؟ إن احتمال نقلهما عن أحد المخطوطيــن الآخــرين مســألة مطروحة، وبالتالى فالسؤال كيف يثق محقق فى مخطــوط واحد ويطمئن إليه مع كل هذه المشاكل رغم معرفته بوجود مخطوطات أخــرى لــم يطــلع عليها!؟ لا شك أن أبوريدة وصاحبه لم يعطيا نص الباقلانى ما أعطــاه لرسائل الكندى الفلسفية من اهتمام رغم جهده الكبير فى الاستعانة بمراجع أوروبيــة بلغات مختلفة ورغم رجوعه إلى عدد كبير من المخطوطات لتحقيق هذا النص الهام.

وقد نشر الأب رتشارد يوسف مكارثى اليسوعى نص التمهيد(٦٠) نشرة ثانية اعــتماداً على المخطوطات الثلاثة. ويظهر فى تحقيق مكارثى أن الأجزاء الناقصة فى مخطــوط بــاريس موجــود فى مخطوطتى استانبول. وتبين أيضاً أن النقص الموجــود فى مخطــوط بــاريس ليــس من المخطوط الأصلى بل وقع بعد كتابة المخطوط الأصلى(٦١) والنقص فى مخطوط باريس يشمل الصفحات من ٢١٢ حتى ٣٧٩ مــن نشــرة مكارثى. وللأسف أن مكارثى لم يصدر نشرة كاملة للكتاب إذا اسقط نشر الأبواب المتعلقة بالإمامة.

(٦٠) مكارثى: محقق كتاب "التمهيد"، المكتبة الشرقية بيروت ١٩٥٧.
(٦١) المصدر السابق ص ٢١٢– ٣٧٩.

٣- تحقيق الرسائل العلمية

لــم تــتوقف صـــلة أبوريدة بالمخطوط العربى عند الفلسفة وعلم الكلام، بل امــتدت لتشــمل اهتمامه الأثير لديه بالحكمة الطبيعية أو ما نطلق عليه تاريخ العلم العــربى. وكمــا تــرك للباحــثين فى الفلسفة عمله الهام "رسائل الكندى الفلسفية" و"التمهيد للباقلانى"، فقد شغل فى نهاية حياته بعملين فى البصريات أحدهما للحسن بن الهيثم والثانى للإمام القرافى (ت ٦٨٤هـ – ١٢٨٥م).

فقد قدم فى الندوة السنوية الثانية للجمعية الفلسفية المصرية ـ يوليو ١٩٩٠ – بحــثاً بعنوان "الإمام القرافى وكتابه الاستبصار فيما تدركه الأبصار"[٦٢] عرض فيــه لــلحالة العــلمية فى مصر، وتحدث عن شخصية القرافى وكتابه مع عرض لمقدمــته ومحتوياته. والإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافى (ت ٦٨٤هـ – ١٢٨٥م) إمــام كبير من علماء الأزهر الشريف متخصص فى علم الفقه والأصول والعــلوم العقــلية، وكان من المهتمين بالعلم الطبيعى خاصة البصريات، وأصول أعمـــال ابــن الهيثم ـ الذى عاش فترة من حياته بمصر ـ وفى كتابه نستطيع أن نجــد مــن جهــة شهادة على أن واجب عالم الدين فى الإسلام أن يشتغل بالعلوم الطــبيعية، ومن جهة أخرى شهادة على أحوال الحياة العلمية بين المسلمين فى ذلك العصــر. وبعد المقدمة يعرض لنا خطبة الكتاب (مقدمة المؤلف) ويخبرنا أنه قد تم تحقيق كتابه هذا "الاستبصار فيما تدركه الأبصار" من مخطوطات عدة من القاهرة واســتانبول والاســكوريال، وأنــه سينشــر فى معهد تاريخ العلوم الإسلامية فى فرنكفورت فى ألمانيا تحت أشراف فؤاد سيزكين.

ويرتبط بهذا العمل ويسبقه تحقيقه "مقالة فى ثمرة الحكمة" للحسن بن الهيثم، وقــد طــبعه بالقاهــرة ١٩٩١. وكان قد تقدم بهذه الدراسة والتحقيق لتكون ضمن الكــتاب الــتذكارى المهدى إلى الدكتور زكى نجيب محمود الذى أصدرته جامعة الكويت ١٩٨٩، ويخبرنا الدكتور أبوريدة بتواضع العالم ودقته ونزاهته العلمية أنه

---

(٦٢) د. محمد عبد الهادى أبوريدة: الإمام القرافى وكتابه الاستبصار فيما تدركه الأبصار، المؤتمر الثانى للجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة ١٩٩٠.

لم يجزم فى ذلك الوقت بنسبة المقالة إلى ابن الهيثم "لكننى بعدما ذكرته تأملت كلام ابن الهيثم وأسلوبه وبعض عباراته فى كتابه "حل شكوك كتاب اقليدس فى الأصول" ووجــدت شبها ملحوظاً وازدادت ثقتى بنسبة المقالة إلى ذلك العالم الإسلامى الكبير ابن الهيثم"(٦٣).

والعمــل يتكون من تقدمة (خاصة بالطبعة الثانية) وتصدير والنص المحقق (مقالــة فى ثمـــرة الحكمة) والتعليقات والملاحظات. ويعرض أبوريدة فى تصديره للرســالة لمنهج ابن الهيثم ونقده للمعرفة العلمية، ابن الهيثم المفكر الدؤوب، الشك ومعيـــار المعرفة الصحيحة، مواصلة العمل رغم الشعور بحتمية انتهاء الحياة، ابن الهيــثم والفكر الإسلامى فى عصره، ابن الهيثم العالم الزاهد، ثم مكانة الرسالة بين المقدمـــات لدراســة الفلسفة. ويحدد لنا أبوريدة هدفه معطياً كل بيانات المخطوطة التى اعتمد عليها بقوله: "إنى أردت أن أقدم رسالة فى المنهج أطلعت عليها منذ عام ١٩٦٩ فى مكتبة كويرولو باستانبول تحت رقم ١٦٠٤ فى مخطوطة يرجع تاريخها إلى ســنة ٧٥٤هــ كما نجد ذلك على ورقة ١١٣، وتشغل الرسالة الورقات ٤١ ــ ٥٩، وعلى وجه الورقة الأولى هذا العنوان كتاب ثمرة الحكمة لأبن الهيثم"(٦٤).

ويتضـــح جهــد أبوريـــدة فى التحقيق فى التدقيق فى نسبة الرسالة إلى ابن الهيــثم. فبعد تردد فى النشرة الأولى درس وبحث وحقق نسبتها إلى العالم العربى المســلم اعــتماداً عــلى المقارنـــة بين ما جاء بها وأسلوب ابن الهيثم فى مؤلفاته المختــلفة. لقد ضبط نصها وحلل الرسالة وقسمها إلى أقسام أعطى كل قسم عنواناً يــتفق ومـــا جـــاء بـــه. يقول: "نحن نقدم هذه الرسالة بعد أن ضبطنا نصها بقدر الإمكـــان، ووضعنا عناوين بين مضلعين على سبيل الاجتهاد فى تقسيمها وبيان ما تضمنته من عناصر"(٦٥) إن هذه الرسالة تمثل امتداداً لحقيقة رسائل الكندى الفلسفية

---

(٦٣) د. محمد عبد الهادى أبوريدة، مقدمة تحقيق رسالة ثمرة الحكمة للحسن بن الهيثم، القاهرة ١٩٩١ التقدمة.

(٦٤) المرجع السابق ص ١٢.

(٦٥) المرجع نفسه ص ١٣.

خاصــــة الجزء الثانى "الرسائل العلمية" ومن المعروف اهتمام الكندى بالرياضيات وتقديمهـــا عـــلى ســـائر العلوم فى تصنيفه للعلوم المختلفة وتأتى رسالة ابن الهيثم لتوضيح أثر دراسة الرياضيات على دارس الفلسفة. ومن هنا فإن المحقق يرجو أن تمـــلأ هـــذه المقالـــة فجوة فى سلسلة ما كتبه فلاسفة الإسلام منذ أيام الكندى عما لدراسة الرياضيات من أهمية فى تسديد الذهن عند من يريد أن يدرس الفلسفة.

خاتمة :

لقد اتضحت لنا جهود الدكتور أبو ريدة فى تحقيق التراث العربى الإسلامى فى مجـــال الفلسفة وعلم الكلام وتاريخ العلم. وغنىّ عن البيان أهمية تحقيق الكتب العـــربية تحقيقـــاً عـــلمياً بحيـــث يقـــدم لنا المحقق بعمله صورة أقرب إلى الكمال للنصوص الأساسية التى تعد مصادرنا فى معرفة تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية. وهى من ناحية ثانية تبرز الدور الذى يقوم به الجيل المعاصر من المفكرين العرب فى تأسيس الفلسفة العربية المعاصرة.

إن محمـــد عـــبد الهادى أبوريدة (١٩٠٩ – ١٩٩١) يمثل مرحلة هامة فى الـــبحث الفلسفى هى مرحلة الانتقال من الدرس الاستشراقى للفلسفة الإسلامية إلى التأســـيس العلمى للدراسات العربية المعاصرة فى ميدان البحث الفلسفى. واستطيع القـــول دون مبالغة إن جهود أبوريدة وجيله: مدكور، أبو العلا عفيفى، على سامى النشـــار يعد فى كثير من جوانبه أكثر دقة ومنهجية والتزاماً بأساليب البحث العلمى مـــن كثير من الباحثين فى الفلسفة الإسلامية فى الجيل الحالى الذى توفرت له كافة السبل لتقديم صورة أكثر شمولية للفلسفة العربية الإسلامية، رغم الجهد الكبير الذى بذله رواد الجيل الأول فى التمهيد والتأسيس.

وإلقاء نظرة سريعة على المهام التى اضطلع بها عبدالهادى أبو ريدة توضح عمـــق مـــا قدمـــه لنا. لقد ولد بالعريش فى ٢٤ نوفمبر ١٩٠٩، ودرس بالجامعة المصـــرية وتخـــرج فيهـــا عام ١٩٣٤، وسافر إلى باريس ودرس بها كما درس بجامعـــة بـــازل بسويسرا وحصل على الدكتوراة عام ١٩٤٥. وعمل أستاذاً زائراً بالســـربون ١٩٤٨، وعيـــن مستشـــاراً ثقافياً لمصر بمدريد ١٩٤٩، وكلف بإنشاء المعهـــد المصـــرى بمدريـــد وكان أول مدير له فى عام ١٩٥٣. وبالإضافة لعمله

بجامعـه القاهـرة انـتدب لإنشـاء الجامعة الليبية ورأس قسم الدراسات الفلسفية والاجـتماعية ببنى غازى، ثم انتدب ثانية لإنشاء قسم الفلسفة بجامعة الكويت وظل يعمل بها حتى عام ١٩٨٥ حيث عاد للقاهرة فشارك فى الجمعية الفلسفية المصرية وعمـل بقسـم الفلسفة بآداب الزقازيق. ورغم هذا الجهد العملى الكبير فى ترسيخ الدراسة الفلسفية فى كثير من أقسام الفلسفة بالجامعات العربية والإسلامية فقد ترك حصـيلة وافرة من المؤلفات والأبحاث فى شتى ميادين الفلسفة والحضارة العربية الإسلامية.

ومـا يهمـنا أن نشير إليه فى النهاية هو جهوده فى المؤتمرات العديد التى ساهم فيها وحرص على المشاركة فى أعمالها، نستطيع أن نعدد منها:

ـ المؤتمـر الثالث للسيرة والسنة النبوية بدولة قطر، ١٩٧٩ "الحضارة الإسلامية، أسسها ومميزاتها ومكانتها بين الحضارات العالمية".

ـ نـدوة الوجود العربى الإسلامى فى الثقافة الصقلية بالرمو ديسمبر ١٩٨٠ "بين الإمبراطور فردريك الثانى وابن سبعين".

ـ ملتقى واقع الإسلام وتحديات العصر، الجامعة التونسية نوفمبر ١٩٨٤ "الإسلام فى مواجهة التحديات ماضياً وحاضراً".

ـ الملـتقى الإسـلامى المسيحى الرابع .. الجامعة التونسية إبريل ١٩٨٦ "توازن حياة الإنسان بين آراء الحكماء وتعاليم الإسلام"

ـ ملـتقى الدراسـات والأبحـاث الاقتصادية والاجتماعية تونس ١٩٨٩ "الفلسفة تحديات منها وإليها فى الإسلام".

ـ المؤتمـر الـدولى "آفـاق العلاقـات العربية الأوروبية" مدريد مارس ١٩٩٠ "العلاقات بين الفكر الفلسفى الإسلامى والفكر الفلسفى الأوروبى".

ـ ندوة الجمعية الفلسفية المصرية نحو علم كلام جديد يونيو ١٩٩٠ "خطة مقترحة لتجديد علم الكلام".

ـ منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة اليوم العالمى للتنمية الثقافية باريس مايو ١٩٩١ "تجديد الحضارة المعاصرة".

كل هذا الجهد فى ميدان الثقافة والفلسفة والحضارة العربية الإسلامية للرائد الـباحث العلامـة المحقق الدكتور أبوريدة والذى حدد مكانته فى ميدان الدراسات الفلسـفية العـربية المعاصرة يضعه فى الصف الأول من الرواد المؤسسين الذين سـنتهل مـن جهودهم ونتوقف كثيراً أمام الدرس المستخلص من حياتهم وعملهم. والـدرس هنا هو تلك المنهجية والدقة العلمية والتمكن من أدوات البحث والتحقيق الدقيـق الـذى يجعـل الأجيال التالية تقرن دائماً أبوريدة بالكندى، فكلاهما مؤسس لمرحـلة مـن مراحل الفلسفة العربية الإسلامية هى الأهم فى نظرنا وهى: مرحلة التأسيس ومرحلة التجديد.

عبدالرحمن بدوى :

تحقيق التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية

مقدمة :

يهــدف هــذا الفصل إلى تحليل جهود عبد الرحمن بدوى فى تحقيق التراث الفلســفى العربى الإسلامى. وهى مهمة شاقة للغاية، فالبحث فى جهود بدوى؛ الذى اســهم بأوفــر نصــيب فى ميدان التحقيق الفلسفى، يستلزم ليس فقط متابعة إنتاجه الغزيــر فى تاريخ الفلسفة وعلومها المختلفة ومجالاتها المتعددة على امتداد ما يزيد عــن نصف قرن من الزمان، منذ بدأ إنتاجه الفكرى عام ١٩٣٩ وحتى الآن، بل يتطــلب قــبل ذلك إعادة النقاش حول مشروعه الفلسفى والخصائص التى تميزه، والحوار حول أسسه؛ ذلك المشروع الطموح الذى بدأ مع ازدهار الجامعة المصرية فى العقــود الأولى من هذا القرن فى فترة النهضة المصرية وقبل أن تتبلور معالم الإسهامات الفلسفية العربية المعاصرة أو ما يطلق عليه بلغة اليوم المشاريع الفكرية العربية.

وقــد تحددت معالم ما يمكن أن يطلق — إذا جاز التعبير — "مشروع بدوى الفلســفى" فى ثــانى كتبه "التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية" ١٩٤١، والذى يرســم لنا الخطوط العريضة لبرنامج فلسفى كامل ظل صاحبه طيلة حياته العلمية يســعى إلى تحقيقه، وظهر أيضاً فى بحث أكثر تخصيصاً تحت عنوان "مخطوطات أرســطو فى العربية"[1] وهو "العمل — الخطة" التى جاءت معظم أعمال بدوى قبله وبعــده تحقيقاً له وذلك من أجل تقديم أكمل صورة لهذا التراث الأرسطى اليونانى فى الحضــارة الإســلامية، والــذى اتسع ليشمل بالإضافة إلى أرسطو، أفلاطون، وأفــلوطين والأفلاطونية المحدثة وشراحهم من اليونان والمسلمين، وكذلك ترجمات ونصــوص العــرب المسلمين من مترجمين وشراح وفلاسفة ومتكلمين وصوفية وعلماء.

---

(١) بدوى: مخطوطات أرسطو فى العربية، مجلة معهد المخطوطات العربية،، العدد الثانى المجلد الأول، والأول من المجلد الثانى.

وهـــو يهـــدف من ذلك كما أوضح فى كتابه "دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى"، ليـــس فقـــط إلى إحياء التراث الفلسفى العربى، وإعطائنا صورة دقيقة للغة الفلسفية العربية ونصاعة المصطلح الفلسفى المبكر، بل أيضاً إلى بيان التراث الفلســـفى اليونانى باعتباره تراثاً إنسانياً عاماً للعرب. فضل الحفاظ عليه وتطويره وصـــيانته بعد أن فقد كثير من أصول مخطوطاته اليونانية. بحيث نستطيع أن نقول ــ دون أدنى مبالغة ــ إن بدوى يكاد يكون الوحيد الذى قدم لنا أدق وأقرب صورة للـــتراث الفلسفى العربى واليونانى بكافة مدارسه، واتجاهاته، ومراحله الكبرى فى الحضــــارة الإســـلامية، وذلك بالبحث والتأريخ والتحقيق العلمى للترجمات العربية القديمة لأهم النصوص الفلسفية اليونانية.

ويمكن أن نضيف أن تحقيقات بدوى الفلسفية لا تنفصل عن مشروعه، الذى يهـــدف إلى إعـــادة بناء "التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية"، والذى يبرز فيه "دور العـــرب ..." ليـــس فقط من خلال بيان فضل الفلاسفة المسلمين فى النهضة الأوروبيـــة الحديثة، بل أيضاً فى بيان إسهامهم فى التعامل مع الفكر السابق عليهم، والـــذى أنزلوه منزلة عالية. وعلى هذا فإننا سوف نعرض فى هذه الدراسة للنقاط الـــتالية : مشـــروع بـــدوى الفلســـفى، تحقيقات بدوى للنصوص الفلسفية اليونانية والإسلامية، منهجه فى التحقيق.

أولاً : مشروع بدوى الفلسفى :

لا نبالغ إن قلنا إن ما قدمه بدوى يمثل مشروعاً فلسفياً متميزاً طموحاً، وهو مشـــروع ذو نزعة إنسانية فى الأساس، قدمه على امتداد حياته العلمية وإن كان لم يعلن عن ذلك ولم يقدم لنا تصوراً نسقياً يحدد فيه معالم هذا المشروع، ونستطيع أن نحدد معالم هذا المشروع من خلال: ترجماته، مؤلفاته تحقيقاته.

ويســـعى هـــذا المشروع إلى الكشف عن "روح الحضارة العربية" بداية من التـــنقيب فى الـــتراث الفلسفى اليونانى والعربى، انطلاقاً من المخطوطات الفلسفية الإســـلامية الـــتى تقـــدم لـــنا صـــورة واضحة تكاد تكون كاملة لأعمال الفلاسفة

والمتكــلمين والصـــوفية العرب، وما عرفوه عن أسلافهم. وهى أعمال جديرة بعد الكشــف عنها، وبيان مكانها من تطور الفكر الإنسانى ونشرها نشراً علمياً أن تقدم صـــورة شبة دقيقة عن العلاقات الفكرية للحضارة الإسلامية فى تعاملها مع غيرها مـــن حضارات[٢] ومساهمتها فى التراث الإنسانى. ويخبرنا بدوى فى أول تحقيقاته بهـــذا الهـــدف، وذلـــك فى قوله: "إن لنا فى المخطوطات العربية لكنوز كلما أمعن المـــرء فى التـــنقيب عنها أزداد إيماناً بما يجب عليه بذله من جهد فى هذا السبيل الموفـــور العـــائدة لا بالنســـبة إلى التراث الفكرى العربى وحده بل وأيضاً بالنسبة للتراث الإنسانى العام"[٣].

يهـــدف بـــدوى إلى إحياء التراث الفلسفى العربى الإنسانى من خلال إعادة اكتشـــاف تـــلك الكنوز الفكرية؛ والتى يقصد بها المخطوطات العربية القديمة التى حفظـــت لـــنا هـــذا الـــتراث، وتحقيقها، وبيان مكانتها، وأهميتها بالنسبة إلى حياتنا الفكـــرية المعاصـــرة. ويؤكد على هذه الحقيقة فى بداية نشرته "منطق أرسطو" فى ترجمـــته العـــربية القديمـــة حيث يقول: "إن بعث هذا التراث العربى الجيد يقدم لنا شاهداً على المنزلة العليا التى بلغتها عناية العرب بالتراث اليونانى، كما هو مشاهد فى الدقـــة الـــرائعة الـــتى تتمـــثل فى هذه الترجمة، وفى العناية التى أحيطت بها النصـــوص اليونانية بحيث حرص القوم على أن يكون بين أيديهم أدق صورة عن الأصل، فلم يكتفوا بالترجمة الواحدة بل تعاقبت الترجمات على النص الواحد"[٤].

ونقطـــع هذا الاستشهاد الطويل نسبياً لنشير إلى الهدف المزدوج لعمل بدوى وهـــو: تحقيـــق الـــترجمات العربية القديمة للتراث الفلسفى اليونانى، الذى يمهد لنا ســـبيل معرفة هذا التراث من جهة، وتلك مهمة أولى تعيننا حسب قول بدوى نفسه،

---

(٢) نشير إلى ندوة الفكر العربى والثقافة اليونانية، المغرب، بمناسبة مرور ألف سنة على ميلاد ابن سينا وثلاثة وعشرون قرناً على وفات أرسطو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٩٨٥. وندوة الفكر اليونانى، الحوار مع الأخر، القاهرة مايو ١٩٩٥.

(٣) بدوى (محقق): المثل العقلية الأفلاطونية، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٤٧ التصدير ص ٦١.

(٤) بدوى: مقدمة تحقيق منطق أرسطو، الجزء الأول. وكالة المطبوعات، الكويت ص ٧.

فى تأسيس اللغة الفلسفية الدقيقة فى كتاباتنا الحالية، بحيث تسهم هذه التحقيقات فى تحديـد المصـطلح الفلسفى وتغنينا عن إعادة ترجمة بعض هذه الأعمال، والهدف الـثانى من هذا النشر أن نستعين بهذه الترجمات نفسها فى استعمالنا الحالى، لأنها تنهض بحاجاتنا العلمية اليوم ونهوضها لا يقتصر على النقل بل يمتد خصوصاً إلى دقـة المصـطلح"[٥]... لذا ترانا ـ حسبما يقول ـ فى حاجة ملحة إلى الاستعانة بالـترجمات القديمة للمؤلفات اليونانية نستغلها ونديم الإطلاع عليها حتى نحقق فى النهاية ذلك النثر الفلسفى الجديد الذى نرنو بأبصارنا المتطلعة بلهفة إلى ايجاده"[٦].

الغايـة إن هى معـرفة التراث الفلسفى الإنسانى؛ الذى يشكل جوهر وروح الحضـارة العـربية حسب تحليل بدوى. والإدارة أو الوسيلة لذلك هى الكشف عن المخطوطـات القديمة التى هى أساسى التفلسف فى الحضارة الإسلامية، التى تقدم لنا عوناً كبيراً لمعرفة هذا التراث بل إن فضلها هام للغاية فى الكشف عن نصوص فقد أصلها اليونانى. ومن هنا يمكن تفسير سعادة بدوى البالغة باكتشاف مخطوطات رسائل ابرقلس؛ والتى تظهر فى كتابه "الأفلاطونية المحدثة عند العرب"[٧].

---

(٥) شغل الباحثون بالبحث عن سبل إيجاد لغة فلسفية عربية منذ إنشاء الجامعة المصرية فى بداية القرن العشرين، حيث أعلن لوى ماسينيون المستشرق الفرنسى والأستاذ بالجامعة الأهلية بمصر عن مشروع لتأسيس قاموس فلسفى شامل وشغل بدوى نفسه بذلك فى "معجم مصطلحات الفلسفة" الذى أصدره المجلس الأعلى للفنون والآداب بالقاهرة ١٩٦٤ ثم فى موسوعته للفلسفة التى صدرت فى بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٤. والموسوعات الفلسفية المعاصرة فى العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥.

(٦) يقول بدوى: "لم أكد أراجع هذه الترجمة العربية القديمة على أصولها اليونانية وترجماتها الحديثة حتى رأيت فى نشرها الغناء عن إعادة ترجمتها، المصدر السابق ص ٩.

(٧) فقد اكتشف حجج ابرقلس فى قدم العالم، والذى يتضمن نصاً كما يقول: فقد أصله اليونانى ولم يبق إلا فى هذه الترجمة العربية فلهذا النص أهميته الكبرى فى إكمال النسخة اليونانية لكتاب يحيى النحوى ، وبالتالى لإكمال برقلس المفقود. وهذا الكتاب شاهد جديد على القيمة الخطيرة التى للتراث العربى الفلسفى فى إحياء التراث اليونانى الأصلى نفسه. ولهذا لابد لكل ناشر جديد لكتاب يحيى النحوى وكتاب برقلس أن يرجع إلى هذه الترجمة العربية لإكمال هذا النقص" د. بدوى: مقدمة الأفلاطونية المحدثة عند العرب، القاهرة ١٩٥٧ ص ٣١؛ وهو يؤكد على ذلك ثانية فى "دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى" دار الآداب بيروت ١٩٥٦، وفى كتاب ذو العنوان بالغ الدلالة "شروح على أرسطو مفقودة فى اليونانية" دار المشرق، بيروت، ١٩٧١.

إن بـدوى يؤكـد عـلى أهميـة الوثائق التاريخية التى تتمثل فى اكتشاف مخطوطـات جديـدة مقابل المناهج الفيلولوجية التى تسرف فى التحليلات الباطنية للنصـوص. ومن هنا فإن أهمية ما أكتشفه من مخطوطات برقلس تأتى من كونها تكشـف عن أخطر جوانب الفكر الإسلامى، جانب الأفلاطونية المحدثة التى تثبت للمشـائية الأرسـطية وزاحمـتها فى تكوين النظرة الفلسفية للمسلمين فى العصر الوسيط"[٨] "ولا تأتى أهمية الأفلاطونية المحدثة عند بدوى من كونها عاملاً أساسياً وجوهرياً من العوامل المكونة لروح الحضارة العربية بل أيضاً من اتفاقها التام مع نزعـته الإنسـانية التى يدعو إليها ويريد أن نستلهمها فى فكرنا المعاصر كما فعل القدمـاء مع الفكر الفلسفى اليونانى القديم. والخلاصة أن الكشف عن المخطوطات وتحقيقها من أجل إعادة بناء التراث الفلسفى العربى خطوة أساسية هامة نستطيع أن نـدرك مـن خلالها العلاقة بين الفلاسفة العرب وأسلافهم اليونان، وتظهر لنا كيف تعـامل هـؤلاء مـع هذا التراث الإنسانى مما يمهد لنا السبيل لتحديد طريقتنا فى التعامل مع الفكر المعاصر والتيارات الفلسفية فيه وإيجاد المنهج العلمى الدقيق لفهم توجهاته من أجل التعامل الصحيح معه، كما فعل القدماء.

وتحـتاج تـلك الأسس التى يبنى عليها بدوى مشروعه الفلسفى، وهو تحليل روح الحضارة العربية بالكشف عن مكوناتها الفلسفية؛ بالبحث فيما قدمه العرب من تـراث، كمـا تحـتاج طـريقة بدوى فى التعامل مع هذا التراث إلى تحليل جهده وتحقيقاتـه وبيان المنهج المستخدم فى هذا التحقيق، وهذا موضوع الفقرات القادمة وتشمل :

(أ) تحقيق الترجمات العربية القديمة للنصوص الفلسفية اليونانية سواء الأرسطية أو الأفلاونية أو الأفلاطونية المحدثة وغيرها.

(ب) شروح ونصوص الفلاسفة العرب فى المشرق والمغرب من الكندى حتى ابن رشد.

(ج) تحقيـق نصـوص الصـوفية المسلمين والمترجمين ومؤرخى الفكر الفلسفى العربى القديم.

---

(٨) المصدر السابق ص١٠، ص٥٥.

ثانياً : تحقيقات بدوى فى الفلسفة اليونانية :

١- تحقيق كتابات أرسطو :

اهـتم بـدوى كمـا اهتم العرب القدماء بالفلسفة اليونانية لدى أهم أعلامها ومدارسـها واتجاهاتها المختلفة، وقد حظى أرسطو بنصيب وافر من هذا الاهتمام؛ فهـو المعلم الأول والفيلسوف الموسوعى الذى نقلت تقريباً كل كتاباته إلى العربية أكثر من مرة فى بعض الأحيان وقد حفظت معظم هذه الأعمال. وقد قدم بدوى كما أشـرنا فى دراسته "مخطوطات أرسطو فى العربية" بياناً وافياً بهذه المخطوطات، ومـن قـام بترجمتها، وإذا كان لها أكثر من ترجمة، وإماكن هذه المخطوطات فى مكتـبات العالم المختلفة وأرقامها، والحالة التى عليها المخطوط، وإذا كان موجوداً ونسـبة احـتمال العثور عليه إذا كان مفقوداً، ثم ما قام هو بنشره منها، وما يعتزم تحقيقه ونشره. وهو يفعل نفس الشيء بالنسبة لبقية أعمال الفلاسفة اليونان. ويمكن القول على وجه الإجمال أن بدوى حقق تقريباً الترجمات العربية القديمة لكل أعمال أرسطو. المنطقية ثم الطبيعية وما بعد الطبيعة والأخلاق كالآتى :

(أ) الكتابات المنطقية :

نشـر بـدوى منطق أرسطو فى ترجمة العربية القديمة فى ثلاث مجلدات، وتحـتوى نشـرته على مقدمة يتناول فيها منطق أرسطو فى العالم العربى ويناقش صـحة نسـبة الـنقول إلى ناقليها ويصنف مخطوطاتها. ويحقق الأجزاء المنطقية التالية:

- كـتاب المقولات[٩] : وله ترجمتان عربيتان؛ الأولى لاسحق حنين وقد بقى عنها مخطوطان هما مخطوط باريس رقم ٢٣٤٦ ومخطوط بوهار بالهند رقم ٣٨٣،

---

(٩) ويخبرنا خليل الجرفى دراسته تحقيق النصوص الفلسفية فى إشارته لعمل بدوى هذا أن بدوى ذكر من نشراته السابقة نشرة زنكر للمقولات ونشرة كتاب العبارة ليولاك ثم الأب بويج ويعلق الجر أن "الاب بويج نشر كتاب المقولات وليس العبارة على هامش تلخيص المقولات لابن رشد. وأن بدوى لم يشر إلى نشرة الجر لمقولات أرسطو فى النسخ السريانية والعربية وينتقد عمله وتسرعه. خليل الجر: تحقيق النصوص الفلسفية فى كتاب : الفكر الفلسفى فى مائة عام، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٦٢ ص٤٠ حيث ينقل وصف فالترز "إن بدوى ينشر مانيشر بلا عناية ص٤٠.

والـترجمة الثانية لمحمد بن عبدالله المقفع ولها مخطوط بمكتبة القديس يوسف ببيروت رقم ٣٣٨ وجميع نشرات المقولات تمت عن مخطوط باريس بما فيها تحقيق بدوى.

- كـتاب العـبارة أو بارى أرمنياس وقد حققه بدوى عن مخطوط باريس السابق. وكذلك التحليلات الأولى، نقل تذارى. وكلها صدرت فى المجلد الأول، ١٩٤٨.

- كـتاب الـبرهان أو "التحليلات الثانية" ترجمة أبى بشر متى بن يونس والطوبيقا "الجـدل" تـرجمة أبى عـثمان الدمشـقى، واسحق بن حنين والسوفيطيقا وله تـرجمات مـتعددة يشـيد بها بدوى وبدلالتها على مبلغ عناية العرب بالتراث الأرسـطى وتقديـم أكـثر من ترجمة له. والخطابة التى ينتقد بدوى ترجمتها العـربية وأن كـان يؤكد على أهمية لكونها النقل الوحيد الباقى للكتاب، والذى يساعد فيما يقول فى إكمال النص اليونانى، الذى فقدت منه فقرة طويلة موجودة فى الترجمة العربية ويؤكد على أهميته الكتاب وأثره فى نشأة البلاغة العربية.

- كـتاب الشـعر "بويطيقا" الذى نشره بدوى ١٩٥٣، وله نشرة أخرى مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره على البلاغة العربية للدكتور شكرى عياد(١٠).

والحقيقـة أن هـناك جهـود متعددة بذلها الأساتذة العرب الرواد فى دراسة مـنطق أرسـطو فى العـالم العربى أهمها الدراسة الرائدة للدكتور إبراهيم بيومى مدكور L' Orhanon d' Aristote dans le monde arabe.

وكتاب نيقولا ريشر الذى نقله إلى العربية الدكتور محمد مهران رشوان عن تطور المنطق العربى"(١١).

---

(١٠) راجع الدراسة التى قدم بها شكرى عياد تحقيقه كتاب فن الشعر لأرسطو، التى يتناول فيها تأثير الكتاب على البلاغة العربية. دار الكاتب العربى، القاهرة، ١٩٦٧، المقدمة.

(١١) نيقولا ريشر : تطور المنطق العربى، ترجمة د. محمد مهران رشوان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥.

(ب) الكتابات الطبيعية :

- كــتاب الســماع الطــبيعى تــرجمة اسحق بن حنين وقد صدر بعنوان الطبيعة لأرسطو مجلدين، القاهرة، ١٩٦٤-١٩٦٥[١٢].

كتاب السماء والعالم ترجمة يحيى بن البطريق وإصلاح حنين ونقل بشر بن متى[١٣].

- الآثــار العــلوية تــرجمة يــحيى البطريق، مخطوط رقم ١١٧٩ فى ينى جامع باستنبول. وقد وصف بدوى المخطوط فى مقدمة تحقيق كتاب النفس لأرسطو.
- فى الــنفس ترجمة اسحاق بن حنين، مخطوط أيا صوفيا رقم ٢٤٥٠ نشرة بدوى ١٩٥٤ مع تلخيص ابن نرشد الحسى والمحسوس الذى لم نعثر على ترجمته.
- الحيــوان تــرجمة يــحيى الــبطريق ومخطوطاته: ليدن رقم ١٢٧٦، المتحف الــبريطانى ٤٣٧ شرقى ومجلس شورى على طهران رقم ١١٤٣ طباً طبائى الذى يشمل الكتب الثلاثة للحيوان: "طباع الحيوان"، "أجزاء الحيوان"، الكويت، ١٩٧٧.

كتب ما بعد الطبيعة :

ويذكــرها بــدوى تحت عنوان الآلهيات، وهو عنوان غير دقيق وقد حققها الأدب بويـــج بيروت، ١٩٣٨، ونشر بدوى بعض فصول "مقالة اللام" من السادس إلى العاشر عن المخطوط رقم ٦ حكمة وفلسفة بدار الكتب المصرية ونشرها بدوى فى "أرسطو عند العرب" وهو ينتقد نشرة أبو العلا عفيفى لمقالة اللام.

---

(١٢) وحققه بدوى عن مخطوط وحيد هو مخطوط ليدن رقم ٥٨٣ فارنر، وهو يتضمن النص وشروحاً للشراح العرب. د. بدوى (محقق) كتاب أرسطو : الطبيعة ترجمة اسحق بن حنين مع شروح : ابن السمح، ابن عدى، متى بن يونس، وأبى الفرج بن الطيب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤-١٩٦٥.

(١٣) مخطوط المتحف البريطانى، رقم ٧٤٥٣ شرقى، نشره بدوى مع الآثار العلوية القاهرة، ١٩٦١، د. بدوى (محقق): كتاب أرسطو : فى السماء والآثار العلوية ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١ ، ص: كب-كه.

(د) كتب الأخلاق والسياسة[١٤] :

وإذا كـــان كتاب السياسة لم يترجم إلى العربية حيث استعاض العرب خاصة ابن رشد عنه بتلخيص كتاب السياسة لأفلاطون[١٥]، فإن كتاب الأخلاق وصل إلينا فى مخطـــوط جامع القرويين فى فاس. وقد حققه بدوى مع دراسة مطولة عن أثره فى العربية[١٦].

ويقدم بدوى مسحاً شاملاً لأعمال أرسطو فى العربية فى دراسته "تقويم عام للـــتراث اليونـــانى المـــترجم للعربية" موضحاً أن جميع مؤلفات أرسطو الصحيحة والمـــنقولة إليـــنا فى أصـــلها اليونانى قد وصلت إلينا فى ترجمتها العربية القديمة باستثناء "الكون والفساد" والمقالتين الأخيرتين من كتاب "ما بعد الطبيعة" كما يتناول الأعمال المحولة المنسوبة إلى أرسطو، ومخطوطاتها، وما نشر منها، وما حققه هو مـــن هـــذه الترجمات[١٧]. وسنكتفى هنا بإيراد تحقيقاته مع ذكر المخطوطات التى أعتمد عليها:

---

(١٤) د. بدوى : أرسطو عند العرب، وكالة المطبوعات الكويت، ط٢، ص٩-١٠.

(١٥) د. بدوى : مقدمة تحقيق الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٤، المقدمة.

(١٦) د. بدوى : الدراسة التى قدم بها تحقيق كتاب أرسطو الأخلاق، الكويت، ١٩٧٩.

(١٧) أولها كتاب المسائل ، مخطوط ميونج رقم ٢٥٧ ونشره بدوى فى الأفلاطونية المحدثة عند العرب، القاهرة ١٩٥٥ ص١-٣٣، والخير المحض نشره بالكتاب السابق، كتاب النبات وأصله اليونانى مفقود نشره بدوى فى كتاب أرسطوطاليس فى النفس ١٩٥٤ عن مخطوط رقم ١١٧٩ ينى جامع باستنبول، ويرجح أنه تلخيص موسع لكتاب أرسطو من وضع نيقلاوس الدمشقى وقد سبق أن نشره اربرى فى مجلد كلية الآداب على ثلاثة أعداد عامى ١٩٣٣، ١٩٣٤. وكتاب أثولوجيا أرسطوطاليس، وله عدة مخطوطات يوردها بدوى فى تصديره "أفلوطين عند العرب" وكان كرواس أشار إليها فى مضبطة المجمع العلمى المصرى، ونشره ديتريشى فى برلين ١٨٨٢. وسر الإسرار؛ الذى نشره مع بيان لثمانية عشر مخطوط له فى كتاب "الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام". كتاب الاسطماخس، وليس له كما يخبرنا بدوى فى "الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى". مخطوط كامل، بل توجد منه اقتباسات فى مخطوط المكتبة الأهلية بباريس ٢٥٧٧، ودار الكتب المصرية رقم ٤٢٩١ تصوف بدوى: الإنسانية والوجودية، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٧ ص ١٨٠-١٨٥.

ثانياً : أفلاطون فى الإسلام :

لم يحظ أفلاطون بنفس الاهتمام فى العربية مثلما حظى أرسطو، وبالتالى لم يشغل من تحقيقات بدوى سوى مجلد واحد جمع فيه كل ما يتعلق "بأفلاطون فى الإسلام". والسبب الذى يفترضه بدوى فى عدم وصول ما ترجم من محاورات أفلاطون إلينا هو قلة الاهتمام بأفلاطون وفلسفته نتيجة لاكتساح أرسطو إياه، نتيجة للصور الأدبية لمحاوراته التى جعلتها أقرب إلى الأدب منها إلى الفلسفة[١٨].

لقد قدم بدوى فى كتابه طائفة من نصوص أفلاطون الصحيحة والمنحولة التى ترجمت إلى العربية فى القرنين الثالث والرابع للهجرة وقد زودها كلما أمكن ذلك بإشارات إلى الصفحات المناظرة لها فى محاورات أفلاطون فى نصها اليونانى. وذلك فى قسمين الأول يحتوى على ما وجد فى المخطوطات العربية من نصوص صحيحة لأفلاطون مأخوذة إما بحروفها، أو تلخيصاً أو على سبيل المعنى العام من : طيماوس، السياسة، النواميس، فيدون، أقريطون. وفى القسم الثانى قدم نصوصاً مختارة من بعض ما نسب إلى أفلاطون فى العربية ومعظمه يدخل فى باب "الآداب" إلى الحكم والجمل القصار. وقد سبق له أن نشر قسماً كبيراً منها فى تحقيقه "الحكمة الخالدة" لمسكويه و"مختار الحكم ومحاسن الكلم" للمبشربن فاتك. وإذا كان بعض هذه الأعمال قد سبق نشره فإن بدوى قدم فى نشرته عدداً من التصحيحات اعتماداً على نفس المخطوطات، فضلاً عن التعليقات العديدة التى زود بها النص.

وأول النصوص التى ينشرها "فلسفة أفلاطون وأجزاؤها ومراتب أجزائها "للفارابى" عن مخطوط واحد هو أيا صوفيا رقم ٤٨٣٣، والذى يقارنه بنشرة روزنتال وفالتزر، التى "خالفناها فى مواضع كثيرة "ويرد على المحققان فى مواضع عديدة صفحات ٥، ٦، ٨، ١٠، ١٤، ١٥ كما يعرض لآراء كرواس فى النص موافقاً على الكثير منها رافضاً البعض القليل. كما يشير للترجمة العبرية للعمل ويصحح كثير من القراءات انطلاقاً مما جاء بخصوصها فى الفهرست لابن

(١٨) د. بدوى : أفلاطون فى الإسلام، دار الأندلس ط٣ بيروت ١٩٨٢، وتقويم عام للتراث اليونانى المترجم إلى العربية ص٢١-٢٢.

الــنديم[١٩]. والعمــل الــثاني هــو تلخيص الفارابى "نواميس أفلاطون" يحققه عن المخطــوط رقم ١٤٢٩، ليدن، كما يعتمد على نشره جبرابيلى للكتاب حيث يصحح الــنص بــناء عــلى ما جاء فيها وعلى قراءات كراوس[٢٠]. ويحقق جوامع كتاب طيمــاوس فى العالم الطبيعى لجالنيوس عن مخطوط أيا صوفيا رقم ٢٤١٠ وأسعد باستنبول رقم ١٩٣٣ ونشرة كراوس لندن ١٩٥١ حيث يعتمد على الأخير ويناقش أقواله فى صفحات عديدة. وينقل لنا عدة نصوص من محاورات أفلاطون معظمها عن نشرات سابقة[٢١].

ويقــدم لــنا فى القســم الثانى "المنحول" فقرات فى "تقويم السياسة الملوكية والأخلاق الاختيارية عن مخطوطين وينشر وصية أفلاطون الحكيم" عن مخطوطة رقــم ٥٢٨٠ مجــلس شــوراى ملى وملتقطات من أفلاطون الالهى مخطوط رقم ٥٢٨٣ كــتابخانة مجلس شوراى على بطهران، بالإضافة إلى عدد من النصوص

(١٩) يعرض لاقتراحات كراوس ويوافق عليها ص٩، ١٣، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٧، ويرفض بعضها ص١٢ ويشير للترجمة العبرية ص٩، ١٤، ويرفض بعض ما جاء فيها ص١٨، ٢٤، ٢٧، المرجع السابق.

(٢٠) يشير بدوى لنشرة جبرييلى فى الصفحات ٣٤-٤١ ويصحح ما جاء فى تلخيص النواميس صفحات ٤١، ٤٥، ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٥٩، ٦١، ٦٥، ٦٩، ٧٢، ٧٣ ويوافق على آراء كراوس ص٤٣، ٥٠، ٦١، ٧٥، ويخطئه فى بعض القراءات ص ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٣، ٤٨، ٦٦، ٧١ ، ٧٣، ٧٤، ٧٦.

(٢١) ينقل بدوى صفحات عديدة من نشرات سابقة لمحاورات أفلاطون وردت فى كتب عربية حققها غيره مثل: تحقيق سخاو لكتاب البيرونى : تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مردولة، ومحاورة فيدون (بدوى ص١٢٣-١٢٩) وطيماوس عن نفس النشرة (ص١٣٠-١٣٢) وعن نشرة لبيرت لكتاب القفطى قطع من محاورات فيدون وقريطون أوردها بدوى بالمقارنة مع ما جاء فى كتاب ابن أبى أصيبعة عيون الأبناء نشرة ميللر (بدوى ص١٣-١٤٥) ومن كتاب العامرى : السعادة والاسعاد نشرة مينوفى من كتاب (السياسة (بدوى ص ١٥١-١٦١) والنواميس (بدوى ص١٦٢-١٦٨). أولهما كتابجابه استان قدس فى مشهد برقم ٣٥٣٥ والثانى فرصك اصفها برقم ٢٨١٣ ويقارنهما ببعض ما جاء فى مختار الحكم ومحاسن الكلم. والنص الثانى من هذه المجموعة كتاب "النواميس" المنحول الذى نشره بدوى عن عدة مخطوطات. ونشر نص من رسالة أفلاطون إلى فرفريوس فى حقيقة نفى الهم وإثبات الرؤيا" عن مخطوط أيا صوفيا رقم ٤٨٠١ ويقول أنه استخدم مصورة المكتبة المركزية بجامعة طهران واصلها الفيلم رقم ١٣٠ ورقمها ١٩١. وكلمة أصلها غامضة فهو لم يوضح مصورة عن ماذا؟ أو أية تفاصيل عنها.

الأخـــرى المنحولة لأفلاطون يذكر لنا أصولها المخطوطة التى ينقل عنها(٢٢). مما يعطى صورة واضحة عن أفلاطون فى الإسلام" الذى سبق أن درس بدوى مؤلفاته مـــن قـــبل فى كـــتابه بالفرنسية "انتقال الفلسفة اليونانية إلى العالم العربى" باريس ١٩٦٨ (٢٣).

٣- الأفلاطونية المحدثة :

وعـــلى العكس من كتابات بدوى وتحقيقاته لأعمال أفلاطون فى العربية فإن باهـــتمامه بالأفلاطونيـــة المحدثة يستحق إشارة خاصة، حيث عرض لما ترجم من كـــتابات روادهـــا إلى العـــربية. وأوضح لنا كيف أنها اقتسمت مع كتابات أرسطو الســـيادة عـــلى العقلية العربية، فقد تغلغلت كتابات "أفلوطين" أو الشيخ اليونانى فى ضـــمائر المفكرين المسلمين بطريقة لا شعورية كانت أعمق نفوذاً من ذلك المذهب العقـــلى الجاف الظاهرى الذى كان لأرسطو(٢٤). لذلك علينا أن نتبين الجهد الكبير الذى بذله بدوى فى تحقيق أعمال أفلوطين وبرقلس وغيرهما من رواد الأفلاطونية المحدثة التى ترجمت للعربية مشيرين بوجه خاص إلى هدف بدوى من التأكيد على أهمية هذه الفلسفة بالنسبة للعرب فى سياق مشروعه الفلسفى العام الذى يستلهم فيه، ويمـــاثل بين موقف العرب القدماء من الفكر اليونانى وخاصة الأفلاطونية المحدثة وموقفنا نحن من الفكر الفلسفى المعاصر وخاصة الوجودية.

ويقـــدم لـــنا بـــدوى فى "أفلوطين عند العرب" الذى يعتمد فيه اعتماداً كبيراً باعترافه على عمل لكراوس بنفس العنوان النصوص التالية :

(٢٢) يقدم بدوى عدة نصوص منحولة لأفلاطون هى : من كتاب نوادر ألفاظ الفلاسفة والحكماء وآداب المعلمين القدماء لحنين، أفلاطون الحكيم من منتخب صوان الحكمة للسجستانى، ورسالة فى آراء الحكماء اليونانيين لمؤلف مجهول، وثمرة لطيفة من مقاييس أفلاطون فى أن النفس لا تفسد المسائل الثلاث التى تشتمل على العلوم كلها، رسالة أفلاطون الألهى فى الرد على من قال إن الإنسان تلاشى ومات، منحول فى الكيمياء.

(٢٣) Badawi : La Transminion de la Philosophie gracque ou mond arabe, Paris, vrin, 1968.

(٢٤) د. بدوى : أفلوطين عند العرب، ص٢.

- أثولوجيا أرسطوطاليس الذى ينشره عن المخطوط ١١٧ حكمة مكتبة تيمور بدار الكتب المصرية. مع مقتطفات لأفلوطين فى العربية تشمل بالإضافة إلى رسالة فى العلم الإلهى المنسوبة للفارابى عدة نصوص وردت بالمخطوط رقم ٥٣٩ مارش شرقى بمكتبة بودلى باكسفورد.
- ويتناول آثار ابرقلس فى "الأفلاطونية المحدثة عند العرب" وهى كتاب "الخير المحض" و"حجج ابرقلس فى قدم العالم" الذى تتضح أهميته فى كونه يتضمن نصاً فقد أصله اليونانى ولم يبق إلا فى هذه الترجمة العربية، وكذلك فى تأثيره على الفلسفة الإسلامية حيث النقول المتعددة عنه، خاصة لدى : الغزالى والبغدادى، والشهرستانى، وأبو الحسن بن سوار. والنص الثالث هو "مسائل فرقليس فى الأشياء الطبيعية" بالإضافة إلى عدة ملاحق يضيفها بدوى إلى أعمال برقليس[٢٥]. ويعرض للمخطوطات التى اعتمد عليها ويصفها فى الفقرة السادسة من مقدمة تحقيقه[٢٦]. وقد زود بدوى هذه النشرة بعدة فهارس. منها ما هو خاص بالمواضع المتناظرة بين كتاب "الخير المحض" والثاؤلوجيا برقلس وأخر بالمصطلحات الواردة فى الخير المحض ونظائرها فى الترجمة اللاتينية له.

٤- تحقيق ونشر أعمال جالنيوس :

يعرف جالنيوس فى أوربا بأنه جالنيوس العربى Galenus Arabus ذلك أنه كان معروفاً ومتداولاً فى دنيا العرب قبل أن يعرفه الأوربيون بعدة قرون. لقد ترجموه عدة ترجمات وشرحوه وفسروه ونقدوه وحفظوا نصوصه من الاندثار.

---

(٢٥) هى كتاب هرمس "معازلة النفس" و"الروابيع" المنسوب إلى أفلاطون ورسالة الحسن بن سوار حول دليل يحيى النحوى على حدوث العالم" وتلخيص عبداللطيف البغدادى كتاب إيضاح الخير، وبعضاً من كتاب ارسطو خوسيس الصغرى لابرقلس. بدوى: الأفلاطونية المحدثة عند العرب، ص٢، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧.

(٢٦) وهى مخطوط الخير المحض رقم ٢٠٩ مكتبة يوليوس ليدن، ومخطوط الروبيع رقم ١٤٩ عربى منشن بألمانيا، وخمس مخطوطات من "معازلة النفس" ص:٤٦ عربى المكتبة الأهلية بباريس و٤٨١١ الأهلية بباريس، ورقم ٢٩٧ W.K 29 ليبزج مكتبة البادية، ٤٨٩ فى ابسالاً و١٨٢ الفاتيكان. وهو يعد الكتاب من العصر الهلينى المتأخر بين القرنين ٣-٥ الهجريين أما كتاب مسائل فرقليقس فقد اعتمد فيه على مخطوط ٤٨٧١ الظاهرية.

وحـتى الآن هـناك ترجمات عربية هى نقل لنصوص يونانية من تأليف جالنيوس ضاعت الأصول اليونانية لها وبقيت الترجمات العربية. وهناك نصوص لجالنيوس مهلهـلة فى أصلها اليونانى فجاءت الترجمة العربية لتصلح ما أفسده الدهر. ناهيك عـن الشروح والنقول التى لا حصر لها(٢٧). وقد حقق بدوى عدة رسائل لجالنيوس وعـنه نشرها فى "دراسات ونصوص فى الفلسفة وتاريخ العلوم عند العرب". وهى "رسـالة حـنين بن اسحق إلى على بن يحيى فى ذكر ما ترجم من كتب جالنيوس بعـلمه وبعض ما لم يترجم". ينقلها لنا دون تحقيق ودون ذكر لمخطوطاتها أو أية تعليقات عليها رغم أن هذه الرسالة قد نشرت من قبل(٢٨).

ونشـر كذلـك عـدة رسائل عن المخطوط ٢٩٠ أخلاق تيمور، دار الكتب المصرية وهى:

- من مقالة جالنيوس فى أن قوى النفس توابع لمزاج البدن.
- مختصر مقال جالنيوس فى الحث على تعلم العلوم والصناعات.
- مختصـر مـن كـتاب "الأخلاق"(٢٩). والذى سبق أن نشره كراوس مع مقدمة مستفيضـة فى مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية. يضاف إلى ذلك ما نشره بـدوى لجوامع جالنيوس فى العلم الطبيعى لمحاورة طيماوس فى "أفلاطون فى الإسلام".

ثالثاً : تحقيقات بدوى فى الفلسفة الإسلامية :

١- الكندى (حوالى ١٨٥هـ-٧٩٦م/ت٢٦٠هـ-٨٧٣م)

حقق بدوى رسالتان للكندى فى كتابه "رسائل فلسفية(٣٠) الأول رسالة الكندى فى العقـل الـتى حققت من قبل أكثر من مرة. فقد حققها وترجمها إلى الإنجليزية

(٢٧) راجع مقدمة د. أحمد عثمان لكتابنا : جالنيوس فى الفكر القديم والمعاصر، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٩.

(٢٨) بدوى : دراسات ونصوص فى الفلسفة وتاريخ العلوم عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١، ص١٤٩-١٧٩.

(٢٩) وينبغى الإشارة هنا إلى أن اهتمام بدوى بتحقيق أعمال جالنيوس الأخلاقية يبرز جانباً هاماً لديه هو الجانب الأخلاقى، الذى شغل به كثيراً وأصدر فيه عدة دراسات.

(٣٠) بدوى، رسائل فلسفية (تحقيق) منشورات الجامعة الليبية، بنغازى، ١٩٧٣، ص٨.

الأب ريتشارد مكارثى. وحققها محمد عبدالهادى أبو ريدة[٣١]. وترجمها بدوى إلى الفرنسية فى "تاريخ الفلسفة فى الإسلام" رغم ترجمة جوليفية لها. وجاء تحقيقه لها مثل سابقيه عن مخطوط أيا صوفيا الوحيد رقم ٤٨٣٢ كما حقق "رسالة الحيلة لدفع الأحـزان" الـتى سبق نشرها أيضاً كما يخبرنا على يد ثلاثة من المستشرقين هم : هـلموت ريتر، وفالتزر، وليفى ولا فيدا عن نفس المخطوط. ويناقش زعم فالتزر القـائل أن رسـالة الكـندى ليسـت فقـط عن أصل يونانى بل هى رسالة مفقودة لثامسـطيوس ويـنكر ذلـك[٣٢] واللافت للنظر دعوى بدوى أن تحقيقات أبو ريدة لرسـائل الكـندى لابـد من إعادة تحقيقها كلها من جديد "فقد تبين لنا بعد الفحص الدقيق أن نشرة هذه الرسائل كلها حافلة بالأخطاء". وهو رأى يتعارض مع موقف بدوى نفسه الذى سبق أن وصف هذه التحقيقات نفسها بأنها نشرة نقدية ممتازة[٣٣].

٢- الفارابى (حوالى ٢٥٩هـ-٨٧٠م/ ت٣٣٩هـ-٩٥٠م)

بالإضـافة لنشـر بـدوى رسالة فى قوانين صناعة الشعر فى تحقيقه كتاب أرسـطو فن الشعر[٣٤]. فقد نشر له عدة رسائل هى : رسالة فى الملة الفاضلة التى يخـبرنا بدوى أنها لم تنشر من قبل فى أية نشرة ثم نجده يعود ليبين لنا أن محسن مهـدى (الباحث المدقق فى الفارابى) حققها من قبل[٣٥]. وينشر "رسالة الفارابى فى

---

(٣١) راجع دراستنا تحقيقات أبو ريدة الفلسفية، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، المجلد ٣، العدد ١، ٢ يوليو ١٩٩١ ص٢١٣-٢٤٦.

(٣٢) د. بدوى : رسائل فلسفية ص٩-١٠.

(٣٣) د. بدوى : مقدمة تحقيق كتاب أرسطوطاليس فى النفس، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٤ ص٦، ص٢.

(٣٤) الفارابى : رسالة فى قوانين صناعة الشعر فى بدوى تحقيق كتاب أرسطو فن الشعر القاهرة، ١٩٥٣. يعرض بدوى فى الفقرة الرابعة من تصديره لفن الشعر والفلاسفة العرب والترجمة العربية التى قام بها ابو بشر متى بن يونس والتى حفظت فى مخطوط باريس رقم ٢٣٤٦ عزبى. ورسالة الفارابى مخطوط رقم ٣٨٣٢. بمكتبة الديوان الهندى، نشرها اربرى مع ترجمة انجليزية واعتمد بدوى عليها "لقد راجعنا هذه النشر حين نشرنا هذه الرسالة وأفادنا من تصحيحات اربرى التى وافقنا عليها وخالفناه فى بعضها الآخر" مقدمة بدوى : فن الشعر ص٥٢.

(٣٥) كما يتضح من قول بدوى الذى يؤكد أن "النص الذى ننشره هنا لم ينشر من قبل فى آية نشرة لرسالة آراء هل المدينة الفاضلة، كما أنه يختلف كثيراً وأفضل مراراً عن النص. الذى نشره محسن مهدى عن نسخة فى مجموعة قلج على باشا فى المكتبة السليمانية فى استنبول برقم ٦٧٤ ونحن ننشرها هنا عن مخطوط طشقند رقم ٢٣٨٥ ، بدوى: رسائل فلسفية ص١١

الـــرد عـــلى جالـــنيوس فيما ناقض فيه أرسطوطاليس لإعضاء الإنسان" عن نفس المخطـــوط، وعـــن مخطوط دانشكاه الهيات بجامعة طهران رقم ٢٤٢. ومخطوط مجـــلس مـــلى طهران، رقم ١٣٦٧، كما يقدم تحقيقاً لرسالة الفارابى فى الرد على يـــحيى الـــنحوى فى الـــرد على أرسطوطاليس عن نفس مخطوط طشقند السابق، ودانشـــكاه رقم ٢٤٢، ب ومخطوط ٩٣، بنفس المكتبة. والحقيقة أن محسن مهدى كان قد نشر أيضاً هذه الرسالة(٣٦).

وبالإضـــافة إلى هـــذه الأعمـــال التى قدمها التى قدمها للفارابى فى "رسائل فلســـفية" فـــإن تحقيقاتـــه لـــبعض رسائل الفارابى فى "أفلوطين عند العرب" وفى "أفلاطون فى الإسلام" تضاف إلى هذه الجهود التى قام بها(٣٧).

ومـــن تعـــليقات بـــدوى فى مقدمات تحقيقه على الكندى الذى اهتم أبو ريده بأعمالـــه والفارابى الذى شغل به محسن مهدى تتضح حقيقة تمثل سمة أساسية فى كـــثير من أعمال بدوى وهى إعادة تحقيق أعمال سبق أن حققت أو الاعتماد على مخطوطـــات وحيدة وتلك مسألة سنناقشها فى تعقيبنا على منهج بدوى فى التحقيق. ويلاحـــظ أن هذه السمة تتلازم مع هجومه الشديد على تحقيقات غير من المحققين المشهود لهم فى مجال تخصصهم والذين سبق لهم تحقيق هذه الأعمال.

٣- يحيى بن حوالى (حوالى ٢٩٣هـ-٨٩٣م/ ت٣٧٤هـ-٩٧٤م) :

ذكـــرنا فى تحقيقات بدوى لأعمال أرسطو كتاب السماع الطبيعى الذى نشره بعنوان "الطبيعة" لأرسطو ترجمة إسحق بن حنين مع شروح عدة منها شرح يحيى بـــن عـــدى الـــذى يخصـــص له بدوى جزء كبير من الفقرة الرابعة من تصديره للـــتحقيق. وهـــو يقـــدم لنا فى "رسائل فلسفية" تحقيقاً لتفسير يحيى بن عدى "لالفا الصـــغرى" من "ما بعد الطبيعة" وهو تفسير جيد لهذه المقالة. وقد اعتمد بدوى فى تحقيقـــه عـــلى مخطوطيـــن هما: مخطوط مكتبة بوهار فى كلكتا ولا يذكر لنا أية

---

(٣٦) كما يتضح مما ذكره بدوى "لم نسمح لأنفسنا بإكمال هذه المناقص (فى المخطوط) كما فعل محسن مهدى فى نشرته لهذه الرسالة عن مخطوطتى داشكادة الهيات وحدهما. فنحن لا نقر مثل هذا المنهج فى نشر النصوص". بدوى : رسائل فلسفية ص١٨.

(٣٧) بدوى : أفلاطون فى الإسلام ص٣-٨٣ و١٧٣-١٩٦ وأفلوطين عند العرب ص١٦٧-١٨٣.

بيانـــات عـــنه ومخطوط طشقند رقم ٢٣٨٥. ويشير إلى اعتماده فى تصحيح نص أرســـطو المـــترجم والـــوارد فى ثنايا الرسالة على النص الوارد فى تفسير ما بعد الطبيعة لابن رشد تحقيق موريس بويج.

٤- ابن سينا (٣٧٠هـ-٩٨٠م/٤٢٨هـ-١٠٣٧م) :

قـــدم بدوى تحقيقات عديدة لابن متخذاً منه موقفاً نقدياً عنيفاً على العكس من إشـــادته بـــابن رشـــد يتضح ذلك فى كثير من ملاحظاته خاصة فى مجال الشعر. والغـــريب كما سيتضح أن ابن سينا صاحب الفلسفة المشرقية أقرب إلى بدوى فى توجهاتـــه الفلســـفية ذات الصـــبغة الصوفية الباطنية. وقد نشر بدوى بالإضافة إلى تلخيص ابن سينا لكتاب الشعر، الجزء الخاص بالشعر من منطق الشفاء(٣٨).

ويقـــدم بـــدوى ضمن كتابه "أرسطو عند العرب" تحقيقات لعدة رسائل لابن سينا هى:

- "شـــرح كتاب حرف اللام للشيخ الرئيس" وله عدة مخطوطات يذكرها لنا، وهو يـــبدأ من الفصل السادس من مقالة اللام، وهى جزء كما جاء فى المخطوط من كتاب الأنصاف(٣٩).

---

(٣٨) اعتمد فى تحقيق على مخطوطات مكتبة بودلى يوكوك رقم ١١٩ وبودلى هنت رقم ١١١ والديوان الهندى رقم ١٤٢٠ والمتحف البريطانى رقم ١١٣ شرقى ومخطوط وقف السلطان أحمد خان بن غازى ثم مخطوط بخيت رقم ٣٣ (حكمة ٢٤ المكتبة الأزهرية) ودار الكتب المصرية رقم ٨٩٤ وأخيراً المكتبة الأهلية بباريس رقم ٦٨٢٩ الذى يشمل كل كتاب الشفاء. بدوى: تحقيق كتاب ابن سينا الشعر من منطق الشفاء الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦، ص١٩-٢٠.

(٣٩) ويناقش بدوى مسألة هذا الكتاب، وهو من عشرون مجلدة، شرح فيه ابن سينا جميع كتب أرسطو وانصف فيه بين المشرقيين والمغربيين. ويخلص بدوى إلى أن هذا الكتاب لم يحرر نهائياً وما حرر منه قد فقد. ولم يجد ابن سينا من الوقت ما يدفعه إلى إعادة كتابة هذا المفقود، ولا التحرير النهائى للكتاب ثم يناقش مسألة ما إذا كانت النصوص الثلاثة التى يقدمها هى من "الأنصاف" ويجيب بنعم لأسباب عديدة يذكرها لنا. وأخيراً يناقش اسم الكتاب ليؤكد لنا أن اسمه الحقيقى كتاب "الأنصاف والانتصاف" د. بدوى : أرسطو عند العرب، ص٣٠.

- كما ينشر له في نفس المجلد تفسير كتاب "أثولوجيا" وهو النص الثاني من كتاب الإنصـــاف عن مخطوطين[٤٠] ويشير بدوي في تحقيقه إلى أمران هامان الأول هـــو أن ابـــن سينا لم يشر إلى المشرقيين في هذا الشرح، ولعل هذا لأنه فيما يرى ليس للمشرقيين في هذا الكتاب آراء خاصة والثاني أنه لا يوجد شيء في هـــذا الشـــرح يمكن أن يوجد ما افترضه كراوس من ابن سينا طعن في صحة نسبة "أثولوجيا" إلى أرسطوطاليس[٤١].
- والـــنص الـــثالث الـــذي ينشره عن نفس المخطوط رقم ٦ هو "التعليقات" على هوامش كتاب "النفس لأرسطوطاليس"[٤٢].

والـــنص الأكـــبر من هذه المجموعة هو كتاب "المباحثات" ينشره عن نفس المخطـــوط وإن كـــان له عـــدة مخطوطات أخرى يشير إليها ويستبعدها. وهو في الأصـــل أسئلة وضعها بهمينار بن المزربان (ت ٤٣٠هـ-١٠٣٨م) وأجاب عنها سينا وتتناول كما لاحظ البيهقي "غوامض المشكلات"[٤٣].

ويقدم لنا أخيراً "رسائل ابن سينا" عن نفس المخطوط: الأولى يرجح أنها من وضـــع أحد تلاميذه. والثانية مهمة لأن فيها أخبار قيمة عن تاريخ كتاب "الأنصاف" فضـــلاً عمـــا فيهـــا مـــن فوائد عما تتصل بتاريخ ابن سينا الروحي. ويتلو هاتين الرسالتين نسخة العهد الذي عهده ابن سينا لنفسه.

---

(٤٠) مخطوط ٦ حكمة وفلسفة دار الكتب المصرية ، ورقم ١٠٢ المكتبة التيمورية مخطوطات شرقية ٥٣٦ أكسفورد لكن بدوي لم يراجعه، وقد قارن بين شرح ابن سينا وبين أصل النص كما جاء في نشرة ديتشريشي لاثولوجيا ويعلق على ذلك بأنه وجد بعض العناء في استخراج فقرات النص التي يشير إليها شرح ابن سينا وذلك لأنه (ابن سينا) نادر ما يشير إلى النص بحروفه.

(٤١) المصدر السابق، ص٣٠.

(٤٢) وأن كان يشير إلى أن المخطوط رقم ٣٤٤٧ أحمد باستنبول به شرح كتاب النفس لابن سينا بالفارسية ولكنه لم يطلع عليه. وهذا النص يعني عناية خاصة بإيراد آراء المشرقيين ولذا كما يقول بدوي فإن لب كتاب "الإنصاف" ووظيفته يمكن أن يستخرجا من هذا النص على وجه التخصيص المصدر نفسه ص٣٤.

(٤٣) المصدر نفسه ص٣٨.

وتشكل هذه النصوص أكثر من نصف الكتاب أو ثلثيه (حوالى مائتين صفحة من ٣٣٣ صفحة) والجزء الأخير عبارة عن مقالات للإسكندر الأفرديوس فى مسائل من فلسفة أرسطو، عشر مقالات نشرها عن المخطوط ٤٨٧١ عام بالمكتبة الظاهرية بدمشق(٤٤).

- تحقيق كتاب البرهان لابن سينا، القاهرة، ١٩٥٤. ويتناول بدوى فى أولى فقرات تصديره معنى البرهان عند ابن سينا وعند العرب، حيث يتناول ترجمته الكتاب وشراحه اليونان ثم المسلمين ويخصص الفقرة الثالثة لابن سينا وكتاب البرهان "فالشيخ الرئيسى استعرض مواد البرهان، يحاذى قول المعلم الأول حيناً كأنه يفسره ويلخصه ويستطرد بمناسبته إلى ما يدفع إليه ما ورد فيه من آراء فى أغلب الأحيان. فكان عن ذلك العرض الواضح المستقصى الدقيق الذى جاء نسيج وحده"(٤٥). ويتساءل مستنكراً هل فى كلام ابن سينا جديد على ما ورد عند أرسطو وشراحه اليونانيين. ويرى أننا لا نعثر على جديد خليق بهذا الاسم(٤٦). وأخيراً يقدم لنا باختصار أثر كتاب البرهان لابن سينا فيمن جاء بعده من الفلاسفة المسلمين ثم المسيحيين ففى العصور الوسطى.

- عيون الحكمة، حققه وقدم له بدوى ١٩٥٤ وهو كتاب موجز بسيط يمثل الحكمة النظرية بأقسامها الثلاثة، كتاب تعليمى كتبت عليه الكثير من الشروح جميعاً. ولم ينشر من قبل سوى قسم الطبيعيات ضمن تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات(٤٧). ورغم أن المصادر لا تدلنا على تأريخ تأليف هذا الكتاب إلا أن بدوى يرجح أن ابن سينا ألفه فى سن النضوج ويفترض أنه فى العشر سنوات الأخيرة من عمره عام ٤١٨-٤٢٨هـ(٤٨).

---

(٤٤) د. بدوى (محقق) أرسطو عند العرب، تشمل رسائل ابن سينا المنشورة فيه ثلثى الكتاب من البداية حتى صفحة ٢٤٩.

(٤٥) د. بدوى : مقدمة تحقيق كتابه ابن سينا : البرهان، القاهرة حتى ٣٨.

(٤٦) المرجع السابق، ص٤٤.

(٤٧) د. بدوى : مقدمة تحقيق عيون الحكمة، وكالة المطبوعات ، الكويت، ١٩٨٠ ص يه.

(٤٨) المرجع السابق، ص يط.

وحقــق بــدوى كتاب ابن سينا التعليقات، القاهرة، ١٩٧٣ أملاه وعلق عنه تلميذه بهمينار بن المرزبان. ويرجح بدوى تاريخ تأليفه بين عامى ٤٠٤-٤١٢هـــ. ويــورد لــنا تــرجمة بهميــنار ومؤلفاته ومخطوطاتها ونشراتها. وواضع فهرس التعليقات الوارد فى أوائل بعض النسخ فهو أبو العباس الفضل بن محمد ا للوكرى تــلميذ بهمينار صاحب كتاب "بيان الحق وضمان الصدق" مخطوط المكتبة الأهلية بباريس رقم ٥٩٠٠ عربى"[٤٩].

وتــثير مقدمـــة تحقيق بدوى لكتاب ابن سينا الشعر من منطق الشفاء قضية التحامل الشديد الذى يكنه لصاحب كتاب الأنصاف وهذا ما سنناقشه الآن.

يــتخذ بــدوى فى مستهل تصديره للكتاب موقفاً عدائياً من صاحبه ويهاجمه بدعوى تلك الوعود التى لم يف شىء منها، لأن تقصيره قد أدى إلى عواقب وخيمة فى تطــور الأدب العربى. يعتمد بدوى على قول جاء فى ختام تلخيص الشعر على لســان ابــن سينا: "هذا هو تلخيص القدر الذى وجد فى هذه البلاد من كتاب الشعر للمعــلم الأول؛ وقــد بقى منه شطر صالح. ولا يبعد أن نجتهد نحن فنبدع فى علم الشعر المطلق، وفى علم الشعر بحسب عادة أهل هذا الزمان، كلاماً شديد التحصيل والتفصــيل أمــا هــنا فلنقتصر على هذا المبلغ[٥٠]. ويستنتج بدوى من هذا النص معــرفة ابن سينا بأن بقية من الكتاب لم تعرف فى العالم العربى الإسلامى فى ذلك الحيــن، وان ابــن سَينا كما يتضح من مؤلفاته لم يبدع ولم يجتهد كما وعد فى علم الشعر المطلق[٥١].

---

(٤٩) د. بدوى : محقق كتاب ابن سينا: التعليقات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص٨. وتتضح سعة اطلاع بدوى ومعرفته الدقيقة بالمخطوطات فى تناوله لنسخ التعليقات المخطوطة التى يذكرها ويصفها لنا.

(٥٠) د. بدوى : مقدمة تحقيق كتاب ابن سينا : الشعر من منطق الشفاء، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦، ص٣.

(٥١) المصدر السابق ص٤ ويخرج بدوى من ذلك بأن وعود ابن سينا ظلت بلا تحقيق، لأنه لم تتح الفرصة أو القدرة على تحقيقها، أو أنها من الأمانى الكواذب التى كان يعلم علم اليقين أنه لن يحققها كما هو شأنه فى المنطق والحكمة المشرقية المزعومة ومن هنا اتهامه لابن سينا بالدعاوى العويصة الزائفة" ص٤.

يرى بدوى أن تطور الآداب الأوربية يرجع إلى التأويلات الجديدة لكتاب فن الشعر بينما جمود الأدب العربى مصدره وعود ابن سينا التى لم تتحقق . وخطورة مسـئولية (ابن سينا) هنا بعيدة المدى، فكلنا يعلم المكانة الكبرى التى ظفر بها "فن الشـعر" فى العصر الحديث "أن تطور الأدب الأوربى الحديث" كان يسير جنباً إلى جانب وفقاً للتأويلات الجديدة التى تواردت على هذا الكتاب ومدى اتباعه أو التمرد عليه"[٥٢]. ويتساءل بدوى أما وهذه خطورة الكتاب فماذا عسى أن يكون تأثيره فى تطـور الأدب العـربى لو أنه ظفر من ابن سينا ثم ابن رشد بما هو خليق به من عـناية. يـتغافل بـدوى عـن الاختلاف بين طبيعة المجتمعات الأوربية والعربية واخـتلاف تطـور كل منها السياسى والاجتماعى وما يترتب على ذلك من تطور الحياة الثقافية والأدبية.

ويرد بدوى وكأنه يتنبأ بنقدنا له "ولا معنى إذن للاحتجاج باختلاف الظروف فى العـالم العـربى عنها فى العالم الأوربى إنما العلة كلها فى العقول التى تناولت الكتاب فى العالم العربى فلم تستطع أن تقدم للناس صورة صحيحة عنه. ويزيد من جسـامة جـناية ابن سينا فى هذا الباب إنه كان أيضاً شاعراً. وكان عليه أن يقدر الشعر إذن ومكانته، فجنى بهذا على الأدب العربى كله[٥٣].

إن هذا الاتهام لا يخفف من حدته بيان بدوى لجهد ابن سينا واشادته به، مثل إيراده بعض الشواهد من الشعر العربى، واستشهاده فى باب المحاكاة بالصور التى رسـمها أصـحاب مـانى وذكـره كليلة ودمنة مرة واحدة ومقارنته بين خرافاته والخـرافات المستمدة أساساً فى المسرحيات والقصص الشعرى الملحمى بالإضافة إلى انتباهه إلى المعانى الرئيسية فى كتاب الشعر فأجاد التلخيص معرف التراجيديا تعـريفاً جيـداً يدل على الفهم وإدراكه الفارق الأكبر بين الشعر العربى واليونانى حيـث الأخيـر يـبحث فى الأفعـال والأخـلاق بينما يدور الأول حول الوصف للموضوعات والانفعالات[٥٤].

---

(٥٢) المصدر السابق ص٥.
(٥٣) المصدر نفسه، ص٩.
(٥٤) المصدر نفسه .

والحقيقـــة أن مـــا أورده بدوى فى تصديره لهذا العمل ولغيره من مقدمات مستفيضـــة تؤكـــد لنا حقيقة هامة وهى أن دراساته التى يقدم بها هذه النشرات وما تـــثيره مـــن قضـــايا تمثل القيمة الكبرى فى هذه التحقيقات، ولا تقارن مع مصادر تحقيقـــه الـــتى تعـــتمد فى الغالب على مخطوط واحد ولا على قراءاته وتفسيراته للنصوص التى يقدمها أو الأدوات التى يستخدمها فى التحقيق.

٥- مسكويه (ت ٤٢١هـ-١٠٣٠م) :

حقـــق بـــدوى كـــتاب "الحكمـــة الخالدة" أو جاويدان خردْ عام ١٩٥٢ وهو مجموعـــة من حكم الفرس والهند والعرب والروم والإسلاميين المحدثين يقول "عن الكتاب" أنه خير مرآة للروح الشرقية عامة"[٥٥]، ويعطى لنا ملامح وخصائص هذه الـــروح الشـــرقية فى بداية تحقيقه. ويحدثنا عن مسكويه ودراساته ورأى أبو حيان الـــتوحيدى فيه وكتبه المختلفة ويقف لبيان النسخ المخطوطة والمطبوعة[٥٦]. ويقيم مسكويه من خلال رأى الناس فيه.

وبالإضـــافة إلى هذا التحقيق فقد نشر بدوى عدة رسائل لمسكويه هى: مقالة فى الـــنفس والعقل، ومن رسالته فى اللذات والآلام عند مخطوط راغب باشا انبول رقم ١٤٦٣ وقد سبق أن نشر اركون الرسالتين فى مجلة الدراسات الشرقية، المجلد الســـابع عشر عام ٦١-١٩٦٢ بدمشق. ولا ينسى بدوى أن يذكر لنا أن هذه النشرة حافلة بالأخطاء[٥٧].

---

(٥٥) وما يهمنا من حديث بدوى هو ما أورده فى الفقرة الخامسة من تصديره عن مخطوطات الكتاب فهى عديدة بعضها تشمله وبعضها تشمل أجزاء منه، المخطوطات الناقصة هى : أيا صوفيا ٤٣٠٤، والكاملة باريس ٣٩٥٧ والذى جعل منه بدوى أساس تحقيق والفيتكان كان ٤٠٨ عربى، وليدن ٣٨١ عربى (=٦٤٠ فارنر) وطلعت بدار الكتب المصرية ٤٤١٩، ومخطوط استنبول وله مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٦١٧١ وبودل باكسفورد والخلاصة أنه يشير إلى أربعة عشر مخطوطاً ويصفها لنا. د. بدوى (محقق) كتاب مسكويه : الحكمة الخالدة، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٢، ص١٠.

(٥٦) المصدر نفسه ص ٢٢-٢٣.

(٥٧) بدوى : دراسات ونصوص فى الفلسفة والعلوم عند العرب ص٥٧-٩٨.

٦- السجستاني (ق ٤هـ- العاشر الميلادي) :

فى تصـــدير مســـهـ يتناول بدوى أبا سليمان المنطقى السجستانى: تكوينه العـــلمى وحياتـــه وحلقته الفكرية ومؤلفاته ومخطوطاته ثم يعرض آرائه فى العقل والـــنفس والـــروح والجســـم ومســـائل الطبيعة والزمان والإلهيات وكيفية فعل الله ومسائل فى الإنسان والخير، والفرق بين النحو والمنطق وغيرها من موضوعات.، فالرجل من الشخصيات الفذة فى تاريخ الفكر الإسلامى. وحين يتناول مؤلفاته يذكر لنا مخطوطاتها المختلفة إن وجدت وينسب له أحد عشر عملاً [٥٨].

وإذا كان النص الأصلى الكامل لـ "صوان الحكمة" تأليف أبى سليمان مفقود فقـــد بـــقى مـــنه هـــذا المنتخب، الذى ينشره بدوى، وما اختصره عمر بن سهلان الساوى، فإن السؤال الذى توجه إلى المحقق لماذا لم يذكر فى العنوان لفظ "منتخب" واكـــتفى بـــ "صوان الحكمة" دون الإشارة إلى أنه ينشر المنتخب؟ هذا ما لم يجب عليه بدوى الذى اكتفى بالقول أن فقدان الأصل الذى كتبه أبو سليمان خسارة هائلة.

ويحقـــق بـــدوى جهد السجستانى فى هذا العمل الذى ينقسم أولاً إلى قسمين أساسيين متفاوتين فى الحجم: قسم يتناول تاريخ الأطباء وآخر يتناول تاريخ الفلسفة فى العصـــرين اليونـــانى والإسلامى. اعتمد السجستانى فى القسم الأول على كتاب يحيى النحوى فى تاريخ الأطباء لما يذكر لنا صراحة فى مخطوط بشير أغا، ويبين بـــدوى أن بيـــن هـــذا القسم والفصل الذى عقده ابن النديم فى الطب والأطباء فى

---

(٥٨)هى: "مقالة فى مراتب قوى الإنسان"، مقالة فى أن الأجرام العلوية طبيعتها طبيعة خامسة" وله كلام فى المنطق، "و"مسائل عدة سئل عنها وجواباته لها". وتعاليق حكمية وملح ونوادر" ورسالة فى اقتصاص طرق الفضائل" "رسالة فى المحرك الأول" و"مقالة فى الكمال الخاص بنوع الإنسان ثم رسالة فى وصف الوزير أبى عبدالله بن العار ورسالة فى السياسة" وأخيراً صوان الحكمة التى انتخب منها روايتان إحداهما طويلة توجد فى عدة مخطوطات يذكر ا
خمسة منها هى: بشير أغا برقم ٩٤٤ ومراد ملا برقم ١٤٣١ وكوبرولو برقم ٩٠٢
برقم ٣٢٢٢ وجميعها باستنبول ثم نسخة المتحف البريطانى الذى لم يذكر رقمها وا
أو يطلع عليها أو يعتمدها فى التحقيق. والرواية المختصرة قام بها عمر بن
وقد انفردت بايراد فصل عن الفارابى يورده بدوى فى تحقيقه. ويتناو
رقم ٩٤ فى كتاباته مجلس شوارى ملى فى طهران ويذكر الرس
محقق صوان الحكمة وثلاث رسائل للسجستانى، طهران ١٩٧٤

الفهرســت مشـــابهة واضـــحة. وفى القســم الثانى خاصة عن الفلسفة فى العصر اليونـــانى كـــثير مـــن الآداب التى نجدها فى كتاب المبشر بن فاتك" "مختار الحكم ومحاسن الكلم" الذى نشره بدوى نفسه. وفى هذا القسم استعان السجستانى بما ورد فى كـــتاب حـــنين بن اسحق "نوادر الفلاسفة"، وقد نشره بدوى أيضاً فى نفس العام ١٩٧٤ ويتناول الجزء الثانى المشتغلين بالفلسفة فى الإسلام ويبدأ بفصل عن حنين بـــن اسحق وبه عن السجستانى، من المرجح كما يرى بدوى أنه ليس بقلم المؤلف لأنـــه قـــد حـــرر بضـــمير الغائب وليس المتكلم، وأنه من وضع من انتخب أقوال "صـــوان الحكمـــة" وفى الـــنهاية يذكر المخطوطات التى اعتمد عليها وليس بينها مخطـــوط المتحف البريطانى والاعتماد الأساسى على مخطوط بشير أغا كما يذكر لنا(٥٩).

٧- **المبشر بن فاتك (من الخامس هـ/ الحادى عشر م) :**

وبنفس طريقة بدوى فى تحقيقاته يبدأ بتصدير مطول من عدة فقرات، يتناول فى الأولى كـــل مـــا يتعـــلق بالكتاب، الذى يعد أول كتاب عربى فى تاريخ الفلسفة استقى فيه صاحبه أخبار الفلاسفة. ويقارن بدوى بالفصل الذى عقده ابن النديم عن أخـــبار الفلاسفة والعلوم القديمة والكتب المصنفة فى ذلك. ويلاحظ أن ابن فاتك لم يـــنقل عن ابن النديم وأن كان هناك بعض الشبه بين ما جاء فيه وما فى كتاب حياة الفلاســـفة لديوجين اللائرسى والأهم من ذلك هو ملاحظة الأقوال التى أوردها ابن فاتك وهى ذات ديباجة عربية خالصة لا تشم منها رائحة ترجمة(٦٠). وفى الفقرات

---

(٥٩) المصدر السابق ، ص٧٥.

(٦٠) د. بدوى : مقدمة تحقيق مختار الحكم ومحاسن الكلم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط٢، ١٩٨٠، ص٤. ويعرض بدوى فى تحليل هام فى الفقرة الخامسة للكتاب فى الأسبانية ويشير إلى الترجمة اللاتينية والفرنسية ومخطوطاتها والبروفنصالية والإنجليزية ومخطوطاتها. ويناقش الرواية الأصلية فى الترجمة الأسبانية (الفقرة التاسعة) ويقارن الترجمة الأسبانية بالأصل العربى. والنتيجة النهائية التى يستخلصها من هذه المقارنة أن نالترجمة الأسبانية فى الرواية الثانية التى تمثلها مخطوطات الأسكوريال رقم h1116 والأهلية بمدريد رقم ١٧٨٢٢، ١٧٨٥٣ وهى الأصيلة أما الأخرى فملفقة. وأن هذه الترجمة تساير الأصل العربى فى الترتيب ودقة الترجمة ولا تخالف الأسبانية الملفقة ويبذل فى هذا جهداً كبيراً إخراج الكتاب فردوداً بالفهارس والكشافات.

الـــتالية يعرض بدوى على التوالى للمؤلف وأعماله ثم ما نقل عنه وما نشر منه ثم يذكر لنا المخطوطات العربية للكتاب التى استعان بها فى التحقيق ويصفها لنا[٦١].

٨- حازم القرطاجنى :

اهتم بدوى فى مرحلة مبكرة بحازم القرطاجنى ونظريات أرسطو فى الشعر والــبلاغة (١٩٦١) فمقابل اهتمام السابقين امثال : بروكلمان واميلوجرسيه جومث ومهدى علام بمقصورة حازم الشهيرة فإن اهتمام بدوى انصب على "منهاج البلغاء وسـراج الأدبـاء فى البلاغة، الذى عقد فيه فصلاً طويلاً تناول نظرية أرسطو فى الشــعر والــبلاغة!! فــلأول مرة نجد فى كتاب لأحد علماء البلاغة الخلص غير الفلاسفة عرضاً وإفادة من نظريات أرسطو واستقصاء بالغاً لها باهتمام وحسن فهم ورغبة فى التطبيق على البلاغة العربية والشعر العربى[٦٢].

وحازم فى نظر بدوى هو أول من أدخل نظريات أرسطو وتعرض لتطبيقها فى كــتب البلاغة العربية. وقد فى تناوله للمحاكاة أبرز مجهود شخصى، لقد أبان فى هــذا الفصل كما يقول بدوى عن ثقافة فلسفية عميقة ومهارة فى تحليل المعانى فى الجماليـــة بحيث نستطيع أن نؤكد أن حازم قدم فى هذه الصفحات أول محاولة فى عــلم الجمال"[٦٣]. وقد حقق بدوى "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" عن مصورة من مخطوطة مكتبة جامعة الزيتونه موجودة بدار الكتب رقم ٦٣٣١هـــ.

ويمكـــن القول إن هذا التحقيق وما كتبه فى التمهيد له مع تحقيقاته ودراساته عـــن "الخطابة" و"الشعر" لأرسطو والشروح والتلخيصات العربية عليهما يوضح لنا جانباً هاماً من اهتمامات بدوى، هو الجانب الأدبى، إلا أنه للأسف وهذا ما ننتظره مـــنه لـــم يكتب لنا دراسة وافية عن أسس علم الجمال ويكاد يكون هذا هو الجانب الفلســـفى الوحيد الذى لا نجد له فيه إسهام، رغم دراساته الأدبية المتعددة وترجماته للشعر والمسرح الأوربى وإبداعاته القصصية والشعرية!؟

---

(٦١) المصدر السابق، ص١٧-٢٢.

(٦٢) د. بدوى : حازم القرطاجنى ونظريات أرسطو فى الشعر والبلاغة، القاهرة ١٩٦١، ص٢

(٦٣) المصدر السابق، ص٦.

٩- ابن باجة (ت ٥٣٣هـ ١١٣٨ م) :

اهـتم بدوى فى كتابه "رسائل فلسفية" بابن باجة، الذى نشر له أربع رسائل اعـتماداً على مخطوط طشقند[٦٤]. يعرض لما جاء فيه من رسائل وهى : "رسالة فى المـتحرك"، و"رسـالة فى الوحدة والواحد" ولم يرد لها عنوان بل أدمجت فى الرسالة السابقة "مقالة فى الفحص عن القوة النزوعية" و"القول فى القوة النزوعية". ويشـير بدوى للنشرات السابقة لرسائل ابن باجة التى قام بها اسين بلاسيوس[٦٥]، ونشـره المعصومى لكتاب النفس وماجد فخرى لرسائل ابن باجة الألهية (بيروت، ١٩٦٨) ثـم يعـرض للرسـائل التى ينشرها والتى وردت بمخطوط طشقند وهى "رسـالة فى المـتحرك" و"الوحدة والواحد" والرسالتين التاليتين قد وردتا بمخطوط برلين رقم ٥٠٦٠[٦٦].

١٠- ابن رشد (٥٢٠هـ - ١١٢٦م/ ٥٩٥-١١٩٨م) :

نتـناول فى خـتام هذه الفقرة عن تحقيقات بدوى للشروح والتلخيصات التى قدمهـا الشراح والفلاسفة العرب على النصوص الفلسفية اليونانية وكذلك مؤلفاتهم، أعمـال ابـن رشـد الذى حظى بتقدير واحترام بدوى أكثر من غيره من الفلاسفة العـرب. وأول هذه الأعمال شروح ابن رشد على فن الشعر لأرسطو، الذى نشره بدوى مع الترجمة العربية القديمة، على أساس عشر مخطوطات وان كان لم يذكر

(٦٤) وهى رسائل جديدة تضاف للمجموعات المعروفة حتى الآن من مخطوطات رسائل ابن باجة وهى كما يذكرها لنا: مجموعة مكتب بودلى باكسفورد تحت رقم Pocockec 206، ومجموعة برلين رقم ٥٠٦٠ وفهرست الفرت لمخطوطات برلين العربية، وأخيراً مجموعة الاسكوريال برقم ٦١٢ ويضيف المخطوط الجديد (طشقند رقم ٢٣٨٥) رسائل أخرى عن هذه المجموعات السابقة، بدوى : رسائل فلسفية ص١١٦-١٣٦.

(٦٥) انظر دراستنا عن اسين بلاسيوس، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد ٢٧، ١٩٩٥، ص ١٠٧-١٢٣.

(٦٦) د. بدوى : رسائل فلسفية ص١٣٤-١٣٦ ويذكر بدوى فى ختام حديثه أن هناك مجموعة أخرى منها ولم يشر إليها أكثر من هذا يقول "وقد استطعنا الظفر بمجموعة خامسة من رسائل ابن باجة نؤجل الحديث عنها ونشرها إلى فرصة مقبلة "المصدر السابق ص١٣٦ ونشير هنا إلى جهود كل من معن زيادة فى دراسة ونشر رسائل ابن باجة وكذلك جمال الدين العلوى.

لـــنا ســـوى ثمانية فقط فى وصفه لها. ويحقق تلخيص ابن رشد إلى سبق أن نشره ف. لازينو F. Lassinio عن المخطوطة الوحيدة (اللورنثية Clxxx 54) بيزا ١٨٧٢ وبدوى ينشر عن هذه النشرة[٦٧].

تحقيق تلخيص ابن رشد للخطابة. وهو من التلخيصات أو الشروح الوسطى والـــذى يـــزيد عـــن حجـــم نص أرسطو لأنه يتوسع فى إيضاح المعانى ولا يتابع أرسطو فيه ابن رشد فقد أغفل الأمثلة التى ذكرها المعلم الأول، لأنه رآها مجهولة للقارئ العربى واستبدل بها نظائرها فى الإسلام، ويرى بدوى إنه بذل مجهوداً فى هذا الباب وبخاصة فى المقالة الثالثة ووفق كثيراً فى هذا. ويعتمد بدوى فى تحقيقه على مخطوطات التلخيص الوحيدتين المتبقيتين وهما نسخة ليدن رقم ١٦٩١ ونسخ فيرنتسه رقم ClXXX, 54 وينشر عنها النص كاملاً الذى سبق أن نشر لازينو جزء منه عام ١٨٧٨.

تحقيـــق كـــل مـــن "شرح البرهان"، و"تلخيص البرهان" وفيه يتناول بدوى شـــروح ابن رشد على كتاب البرهان، وما كان لها من تأثير فى العصور الوسطى الأوربية متابعاً برانتل Prantl فى كتابه تاريخ المنطق فى العربية" ليبزج ١٨٦١. ويعـــرض فى عـــدة فقرات لتأثير شروح ابن رشد فى المنطق فى عصر النهضة، وتحـــليل مضـــمون كـــتاب البرهان، والشروح اليونانية على التحليلات الثانية ثم الـــترجمة العربية الواردة فى تفسير ابن رشد[٦٨] وعلينا هنا أن نشيد بالدقة العلمية للدكـــتور بدوى الذى أكد فى تصدير تحقيقه كتاب البرهان لابن سينا ١٩٥٤ إنه لا توجـــد أيـــة ترجمات أخرى سوى ترجمة حنين بن اسحق السريانية للكتاب والتى نقـــلها ابو بشر متى بن يونس، إلا إنه عاد فى تحقيقه لشرح ابن رشد للبرهان يدقق

(٦٧) د. بدوى : مقدمة تحقيق كتاب أرسطو فن الشعر والشروح العربية عليه. ص١٩٩.

(٦٨) يحقق الدكتور بدوى هذا الشرح عن مخطوط وحيد، هو برلين رقم ٣١٧٦ حيث ينشر لأول مرة هذا الشرح الكبير للنصف الأول من البرهان ويذكر لنا أنه قد راجع النص على الترجمة اللاتينية، طبعة البندقية ١٥٦٠ وذلك حسب ترقيم بيكر Bekker. وفى نفس الوقت نشر مع الشرح تلخيص البرهان لأول مرة أيضا. د. بدوى (محقق) شرح البرهان وتلخيص البرهان لابن رشد، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٤، ص٨-٣٦.

ويحقق هذا القول الذى صار بحاجة إلى تصحيح" وينقل لنا شواهد من النصين وإن كان لا يحدد لنا من هو صاحب الترجمة الموسعة التفسيرية الواردة عند ابن رشد.

تحقيـــق تـــلخيص القياس لأرسطو ، الكويت، ١٩٨٨. وفى تصديره يتناول القيـــاس وخصائصه، وعيوب القياس وتلخيص ابن رشد له، وترجمته إلى العربية وشـــراحه، ويعـــتمد فى تقديم هذه النشرة على نسخة ليدن ١٦٩١ ونسخة فرنسية CLXXX, 54 واللـــتان وصـــفهما فى نشـــرته لتلخيص الخطابة ١٩٦٠ ويذكر لنا الخـــلاف بيـــن النســـختين فيما يتصل بتلخيص القياس كبير جداً من حيث النقص والـــزيادة(٦٩) وقـــد ســـبق أن نشر بدوى تلخيص ابن رشد لكتاب أرسطو "الحاس والمحســـوس" ضمن أرسطو فى النفس القاهرة، ١٩٥٤، عن المخطوط رقم ١١٧٩ فى يـــنى جـــامع باســـتنبول. وبنشـــر تلخيص القياس يكون بدوى قد أتم نشر كل تلخيصـــات ابـــن رشـــد لكتب أرسطو المنطقية: الشعر، الخطابة البرهان، القياس، ويكـــون "قـــد وفى هذا الشارح الفيلسوف العظيم ابن رشد حقه المهضوم بين بنى قومه(٧٠).

١١- تحقيقات فى التصوف والدراسات الإسلامية :

تشـــمل هـــذه الـــتحقيقات مجموعة النصوص التى قدمها الصوفية والعلماء العـــرب ســـواء فى صـــورة نصـــوص (كتب) كاملة أو رسائل قصيرة (شذرات وفقرات) ويأتى فى مقدمة هذه الأعمال كتابات الصوفية المسلمين.

أ- فى التصوف :

وللتصـــوف أهمية كبرى ليس فقط فى تحقيقات بدوى بل فى تكوينه الفكرى وميوـــله الدراسية بحيث يستطيع الباحث أن يؤكد أن التصوف يعد من أكثر العلوم

---

(٦٩) يشير بدوى إلى الفصل الطويل الوارد فى نسخة ليدن وليس له مقابل فى نسخة فيرنتسه ولا فى الترجمات اللاتينية مؤكداً أن ذلك يعنى أن النسختين لم ينقلا عن أصل واحد. ويرجح أن هذه الزيادة من إضافة ابم رشد نفسه فى مراجعة لاحقة. بدوى : مقدمة تحقيق تلخيص القياس لأرسطو . الكويت ، ١٩٨٨، ص٢٣.

(٧٠) المصدر السابق ص ٢٤.

الإســـلامية ملائمـــة لــنزعة بــدوى الإنسانية كما يؤكد لنا فى دراسته "الوجودية والإنســـانية فى الفكر العربى" وفيه قدم أهم أعماله، وهو النزعة التى عن طريقها يتطـــلع الـــروح إلى المطـــلق - التى جذبت الفكر العربى الإسلامى تجاه النزعة الأفلاطونيـــة المحدثـــة قديماً وتجاه الفلسفة الوجودية المعاصرة حديثاً لأنها التعبير الأصـــيل لـــلروح الإسلامى وتنقسم أعماله فى مجال تحقيق الأعمال الصوفية إلى مجموعـــتين، الأولى: تجمـــع بين التحقيق والتأليف وأحياناً الترجمة وتشمل على: "شـــهيدة العشـــق الإلهى رابعة العدوية"، "شطحيات الصوفية"، "الإنسان الكامل فى الإســـلام"، "تـــاريخ التصـــوف فى الإسلام". وتشمل المجموعة الثانية تحقيق كتاب التوحيدى" الإشارات الإلهية"، و"رسائل ابن سبعين".

شـــهيدة العشق الإلهى : رابعة العدوية : وهذا العمل من الدراسات المبكرة التى امتزج فيها التأليف بالتحقيق . وإذا كان الغالب على كتاب "شخصيات قلقة فى الإســـلام" ١٩٤٧ تـــرجمة دراســـات وضعها مستشرقون عن الصوفية فإن "شهيدة العشق الإلهى..." ١٩٤٨ يجمع بين الدراسة والتحقيق فى قسمين. الأول دراسة عن رابعـــة والـــثانى نصـــوص منشـــورة وغير منشورة فى أخبارها. يهمنا منها غير المنشـــور وقـــت صـــدور العمل والتى اعتمد فيها على مخطوطات لابن الجوزى والمـــناوى والجامى والملطى والمقدسى والذهبى ومعظم هذه المخطوطات بالمكتبة الظاهرية بدمشق والأهلية بباريس ودار الكتب بمصر[٧١].

شـــطحيات الصوفية : ويتضمن دراسة هامة للشطح عند الصوفية ثم كتاب "الـــنور مـــن كلمات ابى طيفور" وهو نص غير منشور فى مناقب وشطحيات ابى يـــزيد البســـطامى ينسب إلى السهلجى. ورسالة عبدالغنى النابلسى فى حكم شطح الولى من المجموع رقم ٥٠٠٨ عام بالمكتبة الظاهرية بدمشق، ثم ملحق بنصوص غيـــر منشورة خاصة بأبى يزيد البسطامى. ويذكر لنا بدوى المخطوطات التى نقل عنها النص الأول وهى اثنين وذلك بارشاد من استاذه ماسينيون الأول رقم ٢٧٨٤ بمكتبة الأوقاف ببغداد والثانى ملك ماسينيون. كما يذكر مخطوطات الملحق[٧٢].

---

(٧١) د. بدوى : شهيد العشق ، رابعة العدوية. القاهرة، ١٩٤٨، ص١٦.

(٧٢) د. بدوى : شطحيات الصوفية، الجزء الأول أبو زيد البسطامى ١٩٤٩ وكالة المطبوعات الكويت، ١٩٧٨، ط، ص٥٢.

الإنســـان الكـــامل فى الإســـلام : ويـــتكون هذا العمل الثالث من مجموعة دراســـات ونصوص غير منشورة ألف بينها وترجمها وحققها ١٩٥٠. وهو يحتوى بالإضـــافة إلى تـــرجمة دراســـتين حول الإنسان الكامل فى الإسلام لكل من هانز هايزيش بكر ولويس ماسينيون "نص خطبة البيان" من تحقيق بدوى، الذى يذكر لنا أن له مخطوطيـــن بباريس، أشار واعتمد على أحدهما وهو رقم ٢٦٦١ باريس ولم يشـــر إلى الآخـــر كمـــا قـــدم لنا ملحقاً ثانياً بنصوص غير منشورة حققها وهى: نصـــوص من كتاب "مراتب الوجود" لصدر الدين القنووى، الظاهرية رقم ٥٨٩٥ عـــام، وابـــن قضيب البان: المواقف الإلهية رقم ١٠٤ تصوف تيمور بدار الكتب المصرية.[٧٣]

تـــاريخ التصـــوف فى الإسلام من البداية حتى نهاية القرن الثانى ١٩٧٥: يقـــدم لـــنا فيـــه ســـيرة إبـــراهيم بين أدهم من خلال مادة علمية يعتمد فيها على المخطوطات، فى شكل يمتزج فيه التأليف بالتحقيق خاصة فى الفصل الرابع.[٧٤]

التوحيدى : الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية" : يحقق بدوى للتوحيدى الذى يجعل منه أحد أعلام الوجودية الجزء الأول من الإشارات الإلهية، ١٩٥٠.

يقـــدم بدوى وصفاً تفصيلياً للمخطوط؛ فهى قديمة جداً من أقدم ما بقى لدينا مـــن مخطوطـــات عـــربية[٧٥] إلا أن أهم ما يستوقفنا فى التصدير هو حكمة على الـــتوحيدى بغلـــبة الصـــفة الفنية على حساب المعنى والتجربة الروحية فى بعض

---

(٧٣) د. بدوى : الإنسان الكامل فى الإسلام. وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٦، ص١٤٧.

(٧٤)وهو يعتمد على "سير إعلام النبلاء" للذهبى جـ٦ المخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستنبول كما يشير إلى مجموعة من المخطوطات الأخرى التى اعتمد عليها د. بدوى : تاريخ التصوف فى الإسلام من البداية حتى نهاية القرن الثانى، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٥، ص٢١٨.

(٧٥)وذلك عن المخطوط الوحيد المعروف حتى الآن التصوف ١٣٣٤ بالمكتبة الظاهرية بدمشق. ويشير إلى مختصر له مع شرح قام به عبدالقادر المقدس الشافعى (ت٩٣٤هـ) ومنه نسخة ببرلين ج٣ رقم ٣٨١٨ عنها مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٤١٧٩ اعتمد عليها بدوى فى تحقيقه. د. بدوى : مقدمة تحقيق كتاب التوحيدى. الإشارات الإلهية، الكويت، ١٩٨١، ص٣٢

المواضـــع، إلا أن ذلك ليس بقادح فى شيء كما يقول فى القيمة الخطيرة التى لهذا الكـــتاب، وقد قدم الأستاذ أحمد صقر فى مجلة الثقافة نقداً مسهباً لتحقيق بدوى لهذا الكتاب[٧٦].

رسائل ابن سبعين : حققها وقدم لها بدوى، القاهرة، ١٩٦٥ حيث يتناول فى الـــتقديم حياة ابن سبعين ومذهبه فى وحدة الوجود، ويقارنه بهيجل والغزالى معتمداً عـــلى مخطـــوط وحيـــد[٧٧]. وقد سبق له نشر بعض هذه الرسائل فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد[٧٨].

ب- تحقيقات متنوعة فى الدراسات الإسلامية :

مؤلفات ابن خلدون :

بمناســبة احـــتفال المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بذكرى ابن خـــلدون يناير ١٩٦٢ عهد إلى بدوى بتأليف هذا الكتاب لإحصاء أثاره ووصف ما تـــبقى لدينا عنها من مخطوطات ولاستقصاء ما كتب عنها من دراسات وما ترجم مـــنها إلى ســـائر الـــلغات. وبعد أن يقدم لنا بدوى لوحة حياة ابن خلدون يعرض لـــلمؤلفات الصـــغرى، لباب المحصل ثم تلخيصه كتب ابن رشد وتقييد فى المنطق وكتاب فى الحساب وشرح موجز فى أصول الفقه ومصوراتها رقم ٤٢٩٩ ب بدار الكـــتب لمصـــرية، ومخطـــوط الســـيد أحمد بن المليح الفاسى، ونشرة الكتاب فى اســـتنبول ١٩٥٨. ثـــم يعرض لكتاب ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العـــرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، خاصة المقدمة وتـــاريخ تأليفهـــا ويقف طويلاً أمام مخطوطات المقدمة وباقى العبر وديوان المبتدأ

---

(٧٦) أحمد صقر : الإشارات الإلهية لأبى حيان التوحيدى، مجلة الثقافة، القاهرة، إعداد ٦٢٩-٦٢٣-٦٣٤.

(٧٧) هو ١٤٩ تصوف بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية. وهو كما يصفه عبارة عن مجموعة مصطنعة مؤلفة من عدة مخطوطات كانت مستقلة ثم ضمت فى مجلد واحد. كما يرجع بدوى أيضاً إلى مخطوطات رسالة "بدّ" العارف جار الله رقم ١٢٧٣ وبرلين ١٧٤٤، د. بدوى : مقدمة تحقيق، رسائل ابن سبعين ، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٢، ١٣.

(٧٨) هى رسائل: النصيحة، عهد ابن سبعين لتلاميذه، الإحاطة.

والخــبر. ويعــرض لمخطوطــات القاهــرة ثم استنبول ثم باريس ويصف لنا هذا المخطوطــات[٧٩]. ثــم يذكر لنا بعد ذلك المخطوطات المستقلة من كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً[٨٠].

ويخصــص فقــرة لترجمة المقدمة والعبر إلى اللغات الأخرى، ثم النشرات الــنقدية والطــبعات مــثل نشرة كاترمر (أول نشرة للمقدمة وهى فى نفس الوقت النشرة النقدية الوحيدة لها حتى الآن برغم مرور أكثر من مائة على ظهورها" كما يخــبرنا (ص٢٦٠-٢٦٢) ثــم نشــرات العبر؛ نشرة دى لان، طبعة بولان، نشرة عــلال الفاســى وعــبدالعزيز بــن إدريس ثم نشرة الطنجى للتعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً. ويخصص الجزئين الأخيرين لأخر مؤلفاته وأول ما نقل عنه وهما: وصف بلاد المغرب، كتبه لتيمور لنك، وابن الأرزق "بدائع السلك فى طبائع الملك" وأول من نقل عنه، وأخيراً نصوص فى أخبار حياته وأراء المعاصرين فيه. ثم يذكر لنا ثبتاً بالدراسات عن ابن خلدون باللغات المختلفة العربية وغير العربية.

مؤلفــات الغــزالى : حين يتناول بدوى الغزالى يقارنه بأرسطو فكلاهما من أعــلام الفكــر الإنســانى لهذا نسب لهما حشداً هائلاً من المؤلفات مما ألقى على المؤرخيــن والباحثين صعوبة شاقة ألا وهى التمييز بين الصحيح منها والمنحول. ويتــناول تاريخ البحث فى مؤلفات الغزالى منذ كتب حوشة R. Gosche بحثه عن حياة الغزالى ومؤلفاته برلين ١٨٥٨ حتى بحث بويج "البحث فى الترتيب التاريخى لمؤلفــات الغزالى" ١٩٥٩ ورغم أن عمل بويج بحث هو أوفى ما ظهر حتى الآن عــن مؤلفات الغزالى من حيث حصر عددها والبحث فى ترتيبها والتحدث عن كل

---

(٧٩) مخطوطات القاهرة: طلعت رقم ٢١٠٦ تاريخ بدار الكتب من أصح النسخ وأكملها، ونسخ ٣٥٥، ٦١٢، ٦٨٤ تيمور تاريخ ونسخ ٢٠٤٦ تاريخ طلعت، ١٠٦٨ تاريخ دار الكتاب والشنقيطى، ومصطفى فاضل رقم ٦٥ تاريخ دار الكتب، ورقم ٢٤٤٠تاريخ تيمور وكذلك رقم ١٨٥، ٥٣٤٣ تاريخ دار الكتب ومخطوط الأزهر رقم ٤٣٦ أباظة ١٢٩. ومخطوطات استنبول ١٧ مخطوط وميونخ سبعة وفيينا اثنتان والمتحف الآسيوى فى لينيجراد ثلاثة والأهلية فى مدريد اثنتان وفى تونس المكتبة العبدلية ١٨، والجامع الكبير ١٥ ثم مخطوطات سلفتر دى ساسى ثلاثة وقطعة فى كونهاجن ثم مخطوطات المكتبة الأهلية فى باريس.

(٨٠) وهى أيا صوفيا رقم ٣٢٠٠ وأسعد أفندى رقم ٢٢٦٨، ودار الكتب رقم ١٠٩ تاريخ م.

كـتاب مـنها. فإن بدوى مع ذلك يقبل على تقديم مثل هذا العمل وإذا تساءلنا عن المـبرر محصر مؤلفات الغزالى مرة ثانية؟ لأجابنا بدوى أن البحث الذى يقدمه لنا يختـلف عمـا فعله بويج والباحثون من بعده من عدة وجوه والنقاط التى يقدمها لنا تصـلح بـرنامجاً للـتحقيق والـتوثيق العلمى. لقد أراد بدوى أن يقدم للباحثين فى الغـزالى الإداة الضرورية الأولية التى يستطيعون الاستعانة بها فى تحقيق مؤلفاته وحصرها وذلك من أجل أن ينشر من مؤلفاته الصحيحة ما لم ينشر، وأن يعاد نشر غير المحقق منها نشراً علمياً دقيقاً(٨١).

ويقـدم لنا تحقيقاً لكتاب الغزالى "فضائح الباطنية " ١٩٦٤ وفيه ينشر لأول مـرة نص الغزالى "الرد على الباطنية أو فضائح الباطنية وفضائل المتظهرية" فقد نشـر جولـد تسـيهر من قبل قطع منه تعادل حسب تعبير بدوى ثلث العمل عام ١٩١٦ وقدم لها بالألمانية مقدمة مستفيضة أفاد منها بدوى تماماً فى قسمين الأول؛ مدخل يتناول فيه تأليف الكتاب والثانى تحليل لمضمون الكتاب. ويعرض لما ذكره جولد ليسهر ويضيف إليه.(٨٢)

---

(٨١) ويقدم لنا فى تصديره لوحة حياة الغزالى، وفهارس المخطوطات الغربية والعربية والتركيبية والفارسية (ص٤٤-٤٧) ويتناول فى القسم الأول الكتب المقطوع بصحة نسبتها للغزالى مرتبة حسب تاريخ تأليفها كما جاء فى الفهرس (١-٧٢) إلا أن هذا الرقم غير دقيق فقد ذكر بدوى فى بداية هذا القسم إنها ٦٩ مؤلف والحقيقة أنها ٧٢. والقسم الثانى كتب يدور الشك فى صحة نسبتها للغزالى، والثالث كتب من المرجع إنها ليست للغزالى . والقسم الرابع، أقسام من كتب للغزالى أفردت لها كتباً مستقلة بعناوين مغايرة. والخامس كتب منحولة والسادس كتب مجهولة الهوية والسابع مخطوطات موجودة ومنسوبة إلى الغزالى.

ويتضح فى هذا القسم الأخير إطلاع بدوى الواسع على المخطوطات وفهارسها فى معظم مكتبات العالم باللغات المختلفة التي يتقنها. كما يتضح نفس الأمر فى الملحق الذى قدمه لنا بعنوان "نصوص غير منشورة، وقليل منها منشور كما يخبرنا خاصة بمؤلفات الغزالى يشير إليها (المخطوطات) فى عشرات الصفحات.

(٨٢) ويخصص الفقرة السابعة من التصدير للحديث عن تحقيقه مؤكداً أن نشرته هى النشرة الكاملة للعمل فلم ينشر جولد تسيهر سوى ثلث الكتاب، ولم يعتمد إلا على مخطوط واحد هو مخطوط المتحف البرطيانى رقم ٧٧٨٢ لأنه لم يعلم بوجود غيره أما نشرة بدوى فتعتمد على مخطوطين هما مخطوط المتحف البريطانى ومخطوط جامع القرويين بفاس. ويقارن بدوى بينهما مفضلاً الأول ويشير إلى مخطوط ثالث بدمشق فى حوزة أصحاب مكتبة عبيدة، إلا أنه لم يحصل على نسخ منه وهو كما يذكر لنا يعتمد على المخطوط الأول مع إثبات الفروق بين النسختين، د. بدوى (محقق) فضائح الباطنية، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت. د.ت.

رابعاً : منهج بدوى وخصائص تحقيقاته :

علينا أن نشير فى البداية إلى أن التحقيق عند بدوى ليس هدفاً فى ذاته منفصلاً عن الجهد العلمى، فالغاية التى يستهدفها لم تكن مجرد نشر الأعمال الفلسفية يونانية أو إسلامية، بل أن هناك هدفاً آخر أكثر طموحاً يسعى إليه هو إعادة تقديم "التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية" سواء عن طريق التأليف أو الترجمة أو التحقيق، حيث تتكامل هذه الوسائل الثلاثة معاً، وربما داخل العمل الواحد من أجل تحقيق هذا الهدف، الذى تحدد فى عنوانه ثانى كتبه.

ويتضح هذا الهدف عبر تلك الدراسات التمهيدية التى يصدر بها أعماله حيث يضع العمل الذى يقوم بتحقيقه فى سياق مشروعه، ويكتمل ذلك بما يستخدمه من أدوات وما يقدمه من فهارس وكشافات، والتى يأتى معظمها فى شكل ثبت بالمصطلحات العربية المستخدمة ونظائرها فى اليونانية واللاتينية. الغاية إذن أن يسهم التحقيق فى المشروع الفلسفى لبدوى. وهو مشروع ترجع جذوره إلى أحمد لطفى السيد وطه حسين اللذان سعيا إلى ربط الحضارة العربية بأصول النهضة الغربية الحديثة التى ترجع للحضارة اليونانية. هنا نعيد مرة ثانية تلك العبارة التى وردت فى تصديره لتحقيق كتاب "المثل الأفلاطونية" والتى يقول فيها: "... إن لنا فى المخطوطات العربية لكنوز كلما أمعن المرء فى التنقيب عنها ازداد إيماناً بما يجب عليه بذله من جهد فى هذا السبيل الموفور العائدة لا بالنسبة إلى التراث الفكرى العربى وحده بل أيضاً بالنسبة إلى التراث الإنسانى العام"(٨٣) التحقيق إذن هو السبيل إلى الكشف عن التراث الفكرى العربى ودوره فى إثراء الفكر الإنسانى.

وإذا حاولنا معرفة كيف يسهم التحقيق فى إثراء الفكر الفلسفى العربى فإن الإجابة التى يقدمها بدوى، والتى توضح أن غاية النظر فى المخطوطات هى التواصل مع إنجازات القدماء، وذلك لأنها تقدم لنا عوناً كبيراً يتمثل فى إمدادنا بالمفردات والمصطلحات التى تشكل اللغة الفلسفية الكلاسيكية وتساعد فى إيجاد اللغة الفلسفية الجديدة. يقول: "... لذا ترانا فى حاجة ملحة إلى الاستعانة

(٨٣) د. بدوى : مقدمة تحقيق المثل الأفلاطونية، المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية، ص٦١.

بالـترجمات القديمة للمؤلفات اليونانية نستغلها ونديم الاطلاع عليها حتى نحقق فى الـنهاية ذلـك النثر الفلسفى الجديد الذى نرنو بأبصارنا ونديم الاطلاع عليها حتى نحقـق فى النهاية ذلك النثر الفلسفى الجديد الذى نرنو بأبصارنا المتطلعة بلهفة إلى إيجاده".(٨٤)

يقـدم لـنا بـدوى فى عبارة صريحة طريقته فى التحقيق، وذلك فى الفقرة الحاديـة عشـر من تصديره "أرسطو عند العرب" تحت عنوان (منهجنا فى النشر) والـتى يقـول فيهـا : المنهج الذى اتبعناه هنا منهج بسيط، وبقدر ما هو بسيط هو خصـب دقيق معاً، وهو أن تجيد قراءة المخطوط على تدبر وحسن فهم. وهذا مبدأ عـلى الـرغم من بساطته ووضوحه كثيراً ما أغفله الناشرون أو بالأحرى أخطئوا فيـه"(٨٥). ورغـم أن عبارة بدوى تبدو أقرب إلى النصيحة النظرية حول الطريقة الإجـرائية فى الـتعامل مـع النصـوص، إلا أنه يقدم لنا تفصيلات دقيقة فى عدة ملاحظات يدعو القائمين على نشر المخطوطات إلى التأمل فيها وهى :

١- أن يـبذلوا كـل مـا فى وسـعهم مـن جهد فى إجادة قراءة ما تيسر لهم من مخطوطـات بـدلاً مـن استنفاده فى البحث عن نسخ أخرى مما قد يؤثر فى المجهود الذى يجب أن يبذله فى إجادة القراءة.

٢- ألا يـثقوا مطـلقاً بنسخ النساخ، وأن يراجعوا تجارب الطبع على المخطوطات الأصلية نفسها.

٣- أن يتبيـنوا اللوازم القلمية للنساخ ويستبعدوها من الجهاز النقدى فلا تدخل فيه على أنها اختلافات فى القراءة.

٤- أن يعـنوا كـل العناية بعلامات الترقيم وفقاً لوظائفها المنطقية المعروفة وإلا يهملوا مطلقاً أية علامة.

ومـن الواضـح أن بدوى يعتمد على القراءة وعلى التحليل اللغوى والتناول الداخـلى للـنص المحقق، وهو الأسلوب الأثير لأصحاب المنهج الفيلولوجى الذى

(٨٤) د. بدوى : مقدمة تحقيق منطق أرسطو، دار القلم بيروت ، ١٩٨٠، ص٩.
(٨٥) د. بدوى : مقدمة أرسطو عند العرب. ص٦٤-٦٦.

ينتقده بدوى فى موضع آخر رغم إعجابه الشديد به واستخدامه له فى تحقيقاته، فهو يخبرنا أن "المشاكل الفيلولوجية لا يحلها التحليل الباطن بقدر ما يحلها الأدلة النقلية الخالصــــة، ومهمـــا أوتى المرء من براعة فى التحليل الباطن للنصوص فإن عمله الهـــائل هذا يظل تحت رحمة أقل خبر صحيح يأتى به مصدر تاريخى موثوق به. وكأين من أبنية فيلولوجية رائعة بذل فيها بعض الباحثين ذكاءاً خارقاً وجهداً هائلا ثم انهارت دفعة واحدة. بربح خبر تاريخى بسيط. هذه حكمة اكتسبناها من تجاربنا فى الأبحـــاث الفيلولوجية التاريخية نعدها من اثمن ما نحرص عليه وندعو الباحثين ألا يســـرفوا فى طـــريقة التحـــليل الباطن للنصوص من أجل معرفة مصدرها أو صـــاحبها الحقيقى بل يتربثوا حتى تكشف لهم الوثائق الجديدة، وما أكثر ما يكتشف كـــل يـــوم خصوصاً فى ميدان الدراسات الفلسفية الإسلامية من الأدلة النقلية التى توضح الحقائق التاريخية"[٨٦].

ويمكـــن لـــنا أن نقترب أكثر من منهج بدوى فى التحقيق حين نقرأ طريقة عملـــه الـــذى تميـــزه عن السابقين، والتى قدمها لنا فى مستهل كتابه عن "مؤلفات الغـــزالى"[٨٧] والتى تصلح أن تكون برنامجاً للتحقيق والتوثيق العلمى ويمكن تحديد ما قام به فى النقاط التالية:

- فقد أحصى جميع ما تيسر إحصاؤه من مخطوطات.
- ودلـــل عـــلى مواضــــع وجودهـــا، وفصل القول فى وصف مخطوطاتها وذكر مضامين ما لم ينشر منها.
- ذكر ما طبع من هذه المؤلفات وسنوات وأماكن طبعها والطبعات النقدية منها.
- بيـــن مـــا تـــرجم منها إلى اللغات الأخرى، وما كتب عنها من دراسات تتعلق بصحتها أو مضمونها فى اللغات غير العربية.
- بيـــن المصـــادر الـــتى أشارت إلى كل كتاب والإحالات الواردة عنه فى الكتب الأخرى. ليستعين بها الباحث فى بيان الكتاب وصحة نسبته إلى صاحبه.

---

(٨٦) د. بدوى : الأفلاطونية المحدثة عند العرب ص١٠.
(٨٧) د. بدوى : مؤلفات الغزالى، ص١٨-١٩.

- رتب الكتب الصحيحة حسب القاعدة السابقة.
- اثبت ملاحق بنصوص معظمها ينشر لأول مرة.

لقـد أراد بـدوى أن يقدم للباحثين ببيانه هذا لطريقة عمله الأداة الضرورية الأولية التى يستطيعون الاستعانة بها فى تحقيق المؤلفات وحصرها، وذلك من أجل أن ينشـر من مؤلفات (الغزالى) الصحيحة ما لم ينشر، وأن يعيد نشر غير المحقق منها نشـراً علمياً دقيقاً. وقد جاء عمله ع تطبيقاً لهذه القواعد، أو بمعنى أدق فإن هـذه القواعـد مستمدة من عمله وهى تظهر فى معظم تحقيقاته وليس فقط مؤلفات الغـزالى. فالدكـتور بـدوى كما اتضح لنا من الفقرات السابقة قدم لنا العديد من الـتحقيقات فى كافـة مجالات الفكر الفلسفى مستخدماً فى نشرها تلك القواعد التى أشـار إليهـا. وتتسم هذه التحقيقات بمجموعة من السمات يمكن أن نشير إليها لما تلقيه من ضوء على منهجه فى التحقيق وتطبيقه لهذا المنهج وعلاقة ذلك بمشروعه الفلسفى.

السـمة الأولى : الشـمولية وعـدم التخصيص فبدوى قدم عدداً كبيراً من الـتحقيقات شـملت تـرجمات لنصوص الفلاسفة اليونان وكذلك نصوص الفلاسفة والشـراح العـرب: وعدد من الصوفية المسلمين. فقد اتجهت تحقيقاته على العكس مـن كثير من المحققين إلى الشمولية بحيث غطت أهم النصوص الأساسية لمعظم الفلاسفة اليونان والعرب.

السـمة الـثانية هى : الاعتماد فى أحيان كثيرة على مخطوط واحد، وهى مغامرة محفوفة بالمخاطرة، حيث يصعب إكمال الناقص وقراءة الغامض، ومن هنا فـنحن نؤكـد على أهمية التحقيق اعتماداً على أكثر من مخطوط أو التريث ريثما تظهر مخطوطات أخرى، ومع هذا ، وبالرغم من لجوء بدوى فى عدد من تحقيقاته إلى عـدد كـبير مـن المخطوطات، كما فى تحقيقه كتاب الحيوان لأرسطو، وسر الأسـرار عـن ١٨ مخطوط. وجوامع كتاب طيماوس فى العلم الطبيعى لجالينوس وفقـرات مـن أفلاطـون فى تقويـم السياسة الملوكية والأخلاق الاختيارية عن مخطوطيـن وإن كان هناك مخطوطات أخرى لم يشر إليها موجود مصورات منها

بـدار الكـتب المصـرية ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة[٨٨] ومختار الحكم ومحاسـن الكـلم للمبشرين فاتك، والبرهان لابن سينا وتلخيص الخطابة وتلخيص القيـاس لابـن رشد وغيرها. ومع هذا فالغالب على تحقيقات بدوى الاعتماد على مخطوط واحد كما نجد فى الأعمال التالية :

تحقيق منطق أرسطو عن مخطوط باريس رقم ٢٣٤٦، السماع الطبيعى (ت الطـبيعة) ليدن ٥٨٣ فارنر، الآثار العلوية ١١٧٩ ينى جامع باستنبول، فصول من مقالـة الـلام مخطوط رقم ٦ بدار الكتب حكمة وفلسفة، الأخلاق إلى نيقوماخوس مخطـوط القـرويين بفـاس، "كـتاب المسائل المنحول لأرسطو" (فى الأفلاطونية المحدثة عند العرب) مخطوط ميونخ رقم ٢٧٥، نواميس أفلاطون ليدن رقم ١٤٢٩ "وصية أفلاطون الحكيم" مجلس شورى على بطهران ٥٢/١٠، فى العقل و"الحيلة لدفـع الأحـزان" (الكـندى) أيا صوفيا ٤٨٣٢، رسالة الملة الفاضلة للفارابى عن مخطـوط طشقند، وأن كان لها مخطوطات أخرى نشر على أساسها محسن مهدى نشـرته وهى مخطوط قلج على باشا.وتعليقات ابن سينا، مخطوط ٦م بدار الكتب، والمباحثات له أيضاً عن نفس المخطوط وللأخير عدة مخطوطات يشير إليها بدوى ويسـتبعدها، و"مـنهاج البلغاء وسراج الأدباء" للقرطاجنى عن مصورة بدار الكتب رقم ٦٣٣١ منقولة عن مكتبة الزيتونة بتونس، و"شرح البرهان" و"تلخيص البرهان" مخطـوط ميونخ رقم ٣١٧٦، وتلخيص ابن رشد الحاس والمحسوس عن مخطوط ١١٧٩ يـنى جـامع باسـتنبول، ورسالة عبدالغنى النابلسى فى حكم شطح الولى المجمـوع رقـم ٥٠٠٨ بالمكتبة الظاهرية بدمشق ونص خطبة البيان نشرها فى "الإنسـان الكـامل" عـن مخطوطيـن أشار إلى أحدهما ٢٦٦١ ولم يشر للثانى، و"مـراتب الوجود" لصدر الدين القونوى عن مخطوط الظاهرية رقم ٥٨٩٥ عام، وابـن قضيب البان "المواقف الالهية" رقم ١٠٤ تصوف تيمور، وكتاب الإشارات الإلهيـة للتوحيدى عن مخطوط ٨ تصوف ١٣٣٤ بالمكتبة الظاهرية ورسائل ابن سبعين عن المخطوط رقم ١٤٩ تصوف بالخزانة التيمورية بدار الكتب.

(٨٨) نقوم حالياً بتحقيق هذا العمل المنسوب إلى الفارابى مع دراسة للأخلاق عند الفارابى.

ويرتـــبط بالسمة السابقة سمة أخرى يبررها فى نظرنا مشروع بدوى البنائى وهى إعـــادة تحقيق بعض النصوص التى سبق تحقيقها من قبل مثل: "جوامع كتاب طياوس فى العلم الطبيعى"، الذى سبق نشره كراوس، و"فصول من مقالة اللام التى ننشـــرها أبو العلا عفيفى و"كتاب النبات" الذى نشره ربرى من قبل فى مجلة كلية الآداب الجامعة المصرية. ومراتب فلسفة أفلاطون التى نشرها روزنتال، و"نواميس أفلاطـــون" التى حققها جبرابيلى، ورسالة الفارابى فى الرد على يحيى النحوى فيما نـــاقض فيه أرسطو والتى نشرها محسن مهدى، وبعض رسائل عيون الحكمة لابن سينا التى نشرت عدة مرات فى كتاب تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات، ورسالة الكـــندى فى العقل ورسالته فى الحيلة فى دفع الأحزان، نشرهما أبو ريدة، ورسالة الفـــارابى فى الملة الفاصلة نشرها محسن مهدى ورسائل ابن باجة والتى سبق أن نشـــر بعضـــها ماجد فخرى ومعن زيادة وجال الدين العلوى. وعدد من نصوص أفلاطون وردت فى سياق بعض الكتابات العربية ينقلها بدوى عن نشرات السابقين عليه كما يفعل ذلك فى رسالة حنين ابن اسحق فيما ترجم من كتب جالينوس بعلمه ومـــا لـــم يـــترجم الذى يوردها لنا فى دراسات ونصوص فى الفلسفة والعلوم عند العرب دون بيان لمصدرها.

ويرتبط بهذه السمة هجوم بدوى على محققى الأعمال التى يعيد تحقيقها كما يفعـــل مع كل من: ماجد فخرى، ومحسن مهدى، ومحمد عبدالهادى أبو ريدة، الذى يصدر عليه حكمين مختلفين يشيد فى الأول بنشرته النقدية الممتازة لرسائل الكندى الفلسفية ويهاجمه مرة ثانية وهو بصدد إعادة نشر وتحقيق رسالتا الكندى فى العقل وفى الحيلة فى دفع الأحزان الذى سبق أن حققهما أبى ريدة.

وتقتضـــينا هـــذه السمة الأخيرة الوقوف أمام نقد جمال الدين العلوى لنشرة بـــدوى لـــبعض رســـائل ابـــن باجة الفلسفية مع اعترافه بمكانة بدوى فى التحقيق ووصفه له بأنه "شيخ المحققين العرب" [٨٩] يرى أنه قد خرق بدون وعى قاعدة من أبســـط قواعـــد التحقيق العلمى طالما لوح بها هو نفسه وهى التى تؤكد على مقابلة

(٨٩) جمال الدين العلوى : مؤلفات ابن باجه، دار الثقافة بيروت، دار النشر المغربية، الدار البيضاء ١٩٨٣، ص٣٥.

النســخ فى تحقيق النص الواحد إذا ما توفرت لدينا أكثر من نسخة واحدة[٩٠]، كما يــأخذ عــليه أنه لا يبذل جهداً يذكر فى قراءة المخطوط وتصحيح بعض عباراته الغامضة أو القلقة، كما أنه لا يهتم بتوثيق النص المحقق[٩١].

وإذا ما رجعنا إلى تحقيقات بدوى وجدناه يميل إلى تقديم النص كما هو وهو لا يــريد أن يــتدخل بشخصــه فى تغيــر عــباراته اللهم إلا فى الحالات المتعلقة بالترجمات العربية للنصوص اليونانية التى فقد فقرات منها، هنا يلجأ بدوى للأصل اليونــانى لضــبط وإكمــال النقص فى الترجمة العربية. فالأساس هنا ليس النسخة المخطوطــة، بــل الأصل اليونانى إذا وجدت، فالهدف كما أشرنا هو تقديم صورة كاملة لهذا التراث فى الحضارة الإسلامية وفى هذا التوجه قدم لنا بدوى عمله، وفى هذا التوجه نجح إلى حد كبير، وما يحق لنا تسميته مشروع بدوى الفلسفى لا يتمثل فى وجوديته فقط بل فى جهده فى النظر إلى هذا التراث وتحقيقه وتقديمه فى أفضل صورة بياناً لدور العرب فى تكوين التراث اليونانى.

(٩٠) المرجع السابق، ص٣٦.
(٩١) المرجع السابق، ص٣٧.

أبو ريان (*):

والاتجاهات الإشراقية فى الفلسفة الإسلامية[1]

مقدمة :

علينا منذ البداية عند تناول أعمال الرواد الذين مهدوا الطريق للدراسات الفلسفية العربية المعاصرة، والذين أسهموا إسهاماً حقيقيا فى ميدان التراث الفلسفى العربى وتحقيقه أن نتجنب مسلكين أولهما: التمجيد الذى يصل إلى حد التقديس، والذى يتمثل فى إصباغ صفات الكمال على عمل هؤلاء الرواد حيث يسعى الباحث إلى تكريم هذا الرائد أو ذاك حبا له أو خشية منه، والخطورة هنا أن التعامل يكون مع الشخص وليس مع تحليل عمله وإنتاجه، ويتحول الأستاذ إلى رمز لا ينبغى المساس به على حساب العلم. والمسلك الثانى وهو النقيض المباشر لما سبق، حيث يهدف الباحث عامدا متعمدا إلى الهجوم والتجريح والغمز واللمز للحط من قدر الرائد موضع البحث الذى يكون عمله فى معظم الأحيان أجدى وأكثر أهمية من جهد الباحث نفسه. ومن هنا علينا أن نبحث عن طريق ثالث، منهج واضح المعالم، يتجنب التمجيد والتجريح، الدفاع والهجوم . وإعادة النظر فى جهود الرعيل الأول فى الدراسات والتحقيقات الفلسفية وفى تعاملهم مع تاريخ وقضايا الفلسفة.

ونحن فى أشد الحاجة إلى إعادة كتابة تاريخ الفلسفة المعاصرة فى الثقافة العربية، وطرح بدائل متعددة لكيفية دراستها، والبحث عن انجح المناهج لتحقيق ذلك. واضعين فى الاعتبار ليس فقط الفترة التاريخية التى ظهرت فيها أعمال الرائد، والمرحلة التى وصلت إليها الدراسات الفلسفية العربية فى عصره بل أيضا

(*) نشرت هذه الدراسة فى مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، السنة الخامسة، العدد الخامس.

(١) درس أبو ريان فى جامعة الإسكندرية الفلسفة والاجتماع، وتخرج فيها عام ١٩٤٤ وفيها حصل على الماجستير عام ١٩٥٠، ودبلوم العلوم الاجتماعية، وعين بها مدرسا مساعدا فى نفس العام ، وحصل على الدكتوراة من جامعة باريس (السوربون) ١٩٥٦ وعين مدرسا بعد عودته من البعثة، وبالإضافة إلى عمله قام بالتدريس فى عدد من الجامعات العربية هى: جامعة بنغازى ٥٨ - ١٩٦٢م، وبيروت العربية ٦٨ - ١٩٧١ وعين رئيس قسم الفلسفة ثم عميد ا لها عام ١٩٧٧ - ١٩٧٩، وجامعة الرباط بالمغرب ٨١ - ١٩٨٢، وأم درمان بالسودان ٨٢ - ١٩٨٣ ، واستمر فى التدريس بجامعة الإسكندرية، وانشأ مركز التراث القومى والمخطوطات ١٩٨٤ وعين مديرا له حتى وفاته.

تكوينه العلمى ومصادر ثقافته، وما إضافة إلى سابقيه منهجه وموضوعه ونتائجه، واتســاق هذه النتائج مع المقدمات التى انطلق فيها، والمنهج الذى اتبعه فى التحقيق وجدتــه، ودقــته ومــنطقية تحــليله لموضوعه فى إطار تاريخ الفلسفة من جهة، والتاريخ الذى يعيشه بحيث يكون المعيار هو إلى أى مدى استطاعت أعمال هؤلاء الــرواد ان تســهم فى الإضـــافة مهما كانت بسيطة – فى الفلسفة دون الوقوع فى الخطابية أو الشعارات أو العقائد أو الأيديولوجيات.

وعلى هذا الأساس سوف نعرض لتحقيقات الدكتور محمد على، حيث نتناول أولاً علاقــته بمدرســة الإســكندرية الفلسفية المعاصرة، ومصادر تكوينه العلمى، وإنــتاجه فى مجــال تــاريخ الفلســفة، وتحقيق التراث الفلسفى العربى الإسلامى. ونعرض ثانياً نظراته الفلسفية. ونتوقف ثالثاً أمام تحقيقاته الفلسفية سواء فى الفلسفة الاشراقية وتاريخ العلم العربى.

أولا : التكوين العلمى والمؤلفات

ترتــبط إســهامات مدرســة الإســكندرية الفلسفية المعاصرة بتاريخ جامعة الإســكندرية الحديثة، الذى لا ينفصل بدوره عن تاريخ الجامعة المصرية[٢]. بل لا ينفصــل عــن تاريخ مصر الثقافى والاجتماعى والسياسى تماما كما ترتبط مدرسة الإســكندرية القديمــة فى العصــر الهلنسيتى بتاريخ مصر فى عهد الإمبراطورية الــرومانية وريــثة الحضارة اليونانية، فهى دائما نقطة اتصال بين عالمين: الغرب

---

(٢) فى إطار الاهتمام بتاريخ الفلسفة فى مصر قدمنا عدة دراسات عن كل من : أحمد لطفى السيد رائد المدرسة الفلسفية الحديثة فى مصر، مجلة القاهرة، العدد ١٠٥ يونية ١٩٩٠ والاهوانى، مجلة القاهرة العدد ١١٤ مارس – يونية ١٩٩١ ، والخطاب الفلسفى عند طه حسين، مجلة فكر، القاهرة، العدد ١٤، وقراءة فى كتابات مى زيادة، مجلة أدب ونقد، العددين ١٧، ١٨، والصوت والصدى دراسة فى الأصول الفلسفية لفلسفة عبد الرحمن بدوى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، وكتابات بدوى السياسية، أدب ونقد العدد ١٠٠، والديكارتية العربية دراسة فى جهود عثمان أمين الفلسفية وغيره من رواد الفكر الفلسفى، القاهرة ١٩٩٠، والأخلاق فى الفكر العربى المعاصر، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨، والاتجاهات الجمالية العربية لدى كل من : فؤاد زكريا، وزكريا إبراهيم، ومجاهد عبد المنعم مجاهد، وأميرة مطر فى كتابنا دراسات جمالية، وتحقيقات أبو ريدة الفلسفية، مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة العدد ٣٥، وتوفيق الطويل ودراسات القيم فى العربية، المجلد التذكارى، الذى أصدرته كلية الآداب عن د. توفيق الطويل، ١٩٩٥ وهى كلها محاولات تمهيدية لدراسة تاريخ الفلسفة فى مصر.

اليونـــانى الرومانى قديما والأوروبى حديثا والشرق العربى الإسلامى وهى البداية لعصـــر الترجمة ونقل التراث اليونانى إلى الحضارة الإسلامية، الذى انتقل بتعبير ماكس مايرهوف من الإسكندرية إلى بغداد.

وكمـــا ارتـــبطت نشـــأة الجامعة المصرية بالنهضة الوطنية وتاريخ مصر الحديـــث إبان الحرب العالمية الأولى فى العشرينات، نشأت جامعة الإسكندرية مع الحـــرب العالميـــة الـــثانية فى الأربعينات. وكما نستطيع أن نتبين حلقات اتصال التاريخ المصرى الحديث، نستطيع بالمثل أن نرى الاتصال بين الجامعتين، فكلاهما نشـــأ فى عصر نهضة، ومد وطنى، وكلاهما استعان بالأساتذة المصريين والأساتذة الأوروبيين، وكما تلمع أسماء: طه حسين، وأحمد أمين، ومصطفى عبد الرازق فى جامعـــة القاهـــرة تتلألأ فى جامعة الإسكندرية أسماء: العبادى، وأبو العلا عفيفى، ويوســـف كـــرم. بل أننا نجد كثير من الأساتذة العاملين بجامعة القاهرة ،هم أنفسهم القـــائمين بالـــتدريس فى جامعـــة الإسكندرية أمثال: عفيفى، وعلي سامى النشار، وتوفيق الطويل وغيرهم.

ولا يـــنفى تشـــابه ظروف النشأة والتكوين خصوصية كل منهما، فإذا كانت جامعـــة القاهرة هى القلب الذى يرتبط اكثر بالتراث العربى الإسلامى، فإن جامعة الإســـكندرية هى الجـــناح الذى يرفرف شرقا وغربا، والعينين اللتين ترنوان بعيدا عـــبر ساحلها المتوسطى الذى يجسد فكرة طه حسين فى ثقافة المتوسط، بل وفكرة مؤسســـها الاسكندر الأكبر فى ثقافة عالمية(٣) وهو ما ينادى به حاليا تحت مسمى منتدى المتوسط(٤).

ويمكـــن رصد الاتجاهات التالية التى تميز رواد المدرسة الأوائل فى العصر الحديـــث – بصرف النظر عن الترتيب الزمنى – حتى تتضح لنا المنابع التى نهل منها الأستاذ السكندرى ومصادر تكوينه العلمى.

---

(٣) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر طبعة الأعمال الكاملة، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٨٢.

(٤) وهو بديل حضارى، علينا التفكير فيه مقابل ما يطرح حاليا تحت مسمى الثقافة الشرق أوسطية التى تهدف إلى تكبيل دور مصر الحضارى الريادى.

١- هناك أولا اتجاه الباحث والمفكر الأشعرى الذى اهتم "بنشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام" على سامى النشار، تلميذ مدرسة مصطفى عبد الرازق، وامتدادها فى الإسكندرية(٥) الذى تجل جهده فى إبراز أصالة الفلسفة الإسلامية، وعلم الكلام ومـــناهج البحث عند المسلمين(٦)، والذي نستطيع تتبع نفس المسار الذى سلكه - مع الاختلاف فى موضوعات الاهتمام ومناهج البحث - لدى كل من: أحمد محمـــود صبحى(٧)، وجلال شرف ، ومحمد عبد القادر، من أساتذة الإسكندرية المعاصرين.

٢- وفى مقـــابل هـــذا الاتجاه نجد أبو العلا عفيفى الرائد الأول لدراسات التصوف الإســـلامى، وصاحب أول جهد منظم فى الكتابة المنطقية فى العربية، وممثل المدرســـة الإنجـــليزية الحســـية، وتلميذ نيكلسون وزميله، والذى قدم دراسات عديـــدة فى الفلسفة العامة، وهو بالإضافة لأبحاثه فى التصوف يحمل بين ثنايا نفسه روحا صوفية أصيلة كما يخبرنا تلميذه موضوع الدراسة الحالية، والذى يساعدنا بدوره فى بيان ملامح التمايز بين الرائدين السابقين النشار وعفيفى(٨).

---

(٥) راجع الكتاب التذكارى عن الدكتور على سامى النشار إشراف د. أحمد صبحى بعنوان "المشكاة"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية. وانظر دراسة الدكتور محمد عبد القادر: الأصالة الإسلامية فى كتابات علي سامى النشار فى مؤتمر الإسكندرية الفلسفى يوليو ١٩٩٤.

(٦) راجع مؤلفات على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، دار المعارف، القاهرة فى ثلاثة أجزاء ومناهج البحث عند مفكرى الإسلام، دار المعارف، القاهرة، وله من التحقيقات الأعمال التالية : صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام للسيوطى، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين لفخر الدين الرازى، والسياسة الشرعية لابن تيمية، الشامل فى أصول الدين للجوينى، منشأة المعارف ١٩٦٨ (بالاشتراك) سلوة الاحزان لابن الجوزى منشأة المعارف ١٩٦٨ الافحام لأفئدة الباطنية الطغام ليحى بن حمزة العلوى ١٩٧٠، عقائد السلف، منشأة المعارف ١٩٧١، بالإضافة لعدد من المؤلفات..

(٧) تستحق جهود الدكتور أحمد محمود صبحى فى مجال علم الكلام الإسلامى دراسة خاصة، وقد أشرنا إلى جهوده الأخلاقية فى كتاب الأخلاق فى الفكر العربى المعاصر، دار قباء للنشر، القاهرة ١٩٩٨.

(٨) يتناول د. أبو ريان جهود أستاذه فى دراسته " أبو العلا عفيفي: علم من أعلام مدرسة الإسكندرية الفلسفية المعاصرة " مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، العدد العشرون ١٩٦٦، باعتباره الرائد الثانى بعد يوسف كرم، ويشبهه من حيث المنهج بأفلوطين الذى لم تكن فلسفته سوى أسلوب وطريقة للتطهر ولتحقيق الكشف والمعاينة الروحية. ويميز بين مدرستين فى

٣- ويمـــثل يوسف كرم أستاذ الأساتذة، والرائد الأول لمدرسة الإسكندرية الحديثة اتجاهـــا ميـــتافيزيقيا يميل أكثر إلى ربط الفلسفة بالعقيدة ويدعو إلى التوماوية الجديـــدة، وهـــو يقـــدم لـــنا أعماله من خلالها، وهو يحتاج رغم كل الجهود المخلصــــة الـــتى بحثت دوره وجهده إلى مزيد من البحث[٩] خاصة وأنه ترك بصـــمات واضحة لدى أساتذة يبدو ظاهريًا اختلافهم عن توجهه امثال : مراد وهبة وحبيب الشارونى.

٤- ويقدم نجيب بلدى اتجاها يغلب عليه الاهتمام بالميتافيزيقا فى الفلسفة المعاصرة كما ظهرت فى تيارات الفلسفة الفرنسية ، والذي يقابل عثمان أمين فى جامعة القاهـــرة[١٠] وان كنا نجد لدى صاحب الجوانية امتدادا واقعيا فى أستاذنا يحيى هويـــدى حيث أن كل منهما يهتم بدور الوعى وأثره، ورواد الوعى، ودورهم فى نهضة الشعوب فإننا نجد امتدادا لبلدى فى كل من زكريا إبراهيم، وحبيب الشارونى من جهة اهتمامهم بتيارات الفكر الفرنسى المعاصر.

٥- ويزداد التنوع ثراء وخصباً برواد المنطق وتاريخ وفلسفة العلم بدءا من الأستاذ الأول خـــريج أول دفعـــة من الجامعة المصرية محمد ثابت الفندى ومرورا.

الفلسفة الإسلامية : الأولى مدرسة مصطفى عبد الرازق وتلاميذه، والثانية أبو العلا عفيفى ومدرسته، تتبنى الأولى موقف خصوصية الفلسفة الإسلامية ضد ادعاءات المستشرقين، والثانية تتبنى مقولة امتزاج الثقافات وتفاعلها، وان الفلسفة الإسلامية تراثا عالميا يخضع لعوامل التأثير والتأثر وتعتبر حلقة من حلقات الفكر الإنسانى ولا ترفض آراء المستشرقين الذين لهم فضل العناية بها والكشف عنها. المصدر المذكور ص ٨.

(٩) هناك جهود متعددة فى بحث دور يوسف كرم نشير منها إلى ما كتبه نصيف نصار فى "طريق استقلالنا الفلسفى"، دار الطليعة بيروت. ومحمد وقيدى فى كتابه "حوار فلسفى" يوسف كرم : ميتافيزيقا ارسطية معاصرة، ص ٣٩ - ٨٨، دار طوبقال، الدار البيضاء ١٩٨٥، وأنور مغيث: "يوسف كرم والأصول الإسلامية للتوماوية الجديدة"، دراسات شرقية، باريس، العدد الرابع، ١٩٨٩، ومراد وهبه: يوسف كرم "الفيلسوف العقلى المعتدل": مقالات فلسفية وسياسية، الأنجلو المصرية، القاهرة، والكتاب التذكارى الذى أصدره المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، تحت عنوان "يوسف كرم مفكرا عربيا ومؤرخا للفلسفة" ١٩٨٦.

(١٠) راجع ما كتبه حبيب الشارونى، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ومقدمة العمل الذى أصدره تلاميذه فى المغرب والذى يجمع محاضراته فى تاريخ الفلسفة، وكذلك الفصل الذى خصصناه له فى : الديكارتية فى الفكر العربى المعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٠. وبحثا د. فتح الله. خليف "نجيب بلدى"، ود. حبيب الشارونى "أفلوطين عند نجيب بلدى "فى أعمال مؤتمر الإسكندرية الفلسفى يوليو ١٩٩٤.

بعفيفى أيضا، وعبد الحميد صبرة الذى يشغل حاليا منصب أستاذ كرسى تاريخ العلم بهارفارد خلفا لسارتون[١١]، ويتصل نفس الاتجاه أيضا مع الاختلاف فى المناهج والتوجهات لدى الأستاذ محمود فهمى زيدان، وماهر عبد القادر[١٢]، ومحمد قاسم بدراساتهم المتعددة فى المنطق وفلسفة العلوم.

٦- ويأتى أبو ريان ليكون نتاجا لهذه الاتجاهات المتعددة المتنوعة، ويمثل نسيجا خاصا فهو أولا يختلف عن هؤلاء الأساتذة الرواد فى أنه من أوائل خريجى جامعة الإسكندرية الحديثة[١٣] أخذ عن عفيفى تخصصه فى التصوف، وإن لم يأخذ نزعته الحسية، وأخذ عن النشار اهتماماته الإسلامية الاشعرية، وإن كان لم يهتم مثله بعلم الكلام، ومناهج البحث رغم إنتاجه فيهما[١٤]. وكان مثل بلدى أكثر ميلا للتيارات الفلسفية الفرنسية والاهتمام بتاريخ الفلسفة، وان اختلفا فى تبنى أولهما العقلانية الواقعية والآخر ما أطلق عليه "الوجدانية الواقعية".

---

(١١) بالإضافة لمؤلفاته وترجماته فى فلسفة العلم حقق الدكتور عبد الحميد صبرة عدد من الدراسات العلمية العربية تدور معظمها حول الحسن بن الهيثم وهى: شكوك ابن الهيثم على بطليموس، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧١ ، ومقالة ابن الهيثم فى الأثر الظاهر على وجه القمر، مجلة تاريخ العلوم العربية المجلد الأول ، العدد الأول، آيار ١٩٧٧ ص ٥ - ١٩، ومقالة ابن الهيثم فى كيفية الارصاد، بنفس المجلة، المجلد الثانى العدد الأول آيار ١٩٧٨ ص ٣ - ٣٧، ومقالته فى ظل شكوك حركة الالتفاف ، المجلد الثالث ص ١٨٣ - ٢١٦ بالإضافة لجهده الضخم والجدير بالدراسة والذى يتمثل فى تحقيقه لكتاب ابن الهيثم المناظر (المقالات الثلاثة الأولى، فى الأبصار على الاستقامة حققها وراجعها على الترجمة اللاتينية وصدرت بالكويت عام ١٩٨٣. بالإضافة لتحقيقه أصول الهندسة من كتاب ابن سينا الشفاء القاهرة ١٩٧٧.

(١٢) أهتم ماهر عبد القادر بالإضافة لتخصصه فى فلسفة العلوم ومناهج البحث بتاريخ العلم العربى دراسة، وتحقيقا، وقدم عدة أعمال فى هذا المجال مثل: التراث الإسلامى: العلوم الأساسية ١٩٨٥، و حنين بن اسحق والعصر الذهبى للترجمة؛ بيروت ١٩٨٧، "دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى" ١٩٩١ ، وترجم كتاب حيدر بامات : إسهام المسلمين فى الحضارة الإنسانية الإسكندرية ١٩٨٣ ، وحقق بالاشتراك مع د. يوسف زيدان كتاب شرح فصول ابقاط لابن النفيس ، دار العلوم العربية ، بيروت ١٩٨٨.

(١٣) انظر بحث د. علي حنفى: أبو ريان الرائد المعاصر لمدرسة الإسكندرية الفلسفية، المؤتمر الثالث للجمعية الفلسفية المصرية، جامعة الأزهر، القاهرة ١٩٩١.

(١٤) كتب أبو ريان عن علم الكلام فى كتابه "تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام" الجزء الأول، كما كتب فى مناهج البحث فى كتابه العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية، ودراسات فى المنهج العلمى لدى الاطباء العربى، بالاشتراك فى The Alexandria Medical journal 1972 vol XVIII No 1

اخـذ عـن كرم الاهتمام بالتأريخ للفلسفة، واخذ عن الفندى الاهتمام بابن سينا والفلســفة الإســلامية، وان نادى "بمدرسة إسلامية أفلاطونية" مقابل المشائية الارسطية فى الإسلام، وظل هذا حدسه الأول والأساسى والمستمر، كما شغل أيضا بتاريخ العلم والمناهج وكتب فيهما.

لقـد كـان أبو ريان بعبارة محددة نتاجا أصيلا لمدرسة الإسكندرية، جامعا لمكوناتهـا العلمية، مكونا خلال الخمسين سنة الماضية اتجاها يصح أن نطلق عليه الاتجـاه الوجـدانى – والتسمية التى حددها أبو ريان لنفسه هى الواقعية الوجدانية الـتى قدمها لنا عام ١٩٦٦[١٥] – وهى تسمية سوف نعود إليها لاحقا – والتى أراد بهـا تمييـز توجهـه الفلسـفى. إلا أننا نميل إلى بحث هذا التوجه ليس من خلال الصـفحات القليـلة التى رسم فيها الخطوط العريضة لهذا الاتجاه – والتى ربما لا توضحه فى تفاصيله بشكل واف، وان كانت تشير إليه وترمز له – ولكن من خلال مجمـل إنـتاجه العـلمى. الذى يغلب عليه الاتجاه الميتافيزيقى المثالى الروحانى الصوفى الوجدانى.

ومبدئياً يمكن أن نقسم مؤلفات أبو ريان إلى عدة أقسام هى :

(أ) فى تـاريخ الفلسـفة[١٦]: تشـمل مؤلفاته فى تاريخ الفكر الفلسفى عند اليونان (جزءين)، وكتب بالاشتراك عن هراقليطس وأثره فى الفكر الفلسفى المعاصر

---

(١٥) راجع أبو ريان : الفلسفة ومباحثها، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٢٣٤ – ٢٣٧.

(١٦) كتب أبو ريان فى تاريخ الفلسفة عدة كتب هى :
تاريخ الفكر الفلسفى، الفلسفة اليونانية، الجزء الأول من طاليس إلى افلاطون، ونشر أول مرة بتقديم للدكتور ثابت الفندى عام ١٩٦١، والأخيرة ١٩٩٣، إنه ثمرة [illegible] من غرس الأستاذ الكبير، وإليه يقدم هذا الإنتاج المتواضع. ويضيف فى الطبعة [illegible] الثانية ما يتعلق بالأصول الشرقية للفلسفة، وفى مقدمة الطبعة الثالثة إضافات [illegible] فيما يتعلق بافلاطون، وإشارة إلى صدور الطبعة الثانية من الجزء الثانى عن ارسطو، وينوه بإنه يعد الطبعة الأولى للجزء الثالث عن الفلسفة الهلسينية (أفلو[illegible] ومدرسة الإسكندرية الفلسفية)، وحتى الآن لم يصدر، وان كان وجه تلميذه [illegible]ربى عباس لدراسة هذا الموضوع وصدر فى كتاب، والرابع عن علم الكلام والتصوف الإسلامى ، والخامس عن الفلسفة الحديثة ، ويشير فى الهامش إلى عدم صدور الجزء الثالث ويحدد لنا موضوعه عن الفلسفة المسيحية. والكتاب الثانى عن الفلسفة اليونانية أيضا ويدور حول أرسطو والمدارس المتأخرة، وان كان العمل الذى بين أيدينا يتناول أرسطو فقط وقد صدرت الطبعة الأولى منه والثانية عن دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧

وتـــاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام جزءين، الأول: فى المقدمات، علم الكلام،

يهديه إلى العالم الجليل الباحث الممتاز صاحب " ابن رشد" محمود قاسم. وقد تناول فيه أرسطو ومدرسته والمؤلفات الارسطية، وأصول المشكلة الفلسفية فى الطبعة الأولى، ثم أضاف فى الطبعة الثانية : المنطق الأرسطى، والفلسفة الطبيعية عند أرسطو، والنفس، ثم ما بعد الطبيعة أو الفلسفة الأولى، ثم الأخلاق، والسياسة ثم تناول فى الفصل العاشر والأخير، المدرسة الارسطية مع ملحقا بقسم من المقالة الخامسة (مقاله الدال) من الميتافيزيقا وبه كثير من المصطلحات الفلسفية ولكنه يعود فى الطبعات اللاحقة عن أرسطو والمدارس المتأخرة، فيعرض لمدرسة الإسكندرية الفلسفية . ويصدر فى إطار هذه السلسلة تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام، فى طبعته الأولى عام ١٩٧٠ فى قسمين: الأول ويتضمن المقدمات العامة، الفرق الإسلامية وعلم الكلام التصوف الإسلامى، والثانى يتضمن الفلسفة، ويحاول فى هذا الكتاب إعطاء فكرة عامة تكون منه حلقة من سلسلة تاريخ الفكر الفلسفى . ويشير إلى أنه سوف يصدر مؤلفا عن الفلسفة المسيحية فى القرون الوسطى يشرع الآن فى الإعداد لإخراجه. والطبعة الثانية ١٩٧٣ اجرى فيها تعديلات على الكتاب فى جملته. بحيث شمل الجزء الأول : المقدمات وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية. والثانى الحياة الروحية فى الإسلام وشخصيات الصوفية واخرج الطبعة الرابعة من الجزء الأول ١٩٨٣. وفيها دراسة موسعه لحركة التشيع، والفرق الشيعية المعتدلة والغالية متناولا مواقفهم بالنقد والمقارنة من منطلق مذهب أهل السنة والجماعة باعتباره يمثل الإسلام الحق.

ويدور الجزء الثانى على التصوف الإسلامى الذى ظهر فى طبعته الثانية باسم؛ الحركة الصوفية فى الإسلام يتضمن دراسات لمعظم مفاهيم التصوف ومصطلحاته منذ نشأته الأولى إلى تمام احتواء الطرق الصوفية لمعالمه كلها. وقد أضاف عدة ملاحق بثلاثة موضوعات وهى: "الولاية الروحية كمعامل للتنمية الشاملة" ومناقشة التفسير المسيحى للتصوف عند ماسينون، بالنسبة للحلاج خاصة" و "الاشراقية مدرسة افلاطونية إسلامية، مناقشة قضية المصدر الإيرانى". وهذا العمل رغم أنه يمثل الجزء الثانى من كتابه عن تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام، أى ضمن تاريخه للفلسفة إلا أنه ينتمى أكثر إلى ميدان بحثه الأساسى وهو الفلسفة الاشراقية أو التيار الصوفى الروحانى الوجدانى.

ويدور الكتاب الخامس والأخير من تاريخ الفكر الفلسفى حول الفلسفة الحديثة الذى ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٦٩ عن دار الكتب الجامعية. ويقدمه لنا باعتباره الجزء السادس فقد صدر الجزآن الأول والثانى عن الفلسفة اليونانية، أما الجزء الثالث فهو فى سبيله إلى الظهور، وسيليه الجزء الرابع عن الفلسفة المسيحية، هذا وقد صدر الجزء الخامس عن الفلسفة الإسلامية شخصياتها ومذاهبها. معنى هذا ان كتابه عن الفلسفة اليونانية فى العصر الهلنسيتى عن أفلوطين ومدرسة الاسكندرية، وكتاب الفلسفة المسيحية لم يصدرا حتى الآن ، ويتكون الكتاب من أربعة أبواب، أو مراحل: الأولى التيارات الفلسفية فى عصر النهضة فى خمس فصول: فى النشأة، بيكون، هوبز، ديكارت، مالبرانس، والثانى أو المرحلة الثانية المواقف الفلسفية فى عصر الإنارة: جون لوك ، دافيد هيوم ، والثالث المرحلة الثالثة المثالية كانط يعرض فيه لنقد العقل النظرى الخالص والعملى الخالص ، والباب الرابع الفلسفة المعاصرة عند هنرى برجسون وينهى به بحثه وكأنه هو كل الفلسفة المعاصرة وبه يتوج أبو ريان كتابه ويتوقف عنده.

والتصـــوف، الــذى افــرد لـــه فيمـــا بعد دراسة مستقلة، والثانى فى الفلسفة الإسلامية. ويقدم فى هذا العمل عدة أفكار هامة ينبغى أن تشير إليها، وهى أن المسلمين أنتجوا فلسفة خاصة بهم جديرة بأن تسمى فلسفة إسلامية اسهم فيها مفكـــروا الإســـلام مـــن الشعوب الإسلامية المختلفة من عرب وفرس وروم وسريان، ويفيض فى الحديث عن أثر الفلسفة اليونانية فى إعاقة انطلاق الفكر الفلســفى عــند المســلمين ، وهى نقطـــة يؤكد عليها فى عديد من دراساته . ونســتطيع أن نـــرد هـــذا الموقف إلى مصطفى عبد الرازق، ثم يتناول التيار الافلاطـــونى فى الفلسفة الإسلامية موضحا أهمية إعادة البحث فى هذا التراث على أساس منهج جديدا(١٧) مؤكدا على ضرورة بحث مذهب ابن سينا الحقيقى مشـــيرا إلى انتقال نظرية المثل الافلاطونية إلى المدرسة الاشراقية، موضحا رأى كوربـــان ناقدا له. ثم عارضا الحياة العقلية عند العرب قبل وبعد ظهور الإســـلام ثـــم فى العصر العباسى وأخيرا يتعرض لحركة الترجمة والنقل. ثم يخصص الجزء الثانى من هذا القسم للفرق الإسلامية وعلم الكلام. ويدور هذا القســـم الثانى من الكتاب حول الفلسفة الإسلامية من الفصل الحادى عشر إلى الثامن عشر. متناولاً الكندى، والفارابى، وابن سينا، ثم الغزالى، وأبو البركات الـــبغدادى، والســـهروردى الاشـــراقى، وبعد ذلك يتناول الحركة الفلسفية فى المغـــرب الإسلامى: ابن مسرة، ابن حزم، ابن باجة، وابن طفيل، وفى الفصل الأخيـــر ابـــن رشـــد، ويلاحظ على العمل خاصة فى القسم الخاص بالفلسفة الاهـــتمام بالفلسفة المشرقية أكثر من المغربية، والتيار الافلاطونى الإسلامى الاشـــراقى أكثر من الاتجاة المشائى. ثم يكتب تاريخ الفلسفة الحديثة وهو يتفق فى اهتمامه بتاريخ الفلسفة مع يوسف كرم الرائد الأول ويختلف عنه فى تأريخ كرم للفلسفة فى العصور الوسطى الغربية وإغفاله لتاريخ الفلسفة فى الإسلام، واهـــتمام أبـــو ريـــان بالفلســـفة الإسلامية وإغفاله لتاريخ الفلسفة الغربية فى العصور الوسطى وهو يشير إليه فى مقدمة كتابه عن الفلسفة اليونانية ويهدى

---

(١٧) ويقدم لنا دراسة مستفيضة عن هذا المنهج فى الكتاب التذكارى عن النشار "المشكاة" دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥ ، ص ٩ – ٢٧.

عملـــه إليـــه ليكـــون تعبيرا صادقا مخلصا عن ولاء التلميذ لأستاذه وتمجيد ا لمفكر ممتاز.

(ب) مؤلفات فى الفلسفة العامة وعلومها المختلفة. وتشمل "الفلسفة ومباحثها" فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة[١٨] "وأسس المنطق الصورى ومشكلاته" ويلاحظ قـلة اهـتمامه بـالاخلاق، رغـم بحـثه عـن "أصول الفكر الأخلاقى عند الماوردى[١٩].

(ج) الاهـتمام بقضايا الإسلام المعاصر، أو ما يسمى علم الكلام الجديد، حيث كتب فى: المدخـل الإســلامى للايديولوجيــة العربية، والإسلام فى مواجهة الفكر الغــربى، ضد الفكر الاشتراكى فقط (الإسلام والماركسية). النظم الاشتراكية مـــع دراســة مقارنة للاشتراكية العربية. العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية المعرفة، والإسلام السياسى فى الميزان.[٢٠]

---

(١٨) وفى الفلسفة العامة وعلومها يقدم لنا ثلاثة كتب هى: "الفلسفة ومباحثها" والثانى "فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة" الذى صدر منه حتى الآن عشر طبعات فى سبع عشرة فصلا أهمها تلك الإضافة التى يقدمها لنا فى الفصل الأخير عن جماليات الفن الإسلامى. ويلاحظ أن الفصل الأخير قد إضافه أبو ريان كملحق فى كتابه الإسلام فى مواجهة تيارات الفكر الغربى المعاصر ص ٢٤٣ - ٢٧٢ وهو فى الأصل بحث القى فى ندوة أحمد فكرى فى آداب الإسكندرية ١٦ - ٢١ اكتوب ١٩٧٦.

(١٩) ورغم اهتمام أبو ريان بإحدى علوم القيم وهو الجمال إلا أن علم الأخلاق لم يحظى بنفس الاهتمام حيث لا نجد له كتابات أخلاقية سوى بحثين أحدهما نشره بالعدد الأول من مجلة الحكمة الليبية، أكتوبر ١٩٧٦ ص ١٥ - ٣١ عن "أصول الفكر الأخلاقى عند الماوردى". وكان فى الأصل بحث مقدم إلى مؤتمر الماوردى بجامعة عين شمس، والبحث الثانى عن "الإنسان والمشكلة الخلقية: أزمة الضمير" نشر بالعدد ١٣ مجلة الشاطئ، أبريل، ١٩٨٩، ص ٤١ - ٦٥. ولم يعرض فى كتابه الفلسفة ومباحثها ١٩٦٦ للقسم الثالث مبحث الاكسيولوجيا للقيم أو الأخلاق ، يقول : أما المبحث الثالث من مباحث الفلسفة وهو مبحث الاكسيولوجيا أو القيم فإننا نترك التعرض له لبحث آخر مستقل ولا سيما فيما يتعلق بدراسة الفلسفة الأخلاقية: الفلسفة ومباحثها ص ٢٣٤ حاشية رقم (١) ولم يصدر هذا الجزء حتى الآن.

(٢٠) يقدم لنا تلميذ أبو ريان على حنفى تصورا لعلم الكلام - هو فى الحقيقة رأى أبو ريان - وذلك فى بحثه عن أستاذه يقول فيه: إذا أردنا أن تستمر مدرسة محمد عبدة فى دعم مشكلات علم الكلام بصورة معاصرة فأننا سنلاحظ ازدهارا كبيرا فى التنظير العقلى عند المسلمين وذلك بتوجيه الأبحاث الكلامية التى نرى قسمًا كبيرا منها يتجه إلى الدفاع عن الإسلام فى مواجهة المذاهب المعاصرة (ص ٣) ويكرر ذلك فى الصفحة التالية مؤكدا أن مواجهة

(د) التصــوف الــذى قــدم فيه اعمق ابحاثه: "أصول الفلسفة الاشراقية عند شهاب الديــن الســهروردى"[٢١] و "الحركة الصوفية فى الإسلام"، "الإشراقية مدرسة افلاطونيــة إســلامية : مناقشــة المصــدر الإيــرانى، "الحيــاة الروحية فى الإسلام[٢٢]، دراسة موقف ماسينون من التصوف الإسلامى"[٢٣].. "عبد الحليم محمــود الصــوفى المعاصر"[٢٤]، "إصلاح الطرق الصوفية"[٢٥]، "لمحات من الحياة الروحية فى الإسكندرية"[٢٦].

المسلمين للتيارات الالحادية المعاصرة التى تتسلح بثقافة الغرب وحضارته إنما تقتضى منا الدعوة العامة إلى إحياء أسلوب علم الكلام العقلى للرد على هؤلاء المخالفين (ص ٤). وقد قدم لنا أبو ريان كما يتبين من ثبت مؤلفاته عدة الأعمال فى هذا الاتجاه.

(٢١) يعد هذا العمل الكتاب الأساسى لأبو ريان، بمثابة بيان للتوجه الأساسى أو الحدس الأول والمستمر الذى يشكل معظم اهتماماته والذى ينطلق منه فى معظم كتبه الأخرى، والذى يتمثل فى الاهتمام بالفلسفة الاشراقية أولاً، وهو موضوع دراسته للماجستير، والمدرسة الفلسفية الأفلاطونية فى الإسلام ونتناول فى بحثنا الحالى لهذين الاهتمامين اللذين لا ينفصلان كما يتضح من محتوياته وقد صدرت الطبعة الأولى له عام ١٩٥٨ ثم عدة طبعات تالية أخرى. ويقدم لنا فى الطبعة الثانية نظريته فيما أطلق عليه "الخريطة الروحية لانتشار الإسلام". التى سوف نتناولها أيضاً بالعرض والتحليل.

والعمل يتكون من قسمين الأول السهروردى عصره، ومدرسته، مصادر مذهبه، فى فصلين، الأول حياته وآثاره الفلسفية ومصادره، والثانى المدرسة الاشراقية دراسة نقدية للمصادر والأصول. ويدور القسم الثانى على (ميتافيزيقا الاشراق فى خمس فصول وخاتمة تتناول على التوالى: الله نور الأنوار، البناء النورانى، فى المادة، فى النفس وخلاصها، النبوة والأحلام، والتناسخ والنتائج العامة (الافلاطونية الإسلامية: دراسة نقدية) فى الخاتمة.

(٢٢) د. أبو ريان: الحياة الروحية فى الإسلام. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الثانية ١٩٩٤.

(٢٣) د. أبو ريان : إصلاح الطرق الصوفية. مجلة الشاطئ، العدد الحادى عشر، ١٩٨٨ ، ص ٨ – ١٤، و ٦٤ – ٩٥.

(٢٤) د. أبو ريان : لمحات من الحياة الروحية فى الإسكندرية. مجلة الشاطئ، العدد التاسع، مايو ١٩٨٧ ص ٨٣ – ٨٥، ويتناول فيه حركة التصوف فى الإسكندرية، والشاذلى ومدرسته التى اتخذت طابعا سنيا فى التصوف.

(٢٥) د. أبو ريان : مناقشة التفسير المسيحى للتصوف الإسلامى عند لويس ماسينيون وبالنسبة للحلاج خاصة، بحث القى فى ندوة الملتقى الإسلامى بالجزائر، أغسطس ١٩٨٧، ونشر فى كتابه الحركة الصوفية فى الإسلام، ص ٣٣٥ – ٣٦١.

(٢٦) د. أبو ريان: الدكتور عبد الحليم محمود الصوفى المعاصر، بحث القى فى ندوة خاصة بذكرى عبد الحليم محمود بالإسكندرية.

(هـــ) تحقيقــات فى التصـــوف وتاريخ العلم : وهى موضوع بحثنا بالتفصيل فى القسم الثالث، ومن هذه التحقيقات تحقيق كتاب السهروردى "هياكل النور"[٢٧]، و"اللمحات في الحقائق"[٢٨]. وتحقيق بعض رسائل ابن سينا[٢٩]، وتحقيق كتاب حـــنين بـــن اســـحق" المســـائل فى الطـــب"[٣٠] وكتاب الشهرزورى" تواريخ الحكماء[٣١].

(و) مجموعة أبحاث ودراسات متفرقة، ودراسات مشتركة مثل :

"تصـــنيف العـــلوم بيـــن الفارابى وابن خلدون"[٣٢]، "بين اللغة والمنطق عند الفـــارابى"[٣٣] مصـــطفى عبد الرازق ومنهجه فى الفلسفة الإسلامية". بين "الغزالى وديكارت"[٣٤] كما شارك فى كتاب "القيم الثقافية العربية "الذى أصدرته اليونيسكو، وفى "المعجم الفلسفى"[٣٥]، وموسوعة الإسلام والعلماء المسلمين"[٣٦] بالإضافة لعدد مـــن الدراسات فى مجلة الشاطئ التى يرأس مجلس إدارتها وهى: "المشكلة العربية الإســـرائيلية"[٣٧] الـــبعد الحضارى والفلسفى فى قصص نجيب محفوظ"[٣٨] كليات

---

(٢٧) انظر تحقيق د. أبو ريان فى مقدمة كتاب السهروردى: هياكل النور المطبعة التجارية الكبرى ١٩٥٧.

(٢٨) مقدمة تحقيق د. أبو ريان كتاب السهروردى: اللمحات فى الحقائق، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٨.

(٢٩) أبو ريان وآخرون: قراءات فى الفلسفة الإسلامية، تحقيق رسائل ابن سينا دار المعارف، بمصر.

(٣٠) أبو ريان وآخرون : مقدمة تحقيق كتاب حنين بن اسحق، المسائل فى الطب، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية . د.ت.

(٣١) د. أبو ريان : تحقيق ، ودراسة كتاب السهروردى "نزهة الأرواح وروضة الأفراح" (تواريخ الحكماء)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٦٩٩٣.

(٣٢) د. أبو ريان : تصنيف العلوم بين الفارابى وابن خلدون مجلة عالم الفكر الكويتية، العدد الأول، المجلد التاسع، ١٩٧٨.

(٣٣) بحث ألقى بمؤتمر الفارابى ببغداد ١٩٧٥.

(٣٤) مجلة الشرق الجديد.

(٣٥) لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، القاهرة.

(٣٦) دار المستقبل للنشر.

(٣٧) مجلة الشاطئ، العدد الثامن، مايو – يونية ١٩٨٦، ص ٨ – ١٢.

(٣٨) مجلة الشاطئ، العدد الثانى عشر، ديسمبر ١٩٨٨، ص ٧٢ – ٩٢.

التكنولوجيا فى مواجهة سافرة مع كليات الهندسة"[٣٩]، "الإنسان والمشكلة الخلقية"[٤٠].

ثانياً : الموقف الفلسفى والإسهامات النظرية

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نشير فى هذه العجالة إلى مجمل أعمال أبو ريان وإلى جهوده المختلفة فى تاريخ الفلسفة، وشتى مجالاتها وعلومها، لكننا نكتفى بإيراد بعض اللمحات المميزة التى تبرز فى ثنايا أعماله والتى توضح لنا نظرته الخاصة فى قضايا الفلسفة العامة وتاريخها، والفلسفة الإسلامية، وتفسيراته التى ينفرد بها عن غيره من مؤرخين. ونعرض فى هذا القسم لموضوعات ثلاثة: موقفه الفلسفى الذى أطلق عليه "الواقعية الوجدانية"، ثم تصوره لخريطة الإسلام الروحية وأخيرا دفاعه عن نظرته للفلسفة الإسلامية.

١- الواقعية الوجدانية :

يعرض لنا أبو ريان فى نهاية القسم الثانى من كتابه "الفلسفة ومباحثها" - عوضا عن تناول مبحث القيم أو الاكسيولوجيا، وقبل الملحق الذى يقدمه لنا فى القسم الثالث ، وهو ترجمته للمدخل إلى الميتافيزيقا لبرجسون - يعرض لنا بإيجاز الخطوط العريضة "للواقعية الوجدانية" مرجئا بسطها لكتاب آخر يقول: "اعرض هنا هذا الموقف الفلسفى تحت أنظار المشتغلين بالفلسفة ليكون موضع مناقشة فلسفية جادة، ونحن فى الطريق إلى صياغة مذهبية جديدة".[٤١] هذا الموقف الفلسفى الذى طرحه أبو ريان منذ أكثر من ربع قرن واعدا ببسط تفاصيله، وتقديم صياغة مذهبية جديدة وإذا كان هذا الوعد لم يتحقق حتى الآن، إلا أن خطوطه الرئيسية يمكن توضيحها من خلال العرض الموجز الذى قدمه على الوجه التالى:

---

(٣٩) مجلة الشاطئ، العدد الثالث عشر، إبريل ١٩٨٩ ص ٣ - ٦.

(٤٠) المرجع السابق، ص ٤١ - ٦٥.

(٤١) د. أبو ريان : الفلسفة ومباحثها، ص ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، لم يقدم لنا أبو ريان ما وعد به، وإن كنا نستطيع أن نتتبع نظرته هذه فى تبنى الاتجاه الاشراقى الروحانى فى الفلسفة الإسلامية والدفاع عنه مقابل الاتجاهات المشائية.

أنه بينما يتعامل العلم مع مدركات ذات بعد زماني مطلق مستقل عن زماننا الإنسـانى، فـإن المعـرفة الفلسفية منساقه إلى أن تمنح موضوعات الإدراك بعداً إنسـانياً، أى قيمـة إنسانية. ومصدر هذه القيمة هو الوجدان، الذي يحيل التجارب العـلمية المـنطقية بالتدريج من وضعها المطلق إلى وضعها الإنسانى، وهو الذى يخـلع عـليها بعدا شعوريا واجتماعيا. "والانا" هى المظهر الواضح للوجدان الذى يربط بين النسق المنطقي للمعرفة والنسق الإنسانى لها وهو الذى يحملنا إلى باطن الأشـياء فنـنفذ خلال زمانها المطلق ونحيله إلى زمان معاصر يحمل لونا شعوريا وبعدا اجتماعيا.(٤٢)

وبيـنما العـلم يـبحث فى حقيقـة الشيئية ويخضعها لمقاييسه، فإن صاحب الواقعيـة الوجدانيـة يكـتفى بإن تتجاوب شيئية الموجودات مع حدسه، وتدخل فى نطاق العقل الوجدانى لا المنطقى، وكلما كشف العلم عن واقعة فى التجربة فإنها لا تلـبث أن تنضـاف إلى تجربـتى وتحمل قيمتى الإنسانية إذا أمكن أن تخضع لهذه القيمة من خلال تأنيس الواقع to humanize The facts ويرى أنه بدون وجود هذا الـتقييم الإنسـانى للوقائع والظواهر الخارجية فأنا لا أستطيع أن ابرر حريتى فى نطاق الحتمية التى يفرضها العلم. فأنا حر لأننى أمارس فعلاً إنسانيا أى أضع قيمة إنسانية للوقائع التى تحيط بى.

وإذا كـانت الـنزعة المـنطقية والنزعة الآلية تكفيان لتفسير الوقائع فإنهما تقصران عن تفسير العقل الإنسانى والحياة الإنسانية وهى المستوى الذى يجب أن تـرتفع إليـه كل فلسفة جادة فلا تكون ذيلا للعلم، إذ أنها ستصبح مرشد ا للإنسان وهاديـا له فى حياته الفردية والاجتماعية، وذلك عن طريق تدخل الوجدان لتبرير الواقـع وتقويمـه(٤٣) ثم يضيف موضحا: "إن كل حصيلة للإدراك العلمى المنطقى تتضـاف بالتدريج إلى المعرفة الإنسانية إنما تتحول إلى مقولات وجدانية ذات قيمة إنسـانية من حيث أن الهدف الأخير للعلم هو تحقيق رفاهية البشر، ولن يتيسر ذلك

(٤٢) المرجع السابق ص ٢٣٥.
(٤٣) المرجع السابق ص ٢٣٧

إلا إذا مــنح الإنســان تــبريرا إنسانيا وقيمة إنسانية للوقائع التى يكشف عنها العلم واعتبارها مجرد أدوات ووسائل لتحقيق سعادة البشر. (٤٤)

قدم أبو ريان هذا البيان الموجز عام ١٩٦٦فى كتابه "الفلسفة ومباحثها" وهو يشير من خلال أفكاره ومصطلحاته ومكانه فى الكتاب قبل المدخل إلى الميتافيزيقا إلى مصدره البرجسونى، رغم عدم ذكر اسم الفيلسوف صراحة، ولا ذكر مصطلح الحــدس لب فلسفة برجسون، وهو بيان مجمل لا يكفى للإعلان عن موقف فلسفى مــتكامل، إلا إذا كانت هناك صياغة مذهبية كاملة متوفرة بين أيدينا عنه، والسؤال الآن هــل يمــثل هذا الموقف "الواقعية الوجدانية "موقف أبو ريان الفلسفى الحالى، ولمــاذا لم يقدم لنا تفصيل له، وتوضيح متكامل لموقفه تجاه قضايا الفلسفة المختلفة مــنذ ١٩٦٦، وفى اعتقادى أن هذا الموقف لم يتغير وان اتخذ أشكال متعددة . لقد كانت الإشارة السابقة هى الصورة الأولى له قدمها لنا بعد عودته، من فرنسا بعشر سنوات، ويمثل بلورة أولى لأبحاثه فى السنوات التالية.

وفى رأى أن هــذا الموقــف لا ينفصل عن التوجه العام لبحث أبو ريان فى الماجستير عن: "ميتافيزيقا الإشراق عند شهاب الدين السهروردى" وفى الدكتوراة، عــن: "المدرســة الافلاطونيــة فى الإسلام"، وان اتخذ أشكال أخرى ذات صبغة إســلامية كمــا يظهر فى الاهتمام بالفلسفة الإشراقية دراسة وبحثاً وتحقيقا، بحيث نســتطيع ان نــرى فى منهج الكشف الذوقى الذى يميز الاشراقية مقابل الاستدلال المــنطقى المشائى بديلا للتعارض بين المعرفة العلمية والوجدانية التى حدثنا عنها، بل أن الأقرب إلى الصواب أن نقول أنه أساس لها. ويتبلور هذا الموقف ثانية فيما اطلق عليه "الخريطة الروحية لانتشار الإسلام" والتى قدمها لنا فى مقدمته للطبعة الثانية لأصول الفلسفة الاشراقية. (٤٥)

خريطة الإسلام الروحية :

نحــن هنا بازاء مبدأ جديد يفسر انتشار الإسلام فى المشرق والمغرب على أســاس الدراســة المكانية لسير الدعوة . ففى رأى أبو ريان لا يمكن تجاهل تأثير

---

(٤٤) المرجع السابق ص ٢٣٦.
(٤٥) د. أبو ريان : أصول الفلسفة الاشراقية، ص ٥ وما بعدها.

البيئة على العقائد والأفكار، وفى هذا مايذكرنا بموقف هيبوليت تين، ومن قبله ابن خـلدون، وان كـان المصـدر المباشر لهذا المبدأ هو ماسينيون فى محاولته رسم خريطة روحية للمسيحية. والجديد الذى قدمه الشيخ السكندرى هو تطبيق هذا المبدأ – وان كـان ذلـك بشكل سريع – على الإسلام، يقول: "أنه بينما نجد الأفكار تأخذ طـريقها كلما اتجهنا غربا إلى البساطة والسلاسة فى إطار من الظاهرية والتلقائية الفطـرية ، نجـد الطريق إلى المشرق الإسلامى وقد تعقدت فيه الأفكار وتشعبت وتداخـلت معها اراء غريبة واستخدمت فى تناولها أساليب التأويل والاستبطان بكل ما تحمله فى طياتها من أهداف ظاهرة ومستترة"[٤٦].

وعـلى هـذا يلاحـظ مفكـرنا اخـتفاء الجانب الفلسفى العميق من مذاهب الاشراقيين المغاربة أمثال : عبد السلام بن مشيش، وابى الحسن الشاذلى وتلامذته، وأنهـم قـد ربطوا موقفهم نهائيا بتصوف أهل السنة والجماعة ، بينما نجد الموقف الاشـراقى فى المشرق يتعقد فيلتاث بدعاوى الباطنية ويقبل نظرية الامامة العالمية، ووحدة الوجود ، وكذلك وحدة الاديان.[٤٧]

أنـنا هـنا بـازاء نظرة تقابل ما يطلق عليه بعض الباحثين المحدثين من المغاربـة "القطعيـة الابسـتمولوجية بيـن مشـرق عـرفانى غنوصى ومغرب عقلانى"[٤٨]. فأبو ريان بناء على مبدأه السابق يقدم لنا خريطة ابستمولوجية مغايرة قائمـة على البساطة ؛ والتعقيد فالفكر يتسم بالبساطة كلما اتجهنا غربا ويتكون من عناصـر أكـثر تركيبا وعمقا كلما تجهنا شرقا، وان كانت هذه الخريطة فى النهاية تؤكد على سيادة التصوف الاشراقى فى المشرق.

يقـول: "إذا رسـمنا خطـا وهميا يتجه من الشمال إلى الجنوب ليفصل بين المشرق الإسلامى والمغرب الإسلامى فإن هذا الخط – الذى يمثل منطقة الحياد – سيقع فى مصر والشام مع ميل إلى المغرب فى مصر وميل إلى المشرق فى الشام، وتطـبيقا لهـذا الوصـف نجـد العقيدة الإسلامية تكتسى بطابع البساطة فى شمال

(٤٦) المصدر السابق ص ٦.
(٤٧) الموضع نفسه.
(٤٨) هذا هو موقف محمد عابد الجابرى فى مؤلفاته المختلفة خاصة "تكوين العقل العربى"، و "بنية العقل العربى" ويتابعه فيه آخرون.

إفــريقية، ويتمــثل هــذا فى اعتــناق أهــل هــذه الــبلاد لمذهب مالك فى الفقه، وتمســكهمبموقف أهل السنة والجماعة، وعزوفهم عن التيارات الباطنية، ومذاهب التشيع" [٤٩].

وما يقدمه أبو ريان يحتاج إلى كثير من النقاش فهو يثير من التساؤلات أكثر ممــا يفســر، أو أكــثر ممــا يقدم لنا من حلول ،ذلك لأن هناك عديد من المذاهب الفلســفية غيــر قاصرة فقط على الفقه، والتصوف، والكلام بل إن التصوف أو ما يســميه الفلســفة الاشــراقية ميدان تطبيقه هذا المبدأ نجد له لدى ابن مسرة، وابن عــربى مذاهب بها من العمق، والتعقيد، والاختلاف عن البساطة، والظاهرية أكثر ممــا لدى المشارقة. ويمكن القول أن كثير من مذاهب الفلاسفة والمحدثين والفقهاء والصوفية المشارقة وجدت ترحيبا من المغاربة كما وجدت تفسيرا لها قد لا يختلف كــثيرا عن الصورة التى قدمها به أصحابها ، ونشير هنا على وجه الخصوص إلى الجهود المنطقية لدى المغاربة ، فالمدرسة المنطقية فى المغرب والأندلس كما يؤكد د. محمد مهران مدرسة مشرقية تماماً[٥٠].

إلا أن مــا نــريد التأكيد عليه هنا هو ان اراء أبو ريان فى سيادة الاشراقية بالمشــرق، وان كــان لا يختلف فى هذا عن دعاوى القطيعة الابستمولوجية - إن صــدقت - كــثيراً، فإنه يخضع تفسير الفكر الإسلامى عامة والصوفى خاصة بما يعارضــه وهــو النزعة التاريخية القائلة بالتأثير والتأثر بين مذاهب سابقة وأخرى لاحقــه من جهة وتأثير البيئة على المفكر من جهة ثانية ، ويمكننا أن نشير إلى أن هــذا التفسير الجغرافى الذى يربط بين الاشراق والشرق يغفل عن حقيقة التشابهات التى قد توجد بين بيئات ثقافية متقاربة أو مختلفة يمكن أن تفسرها الفلسفة المقارنة. كمــا لايهتم بإيجاد سبل ومناهج أخرى كالفينومنيولوجيا ، مثلا والتى تستطيع رؤية الفكــر بعيــد ا عن النزعة التاريخية الجغرافية التى تربط تاريخ الأفكار فى النهاية بمصدر واحد هو الغرب الأوروبى.[٥١]

---

(٤٩) الموضع نفسه.

(٥٠) راجع د. محمد مهران رشوان : دور المغرب والأندلس فى تطور المنطق العربى. مؤتمر " الأندلس ملتقى عوالم ثلاثة " إشبيلية نوفمبر ١٩٩١.

(٥١) هنرى كوربان والفلسفة المقارنة ترجمة د. أحمد عبد الحليم عطية، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد الثالث، يوليو ١٩٩٤ ص ٢٦١ - ٣٠٩.

إلا أن أبو ريان فيما يقدمه لنا بعنوان "الخريطة الروحية للإسلام" [٥٢] يعمق لـــنا نظـــرته للفَلسفة الإسلامية، ويقدم لنا تفسيرا جديدا يحاول به تقديم رؤية شاملة تســـتكمل حلقات هذه الفلسفة، أو تضئ جوانب "التراث العقلى الإسلامى" بالتركيز عـــلى الفلســـفة الاشراقية، فإن كان اهتمام معظم الباحثين السابقين اتجه إلى دراسة الفرع المشائى للفلسفة الإسلامية فإن جهد الرجل أنصب على تناول "جانب مشرق عميـــق الجـــذور فى الفكـــر الإسلامى هو الفرع الأفلاطونى الذى يمثله الفيلسوف الاشراقى شهاب الدين السهروردى ومدرسته[٥٣] إن هذا الاتجاه الذى اختطه لنفسه وتابعـــه فيـــه بعـــض تلاميذه[٥٤] يؤكد أن ظهور مدرسة الاشراق قد دحض الزعم بـــتوقف الإبداع الفلسفى فى المشرق عند ابن سينا بعد هجوم الغزالى العنيف على الفلاسفة[٥٥].

وتأتى دراسات أبو ريان المختلفة: "أصول الفلسفة الاشراقية "وتحقيقاته لكتب الســـهروردى: "هيـــاكل الـــنور"، و "الـــلمحات فى الحقائق" وأبحاثه: "الاتجاهات الافلاطونيـــة عـــند ابـــن ســـينا"، "ونقـــد إلى البركات البغدادى لفلسفة ابن سينا"، "والاتجاهـــات الافلاطونيـــة عـــند ابـــن سينا"[٥٦] لتوضح خصوبة وثراء الموقف الاشـــراقى، وتؤكد على وجود تيار كبير هو المدرسة الأفلاطونية الاسلامية يفوق تأثير التيار المشائى.

---

(٥٢) لقد ساد استخدام مصطلح الخريطة الروحية للإسلام، حيث نجد يوسف زيدان يستخدمه فى كتابه "الطريق الصوفى" دار الجيل بيروت، ١٩٩١، ص ١٧٣، وما بعدها.

(٥٣) د. أبو ريان : أصول الفلسفة الإشراقية ص ١١.

(٥٤) نشير بالتحديد إلى دراسة كل من: عادل بدر عن السهررودى، وترجمته عن الفارسية لرسائل مؤنس العشاق، ولغة موران، وصغير سيمورغ. ود. ناجى التكريتى ودراسته الفلسفة الأخلاقية الافلاطونية عند مفكرى الإسلام. دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٢.

(٥٥) أبوريان : أصول الفلسفة الإشراقية ص ١١ – ١٢.

(٥٦) يعيد أبو ريان النظر إلى فلسفة ابن سينا فى عدة دراسات أولها أصول الفلسفة الاشراقية صفحات ٧١ – ٧٤ ، ١١٤ – ١١٩ ، ٣٢٢ – ٢٣٤ . وكذلك "الاشراقية مدرسة أفلاطونية اسلامية"، الكتاب التذكارى للسهروردى " ابن سينا ومثل افلاطون " ص ٤٧ – ٤٩ ، وفى "مناهج الفلسفة الإسلامية وضرورة إعادة النظر فيها"، مجلة الشاطئ العدد ١٢ ص ٧٧ – ٨٢ ويشير لنا إلى دراسته بالفرنسية عن " الاتجاهات الافلاطونية " عند ابن سينا".

٣- إعادة النظر فى تاريخ الفلسفة الإسلامية :

وعلى أساس هذا الحدس الأول والفكرة الأساسية التى أظنها شغلت أبو ريان منذ دراساته الأول بتأثير استاذيه أبو العلا عفيفى ولويس ماسينيون[٥٧] يقدم لنا تصورا لتاريخ الفلسفة الإسلامية يحمل فى داخله إعادة نظر إلى كثير من الأحكام المعروفة الشائعة عنها، وعن صلتها بفلسفة مدرسة الإسكندرية يمكن أن نستمده من دراسته فى "مناهج الفلسفة الإسلامية وضرورة إعادة النظر فيها" وبحثه عن "مدرسة الإسكندرية واغتراب الفكر الفلسفى فى الإسلام" وهذه الأحكام يمكن تحديدها على الوجه التالى:

(أ) ان الفلاسفة المسلمين وصلوا إلى درجة من التطور العقلى تتضح فى تطور علم الكلام، وعلم أصول الفقه مكنتهم من التعامل مع مشكلات الفلسفة اليونانية السابقة عليهم، وأن هذه الأخيرة عطلت هذا التطور" وكانت سببا في تعويق مسيرة العقل الإسلامى، وقصوره عن ابتداع مذاهب جديدة فى مجال الفلسفة"[٥٨].

---

(٥٧) بحث أبو ريان تحت اشراف وبتوجيه من أبو العلا عفيفى رسالته للماجستير "ميتافيزيقا الاشراق عند شهاب الدين السهروردى" ١٩٤٥، ويشيد بفضله فى توجيهه إلى هذه الناحية فى الفكر الإسلامى، أصول الفلسفة الإشراقية، ص ١١، ويؤكد على ذلك فى مقدمة تحقيق "اللمحات فى الحقائق"، ص ١، راجع أيضاً ما كتبه فى مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية العدد العشرون، ص ١ ــ ٢٠. ويمكن أن نشير أيضا إلى تأثير ماسينيون عليه منذ التقى به عام ١٩٤٥ وطول فترة بحثه للماجستير، ثم بحثه للدكتوراه تحت إشرافه بباريس بعد ذلك. فقد أرشده إلى نواح جديرة بالبحث، ويسر له الاطلاع على بعض المؤلفات النادرة حول الموضوع، كما يؤكد فى مقدمته لتحقيق اللمحات فى الحقائق، وحاول أن يقدم لنا خريطة روحية للفكر الإسلامى كما فعل ماسينيون بالنسبة للمسيحية، ثم يعود ليجاوزه فى "مناقشة التفسير المسيحى للتصوف الإسلامى عند لويس ماسينيون بالنسبة للحلاج خاصة فى كتابه "الحركة الصوفية فى الإسلام ص ٣٣٥ ــ ٣٥٠ ويكتب على لسان تلميذه د. على عبد المعطى فى الدفاع عن ماسينيون ردا على مقاله لصاحب هذه الدراسة بمجلة الدوحة القطرية، العدد ١١٠.

(٥٨) وهذا هو موقف الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه التمهيد انظر، أبو ريان فى مناهج الفلسفة الإسلامية ص ٧٣. ومدرسة "الإسكندرية واغتراب الفكر الفلسفى فى الإسلام " ص ٤٣.

(ب) ضـــرورة مراجعة الصورة التى انتقل بها التراث اليونانى إلى المسلمين عبر مدرســة الإســكندرية التى عكف شراحها على تدوين الفكر، اليونانى بأسلوب قصصـــى ملئ بالأساطير مع نسبة الآراء إلى غير أصحابها[٥٩] بالإضافة إلى نــزعة التــليفيق الــتى ظهرت فى تاسوعات أفلوطين، ولم يكتف المترجمون الســريان بــنقل هــذا التراث الملفق، بل أضافوا اراءهم الشخصية ، وبعض التعــليق فاتســعت دائــرة الغموض الامر الذى كان له أثره في الجام الفكر الإسلامى إلى حين.

(جـ) لقــد عــرف المســلمين بأنهم أصحاب المشائية الإسلامية ولكن الإطار العام لمذهــبهم فى الميــتافيزيقا مستمدا من الأفلاطونية المحدثة، وينطبق هذا على الكــندى، والفــارابى، وابن سينا (فى مذهبه الرسمى)، وان مذهب الإسلاميين كان يحمل عناصر أفلاطونية كامنة ولاسيما فى نظريتهم عن العقول العشرة، وهى عناصـــر الإعــداد المــثالية عند أفلاطون، وعلى هذا فإن التيار الأول للفلسفة الإسلامية هو الذى يشكل مرحلة الأفلاطونية الكامنة أو المستترة[٦٠].

(د) ايراد أراء ابن سينا التى تدل دلالة صريحة على انه لم يكن مشائياً وإنما كان مؤرخــا للفلسفة المشائية فى كتبه الكبرى مثل "الشفاء والنجاة"، والكشف عن مذهــبه الحقيــقى فى الأنماط الأخيرة من "الاشارات والتنبهات"، وفى رسائلة وتعليقاته على اثولوجيا وهى ذات اتجاه أفلاطونى واضح المعالم اعتمادا على شـــرح "مـــلا أوليائى"[٦١] للمثل الرياضة فى "الشفاء" وإنها هى مثل أفلاطون

---

(٥٩) يقدم أبو ريان رأيا سلبيا فى دور مدرسة الإسكندرية وتأثيرها السيئ على نشأة الفلسفة الإسلامية فى: مناهج الفلسفة الإسلامية ص ٧٣ - ٧٤ مدرسة الإسكندرية ص ٤٣ وما بعدها.

(٦٠) يرى أبو ريان أن نظرية العقول الكونية عند الإسلاميين جاءت مخالفة تمام ا للتصور الإسلامى، ولهذا جاءت النزعات النقدية لدى كثير من المفكرين المسلمين لتعبر عن تهافت تلك التصورات التى تشكلت منها نظرية العقول "مدرسة الإسكندرية وتهافت الفكر الفلسفى فى الإسلام ص ٤٤.

(٦١) د. أبو ريان : فى مناهج الفلسفة الإسلامية ص ٨٠.

وإعداده المثالية وعلى إشارة ابن سبعين على أن أكثر تصانيف ابن سينا مأخوذة من أفلاطون(٦٢).

(هـ) الكشف عن دور ابى البركات البغدادى فى إظهار الأفلاطونية المستترة فى مذهب ابن سينا "الرسمى" ونقده النظرية الصدور المشائية ، وبيان كونه ارهاصا للمذهب الأفلاطونى الإسلامى المكتمل، فقد مهد الطريق أمام الأفلاطونية الاشراقية كما ظهرت لدى السهروردى.

(و) تاكيد الصلة القوية بين الإشراق ومذهب أفلاطون على أساس ان " عالم المثل المعلقة أو عالم البرزخ عند الصوفية وهو عالم أوسط يقع بين عالم المعقولات والمحسوسات وهو يقابل المتوسطات الرياضية عند افلاطون" (٦٣) وان المذهب عند كل من افلاطون والاشراقيين قد اصبح دستورا للممارسة الروحية وسلوك التطهر تحقيقا للوصول إلى قمة العالم المعقول" (٦٤) وعلى هذا فأننا نرى أن مذهب الاشراقيين لا يختلف فى بنيته الأساسية عن مذهب افلاطون بشقيه المدون والشفوى.

٤- الموقف من المستشرقين :

وقد دل أبو ريان على هذه النظرة من خلال نقده لبعض الآراء التى حاولت تفسير الفلسفة الإسلامية الإشراقية بردها إلى مصدر إيرانى كما لدى هنرى كوربان أو تفسير بعض مظاهر التصوف الإسلامى بردها إلى مصدر مسيحى كما لدى ماسينون وسوف نعرض أولاً، لموقفه من هنرى كوربان، وذلك فى محاولته (مناقشة المصدر الإيرانى) فى دراسته "الإشراقية مدرسة افلاطونية إسلامية"(٦٥).

---

(٦٢) المصدر السابق ص ٨٢.

(٦٣) المصدر السابق ص ٨٩.

(٦٤) الموضع نفسه.

(٦٥) د. أبو ريان : الاشراقية مدرسة افلاطونية إسلامية، مناقشة قضية المصدر الإيرانى، الكتاب التذكارى شيخ الاشراق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤ ص ٣٧ – ٦١.

أ- هنرى كوربان والتفسير الفارسى لفلسفة الأشراق :[٦٦]

يواجه أبو ريان تفسير هنرى كوربان الذى اهتم بدوره بدراسة السهروردى وتحقيق أعماله معظم سنين حياته العلمية ، وربما ظن انه من حقه فقط بحث كل ما يتعلق بحكيم الاشراق . ومن هنا كان حرص أبو ريان علي بيان اختلاف واستقلالية بحثه للسهروردى عن جهود المستشرق الفرنسى ؛ الذى نشر الجزء الأول من نصوص السهروردى - كما يقول - بعد بدئنا هذه البحث بفترة طويلة"[٦٧].

ويشير أبو ريان – دون تصريح، وان كانت الإشارة واضحة الدلالة على كوربان – إلى أهمية التعاون فى البحث العلمى مقابل ما اسماه " ادعاء ملكية موضوعات البحث بين بعض المؤلفين العرب وفريق المستشرقين[٦٨]. ولا يتسع المجال هنا لمناقشة أسبقية أيا من الباحثين: الأستاذ العربى الذى بدأ بحثه عام ١٩٤٥ أو المستشرق الفرنسى الذى نشر العديد من نصوص السهروردى وكتب عنه منذ الثلاثينات والذى قام بتحقيق أعمال الفيلسوف عن الفارسية على العكس من أبو ريان الذى حقق "هياكل النور" و "اللمحات فى الحقائق "عن مخطوطاتهما العربية، مما جعل المستشرق الفرنسى يهتم بما اسماه الإسلام الإيرانى، ويصدر سلسلة لدراسات إيرانية يحاول فيها "إرجاع أعمال الحكيم الاشراقى إلى أصلها الفارسى السابق على الإسلام، بينما يسعى أبو ريان إلى ربط جهود السهروردى بالتراث العقلى الإسلامى، خاصة ما اسماه المدرسة الأفلاطونية فى الإسلام. وان كان هناك اختلاف آخر علينا ان نشير إليه، وهو أسلوب بحث كوربان الذى يستند إلى الفينوميـنولوجيا عند أبو ريان الذى يعتمد المنهج التاريخى. وهذا يستدعى منا

---

(٦٦) نشير إلى عدد من الدراسات التى تناولت جهود كوربان منها دراسة د. سيد حسين نصر: البروفيسور هنرى كوربان، حياته، وآثاره وأفكاره "مجلة المنتدى، المركز الثقافى الإيرانى، القاهرة، العدد الثانى ١٩٧٨ ص ٢٢ – ٦١، د. بدوى موسوعة المستشرقين بيروت ١٩٨٤ ، ص ٣٣٥ – ٣٣٩ ، كاسبر: الغنوصى الباطنى فى الشرق الإسلامى هنرى كوربان ، فى د. محمد عبد الشرقاوى: الاتجاهات الحديثة فى التصوف الإسلامى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٩٣ ص ١٩٤ – ٢١٦.

(٦٧) د. محمد على أبو ريان : أصول الفلسفة الإشراقية، المقدمة.

(٦٨) د. أبو ريان : أصول الفلسفة الاشراقية ص ١٣.

بيـــان موقــف الأستاذ العربى من مزاعم المستشرق الفرنسى الذى نحا فى نشرته النقدية للنصوص منحى خاصا تفرد به، وهو رد المذهب الإشراقى فى جملته إلى المصـــدر الإيرانى محاولاً التدليل على صحة رأيه بالتزامه الحدود الضيقة للمنهج الفيــلولوجى، الــذى يــبدو واضحا فى تعليقاته على النصوص وفى مقدمة نشرته النقدية(٦٩).

والحقيقــة أن أبو ريان لا يرد فقط على كوربان بل أيضا على السهروردى نفســه، ويعيــد بناء مذهبه ليؤكد على افلاطونيته مما يدعم رأيه الاساسى السالف الإشارة إليه بوجود مدرسة افلاطونية اسلامية تشكل التراث العقلى الإسلامى. لذلك يحــدد لنا منهجه بإنه لن يكتفى بالدراسة الفيلولوية التى لا تفى بالغرض فى سبيل الوصـــول إلى نتائج إيجابية، وكذلك فإن الدراسة التاريخية التطورية للاصول قد لا تكفى وحدها لتحقيق هذه الغاية ومن هنا لابد من استخدام المنهجين معا(٧٠).

فيحـــدد أولا الاصــــول الافلاطونيـــة حيـــث اننا نجد اعترافا صريحا عند صـــاحب المدرســـة وتلامذتهـــا على السواء بأن أفلاطون هو امامهم بل هو امام الكل"(٧١) إذ انهم يقولون فى عبارة صريحة نحن الأفلاطونيين اتباع أفلاطون. ومن هـــنا فهـــو يتتبع المسار التاريخى التطورى للأصول، وذلك لفهم كثير من المواقف فى الفكـــر الإســـلامى(٧٢) فيوضح افلاطونية نظرية الصدور ، ويعرض لابن سينا ومثل افلاطون، حيث تداخلت الافلاطونية مع المشائية الاسلامية، وجاء موقف ابى البركات البغدادى النقدى لكى يخلص الافلاطونية المستترة فى الفكر الإسلامى من الشوائب المشائية مؤذنا بعودة افلاطون خلال المدرسة الاشراقية. ويرى ان التفاعل المتصل بين المشائية والاشراقية يقدح فى دعوى الأصل الإيرانى الذى يشجب فى

(٦٩) د. أبو ريان: الاشراقية مدرسة افلاطونية إسلامية ص ٣٩. ودراستنا عن "كوربان بين الفلسفة والاستشراق" فى مجلة الجمعية الفلسفية المصرية العدد الثالث يوليو ١٩٩٤ ص ٢٦١ وما بعدها ود. بدوى : موسوعة المستشرقين دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٣٣٥ – ٣٣٩.

(٧٠) د. أبو ريان المصدر السابق ص ٤٣.

(٧١) الموضع نفسه.

(٧٢) المصدر نفسه ص ٤٤.

هــذه الحالة صفة الاستمرار والتطور المنطقى لتيار الفكر الإسلامى[٧٣]، ويبين أن البناء النورانى الاشراقى استمرار للتيار الافلاطونى. ويخرج من ذلك بأننا إذا قلبنا وجوه النظر فى قضية الاصل الإيرانى لمذاهب الاشراق، واجهتنا أدلة متعددة على عــدم صحة هذا المأخذ الذى انساق إليها السهروردى مدفوعا بحركة الشعوبية .. بــل صــدق بها بعض الدراسيين لمذهب الاشراق وهو يقصد كما هو واضح من السياق كوربان الفرنسى الباحث المتعمق فى السهروردى[٧٤].

ب- ماسينيون والتفسير المسيحى لتصوف الحلاج :

وكمــا انتصــر للفلسفة الإسلامية ومصدرها الافلاطونى ضد كوربان القائل بالاصــل الإيــرانى فى تفسيره لاشراقية السهروردى ، فقد اتخذ الموقف نفسه من تفسير ماسينيون للتصوف الاسلامى تفسيرا مسيحيا فى كتابه عن الحلاج[٧٥].

يتمســك أبو ريان بالرأى القائل أن التصوف مثله مثل، علم الكلام، وأصول الفقــه، وعلم التفسير كلها نشأت نشأة إسلامية خالصة.. وان التأثير المسيحى مثله كــأى تأثير آخر فارسى، أو هندى، أو يونانى قد أخذ طريقه إلى العلوم الإسلامية بعــد فترة الأصالة الأولى للعقل الإسلامى إبان القرن الأول الهجرى[٧٦] ويبدو أن ماســينيون قــد التزم فى موقفه من التصوف الإسلامى بأنه قام على أسس مسيحية اعــتمادا على التشابه بين الزهد الإسلامى والرهبانية مدعيا أن الحديث المشهور "لا رهــبانية فى الإسلام" ابتدع حوالى آخر القرن الثانى الهجرى، وينفى أبو ريان ذلــك التشــابه المــزعوم بين الرهبانية والزهد موضحا أن الزهاد الأوائل عاشوا حياتهم مثل بقية المسلمين.

ويفســر موقف الحلاج : الذى نشأ فى بيئة تعبق بالتيارات المجوسية، وكان ميــلاده فى مدينة البيضة إحدى مدن مقاطعة فارس بإيران، وان جده كان مجوسيا

(٧٣) المصدر السابق ص ٥١.
(٧٤) المصدر السابق ص ٦١.
(٧٥) Massignon,: La passian de Halloj nouelle edition, Gollimand, paris 1975
(٧٦) د. أبو ريان : "مناقشة التفسير المسيحى للتصوف الإسلامى عند لويس ماسينيون بالنسبة للحلاج خاصة" فى كتاب " الحركة الصوفية فى الإسلام "دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٩٤ ص ٣٣٩.

ومــن ثــم كــان الحــلاج قــريب عهد بالإسلام، وانه كان على اتصال بالحركة الإســماعيلية ، وانـــه فى السنة الذى ظهر فيها أمر الحلاج وانتشر ٢٩٩هـ قامت الدولـــة الفاطميـــة ، وكان يتوقع قيامها(٧٧) ويربط بين الحلاج وأراء إخوان الصفا والإســماعيلية التى على الرغم من إنها ظهرت بعد وفاته الا إنها كانت منتشرة فى حياته(٧٨).

ومما يؤكد انتماء الحلاج للنزعة الشعوبية الفارسية ان التفسير المسيحى عند ماســينيون كــان مؤقتا بالنسبة للحلاج نفسه فقد كان متصوفا متعصبا لفارس مثل السهروردى الذى يرى أن فارس مصدر الحكمة ويذكر فى كتابه "المطارحات" ان منهم – من الحكماء – فتى البيضة (الحلاج فتى البيضاء) ويعرض أبو ريان لادله ماســينيون مــن مــوت الحلاج على الصليب، وانه المهدى، وان نظام الإبدال فى التصــوف الإسلامى يتفق مع ما تقول به المسيحية عن النفوس الملكوتية التى تقوم مقام المسيح في عذابه الفادى(٧٩).

ان الحــلاج كغيره من الصوفية – كما يرى أبو ريان – لا يتم التطهر لديه مــرة واحــدة كمــا يحدث بالنسبة للخلاص المسيحى بل لابد أن يترقى المريد فى تطوره خلال أربعين مقاما صاعدة . ويقدم لنا ناقدنا حقيقة موقف الحلاج الصوفى كمــا يتضـــح فى الديوان والطواسين . ففى الفقرة ١٧ من الديوان نجد موقفا كأنه ينفى فيه الحلول كى يتحقق لديه البقاء بعد فناء الفناء ، يقول فيه:

فـــفى فـــنائى فـــنا فـــنائى	وفى فـــنائى وجـــدت أنـــت
فى محــو اسمى ورسم جسمى	ســـألت عـــنى فقـــلت أنـــت

والبيــتان يشــيران إلى "أنــت"، وليــس هناك حلول، أو اتحاد، بل الله هو الموجــود عــلى الحقيقة ، وهذا موقف إسلامى أصيل فى التصوف، ويستنتج أبو ريـــان ان القــول بالحلول أو الاتحاد الحلاجى ليس موقفا نهائيا بل هو مؤقت فى

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٢٤١ وكان يقول لمريديه : "لقد أن اوان اذنك للدولة الغراء الفاطمية الزهراء المحفوفة باهل الأرض والسماء ليكشف الحق قناعه ويبسط العدل باعه".
(٧٨) المصدر نفسه ص ٢٤١.
(٧٩) المصدر نفسه ص ٢٤٣.

حـــركة الحيـــاة الـــروحية المســـتمرة للحلاج، يرتبط بترقيه التدريخى فى طريق المجـــاهدة الـــروحية[٨٠] وان نظرية الهو هى الغاية الأخيرة فى مذهبه[٨١]. ويأول بعض أشعاره مثل قوله :

عـــلى دين الصليب يكون موتى   ولا الـــبطحا اريـــد ولا المدينة

مـــثل تـــأويل شيخ التصوف السكندرى أبو العباس المرسى، بإن الحلاج تنبأ بموتـــه مصلوبا على طريقة المسيح. وأن إيمان الحلاج بوحدة الأديان ينفى القول بمســـيحيته، ويقدم فى الفقرة الثالثة من بحثه الاتجاه الفارسى الشعوبى عند الحلاج كمـــا يظهر فى الطواسين متستر وراء نظرية النور المحمدى لكى يعرض للثنائية الفارســـية المانوية بين الخير والشر[٨٢] وهكذا نرى أن البحث يؤدى بنا إلى رفض موقـــف ماســـينيون القائل بالتفسير المسيحى لموقف الحلاج، ويبين لنا أن المواقف المتعاقبة فى سيرة الحلاج الصوفية إنما تعبر عن حركة المذهب الصوفى فى ترقيه التدريخى نحو غايته.

ومـــا يهمـــنا من عرض موقف أبو ريان سواء في الرد على كوربان الذى يعارض تفسيراته للسهروردى، أو ماسينيون أستاذه الذى يعارض تفسيره لمسيحية الحـــلاج ليـــس فقط تأكيد افكاره عن خريطة انتشار الإسلام الروحية فقط بل أيضا بيـــان اســـتخدامه الجدل الفلسفى كمنهج من أجل الوصول إلى أدق النتائج العلمية "بمعـــنى أخـــر استخدام المنطق تأكيدا لصدق الحدس الفلسفي، وهذه السمة التى ان شـــئت ان تســـميها الجدل العلمى العنيف – فى كثير من الأحيان – هى مما يميز شباب فكر شيخنا السكندرى :

---

(٨٠) المصدر السابق ص ٤٧.

(٨١) المصدر السابق ص ٤٨.

(٨٢) يقول : "إن الحلاج في الطواسين يعبر عن موقفه الصوفى الأخير الذى تخطى فيه وتجاوز مرحلة الحلول المسيحى والتوحيد الذى وقف عنده الصوفيه الأوائل.. بل أنه هنا فى نهاية المطاف يتوارى في صورة الرافع لراية النور المحمدى، التى تقابل عند المانوية فكرة اله الخير، ثم هو يرفع راية ابليس الذى يمثل اله الشر ، ص ٣٥٥.

ثالثاً : المراجعات النقدية والتحقيقات العلمية

١- المراجعات النقدية :

يخبرنا أبو ريان فى مقدمة تحقيقه لكتاب السهروردى "اللمحات في الحقائق" ١٩٨٨ بانــتهائه من تحقيقه عام ١٩٦٥، وإنجاز بروفات ٨٨ صفحة، وانه فوجئ بنشر الدكتور اميل معلوف للعمل وكان اطروحته للدكتوراه بجامعة لندن، ويرى أن معلوف بذل فيه جهدا كبيراً فى التحقيق والإخراج، إلا أن الكثير من المادة العلمية التى جاء بها مأخوذة من كتابين له هما: "أصول الفلسفة الإشراقية" وتحقيق " هياكل الــنور". وإذا كان معلوف من حقه أن يستفيد من مادة علمية متاحة الا انه – وهذا ما يشهد به أبو ريان نفسه فقد التزم الامانة العلمية واتصف بالموضوعية باشاراته إلى المصادر التى استسقى منها معلوماته.

ومــع هــذا يقدم صاحب السهروردى إلى نشر تحقيقه الذى انجزه من قبل، ليس فقط لاسبقيته فى العمل كما يخبرنا، ولكن لاعتماده أيضا علي مخطوط مكتبه بــلدية الإســكندرية الذى لم يطلع عليه معلوف، وهو أى المخطوط كما يخبرنا أتم المخطوطات واوضحها ، وبالتالى فهو يعد نشرته إضافة علمية جديدة منوها بعزمه عــلى تقديــم دراسة مقارنة توضح الفرق بين التحقيقين، وتبرز الجهد العلمي لكل منهما(٨٣).

ونجد نفس الموقف فى تحقيقه لكتاب الشهرزوى شارح السهروردى " نزهة الأرواح وروضــة الافــراح" المعروف بــ "تواريخ الحكماء". حيث ينتقد ما نشره الأســتاذ محمد بهجه الاثرى، والذى يتميز بتعليقات وافية دقيقة تنم عن سعة اطلاع القــائم بهــا، وعلى الرغم مما بذله الاستاذ الاثرى الا أن هناك بعض الأمور التى تؤخذ عليه منها ما هو أساسى للتحقيق مثل انه لم يعرض للنسخ التى اعتمد عليها، وعــدم وضــع عــناوين جانــبية، وعدم تخريج الآيات، والأحاديث، ومنها بعض التعليقات الغامضة على النص(٨٤).

---

(٨٣) د. أبو ريان مقدمة تحقيق كتاب السهروردى "اللمحات فى الحقائق"، ص ١ ، ٢.

(٨٤) د. أبو ريان مقدمة تحقيق كتاب الشهرزورى: نزهة الأرواح وروضه الأفراح (تواريخ الحكماء)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٣ ص ٤٣ – ٤٤ . لقد اقتصر نشر الأستاذ

وفى الوقــت الــذى نجــا فيه "السيد خورشيد أحمد – ايم أى "بكلية الآداب العــربية، بحيــدر اباد ، والذى حقق "نزهة الارواح" عام ١٩٧٦ من سهام نقد أبو ريــان(٨٥) فقد أصابت هذه السهام الدكتور عبد الكريم أبو شويرب ، محقق تواريخ الحكمــاء الذى نشر تحقيقه واصدرته جمعية الدعوة الإسلامية ، بليبيا عام ١٩٨٨ وذلــك اثــناء قيام أبو ريان بتحقيقه كما يخبرنا بذلك، إلا أن التحقيق لم يكن على المســتوى المطلوب من الناحية الاكاديمية أو الفنية، لذا واصل الاستاذ تحقيقه لان نشــرة أبــو شويرب جاءت غير وافية بالغرض، وبها قدر من الاخطاء يكاد يفوق الاخطــاء الواردة بأية نسخة خطية، ولكى يبرهن على صدق دعواه يعرض طائفة مــن الاخطــاء الواردة بتلك النشرة، بعضها خاص بالالفاظ الواردة بالنص (يبلغ عددهــا اكثر من عدد صفحات الكتاب ، وبعضها خاص بتحقيق الاحاديث النبوية، وبيــان المكــذوب منها ، كما فات المحقق – كما يذكر أبو ريان – استيفاء تحقيق بعــض الآيــات القــرآنية ، بالاضــافة إلى كثير من الفقرات الساقطة من النص المنشور، مع وجود كلمات زائدة لا تستقيم مع الصياغة المفهومه، مع شيوع اخطاء هائــلة فى رســم اســماء الاشخاص والبلدان ، وقيام المحقق دون مبرر بنقل ثبت المؤلفــات الــواردة فى ترجمــتى ابن سينا والسهروردى إلى آخر الكتاب ضمن الفهــارس، وعدم استناده إلى النسخ المتوفرة من هذا المخطوط، هذا عدا الأخطاء النحوية التى كان من الواجب تلافيها(٨٦). أن هذه الانتقادات التى يوجهها أبو ريان

الأثرى على مقدمة الكتاب والفصل الأول كدراسة مهداه إلى الدكتور مدكور فى ٣٤ صفحة ، ومن هنا فهى جزء من عمل غير كامل، وربما كان من الأفضل انتظار صدور العمل ككل لعله يرد على هذه الانتقادات أو نجده فيه كل بيانات التحقيق التى يرى ناقدنا أنها فاتت المحقق المدقق اثرى، فمن الصعب أن نطالب الأثرى فى تناوله لفصل من الكتاب ان يعرض لكل ما يتعلق بتحقيقه.

(٨٥) السيد خورشيد احمد – يم – أى ، محقق نزهة الأرواح وروضة الأفراح، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن ١٩٧٦ فى جزءين، لا ادرى لماذا لم يعرض صاحب التحقيق لجهد السيد خورشيد بالتحليل والنقد والكتاب موجود ومعروف.

(٨٦) د. عبد الكريم أبو شويرب تحقيق : نزهة الارواح وروضة الأفراح، جمعية الدعوة الاسلامية، ليبيا ١٩٨٨، يخصص د. أبو ريان سبع صفحات لنقد المحقق موجها له تسع انتقادات منتهيا إلى أن تلك النشرة غير صالحة لتقديم الكتاب للباحث أو القارئ بصفة عامة. انظر مقدمته للتحقيق ص ٤٤ – ٥٠ .

إلى غيــره مــن المحققين تستدعى منا الوقوف أمام تحقيقاته ومناقشته فيما قدم من مناهج للتحقيق وتطبيقها على الأعمال التى انجزها وهذا هو موضوع القسم الثالث من هذا الفصل.

٢- التحقيقات العلمية :

وتشــمل تحقيقــات أبــو ريان الفلسفية مجالات متعددة هى : تاريخ الطب، مصادر تاريخ العلم العربى، والفلسفة الاشراقية. وتتوزع بين تحقيق رسائل قصيرة كمــا فى كــتابه المشــترك مع د. على سامى النشار "قراءات فى الفلسفة" القاهرة ١٩٦٧ أو مجــلدات مطولــة مــثل "نــزهة الأرواح وروضة الأفراح" المعروف "بــتواريخ الحكمــاء" للشــهرزورى، الإسكندرية ١٩٩٣. ويهمنا هنا تحليل جهوده المختــلفة فى الــتحقيق، وأعمالــه ونسخها المختلفة وطريقته فى التحقيق، وسوف نتــناول ذلــك فى فقرتين تتعلق الأولى بتحقيقاته فى مصادر العلم العربى والثانية تحقيقاته فى الفلسفة الاشراقية.

(أ) مصادر تاريخ العلم العربى :

تشمل هذه الفقرة عملين ، أولهما لأكبر مترجمى الحضارة العربية الإسلامية حــنين بــن اســحق وهــو "المسائل فى الطب" والثانى أهم مصادر تاريخ العلماء والحكمــاء اليونــان والعــرب وهو كتاب الشهرزورى "تواريخ الحكماء" وسوف نعرض لهما على التوالى حسب تاريخ نشرهما.

١- تحقيق كتاب حنين "المسائل فى الطب"

اهــتم أبو ريان بتاريخ العلم والمنهج العلمى، وقدم لنا فى إطار هذا الاهتمام عــدة أبحــاث بالإضــافة إلى تحقيقه هذا الذى قدمه بالاشتراك. فقد تعاون مع د. مرسى محمد عرب أستاذ الطب ود. جلال موسى أستاذ تاريخ العلم ومناهج البحث فى تحقيــق هــذا العمل. مما وفر للتحقيق عدة عوامل ساهمت فى تقديمه بصورة دقيقــة، فهو من جهة جهد جماعى لأساتذة متخصصين فى الفلسفة والطب وتاريخ العــلم العــربى ومــناهج الــبحث وهو من جهة ثانية يتعلق بعمل أهم المترجمين والأطــباء فى الحضــارة العــربية الإسلامية، الذى ساهم بأكبر نصيب فى ترجمة وتقديم الفلسفة والعلوم اليونانية إلى السريانية والعربية.

وقـد جـاء الـتحقيق فى قسمين الأول يتكون من : حنين بن اسحق ترجمة حياتــه (ص٥-٢٧)، ومـنهج الـتحقيق (٢٩-٣١). ويتكون القسم الثانى من ست فقرات: نص الكتاب (١-٣٣٤) ثم مجموعة من الفقرات كان أولى بالمحققين إدراج معظمهـا بالقسم الثانى، مثل : الفقرة الثالثة (وصف النسخ الخطية) وتحليل النص، وهى أهـم الفقرات، ثم فقرتين تاليتين لا توجد فروق جوهرية بينهما هما: قاموس المفـردات، وفهـرس المصـطلحات مـع ثـبت بالمصـادر العربية والأفرنجية وكشافات[٨٧].

ونجد فى بداية القسم الأول ترجمة لحنين انطلاقاً مما أثاره ماكس مايرهوف التى يقول فيها : "أنه لم تكتب ترجمة وافية لحياة حنين بلغة أوربية إذ لا نجد سوى مقالات قصيرة لا تتناسب ومكانة حنين.. وأن التراجم العربية التى بين أيدينا بعيدة تماماً عن أن تفى بالمرام"[٨٨]. وبدلاً من مناقشة زعم ما يرهوف أو تقديم ثبت بهذه المقـالات القصـيرة وبيان نواحى القصور فيها. نجد محاولة لتقديم ترجمة جديدة لحـنين رغـم أن المتوقع بدلاً من ذلك تقديم دراسة لصورة الطب العربى فى هذه الفترة ومكانة حنين فيه، وموقع كتاب "المسائل" بينها أو العلاقة بين الطب والفلسفة عـند حـنين، ودوره فى نشأة وتكوين وتطور المصطلح الطبى عند العرب، وهو عمـل يمـلك أدواتــه المحقق وزملاؤه ويستطيعون تقديمه بصورة دقيقة أكثر من غيرهم وذلك عوضاً عن ترجمة حنين التى أفاض المحقق وزملاؤه فى بيانها.

وما يهمنا هنا هو أن نقف وقفة تحليلية أمام تقنيات التحقيق التى أوردها أبو ريان وزملائه تحت عنوان منهجنا فى التحقيق، وهى تستحق عناية كبيرة ومناقشة وافية انطلاقاً من الملاحظات التالية:

---

(٨٧) د. على سامى النشار ود. محمد على أبو ريان : قراءات فى الفلسفة ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.

(٨٨) د. أبو ريان وأخرين (تحقيق) كتاب حنين بن اسحق : المسائل فى الطب، دار الجامعات المصرية الاسكندرية د.ت، ص٥.

– يقدم لنا المحقق فى الفقرة (ب) من القسم الأول منهج التحقيق بعد ترجمة حنين، وقبل تناول النسخ الخطية المختلفة ووصفها مما لا يسمح لنا بمتابعة ما جاء فى هذه الفقرة فكيف نتعرف على طريقة تعاملهم مع المخطوطات قبل معرفة نسخ هذه الأخيرة.

يرتـبط بذلك عدم الإشارة منذ البداية إلى خصائص النسخ المختلفة وأسلوب النسـخ وطريقـتهم فى الكتابة والصعوبات التى تواجه الباحث فى التعامل مع هذه النسـخ – أكتفى المحقق بالإشارة إلى كيفية إعداد النص "المخطوط" للطباعة وكأن المطلوب فقط هو طبع ونشر العمل، وبالتالى فإن عبارة منهجنا فى التحقيق "لا تفيد إلا فى بيـان كيفيـة كـتابة العناوين وطريقة تقسيم العبارات ووضع الزيادات بين (معقوفـتين) واستخدام نقط الوصل والفصل، والقول بالاستعارة من النسخ الخطية الأخـرى أى كـل مـا يساعد على تحقيق هذا الهدف [٨٩] دون أن نعرف ما هو الهـدف، وما هى النسخ الخطية الأخرى، كما فى قولهم استكملنا نقص النسخة الأم من النسخ الخطية الأخرى؟

كـل تـلك الإشارات تهدف – كما قلنا – إلى كيفية إعداد النص للنشر، ولا تقـدم لنا كيفية التعامل مع تراث حنين الطبى المخطوط وتطوره ومكانة "المسائل" بيـن هـذا التراث، وخصائص أسلوبه، وصحة نسبة العمل له، وكيفية التحقق من نسـبة العمـل إليه خاصة أن نسخة المكتبة البريطانية تحت رقم ٦٦٩٠ حاء فيها "كـتاب اليـاغوجى لجالينوس انتحله حنين بن اسحق، ومات من غير تتمة وأنتحل حبيش تتمته وادعاه لهما، ولذلك هو معنون بمسائل حنين بزيادات حبيش ولم يشعر الأطباء المتأخرون بذلك فسمى لهما[٩٠].

ويتضح جهد المحقق وزملائه فى استقصاء النسخ التى اعتمدوها فى التحقيق والـتى تبلغ عشر نسخ وحددوا لنا كل منها ورقمها ومكانها، أولها مخطوطة كلية طـب قصـر العينى (ط) وهى النسخة الأم، أقدم النسخ رقم (٢٠٩٣٦) وتاريخها

(٨٩) المصدر السابق ص٣.
(٩٠) المصدر السابق ص٢٥.

٥٢٦هـــ، ونسخ بوداليانا اكسفورد لندن (ل) ونسخة جوتا بألمانيا (ج) تحت رقم ٢٠٢٣ بـــتاريخ ٧٤٥هـــ وعددها ٥٥ ورقة وهكذا.. بالإضافة إلى الاستعانة بعدد من الشروح والمختصرات المختلفة مثل : شرح أبى القاسم عبدالرحمن النيسابورى (ت ٤٦٠هـــ) ومنه ثلاث مخطوطات. وشرح ابن النفيس (ت ٦٨٧هـــ) برلين رقم ١٠٤٠ وغيرها.

ويقـــدم لـــنا المحققون وصفاً دقيقاً لهذا النسخ مع نسخ النص نفسه موضحين الاخـــتلافات بينهما "فقد ظهر بالبحث أن هناك فورقاً بين النسخ المخطوطة تشتمل جملاً بأسرها فى بعض المواضع بحيث يختلف الأسلوب فى فقرة بأكملها عنها فى الفقـــرة المقابـــلة [٩١]. لهـــا ويلاحظ فى النسخة (ط) وجود نقص بعض المواضع واضطراب فى مواضع أخرى وكذلك تقديم وتأخير مما يسبب اضطراب الفهم"[٩٢]. ويعطونا أمثلة على ذلك بإن ما جاء فى بداية ص ٣٧ كان ينبغى وروده ص١١١ مـــن نفـــس المخطوط[٩٣]. "ويلاحظ وجود حواشى كثيرة على النسخة (ل) يعددها لـــنا"[٩٤]. وهناك مقارنة طولية لبعض المخطوطات لتحديد الاتفاق والتطابق وكذلك الاختلاف خاصة بين كل من المخطوط (ف) مع المخطوط (ط)[٩٥].

هذا التناول يبين لنا أن تحقيق "المسائل فى الطب" يمثل جهد هام للدكتور أبو ريـــان وزملائـــه فى إحياء تراث أهم مترجمى الحضارة العربية الإسلامية ويمثل اهـــتماماً بتاريخ العلم (الطب) وجهود العلماء ويكتمل ذلك بتحقيق أبو ريان لكتاب الشـــهرزورى "تواريخ الحكماء" الذى يعد أول إنتاج علمى للمركز القومى لتحقيق التراث بالإسكندرية والذى يشرف عليه منذ إنشائه محققنا الكبير.

٤- تحقيق "تواريخ الحكماء" للشهرزورى :

يتـــناول أبـــو ريان فى مقدمة هذا التحقيق الضخم عدد من الموضوعات فى ثلاثة فقرات طويلة :

(٩١) المصدر نفسه ص ٣٤٥.
(٩٢) المصدر نفسه ص ٣٤٥.
(٩٣) المصدر نفسه ص ٣٤٥.
(٩٤) المصدر نفسه صفحات : ٣٤٧-٣٤٨-٣٤٩-٣٥٠-٣٥١-٣٥٢-٣٥٣.
(٩٥) المصدر نفسه ص ٣٤٥.

أولاً : المؤلــف وسيرته حيث يعرض لاسمه وحياته موضحاً عدم عناية المؤرخين بالمؤلف وأسباب ذلك مع الإشارة إلى أشهر الأعلام الملقبين بالشهرزورى ثــم يعــرض لعصره موضحاً ومحللاً الأحوال السياسية والاجتماعية من جانب والثقافة من جانب آخر، ثم يحلل مؤلفات الشهرزورى وسمات تراثه الفكرى.

ويخصـــص الفقــرة ثانيــاً لوصف الكتاب حيث يتناول على التوالى: القيمة العلمية والتاريخية لنزهة الأرواح.. ويقدم عرض تحليلى لمضمونه ثم يحدد أسلوب المؤلــف وسمات تفكيره كما تبدو فى الكتاب ويشير فى نهاية هذه الفقرة للطبعات السابقة للنص[٩٦].

وما يهمنا فى الحقيقة هو الفقرة ثالثاً التى يعرض فيها "منهج التحقيق" والتى تتناول: قواعد التحقيق، ونسخ المخطوط، والقائمون بتحقيق النص.

ويذكر لنا أبو ريان أهم قواعد التحقيق التى التزم بها فريق العمل كالآتى:

١- ضبط المعانى والأسماء الخاصة بالأعلام والأماكن والمذاهب وكذلك اصطلاح بعض الكلمات والمصطلحات التى اعتورها التغيير والتحريف.

٢- تقسيم النص إلى فقرات لإبراز الأفكار التى يشتمل عليها.

٣- وضع ما يلزم من علامات وإشارات لتحديد الجمل والعبارات وإيضاح معناها وإضافة بعض الكلمات بين قوسين لضبط سياق النص.

٤- وضع عناوين جانبية للموضوعات.

٥- التعريف بالأعلام والبلدان الواردة بالنص.

٦- التعليق على المواقف التاريخية والعلمية والفلسفية والمذاهب والعقائد وهى فى أغلبها تعليقات نقدية.

٧- وضـــع فهارس متعددة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والأعلام، والأماكن والبلدان والكتب والمراجع الخاصة بالتحقيق، مع مقدمة للكتاب.

---

(٩٦) راجع نقده للتحقيقات السابقة لهذا العمل فى الفقرة السابقة.

ويقــدم لنا وصفاً شاملاً لنسخ الكتاب المخطوطة وأهمها نسخة مكتبة راغب رقــم ٩٩٠ وتــرجع للقرن الحادى عشر، ونسخة مكتبة محمد الفاتح رقم ٤٥١٦، ونســخ مكتبة ليدن رقم ١٤٨٨ ونسخة مكتبة سالرجنج بحيدر آباد الدكن تحت رقم ٤٠٨٩ وكلها مصورات عن معهد المخطوطات العربية بالقاهرة كما يشير إلى عدد كــبير مــن النســخ الأخــرى للكتاب موضحاً أرقامها وأماكنها مع وصف موجز لبعضها.

إذا أردنا أن القيمة نبيين العلمية والتاريخية لكتاب "نزهة الأرواح" فإننا نورد مــا جــاء تحت عنوان وصف الكتاب حيث يخبرنا المحقق أنه [أى الكتاب] يعتبر سجلاً متكاملاً لتاريخ العلم والفلسفة كما أنتهى إليه المسلمون فى هذا القرن المتأخر أى القــرن السابع الهجرى، والذى بلغت فيه الثقافة الإسلامية ذروتها القصوى قبل أن تميــل إلى المغيــب والانحدار (٩٧). فهو من الوثائق الهامة فى التأريخ لحركة الطب منذ العصور اليونانية السحيقة مروراً بمدرسة الإسكندرية ووصولاً إلى نشأة المدرسة الطبية فى الإسلام وتطورها إلى القرن السابع الهجرى. يشير المحقق إلى هــذه الأهميــة منتقداً المؤلف الذى لم يهتم كثيراً بالتدقيق فى تسجيل وقائع الحركة الطــبية ومصــادرها المختــلفة إلى عصــره كما يبين لنا المحقق – أهمية العمل وبالإضــافة إلى ما سبق – فى كونه يتضمن بعض أفكار ومعتقدات مؤلفه وأصول مذهــبه أثــناء تأريخــه لبعض الإعلام مثل : أصول نظريته فى الإمامه العالمية، والعلاقة بين الحكيم المتألة والنبى من خلال مفهومها الإسماعيلى (٩٨) كما يظهر لنا المحقــق أيضــاً تلك النزعة التوفيقية الظاهرة فى الكتاب والتى تمثل سمة للفلسفة الإســلامية ويوضــح لــنا الأسباب الكامنة وراء حركة التلفيق فى الفكر الإسلامى بالإشارة إلى النصوص التى ترجمت للمسلمين عن الفلسفة الأفلاطونية المحدثة فقد احــتوت هذه النصوص على محاورات تلفيقية كبرى جمعت فى ثناياها كل شتات الفلســفة اليونانيــة القديمة مع آراء النحل الدينية الشرقية مثل الأورفية والغنوصية

---

(٩٧) د. أبو ريان (محقق) نزهة الأرواح وروضة الأفراح، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص١٥.

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ١٥.

والمانويـــة وغيرها. مما يبين الآثار الضارة للفلسفة اليونانية على الفكر الإسلامى، وهــو هــنا يؤكــد مقولة الشيخ مصطفى عبدالرازق أن هذه الفلسفة (اليونانية) قد أعاقت انطلاق الفكر الإسلامى.

وإذا ســألنا عــن الأسباب التى دفعت المحقق إلى تحقيق هذا السفر الضخم لوجدنا الإجابة فى :

أولاً : إنـــه قد أورد ترجمات مفصلة ودقيقة لبعض الشخصيات التى كان لها أثرها فى تاريخ الحضارة الإنسانية.

ثانيــاً : أن الشـــهرزورى أثبت فى كتابه بعض الترجمات لأشخاص لم تترجم لهم مصادر أخرى بين المراجع المشهورة.

ثالثاً : وجود بعض النصوص الهامة به مثل : وصية أرسطو للإسكندرية ورسالته إليـــه. وكذلك النص الذى ترجمه اسحق بن حنين عن تاريخ الأطباء ليحيى النحوى.

رابعــاً : يتضـــمن الكتاب أصول وأسس لبعض النظريات التى كان لها أهميتها فى تاريخ الفكر الإنسانى وتداخلت مع أفكار وعقائد بعض الطوائف.

خامساً : وضوح المنهجية فى العمل كبيان الغرض من تأليفه، معنى الفلسفة والحث على دراستها والمصادر الأولى للفلسفة اليونانية.

سادســاً : اهــتمام المؤلف بالتمييز بين الفلاسفة والعلماء أو بين أهل الحكمة وأهل الصنعة.

ســابعاً : اهــتمام المؤلف فى تاريخه للإعلام ببيان عصرهم من الناحية السياسية والاجتماعية بحيث يعد العمل "وثيقة تاريخية".

ويقــف المحقق وقفة نقدية فى حديثه عن أسلوب المؤلف وسمات تفكيره كما تــبدو فى الكــتاب ويذكــر من ذلك: الغموض الذى يشوب أسلوب المؤلف أحياناً، ونزعــته التوفيقية التلفيقية، وتوسعه فى بعض المواضع لخدمة مذهبه الباطنى إلى غير ذلك.

(ب) تحقيقات فى الفلسفة والإشراق :

نتناول فى هذه الفقرة الثانية أهم تحقيقات أبو ريان، والتى تمثل توجهه نحو حكمـــة الإشراق حيث حقق عملين أساسيين للسهرودى هما: "هياكل النور" ١٩٥٧ و"الـــلمحات فى الحقـــائق" ١٩٨٨، ويســـبق ذلـــك مجموعة من نصوص الفلاسفة المســـلمين قدمـــه فى كـــتابه المشترك مع د. النشار "قراءات فى الفلسفة:١٩٦٧، وسوف نشير بإيجاز إلى ماقدمه فى هذا العمل قبل تحليلنا لتحقيقه لكتابا السهروردى.

١- تحقيقات فى قراءات :

يؤكـــد أبو ريان والنشار فى مقدمة كتابهما "قراءات فى الفلسفة" على أهمية تحقيـــق النصـــوص بقولهمـــا : "إن معاناة البحث والدراسة والاستقصاء فى الحقل الإســـلامى قد تكشف عن ضرورة منهجية لا غنى عنها لجميع فئات الباحثين مهما تـــنوعت مطالـــبهم، ونعنى بذلك الحاجة الملحة إلى تحقيقها ونشرها بطريقة علمية دقيقـــة مـــع مقدمات وتعليقات تحليلية مقارنة، وذلك قبل أن يشرع الباحث فى أى عّمـــل تركيـــبى ولا سيما فى الجديد البكر من الموضوعات"(٩٩)، وقد اختارا بض النصـــوص الأساســـية فى الفلسفة الإسلامية فى قسمين تولى أبو ريان القسم الثانى تحـــت عـــنوان "مشكلة الفلسفة الإسلامية" قدم فيه نظرته للفلسفة الإسلامية – التى أشرنا إليها من قبل – والمنهج الجديد فى دراستها.

ويقـــدم فى هذا القسم مجموعة من النصوص لفلاسفة الإسلام من أجل إلقاء الضـــوء عـــلى بعـــض النصـــوص تأكيداً على أن منهج الدراسة النصية هو أكثر المـــناهج فاعـــلية من حيث أثره فى تحقيق الالتماس الفكرى الوجدانى بين القارئ والفيلســـوف"(١٠٠) حيـــث نجد نصوصاً مختارة من " : الكندى والفارابى وابن سينا وهـــو يقـــدم لـــنا تحقيقاً لرسالة العشق عن عدة مخطوطات ونشرات سابقة مثل: مصـــورة عن المتحف البريطانى بدار الكتب تحت رقم ١٩٩ فلسفة، طبعة طهران الأولى ١٨٩٤، والثانية ١٨٩٩، طبعة مصر ١٩١٧ ضمن مجموعة جامع البدائع،

(٩٩) د. النشار د. أبو ريان : قراءات فى الفلسفة ص ١.
(١٠٠) المصدر السابق ص ٣٠٥.

نسـخة مصـورة عن مكتبة أحمد الثالث معهد المخطوطات (٦٣٧-٦٣٨)، ويقدم نصوصاً للغزالى وأبو البركات البغدادى والسهروردى فيلسوفه المفضل وابن رشد.

٢- تحقيق "هياكل النور" للسهروردى الاشراقى :

ظهـرت بدايـات توجه أبو ريان نحو الفلسفة الاشراقية فى دراساته الأولى للماجسـتير والدكتوراه، واتضحت منذ ١٩٥٧ فيما أطلق عليه السلسلة الاشراقية، وتحقيقـه لكـتاب "هياكل النور" هو الذى يبدأ به هذه السلسلة؛ والتى تشمل "أصول الفلسـفة الإشـراقية" و"اللمحات فى الحقائق" و"انتقال نظرية المثل الأفلاطونية إلى المدرسـة الاشـراقية " (بالفرنسـية) والألواح العمادية للسهرودرى، وقد ظهرت الأعمال الثلاثة الأولى من هذه السلسلة وهى موضوع دراستنا الحالية.

يـبدأ أبـو ريان تحقيقه لكتاب "هياكل النور" باعطائنا بعض الإشارات التى توضـح منهجيـته وموضوعيته فى البحث، فهو يشر أولاً للدراسات السابقة عليه، ويـنحى منحى وسطاً بين فريقين يطلق أولهما وهو أهل السلف على شهاب الدين السـهروردى لقـب المقـتول، وثانيهما تلاميذه الذى اعتبروه شهيداً بينما يلقبه هو بالاشراقى ويعرض له ولعصره فى الفصل الأول.

ويـبين فى الفصل الثانى من مقدمة تحقيقه منزلة "هياكل النور" بين مؤلفات السهروردى مناقشاً تصنيف كل من ماسينيون وتصنيف هنرى كوربان ويستنتج أن مؤلفـات السـهرودى لا تخضع لأى تصنيف منهجى نظراً لتداخلها وعلينا متابعة السـهرودى الـذى يوضح لنا كيفية قراءة كتبه فيما أطلق عليه أبو ريان "التصنيف التعـليمى". ويسـتنتج محققـنا مـن ذلك ضرورة قراءة "هياكل النور" قبل "حكمة الاشـراق". ويخصـص الفصل الثالث للتفسير الرمزى للهيكل، مؤكداً على التأثير الصـابىء فى مذهـب السـهروردى، ويعرض فى الفصل الرابع لمحتويات كتاب "هياكل النور"[١٠١].

وإذا تابعـنا ما جاء فى الفصلين الخامس والسادس لتبينا منهج أبو ريان فى تحقيـق النص وهو ما يهمنا حيث يصف لنا حالة نصوص كتاب "هياكل النور" فى

(١٠١) د. أبو ريان (محقق) هياكل للسهروردى، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٧، ص٧-٨.

الفصـــل الخامس مشيراً إلى وجود عدة نسخ مخطوطة من الكتاب فى أنحاء متعددة من العالم.

ويذكر لنا أولاً أهم شراح هذه الكتاب وهو غياث الدين ابن أسعد الدوانى (ت ٩٠٧هـــ-١٥٠١م) الذى يشرح الهياكل معتمداً على كتب الشيخ الأخرى ويمتاز بأنه يناقش موقف الشيخ، وأحياناً يهاجمه، وينتقده فى المواضع التى يبتعد فيها عن فلســفة أفلاطون[١٠٢]. ثم شرح منصور بن محمد الحسينى، وشرح محمد بن محمد العــلوى الهــروى وهما شرحان أقل ضخامة من شرح الدوانى ويعتمدان عليه، ثم شرح تركى لإسماعيل بن الانقراوى.

ويشـــير بعـــد هذه الشروح إلى نشرة القاهرة للكتاب ١٣٣٣هـ وهى نشرة غيـــر علمية ومليئة بالأخطاء وبها تعليقات للناشر بعيدة عما يقصده المؤلف، وعن المذهـــب الاشـــراقى فى جملته، بل أنه يفسر آراء الشيخ – فيما يرى أبو ريان – بـــآراء ابن سينا، ومقابل ذلك نجد المحقق يعرض فى هوامش تحقيقه تعليقاته على الناشر.

ويعتمد أبو ريان فى تحقيقه على :

- مخطوط هياكل النور رقم ٤٩٤٥ المكتبة الأهلية بباريس مقدمة الكتاب والهيكل الأول فقط 2M.
- مخطـــوط رقـــم ٤٥٧٧ المكتبة الأهلية بباريس ويشمل المقدمة والهيكلين الأول والثانى 3M.
- مخطوط المتحف البريطانى رقم Orient ٦٥٧٢ وهو نسخ كاملة للنص (B).
- طبعة القاهرة IMP .
- مخطوط مكتبة بلدية الإسكندرية وهو نسخ تحتوى على شرح الدوانى.

ويخـــبرنا أن مخطوطـــة بـــاريس رقم ٤٦٧٣ (IM) هى أكمل المخطوطات وأوضـــحها، ومن هنا جعلها المخطوطة الأساسية ولم يجعلها أو غيرها المخطوطة

(١٠٢) المصدر السابق ص ٣٤.

الأم، لأنه لم يجد واحدة بخط المؤلف أو بخط ناسخ عاش فى عصره [١٠٣].

وفى الفصـــل الســـادس وقـــبل أن يعـــرض للمـــنهج الذى اتبعه فى تحقيق النصـــوص يقـــدم بعض الملاحظات الأولية التى اتضحت له أثناء العمل أولها هو الاخـــتلاف بيـــن مخطـــوط (B) والمخطوطـــات الأخـــرى، وقد سجل بعض هذه الاختلافات فى هوامش التحقيق إلا أن ثلاثة منها استرعت انتباهه لما تشير إليه من دلالة مذهبية فتوقف لبيانها فى هذا الفصل وهى:

- أن ناســـخ (B) يضـــع كـــلمة "المصطفين " (ص٤٦) بدلاً من المصطفى الموجودة فى المخطوطات الأخرى والتى تشير إلى النبى "محمد" وحده بينما يشير جميعها إلى كل الأئمة عند الباطنية[١٠٤].
- ويذكر النفوس المتألهة بدلاً من "النفوس الناطقة" فى غيره من المخطوطات وهى أقرب إلى نصوص الشيخ وتعنى "الحكيم المتأله" فى حكمة الإشراق، وهى تشير إلى صـــعود النفس إلى العالم الأعلى الآلهى ويستنتج المحقق أن ثمة تيار باطنى واضح متفاعل مع التيار الإشراقى.
- وبـــالمخطوط عبارة فتطيعها العناصر، التى تشير إلى نظرية "المطاع" الباطنية الصوفية ولا نجد هذه العبارة فى المخطوطات الأخرى [١٠٥].

ويرجع المحقق – بعد إيراد هذه الملاحظات – أن تكون هذه المخطوطة (B) أقدم المخطوطات وأكثرها اقتراباً من عصر المؤلف، وربما نسخت بيد أحد تلاميذه مـــن غير أهل السنة، وربما كان أشراقياً أو باطنياً على عكس ناسخى المخطوطات الأخرى.

وقـــد اعـــتمد المحقـــق على المخطوطة IM وجعلها أساساً للتحقيق مصححاً ضـــابطاً لها بنصوص المخطوطات الأخرى وبطبعة القاهرة، وما يراه غامضاً فى جميع المخطوطات يعيد بنائه اعتماداً على السياق ، وقد ميز المحقق بين ملاحظاته

(١٠٣) المصدر السابق ص ٣٧.
(١٠٤) المصدر السابق ص٣٩.
(١٠٥) المصدر السابق ص ٤٠.

عـلى الـنص – الـتى رقمها بالأرقام العربية – عن تعليقات الدوانى على بعض الألفـاظ بأرقام أفرنجية ووضعها فى نهاية النص، وقد ألحق التحقيق بجدول ثلاثى لصـفحات المخطـوط الأساسى وطبعة القاهرة وتحقيقه الحالى، وفهرست للألفاظ والمصطلحات الفلسفية الواردة فى النص ثم فهرس تفصيلى لمحتويات الكتاب.

ويمكننا إيراد الملاحظات الآتية على التحقيق.

إن موضـوع النص المحقق ليس ببعيد عن اهتمامات ودراسات المحقق فقد سبق وأعتمد عليه فى أبحاثه السابقة.

رغم أن المحقق أشار إلى النشرات والترجمات السابقة للنص سواء التركية الـتى صـدرت فى القسطنطينية ١٣٣٣هـ والترجمات الهولندية التى نشرها فإن دنـبرج ١٩١٦ والاشارتين ذكرهما اعتماداً على إشارة اتوسبير فى نشرته لمؤنس العشاق فإنه لم يرجع إليهما ولم يستخدمها أو يستفيد منها فى التحقيق، ونفس الشىء ينطبق على مخطوطة مكتبة البلدية بالإسكندرية.

يظهـر الهـاجس الأساسـى الـذى ظـل يراوده أثناء التحقيق وهو باطنية وإسـماعيلية السهروردى صفحات ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢ ومن تلك الملاحظات الـتى استوقفته فى بعض مصطلحات مخطوط المتحف البريطانى، لذا نجده بعد أن ميـز بيـن لقبى "المقتول" الذى أطلقه نقاد السهروردى عليه، "والشهيد" الذى فضله تلاميـذه واختار أن يطلق عليه السهروردى الإشراقى يعود (ص٤٣) ليطلق عليه السهروردى المقتول وقد يكون له العذر هو ينقل هنا ما جاء فى المخطوط، لكنه لا يشير إلى ذلك.

وما يهمنا الإشارة إليه هنا هو الكشافات التى أوردها فى نهاية النص، والتى قـدم لـنا فيها جدولاً مقارناً بصفحات النص فى المخطوط وفى نشرة القاهرة وفى تحقيقه الذى لاحظ عليها استعانته به – كما ذكرنا – فى دراسته عن أصول الفلسفة الإشـراقية وأفـاد مـنه فيمـا بعد فى دراسته التمهيدية لتحقيق نص "اللمحات فى الحقائق" خاصة فى الفصل الذى عقده لمنزلة الكتاب بين مؤلفات السهرورى، وهنا ينقلنا إلى "اللمحات فى الحقائق".

٣- تحقيق اللمحات فى الحقائق للسهروردى :

يقـدم لـنا أبـو ريـان تحقيقـه لكتاب "اللمحات فى الحقائق" بدراسة عن السـهروردى نشأته وحياته لا تضيف جديداً إلى ما سبق أن كتبه هو نفسه من قبل عـن شـيخ الإشـراق كما يتضح ذلك من المقارنة بين ما كتبه فى أصول الفلسفة الإشـراقية وتحقيق "هياكل النور" مع مقدمة هذا العمل، ثم يتحدث فى الفقرة التالية عـن تصنيف كتب السهروردى ومكانة "اللمحات" بينها كما فعل فى تحقيقه لهياكل النور وفى أصول الفلسفة الإشراقية، ثم يعرض لمحتويات الكتاب.

وقد اعتمد أبو ريان كما يخبرنا على نسختين هما :

١- نسـخة مكتبة البلدية بالإسكندرية رقم (ت٣٧٢٧ – ج) وتقع فى ١٤١ صفحة ذات قطع متوسطة لناسخ مجهول ورمز له بالحرف (أ).

٢- مخطـوط ٣٥٨ حكمة طلعت بدار الكتب المصرية فى ٧٧ صفحة ورقم (ب) ٦٧٢هـ، وليس بين المخطوطين خلاف كبير على ما يذكر لنا، ورغم وجود نسخ أخرى يشير إليها، إلا أنه أكتفى بالمخطوطتين السابقتين لأنه لا حاجة إلى تضـخم هامش الكتاب بتعليقات لا داعى لها ما دام النص مفهوم وواضح[١٠٦] ونحـن نتساءل ألا يستلزم ذلك تقديم مبررات علمية للاكتفاء بهاتين النسختين وتفضـيلهما عـلى غيرهما ، وهذا يستدعى منا تقديم بعض الملاحظات على التحقيق نلخصها فى الآتى:

أنـه رغـم اعـتماد المحقـق على مخطوطين فقط مما يسهل عملية اكمال المخطـوط الأم (أ) بـالمخطوط المسـاعد (ب) إلا أنه فى أحيان كثيرة جداً تكون عـبارة المخطـوط (ب) التى يثبتها فى الهامش أكثر دقة من (أ) التى يعتمدها فى المـتن كمـا يتضـح من مقدمة النص حيث يثبت فى النص "وصل على ملائكته

(١٠٦) د. أبو ريان (محقق) اللمحات فى الحقائق للسهروردى ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص٣٠.

المقــربين خصوصاً على محمد وآله" والأدق جاء فى الهامش "وصل على ملائكتك وأنبيائك خصوصاً.."[١٠٧].

أحياناً يضيف إلى ما جاء فى المخطوطين أو يحذف بدون وضع علامة فى المتن توضح ذلك. والإضافة مثل "كتصورك لمفهوم الشيء" فقد جاء فى المخطوط (أ) كتصـــور لمفهـــوم الشيء، وفى (ب) كتصور مفهوم الشيء [١٠٨]. والحذف – ويتضـــمن عـــبارة أو جملة – دون إشارة إلى ذلك كما فعل فى نهاية اللمحة الثانية حيـــن أســـقط عبارة "... على المستعد للكتابة وفارقها".. وهى العبارة التى جاءت كامـــلة فى (ب) على الشكل التالى (على المستعد للكتابة وفارقها الالتزام بإنه على الخارجى من المسمى وفارق الأجزاء المطابقة فى أن الاسم ليس لها)[١٠٩].

ومـــع كل هذه الملاحظات فإنه لغة المحقق، واستيعابه لموضوعه، وتبسيطه للـــنص، وتعـــليقاته تجعلنا نؤكد أن د. أبو ريان من أهم من تخصصوا فى تحقيق النصـــوص الفلســـفية خاصة المتعلقة بالفلسفة الاشراقية التى كرس لها حياته بحثاً ودراســـة تدقيقـــاً وتحقيقـــاً، مما يجعلنا نزعم أن التحقيقات التى يقدمها لنا تتفق مع توجهـــه الفلســـفى العـــام الـــذى عرضنا نحو المدرسة الأفلاطونية والإشراقية فى الإسلام، بل أن جهد أبو ريان الكبير فى التحقيق يشار إليه فى إعداده لمجموعة من الباحـــثين الشـــباب بدأت تحقيقاتهم الجادة تظهر مصحوبة بتقديم الأستاذ الكبير مما يؤكد أن الأستاذ سيظل دائم الحضور فى أعماله العلمية وفى تلاميذه.

---

(١٠٧) المصدر السابق ص٣٦.
(١٠٨) المصدر السابق ص٣٧.
(١٠٩) المصدر السابق ص٣٩.

أبو الوفا التفتازانى :

والنص الصوفى(*)

هذه محاولة للتعرف على كتابات الدكتور أبى الوفا التفتازانى، وهو كما يعلم المـتابعون لأعمالـه؛ باحث محقق، وأستاذ عالم، وصوفى مرب يجيد المحاضرة والمناظرة والجدل العلمى والإقناع المنطقى، صاحب نص عميق بسيط واضح، هو مـا نعـرض له فى هذ الفصل. ونقصد بالنص الصوفى التفتازانى مجمل الكتابات الـتى قدمهـا والـتى توفرت لنا، وهى كتابات جلها فى وعن التصوف الإسلامى، وبعضـها فى فـروع الفلسـفة الإسـلامية المختـلفة، معظمها يغلب عليه البحث والدراسـة، وقليل منها تحقيق، كتبها باللغة العربية وبعض اللغات الأخرى. وهى فى مجمـلها تمثل الجهد العلمى للتفتازانى، وتمثل جزءاً من السياق العام الذى قدم فيـه عملـه باعتـباره أستاذاً أكاديمياً ونائباً لرئيس جامعة القاهرة وشيخاً لمشايخ الطرق الصوفية وعضواً بمجلس الشورى(**).

لقـد جمـع التفـتازانى نزعة روحية صوفية أخلاقية نابعة من تبنيه الاتجاه السـنى فى التصـوف المرتبط بتصور شامل للعلوم الإسلامية الشرعية إلى جانب الـبحث الدقيـق العميـق، تجلت هذه النزعة فى نفسه الراضية المطمئنة، وسلوكه الإسـلامى الذى التزم به فى الحياة العامة، وكان تجسيداً للتصوف بجانبيه النظرى والعلمى، وعند الصوفية هناك علاقة قوية بين هذين الجانبين؛ فقد كان ورعاً زاهداً عـابداً عارفاً مطمئناً كما كان باحثاً فاحصاً محققاً مدققاً مثالاً ونموذجاً وواقعاً حياً

(*) نشر هذا الفصل فى مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩١ السنة الثالثة والعشرون ص٤٧-٨١.

(**) تلك هى الصورة العامة للرجل والسياق الذى قدم لنا فيه كتاباته. وقد تكونت صورته فى ذهنى من محاضرتين متتاليتين بمدرج ٧٤ بآداب القاهرة فى يناير ١٩٧٣، حين كان يحاضر طلاب السنة الرابعة قسم الفلسفة ويرد على استفساراتهم فى التصوف الإسلامى... حيث قدم لنا فى هذه الفترة درساً لا ينسى، وهو أن الأستاذ ليس هو من يجيب على الطالب بمعلومات جاهزة لديه، بل هو من يرشده إلى المنهج العلمى، الذى يصل به إلى المعرفة ويحدد مصادر موضوع بحثه. ولم تختلف هذه الصورة منذ عام ١٩٥٠ حين بدأ حياته العملية حتى رحيله فى يونيو ١٩٩٤: معرفة دقيقة بموضوعه؛ لغة علمية محددة، حجة منطقية دقيقة، رحابة صدر، قدرة على التعليم والتوجيه. وتلك هى نفس الخصائص التى تميز نصه الصوفى.

للخـــلق الإســـلامى[1] محـــتذيا صورة الغزالى فى "المنقذ من الضلال" مؤكداً مثل القشـــيرى صاحب "الرسالة"، والطوسى صاحب "اللمع" وغيرهما: أن الجانب المهم مـــن التصـــوف هو الخلق، وأن هذا الجانب من الحياة الروحية يمثل علم الأخلاق الإسلامى، ويؤصل التفتازانى نصه الصوفى داخل إطار هذا الاتجاه السنى المعتدل المرتبط بالكتاب والسنة، والذى وجد فى القرآن وحياة الرسول ﷺ وسنته والصحابة والتابعين والزهاد والصوفية الأوائل البداية الحقيقية للتصوف الإسلامى، والتى عبر عـــنها بصـــدق الإمـــام الغزالى حجة الإسلام، والتى تحددت فى التصوف العملى الـــتربوى لـــدى أصحاب الطرق، خاصة الشاذلى وتلاميذه وينطلق الأستاذ من هذه المـــرجعية فى بحثه للتيار المتفلسف من الصوفية لدى ابن مسرة وابن عربى وابن سبعين.

والأســـتاذ مـــن أهم علماء التصوف الإسلامى، الذين حددوا مجاله، ورتبوا موضوعاته، وكشفوا النقاب عن شخصياته، وصاغوا الأطر النظرية له، وأبان عن تاريخه وأبعاده النظرية والعملية، وعرف بالتجربة الصوفية وخصائصها، وأوضح المنهج العلمى لدراستها، وظل أكثر من خمسة وعشرين عاماً أهم باحثى التصوف الإســـلامى منذ وفاة أبى العلا عفيفى أكتوبر ١٩٦٦ ومحمد مصطفى حلمى فبراير ١٩٦٩ وحتى الآن.

قـــدم العديـــد مـــن الدراســـات التاريخية والسيكولوجية والابستمولوجية فى التصوف فى مقدمتها ثالوثه الشهير: "أبن عطاء الله السكندرى وتصوفه" ١٩٥٥[2]، و"ابـــن ســـبعين وفلســـفته الصوفية" ١٩٦١[3]، و"المدخل إلى التصّوف الإسلامى" ١٩٧٣[4]، والتى تعد فى تخصصه أقرب إلى ثالوث كانط Kant الشهير: نقد العقل

(١) هذا الوصف هو الإهداء الذى صدرت به دراستى وترجمتى لكتاب الأخلاق والحياة الأخلاقية عند المسلمين لدى بور الذى شرفنى أستاذى بمراجعته وتقديمه، والصادر عن دار النصر، القاهرة، ١٩٩٥.

(٢) د. أبو الوفا التفتازانى : ابن عطاء اللع السكندرى وتصوفه ، الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٩.

(٣) د. أبو الوفا التفتازانى : ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٧٣

(٤) د. أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣، ١٩٧٩.

الـنظرى الخـالص، نقـد العقل العملى الخالص، ونقد ملكة الحكم، أى أنها تشمل مجالات التصوف الثلاثة :

السـنى العملى (ابن عطاء الله)، الفلسفى النظرى (ابن سبعين)، والتصوف العـام أو تاريخ التصوف الإسلامى (المدخل)، فقد غطت هذه الأبحاث الثلاثة بلغة هيجـل الجدلية الموضوع الذى تأسس حوله نص التفتازانى، وهو التصوف السنى الشـاذلى عـند ابـن عطاء الله ونقيضه الفلسفى عند ابن سبعين، والمركب بينهما التصوف الإسلامى بكل اتجاهاته وتاريخه ومدارسه وأعلامه "المدخل إلى التصوف الإسلامى".

وسـوف نتـناول فى هذا الفصل النص التفتازانى: موضوعه ومنهجه، لغته وأسـلوبه، مقدماته ونتائجه، حججه وبراهينه من خلال تحليل كتاباته المختلفة التى تكون مجمل هذا النص.

المصادر والأساتذة أو مكونات النص :

يحيلـنا نص التفتازانى إلى نوعين من الأصول أو المصادر التى نهل منها ودخـلت فى تكويـن هـذا الـنص وصارت جزءاً منه، هى المصادر الكلاسيكية والمقصود به كتب التصوف الإسلامى الأساسية الأثيرة إليه، والتى نجدها حاضرة حضـوراً قويـاً فى كـل جزئيات نصه مثل : كتب القشيرى والطوسى والغزالى والشـعرانى وكتب الصوفية الذين عرض لهم، مثل : ابن عطاء الله، وابن سبعين، وابـن عـباد الرندى، وابن عربى، وغيرهم ، بالإضافة إلى كتب الباحثين العرب والمستشرقين، خاصة ماسينيون وأسين بلاثيوس ونيكلسون وترمنجهام.

والـنوع الثانى "المصادر المباشرة" أو الأساتذة شيوخه ومعلموه، سواء والده الشـيخ الغنيمى التفتازانى (١٨٩٣-١٩٣٦م) الذى تلقى عليه العلوم الدينية ومعالم الطريق الصوفى، وهو شيخ الطريقة الغنيمية من مواليد كفر الغنيمى شرقية، وهى إحـدى الطـرق الخـلوتية، مؤسسـها هـو الشيخ الغنيمى بن سلامة ت٥٠٣هـ وضـريحه فى كـوم حـلين مركز منيا القمح، وقد خلف التفتازانى أباه عليها، أم أسـاتذته بالجامعـة المصرية المباشرون مثل : الدكتور محمد مصطفى حلمى، أو غيـر المباشـرين، مـثل : الشيخ مصطفى عبدالرازق، والدكتور أبى العلا عفيفى ولويس ماسينيون.

وسنبدأ بالمصادر المباشرة وهى الأقرب زمنياً فى التأثير، والتى لها حضورها القوى فى نصه، ونذكر منها : الشيخ مصطفى عبدالرازق، على رغم عدم تتلمذ التفتازانى عليه مباشرة فى سنوات دراسته الجامعية، فقد تأثر به للغاية وهو يصفه فى دراسته "مدرسة مصطفى عبدالرازق" بأستاذنا خمس مرات، وشيخنا ثلاث مرات ولفظة شيخنا أكثر دلالة على مدى ارتباط التفتازانى الصوفى بالشيخ الأكبر، ومن هنا فنحن نعده امتداداً للشيخ المعلم الأول والرائد المعاصر فى تدريس الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية.

ويعد الشيخ مصطفى عبدالرازق (١٨٨٥-١٩٤٧م) أستاذا للتفتازانى عن طريقين، الأول: معرفة الأستاذ بالشيخ عن طريق والده السيد الغنيمى التفتازانى معلمه وشيخه، والثانى تتلمذه على الدكتور محمد مصطفى حلمى (١٩٠٤-١٩٦٩م) أهم تلاميذ الشيخ فى مجال الدراسات الصوفية.

يقول موضحاً حميمية العلاقة ومكانة الشيخ فى نفسه؛ والذى صار أستاذنا بمثابة مريد له: "لقد عرفت الأستاذ الجليل فى السنوات الأخيرة من حياته ، وكان المغفور له والدى من أحب أصدقائه إلى نفسه، جمعها جهاد مشترك وتزاملاً فى الرابطة الشرقية حيناً من الزمان، ولذا كنت أحس كلما لقيته بحنان الأب، وهو الذى وجهنى إلى دراسة الفلسفة بكلية الآداب فالتحقت بها ١٩٤٦، وفى نفسى إجلال عميق له ورغبة أكيدة فى السير على منهاجه فى الدراسة والبحث، وجعلت منه على حد تعبير الصوفية شيخاً لى أحتذى به فى العلم والخلق"(٥).

أن أثر مصطفى عبدالرازق يستمر سارياً عبر تلاميذه فى التفتازانى حتى بعد أن ترك التدريس فى الجامعة، يقول التفتازانى: "التحقت بقسم الفلسفة بعد أن تركه أستاذنا ببضع سنوات، فوجدت بالقسم نخبة ممتازة من تلاميذه الذين أخذوا على عاتقهم آنذاك إكمال رسالته العلمية التى بدأها فأنست إليهم وأحببتهم وشجعونى منذ كنت طالباً على المضى فى دراسة الفلسفة الإسلامية لما لاحظوه من ميلى الواضح إليها"(٦).

(٥) د. أبو الوفا التفتازانى : مدرسة مصطفى عبدالرازق، الكتاب التذكارى للشيخ مصطفى عبدالرازق، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ص٣٩.

(٦) المرجع السابق: ص٣٩.

وحيـــن يتـــناول أثر الشيخ على تلاميذه ويشير إلى بعض القيم التى آمن بها وتجـــلت فى ســـلوكه يشـــعرنا بانطـــباعين؛ الأول: أن هـــذه القيم الإسلامية ثابتة وضـــرورية وكلية وينبغى على كل منا تمثلها والثانى: أن هذه القيم نفسها تنطبق أشد الانطباق على التفتازانى نفسه الذى تمثلها فى نفسه وفى كتاباته(٧).

- وإذا كـــانت هـــذه الفضائل تصور سلوك الشيخ الذى تمثله الأستاذ فى حياته فإنه فى الفقـــرة الخامســـة مـــن دراســـته والتى تدور على المنهج يحدد لنا المبادئ الرئيســـية لـــتفكير مصـــطفى عـــبدالرازق الـــتى نجد أثارها بدورنا فى نص التفتازانى، وهى :

أولاً : الجمع بين الحديث والقديم فى بناء الثقافة وإعادة مجد الأمة.

ثانيـــاً : تصـــحيح الأحكام الخاطئة عن التراث الفلسفى الإسلامى والتى يذهب إليها عدد من الباحثين فى الغرب.

ثالثاً : البحث دائماً عن أوجه الأصالة والابتكار فى الفلسفة الإسلامية

رابعـــاً : الـــرجوع إلى مصـــادر الفلسفة ونشر ما لم ينشر من مخطوطاتها ليتبين دورها فى التراث الفلسفى العالمى.

خامســـاً : البذور الأولى للتفكير الفلسفى الإسلامى إسلامية، ولابد من الرجوع إلى الـــنظر العقـــلى فى بساطته الأولى وتتبع مدراجه فى ثنايا العصور وأسرار تطوره(٨).

ب- يـــأتى الدكـــتور محمـــد مصطفى حلمى فى المرتبة الأولى من أساتذة التفـــتازانى ومـــن مصادره فى التصوف، فهو الأستاذ المباشر وصلة الوصل بينه وبين الشيخ الأكبر، أشار إليه مرتين فى دراسته عن مدرسة مصطفى عبدالرازق، وكـــتب عـــنه بعد وفاته فى مجلة الفكر المعاصر باعتباره من الرواد الأوائل الذين

(٧) وهذه القيم هى: الإيمان بحرية الفكر والقول والعمل، والحرية فى هذه المجالات مبدأ لا غنى عنه فى تقدم العلم ونهوض الأمم. الدعوة إلى حب العلم وتقدير العلماء. حب الوطن. الدعوة إلى الإسلام بين الشعوب فى صدق وحرارة. محاسبة النفس على الفعل والترك أساس الفضائل الإنسانية كلها. الايثار والتواضع المرجع السابق: ص٤٢-٤٦.

(٨) المرجع السابق : ٤٦-٤٩.

نهضـــوا فى مصـــر لإحيـــاء تـــراث الفلسفة الإسلامية عامة والتصوف الإسلامى خاصـــة. ويشـــير إليـــه "بأستاذنا"، الذى كان من خيرة أساتذة كلية الآداب بجامعة القاهـــرة وإلى صلته الحميمة بمصطفى عبدالرازق، يقول: "لقد ظل محمد مصطفى حـــلمى أكثر من ثلاثين سنة عاكفاً على دراسة التراث الفلسفى الإسلامى بوجه عام والتراث الصوفى بوجه خاص، وما ذلك إل بدفعة روحية قوية من أستاذه مصطفى عـــبدالرازق، وقـــد استطاع هو أيضاً أن يحبب "التصوف الإسلامى" إلى كثير من تلاميـــذه وأن يجذبهم إلى دراسته واكتشاف مجاهله طيلة هذه الأعوام التى قضاها فى الدراسة والبحث[٩].

وتوضـــح إشارة التفتازانى إلى أن محمد مصطفى حلمى لم يكن فى الحقيقة دارســـاً للتصوف فحسب، وإنما كان يؤمن به أيضاً إيماناً قوياً كفلسفة حياة الاتفاق بينهما فى الإيمان بالتصوف ونظرة كل منهما إليه كفلسفة حياة "بل إن مقارنة دقيقة بيـــن كـــتاب محمد مصطفى حلمى "الحياة الروحية فى الإسلام" وكتاب التفتازانى "المدخـــل إلى التصوف" توضح تأثير الأول فى الثانى فـــ "هذا الكتاب محاولة لها قيمـــتها فى تـــاريخ التصوف الإسلامى، وقد تأثر بتأريخ مؤلفه لعصور التصوف المختلفة كثير ممن عالجوا موضوع التصوف بعد ذلك. (=لعل التفتازانى هنا يقصد نفسه) وهو يعنى فيه ببيان أهمية المصدر الإسلامى المتمثل فى القرآن والسنة وما أثـــر عـــن حيـــاة الصحابة من الأقوال والأحوال فى نشأة التصوف الإسلامى" [١٠] (قـــارن المدخـــل إلى التصـــوف الإســـلامى). كمـــا يتضح أن الغاية من العملين واحدة[١١].

ويشير التفتازانى فى مقالته "ابن الفارض سلطان العاشقين" إلى أستاذه بقوله: "ولا أذكر ابن الفارض إلا وأذكر معه أستاذنا المغفور له د. محمد مصطفى حلمى، فقـــد قـــدم عنه بحثاً علمياً للدكتوراه ١٩٤٠ كشف فيه عن حياته ومذهبه فى الحب

(٩) د. أبو الوفا التفتازانى : محمد مصطفى حلمى ودراسات التصوف الإسلامى، مجلة الفكر المعاصر، العدد ٥٢، ص٢٠.

(١٠) المرجع السابق، ص٢١.

(١١) يقول التفتازانى : "ويهدف مؤلف هذا الكتاب "الحياة الروحية فى الإسلام" بوجه عام إلى التنبيه على أهمية التراث الروحى الإسلامى فى عصرنا الحاضر فى مواجهة غزو المذاهب الفلسفية المعاصرة على اختلاف اتجاهاتها" المرجع السابق.

الإلـــهى. وقد حببنى هذا البحث، وأنا طالب بقسم الفلسفة بكلية الآداب فى التصوف الإســـلامى. ودفعـــنى بعد تخرجى إلى التخصص فيه، ولعل هذه نفحة من نفحات الحب سرت إلى من ابن الفارض وباحثه المتصوف"(١٢).

جـ- ونشير فى هذا المقام إلى "أبى العلا عفيفى المفكر الصوفى الإسلامى" أحـد الـرواد الأوائل الذين كرسوا جهودهم للعناية بالتراث الفلسفى الإسلامى فى الجامعـة المصرية وإن كان لم يدرس للتفتازانى، وجميع آثاره العلمية التى تركها ســواء أكـانت مصنفات أو ترجمات تدلنا على أن الرجل قد تهيأت له ثقافة فلسفية عميقـة ذات مكونات متعددة، وأنه تهيأت له قدرة نادرة من الناحية المنهجية على اسـتجلاء غوامـض الموضـوعات التى يعالجها وتحديد معالمها"(١٣). ويحدد لنا المجالات التى تناولها عفيفى فى أربعة أقسام هى: التصوف، وعلم الكلام، والفلسفة الإســلامية (بمعـناها الخاص) والفلسفة، والمنطق. ويشير فى تناوله لكتاب عفيفى "التصـوف الـثورة الروحية فى الإسلام" إلى ما يفهم منه علاقته به، التى لم يشر إليها صراحة.

يقـول : "وهـذا الكـتاب فى الحقيقة أكثر كتبه أهمية فى الإبانة عن آرائه الشخصـية، ويمـثل تحـولاً فى حياته الفكرية؛ إذ بدأ حياته كدارس للتصوف من الـناحية الأكاديمية فحسب، ولكنه فيما يبدو لنا تأثر بدراساته الطويلة للتصوف فيما اتخذه لنفسه من موقف فلسفى خاص، فبدا فى هذا الكتاب مدافعاً عن الصوفية متبنياً لبعض وجهات نظرهم"(١٤).

وتوضـح عـبارات : فيمـا يبدو لنا موقف فلسفى خاص – متبنياً لبعض وجهـات نظـرهم، تردد التفتازانى فى التصريح بتصوف عفيفى وتحفظه فى بيان ذلـك، فهـو يصـفه فى عنوان دراسته بالمفكر الصوفى، وبالتالى فإن علاقته به تختـلف عن علاقته بالدكتور محمد مصطفى حلمى الذى ينعته دوماً بأستاذنا على

---

(١٢) د. أبو الوفا التفتازانى : ابن الفارض سلطان العاشقين، مجلة الهلال القاهرة ، يوليو ١٩٧٣، ص١٣٠.

(١٣) د. أبو الوفا التفتازانى : أبو العلا عفيفى المفكر الصوفى الإسلامى، العدد ٢٣ يناير ١٩٦٧، ص٨٠.

(١٤) المرجع السابق : ص٨٢.

العكس من عفيفى الذى لا يصفه بهذه الصفة إلا فى إشارات عابرة فى دراساته الأخرى[١٥]، ولا يذكره بها فى درسته المشارة إليها عنه.

د- ويتضمن النص التفتازانى أيضاً مصادر استشراقية، فقد أفاد من عديد من المستشرقين، إما بشكل مباشر عن طريق تبنى بعض آرائهم أو التأكيد على بعض نتائج أبحاثهم، أو مناقشة بعض نظرياتهم والرد على تحليلاتهم. نشير من بين هؤلاء إلى اثنين؛ أولهما وفى مقدمتهم لويس ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢) الذى يظهر أثره فى بعض أجزاء "المدخل إلى التصوف الإسلامى" ومادة "تصوف" فى الموسوعة الفلسفية العربية[١٦] و"ماسينيون ودراسة التصوف الإسلامى" والثانى آسين بلاثيوس الذى يظهر فى ثنايا دراساته عن "ابن سبعين وفلسفته التصوفية" و"ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه" و"ابن عباد الرندى"[١٧] وذلك مقابل غيرهما من المستشرقين الذين يرد على موقفهم من التصوف الإسلامى ومصدره ويحلل آرائهم مفنداً إياها مقدماً تفسيرات مخالفة لها. ومن الطبيعى أن يتفاوت درجة حضور كل منهما فى كتابات التفتازانى إلا أن أكثرهم حضوراً هو "ما سينيون" الذى عرفه الأستاذ واستمع إليه وأفاد منه. يقول:

"ترجع معرفتى بالأستاذ ماسينون إلى عام ١٩٤٦ حين كنت طالباً بقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وحضر إلينا يوماً ليلقى محاضرة باللغة العربية عن التصوف الإسلامى. وقد ذكر فى محاضرته تلك من شخصيات التصوف الإسلامى البارزة شخصية الصوفى عبدالحق بن سبعين المرسى (ت٦٦٩ هـ)... فنبهنى منذ ذلك الوقت المبكر إلى دراسة هذه الشخصية التى اتخذت منها فيما بعد موضوعاً لرسالتى للدكتوراه.. وقد أحسست منذ ذلك الوقت أن ماسينيون

---

(١٥) د. أبو الوفا التفتازانى : الطريقة الأكبرية، فى الكتاب التذكارى الذى أصدره المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٦٩،، ص٣١٢، ويشير إليه أيضاً ص٣٣٤ من نفس المرجع، وانظر كذلك دراسته ماسينون ودراسة التصوف كتاب مئوية ماسينون، القاهرة، ١٩٨٤.

(١٦) د. أبو الوفا التفتازانى : مادة تصوف الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربى، بيروت ١٩٨٨، ص٢٦٢-٢٦٦، المجلد الثانى، القسم الأول، وكذلك فى كتابه مدخل إلى التصوف الإسلامى ص٢٠٠.

(١٧) راجع دراستنا عن أسين بلاسيوس فى الكتابات العربية، مجلة المعهد المصرى بمدريد- العدد ٢٧ عام ١٩٩٥، ص٧٧-١٠١.

رائــد لدراســات التصوف الإسلامى، وأن جهوده العلمية فى ميدانه جهود بارزة،، وأنــه يــتميز بحــس نقــدى غير عادى، وبذوق لقضايا التصوف يستوقف النظر حقاً"[١٨].

كــان ماسينيون الدافع إذن ومنذ وقت مبكر وراء اختيار التفتازانى موضوع رسالته للدكتوراه، كما كانت كتاباته مصدراً زاخراً بالتحليلات والنظريات والنتائج بالنسبة للتفتازانى الذى تأثر بالرجل وبأعماله[١٩].

وإذا تساءلنا عما جذب التفتازانى إلى ما سينيونن وجدنا أن آراء الأخير فى نشأة التصوف الإسلامى، هى التى أحدثت تحولاً بارزاً فى هذه المسألة والتى أشاد بهــا التفتازانى واعتمد عليها فى دراساته، فقد اتجه ماسينيون فى هذه القضية إلى مــنهج جديــد هــو البحث فى المصطلحات الصوفية والرجوع بها إلى مصادرها الأولى مبيناً العوامل التى ساعدت على نشأة التصوف فى الإسلام؛ حتى ليذهب إلى حــد القــول: "إننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها متصوفة المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وتقرئهما.."[٢٠] ولا ينكر ماسينيون فى الوقت نفسه وجود مؤثرات أجنــبية فى مجال التصوف، لكنه لا يرد التصوف نفسه إلى وجود مصدر أجنبى. ويمكنــنا أن نقــارن فهم ماسينون للتصوف الإسلامى الذى تبناه التفتازانى بتفسير الشــيخ مصطفى عبدالرازق لنشأة الفلسفة الإسلامية بعيداً عن أية مؤثرات أجنبية، وبصــرف الــنظر عــن أسبقية أحدهما على الآخر فإن هذا الفهم وجد صدى لدى الأســتاذ، ســواء كــان مصدره الشيخ الأكبر أو المستشرق الفرنسى رائد دراسات التصــوف الــذى أثــر كل منهما تأثيراً كبيراً فى تحديد التفتازانى للنشأة الإسلامية للتصوف.

---

(١٨) د. أبو الوفا التفتازانى : ماسينيوس ودراسة التصوف الإسلامى، ص٧١.

(١٩) يقول: "ولما تخرجت فى قسم الفلسفة عام ١٩٥٠ وتابعت دراساتى فى الماجستير والدكتوراه فى مجال التصوف الإسلامى، كنت أجد دائماً فيما كتب الأستاذ ماسينون من أعمال علمية معيناً لا ينضب فزاد إعجابى بشخصيته وبمنهجه فى دراسة التصوف وشدة حرصه على استقصاء مسائله وتحديد معانى اصطلاحاته، نفس المرجع السابق

(٢٠) نفس المرجع السابق ص٧٢.

ويتبنى التفتازانى فى "مدخله" ما انتهى إليه ماسينيون فى بحثه عن أصول المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى وهو أن مصادر المصطلحات الصوفية أربعة: الأول القرآن وهو أهمها، الثانى : العلوم العربية الإسلامية من حديث وفقه ونحوها. الثالث: مصطلحات علماء الكلام الأوائل. الرابع: اللغة العلمية التى تكونت فى الشرق فى القرون الستة المسيحية الأولى من لغات أخرى كاليونانية والفارسية وغيرهما، وأصبحت لغة العلم والفلسفة(٢١).

قضايا التصوف :

كونت المصادر السابقة صورة عامة للتصوف الإسلامى؛ معناه وطبيعته وتعريفه ومراحله واتجاهاته وأسسه السيكولوجية ونظرياته الإبستمولوجية وهذا هو موضوع الفقرة الحالية حول قضايا التصوف، التى نبدأها ببيان تعريف التفتازانى للتصوف الذى شغل به فى مراحل متعاقبة من دراساته وفى أجزاء متعددة من نصه.

أ- يغلب التفسير النفسى على تعريف مبكر قدمه التفتازانى للتصوف، حيث يحده بقوله : "هو صفاء النفس البشرية، وهو تربية روحية، وفلسفة عملية أساسها المعرفة بالله أولاً وآخراً. والمتصوف هو ذلك الشخص الذى استطاع أن يروض نفسه ويقاوم شهواته ليتحرر من سلطان البدن وليصل إلى المعرفة اليقينية لأسرار الكون وموجده"(٢٢).

وفى دراسة تالية يجعل منه منهجاً كاملاً فى الحياة يربط حياة الفرد بالمجتمع؛ حيث تبلور لديه تعريف خاص به يتضح فى قوله: "والتصوف فى رأينا منهج كامل فى الحياة، والصوفى المحقق، هو الذى لا يرى تعارضاً بين حياته التبعدية وحياة المجتمع الذى عاش فيه، بل هو الذى يستعين بحياة التعبد على حياة المجتمع وما فيها من مشقة وكفاح، والتصوف بهذا الاعتبار يعد "فلسفة إيجابية" تضفى على حياة الإنسان معنى سامياً" (٢٣). إن هذا التعريف الذى يطالعنا به فى

(٢١) د. أبو الوفا التفتازانى : المدخل إلى التصوف الإسلامى، ص٣٦.

(٢٢) د. أبو الوفا التفتازانى : الإدراك المباشر عند الصوفية، مجلة علم النفس التكاملى، المجلد الرابع، العدد الثالث ١٩٤٩، ،ص٣٩٦.

(٢٣) د. أبو الفوا التفتازانى : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه، ص، ك.

مقدمـــة الطبعة الأولى من "ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه" يختلف عن التعريف الأول الــذى قدمه فى دراسته المبكرة "الإدراك المباشر عند الصوفية" ١٩٤٩م فى مسألتين:

الأولى : تتعلق بالموضوع؛ حيث يعالج فى "الإدراك المباشر عند الصوفية" مســألة معــرفية ذات طــبيعة نفسية فى إطار توجهات مجلة علم النفس التى كان يشــرف عليه الدكتور يوسف مراد فى نهاية الأربعينيات (نشرت المقالة ١٩٤٩م)، والــتعريف الــثانى فى مقدمة دراسته عن ابن عطاء الله السكندرى، الذى يقدم لنا التصـــوف الشاذلى السنى الأخلاقى التربوى القائم على العمل والمعاملات والعلاقة بالآخرين.

والمســألة الثانية : تتعلق بتاريخ كتابة كل من الدراستين الأول عام ١٩٤٩ قــبل ثورة يوليو، والثانية بعدها ١٩٥٨ حيث ظهرت أهمية المجتمع والحياة العامة للأفراد داخل المجتمع وشعور التفتازانى بذلك وهو العالم الذى شارك بشكل ما فى الحياة العامة بعد ذلك من خلال عضويته بمجلس الشورى.

ويقــدم لنا فى دراسة من أخريات أعماله الأكاديمية المنشورة تعريفاً شاملاً للتصـــوف محدداً إياه بأنه "فلسفة حياة، وطريقة معينة فى السلوك يتخذهما الإنسان لــتحقيق كماله الأخلاقى، والاتصال بمبدأ أسمى، وعرفان بالحقيقة، وتحقيق سعادته الــروحية" والتصـــوف فى هذا التعريف مشترك بين ديانات وفلسفات وحضارات متبايــنة فى عصـــور مختــلفة، "ومن الطبيعى كما يقول أن يعبر كل صوفى عن تجربـــته فى إطار ما يسود مجتمعه من عقائد وأفكار ويخضع تعبيره عنها أيضاً ما يسود عصره من اضمحلال وازدهار"[٢٤].

وفى هــذا الــتعريف يحرص التفتازانى على تعريف التصوف عامة، وليس فقــط التصوف الإسلامى، وهو يجمع فيه بين الفردية (التجربة الصوفية) والمجتمع والعصـــر (ما يسود مجتمعه)، وبالإضافة لذلك فالتعريف يحتوى على الخصائص العامـــة للتصـــوف الــتى حددها لنا فى كتابه "المدخل" وفى دراسته "التصوف" فى خمـــس خصـــائص؛ نفســـية وأخلاقيـــة وإبستمولوجية تنطبق على مختلف أنواع

(٢٤) د. أبو الوفا التفتازانى : مادة تصوف ، الموسوعة الفلسفية العربية.

التصـــوف، هى : الـــترقى الأخـــلاقى، الفناء فى الحقيقة المطلقة، العرفان الذوقى المباشر، الطمأنية أو السعادة، الرمزية فى التعبير.

وإذا كـــان تعريف التصوف تطور فى كتابات التفتازانى المتعددة، وإن ظل محافظـــا عـــلى جوهـــره باعتـــباره صـــفاء للنفس وسلوكاً أخلاقياً. فإن بناء العلم وموضوعاته كما نجده وتسميته، نشأته ومراحله، اتجاهاته ومدارسه نجد أصوله فى كـــتاب محمد مصطفى حلمى "الحياة الروحية فى الإسلام" وإن كان أستاذنا قد حدد العلم بدقه، وأضاف إلى موضوعاته، وفصل فى مراحله وتوسع فى أعلامه، وناقش كثيراً من نظريات الفلاسفة الغربيين فى التصوف مثل: رسل فى دراسته "التصوف والمـــنطق" ووليم جيمس فى كتابه "أنواع مختلفة من الخبرة الدينية" ورد على آراء المستشـــرقين خاصـــة فى الجدل الذى أثير فى القرن التاسع عشر حول التصوف الإســـلامى وهـــل هـــو مـــردود إلى مصادر أجنبية. وهذا ينقلنا من التعريف إلى الموضوع نفسه؛ التصوف: نشأته ومراحل تطوره.

ب- يواجه نص التفتازانى مشكلة أصل التصوف ومصادره، ويتابع جهود الرواد: مصطفى عبدالرازق ومحمد مصطفى حلمى وأبى العلا عفيفى فى مناقشة آراء الجيل السابق من مستشرقى القرن التاسع عشر الذين ردوا التصوف الإسلامى جمـــلة إلى مصـــدر خـــارجى أو أكـــثر. ويلاحظ التفتازانى أن المستشرقين المعاصـــرين يـــردون نشـــأة التصوف إلى مصدر إسلامى أساساً مع التسليم بوجود تأثيرات فى عصر متأخر من حضارات سابقة كما يرى "ترمنجهام" فى كـــتابه "الطـــرق الصـــوفية فى الإســـلام". ويـــرى أن التصوف الذى يذكره ترمـــنجهام، الذى وصلته إشعاعات من التصوف المسيحى أو من الأفلاطونية المحدثة أو من الغوصية هو نوع واحد من التصوف، وهو الذى اصطلح على تســـميته بالتصـــوف الفلســـفى، أما التصوف السنى الذى يمثله غالبية صوفية الإسلام فهو إسلامى النشأة والتطور(٢٥).

---

(٢٥) د. أبو الوفا التفتازانى: مادة تصوف، ص٢٥٩، اهتم التفتازانى بكتابات ترمنجهام وحلل كتاباته وناقش أعمال مثل "أثر الإسلام على أفريقيا" العدد الأول، مجلد عالم الفكر، الكويت، ١٩٧٠، ص٢٠١-٢١٥.

ويوضـــح هذا الرأى الذى يقدمه الأستاذ فى تفسير نشأة التصوف سمة مهمة فى كـتاباته، وهى السمة السجالية التى تبرز فى العديد من أعماله والتى تؤدى به فى هـذه القضـية إلى الـتأكيد على أن نظريات متقدمى المستشرقين فى مصدر التصوف لم تكن صحيحة أو منطقية، وأن الأثر الأجنبى فى ميدانه لم يظهر إلا فى وقـت مـتأخر من تاريخ الإسلام، وأنه محدود للغاية وعند طائفة قليلة من رجاله. ونلاحـظ أن التفـتازانى فى موقفـه هـذا يشيد برأى ماسينون فى كون التصوف الإسلامى ذا مصدر إسلامى، وقد اجتهد الأستاذ فى تأكيد هذه الحقيقة.

ويرتـبط بالنشـأة الـتطور، فقـد مر التصوف الإسلامى بمراحل متعددة، وتواردت عليه ظروف مختلفة، واتخذ تبعاً لكل مرحلة ووفقاً لما مر به من ظروف مفاهيم متعددة.

فالمرحـلة الأولى مـن التصـوف وهى مرحلة الزهد - وإن كنا نميل إلى اعتـبارها مرحـلة مسـتقلة سابقة على التصوف بمعناه الاصطلاحى التى تقع فى القـرنين الأول والثانى، وراءها عاملان أساسيان سببا ظهورها هما: القرآن الكريم الـذى تضـمن آيـات كـثيرة تدعو إلى الزهد. والعامل الثانى الأحوال السياسية والاجـتماعية واضطرابها بعد مقتل عثمان؛ مما دفع كثيراً من اتقاء المسلمين إلى إيثار العزلة والعبادة.

ويـبرز نـص التفـتازانى تحولاً واضحاً طرأ على الزهد منذ أوائل القرن الثالث الهجرى على وجه التقريب، ولم يعد الزهاد فى تلك الفترة يسمون بهذا الاسم وإنمـا عرفوا بالصوفية، هنا أصبح التصوف متميزاً عن الفقه على أساس منهجى، وأصـبح لعـلم الشـريعة جانـبان؛ أحدهمـا علم الجوارح الظاهرة من العبادات والمعاملات، والآخر علم الجارحة الباطنة وهى القلب.

ويظهرنا نص التفتازانى على حرصه الشديد، سواء فى تتبعه لنشأة التصوف أو لـتطور مـراحله على الربط بينه وبين الشريعة، ومن هنا تفرقته بين اتجاهين ظهـرا فى القرنين الثالث والرابع للتصوف الذى أصبح طريقاً للمعرفة بعد أن كان طـريقاً للعبادة، الأول يمثله صوفية معتدلون فى آرائهم يربطون بين تصوفهم وبين الكـتاب والسـنة، والـثانى يمثله صوفية انطلقوا من حال الفناء إلى القول شحطاً

بالاتحــاد أو الحــلول. ويؤكد التفتازانى على استمرار الاتجاه الأول "السنى" أثناء القــرن الخــامس الهجرى، على حين اختفى الثانى أو كاد أثناء هذا القرن. ويرجع ذلــك إلى غلبة مذاهب أهل السنة والجماعة الكلامية، ويعد القشيرى (ت٤٦٥هـ) والهــروى الأنصــارى (ت٤٨١هــ) مــن أبــرز صوفية هذا القرن الذين نحوا بالتصوف هذا المنحى.

ويــتوقف نــص التفتازانى أمام أهم صوفية هذا القرن أبا حامد الغزالى (ت ٥٠٥هــ)، والــذى يظهر كأكبر مدافع عن التصوف السنى فى كثير من دراسات الأســتاذ، وكتبه هى المصدر الأساسى للحديث عن المعرفة الصوفية المباشرة [٢٦]، والغزالى يتميز على من سبقه من الصوفية بأنه جعل التصوف طريقاً إلى المعرفة بــالله واضـــح المعـــالم، فتحدث عن موضوعات أفاض أستاذنا فيها الحديث مثل: المعرفة الصوفية من حيث أدواتها ومناهجها وغاياتها. وقد كان صوفياً إيجابياً عنى بشئون عصره، فقد وقف فى وجه المذاهب الفكرية المنحرفة بقوة ونقدها نقداً علمياً دقيقــاً، وكان من الممكن لهذه المذاهب أن تقوض دعائم المجتمعات الإسلامية فى عصره، وبعده لو تركت وشأنها"[٢٧]. وهو ما فعله التفتازانى فى رده على وجودية ســارتر أو فى بيانـــه لمعـــالم "منهج إسلامى فى تدريس الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصـــرة فى الجامعة"[٢٨]. وهو ما يمكن أن نعلق عليه الغاية من مجمل النص التفتازانى والتوجه الأساسى لهذا النص.

---

(٢٦) راجع التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ص١٥٢-١٨٤، سيكولوجية التصوف، مجلة علم النفس أكتوبر ١٩٤٩م، وفبراير ١٩٥٠م، المعرفة الصوفية: أدواتها ومنهجها، مجلة الرسالة ١٩٥٠م، ص٥٥٠-٥٥٤، الإدراك المباشر عند الصوفية، مجلة علم النفس، المجلد الرابع، العدد الثالث ١٩٤٩م، ،وكذلك العدد الرابع من مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، ديسمبر ١٩٩٥م.

(٢٧) د. أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط٣، القاهرة ١٩٧٩، ص١٩٨٤.

(٢٨) د. أبو الوفا التفتازانى : منهج إسلامى فى تدريس الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة فى الجامعة، مجلة المسلم المعاصر، بيروت ، ١٩٧٩، وكذلك دراسته الإسلام ووجودية سارتر، العدد الأول من مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة، ١٩٩٣، ص٧-٢٠.

ويمضـــي نـــص التفتازاني في تحديد تيارين في التصوف ظهراً في القرنين الســـادس والسابع؛ أحدهما فلسفي والآخر عملي. يتمثل الأول بوضوح عند متفلسفة الصـــوفية، والآخـــر عـــند أصحاب الطريق، ويعرض لكل منهما موضحاً القضايا الرئيســـية الـــتي يدور حولها التصوف الفلسفي الذي خصص لأحد أعلامه رسالته للدكـــتوراه وخـــص أبـــرز أعلامـــه محيي الدين بن عربي (ت٦٣٨هـ) بدراسة مستفيضة عن "الطريقة الأكبرية" في الكتاب التذكاري الذي صدر عنه(٢٩). ويرتبط التـــيار الثاني بالغزالي ارتباطاً وثيقاً ويفيض في الحديث عنه ويخصص له دراسته في الماجســـتير عـــن "ابن عطاء الله السكندري وتصوفه"، و"ابن عباد الرندي"(٣٠) ويكتب عن أهم أعلامه في "معجم أعلام الفكر الإنساني"(٣١).

ويـــتوقف التفتازاني عند بعض شخصيات التصوف الإسلامي التي كان لها أثـــرها الواضـــح على التصوف المسيحي في العصر الوسيط، والفكر الأوربي في عصـــر النهضة، خاصة الغزالي الذي ترجمت معظم أعماله إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية، والذي وصف بأنه أكثر المفكرين الذين أنجبهم الإسلام أصالة، وأكـــبر عـــلماء العقـــائد فيه(٣٢)، يليه ابن عربي الذي كان له أثر كبير على بعض مفكري أوربا، ويرجع الفضل في بيان هذا الأثر إلى الأسباني بلاثيوس، الذي يرى أن جميـــع الصوفية الذين جاءوا بعد ابن عربي في الشرق والغرب على السواء قد تأثـــروا به(٣٣). كذلك من الشخصيات الصوفية التي عرفت في أوربا وعرض لها الأستاذ، الصوفي الأندلسي ابن عباد الرندي (ت٨٠٥هـ)، الذي كتب عنه بلاثيوس

(٢٩) د. أبو الوفا التفتازاني : الطريقة الأكبرية، الكتاب التذكاري عن محيي الدين بن عربي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩، ص٢٩٥-٣٥٣.

(٣٠) د. أبو الوفا التفتازاني : ابن عباد الرندي حياته ومؤلفاته، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السادس، العدد ١-٢، عام ١٩٥٨، ص٢٢١-٢٥٨.

(٣١) راجع مواد : ابن عطاء الله السكندري أحمد زروق (ت٨٤٦-٨٩٩هـ)، أحمد الدردير (١١٢٧-١٢٠١هـ)، أحمد بن إدريس (١١٧٣-١٢٥٣هـ)، أحمد بن الشرقاوي (١٢٥٠-١٣١٦هـ) ، معجم أعلام الفكر الإنساني.

(٣٢) د. أبو الوفا التفتازاني : مادة تصوف : الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الأول، بيروت ١٩٨٦، ص٢٦٥.

(٣٣) الموضع نفسه.

تحــت عنوان "أسباني مسلم سابق على القديس يوحنا الصليبي" موضحاً تأثيره على المدرسة الكرملية فى التصوف، كتب عنه التفتازانى دراسة مستقلة، كما كتب عنه فى بحــثه "أبــن عطاء الله السكندرى" موضحاً كل ما يتعلق بحياته الصوفية محللاً مؤلفاتــه[٣٤]، وكذلــك ابــن سبعين الذى راسله الأمبراطور فردريك الثانى وعرفه معاصــره ريمــون لولــو، وبعد تحليل صورة الصوفية المسلمين فى أوربا يؤكد التفــتازانى أن التصــوف كــان الميدان الذى اتصلت فيه مسيحية القرون الوسطى بالإسلام اتصالاً وثيقاً[٣٥].

تلك هى بنية وموضوعات التصوف الإسلامى التى عرضها التفتازانى، ولنا عــليها ملاحظتان: الأولى أنها تناولت التصوف الإسلامى باتجاهيه السنى والفلسفى فى العصــور الوســطى عــند أهم أعلامه دون التطرق إلى التصوف فى العصر الحديــث، اللهم إلا فى بعض مواد معجم أعلام الفكر الإنسانى. والملاحظة الثانية: أن الأســتاذ مــن خــلال تلاميذه كون مدرسة متميزة من الباحثين استوفت معظم جوانب هذا العلم، سواء فى موضوعاته أو تاريخه أو أعلامه ، بحيث يمكن القول: إن مــا قدمه الأستاذ من خلال دراساته ودراسات تلاميذه يفوق جهد أى باحث آخر فى هذا الميدان، وتلك فى نظرى وإن كانت لا تدخل فى متن النص التفتازانى فهى بلا شك هوامشه المكثفة أو ظلاله الوارفة.

جــ- ويقــدم نــص التفــتازانى ويتضــمن مجموعة من القضايا الابستمولوجية والســيكولوجية، يعــرض فى أحــد دراساته لنظرية المعرفة وأداتها ومنهجها وموضــوعها عــند الصــوفية وفى الدراســات الأخرى للجوانب النفسية من التصــوف باعتباره حالات وجدانية. وقد قدم لنا هذه الدراسات فى فترة مبكرة من حياته وربما قبيل تخرجه وحتى حصوله على درجة الماجستير، وذلك فى مجلتى الرسالة وعلم النفس عام ١٩٤٩-١٩٥٠م.

(٣٤) راجع التفتازانى : ابن عباد الرندى، وكذلك ابن عطاء الله السكندرى.

(٣٥) د. أبو الوفا التفتازانى : مادة تصوف ص٢٦٦.

يعـرض فى نظرية المعرفة الصوفية: أداتها ومنهجها وموضوعها وغايتها للموضوعات التالية فى ست فقرات:

١- المقامات والأحوال طريق موصل للمعرفة.
٢- علم الظاهر وعلم الباطن.
٣- أداة المعرفة عند الصوفية.
٤- منهج الكشف عند الصوفية وطبيعة هذا المنهج.
٥- موضوع المعرفة الصوفية.
٦- غاية التحقق بالمعرفة الصوفية.

يحدد التفتازانى موضوعه بدقة موضحاً اتفاق الصوفية على أن غاية السالك إلى الله أن يـتحقق بمعرفته سبحانه وتعالى معرفة يقينية، والأحوال والمقامات هى الطـريق الموصـل إلى المعرفة. وأن الكلام فيما يعرض للنفس والقلب من أحوال وما تكتسبه من مقامات سماها المتصوفة بعلم الباطن أو الحقيقة أو الدراية، وفرقوا بيـنه وبين علم الظاهر أو النقل أو علم الرواية. ويؤكد اعتماداً على اللمع للطوسى والرسـالة للقشـيرى أن الصوفية لا يعتمدون على العقل، إذ إن العقل عاجز عن إدراك حقيقـة الـذات الإلهية، التى تدرك إدراكاً مباشراً لا مدخل للعقل فيه، وذلك بواسـطة أخرى هى القلب، فهم يعتمدون على الذوق، ويوضح لنا ذلك باستشهادات مـن الجـرجانى، والطوسى، وابن خلدون، والشعرانى، وابن عربى، والغزالى فى كتـبه المـتعددة، والجيلانى، وصوفى مصرى هو الشيخ حسن رضوان (ت١٣١٠ هـ) الـذى يرى فى كتابه "روض القلوب المستطاب" أن "علم الحقيقة لم يتوصل إليـه الصـوفية عن طريق التفكير أو العقل، إنما عن طريق الكشف والإلهام"[٣٦]، ولـكى يـبين طبيعة الكشف باعتباره منهجاً من مناهج المعرفة يفرق بين: معرفة اسـتدلالية ومعـرفة مباشرة حدسية؛ لينتهى إلى أن المعرفة الصوفية إنما هى من قبيل العرفان المباشر ووسيلتها هى الإدراك الصوفى الوجدانى Intuition mystique وهذا هو ما ينطبق على ما يطلق عليه الصوفية كلمة "كشف".

(٣٦) د. أبو الوفا التفتازانى : المعرفة الصوفية، مجلة الرسالة، القاهرة ١٩٥٠، ص٥٥٤.

وكـــان التفـــتازانى قد تناول الموضوع نفسه من قبل ١٩٤٩م تحت عنوان "الإدراك المباشـــر عند الصوفية" مؤكداً على نفس المعانى، حيث أوضح أن العلوم الـــلدنية الـــتى تأتى أصحابها عن طريق الكشف وارتفاع حجب الحس هى معرفة مباشـــرة للذات الإلهية وصفاتها، ثم هى بالتالى معرفة لحقائق كل موجود، وإدراك لأسرار الكون وبواطن الشريعة وأحكامها، وهى معرفة يقينية لأنها كشفية.

ولما كان الإدراك الوجدانى المباشر هو نوع من الإلهام ناشىء عن الكشف والمشـــاهدة، وهـــو نـــتيجة لتلك الأزمات النفسية والحالات الوجدانية التى يعانيها المتصـــوف، وأن الصـــوفية يطلقون عادة على هذا النوع من الإدراك كلمة كشف Intuition، فـــإن التفـــتازانى ينتقد ما ذهب إليه الخضيرى فى دراسته "كيف تترجم الاصـــطلاح intuition الـــتى يـــبين فيهـــا أن أقـــرب الألفاظ العربية لترجمة هذا الاصطلاح فى استعمال الصوفية هو لفظ الذوق الذى يقابله بالألمانية Ezlehnis

ويؤكـــد التفـــتازانى أن هـــذه الكـــلمة غير دقيقة، لأن الذوق يدل على حالة وجدانيـــة مـــن حالات المتصوف، فضلاً عن أن الصوفية أنفسهم لم يستعملوا هذه الكلمة للدلالة على كونها منهجاً للوصول إلى المعرفة، ويتضمن نصاً ما يثبت ذلك ممـــا جاء فى اصطلاحات محيى الدين بن عربى، والكاشى السمرقندى، والتهانوى والســـهرودى والقشيرى مما يفهم منه أن الذوق حالة وجدانية، أو حال يترقى منه المتصـــوف إلى غيـــره، وليست بذلك النوع من الإدراك المباشر الذى هو نهاية ما يصـــل إليه المتصوف، ويؤكد على ما أورده ابن عربى فى الباب الثالث والسبعين مـــن الفـــتوحات، والـــتدابيرات الإلهيـــة، لينتهى إلى أنه من الأدق أن تترجم كلمة Intuition فى اســـتعمال الصوفية بالكشف(٣٧)، وتظهر هذه الاستشهادات قوة حجج التفـــتازانى وتوفره على المصادر الأساسية للاصطلاحات الصوفية واعتماده الكبير على ابن عربى الذى استشهد بالعديد من كتاباته وضمنها نصه.

(٣٧) د. أبو الوفا التفتازانى : الإدراك المباشر عند الصوفية، مجلة علم النفس، المجلد الرابع، العدد الثالث، ١٩٤٩، ص ٣٧١-٣٧٢.

ويظهـــر نص التفتازاني الاهتمام الكبير بدراسة الناحية السيكولوجية؛ حيث يعــتمد في العديد من دراساته على مراجع علماء النفس، ويذكر ويستشهد بكتابات الباحــثين المعاصرين فيه، ويخضع الصوفية وأقوالهم لتحليلات علم النفس كما نجد في دراســتيه عن "ابن عطاء الله السكندري" و"الطريقة الأكبرية" ويخصص دراسة عن "سيكولوجية التصوف" موضحاً أن التصوف رغم أنه كمذهب يختلف باختلاف الأديـــان جميعـــاً، ومـــن العسير أن نجد له تعريفاً جامعاً مانعاً من نواحيه الدينية والفلســـفية والأخلاقية فإنه من الوجهة السيكولوجية من الممكن تعريفه، فهو سلسلة متصـــلة الحـــلقات من الحالات الوجدانية الخاصة وإن دراسته تعتمد اعتماداً كبيراً على المنهج الاستبطاني في علم النفس[٣٨].

ويحاول أن يرسم صورة عامة واضحة المعالم للطريق الذي يسلكه الصوفي بوجـــه عام، وأن يصنف هذه الحالات الوجدانية التي ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً، بحيـــث يخضع التصوف لقانون سيكولوجي عام يمكن أن يوحد بين المتصوفة على اخـــتلافهم، ويحلل الأستاذ حالات المتصوف النفسية في أربعة أسس يصيغ لنا من خلالها سيكولوجية التصوف وهي:

(أ) حالـــة الاستعداد النفسي الصوفي الذي قد ينشأ عن الإيحاء الخارجي أو الذاتي، وغالباً ما تكون الصدمات النفسية عاملاً مهماً في ظهور هذا الاستعداد النفسي للتصـــوف. وهو يعتمد على تحليل كلام الغزالي في "المنقذ من الضلال" الذي يقارنــــه بـــالقديس أوغسطين موضحاً أن هذه المرحلة تتركب من عدة حالات وجدانيـــة كالشـــك والقلق النفسي والكآبة، والحزن العميق، والخوف من أشياء مجهولـــة، ومحاولة إدراك حقيقة الكون وكشف المحجوب واحساسات أخرى مبهمة غامضة تنتهي جميعها بواسطة الإيحاء بالاتجاه نحو الله وسلوك طريق التصوف.

(ب) العاطفـــة الصوفية وتكوينها، فالحب الصوفي هو الحالة الوجدانية التي تصدر عـــنها ســـائر الحـــالات الأخـــرى، وهـــو المحور الرئيسي الذي تدور حوله

---

(٣٨) د. أبو الوفا التفتازاني : سيكولوجية التصوف، مجلة علم النفس، أكتوبر، ١٩٤٩، ص٢٩١

موضوعات التصوف، وأن هذه العاطفة الصوفية من نوع خاص من العواطف التى تتخذ المثل العليا موضوعاً لها.

(جـــ) ضـــرورة وجود شيخ : والشيخ كما يصفه فى حقيقة الأمر طبيب نفسانى بـــارع[٣٩] فهـــو يـــلجأ إلى التحـــليل النفسى لتعرف أحوال النفس وتشخيص أمراضـــها، ويشـــير إلى التصنيف السيكولوجى، الذى ذهب إليه الصوفية فيما يختص بقوى الإنسان وملكاته النفسية.

(د) المجـــاهدة النفسية، وهى سمة التصوف وبداية طريقه وأساسها هو قمع الميول والـــنزعات الـــتى لا توافق المبادئ الأخلاقية، وهذا القمع يكون قمعاً شعورياً إرادياً فيما يرى التفتازانى، الذى يؤكد على أن سلوك المتصوف فى المجاهدة ســـلوك إرادى يتميز بالقدرة على الكف وتركيز الانتباه فى اتجاه معين مرسوم يرى المتصوف أنه أسمى من غيره، ويرى الأستاذ أن المجاهدة النفسية وسيلة من وسائل الإعلاء للغرائز الإنسانية، ويؤكد إن الصوفية توصلوا من اهتمامهم بالجانب السيكولوجى والأخلاقى إلى قواعد مهمة فيما يتعلق بالسلوك، وأشاروا على مريديهم بالأخذ بها للإتصاف بالكمال الأخلاقى.

ولـــنا ملاحظات على هذه الدراسة التى أراد فيها التفتازانى أن تكون قانوناً ســـيكولوجياً عامـــاً : الأولى أنه لم يستمد مادته إلا من التصوف الإسلامى معتمداً على أكبر قدر من اصطلاحات الصوفية فى هذا المجال، وإن كان قد أشار إشارتين عابرتين للقديس أوغسطين إلا أنه لم يتعرض للتصوف فى الديانات الشرقية القديمة والأديان الأخرى. والثانية : إنه طبق هذا البحث النظرى على موقف ابن عطاء الله السكندرى وكذلك على مقالته عن "الطريقة الأكبرية".

---

(٣٩) ويذكر أربع قوى هى: النفس والروح والقلب والسر ولكل منها وظيفة معينة، فالنفس عندهم مركزاً للشهوات والأفعال المذمة والروح مبدأ للحياة والأفعال الحميدة، والقلب محلاً للمعرفة، والسر محلاً للمشاهدة، ويرى إننا لا نستطيع أن نضع حدوداً فاصلة بين هذه القوى إذ إنها ذات تأثير متبادل وإنها مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً، المرجع السابق.

وتكـــتمل هـــذه المجموعة من الأبحاث بدراسته "نظرة إلى الكشف الصوفى" الـــتى شـــارك بها فى عدد خاص أصدرته مجلة الفكر المعاصر عن برتراندرسل ١٩٦٧ [٤٠].

وينبه على أن محاولة رسل لا يجب أن يفهم منها أنها قد استحال إلى مدافع عن الصوفية، وهو يعلن صراحة أن فى التصوف نوعاً من الحكمة يمكن أن يمتدح مـــن حيـــث إنه موقف تجاه الحياة لا من حيث هو عقيدة عن العالم وهذا هو الذى جعـــل رســـل لا يوافق فلاسفة الصوفية على الكثير من الآراء التى يذهبون إليها، وهو ينتقدها نقداً دقيقاً؛ ليبين ما تنطوى عليه من الفساد نتيجة المنهج الخاطئ الذى أدى بهـــم إليهـــا[٤١]، ويـــرى أن ملاحظات رسل على جانب كبير من الأهمية فى دراســـات التصـــوف، وهى لا تصدق فقط على التصوف فى الغرب، وإنما تصدق أيضاً على التصوف الإسلامى.

ويعـــدد لـــنا التفـــتازانى الخصائص التى حددها رسل للتصوف ويفيض فى تحليـــلها وإن لم يسع لتطبيقها على الصوفية المسلمين، ففى وصفه كيف بدأت حياة ابن عطاء الله السكندرى الصوفية، يصف لنا الحالة النفسية له التى تمثل البداية فى ســـلوكه الطـــريق الصوفى والتى سببها له تجاذب دوافع متعارضة، فالتمس لنفسه مخـــرجاً مـــنها بالالـــتجاء إلى الله، ويحلل هذه الحالة بالاعتماد على دراسة "إميل بوتـــرو" ســـيكولوجية التصـــوف[٤٢]،وفى حديثه عن الكرامات يتوقف عند معنى

---

(٤٠) قد نشر الفيلسوف الإنجليزى فى يوليو ١٩١٤ بحثاً عنوانه "التصوف والمنطق"، عالج فيه التصوف من حيث هو منهج فى المعرفة آثره عديد من الفلاسفة منذ اليونان إلى العصر الحاضر من حيث هو مجموعة اعتقادات، كما ناقش فى هذا البحث إمكان وجود علاقة بين التصوف كتجربة ذاتية والعلم بما يدعو إليه فى منهجه من موضوعية خالصة، ولفت الأنظار إلى أن بعض كبار الفلاسفة قد أمكنه أن يجمع بين النزعة الصوفية والنزعة العلمية، ورأى فى ذلك الجمع والتوفيق سموا فكريا جعل من أصحابه فلاسفة بالمعنى الصحيح، د. أبو الوفا التفتازانى : نظرة إلى الكشف الصوفى، مجلة المعاصر، العدد رقم ٣٤،، القاهرة، ديسمبر ١٩٦٧م، ص٣٣.

(٤١) المرجع السابق: ص٣٣.

(٤٢) فذهابه إلى أستاذه أبى العباس المرسى الذى وجهه إلى الطريق الصوفى. ويعتبر التفتازانى التقاء ابن عطاء بشيخه لأول مرة نقطة التحول من حياته العادية إلى حياة صوفية التى يطلق عليها عالم النفس المعاصر روبرت فوكس التوبة الصوفية Mystical connversion فى

"الــوارد"، وهو حالة نفسية ترد على الصوفى يغيب معها تماماً عن شعوره بنفسه دون تعمـــد منه، ويستعين بما جاء فى قاموس علم النفس Warren، ليفسر لنا بعض وقـــائع حيـــاة ابن عطاء وما حدث له مع أتباعه [٤٣]، وفى الفصل الثانى من القسم الثانى من كتابه يصنف بواعث السلوك بردها إلى قوى النفس المختلفة موضحاً أن ارتـــباط عـــلم النفس عند ابن عطاء بعلم الأخلاق، لا يقلل من قيمة ما توصل إليه الصوفية من آراء نفسية[٤٤].

ويفيـــض التفـــتازانى فى الحديـــث عن الجانب النفسى حين تناول للطريقة الأكـــبرية، حيـــث يؤكد أن الشيخ هو الطبيب (النفسى) المعالج للمريد السالك[٤٥]. فالاســـتعداد النفسى شرط أساسى للتصوف[٤٦]. ويرى أن الرياضيات العملية التى كـــان يســـتخدمها ابن عربى فى سلوكه وينصح بها مريديه، ذات تأثير قوى على تكوين المريد من الناحية النفسية[٤٧] والخلوة عند الصوفية تجعل شخصية الصوفى قريـــبة مما يطلق عليه علماء النفس الشخصية الانطوائية، ويستمر فى هذا التحليل المستند إلى أبحاث علم النفس لتوضيح الحالات المختلفة التى يمر بها الصوفى فى حياته.

ويتضمن النص التفتازانى عدداً من شخصيات الصوفية مختلفى الاتجاهات، خصـــص لهم بعض الدراسات الطويلة مثل ابن عطاء الله، وابن سبعين، أو أبحاث مستفيضـــة مـــثل ابـــن عباد الرندى، وابن الفارض، وابن مسرة، والبسطامى. مما يجعلـــنا نتبين نوعين من الأبحاث الأول يعرض فيه لقضايا صوفية، والثانى يتناول

كتابه "المدخل إلى علم النفس الدينى"د. أبو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه، ص٥٣-٥٤.

(٤٣) المرجع السابق : ص٧٤.

(٤٤) وهذا ما يوضحه إميل بوترو الذى أنصف الصوفية كباحثين فى مجال علم النفس، ومن هنا فهو يشبه الشيخ المرشد بالطبيب النفسانى. نفس المرجع : ص١٧٣

(٤٥)"فالمريد كما صوره لنا ابن عربى هو بتعبير علم النفس الحديث خاضع على الدوام لإيحاء شيخه الذى يوجه سلوكه الذى يوجه سلوكه وفق اتجاه مثالى مرسوم"، د. أبو الوفا التفتازانى : الطريقة الأكبرية، الكتاب التذكارى لابن عربى، ص٢٢٣.

(٤٦) المرجع السابق : ص٢٢٣.

(٤٧) المرجع السابق: ص٢٣٥.

فيــه الأعـــلام، وسوف نعرض فى هذه الفقرة لأعلام الصوفية الذين حفل بهم نص التفتازانى.

١- ويأتى فى مقدمة هؤلاء ابن عطاء الله السكندرى الصوفى الشاذلى الذى خصه بأكــثر من دراسة[٤٨]. وابن عطاء الله شخصية صوفية مصرية لها خطرها، ويعد صاحبها بحق ممثلاً للتصوف المصرى فى أوائل القرن الثامن الهجرى، وتــتجاوز أهميــته التصوف الإسلامى إلى التصوف المسيحى، بالإضافة إلى كونـــه أديبـــاً بارعـــاً ذا طريقة فى البلاغة ومكانة مرموقة فى تاريخ الأدب الصـــوفى العربى وإماماً من أئمة المدرسة الشاذلية. ودراسته عنه "ابن عطاء الله وتصـــوفه" تنقســـم إلى قســـمين: الأول عـــن ابن عطاء وعصره وحياته التصـــوفية ومصنفاته فى ثلاثة فصول، والقسم الثانى فى المذهب العطائى فى فصـــول سبعة تتناول على التوالى: الفكرة الأساسية فى المذهب العطائى وهى إسقاط التدبير، ثم النفس الإنسانية، ومجاهدة النفس فى الفصل الثالث، ثم النفس وآداب الســـلوك، والـــنفس بين المقامات والأحوال، ثم المعرفة، وأخيراً شهود الأحديـــة فى الوجود، معقباً على ذلك بمناقشة بعض تأويلات المذهب العطائى فى الأحدية وتفسير الوجود.

وإذا كان بحث ابن عطاء أول أبحاث التفتازانى الأكاديمية ١٩٥٥، فقد شغل الأســـتاذ بـــه فأعاد الكتابة عن الحكم العطائية فى المجلد الثالث من تراث الإنسانية إبريل ١٩٦٥م، حيث عرض لحياته ومصنفاته وللحكم العطائية التى تعد من وجهة نظره أهم ما كتب ابن عطاء فى التصوف، ويمكن اعتبار مصنفاته الأخرى بمثابة شروح لما انطوت عليه الحكم من الآراء. ويتناول موضوعات الحكم وخصائصها وقيمـــتها مـــن الـــناحية التصوفية التى يظهر فيها الرمز الصوفى، ويشير للشروح المختلفة عليها ويقدم مختارات منها. ثم يتناول ابن عطاء مرة ثالثة فى معجم أعلام الفكر الإنسانى عارضاً لحياته وتصوفه ومؤلفاته وآرائه الصوفية وتأويلاتها.

(٤٨) عن ابن عطاء الله كتب التفتازانى بالإضافة لدراسته المهمة عن ابن عطاء السكندرى وتصوفه، كتب مادة ابن عطاء الله فى معجم أعلام الفكر الإنسانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٢٢١-٢٢٥٨، وحكم ابن عطاء الله السكندرى، مجلة تراث الإنسانية، المجلد الثالث القاهرة إبريل ١٩٦٥، نص٣١٣-٣٢٠.

٢- ويرتــبط بابن عطاء الله شارح الحكم ابن عباد الرندى الصوفى الأندلسى الذى كــان ممــثلاً للمدرسة الشاذلية الصوفية فى أسبانيا فى القرن الثامن الهجرى، وإذا كــان الفضل يرجع إلى آسين بلاثيوس فى الإبانة عن أهمية الرندى فإن بحث الأستاذ يظهر لنا السمة السجالية التى تتميز بها كتابات شيخنا، فهو يأخذ عــلى المستشــرق الأسبانى رده اتجاه المدرسة الشاذلية فى مذهب الزهد فى الكــرامات إلى مصــدر مسيحى من الرهبانية، وأنه لم يحاول أن يلتمس لهذه الــنظرية مصــدراً إســلامياً. بالإضافة إلى أنه لم يعن بدراسة مذهب الرندى دراسة مستقلة تبين أهميته كصوفى له مكانته فى التصوف الإسلامى، ويظهر بحــثه عــن الرندى وكأنه مجرد وسيط يقوم بنقل آراء المدرسة الشاذلية إلى متصــوفى الأســبان من المسيحيين. وأنه أى بلاثيوس اعتمد فى دراسته على "شــرح حكم ابن عطاء الله" للرندى الذى وإن كانت له قيمة تصوفية كبرى إلا أنه لا يظهرنا على آراء الرندى الشخصية إلا بمقدار ضئيل.

ويقــدّم لنا ننص التفتازانى عن الرندى حياته بالتفصيل مبيناً مدى ارتباطها بمذهــبه الصوفى، كما يقدم دراسة مستفيضة عن مصنفاته[٤٩]. كذلك يوضح لنا أن مذهــب الرندى الصوفى قد أثر بشكل واضح فى تصوف المشارقة، وأنه كانت له مكانــة ممــتازة فى التصوف المغربى، والتصوف المسيحى فى حياته وبعد مماته، يبحث التفتازانى فى القسم الأول حياة الرندى؛ حيث يعرض لنا اسمه ولقبه ونسبه، مولــده ونشأته، ودراسته للعلوم الدينية، سلوكه طريق التصوف، دوره فى الطريقة الشاذلية، بعض جوانب من حياته الخاصة وأخلاقه، توليه الإمامة والخطابة بمسجد القــرويين بفاس، وفاته وقبره، وتلاميذه. وفى القسم الثانى مصنفات الرندى وقيمتها التصوفية وأهميتها وثبت شامل بها.

---

(٤٩) يقول: "ومن حق الرندى أن نجلى مذهبه ونبرز شخصيته لا على أنه وسط بين الفكر الإسلامى والفكر المسيحى فحسب وإنما كصوفى له مذهبه الصوفى المتصف بالأصالة وله مكانته فى تاريخ التصوف الإسلامى بوجه عام". أبو الوفا التفتازانى : ابن عباد الرندى ، ص٢٢٢.

ويتـــناول في هـــذا السياق عدداً كبيراً من أعلام التصوف السنى وأصحاب الطـــرق نذكر منهم: أحمد الرفاعى (ت٥٧٣هـــ) الذى انتشرت طريقته بمصر عن طريق أبى الفتح الواسطى الذى أقام بالإسكندرية، ودفن بها (٥٨٠هـــ)(٥٠).

وأحمـــد رزوق (٨٤٦-٨٩٩هـــ) أحد كبار الصوفية على الطريقة الشاذلية الذى ترجع أهميته عند التفتازانى إلى عناية بتحديد الصلة بين التصوف والفقه كما يتـــبين مـــن كـــتابه "قواعد التصوف" وهى محاولة أصيلة لا نجدها عند غيره من الصـــوفية الســـابقين عليه. يدعو للتوقف عن الحكم على متفلسفى الصوفى. ويرى التفتازانى أن هذا الرأى متصف بالجرأة من صوفى شاذلى(٥١)، ويعتبره الأستاذ من دعاة إصلاح التصوف بالمغرب فى القرن التاسع الهجرى.

كذلك أحمد الدردير (١١٢٧-١٢٠١هـــ) أحد كبار الطريقة الخلوتية بمصر فى القـــرن الثانى عشر الهجرى الذى عين شيخاً على أهل مصر بأسرها فى وقته حســـاً ومعـــنى"(٥٢). ويكـــتب عـــن أحمد إدريس (١١٧٣-١٢٥٣هـــ) من أقطاب الصـــوفية العمـــليين من أصحاب الطرق فى القرن الثانى عشر الهجرى(٥٣). أسس الطـــريقة الإدريســـية أحـــد فـــروع الطـــريقة الشاذلية وتعتبر السنوسية فى ليبيا والميرغنية فى السودان فرعين لها.

وأحمـــد بـــن الشـــرقاوى (١٢٥٠-١٣١٦هـــ) أحد متأخرى الصوفية على طريقة الخلوتية فى صعيد مصر، وهو كما يخبرنا التفتازانى صاحب اتجاه واضح إلى إصلاح أوضاع الطرق الصوفية فى عصره(٥٤).

ومقابل هؤلاء الأعلام من التيار السنى الشاذلى ومن أصحاب الطرق يتناول التفـــتازانى: ابن سبعين وابن مسرة وابن عربى من الصوفية المتفلسفين. يكتب عن أبى يـــزيد البســـطامى الذى اختلفت الآراء فيه اختلافاً بيناً. ورويت عنه أقوال من

(٥٠) د. التفتازانى : مجلة الأزهر العدد ٥ ، السنة ٤٥، يناير ١٩٨٧م، ص١٠٤-١٠٥.
(٥١) المصدر السابق : ص٤٤٩-٤٥١.
(٥٢) المصدر السابق : ص٤٤٧-٤٤٨.
(٥٣) المصدر السابق : ص٤١-٤٣.
(٥٤) المصدر السابق : ص٤٥٣-٤٥٤.

قـــبيل الشطحيات وغلب عليه حال الفناء ويفيض فى ذكر أقواله وينتهى إلى أن أبا يزيد لا يقصد حقيقة الاتحاد لمخالفته صراحة للعقيدة الإسلامية(٥٥).

ويكـــتب عـــن ابن مسرة (٢٦٩-٣١٩هـ)؛ من أوائل فلاسفة الأندلس ذوى الـــنزعة الصـــوفية، ويـــربط بيـــنه وبين المعتزلة ويشير إلى أنه أخذ علومه على أبيه(٥٦)، إلا أن أهم الأعلام الذين يتناولهم بالبحث والدراسة من أصحاب هذا التيار والذيـــن أفســـح لهـــم مكانـــاً فى نصــــه هما ابن سبعين وابن عربى، خص الأول بأطروحـــته فى الدكـــتوراه حـــولا "ابن سبعين وفلسفته الصوفية" وبمادة طويلة فى "معجـــم أعـــلام الفكر الإنسانى" بالإضافة إلى دراسة مقارنة بينه وبين السهرودى حكيم الإشراق(٥٧) وكذلك فى مدخل إلى التصوف الإسلامى(٥٨).

وتنقســـم دراســـته الأساسية عن ابن سبعين إلى قسمين، الأول : يتناول ابن ســـبعين ومصـــنفاته ومنزلـــته وأثره فى ثلاثة فصول. والثانى فى فلسفته فى ستة فصـــول، تشمل: الوحدة المطلقة، التحقيق والمحقق، منطق المحقق، النفس والعقل، الأخـــلاق الـــنظرية، الأخـــلاق العمـــلية. فابن سبعين أبرز ممثلى مذهب الوحدة الوجوديـــة المطلقة، ومن أبرز ما يميزه أنه مفكر ناقد قد استوعب كثيراً من الآراء والفلســـفات. وكـــانت عـــناية التفتازانى بالإضافة إلى إبراز الجوانب المجهولة فى مذهـــب ابن سبعين موجهة إلى إظهار علاقة مذهبه بالكتاب والسنة اتفاقاً واختلافاً؛ حيـــث انـــتهى إلى كـــون الفيلسوف الصوفى الأندلسى مسلم مؤمن، رائده أنه يؤيد الشريعة وأنه يدافع عن السنة وأنه يكشف للناس أسرارهما.

ويـــدور مـــا كتـــبه عن ابن سبعين فى معجم أعلام الفكر الإنسانى فى هذا الاتجـــاه، فهو يتناول حياته ومؤلفاته وتصوفه والوحدة المطلقة، ثم علاقته بالمنطق

---

(٥٥) المصدر السابق : ص٩٨١-٩٨٤.

(٥٦) المصدر السابق : ص٢٦٩-٢٧١.

(٥٧) د. أبو الوفا التفتازانى : ابن سبعين وحكيم الإشراق، الكتاب التذكارى عن السهروردى، القاهرة ١٩٧٤، ص٢٩٢-٣١٨.

(٥٨) د. أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ، ص٢٠٥-٢١١.

الأرسـطى[٥٩]. ويقارن بينه وبين السهرودى حكيم الإشراق، موضحاً مفهوم ابن سبعين للحكمة الإشراقية، ونقده للسهروردى مع ملحق مجموعة من النصوص التى ينتقد فيها ابن سبعين الحكمة المشرقية وآراء السهروردى.

ويتخذ التفتازانى الموقف نفسه من ابن عربى فى دراسته الطريقة الاكبرية. حيـث يوضـح لـنا لمـاذا سميت طريقة ابن عربى الأكبرية. ويتناول شيوخها وأسانيدها، ويناقش زعم لاشاتليه من أنها فرع من الطريقة القادرية، ويبين منهجها وغايـتها ويـتوقف بالتفصـيل عند أصولها العامة وآدابها، مثل: السلوك والسفر، ضـرورة الشيخ للمريد، العزلة والخلوة، الصمت والجوع والسهر، الذكر، موضحاً أثـر الرياضات العملية فى نفسية السالك، ثم يناقش مكانة ابن عربى كشيخ للطريقة الأكبرية، ولماذا لم تنتشر الطريقة الأكبرية انتشاراً واسعاً. وهو فى ذلك يستند إلى الأسـس الإسـلامية للتصوف المبنية على الكتاب والسنة؛ لذا فهو دائم الإشارة إلى أقطـاب الطـريقة الشـاذلية التى تعد بالنسبة له المعيار الذى يتناول طريقة ابن عـربى على أساسها خاصة ابن عطاء الله السكندرى ومؤلفاته[٦٠]، وهو ينطلق فى ذلـك من التناول النفسى للتصوف، فمن المفيد كثيراً فى دراسة النظريات الصوفية أن نسأل دائماً هذا السؤال: ما هى الظروف النفسية التى تحيط بالصوفى حين كان يعبر عن نظريته فى هذه المسألة أو تلك" [٦١].

ويؤكد التفتازانى تأثر ابن عربى ليس بالتصوف الفلسفى بل برسالة القشيرى ومصـنفات الغزالى[٦٢]. والمنتمى لهذه الطريقة يجعل أعمالها كلها خالصة من حظ طـلب المقامـات، كما يهرب دائماً من مواضع التهمة[٦٣]. وفى حديثه عن السلوك والسـفر، يشـير إلى أن ابـن عربى يجعل العلم الشرعى نقطة البداية فى سلوك

(٥٩) د. أبو الوفا التفتازانى : معجم أعلام الفكر الإنسانى، ص١٦٣-١٧٠.

(٦٠) د. أبو الوفا التفتازانى : الطريقة الأكبرية ، الكتاب التذكارى عن ابن عربى، القاهرة، ١٩٦٩، صفحات: ٣٠٢، ٣٠٥، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧، ٣٢٥، ٣٣٢، ٣٤٠.

(٦١) المرجع السابق : ص٢١٧.

(٦٢) المرجع السابق : ص٣٠١.

(٦٣) المرجع السابق : ص٣١٢.

السالك، ويذكر أقواله المتعددة التي تؤكد ذلك[٦٤]، والذكر عند ابن عربي على اختلاف صوره من أهم الرياضات العملية التي ينبغي للسالك للطريق الصوفي أن يلتزمها، تستند عنده وعند غيره من صوفية الإسلام على اختلاف نزعاتهم إلى مصدر إسلامي من القرآن والسنة[٦٥]. وهو يورد أدلة مما نقله أبو يحيى زكريا الأنصاري شيخ الإسلام والشعراني عنه؛ ليبين مدى احترامهم له "وما له دلالته في الإبانة عن مكانة ابن عربي باعتباره شيخاً من شيوخ الطرق، أن طرقاً أخرى كالشاذلية، قد أظهروا احترامهم له كشيخ من شيوخ التربية الروحية. فقد أخذ ابن عطاء الله السكندري أحد أركان الطريقة الشاذلية بكثير من قواعد ابن عربي في السلوك.. وكان يعظمه"[٦٦]، وكان الإمام محمد عبده من المدافعين عن ابن عربي.. ويقف التفتازاني عند أتباع الطريقة في مصر. ويستفاد من هذا الكلام أن الطريقة الأكبرية كانت موجودة بمصر في القرن الثالث عشر الهجري وكان أبرز ممثليها هما الشيخ مصطفى المناوي وتلميذه الشيخ علي مكتسي البولاقي[٦٧] ويذكر لنا كثيرين غيرهما من مشايخها، ولقي التفتازاني بعض أتباع هذه الطريقة الصوفية وعلماء الأزهر[٦٨]. وينتهي من ذلك إلى أن ابن عربي قد استطاع رغم ضراوة الحملات التي وجهت إليه في حياته وبعد مماته أن يحيا على مر العصور بآرائه وتوجيهاته الروحية في السلوك الصوفي، وأن ينجح في أن يخلد ذكره كصوفي مرب بوساطة طريقته التي كتب لها البقاء في العالم الإسلامي منذ القرن السابع الهجري إلى العصر الحاضر، وهذا مما لم يتهيأ لكثير من مفكري الإسلام وصوفيته وفلاسفته الكبار، ،وهو من دلائل عظمة شخصيته، إن لم يكن أكثرها في الدلالة عليه[٦٩].

---

(٦٤) المرجع السابق : ص٣١٤.
(٦٥) المرجع السابق : ص٣٣١.
(٦٦) المرجع السابق : ص٣٤٠.
(٦٧) المرجع السابق : ص٣٤٨.
(٦٨) المرجع السابق : ص٣٥١.
(٦٩) المرجع السابق : ص٣٥٢.

وهـو موقف فيه تقدير لابن عربى وطريقته. وهو موقف أكثر تسامحاً من حكمه على ابن عربى فى "مدخل إلى التصوف الإسلامى" فرغم الإشادة بأهمية ابن عربى وجهوده وبيان تقدير الغربيين له، وبعد عرض نظريته فى الوحدة الوجودية ونظريته فى الحقيقة المحمدية، ووحدة الأديان يرى أن هذا من الغلو الذى لا مبرر له[٧٠].

ولا يقتصـر نـص التفتازانى على أعلام الصوفية بل يضم أعلام الفلاسفة والكلام. فمن كتاباته المبكرة "دراسات فى الفلسفة الإسلامية" [٧١]، يعرض لمدارسها وأعلامها، وأبحاثه المختلفة فى "الفكر الفلسفى فى مجال العلوم الشرعية"[٧٢]، و"ابن طفيـل وأثـره على الغرب"[٧٣]، و"إخوان الصفا ودورهم فى التفكير الإسلامى"[٧٤] وابـن رشـد وموقفـه مـن التصوف"[٧٥]. كما كتب عن "الوهابية والتصوف"[٧٦] و"الشيعة والسنة والصوفية". ويهمنا أن نعرض لموقفه من السنة والشيعة والصوفية الذى قدم به كتاب الحر العاملى "وسائل الشيعة"، وكتاب المستدرك للمحقق الميرزا حسـين النووى. وهو يرى فى نشر هذين الكتابين ما يحقق غاية التقريب بين السنة والشـيعة وإيجـاد نوع من الفهم المتبادل بينهما فينظر كل فريق منهما إلى الآخر نظرة إنصاف وتقدير[٧٧].

---

(٧٠) د. أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ص٢٠٤.
(٧١) د. التفتازانى : دراسات فى الفلسفة الإسلامية ، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٥٧
(٧٢) د. أبو الوفا التفتازانى : الفكر الفلسفى فى مجال العلوم الشرعية، مجلة الهدى الإسلامى، جامعة محمد على السنوسى، ليبيا العددان ٢-٣، أغسطس ١٩٦٤م، والعددان ٤-٥، ،يناير وفبراير ١٩٦٥م.
(٧٣) د. التفتازانى : ابن طفيل وأثره على الغرب. ذكرى ابن طفيل فى كتاب تدريس الفلسفة والبحث الفلسفى فى الوطن العربى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩٠م، ص٣٦٧-٣٧٢.
(٧٤) د. أبو الوفا التفتازانى : إخوان الصفا ودورهم فى التفكير الإسلامى، مجلة الهلال القاهرة، سبتمبر ١٩٧٢، ص٦٦-٧٧.
(٧٥) د. أبو الوفا التفتازانى : ابن رشد والتصوف، بالإنجليزية، فى كتاب ابن رشد مفكراً عربياً ورائداً للاتجاه العقلى، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، ١٩٩٣م، ص٤١٥-٤١٩.
(٧٦) د. أبو الوفا التفتازانى : الوهابية والتصوف ، مجلة التصوف والإسلام، العدد الأول ١٩٥٨.
(٧٧) د. أبو الوفا التفتازاننى : السنة والشيعة والصوفية، مقدمة كتاب الحر العاملى، وسائل الشيعة ونشرها السيد مرتضى الرضوى فى كتابه مع رجال الفكر، مطبعة النجاح ، القاهرة، ط٤، عام ١٩٧٩م، ص١٧٣.

ويـــتوقف عـــند أخطاء الباحثين فى أحكامهم عن الشيعة والعوامل التى أدت إلى عـــدم إنصـــاف الشيعة، منها الجهل الناشىء عن عدم الإطلاع على المصادر الشيعية والاكتفاء بالاطلاع على مصادر خصومهم موضحاً ضرورة الاعتماد على تـــراث الشيعة أنفسهم أو تحرى الصدق فى الروايات التاريخية التى يجدها الباحث فى كـــتب خصوم الشيعة(٧٨). ويرى أن الشيعة عموماً يستندون فى تشيعهم للإمام عـــلى رضــــى الله عـــنه إلى شـــواهد من الكتاب والسنة، ويبين الاتفاق بين السنة والشـــيعة فى أصـــول العقائد وذلك إذا ما استثنينا مسألة الإمامة فى الأحكام الفقهية باســـتثناء الخلاف حول بعض الأحكام الفروعية مثل "نكاح المتعة" الذى ثبت نسخه عـــند أهـــل السنة ولم يثبت عند الشيعة، ومصدر الاتفاق بينهما فى أصول العقائد والأحكـــام الفقهيـــة هـــو الكتاب والسنة(٧٩)، وما الخلاف الموجود بينهما بأبعد من الخلاف بين مذهبى الإمام مالك وأتباعه من أهل الحديث والإمام أبى حنيفة وأتباعه من أهل الرأى والقياس. ومن هنا كما يرى التفتازانى فلا ينبغى أن يغفل المسلمون مـــن غيـــر الشيعة عن قيمة تراث الشيعة فى العقائد وفى الفقه، فهذا التراث يروى عـــن آل الـــبيت وهم أئمة فى الفقه والتشريع وسادة لهم فضلهم ومكانتهم فى قلوب المسلمين على اختلافهم.

ويتســـع نص التفتازانى للشيعة ولا يستبعدهم ويجعل منهم جزءاً أساسياً فى التراث الإسلامى، فليس التشيع دخيلاً على الإسلام، فشأن الشيعة مثل الصوفية.

إن بيـــن التصـــوف والتشيع صلات قوية، وللإمام على عند الصوفية منزلة رفيعـــة، فهـــم يعدونـــه مثلاً أعلى فى الزهد والتقوى. كما أن شيوخ الصوفية من أصحاب الطرق من جلة علماء أهل السنة من الصوفية يرجعون فى أسانيد طرقهم إلى أئمـــة أهـــل الـــبيت، وهـــناك فى كـــتب أهل السنة أنفسهم شواهد كثيرة على خصوصية الإمام على فى العلم(٨٠).

---

(٧٨) السيد مرتضى الرضوى : ص١٦٥-١٦٦.

(٧٩) المرجع السابق : ص١٦٧.

(٨٠) المرجع السابق : ص١٦٧-١٦٨.

ونـنـتقل مـن قضـايا التصوف وتاريخه وأعلامه إلى علم الكلام وللأستاذ إسـهامات عديـدة فيـه مـنها تحقيقه للجزء الرابع من كتاب القاضى عبدالجبار المعـتزلى "المغنى فى أبواب التوحيد والعدل" والذى يدور حول الرؤية(٨١). وكذلك دراسـته عن واصل بن عطاء(٨٢) والفكر الفلسفى فى مجال العلوم الشرعية وكتابه "عـلم الكلام وبعض مشكلاته" والكلام يمثل عند الفكر الفلسفى فى العلوم الشرعية كما يتضح من مقدمة كتابه.

فالمقصـود بالفلسـفة الإسلامية يعنى الفلسفة التى نشأت وتطورت فى ظل الإسـلام وحضـارته، وعـلماء المسلمين الذين نهضوا للدفاع عن عقائد الإسلام مسـتندين إلى الأدلـة العقلية هم المتكلمون، والذين شغلوا أنفسهم بالأحكام الشرعية الفـروعية وكيفية استنباطها من أدلتها هم الأصوليون(٨٣). ومن هنا يميز التفتازانى بيـن نوعين من الفكر الفلسفى فى الإسلام: أولهما: الفكر الفلسفى فى مجال العلوم الشـرعية، وفيـه تتجـلى قدرة المسلمين على الابتكار ، وثانيهما : الفكر الفلسفى الخالص. ويرى أنه من غير الممكن أن نعطى صورة للفكر الفلسفى فى الإسلام إذا اقتصرنا على ما كتبه الفلاسفة الخلص وحدهم.

ومـنهجه فى دراسة المشكلات الكلامية قائم على أساس رد كل مشكلة من تـلك المشكلات إلى أصلها من الكتاب والسنة. والمهم هنا، ذكر خاصية أساسية فى نص الأستاذ هى خاصية التقريب بين الفرق والمذاهب لتقليل الخلاف بينهم (٨٤).

---

(٨١) د. أبو الوفا التفتازانى (محقق) كتاب القاضى عبدالجبار: المغنى فى أبواب التوحيد والعدل، الجزء الرابع، الرؤية بالاشتراك مع د. محمد مصطفى حلمى، القاهرة ١٩٦٥.

(٨٢) د. عثمان أمين (محرر) دراسات فلسفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤.

(٨٣) ومن هنا يأتى كتابه "علم الكلام" الذى يتناول الفكر الفلسفى فى مجال العلوم الشرعية؛ حيث يعرض لنشأة علم الكلام وموضوعه ومنهجه وغايته وعوامل نشأته فى أول فصوله الخمسة، ثم يتناول مشكلات كلامية أربع هى: الإمامة، والذات والصفات ، والجبر والاختيار، والسمع والعقل. د. أبو الوفا التفتازانى : علم الكلام وبعض مشكلاته ، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩.

(٨٤) يقول: "ولم يغب عن بالنا أن نقرب بين المذاهب العقائدية كلما دعت الحاجة إلى ذلك كما فعلنا فى التقريب بين مذهبى أهل السنة والجماعة والشيعة الاثنى عشرية، فقد تبين لنا من الدراسة المقارنة للمذهبين أن الخلاف بينهما ليس بذى خطر"، المرجع السابق: ص جـ.

إن موقــف التفتازانى من التراث والفكر والفلسفة الإسلامية والعلوم والفرق الإســلامية مهم، وهو يقوّم إحياء هذا الفكر وتلك العلوم وتحديد العلاقات بينهما فى مواجهة العلوم والتيارات والمذاهب الغربية" فهذا يجعلنا أكثر تفهماً لماضينا وأكثر وعيــاً بقيمـــة وأصالة ذلك التراث. واستلهام تراثنا الفكرى من شأنه أن ينير أمامنا الســبيل ويوضـــح لـــنا الرؤية فى حاضرنا ومستقبلنا على السواء.. وبذلك تبقى لنا شخصيتنا المستقلة ومقوماتنا الذاتية. وفى سبيل نهضة مجتمعنا الراهن "يتعين علينا أن نذكــر دائمـــاً أن الطاقات الروحية التى تستمدها الشعوب من مثلها العليا النابعة منن أديانها السماوية أو من تراثها الحضارى قادرة على صنع المعجزات"[٨٥].

هـــنا يظهـــر فى نص التفتازانى أهمية القيم والعوامل الأخلاقية والروحانية الـــتى نجدهـــا فى التصوف والعلوم الشرعية الإسلامية فى بناء المجتمع، وهو ما اتضـــح فى تعريفه للتصوف وما أشار إليه فى مقدمة دراسته عن علم الكلام. مما دعـــاه لـــلرد عـــلى كثير من التيارات الفلسفية الغربية وفى مقدمتها الوجودية. فى دراســـته عـــن "الصـــراع الأيديولوجى بين أصحاب الاتجاهات المختلفة فى قضية الهويـــة العـــربية، والتراث وانعكاساته على الثقافة" نجد أوضح تعبير على موقف الأستاذ وعلى الهدف والغاية من نصه وأهم توجهاته.

إن الاتجـــاه التوفيقى هو السمة الأساسية التى تميز نص التفتازانى، ففى مثل واقـــع الصـــراع الأيديولوجى الذى يميز عصرنا يشعر المواطن فى العالم العربى بحاجـــة مـــلحة إلى فهم ثقافات عصره على اختلافها والملائمة بينهما وبين تراثه الديـــنى والحضارى حتى لا يفقد هويته أو ذاتيته كما يرى التفتازانى. ومن هنا فهو يعـــرض للاتجاهـــات الفكرية المختلفة منذ أوائل القرن الحالى إلى الآن، وما كان بيـــنها مـــن صراعات، وأثر ذلك على محاولة إيجاد هوية عربية إسلامية متميزة. فيعرض أولاً لدعاة الحفاظ على الموروث، وما يطلق عليه دعاة التغريب (القوميين والماركسيين) ودعاة الملاءمة بين القديم والحديث (ونموذجه محمد عبده).

(٨٥) المرجع السابق: ص د.

وبعـد أن يحـدد خريطة الصراعات الأيديولوجية باتجاهاتها المختلفة فى قضـية الحفـاظ على الهوية العربية الإسلامية، فهناك تيار التغريب، ولا يزال له أنصـاره، ويدعـو إلى الليبرالية الغربية والعلمانية، وإن كان قد ضعف فى الوقت الحاضـر، وذلـك فى مواجهة تيارين آخرين، هما تيار التغريب الماركسى. وتيار إسـلامى يشـمل اتجاهات مختلفة منها تيار عقلانى راشد يدعو إلى الملاءمة بين الجديد والقديم وتيار مغال يدعو إلى الانغلاق ومحاربة كل ما هو وافد إلينا من فكر وثقافـة وعلوم[٨٦]. والسؤال الذى يسعى للإجابة عليه الأستاذ هو كيف نعمل على صـياغة ثقافـة مصـرية جديـدة تلـبى احتياجاتنا الفكرية والروحية فى مواجهة أيديولوجيـات العصـر الوافدة إلينا؟ ويقدم لنا تصوراً يتسم بالتوفيقية لصياغة ثقافة مصرية جديدة يتمثل فى النقاط التالية :

- الـنظر إلى مذاهـب الفلسـفة فى عالمـنا المعاصر، والأيديولوجيات السياسية والاجـتماعية على أنها اجتهادات قابلة للصواب والخطأ، ولا يجوز أن نستورد أو نتـبع فلسـفات هى نـتاج عصرها وبيئتها ولا تصلح لغير هذه البيئة وذلك العصر.
- ليس ثمة تعارض بين العلم الطبيعى والإسلام.
- المعـرفة الموضوعية بالمذاهب والتيارات الفكرية المعاصرة على أن يمكن فى الوقـت نفسه من نقدها على أساس منهج العقل، ثم كذلك على أساس من عقائد الإسلام وشريعته وقيمة الخلقية.
- ضـرورة تدريس مذاهب الفلسفة الأوربية فى جامعاتنا على أساس مدى نجاحها أو إخفاقها عند التطبيق العملى لها فى المجتمعات التى ظهرت فيها.
- عـدم إغفال تراثنا الفكرى والثقافى عند تدريس مذاهب الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة.

(٨٦) د. أبو الوفا التفتازانى : الصراع الأيديولوجى بين أصحاب الاتجاهات المختلفة فى قضية الهوية العربية والتراث وانعكاساته على الثقافة فى كتاب : تكنولوجيا تنمية المجتمع العربى فى ضوء الهوية والتراث. العربية للبحوث والنشر، القاهرة، د. ت، ص١٧٢.

- التأكيد فى تكوين الثقافة على أهمية القيم الدينية فى بناء الفرد والمجتمع.
- التأكيد على أهمية الإنسان وتكريمه ودوره فى هذا الكون الذى نعيش فيه(٨٧).
- التأكيد على أهمية الثقافة فى إعادة الهوية الحضارية.

الانفــتاح على فكر العصر وثقافاته أمر ضرورى فى نظر الأستاذ ، ولكنه لابــد من الاعتماد فى الوقت نفسه على تراثنا الدينى والفكرى والحضارى، وعندئذ تجمـــع ثقافتنا بين الأصالة من ناحية والمعاصرة من ناحية أخرى. وتكشف موقفه فى الــتأكيد عــلى مجموعـــة من القيم الأساسية التى تلخص مغزى نصه وهدف كــتاباته، وهى أنه "لا يمكن لشبابنا أن يستقر نفسياً ويتجه إلى الخلق والابتكار فى كــل المجـــالات العـــلمية والثقافية والأدبية والفنية إلا إذا شعر بقيمته وبحريته فى التعـــبير، وبكرامته فى مجتمعه، وبأن له رسالة فى هذه الحياة يحيا من أجلها، فلا تـــبعية للغير ولا جمود على قديم فى الوقت نفسه. وهنا تتحقق له هويته الحضارية المـــتميزة التى ألقت عليها الصراعات الأيديولوجية المعاصرة بظلال من الشك فلم يعد يتبينها فى وضوح".

وملاحظتـــنا الأســاســـية على هذا النص هو أنه بدأ معرفياً ولن يستطع بحكم طبيعـــته إلا أن يـــتحول ليصبح نصاً مشبع بالأيديولوجيا أو على الأقل تتداخل فيه الجوانـــب العملية مع النظرية بحكم توفيقيته من جهة وطابعه الأخلاقى العملى من جهة ثانية ليكتمل فى إطار سياسى عام.

---

(٨٧) المصدر السابق : صفحات ١٧٣-١٧٦.

الباب الرابع

الخطاب الفلسفى
والواقع الاجتماعى

عثمان أمين :

الجوانية والمثالية الديكارتية

تمهيدات أولية (*):

تتـــناول فى هـــذا الفصل العلاقة بين الفلسفة الغربية الحديثة والفكر العربى المعاصر، كما ظهرت لدى الدكتور عثمان أمين، صاحب الجوانية؛ الفلسفة المثالية الـــتى أقامهـــا صـــاحبها عـــلى تجربـــته الذاتية ولغته العربية وواقعة المعاش مع الاتجاهات العقلية الحدسية عند ديكارت وكانط وفشته.. سنتناول هنا فلسفة ديكارت Descarts (١٥٩٦-١٦٥٠) كمـــا ظهـــرت فى الفكـــر العربى المعاصر، ونحاول توضـــيح صورته كما ارتسمت فى الكتابات العربية ثم نعرض لجهود عثمان أمين. فالســـؤال الأساسى هنا يدور حول تصورنا وفهمنا لديكارت وللتصورات المختلفة لـــه، باعتـــباره نموذجاً للفلسفة الغربية التى أثرت فى العقلية العربية تأثيراً كبيراً. والحقيقـــة أن ديكارت يعد نموذجاً هاماً للعلاقة الحضارية والتعامل الفكرى العربى مـــع الفلسفة الحديثة خاصة والفكر الغربى عامة. ودراسة تأثيرات ديكارت توضح موقفـــنا من الفكر الغربى، وكيفية تعاملنا مع عناصره المختلفة، وتحدد مسار التأثر بـــه فى فـــترة بعيـــنها، وبالتالى تحدد محتوى التفكير الغربى نفسّه فى هذه الفترة الـــتاريخية. ولاخـــتيارنا لجهود عثمان أمين فى تفاعلها الحى مع ديكارت بالذات مـــبرراته الحضـــارية والـــتاريخية بالإضافة للأسباب الفكرية المتعلقة بخصوصية تاريخ الفلسفة نفسه.

وتـــتحدد أولى هذه الأسباب فى موقف "التلقى" المفروض على الفكر العربى وما يمكن أن نطلق عليه" الخضوع للتفوق الابستمولوجى الغربى"، والذى يتمثل فى تقبلـــنا الصـــورة الـــتى يحددها الغرب لذاته، بدون تعديل سواء فيما يتعلق بتاريخ الأفكـــار أو الإعلام أو المشكلات الثقافية التى يدعى أصحابها أنها مقولات إنسانية عامة تنطبق على كل المجتمعات فى كل زمن ومكان. وربما يرجع ذلك الزعم إلى

(*) انظر الفصل الذى خصصناه للمثالية الروحانية فى ديكارتية عثمان أمين فى كتابنا : الديكارتية فى الفكر العربى المعاصر، القاهرة، ١٩٩٠.

تمركــز الفكر الأوربى على ذاته، وقد أنسقنا نحن وراء هذا التمركز. التلقى والبدء بالغــرب هى المســألة الأولى التى تتحكم فى العقلية العربية منذ بداية تفتحنا على الغرب، الذى صور حضارياً على أنه النموذج المكتمل والأرقى، عليه التقدم ومنه العطــاء، وعليــنا الأخذ دون تحريف، هكذا تعاملنا معه، وهكذا لا زلنا نتعامل، أو بمعــنى أدق هكــذا فــرض علــينا التعامل، فالغرب متقدم حضارياً وسياسياً، وله إبداعاته الفكرية والأدبية والفنية، وعلينا نحن أن نتذوق فنونه وآدابه ونتعمق أفكاره وفلســفاته، فكما تبدأ الفلسفة الغربية الحديثة بديكارت علينا أن ننفعل نفس الشىء، وكمـــا قـــال هيجـــل" أن ديكارت أبو الفلسفة الحديثة" يقول عثمان أمين نفس القول ويكـــرره آخرون، نذكر: بيكون وديكارت وسبينوزا ومالبرانش وهيوم وكانط وإذا كنا أكثر معاصرة نذكر: التوسير وفوكو ولا كان وتشومسكى وباختين وتودروف، ولا نذكر الأفغانى وعبده وإقبال وشميل وجميل صدقى الزهاوى وإسماعيل مظهر ونقـــولا حـــداد وعصام الدين حفنى ناصف، ولطفى السيد، كذلك لا نذكر مصطفى عبدالرازق ومنصور فهمى وعثمان أمين ويوسف كرم ونجيب بلدى وكمال يوسف الحاج.

ونتخذ هنا اتجاهاً محدداً. حيث نهتم فى الأساس بدراسة الفكر العربى وترى أنـــه يمكـــن القيـــام بذلـــك أما مباشرة بدراسة تاريخ الأفكار فى علاقتها بالتاريخ الاجـــتماعى والسياسى، أو بطريق غير مباشر بدراسة كيفية تلقينا وتناولنا للأفكار الغربية مثل انعكاس أفكار عصر العقل (القرن ١٧) كما ظهرت لدى ديكارت على المفكـــرين العـــرب. ويمكـــن الجمع بين الطريقتين، وعلى ذلك نبدأ ليس بديكارت الفرنســـى بل بما يمكن أن يسمى بالديكارتية فى الفكر العربى ندرس أعمال: ثمان أميـــن ونجيـــب بـــلدى، وكمال يوسف الحاج وجميل صليبا وجهودهم فى العرض والتعريف بديكارت كما نشير إلى استخدام طه حسين للمنهج الديكارتى فى دراسته لـــلأدب العـــربى، ومحاولـــة محمود الخضيرى بعث اللغة الفلسفية العربية ونحت المصـــطلحات الـــتى ينـــبغى أستخدامها فى دراسة الفلسفة فى ترجمته "المقال فى المـــنهج"، أى أن مهمتـــنا تـــناول الكـــتابات العـــربية وفهم الكتاب العربى للفلسفة الديكارتية.

علينا بيان صورة ديكارت فى الثقافة العربية وتحديداً ما إذا كانت صورة مبتكرة تستند إلى فهم أصيل أو كانت مجرد نقل لتفسيرات وتأويلات غربية عرفت عنه عند شراحه الأوربيين، وبيان أثرها أيجاباً وسلباً ومقدار ما أسهمت به فى النقل والتعريف بالفكر الغربى أو استلهامها للفلسفة العربية القديمة موضوعاً ومنهجاً ومصطلحاً، وتطويرها لذلك .بمعنى آخر هل كان تعاملنا مع الفكر الغربى بحثاً وتأليفاً وترجمة يحسب حضارياً لصالح فكرنا أم لصالح الفكر الغربى؟ هل كان ديكارت بالنسبة لنا مناسبة للتغنى بأمجاد الماضى حيث نعتبر ما وجد لديه من أفكار نقلاً لما وجد لدى ابن سينا والغزالى وغيرهما[1] أو كان مناسبة للنظر فى مستقبل الفكر العربى. وما هى بالتحديد النواحى الايجابية التى يجب الابقاء عليها من هذا الفكر؟ وهل أدت الكتابات العربية حول ديكارت إلى إثراء التفكير والعقلية العربية؟ أم اكتفت بالتعريف والمساهمة فى عرض "سلعة ثقافية غربية" وأخيراً هل لازلنا مستهلكين للفكر الغربى؟ أم أن لنا موقفنا الفكرى المتميز عن الغرب والمرتبط بتاريخنا الحضارى العام. والكتابة عن "الديكارتية فى الفكر العربى" قراءة لمن أسسوا خطابها العقلانى فى وعينا المعاصر والتأسيس فعل فلسفى هام ورؤية لأفكارهم وتفكير فيما قدموه من أسس وبدايات. تلك مهمة آن أوانها وقراءة خطابات: طه حسين ويوسف كرم وعثمان أمين مهمة مزدوجة لا تكتفى بالرصد والعرض لكنها تحاول الفهم والتفسير، ومن حق هؤلاء الرواد علينا قراءة أعمالهم وإعادة التفكير فيها فقد قدموا إسهامات أساسية تحتاج إلى إعادة بناء لما قدموه

---

(١) تتجه معظم الدراسات التى تتناول ديكارت إلى مقارنته ببعض الفلاسفة العرب كما يزين كثير من الباحثين دراساتهم ببيان أسبقية المفكرين والفلاسفة العرب للشك واليقين وبعض نظريات ديكارت. أنظر الفندى: حجة الإسلام الغزالى شىء من فلسفته ص٥-١٧ صحيفة جامعة القاهرة العدد٢ ديسمبر ١٩٢٩، الخضيرى: مقارنة ديكارت وفلاسفة العرب، هل المقارنة بينه وبين الغزالى ممكنة، المصدر السابق العدد ٣ يناير ١٩٣٠، ،عثمان أمين الجوانية، دار القلم القاهرة، ن١٩٦٤ ص٧٥ وكتابه عن ديكارت ط٧ وجميل صليبا مقدمة ترجمة مقال فى الطريقة "بيروت ١٩٥٣، ص٢٠ ومحمود حمدى زقزوق: "المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت"، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٣، وانظر موقفنا النقدى من هذه المقارنة فى "هل ديكارت فيلسوف عربى مسلم" جريدة السياسة السودانية ١٩ ديسمبر ١٩٨٦ ، مسألة الغزالى وديكارت، الأهرام القاهرة، ،١٩٨٧/٦/٥، الأهرام ١٩٨٧/٦/١٩.

وتفسيره ولا يعنى ذلك أن نبصر بعيونهم، بل ننظر إلى ما نظروا إليه بعيوننا نحن ونــرى والتفكير رؤية أى نفكر فيما فكروا فيه ثانية وأن نكمل مشروعهم إن كان ذلــك مســتطاعاً. وفى هذا السياق تأتى هذا الجهد وهو جزء من مشروع أساسى يهدف إلى تتبع الاتجاهات الغربية الأساسية فى الفكر العربى الحديث والمعاصر(٢) وهو الإطار العام الذى تندرج فيه دراسة الديكارتية أو القراءة العربية لديكارت (٣) والقــراءة الــتى نحــاول تقديمها لقراءات الرواد للفكر الغربى، وبالتحديد للفلسفة الديكارتية والتى تمثل فى نفس الوقت خطاباتهم الفلسفية هى قراءة مزدوجة، ورؤية معاصــرة لجهود قارئيها الذين اخترنا من بينهم عثمان أمين كنموذج، فعنوان بحثنا فيــه تشــديد عــلى الجزء الثانى منه، تشديد على القراءات العربية المختلفة للنص الديكــارتى، فالاهتمام منذ البداية بجهود روادنا، لا نهدف بالطبع إلى إعطاء رصد ببــليوجرافى لتــلك الجهود، بل نسعى إلى تحديد وبيان مسائل معينة أوقفتنا عليها قراءتــنا، ووجدنــا فيها القضايا الأساسية التى تمحورت حولها الكتابة فى الفلسفة الديكارتية وهى: المنهج، واللغة الفلسفية، والوعى والعلم، تلك التى شغلت مفكرينا، أو بمعنى أدق التى تمثل نتيجة جهودهم نجدها على التوالى عند كل من: طه حسين فى تطــبيقه للمــنهج الديكارتى على الأدب وفى النقد الأدبى(٤)،الخضيرى فى بعثه اللغة الفلسفية العربية القديمة كما وجدت لدى الفلاسفة العرب حين أقدم على ترجمة أول وأهــم نص ديكارت فى الثلاثينيات وهو "المقال فى المنهج"(٥) ثم عثمان أمين وآخــرون، فى تقديــم المــثالية الديكارتية والتأكيد على الجوانب الحدسية الإيمانية للوعى فى الكوجيتو الديكارتى. ثم نجيب بلدى ويحيى هويدى فى تقديمهما للصورة الواقعية العلمية لديكارت والدراسات التى قدمها الجابرى وقيدى لديكارت فى إطار كــتاباتهم فى الابســتمولوجيا. وســوف نعرض الآن لتلك الصورة المعروفة عن

---

(٢) هــذا العمل جزء من مشروع يتناول الاتجاهات الغربية المختلفة فى الفكر العربى المعاصر ويتــلو الديكارتية، الوجودية فى الفكر العربى، والنيتشوية، والبرجسونية والكانطية والهيجلية والتفكيكية وغيرها.

(٣) انظر مقدمة هذا العمل، مجلة المنار العدد ٤٧ نوفمبر ١٩٨٨، ص١٤٠-١٥٥.

(٤) طه حسين : فى الأدب الجاهلى، دار المعارف بمصر ١٩٦٢.

(٥) محمود الخضيرى : المقال فى المنهج دار الكتاب العربى، القاهرة ط٢، ١٩٦٧.

ديكـــارت، والـــتى تقدمـــه فيلسوفاً للمثالية المؤمنة والتى تمثلت بصورة جلية عند عـــثمان أمين خاصة وكمال يوسف الحاج ويوسف كرم وجميل صليبا ونظمى لوقا أى أصحاب الاتجاهات المثالية الحدسية الدينية فى الفكر العربى.

٢) بدايات التعرف على ديكارت :

الاهـــتمام بديكـــارت فى العـــربية قديم ظهر فى المجلات العربية قبل نهاية القـــرن التاسع عشر، فقد أرسل أحمد أفندى عثمان الوردانى بالقبارى بالإسكندرية إلى مجـــلة الهلال فى أول يناير ١٨٩٧ يسأل عن "ديكارت والديكارتية" قائلاً" من هم الكرتازيون، وفى أى عصر كانوا، ومن هو المؤسس لمذهبهم وعلى أى أساس بنى هذا المذهب. وأجابت الهلال وعرفت بالفيلسوف وحياته واهتمامه بالرياضيات وتـــناولت فلســـفته ومنهجه وقواعده واختتمت تعريفها لـــ "الكرتازينيون" ومذاهبهم "بإنه مهما يكن من أمر هذه الفلسفة (وتلبكها) وتناقضها فقد نبهت أذهان العلماء إلى الاستقلال فى الفكر وحملتهم على البحث والتنقيب حتى توصلوا إلى ما وضعوه من أسس الفلسفة الحديثة"[٦]. وهناك بالإضافة إلى ما قدمته الصحف نجد بعض الكتب الفلسفية الأولى المؤلفة والمترجمة التى ظهرت قبيل وفى بداية القرن العشرين وقد أشـــارت صـــراحة وضمناً إلى ديكارت وفلسفته [٧]. ويمكن أن نشير إلى الأصول الديكارتيـــة الأولى فى الجامعـــة الأهلية المصرية [٨]، فقد قدم المستشرق الفرنسى ماســـينيون (١٨٨٣-١٩٦١)[٩] والأســـبانى الكونت دى جلارزا[١٠] الأسس الأولى

---

(٦) يتضح فى هذه الرسالة المعرفة المبكرة بديكارت كما يتضح من رد الهلال الموقف النقدى من الفلسفة الديكارتية. الهلال القاهرية أول يننا ير ١٨٩٧ ص٣٤٢-٣٤٣.

(٧) يمكـــن أن نشير للكتب الآتية: كتاب الفلسفة للقس بوتيير ترجمة جرجس صعب مطبعة القس جـــاورجيوس بيـــروت ١٨٨٣، وكتاب الأب جرجس فرح الصغير: الفلسفة، مطبعة جريدة بســـتان العـــرب، الإســـكندرية ١٨٩٣ وكتاب الأديب أنيس أفندى الخورى : الفلسفة الحديثة مطبعة جرجس غرزورى الإسكندرية ١٩١٤، زكريا أحمد رشدى، مبادئ الفلسفة طبعة أحمد خليل بالإسكندرية، وغيرها.

(٨) انظر د. أحمد عبدالحليم عطية، ديكارت فى الفكر العربى، المنار العدد ٤٧، نوفمبر ١٩٨٨.

(٩) انظر ما سينيون: تاريخ المصطلحات الفلسفية فى الجامعة المصرية.

(١٠) الكونـــت دى جـــلارزا مستشـــرق أسبانى عاش فى مصر فى العقود الأولى من هذا القرن وعمـــل محاميـــاً بالمحـــاكم المختلطة ودرس بالجامعة الأهلية سنوات ١٩١٤-١٩٢٠ مادتى الفلسفة العامة وتاريخها. انظر الفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب.

للصـــورة الأكاديميـــة عن ديكارت فى محاضراتهما بالجامعة الأهلية وبذرا البذور الـــتى ظهـــرت فيما بعد لدى تلاميذهما: طه حسين الذى استمع للأول ودرس عليه وقـــدم المـــنهج الديكـــارتى مطبقاً فى ميدان النقد الأدبى، وزكى مبارك الذى تتلمذ للـــثانى وقـــدم دراســـة مقارنـــة لديكارت والغزالى فى رسالته للدكتوراة بالجامعة الأهـــلية[11] كمـــا نجد إشارات لدى نابغة الشرق "مى زيارة"[12] التى تتلمذت على جـــلارزا، وزامـــلت زكى مـــبارك فى الدراسة، وبالإضافة إلى هذه الجهود هناك كتابات ومحاضرات مبعوثى الجامعة العائدين من الدراسة بالخارج والذين اسهموا فى الـــتعريف بالفكر الغربى والكتابة عن ديكارت مثل: منصور فهمى وعلى أحمد العنانى[13] وغيرهما.

وتـــأتى جهـــود الجيـــل الأول مـــن خريجى الجامعة المصرية فى التعريف بديكـــارت والـــتعامل مباشرة مع فلسفته - وتوضح كتابات عثمان أمين هذه الفترة خاصـــة "الجوانية" - مدى الاهتمام بما يلقى فى الجامعة المصرية من محاضرات عـــن ديكـــارت مـــن الأســـاتذة الفرنسيين والمصريين يقول: "لقد درس أحمد أمين ديكارت ومذهبه العقلى ومنهجه فى الشك وكان هذا الدرس أول وأوضح ما سمعت وقرأت باللغة العربية عن أبى الفلسفة الحديثة "... فقد كان أحمد أمين يستعين على إيضـــاح نظريات ديكارت بأمثلة حية ننتزعها من حياتنا العصرية"[14] ويتضح من حديـــثه أيضـــاً تأثير الأساتذة الفرنسيين فى توجيهه لدراسة ديكارت خاصة أندريه لالند[15].

ويخـــتار محمـــد مصـــطفى حلمى "نظرية الجوهر عند ديكارت واسبنيوزا" موضـــوعاً لرسالته التى قدمها بالفرنسية لكلية الآداب بالجامعة المصرية للحصول

---

(١١) د. زكى مبارك :الأخلاق عند الغزالى مطبوعات دار الشعب ط٢، القاهرة، ١٩٧١.

(١٢) مى زيـــادة : الـــبعث العـــتيد المقتطف ص١٢٩ وما بعدها، المجلد ٥٥ سنة ١٩١٨ وانظر دراستنا عنها "قراءة فى كتابات مى زيادة الفلسفية" مجلة أدب ونقد، القاهرة العددين ١٧، ١٨ والمنشور بالباب الأول من هذا العمل.

(١٣)انظـــر عـــنه د. محمد غلاب: الدكتور على العنانى نقدمه إلى القراء، مجلة النهضة الفكرية القاهرية، العدد ٢٧، ومحمد عبدالجواد، تقويم دار العلوم ص٢٢١-٢٢٢.

(١٤) د. عثمان أمين: الجوانية، دار القلم القاهرة ١٩٦٤، ص٦٢، ٦٣.

(١٥) المرجع نفسه، ص٩٨.

عـلى درجـة الماجستير[١٦]ويظهر اهتمام حلمى بديكارت فى تقديمه لأول ترجمة عـربية لـلمقال فى المنهج حيث يتناول فى دراسة طويلة فلسفة ديكارت ونواحيها المختـلفة ثـم المنهج وأهميته مشيراً إلى تطبيق طه حسين له فى النقد الأدبى[١٧] ويعـود فى دراسته عن "طه حسين مفكراً" إلى بيان علاقة فلسفة ديكارت ومنهجه بكتابات عميد الأدب العربى[١٨].

ويكـتب زميلها محمد ثابت الفندى فى فترة ما قبل تخرجهم مقارناً الغزالى بديكـارت، ويرى أن البداية عند كل منهما وتيه الشك والارتياب الذى وقعا فيه ثم الـنهاية الـتى وقف عندها كل واحد منهما هى أمور تستدعى الاهتمام وتسترعى الفكـر، لأنها تظهرنا على فصل من أمتع فصول الفلسفة الإسلامية ويقارن بينهما اعـتماداً عـلى "المنقذ من الضلال" للغزالى و"المقال فى المنهج لديكارت[١٩]. وقد بدأت مقالة الفندى حواراً هاماً بينه وبين الخضيرى.

٣) الديكارتية والجوانية :

كان من الطبيعى انطلاقاً من الأصول الأولى للدرس الديكارتى فى الجامعة الأهلية، ومن العاصفة التى أثار طه حسين فى دعوته للمنهج الديكارتى، ومن اللغة الفلسـفية التى حاول بها الخضيرى تقديم أهم نصوص ديكارت أن تدشن الديكارتية فى العـربية بما يليق بها باعتبارها أكثر المذاهب ارتباطاً بالمثالية والروحية. حيث وجـدت لدى عثمان أمين الذى يقتضينا الواقع أن نسجل أنه يعد بحق من بناة الفكر الفلسـفى المصرى المعاصر"[٢٠] ذلك القبول العقلى والتعاطف الروحى الذى جعل

---

(١٦) د. أبـو الوفا التفتازانى : محمد مصطفى حلمى والتصوف، مجلة الفكر المعاصر القاهرية. العدد ٥٢.

(١٧)د. محمـد مصـطفى حـلمى : مقدمة ترجمة، المقال فى المنهج ط٢. دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٦٧.

(١٨) د. محمـد مصطفى حلمى: "طه حسين مفكراً" الفكر المعاصر القاهرية، فبراير ١٩٦٦ ص ٦٠ وما بعدها.

(١٩) الفندى : حجة الإسلام الغزالى، شىء من فلسفته ص٥-١٧ صحيفة جامعة القاهرة العدد ٢، ديسمبر، ١٩٢٩.

(٢٠) د. إبراهيم بيومى مدكور. تصدير الكتاب التذكارى "دراسات فلسفية" مهداه إلى عثمان أمين، دار الثقافة بالقاهرة، التصدير.

منه "بيت ضيافة لديكارت"[٢١] فهو ديكارتى فى منطقة ومنهجه وفى عقلانيته ومثاليته"[٢٢] مما أدى إلى سيطرة فهمه وتفسيره لديكارت على أجيال عديدة ولدى أكثر من باحث من أقطاب الباحثين فى فلسفة أبى الفلسفة الحديثة الذين قدموا فلسفة ديكارت باعتبارها المثالية الروحية التى ترداف معنى الفلسفة نفسها وكان رائد هذا التفسير الدكتور عثمان أمين.

كان ديكارت يمثل بالنسبة لصاحب "الجوانية" اختياراً. وحين اختار عثمان أمين ديكارت اختار العقل والتنوير، الإرادة والحرية[٢٣]. حيث انطلق من هذه الأسس إلى تقديم جوانيته التى تنطلق من الوعى وكان ديكارت وراء احتفاله الكبير برواد الوعى الإنسانى فى الشرق: الافغانى والكراكبى وإقبال[٢٤] ورائد الفكر المصرى محمد عبده[٢٥] أن اهتمام عثمان أمين بديكارت. يفوق كل وصف بحيث يمكن القول أن ما كتبه عن ديكارت أكثر مما كتبه عن أى فيلسوف آخر وأكثر مما كتب فى العربية عن أبى الفلسفة الحديثة وأصبحت مؤلفاته عنه المرجع الكلاسيكى المعتمد الذى يشير به أستاذ الفلسفة لطلابه من أجل معرفة ديكارت . وحين نتساءل عن الأفكار التى كان يلتمسها عثمان أمين عند ديكارت يجيبنا : "إن ديكارت قال للإنسان خير ما يمكن أن يقال، قال له لا تقبل شيئاً على أنه حق ما لم يتبين بنور الفطرة وبداهة العقل إنه حق "وقال له أولاً : انتبه! أنت تفكر فأنت موجود" وقال له أخيراً "أفق أنت حر فأنت إذن مسئول"[٢٦].

لقد سار عثمان أمين مع ديكارت فى الطريق الفلسفى لكن سؤالنا هنا هو كيف تعامل عثمان أمين مع ديكارت وإلى أى جانب من جوانب فلسفته المتعددة الانحاء توقف؟ وماذا رأى فى فلسفة ديكارت وماذا قدم منها؟ وبمعنى أدق ما هى

(٢١) د. عبدالغفار مكاوى : عثمان أمين بيت ضيافة لديكارت.
(٢٢) د. إبراهيم مدكور، المصدر السابق.
(٢٣) د. أحمد عبدالحليم عطية، من ديكارت إلى محمد عبده، الأهرام ١٩/٨/١٩٨٧ ص١٢.
(٢٤) د. عثمان أمين : رواد الوعى الإنسانى فى الشرق، المكتبة الثقافية، القاهرة.
(٢٥) د. عثمان أمين : رائد الفكر المصرى، محمد عبده، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥.
(٢٦) د. عثمان أمين : الجوانية ص١٣٤.

صــــورة ديكـــارت عـــنده وما أثر هذه الصورة فى الثقافة العربية والفكر العربى؟ ويمكـــن القـــول بداية أنه لا يمكن فصل تفكير عثمان أمين واختياراته الفكرية عما كـــان يحدث فى مصر فى نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينيات حينما تحددت صورة ديكـــارت لديـــه أثـــناء وبعـــد عودته من بعثته بفرنسا، لقد كانت مصر تبحث عن الاســـتقلال والحرية وكانت النخبة المثقفة تسعى نحو العقلانية فى الفكر والليبرالية فى السياســـة، وليســـت أفكار أحمد لطفى السيد ببعيدة عنه فقد أثرت فى طه حسين ومصـــطفى عبدالرازق اللذان أثرا بدورهما فى طلاب الجامعة ومنهم عثمان أمين، الـــذى وجـــد فى مـــنهج ديكـــارت وفلسفته إشباعاً لأفكاره ، لقد كان يريد الوعى والتـــنوير وقـــد وجدهما فى "الكوجيتو" إلا أن "الكوجيتو" بداية وليس نهاية، وسيلة وليـــس غاية. إن عينا على ديكارت وأخرى أكثر شفافية واحدا أبصاراً على اللغة العربية والفكر العربى. ومن هنا كانت الديكارتية أساس الجوانية وهذا يستدعى منا تناول جهود عثمان أمين وكتاباته وأفكاره.

٤) عثمان أمين ؛ التوجهات المثالية الروحانية :

يقـــص علينا عثمان أمين فى الجوانية رحلته من القرية إلى الجامعة ويحدثنا عن إصراره على دراسة الفلسفة وعن السؤال الذى كان يشغله كثيراً ويؤرقه أحياناً عـــن ضـــرورة وجـــود فلسفة حياة يمتد أثرها إلى الشعب الوطنى فى أبناء الأمة وتجعـــلهم يـــأبون حياة الضيم والمذلة ويحققون حياة الحرية والكرامة"[٢٧]. ويظهر تأثير بأحمد لطفى السيد الذى حدثهم عن "أثر المفكرين والفلاسفة فى تهيئة الأذهان للإصـــلاح والطمـــوح إلى عـــالم أفضـــل"[٢٨] كما توثقت علاقته بالشيخ مصطفى عـــبدالرازق وكان لتوجيه الشيخ دوراً فى تحديد مساره الفكرى لقد وعى حديثه فى ندواتـــه بمنزـــله بعابدين عن "أنجح الوسائل لتغذية الحركة الوطنية وتنمية الوعى القـــومى بغيـــة التخلص من الحكم الأجنبى وتحقيق الاستقلال التام"[٢٩]. بالإضافة لهـــؤلاء فقد كان هناك كل من: أحمد أمين ومنصور فهمى وبالأخص يوسف كرم.

(٢٧) د. عثمان أمين : الجوانية ص٤٧.
(٢٨) المصدر نفسه ، ص٤٨.
(٢٩) المصدر نفسه ، ص٥١-٥٢.

وهـو يذكـر مـن الأساتذة الفرنسيين: أندريه لالند وأميل بربيه، وهما ممن امتد تأثيرهم عليه فى بعثته الدراسية فى فرنسا.

وقـد حـدد عثمان أمين برنامجاً بعد عودته من البعثة وهو مشروعه الذى يطـلق عليه: "سلسلة أعلام الفلسفة" التى أصدر منها : الرواقية وديكارت. وسلسلة "نفائس الفلسفة الغربية" والتى تمثل الهدف الثانى فى مشروعه الذى حدد لنا معالمه فى مقدمـة ترجمـته لكتاب البير باييه "دفاع عن العلم" وتتمثل هذه النفائس فى: ما بعـد الطـبيعة لأرسـطو وخواطر ماركوس أوريليوس وتأملات ديكارت ومبادئ الطـبيعة البشـرية لباركلى، ومباحث العقل الإنسانى لهيوم ومقدمة لكل ميتافيزيقا مسـتقبلة لكـانط وغيرها(٣٠)... والسؤال الآن ما الذى جذب انتباه عثمان أمين إلى هؤلاء. يخبرنا فى تصديره للطبعة الثانية من "الفلسفة الرواقية" إلى السبب الذى من أجلـه اختار الكتابة عن الرواقيون فهم أخلاقيون مثاليون : إذا عرفوا أن شيئاً هو الحق جهروا به وثبتوا عليه وإذا اقتنعوا بأن فعلاً هو الواجب التزموه لم يثنهم عن أدائه شىء وهم "جوانيون" يلتفتون إلى الحياة الداخلية للإنسان ولا يبالون بما يقع له مـن أحـداث خارجيـة"(٣١) وكان هدفه من نشر كتابه "أن تجد فيه شبيبتنا الواعية نماذج حية ملهمة للبطولة والكفاح ودروساً نافعة فى الثبات على المبدأ والإخلاص لـلواجب وتعـاليم إيجابية قويمة تشد من ازدهار فى السعى إلى المثل العليا والذود عنها".

ويحدد لنا فى تصديره لكتابه عن شيلر بواعثه للاهتمام بالفيلسوف الإنجليزى صـاحب المذهب الإنسانى أحد هذه البواعث يمت إلى شعوره القومى والثانى يمت إلى مـزاجه الفلسـفى، لقد بحث على كتب عن "مستقبل الإمبراطورية البريطانية" وكـان مؤلفـه شيلر يتنبأ يقرب انهيار الإمبراطورية مما جعله يلتمس بقية مؤلفاته ومـنها "دراسـات عن المذهب الإنسانى" فراعنى ما لمسته من تقارب عجيب بين

---

(٣٠) أصـدر عـثمان أميـن جزء من ترجمة هذا العمل الهام، إلا أنه توقف بعد نشر ترجمة د. نازلى إسماعيل ترجمتها لهذا الكتاب.
(٣١) د. عثمان أمين " الرواقية.

مـــزاج بـــالمذاهب المؤلـــف ومـــزاجى"[٣٢]. وطبيعة هذا المزاج تتحدد فى: ضيق بـــالمذاهب الـــتجريدية الجافـــة، ونفور من الفلسفات الاطلاقية المتعالية حيث نجد الفلاســـفة ضيقوا تجربتنا من ناحية العاطفة والإرادة بينما وسعوها بغير حساب من ناحيـــة الفكر، واهتمام بالفلسفة التى ترضى القلب كما تقتنع العقل. أن عثمان أمين يدعـــم العقل بالقلب والوعى بالروح، وهذا ما يتضح فى مجمل محاولاته الفلسفية. فـــفى كـــتابه الـــذى يحمـــل نـــنفس الاسم: محاولات فلسفية" يقدم لنا مجموعة من الدراســـات المختـــلفة "ألـــف بينها إحساس واحد وغرض واحد هو الابتهاج بطلب المعرفة والسعى إلى سبيل الحق والاتجاه إلى قيم الروح"[٣٣].

ويـــتحدد موقـــف عـــثمان أمين الفلسفى فى السعى لتأكيد قيم الروح. فتنمية القـــوى الـــروحية فى الفرد أهم بكثير من تنمية قواه الذهنية لكى يصل إلى درجة النضـــج بمعـــناه الصـــحيح" فالروح والفكر الأساس فى قيام الحضارة ومن فضل ديكـــارت على الإنسانية المفكرة أن أصبح واضحاً للعيان أن المثل الأعلى للوجود الإنسانى هو تحقيق وعى الإنسان لذاته ولمكانه فى العالم وهذا المعنى الحديث من معانى النظر الفلسفى هو الذى ينبغى أن نحرص كل الحرص على إذاعته وتعميمه حتى يتيسر للفلسفة أن تؤدى فى المجتمع رسالتها الجليلة.[٣٤]

وعـــلى ذلك يمكن تحديد السمات التى تميز الروح الفلسفى عند عثمان أمين كمـــا تظهر فى كتابه عن الجوانية وتحديده لخصائصها" وهى فلسفة نبتت من تأمل روح الديـــن والأخـــلاق"، "فلسفة مفتوحة لا تريد أن تكون مذهباً معلقاً، تستند على تـــزكية الوعى الإنسان وممارسة الحرية النفسية وتسعى إلى تعميق فهمنا للمقاصد والمعـــانى والقيـــم"[٣٥]. ويؤكد عثمان أمين أن منهج جوانيته لا يزال كبير الأهمية لفهـــم العالم وفهم الإنسان فضلاً عن أنه يفسح الطريق لترسم المثل الأعلى وتخطى "ما هو كائن" إلى "ما حقه أن يكون" ويثبت الإيمان بقدرة الروح الخالص على العلو

---

(٣٢) د. عثمان أمين : شيلر، دار المعارف بالقاهرة ، ص٨.
(٣٣) د. عثمان أمين : محاولات فلاسفية، المقدمة.
(٣٤) د. عثمان أمين : المصدر السابق.
(٣٥) د. عثمان أمين : المصدر السابق.

عـــلى حــدود الواقع في المكان والزمان واليقين بحرية الذات الواعية فى أصلاح الفــرد وإصـــلاح الجماعة". وتبين لنا محاولاته الفلسفية خصائص فلسفته من جهة واهــتمامه بديكارت من جهة أخرى. تقوم الفلسفة على أسس هى: الوعى والإرادة والحــرية، مـــن أجــل تدعيــم قيــم الروح مقابل قيم المادة كما يتضح من كتابه "شخصــيات ومذاهــب فلســفية" الذى أظهرت طبعته الأولى ١٩٤٥ عن الجمعية الفلســفية المصـــرية التى كان عثمان أمين سكرتيرها حيث يؤكد أهمية الفلسفة من أجل سد النقص فى القوة الروحية تماماً كما فعل ديكارت فالفلاسفة هم رافعوا لواء القيــم الــروحية[٣٦]. وهذا ما وجه عثمان أمين نحو "رواد المثالية الغربية"[٣٧] كما وجهه نحو "رواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى".

وكمـــا كـــانت الـــرواقية عنده بمثابة المثل الأعلى للسلوك وفلسفة فشته هى الفكـــرة التى تصل إلى أقصى درجات الوعى وتتحول إلى عمل كانت فلسفة كانط كمـــا قدمها بوترو فلسفة حرية الإرادة. "لقد نهض بوترو على اتساق مع خصائص العــبقرية الفرنســية لنصـــرة الدعوى الفلسفية التقليدية دعوى حرية الإرادة، تلك المســـألة الأثيرة لدى ديكارت والتى جعلها الفيلسوف مناط الكمال وصورة التشبية بالخالق سبحانه"[٣٨].. لقد الح بوترو على فكرة الحرية فى الأفعال الإنسانية وأفسح إلى جانب العلم مكاناً للقيم الدينية والأخلاقية والجمالية[٣٩].

إن عـــثمان أميـــن "فيلسوف كبير وباحث فذ" تعددت أهدافه وتنوعت مراميه ألـــف وتـــرجم وشـــرح وحقـــق وأتـــاح لقرائه أن يقرءوه فى العربية والفرنسية والإنجليزية وهو فى تأليفه وتحقيقه يوازن بين الآراء ويقابل بين النصوص وله فى كل ذلك موقف خاص ورأى شخصى وهو حين يؤلف أو يكتب إنما يعبر عن نفسه

---

(٣٦) د. عـــثمان أمين : شخصيات ومذاهب فلسفية، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧١ص٣٠.

(٣٧) د. عثمان أمين : رواد المثالية الغربية، ط٢، جار الثقافة للنشر القاهرة، ط٢، ١٩٧٥.

(٣٨) د. عـــثمان أميـــن : مقدمة ترجمته كتاب أميل بوترو : فلسفة كانط، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧١، ص٤.

(٣٩) المصدر السابق نفسه ، ص٥٥.

ويقدم ثمار جهوده وما من مؤلف من مؤلفاته إلا ويحمل طابعه الخاص ويعبر عن شخصـيته[٤٠]. وهـذا الحكم ينطبق على جهده الأساسي في الفلسفة الحديثة عامة وفلسـفة ديكـارت على وجه الخصوص التي تحمل خصائص عثمان أمين بنفس القدر الذي تعبر به عن أفكار ديكارت ومن هنا كانت الديكارتية كما قدمها صاحب الجوانيـة فلسـفة مـثالية روحانية كما سيتضح من الفقرة القادمة عن الأستاذ ومن تابعوا تفسيره المثالي والسمات التي تميز هذا التفسير في الثقافة والفكر العربي.

٥) الديكارتية والواقع الثقافي العربي :

لقـد ساهم عثمان أمين في نشر الديكارتية أكثر من نصف قرن منذ تخرجه في الجامعـة ١٩٣٠ حـتى وفاته في ١٧ مايو ١٩٧٨، وقد تنوعت اهتماماته بهذه الفلسفة بين التأليف والترجمة والمحاضرة بالعربية والفرنسية فالأستاذ عضو شرف جمعيـة أصدقاء ديكارت، وقد تنبه منذ فترة ليست بالقصيرة إلى "أثر ديكارت في مصر" وهو أثر له فيه فضل، وحاضر تحت هذا العنوان في الجمعية الديكارتية في باريس[٤١]. لقد أفاد عثمان أمين من ديكارت في تحديد معنى وطبيعة الفلسفة واتخذ مـنه نقطة انطلاقه في نقد الاتجاهات المخالفة من وضعية ووصورية وصولاً إلى المعـنى الحـق الذي يرتضيه لمعنى الفلسفة. لقد تعلم مما بينه ديكارت من "حقيقة الكوجيـتو" أن يقظـة الـنفس وانتـباه الذهـني هي الشرط الأول لسلوك الطريق الفلسـفي[٤٢]. ومـن هنا فالأستاذ وجد صدى نفسه في الفيلسوف فهو يتفق معه في الكـثير من الآراء[٤٣]. فالعقل والفكر والكوجيتو والوعي هما المعبر الأساسي لعالم الفلسـفة والحقيقة وهذا المعبر أو الطريق هو الذي عبره ديكارت وأشار للإنسانية أن تسـلكه ومن هنا فهو قريب إلى نفس عثمان أمين الذي كتب في مقدمة الطبعة السابعة من كتابه الهام عن ديكارت بصفة بأحب الصفات إلى نفسه تلك الصفة التي يعطيهـا لمـن يأنس إليهم في تاريخ الفلسفة وهي "الجوانية". لقد أحب عثمان أمين

---

(٤٠) د. إبراهيم مدكور : المصدر السابق.

(٤١)

(٤٢) د. عثمان أمين : الجوانية ص١٣٤.

(٤٣) د. عثمان أمين : الجوانية ص٩٦، ٩٩.

ديكــارت وخشــى الــبعض من هذا الإسراف فى الحب. أما لماذا هذا الحب الدائم والمــبكر والكبير فذلك لأن ديكارت عنده رائد من رواد التنوير فهو الموكل بتنقية الأذهــان وتنوير العقول "وصورة العامل المصرى الموكل بإضاءة مصابيح النور فى اشرع البرمونى بحى عابدين"[٤٤].

وســنلاحظ كــلما تقدم بنا البحث تلك الاحالات المتبادلة التى يقيمها عثمان أميــن بين ديكارت وفلسفته من جهة والحياة المصرية والشخصيات الشرقية واللغة العــربية من جهة ثانية. وتلك الإحالات لا تخلو من دلالة وأظن هذه الدلالة لم تكن لتصبح لو كان عثمان أمين ليس عربياً مثلاً أو كتب هذه الدراسات عن ديكارت فى بــاريس إنــه كباحث عربى لا يستطيع إلا أن يقدم ديكارت عبر هذه الصفة ومن خلال هذه الإحالات.

إن رائــد "الجوانية" الذى أحب اللغة العربية وكتب كثيراً عن فلسفتها وأختير فى ســنوات عمــره الأخيرة عضواً بمجمع الخالدين يرى فيما كتبه عن "الجوانية وفلســفة اللغة العربية"[٤٥] أن أول السمات التى تتميز بها لغة القرآن هى إنها تنحو نحــواً مــن المــثالية لا نظير له فى أى لغة من اللغات الحية ويرى أن الغربيين يجــاهدون مــن وراء لغاتهم إلى رفع النقاب عن المثالية التى لم يستطع استكشافها مــنهم إلا أثــنان مــن كــبار فلاسفتهم المحدثين: ديكارت وكانط"[٤٦] وقد بين فى محاضــرة ألقاهــا على جمهور فرنسى عن "ديكارت واللغة العربية"[٤٧] أن اهتمام عــثمان أميــن وحبه الشديد لديكارت مجلة يهدى كتابه "لمحات من الفكر الفرنسى" وهــو فصول كتبها بين ٤٤-١٩٦٨ كتحية وإعجاب إلى الأمة التى أنجبت ديكارت الأب الروحى لفلاسفة العصر الحديث الذى كان أول صوت أرتفع فى أوربا منادياً بإقامة العقل وكرامة الإنسان ومستنكراً نزوات العنصرية مندداً بافات الطغيان"[٤٨].

(٤٤) د. عثمان أمين : الجوانية، ص١٠٠.
(٤٥) د. عثمان أمين : الجوانية، ص١٤٩ فلسفة اللغة العربية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٩.
(٤٦) د. عثمان أمين : الجوانية ص١٥٣.
(٤٧) د. عثمان أمين : المصدر السابق، ص١٥٦-١٥٧.
(٤٨) د. عثمان أمين : لمحات من الفكر الفرنسى.

ولـم يـتوقف عثمان أمين عن الكتابة عن ديكارت ويأتي في مقدمة هذه الكتابات سفره الفخم عن ديكارت الذى صدرته طبعته الأولى بالقاهرة عام ١٩٤٢.

ويمكن أن نتتبع عبر الطبعات المختلفة للكتاب تطور فهم عثمان أمين لفلسفة ديكـارت خـلال أكثر من ثلث قرن منذ الطبعة الأولى حتى السابعة ١٩٧٦ حيث يـرى فى الـبداية "أن دراسـة مؤلفـات ديكارت من ضرورات كل ثقافة رفيعة عميقـة"[٤٩] ويقـف الأستاذ فى دراسته عند المسائل الكبرى لأنه يقدم كتاباً مدرسياً قاصـداً أن يكـون أداة نافعـة للباحثين مثيرة لهم المستزيدين... ومن أجل أن يسد فـراغاً ظاهـراً فى دراسة الفلسفة وتاريخها فى مصر والعالم العربى"[٥٠] وما أن صدرت الطبعة الأولى حتى أحدثت اهتماماً كبيراً تمثل فيما كتبه يوسف كرم الذى تتـلمذ عـليه عـثمان أمين والعقاد الذى حرص المؤلف على نشر رسالته إليه فى مقدمة الطبعة الثانية، التى قدم فيها بعض البحوث التكميلية حول الفلسفة الديكارتية خاصة عن نظرية ديكارت فى الاجتماع، وأثر الفلسفة الديكارتية.

وصـدرت بعد ست سنوات الطبعة الثالثة فى سبتمبر ١٩٥٢ أى بعد مرور ثلـثمائة عام على وفاة الفيلسوف وكثرت الكتابات عنه فأضاف عثمان أمين فصلاً جديداً عن "علم الجمال الديكارتى"[٥١] وآخر عن "الدراسات الديكارتية" مع كثير من الهوامـش والمـراجع. وقد تحولت الديكارتية عند عثمان أمين مع الطبعة الرابعة ١٩٥٧ مـن كونهـا ضرورة من ضرورات كل ثقافة رفيعة عميقة لتكون "محاولة تحقيق وعى الإنسان لذاته ولمكانه فى العالم بحيث يرد كل آرائه إلى أفكار واضحة متميزة... وهذا المعنى من معانى النظر الفلسفى هو المعنى الذى يجب أن نحرص عـلى إذاعـته وتعميمه حتى يتيسر للفلسفة أن تؤدى فى المجتمع الحاضر رسالتها الجليـلة"[٥٢]. هـنا لأول مرة تظهر كلمة المجتمع، أو دور "الوعى الديكارتى" فى المجـتمع الحاضر" فمفهوم الفلسفة ورسالتها الحقيقة على نحو ما أراد لها ديكارت

(٤٩) د. عثمان أمين : ديكارت ط٧، تصدير الطبعة الأولى، ص٩.
(٥٠) المصدر نفسه. ص١١.
(٥١) د. عثمان أمين : ديكارت مقدمة الطبعة الثالثة، ص١٥.
(٥٢) د. عثمان أمين : : ديكارت مقدمة الطبعة الرابعة. ص١٧–١٨.

قد برز في أيامنا هذه (السنوات الأولى للثورة) وليس أدل على ذلك من أن الرئيس عبدالناصر حين أراد أن ينشر آراءه اختار كلمة الفلسفة عنواناً لكتابه فلسفة الثورة"[٥٣] هنا تجاوز دور الفلسفة عند عثمان أمين مجرد الثقافة إلى أن تصبح وعياً بأهداف المجتمع وتحولت الكتابة عن "ديكارت" إلى مناسبة للحوار والنقاش مع غيره من الأساتذة الداعيين إلى اتجاهات فلسفية مختلفة وكانت الديكارتية مقابل هذه الاتجاهات هي الفلسفة بآل التعريف هي الأساس والمعيار لما سواها.

قدم عثمان أمين الديكارتية باعتبارها الـ "فلسفة" مقابل الاتجاهات الوجودية والوضعية، وبالطبع لا يقصد الوجودية الفرنسية أوالألمانية ولا الوضعية الإنجليزية بل يقصد الدعوة إلى "تلك المذاهب (الموضات) في بلادنا. هنا تجاوز عثمان أمين النقل والعرض إلى تبني الديكارتية ذات الصبغة الجوانية والتفسير المثالي في مناقشة الاتجاهات الفلسفية في مصر، أو بمعنى أدق امتداد هذه الاتجاهات الغربية في بلادنا. فالديكارتية هي الفلسفة بألف لام التعريف أما "الموضة" المذهبية الجديدة التي وردت إلينا في السنوات الأخيرة من فرنسا وانجلترا وأمريكا متشحة بوشاح "الوجودية" تارة و"الوضعية" تارة أخرى فما هي إلا بدعة ماجنة لا صلة بينها وبين مذاهب الفلسفة الخالدة ومن ثم فهي لا تلقى رواجاً إلا في مجتمعات حائرة ولا يطيب لها عيش إلا في بيئات "متعفنة" فذلك الطراز من الوجودية الفرنسية الملحدة الذي قرعت له الطبول في بلادنا إنما هو مذاهب جماعة من المتهالكين المتشائمين أقفرت نفوسهم من الإيمان فأعلنوا الزندقة ديناً والقذارة فناً والبذاءة أدباً ورأوا الحياة سخفاً يورث القلق والضجر والقرف وأعوزتهم النية الطيبة والضمير الحي، وتمادوا في الدعوة إلى مواقف من الحياة لزجة مائعة فتراهم يتشدقون بالحرية ويباهون بالانحلالية ويتخذون شعاراً "لا تستح واصنع ما شئت"[٥٤].

ويستمر هذا الموقف الديكارتي الجواني من الوجودية وتخف حدته ويتطور إلى حوار خلاق بلغة فلسفية هادئة، كما نجد ذلك في حواره مع سارتر (الدراسة

---

(٥٣) الموضوع السابق. ص١٨.
(٥٤) المصدر السابق. ص١٨.

الخامسة من "لمحات من الفكر الفرنسى") حيث يرجع عثمان أمين قول سارتر "إن مـــا نخـــتاره لا يمكـــن أن يكون حسناً عندنا دون أن يكون حسناً عند الجميع إلى نظـــرية الإرادة الأخلاقية عند ديكارت" ويرجع عبارة سارتر أن الحرية هى وعيها فى الـــنهاية إلى الكوجيـــتو الديكـــارتى ويناقش العديد من القضايا الوجودية على ضـــوء فلســـفة ديكارت ويرى أن الزعم بأن ديكارت كان يدعو إلى ما يدعو إليه ســـارتر "أن تعمـــل بغيـــر امل" أبعـــد مـــا يكـــون عن التعبير عن روح الأخلاق الديكارتيـــة[٥٥] كما يظهر موقفه من الوجودية أيضاً فى تصديره ترجمة لنصوص هيدجر فى "الفلسفة والشعر" وهو موقف أعراض لا كراهية[٥٦].

كمـــا يقدم الديكارتية مقابل ذلك الضرب من الوضعية الإنجليزية والأمريكية تلك التى جاءت إلينا فى زفة وجرى بعضهم ركابها وتشبث البعض الآخر بأذيالها، والـــتىهى مذهـــب جماعة من ذوى البلادة والبلاهة. حفظوا من العلوم صيغاً لن يفهموهـــا، وأخـــذوا يلوكونها فى رطانة مردو لة ويرددونها فى حذلقة مفضوحة، وعجـــزوا عـــن إدراك أى فكـــرة عامة فالتصقوا بعالم الحسيات واعتبروا ما عداه خـــرافة.. وأخذوا يتفاخرون بأنكار الروح والسخرية من العقل والتهجم على الفكر وتشـــبثوا بالأمر الواقع فيما يزعمون وتعلقوا بالتجربة الراهنة فيما يدعون واتخذوا شعاراً لهم: لا تفهم ولا تعقل؛ وثابر على المكابر والمقاومة"[٥٧].

لن نتوقف هنا أمام هذه القطيعة التى حاول عثمان أمين إقامتها بين العقلانية الديكارتيـــة والمذاهب: الشعورية الوجودية والحسية الوضعية ولا ذلك الرفض لما عداهـــا مـــن فلسفات وإن كانت لغة صاحب العقلانية هنا عاطفية أكثر من كونها مـــنطقية حماســـية أكثر منها عقلانية فإن ذلك يعود فى النهاية إلى كونها بعيدة عن الـــروح قريبة من المادة مما لا يتفق مع مثاليته الجوانية. إن عثمان أمين لم يحاول

---

(٥٥) د. عثمان أمين : لمحات من الفكر الفرنسى.

(٥٦) د. عـــثمان أميـــن : مقدمة ترجمة لنصوص هيدجر "الفلسفة والشعر" الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، التصدير.

(٥٧) د. عثمان أمين : ديكارت، مقدمة الطبعة الرابعة، ص١٩.

رصـــد وتحـــليل الفكر الفلسفى فى مصر المعاصرة ولكنه أراد التثبيت للديكارتية والروحية أمام ما قد يطغى عليها من اتجاهات أخرى.

ويعـــدد فى مقدمة الطبعة الخامسة من كتاب ديكارت الأبحاث المختلفة التى ظهـــرت عن فلسفة ديكارت والتى ألقيت فى مؤتمر الفلسفة فى "روايومون" بفرنسا ١٩٥٧ والـــتى طبعت فى مجلد ضخم يضم أبحاث ومناقشات المؤتمر الذى اشترك فيه كثير من الديكارتيين ويهدف من ذكر هذه الأبحاث أن يجد الدارسين من شبابنا فى هذه البحوث مادة نافعة للتفكير الفلسفى. ويضيف فى طبعة الكتاب السادسة إلى الباب الثانى فصلاً خامساً عن "المقال فى المنهج" ويوسع الفصل السادس من الباب الـــثالث عـــن "مذهـــب الأخلاق" والفصل الأول من الخاتمة عن "ديكارت والتجديد الفلســـفى" وذلك بإضافة ترجمة الرسالة التى وجهها "برجسون" إلى موتمر ديكارت المنعقد فى باريس ١٩٣٧[٥٨].

وتظهر مقدمة الطبعة السابعة من الكتاب تحمس عثمان أمين الشديد لديكارت وتفسر فى الوقت نفسه طبيعة وسمات الديكارتية كما يعبر عنها صاحب "الجوانية" فهو يرى أن من حق الأمة الفرنسية أن تعتز بأكبر أبنائها ديكارت"، وديكارت عنده ظـــل مستمســـكاً بعرى عقيدة دينية خالصة كان لها أكبر الأثر على مذهبه العقلى وأفكـــاره العلمية[٥٩]. لقد أعلى ديكارت من قيمة الوعى الإنسانى ويتضح من تأمل الكوجيـــتو" الديكـــارتى أن المهمـــة الأولى للفلســـفة هى دراسة "الانية" أو الوعى الإنســـانى. والواقـــع أنـــه ابتدأ من ديكارت أصبحت الفلسفة تحيلاً للوعى وتحليلاً لمـــلكاته وقواه. ووعى الإنسان لذاته أصبح أساس كل فكر يقوم لدى الإنسان. وقد دفـــع هـــذا الاهتمام بالوعى عثمان أمين إلى تقديم جوانيته التى تنطلق من الوعى وكان وراء احتفاله الكبير برواد الوعى الإنسانى: الأفغانى وإقبال ومحمد عبده وإن كان الاهتمام بالإمام محمد عبده سابقاً أو مصاحباً للاهتمام بديكارت.

---

(٥٨) د. عثمان أمين : ديكارت مقدمة الطبعة السادسة.

(٥٩) د. عثمان أمين : ديكارت مقدمة الطبعة السابعة.

فحيــن اطــلع على أعمال ديكارت طبعة آدام وتانرى المحققة، يتساءل ألا تســتحق آثــار الشــيخ محمــد عبده شيئاً من عناية الوزارة التى تقوم على التعليم فتطــبعها طبعاً يليق بمنزلة هذا الإمام[٦٠]. وبعد أن حاضر عن ديكارت طلب من منصــور فهــمى بعد أن بلغه نبأ المحاضرة - أن يسمح له بأن يعد تحت إشرافه بحــثاً فى الأخــلاق الإســلامية فى رأى محمــد عبده"[٦١]. وفى عرضه للتأملات الديكارتيــة فى مجــلة تراث الإنسانية يتحدث فى فقرة هامة عن "ديكارت ومحمد عــبده"[٦٢] ويتــناول فى الفصــل الرابع من الباث الثانى فى كتابه عن "رائد الفكر المصرى" نظرية الحرية عند محمد عبده التى تتشابه مع فلسفة ديكارت ويقارن بين موقفيهما ويشير إلى نقاط الاتفاق بينهما فى هذه النظرية". ويرى أن الأستاذ الإمام يطــبق على تفسير القرآن القاعدة الديكارتية المشهورة قاعدة البداهة"[٦٣] أن عثمان أمين يتجاوز تلك التشابهات السطحية بين الأشخاص إلى الأفكار التى يطرحها كل مــنهما بحيــث يمكــن القول أن ديكارت عند عثمان أمين يلقى أضواء كاشفة لفهم الفلسفة الإسلامية كما يلقى فى نفس الوقت الضوء على فهمه للديكارتية، ذلك الفهم الذى يظهر فى كتاباته المختلفة ولا يقتصر على كتابه عن ديكارت. وتبيين كتابات عــثمان أميــن وترجمته لنصوص فلسفته مقدار الاهتمام الذى أولاه لرائد العقلانية الحديثة. فبالإضافة إلى سفره الضخم عن "ديكارت" فقد خصص له فصلاً هاماً فى "رواد المــثالية الغربية"[٦٤] وآخر فى "مذاهب وشخصيات فلسفية"[٦٥] بالإضافة إلى دراســته عــنه فى "محــاولات فلسفية"[٦٦] وعرضه للتأملات فى المجلد الأول من تراث الإنسانية كما يخصص الفصل الرابع من الباب الرابع من "الرواقية" للحديث عــن "الرواقية والديكارتية"[٦٧] بالإضافة للإشارات المتعددة التى نجدها فى : "رائد

---

(٦٠) د. عثمان أمين : الجوانية، ص١٠٥.
(٦١) المصدر السابق، ص١٠٣.
(٦٢) د. عثمان أمين : التأملات الديكارتية، مجلة تراث الإنسانية القاهرة، المجلد الأول.
(٦٣) د. عثمان أمين : رائد الفكر المصرى، الفصل الرابع، الباب الثانى.
(٦٤) د. عثمان أمين : رواد المثالية الغربية، الباب الأول.
(٦٥) د. عثمان أمين : مذاهب وشخصيات فلسفية.
(٦٦) د. عثمان أمين : محاولات فلسفية.
(٦٧) د. عثمان أمين : الرواقية، الفصل الرابع، الباب الرابع.

الفكـــر المصـــرى" و"الجوانيـــة" مع عدد لا يحصى من المحاضرات التى ألقاها بالعربية والفرنسية.

ومـــن المهام أن نتوقف عند ترجماته لنصوص ديكارت ومساهمته فى تقديم "نفـــائس الفلسفة الغربية" لقراء العربية. وفى مقدمتها "التأملات فى الفلسفة الأولى"، الـــذى صـــدره مـــنه عـــدة طبعات الأولى ١٩٥١ والثانية ١٩٥٦ وأخرى ١٩٧٤ و"مـــبادئ الفلسفة" وقد طبع عدة مرات الأولى ١٩٦٠. وقد اقتصر عثمان أمين فى تقديمـــه لترجمة التأملات على التعريف بالكتاب وبيان الطريق الذى سلكه ديكارت، ولم يعرض لحياة ديكارت ومذهبه باعتبار أن "أبا الفلسفة الحديثة" لم يعد فى حاجة إلى الـــتعريف. "إن التأملات هى كتاب العصر، وفيها ما يدعو أهل الفكر وإخوان الصـــفا فى هذا العصر المادى الصاخب إلى النظر فى مشاغل الروح والخلود إلى امتحان النفس"[٦٨]. ويرى فى نهاية تقديمه لكتاب "مبادئ الفلسفة" أن الكلمة الأخيرة فى كـــل مـــن فيـــزيقا وميتافيزيقا ديكارت هى المثالية الجوانية"[٦٩]. ويصحح فهم شـــراح ديكـــارت وناشرى كتبه، ويؤكد على الناحية العملية فى فلسفته وهى ناحية هامـــة لـــم يتوقف عنده كثير من باحثى ديكارت فى العربية. إلا أن الناحية الهامة التى توقف عندها عثمان أمين فى فلسفة ديكارت نجدها فى كتابه "فى اللغة والفكر" الـــذى أصـــدره ١٩٦٦ وتوصـــل فيه إلى إسهام ديكارت فى اللغة وهى ناحية زاد الاهـــتمام بها فى الوقت الحالى والجدير بالذكر هنا أن تقديم عثمان أمين للسانيات الديكارتيـــة تـــم فى نفس الوقت الذى أصدر فيه عالم اللغة الشهير نعوم تشومسكى N. Chomsky كتابه اللسانيات الديكارتية Cartesiam linguitics 1977.

٦) الديكارتية واللسانيات التوليدية التحويلية :

حيـــن دعى عـــثمان أمين ليحاضر طلاب الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الـــبحوث والدراســـات العربية عن "اللغة العربية والفكر المعاصر" أراد أن يتناول المحـــاولات الجديـــدة فى العربية للتعبير عن مفاهيم الثقافة العصرية. ونظراً لتعدد

(٦٨) د. عثمان أمين : مقدمة ترجمة التأملات.

(٦٩) د. عثمان أمين : مقدمة ترجمة مبادئ الفلسفة.

جوانب النظر فى هذه المحاولة وتشعب موضوعاتها فقد قدم لنا دراسة تمهيدية لموضوع اللغة والفكر بوجه عام. وكانت حصيلة هذه المحاولة محاضراته التى نشرت بعنوان "فى اللغة والفكر". يتناول فى المحاضرة الأولى أهمية اللغة وإنها خاصية للإنسان بما هو حيوان ناطق. فاللغة خاصية الإنسان كما رأى ديكارت فيلسوف العصر الحديث. وديكارت حين استأنف الفكرة الفلسفية التى تصورها أرسطو بتعريفه للإنسان بأنه حيوان ناطق أضاف إليها أن اللغة تحقق "ناطقية" الإنسان الحقيقية بشقيها الفكر والعمل ومن ثم تجعله أهلاً لان يكون خليفة على الأرض.

ويتناول فى المحاضرة الثانية "ما هى اللغة؟" ويبين إنها شغلت الباحثين منذ أقدم العصور عرض لها أفلاطون فى "اقراطيل" ولازال البحث فى طبيعتها موضع اهتمام الكثير من المشتغلين بفلسفة اللغة كما نرى عند ديكارت. ويعرض لتعريفات اللغة كما جاءت فى قاموس لالند، اهمها أن المهم فى اللغة هو "القصد والتدبر والوعى والتفكير"(٧٠) ومن هذا الوجه يلزمنا أن نسلم بصحة ما أوضحه ديكارت فى القسم الخامس من "المقال فى المنهج"(٧١) من أن اللغة هى الخاصية التى يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوان وهذا الموضع أشار إليه واعتمد عليه تشومسكى وشارحو آرائه من العرب والغربين. ويرى أن باللغة يخطو الإنسان إلى مجاوزة وجوده البدنى والبيولوجى إلى وجوده الفكرى، أو إلى تحقيق الكوجيتو" بلغة ديكارت وهم ما لم يلتفت إليه الماديون أو الجدليون أو الموضوعين. وهذا ما حول أن يظهرنا عليه تشومكسى فى انتقاده للوضعية والتجريبية وعلم النفس السلوكى وكما يتضح من كتاباته التى تبين الأسس الفلسفية لنظريته فى اللغة وهى: اللسانيات الديكارتية"، "اللغة والفكر"، و"مشكلات المعرفة والحرية" حيث لا وجود للغة خارج إطار تصورها العقلى. فالنظرية التوليدية التحويلية لدى تشومسكى تنحو عقلانياً بالإمكان اعتباره النمط العقلانى المتماسك والوحيد الذى برز فى السنيين الأخير والذى استند على الدراسات التى تناولت اللغة وعملية اكتسابها، ويلتقى هذا المنحى

---

(٧٠) د. عثمان أمين : فى اللغة والفكر، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٦ ص.
(٧١) ديكارت : المقال فى المنهج ترجمة محمود الخضيرى ط٤، ص.

مـــع المذاهـــب والآراء العقلانية فى مجال اللغة الإنسانية التى من أبرزها المذاهب الديكارتى الفلسفى وآراء الفيلسوف الألمانى همبولدت.

إن اهـــتمام عـــثمان أمين بالعودة إلى ديكارت لبيان العلاقة بين الفكر واللغة يقـــربه مـــن الاهتمامات المعرفية التى تحاول أن تؤسس للنظريات الحديثة فى علم الـــلغة بـــالعودة إلى عقلانيـــة القرن السابع عشر وإلى فلسفة ديكارت بالتحديد. فقد خصـــص أحد الباحثين العرب فصلاً من كتابه "الألسنية: قراءات تمهيدية" لعرض وجهة نظر ديكارت فى اللغة. تلك التى تمثل الأصول النظرية لتشومسكى الذى أقام نظريته على أسس عقلية كما يتضح من دراسته ("علم اللغة الديكارتى"). وما يهمنا هـــنا ليـــس بيـــان أســـبقية عثمان أمين لتشومسكى ولا تشابهه معه وتزامنهما فى الوصـــول إلى الأســـاس العقلانى للغة كما تمثل عند ديكارت بل هو إرجاع عثمان أميـــن الـــلغة إلى الفكـــر ذلـــك الجانب الذى شغل به فى كتابه فلسفة اللغة العربية ومحاولـــته للـــتأكيد عـــلى مـــثالية الـــلغة خاصة الديكارتية مما أدى به إلى بحث موضـــوعات ربمـــا كـــانت مهملة من بعض الباحثين فى فلسفة ديكارت وكان من أوائل من أشاروا إليها وأكدوها.

محمود أمين العالم:

النقد ومدرسة فرانكفورت [*]

فى دراسته "الفلسفة تعيد السؤال عن نفسها" يقدم محمود أمين العالم مدرسة فرانكفورت فى مواجهة مدرسة ما بعد الحداثة باعتبارها موقفاً نقداً للعقلانية الأدائية القمعية، ولكن دون أن تتخلى عن العقل، بل تسعى إلى إعطاء مدلولاً إنسانياً اجتماعياً تاريخياً فاعلاً. وعلى الرغم من أنه يفصل الحديث عن هابرماس والعقل الاتصالى أو التواصلى فى فلسفته، باعتبار هابرماس أبرز المعبرين عن الاتجاه العقلانى، ونقد الطابع التقنى الوضعى القمعى للعقل فى الممارسات الرأسمالية والاشتراكية، ومحاولة تنمية البعد الموضوعى الإنسانى للعقل، وباعتباره أبرز الفلاسفة المعاصرين تصدياً لاتجاه ما بعد الحداثة وخاصة فى نقده لفوكو ودريدا ودولوز وامتداداتهم فى الفكر الألمانى المعاصر،[1] فإنه يتناول السمات العامة لمدرسة النظرية النقدية والتى يحدد أصحابها هوركايمر، وادرنو، وماركوز، وأن "الفلسفة عندهم هى نقد شامل للواقع الإنسانى فى تناقضاته الاجتماعية العينية المختلفة، ولذا فهم يرفضون النزعة الإطلاقية أو الروح الكلية المطلقة عند هيجل، والوعى أو الشعور المحض عند هسرل والوجود المطلق عند هايدجر والوضعية فى صورها المختلفة فضلاً عن النظريات النسقية الكلية المغلقة عامة، وهم عقلانيون نقديون ينتسبون مع كثير من التحفظات للماركسية وخاصة فى نموذجها السوفيتى الستالينى"[2].

---

[*] هذا الفصل كان الدراسة التى أسهمنا بها فى الكتاب الذى أشرفنا عليه عن الأستاذ محمود أمين العالم وشارك فيه عدد كبير من الزملاء وهو فى ظنى أول عمل جماعى عن العالم ضمن توجهنا لتكريم كل أعلام الفلسفة فى مصر والوطن العربى، بدوى، حنفى، العالم. ثم ناصف نصار وفتحى التريكى وإن كان هذا يلقى الغضب من البعض حتى ممن نكرمهم أنفسهم!!

(١) هابرماس : القول الفلسفى للحداثة ، ترجمة فاطمة الجيوشى، منشورات وزارة الثقافة فى الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩٥.

(٢) محمود أمين العالم : الفكر العربى بين الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربى، القاهرة، ١٩٩٦، ص٢٣١.

وهـــو يـــرى أن هذا الاتجاه الذى يمثله هابرماس، والذى يعنى التحاماً عقلياً موضـــوعياً نقديـــاً بمختلف منجزات العصر وقضاياه ومشاكله فى أشكال وتجليات متـــنوعة ومختلفة من الالتحام؛ "قد يكون الالتحام العقلى النقدى التغيرى ذو التوجه الجدلى المادى هو الأقرب إلى الإجابة الصحيحة بل الضرورية على سؤال الفلسفة فى عصـــرنا الـــراهن فى مواجهـــة الخيارات الإطلاقية والعنصرية واللاعقلانية والتقنية القمعية والاستبدادية والعدوانية"[٣]. ويهمنا هذا التحليل لمدرسة فرانكفورت مقابل مدرسة ما بعد الحداثة الذى يقدمه العالم ضمن تناوله لاتجاهات أربعة أساسية على الساحة الفكرية العالمية اليوم هى بالإضافة إلى ما سبق :

١- الاتجاه العقلى الإجرائى التقنى أو الوضعى.

٢- الاتجاه المتعصب سواء فى طابعه الدينى أم القومى أو الفاشى الديكتاتورى.

وعـــلى الـــرغم مما يثيره تصنيف الأستاذ العالم لهذه الاتجاهات الأربعة من قضـــايا قد لا نتفق عليها، خاصة ما يطلق عليه الاتجاه العقلى الإجرائى أو الاتجاه المتعصـــب فإننا سوف نتوقف أمام تحليله لموقف مدرسة فرنكفورت النقدى وذلك لسببين :

الأول : هـــو أن فهم مدرسة فرنكفورت للفلسفة يقترب كثيراً من فهم محمود أمين العـــالم لها كما نظن، يظهر ذلك من بعض الإشارات التى وردت فى دراسة العـــالم "ما هى الفلسفة؟" وبعض دراساته الأخرى فى كتابه "معارك فكرية" وإن كـــان العـــالم ينطـــلق من الماركسية الحرفية التقليدية على العكس من مدرســـة فـــرنكفورت الـــتى هى أقرب إلى ماركسيات القرن العشرين. كما سيتضح فيما بعد.

الثانى : أن محمود أمين العالم أصدر عام ١٩٧٢ كتابه "ماركيوز أو فلسفة الطريق المسدود"، وفيه تناول فلسفة ماركيوز برؤية مختلفة، كانت أقرب إلى الإدانة السياســـية منها إلى النقد الفلسفى، مما يجعلنا نتساءل هل نحن بازاء موقفين مختـــلفين لموقـــف العـــالم مـــن مدرسة فرنكفورت أو أننا بازاء تحليلين له أحدهما فلسفى معرفى والثانى سياسى أيديولوجى.

---

(٣) المرجع السابق، ٢٣٣.

قـد يجيبنا الأستاذ العالم إجابات مختلفة مؤداها أن مدرسة فرانكفورت ليست اتجاهـاً واحـداً بـل اتجاهات متعددة تختلف باختلاف أعضاء المدرسة، وأنه فى دراسـته: مـاركيوز " فلسفة الطريق المسدود" يناقش القضايا التى أثارتها كتابات ماركيوز. أو أن موقف هذا الأخير يختلف عن بقية مواقف أعضاء هذه المدرسة أو غير ذلك من الإجابات التى تستحق الحوار.

والحقيقـة أن هذا الحوار مع موقف محمود العالم من مدرسة فرنكفورت أو أحـد أعضـائها؛ هربرت ماركيوز، لن يكون مجدياً إلا إذا عرفنا موقف العالم من الفلسـفة عامـة. وفى البداية وقبل تقديم تعريفه للفلسفة نشير إلى أن محمود أمين العالم فى كتاباته المختلفة التى تعبر عن تطور تفكيره إنما يصدر عن معاناة حياتية وعقـلية خلاقة ارتبطت فى بداية حياته بالمثالية وأقصد بها توجهه الوجودى بتأثير عـبدالرحمن بـدوى[٤] والتى تحولت مستترة فى بحثه عن "المصادفة ودلالتها فى الفيـزياء الحديثة"[٥]. حيث انتقل بتأثير من يوسف مرا[٦] إلى لا رؤية تكاملية، ثم إلى فلسفة جدلية تستند كما يخبرنا إلى الثورة العلمية والثورة الاجتماعية.

ففى تمهيده لكتاب فلسفة المصادفة يعترف أنه حين بدأ هذا البحث كان غارقاً فى الفكـر المـثالى هادفاً إلى اتخاذ المصادفة معولاً لتقويض الموضوعية العلمية. وأنه بعد قراءته لكتاب لينين "المادية والنقد التجريبى"؛ الذى قلب تصوراته الفلسفية رأسـاً على عقب، أمسك بالمعول نفسه ليقوض الفكر المثالى[٧]. وأنه كان يستخدم "مفهـوم التكميلية" فى الموضوع الذى أراد أن يستخدم فيه كلمة "الجدلية" لكنه بعد

---

(٤) تناول محمود أمين العالم موقفه من د. بدوى فى عديد من الدراسات وحدد لنا موقفه الفلسفى فى الكـتاب الـتذكارى الذى أصدرته هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٧ عن بدوى فى عيد ميلاده الثمانين بعنوان "كشف حسب ختامى مع الدكتور بدوى ومع نفسى"، ص١٨٥-٢٠٣.

(٥) محمود أمين العالم: فلسفة المصادفة ، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧١.

(٦) محمـود أمين العالم : الإنسان موقف، د. يوسف مراد، لمحة من لمحات فكرنا الحديث، دار قضايا فكرية ، القاهرة، ١٩٩٤، ص٥٩-٦٦.

(٧) محمود أمين العالم : فلسفة المصادفة ، ص٦.

ذلــك وفى نشرة لهذا البحث ١٩٧٠ يشير إلى ما تتضمنه التكميلية من دلالة مثالية توفيقية[٨].

عليــنا إذن نــتابع معنى الفلسفة ووظيفتها كما ظهرت فى كتابات العالم فى المراحل المختلفة من تطوره".

إن الفلســفة وجهــة نظــر شاملة متجانسة موضوعية عن الحياة والإنسان والعــالم"، وهــذا الفهــم الــذى يقدمــه لنا العالم فى "معارك فكرية" ١٩٦٥ مهم وضــرورى كمــا يقــول : حتى لا نقع فى التخبط والتلقائية وحتى لا نتورط فى نظــرات جــزئية قاصرة حتى لا تخنقنا فلسفات مريضة زائفة من حيث ندرى ولا نــردى"[٩]. وفى مقالــته "دفاع عن الفلسفة" يؤكد على حاجتنا إلى الفلسفة؛ الفلسفة بحــق الــتى تهبــنا النظرة الشاملة للحياة، التى تربط بين أفكارنا وأعمالنا وتعمم خبراتــنا الإنســانية كمــا تعمــم نتائجها العلمية.. على أننا خلال العمل والإنتاج والــتمرس بالحياة وقد أخذنا نصوغ لأنفسنا فلسفة عامة نصوغ لأنفسنا نظرة شاملة لــلكون والطبيعة والإنسان والتاريخ ونتخذها سبيلاً لدفع عجلة التقدم وإزالة العقبات من طريقنا (ص١٩).

إن الفلسفة عند محمود أمين العالم هى المعرفة الشاملة المستمدة من التعميم الموضوعى والنقد الواعى للقوانين العلمية، وتكون فى الوقت نفسه سلاحاً للسيطرة على هذه القوانين وتوجيهها لخدمة التقدم البشرى (ص٢٦). وقد كتب العالم درسته "الفلســفة تعيــد الســؤال عــن نفسها" فى منتصف التسيعنيات إكمالاً لما كتبه فى منتصــف الستينيات عن "ما هى الفلسفة؟" والسؤال كما يقول ليس سؤالاً استفسارياً عــن الفلســفة وإنمــا هو سؤال فلسفى "سؤال نمارس بسؤاله وإجابته الفلسفة ذاتها ونــتخذ كذلــك موقفــاً فلسفياً"(ص٤٤) والفلسفة عند العالم تاريخ متطور متتام من الإضــافات، ولكننا لن نستطيع أن ندرك هذا التاريخ ما لم نتخذ موقفاً تاريخياً يربط بين الفلسفة والعلم والوضع الاجتماعى وحركة التاريخ (ص٥٨). ويعرض محمود

---

(٨) المصدر السابق، ص٧.

(٩) محمود أمين العالم : معارك فكرية، دار الهلال، القاهرة، ط٢، ١٩٧٠، ص١٢، واستشهاداتنا التالية من هذا العمل.

أميــن العــالم لأهــم اتجاهــات الفلسفة فى الستينيات خاصة الوجودية والوضعية المــنطقية مثلما فعل فى دراسة التسعينيات حيث أفاض فى نقد فلسفة ما بعد الحداثة وهو يرى أن "أغلب الفلسفات المعاصرة تعانى أزمة احتضار الرأسمالية.. وجوهر هــذه الأزمة هى عزلة هذه الفلسفات عن الدعامتين الأساسيتين عزلتها عن الثورة الاجتماعية وعزلتها عن الثورة العلمية"(ص٦٢).

لذلــك يحرص العالم فى مقدمة الطبعة الأولى من "معارك فكرية" على تأكيد الاتجــاه العــلمى والدلالة الاجتماعية للفلسفة، فهى "الفلسفة" فى جوهرها دفاع عن العــلم ودفــاع عن الحرية الإنسانية كذلك. هى محاولة لتوكيد ألا تناقض بين العلم والحــرية، بــل لا عــلم بغيــر حرية ولا حرية بغير علم.. وهى محاولة لتوكيد موضــوعية الــنظرية العلمية فى مواجهة محاولات التشكيك فى هذه الموضوعية، وهى كذلــك محاولــة لــتأكيد الدلالــة الاجتماعية والإنسانية لهذه النظرية العلمية (ص٥) إن الهدف من بيان هذا الفهم وتقديم هذا التعريف فى الستينيات حيث كانت "مصــر" تســعى لبــناء مجتمع اشتراكى على أساس علمى كان للعالم دور فيه هو المساعدة على بلورة الفكر العلمى وإشاعته بين جماهير شعبنا.

هذا الهدف نفسه هو ما دفع العالم إلى تقديم دراسته النقدية لفلسفة ماركيوز. لــم يقدم العالم دراسة فلسفية تعرف بالفيلسوف الذى صار حديث العالم أثناء ثورة الطلــبة والشــباب عام ١٩٦٨ ولكنه يهدف إلى تحليل أثر هذه الفلسفة على فكرنا العــربى المعاصــر يقــول فى بدايــة عمله هذا: "فى سعينا المأزوم إلى الوضوح الفكرى، إلى التحرر الوطنى والاجتماعى إلى الوحدة القومية، كانت تطل علينا بين الآن والآخــر صــيحات تزعم فى نبراتها العالية نبوة الخلاص. على أنها لم تكن تفعل شيئاً غير أن تضاعف من محنتنا وأزمتنا".

ويعــدد لنا هذه الصيحات وآخرها فلسفة ماركيوز التى تطل علينا لتقدم نبؤة جديدة للحرية وسرعان ما يتلقفها كذلك جيل من مثقفينا بالترجمة والتعليق والتبنى، محــاولين أن يجدوا فيها رؤية جديدة وأخيرة للخلاص[١٠]. إلا أن هذه الفلسفة عند

(١٠) محمود أمين العالم : ماركيوز أو فلسفة الطريق المسدود، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٢، ص٩.

العـــالم عـــلى خـــلاف المذاهب السابقة تكاد باسم الثورة التحررية الجذرية الشاملة للإنسان أن تحتضن كل قضايا عصرنا، وتجيب باستعلاء لا حد له على كل الأسئلة كأنمـــا هى خاتمــة المطاف لجهاد الإنسان وبحثه عن الحرية والسعادة، ولهذا تكاد تتـــتظم هـــذه الفلســـفة كل الإجابات الباطلة عن المشكلات الأساسية لعصرنا على الـــرغم ما تتميز به من بريق سطحى، وتتسم به من تماسك منطقى ظاهر إن هذه المرحـــلة من حياة فكرنا العربى بل حياتنا السياسية والاجتماعية عامة التى تعانى انحســـاراً وتأزماً فتسعى مع غيرها من عناصر الانحسار والأزمة لتطمس الوعى الصـــحيح بحقـــائق حياتـــنا ووقائع عصرنا وتدفع بفكرنا ونضالنا إلى ما أزعم أنه طريق مسدود"(ص١١).

علينـــا أن نـــتوقف عـــند الأسس التى بنى عليها العالم تحليله أو قل تقييمه، وطـــبيعة هذا التحليل لفلسفة ماركيوز؛ التى تكمن خطورتها فيما تعرضه من بعض التفاصيل الصحيحة التى تخفى بمظاهر صحتها بطلان الرؤية الشاملة التى تنظمها وتدعو إلى تبنيها. هذه الأسس هى الفلسفة الماركسية التى يتبناها العالم وهو يقدمها لنا فى تمهيده لكتابه عن ماركيوز ليس باعتبارها عقيدة جامدة، بل هى انتقاد خلاق يلـــتفت دائمـــاً إلى ذاتـــه وهو يمارس فعله الثورى، يجدد ويتجدد بالوعى العلمى والعمـــل الـــواعى. ولن أناقش هنا فهم العالم للماركسية خاصة أنه قدم لنا فى هذا الـــتمهيد فهما واضحاً وليس مذهباً جامداً، فما يعنينى هنا هو تطبيقه لهذا الفهم فى نقـــد فلسفة ماركيوز، وهذا يقتضى منا إشارة موجزة لكتابه الذى يتكون من مقدمة وســـبعة فصـــول. كذلـــك فعـــل فى كتابه الأخير "الفكر العربى" بين الخصوصية والكونية.[١١]

وهـــو يؤكـــد فى المقدمة أن الكتاب بالرغم من كونه حواراً نقدياً مع فلسفة ماركيوز، فهو فى الحقيقة حوار نقدى مع عصرنا الراهن؛ لأن فلسفة ماركيوز تكاد تـــثير القضـــايا الرئيسية فى عصرنا كله وليس حواراً مع العصر وحسب، بل هو

(١١) راجع فهم العالم للفلسفة الماركسية فى كتابه "الفكر العربى بين الخصوصية والكونية" الماركسية، وسربر بروكوست، ص١٤٣-١٦٤.

حوار معه فيما يمس قضية الثورة العربية التى تشتبك بالضرورة فكرياً وعملياً مع العصر كله" (ماركيوز: ص١٦-١٧).

يذكـــر العـــالم فى الفصل الأول من كتابه الذى عنوانه "البداية والنهاية" أنه ســـيتناول القصة من نهايتها؛ يقصد قصة الربط بين فلسفة ماركيوز وحركة الطلبة والشـــباب، فهـــذه الحركة تعد دحضاً فكرياً وعملياً لفلسفة ماركيوز، فهى تؤكد أن فـــئات اجتماعية زعم الفيلسوف أنه قد تم استيعابها واندماجها فى أنظمة المجتمعات الصناعية المتقدمة تتمرد على هذه الأنظمة وتثور عليها، وخلاصة موقف العالم أن محاولـــة وســـائل الإعلام ودور النشر اليمينية الترويج لفلسفة ماركيوز بعد اندلاع الحركات الطلابية والشبابية عام ١٩٦٨، باعتبار هذه الفلسفة تعبيراً فكرياً عن هذه الحـــركات كـــان وراءه هـــدف واضح محدد؛ هو محاولة صرف الحركة الطلابية والشـــبابية عـــن التطور الثورى الصحيح وعن الارتباط بحلفائها الطبيعيين، الطبقة العامـــلة وأحزابها الشيوعية والتحرك بمقتضى برنامج عمل، ومفاهيم نظرية ذات طـــابع موضوعى ثورى (ص٣٣). ويتضح التحليل السياسى فى هذا الفصل الذى يؤكد أن فلسفة ماركيوز التى بدأت مع حركة الشباب والطلبة ١٩٦٨ كانت نهايتها كذلك فى هذا التاريخ بعد تكشف حقيقتها الزائفة فى مجال الخبرة الثورية الحية.

يـــبدأ تحـــليل العالم الفلسفى من الفصل الثانى الذى جعل عنوانه أقرب إلى التســـاؤل "فلســـفة علمية أو يوتوبية فوضوية؟" وذلك بتحديد مدرسى لمعنى المادية والمـــثالية، فالأولى فلسفة علمية وثورية والثانية ليست كذلك جاعلاً من هذا التحديد مدخـــلاً عاماً لفلسفة ماركيوز التى هى خليط انتقائى من فلسفات شتى وإن كان لها فى الـــنهاية طابعهـــا المحدد وهى على وجه اليقن ليست فلسفة مادية، وإن ادعت لنفسها ذلك وعلى هذا فهى فلسفة مثالية فى طابعها العام، والمهم هنا هو أن العالم يربط فى هذا الفصل رابطاً وثيقاً بين ماركيوز ومدرسة فرنكفورت (ماركيوز: ص ٤٣-٤٨) التى تطلق على نفسها اسم "الفلسفة النقدية" وهى تقصد بذلك، أى بكونها "نقدية" الماركسية وهو يشير إلى ذلك ليبين أنها تقترب من الماركسية بقدر ما تبتعد عـــنها، وتتفق معها بقدر ما تختلف، ويرى أن تسميتها بالنقدية هو أحد مظاهر هذا الابتعاد والاختلاف (ص٤٣).

ويتمـــثل هذا الاختلاف في تأكيد المدرسة النقدية لدى ماركيوز على معنيين: الأول أنـــه يجعـــل من النقد نفياً مطلقاً للنظام القائم ودعوة إلى تغييره تغييراً جذرياً شاملاً والمعنى الثانى، أنه يضيف إلى هذا النفى المطلق رؤياه مستقبلية يوتوبية[١٢] ويعـــرض لخلاصــــة هـــذا الموقـــف الفلسفى لماركيوز كما جاء فى مقالة "الفلسفة الـــنظرية الـــنقدية" موضــــحاً الإطـــار العـــام له، تجريد عقلى يحتاج إلى اليوتوبيا ويستشـــرف المســـتقبل البشرى بالخيال. وبالتحرير واليوتوبيا والخيال كما يتصور مـــاركيوز أنـــه لـــم يخـــرج عـــن الماركسية فحسب، بل قام بتعديلها وتطويرها وتحريـــرها[١٣] إلا أن حقيقـــة انتسابه الفكرى يقدمها لنا كتابه "العقل والثورة" الذى ظهـــر بالانجـــليزية عام ١٩٤١ [١٤] والذى يتضمن إلى حد كبير العناصر الأساسية لفلســـفته كلها منهجاً ومضموناً. يعرض العالم للإطار العام لفلسفة ماركيوز استناداً إلى هـــذا الكـــتاب واعتماداً على ماك إنتاير الذى يذكره حوالى سبع مرات فى هذا القســـم مـــن الفصل الثانى وهو يوضح هيجلية ماركيوز أو انتمائه لليسار الهيجلى فمصـــطلح "الـــنظرية النقدية" الذى يتخذه ماركيوز ومدرسة فرنكفورات عامة اسماً لفلســـفتها هو المصطلح الذى كان يتخذه هؤلاء الهيجليون* اليساريون ويبين الإطار العـــام لفلســـفته بعـــد عرض "العقل والثورة" موضحاً أن القضية عند ماركيوز فى الحقيقـــة ليســـت مجـــرد تفسير خاص لهيجل أو لماركس، بل هى محاولة للاستناد عليهما لبناء مفهوم فوضوى فى الثورة والتغير الجذرى عامة.

وينـــتهى العالم فى هذا الفصل إلى تحديد الملامح العامة لفلسفة ماركيوز فى نقطتين هما:

أولاً : أن فلســـفة مـــاركيوز فلســـفة انتقائية فى جوهرها تكاد أن تكون خليطاً من فلسفات شتى مثالية ومادية تجمع بين كانط وفشته ونتيشه وهيجل وماركس وهيدجـــر وفرويد وغيرهم فى إطار واحد. يعيد تفسير مفاهيم هذه الفلسفات

(١٢) محمود أمين العالم : ماركوز، ص٤٤.

(١٣) المصدر السابق، ص٤٨.

(١٤) والترجمة العربية الكتاب ماركيوز قدمها الدكتور فؤاد زكريا، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٧، كم قدم دراسة نقدية لفلسفة ماركيوز ، دار الفكر المعاصر، القاهرة، ١٩٧٨.

المتناقضـــة دون أن ينجح فى إخفاء هذه التناقضات أو طمسها داخل إطار فلسفى منسق.

ثانياً : يكاد يتغلب فى فلسفة ماركيوز التجريد المطلق على التحليل العينى والعوامل الذاتيـــة عـــلى العوامل الموضوعية والعناصر اللاعقلية والقوى البيولوجيا والخيـــال، والايروس على المنهج العقلى، والرؤية اليوتوبية الفوضوية على الرؤية العلمية الموضوعية.

والحقيقة أن لنا عدة ملاحظات على ما خلص إليه الأستاذ العالم فى ختام هذا الفصل الذى يحدد الملامح العامة لفلسفة ماركيوز.

الملاحظـــة الأولى هى اكـــتفائه فى هـــذا العرض بمقالة ماركيوز "الفلسفة الـــنظرية الـــنقدية" وكتابه "العقل والثورة" ١٩٤١ فى بيان الأسس النظرية لفلسفته جـــاعلاً من بقية كتابات ماركيوز جوانب تطبيقية لهذه الفلسفة حيث يخصص على ســـبيل المـــثال الفصل الثالث لنقد المجتمعات الرأسمالية اعتماداً على "الإنسان ذى الـــبعد"، والفصل الرابع لنقد ماركيوز للماركسية السوفيتية اعتماداً على كتابه الذى يحمل العنوان نفسه.

الملاحظـــة الـــثانية هى وصـــف ولا أقول اتهام فلسفة ماركيوز بالانتقائية والهيجـــلية والفـــرويدية وهو ما يتعارض مع وصفه له ولمدرسة فرنكفورات فى دراســـته الحديثة عن "الفلسفة تعيد السؤال عن نفسها" حيث يصف فلاسفة المدرسة بمـــا فيهـــم مـــاركيوز بأنهم عقلانيون نقديون ينتسبون إلى الماركسية مع كثير من الـــتحفظات للماركسية وخاصة فى نموذجها السوفيتى الستالينى "الفكر العربى ص ٢٣١) وما يهمنا هنا هو قوله فى بداية هذه الفقرة إن "الفلسفة عندهم هى نقد شامل للواقع الإنسانى فى تناقضاته الاجتماعية العينية المختلفة، ولذا فهم يرفضون النزعة الإطلاقيـــة أو الروح المطلقة عند هيجل، والوعى أو الشعور المحض عند هسرل والوجـــود المطلق عن هيجل والوضعية فى صورها المختلفة فضلاً عن النظريات النســـقية الكـــلية المغـــلقة عامـــة[١٥] وهـــذا يعنى ضمناً وصراحة أنهم يرفضون

(١٥) محمود أمين العالم: الفلسفة تعيد السؤال عن نفسها، فى الفكر العربى بين الخصوصية والكونية، ص٢٣١.

الـتجريدات المطلقة. وعلى العكس مما وصف به هذه المدرسة فى كتابه ماركيوز حيث يقول إن هذه المدرسة تبدأ بالتحليل العقلى للواقع.. لكنها فى تحديدها لعوامل الواقع الذى يتصدى له وفى استخلاصها لنتائج هذا التحليل ، تعجز عن أن تتخرج نفسها عن حدود التجريدات المطلقة (ماركيوز: ص٤٤).

لا أقصد بالطبع من هذه الملاحظة القول باختلاف أو تناقض أحكام العالم لهذه المدرسة، بل ما أود أن أشير إليه هو أن القراءة السياسية لفلسفة ماركيوز والرؤية الأيديولوجية التى يقدمها العالم فى فلسفة الطريق المسدود تختلف عن التحليل الفلسفى الذى يقدمه لها فى دراسته الأخيرة، وأخشى أن أتهم أنا بدورى بالقراءة السياسية إذا افترضت أن فترة التسعينيات بما فيها من تراجعات جعلت ما كان سلبياً فى الستينيات من التيارات الفلسفية أكثر إيجابية اليوم بعد سقوط التجربة الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى، وكثير من البلاد الأوربية وبلدان العالم الثالث، وتوقف حركة عدم الانحياز، وظهور ما يسمى بالنظام العالمى الجديد. والنص الذى استشهدنا به الآن من "الفلسفة تعيد السؤال عن نفسها" يخفف ويعدل من النقطة التى يلخص فيها العالم "فلسفة ماركيوز" التى تغلب فى رأيه التجريد المطلق على التحليل العينى والعوامل الذاتية على العوامل الموضوعية.

وبناء على الملامح العامة التى حددها لنا العالم ، والتى توضح الإطار النظرى لفلسفة ماركيوز يقدم لنا فى الفصول التالية تطبيقات هذه الفلسفة حيث يخصص الفصل الثالث للحديث عن "مجتمع البعد الواحد" اعتماداً علىكتاب ماركيوز "الإنسان ذى البعد الواحد" الصادر عام ١٩٦٤ ويرى العالم أن صورة المجتمع الصناعى، كما يعرضها ماركيوز فى البلاد الرأسمالية عامة وفى أمريكا بوجه خاص فى مجملها صحيحة وأن يكن يعيبها عدة أمور جوهرية، سواء فى منهج صياغتها أو فى عناصرها أو فى النتيجة المستخلصة منها (ماركيوز: ص٦٨)، لقد قدم ماركيوز صورة صحيحة لبشاعة النظام الرأسمالى الأمريكى ولكنه وقف بنا أمامها عاجزاً عن الحركة الثورية، لأنه لم يتعمق حقيقة القوانين المتصارعة داخلها وخارجها فى عصرنا كله، وجعل النظام الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى على نفس مستوى النظام فى أمريكا الرأسمالية من حيث القمع والاستغلال، ويتساءل العالم عن سبب ذلك ويجيب فى الفصل التالى.

يعرض العالم فى الفصل الرابع ماركسية بلا ماركسية لموقف ماركيوز من التجربة الاشتراكية فى روسيا اعتماداً على كتابه "الماركسية السوفيتية" الصادر ١٩٥٨ والترجمة الفرنسية ١٩٦٣ وهذا العمل حسب تعبير محمود أمين العالم ثمرة انخراط ماركيوز فى ترسانة الأجهزة الأمريكية المكرسة لصياغة الأسلحة الفكرية المعادية للماركسية عامة والاتحاد السوفيتى بوجه خاص، وهذا الفصل أطول فصول الكتاب وفيه يبدو الدفاع عن التجربة الاشتراكية مقابل نقد ماركيوز للماركسية السوفيتية، وهو دفاع أيديولوجى فى عمومه مع لقطات فلسفية فى تحليل العالم لتمييز ماركيوز بين الأخلاق الغربية والأخلاق الماركسية، ذلك أن ماركيوز عندما يحلل المجتمع الصناعى المتقدم عامة السوفيتى والأمريكى على السواء، ويتساءل عن إمكانية التغيير الاجتماعى النوعى فى كليهما، يجيب بأن "سلم القيم الأساسية" و"روح" المجتمع سيلعبان آنذاك، دور عامل فعال فى تحديد الاتجاه الاجتماعى" "وبصرف النظر عن تركيز ماركيوز على هذا العامل الذاتى وأعنى به القيم الأساسية وعلى هذا المفهوم المثالى الغامض وأعنى به "روح المجتمع" فى تحديد الاتجاه الاجتماعى فإن ما ينتهى إليه تحليله من تفوق فى المجتمع الغربى أكثر مما تتوفر فى المجتمع السوفيتى.[١٦]

ويرى العالم أن الصورة التى يرسمها ماركيوز للتجربة السوفيتية صورة مجحفة، فيها الكثير من التجنى على الوقائع والتجاهل لها. وأن ماركيوز لا يستند فى رسمه لهذه الصورة إلى وقائع عينية محددة وإنما يكتفى بالتحليل العام المجرد لبعض البرامج أو المواقف العملية، كما يكتفى بإصدار الأحكام العامة المجردة على السياسية العامة للتجربة. فإذا كان العالم خفف أو غير من وصفه لتحليل هذه المدرسة المجرد وأكد على التحليل العينى، فهل معنى ذلك أن حكمه السالف الإشارة إليه سيتغير؟ لا أعتقد لأنه يصدر فيه عن موقف سياسى وليس عن تحليل ابستمولوجى لموقف ماركيوز. ومن الواضح فى العصر الحالى أن إقحام السياسة فى الفلسفة يفسد كل شيء. فكم تناسى أصحاب المنهج الجدلى فى حياتهم هذا المنهج، أن جاز أن يكون الجدل منهجاً! وفى التجربة الفعلية تحول الفكر إلى شللية!!.

---

(١٦) محمود أمين العالم : ماركيوز، ص١١٦.

ونعـــتقد أن التحليل الابستمولوجى المنتظر من العالم لن يقتصر على فلسفة مـــاركيوز فقط بل سيتضمن الفلسفة ككل. وقد وعد فى أكثر من موضع بأمله فى القيـــام بمثل هذا العمل، والموضع الذى أشير إليه هنا تمهيده لفلسفة المصادفة حيث يصرح لنا أن عمله "لم يكن بحثاً عن درجة علمية أو تطلعاً إليها، بل كان بحثاً عن الحقيقة، عن الاستقرار الفكرى وكان هذا البحث هو نقطة البداية إلى ذلك فى مجال العلوم الطبيعية أو الفيزياء بوجه خاص: وكنت آمل بعد ذلك أن أواصل السير إلى نقطـــة أبعـــد ببحث آخر عن العلوم الإنسانية حتى يتكامل تصورى الفكرى للكون والحيـــاة"(١٧) وأعتقد أن هذا الأمل لا يزال يراود العالم ونأمل نحن بدورنا أن ينجزه ونعـــتقد أن هـــذا العمل الذى يحلم به سيكون فى جدية وعمق بحوثه الفلسفية، وفى مقدمتها بحثه عن فلسفة المصادفة.

(١٧) محمود أمين العالم : فلسفة المصادفة ، ص٥.

يحيى هويدى:

وفلسفة الحضور الإنسانى

[١]

نود فى هذا الفصل استخلاص المفاهيم الأساسية التى شغل بها الدكتور يحيى هويدى، الذى يمثل الجيل الثانى من رواد الفكر الفلسفى المعاصر فى الجامعة المصرية[١]، بعد جيل مصطفى عبد الرازق وتلاميذه[٢]: على سامى النشار وعثمان أمين ومصطفى حلمى وأحمد فؤاد الأهوانى[٣]، ونجيب بلدى خريجى الدفعة الأولى من الجامعة المصرية، ومن يليهم أمثال: توفيق الطويل وزكى نجيب محمود وعبد الرحمن بدوى[٤] ومحمود قاسم ويمثل هويدى وجيله محمود أمين العالم وزكريا إبراهيم[٥] ومراد وهبة وفؤاد زكريا[٦] على اختلاف توجهاتهم الجيل التالى، الذى يعد بمثابة نقلة وتحول فى تاريخ الفكر الفلسفى فى مصر. وقد كان الجيل الأول أكثر تأثراً بتوجهات مصطفى عبد الرازق الفلسفية واهتمامها بالفلسفة

---

(١) تتلمذ يحيى هويدى (١٩٢٣) على عثمان أمين أحد رواد الفكر الفلسفى فى الجامعة المصرية، وتلميذ مصطفى عبدالرازق واعد رسالته للماجستير باشرافه.

(٢) يمثل الشيخ مصطفى عبدالرازق أحد جناحى المدرسة الفلسفية الحديثة فى مصر مع أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل. وهناك دراسات متعددة حول كل منهما. ولا يمكن التأريخ للفلسفة فى مصر، أو فى الجامعة المصرية دون الوقوف أمام دور كل من الشيخ مصطفى وأستاذ الجيل

(٣) انظر دراستنا عن أحمد فؤاد الأهوانى وتاريخ الفلسفة فى الجامعة، مجلة القاهرة العدد ١١٤ يوليه ١٩٩١.

(٤) قدمنا عدة دراسات حول عبدالرحمن بدوى أشرنا إلى بعضها من قبل ثم كتبنا عنه بمناسبة صدور كتابه سيرة حياتى دراسة بعنوان عبدالرحمن بدوى من النازية إلى الليبرالية، مجلة رواق عربى، القاهرة، العدد ١٨ وكذلك "مرايا عبدالرحمن بدوى"، مجلة وجهات نظر العدد ١٦ مايو ٢٠٠٠م.

(٥) انظر ما كتبنا عن أستاذنا زكريا فؤاد إبراهيم فى الفصل الأخير من هذا الكتاب.

(٦) هناك إشارة حول جهود فؤاد زكريا الجمالية فى دراستنا "الدراسات الجمالية العربية" وقد أصدر زملائه وتلاميذه بجامعة الكويت كتاباً تذكارياً حوله ١٩٩٨.

الإسلامية وعلومها، والفهم الموسوعى للفلسفة الذى تتوارى فيه الفروق الدقيقة بين تخصصـــات الفلسفة وعلومها، حيث تشمل كتابات هؤلاء الرواد من الجيل الأول: تاريخ الفلسفة، الميتافيزيقيا، الفلسفة اليونانية والإسلامية والمسيحية الغربية.

ويلاحظ على هويدى وجيله الاتجاه للفلسفة الحديثة والمعاصرة وفلسفة العلم ونظـــرية المعـــرفة وإن كان لم يمنعهم من تقديم دراسات إسلامية، وقد غلب على هؤلاء تبنى منهج فلسفى تنتظم فيه كتاباته أكثر من تبنى مذهب فلسفى يسيطر على أعمالـــه، حيث تبنى زكريا إبراهيم المنهج الفينومينولوجى ومال به نحو الوجودية المؤمنة وقدم من خلاله عدد من المشكلات الفلسفية الأخلاقية والجمالية، وتبنى فؤاد زكـــريا المنهج النقدى والموقف الطبيعى ومال محمود أمين العالم للمنهج التكاملى الجـــدلى، وطـــبقه فى مجال فلسفة العلم : حول موضوع المصادفة، واتخذ هويدى الموقـــف الواقعى فى مرحلة مبكرة من حياته وحاول من خلاله تقديم رؤية سياسية اجتماعية تطورت إلى نزعة انسانية ذات صبغة إسلامية. هى ما يهمنا أن نعرض لها فى السياق الحالى.

ونلاحظ أن هويدى على العكس من جهود المفكرين العرب المعاصرين فى فـــترة الثمانيـــنات أصحاب المشاريع الفلسفية تحول عن محاكاة الاتجاهات الفلسفية الغـــربية، وسعى إلى تكوين نظرة وليس نظرية فلسفية – تقدم رؤية خاصة انطلاقاً مـــن الواقـــع التاريخى والثقافى مستفيداً من مجمل الفكر الإنسانى الفلسفى والدينى يمكن أن نطلق عليها فلسفة الحضور الإنسانى(٧).

لقـــد ســـعى يـــحيى هويدى منذ تخرجه فى قسم الفلسفة بجامعة القاهرة عام ١٩٤٤ ودراســـته فى الماجستير تحت إشراف عثمان أمين إلى تقديم رؤية خاصة،

---

(٧) حاول هويدى فى دراسات عديدة تقديم فلسفة واقعية وأشار فى أعمال أخرى إشارات موجزة حول ضرورة قيام فلسفة قرآنية، وهناك عمله الذى لم يصدر بعد بعنوان البيان وإشاراته إلى فلسفة المحافظة على المستويات كل هذا يجعلنا نؤكد أن هويدى لا يضحى بالروحى مقابل المادى ولا بالإنسانى مقابل الإلهى واهتمامه بالجوانب السياسية والاجتماعية فى الفلسفة يجعل من الإنسان حاضراً حضوراً دائماً فى واقعيته الإسلامية الإنسانية الرحبة.

حيــث وجــد فى فلسفة باركلى اللامادية[٨] خير أساس لتوضيح هذه الرؤية، وكان ســفره إلى بــاريس بداية تأسيس هذه النظرة حيث اهتم بدراسة " نزعة التعالى فى الفلســفة الفرنســية المعاصرة " من جامعة السربون ١٩٥٥ تحت إشراف جان فال وكــان موضــوع رســالته الثانية " الواقعية والقيم عند صمويل ألكسندر " إشراف جانكلفيتش[٩].

لقد مثلت هذه البدايات الأسس التى شكلت تفكير يحيى هويدى، الذى نستطيع أن نميز فيه مراحل ثلاث: الأولى هى المرحلة التمهيدية التى شغل فيها بالاتجاهات اللامادية، والتى ظهرت فيها عمله باركلى والفلسفة اللامادية، ودراسة فكرة التعالى فى الفلســفة الفرنســية المعاصــرة وهى مرحلة يظهر فيه موقف دينى غير معلن يــرفض المــثالمية ويجد ضالته الفلسفية فى تبنى فلسفة تعترف بالوجود الواقعى، لكنها ليست ماركسية ومن هنا كان اهتمامه بالواقعية الجديدة عند صمويل ألكسندر، الــذى خصــص لــه رسالته الثانية للدكتوراه التى ظهر بعض أفكارها فى كتاباته

---

(٨) انظر د. يحيى هويدى : باركلى، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠، وترجمته كتاب باركلى : المحاورات الثلاث بينن هيلاس وفيلونوس، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٦.

(٩) أنظر دراسة د. عاطف العراقى: الدكتور يحيى هويدى والبحث عن واقع الإنسان، مجلة القاهرة الذى اعتمدناعليها فى بيان مراحل حياة د. يحيى هويدى. فقد ولد فى ١٥ يوليو ١٩٢٣ بالقاهرة، وأقام مع اسرته فى قرية بجيرم مركز قويسنا، وأمضى فترة التعليم الأولى فى شبين الكوم والثانوية بمدرسة حلوان ثم الخديوية، حيث حصل على التوجيهية ١٩٤٠ والتحق بجامعة القاهرة وتخرج فيها ١٩٤٤ وعمل بالتدريس بالمدارس الثانوية لمدة خمس سنوات حيث حصل على الماجستير ١٩٤٩ والدكتوراه من فرنسا ١٩٥٥ وعاد للعمل بكلية دار العلوم مدرساً ثم استاذاً مساعداً حتى ١٩٦٦ لينتقل إلى آداب القاهرة استاذا ووكيلاً ورئيساً لقسم الفلسفة ثم عميداً لها فى الفترة من ١٩٧٠ حتى ١٩٧٢.
عمل مستشاراً ثقافياً لمصر فى بلجيكا وهولندا عام ١٩٦٣-١٩٦٤ وفى غينيا ١٩٦٦، واعير إلى السعودية لمدة عام وللكويت واستاذاً زائر بجامعة القاهرة بالخرطوم، كما شارك فى العديد من الملتقيات، خاصة ملتقيات الفكر الإسلامى فى الجزائر عدة سنوات، ومؤتمر حضارة البحر المتوسط بأيطاليا ١٩٨٢ ومؤتمر الشيخ مصطفى عبد الرازق بآداب المنيا جامعة اسيوط. وعين عضواً بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة حيث اشرف على الكتاب التذكارى الذى اصدره المجلس عن أحمد لطفى السيد.

بالعـــربية والـــتى خصص لها الباب الرابع من كتابه " دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصـــرة"[١٠]. فى أربعـــة أقســـام شملت التعريف بألكسندر وفلسفته من خلال عـــرض محـــتويات كتابه " المكان والزمان والألوهية "، تعريف الفلسفة، المكان، الـــزمان. ويتناول فى القسم الثانى الواقعية عند صمويل ألكسندر، ويخصص القسم الـــثالث لأسس الواقعية الفلسفية، وهى عنده: اكتفاء الوجود بذاته – البدء بصيرورة الوجـــود الطـــبيعى، واستقلال الطبيعة عن الذات، وفى القسم الرابع "فلسفتنا فلسفة واقعيـــة" يعـــرض فيهـــا بعد التمهيد، فلسفتنا الثورية، الفلسفة المثالية، والفيلسوف المثالى الواقعى، الفلسفة الواقعية والفلسفة العملية.

[٢]

وقـــد حاول هويدى الربط بين الواقعية الجديدة الفلسفية والتحولات التاريخية والسياســـية الـــتى مرت بها مصر خاصة فى الستينات ومن هنا حاول تقديم قراءة سياسية فى العديد من أبحاثه فى هذه الفترة مثل كتابيه " حياد فلسفى " و"الفلسفة فى الميثاق" وكتب عن " الحرية فى الفلسفة المعاصرة" (الهلال يوليو ١٩٦٧). "وأزمة الحـــرية" فى فلسفة سارتر" فى كتاب سارتر مفكراً وإنساناً فى نفس العام كما كتب عن "فلسفة المقاومة (الهلال أغسطس، ١٩٦٧) و"سيكوتورى ثائر من إفريقيا" الفكر المعاصـــر، مـــارس، ١٩٦٨،، وفلســـفة الدولة العصرية" "الفكر المعاصر، يوليو، ١٩٦٨".

لقد ظهر الهاجس السياسى الوطنى فى كتابات يحيى هويدى مبكراً فى إطار نظـــرة كـــلية عامة ترتبط فيها الوطنية بالدين وليس كما يظن البعض مما يربطون بين موقف هويدى الفلسفى العام وبين بعض الكتيبات التى ظهرت فى فترة التحول الاشـــتراكى والحياد الإيجابى، فمن يتابع كتابات هويدى يجده على سبيل المثال فى

---

(١٠) د. يحيى هويدى : دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار الثقافة الجديدة للنشر والتوزيع، القاهرة، المقدمة ص أ.

الطـبعة الأولى مــن كــتابه " مقدمة فى الفلسفة العامة " الذى صدر إبان العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦ يقول لقد " تم تأليف هذا الكتاب فى ظروف عصيبة أيام الغــزو الفرنســى الــبريطانى - الصهيونى على مصر. ومن خلال هذا الاعتداء الوحشــى عــلى أرض الوطن أتيح للإنسانية أن تتعمق معنيين للإنسان : الإنسان الذئب الذى يلقى بكل القيم الإنسانية وراء ظهره فى سبيل أطماعه الذاتية ويغتصب حقــوق الغيــر فى صورة وحشية، والإنسان الذى يؤمن بحقه فى حياة حرة كريمة ويؤمن بالإنسانية وقيمها السامية، ويعيش هذه القيم فى ذاته ويدافع عنها لآخر رمق فيه.. ومن واجب الفيلسوف أن يتأمل هاتين الصورتين للإنسان، ومن واجبه كذلك أن يتخذ بإزائهما "موقفاً".

والرجل بالطبع لا يزعم أن كتابه يحقق غرضاً سياسياً لكنه يدعو قارئه "إلى أن يفطــن إلى أهميــة الجــانب السياسى - على الأقل ذلك الجانب، الذى يتعرض لمفهوم الإنسان - فى تفكيره الفلسفى بوجه عام" (مقدمة الطبعة الأولى).

ويستشعر هويدى ضرورة النظرة الفلسفية الكلية القائمة على الإنسان وعلى تــأكيد الجانب الروحى فيه مقابل الإيمان بالعلم وإنجازاته فى مقدمة الطبعة الرابعة مــن نفــس الكتاب فى منتصف الستينات، فهناك دور للفلسفة من هذه المرحلة فى مرحــلة تطــور مجتمعــنا العربى، وهى مرحلة التطور الاشتراكى، يؤكد هويدى خاصة فى هذه المرحلة على ضرورة العقائد الدينية الروحية فى إطار هذه النظرة" الاتجــاه الفلسفى الذى يوحد نظرته العامة إلى الحياة، والعقائد الروحية التى يؤمن بها وتقدم لنا جميعاً فضلاً عن ذلك كله لوناً من الثقافة العامة يعوزنا ويعوز العلماء المتخصصــين أنفسهم، ويسرى تياره فينا فيربطنا كلنا فى خيط واحد نتعرف عليه فيما بيننا وبين أنفسنا ويتعرف عليه الغريب عنا ويجده واضحاً بيننا كلنا.

ونلاحــظ فى هــذا الــتقديم أن يحيى هويدى يسعى إلى تحديد نظرة فلسفية ورؤيــة كــلية ترتبط بالتطور الاجتماعى والسياسى لمصر فى الستينات ومن جهة ثانيــة يؤكد على العقيدة الدينية والقيم الأخلاقية والتوجهات الإنسانية التى يستشعر

ضرورتها وربما لا تظهر للعيان فى واقعنا وتوجهاتنا الأيديولوجية فى هذه الفترة، والتى يسعى هويدى إلى تحديد معالمها والتأكيد الدائم على الإنسان ودوره ومكانته وقيمته فى المجتمع، لذا فهو يصف الباب الرابع " فاتحة فى علم الأخلاق " المبحث الــذى يأمل أن تتجه إليه الدراسات الأخلاقية فى بلادنا بدلاً من أن تدور فى الدائرة القديمة المعروفة لعلم الأخلاق.

وهذا ما يظهر جلياً فى مقدمته للطبعة الخامسة من كتابه الفلسفة العامة التى ظهــرت بعــد هــزيمة يونية ١٩٦٧ والتى يرجعها إلى أننا لم نستطع أن نوضح لأنفسنا معالم الصورة كما ينبغى أن تتضح، ولم نستطيع أن نتبع المنهج العلمى فى معالجــة الكثير من الأمور، ولم نستطع أن نسير فى الخط الديموقراطى إلى نهايته ولم نستطيع أن نعمق إطار حياتنا، ولم نستطع أن نسلط أضواء كافية على المفاهيم والمبادئ التى انتشرت فى حياتنا ولم نستطع أن نعمل فى حياتنا وفى سلوكنا بوحى مــن قيمــنا الأخلاقيــة والروحية، واستغرقنا التفاصيل فلم نستطع أن ننظر نظرة شــمولية إلى المجتمع ككل، وهذه المسائل: المنهج العلمى – الدين والقيم الأخلاقية والروحية، النظرة الشمولية للمجتمع تعلمنا اياها الفلسفة .

وهــو يؤكــد أنه ليس العلم فقط والتكنولوجيا، بل الوعى الاخلاقى هو الذى يحكــم الحياة " أن معركة الشعوب مع الحياة لا يحكمها تفوقها التكنولوجى فحسب، بــل مدارهــا دائماً هو " الإنسان " الذى لابد من أن يعمل عملاً متصلاً على صقل وعيــه وتشــكيله منهجياً سلبياً عن طريق الاستزادة من الدراسات الإنسانية بجميع فروعها.

ويــتأكد لــنا مع كل طبيعة جديدة لكتابه الذى يوجهه للطلاب والمثقفين فى مصــر إحســاس هويــدى القوى الذى يزداد بضرورة أن تقدم الفلسفة أيديولوجيا، وبالطــبع لا يقــدم لنا فى عمله هذا معالم هذه النظرة الأيديولوجية، لكنه يشير فقط إلى ضــرورتها، فالفلسفة عنده هى علم الوجود العام وهى أيضاً الحياة الكلية، ومن هــذه الناحية فإنها أصبحت تمثل بالنسبة إلى الإنسان المعاصر بعداً هاماً من أبعاد وجوده ونافذة يطل منها على الوجود العام الذى التحم به وجوده التحاما مباشراً.

إلا أن مـــا يلاحـــظ فى العـــالم هو تناقضات وصراعات، وهذه الصراعات الطبقية والقومية والأيديولوجية عند هويدى بمثابة دعوة موجهة إلى الإنسان لتعميق وجـــوده وصـــقل وعيه ليتبين طريقه وليوضح لنفسه موقفه وليس هذه الدعوة فى صـــميمها إلا دعوة للتفلسف .. وهو لا يزعم بالطبع أنه يقدم أيديولوجياً فهذا مطلب كـــبير يـــنوء بحمله هذا الكتاب، وإن كان عمله هذا كما يشير خطوة على الطريق يـــتقدم بها وإليه ثم ما يلبث أن يتوقف عنها يشير إليها ولا يستغرق فيها هى عنده بعد من أبعاد الفلسفة أو بديلاً عنها. فالفلسفة عنده هى الإنسان.

فهـــو يعود فى الطبعة التاسعة ليؤكد مرة ثانية على ضرورة النظر الفلسفى والاهتمام بشواغل الروح، تلك التى تعبر عن جوهر الحياة الإنسانية الأصيل وهذه الشواغل هى التى اهتم بها هذه الفترة حيث قدم لنا بحثه " مفهوم الحقيقة فى الثقافة الإسلامية".

[٣]

وقـــبل أن نتـــناول اتجاه هويدى الفلسفى الواقعى الذى دعا إليه نتوقف عند فهمـــه لطـــبيعة الفلسفة والتفلسف الذى يمهد لهذا الاتجاه والذى تناوله تحت عنوان "الموقف الفلسفى".

بـــدلاً مـــن أن يســـعى هويدى إلى تقديم تعريف للفلسفة، يتناول التعريفات المتعارف عليها ويرى أنها تعريفات مرفوضة، فالتعريف مهمة شاقة أدنى أن تكون الخطـــوة الأخيـــرة من أن تكون الخطوة الأولى، ولهذا يبدأ بتحذير القارئ لرفض بعض التعريفات المتداولة لأن ضررها من وجهة نظره أكثر من نفعها، مثل القول أن الفلســـفة هى محبة الحكمة، أو أنها البحث فى العلل البعيدة للظواهر مقابل العلم الـــذى هو بحث عن العلل القريبة لها أو القول أنها بحث فيما ينبغى أن يكون مقابل العلم الذى هو بحث فيما هو كائن وأنها دراسة نظرية تقوم على التأمل لا شأن لها بدنيا الأفعال الواقعية .

ويـــلجأ بدلاً من ذلك إلى الحديث عن " الموقف الفلسفى " فالتفلسف فى رأيه موقـــف مـــن الحيـــاة تفســـده أية محاولة لتعريفه. ويحدد لنا طريقين للتعرف على الموقـــف الفلسفى والاقتراب منه، الأول تحديد مستويات الحياة والثانى بيان معنى الحكمة بالتفرقة بين الحكمة بمعناها الشائع العملية والفلسفة " الحكمة النظرية".

وهو يميز ثلاثة مستويات فى الحياة الأول الذى يوجد فيه الفرد منصرفاً إلى تدبير أمور حياته العملية ومعالجة مشاكله اليومية الجارية، والثانى تكوينه مجموعة مـــن المبادئ التى يسترشد بها فى حياته وتمثل " فلسفته الخاصة " أو الزاوية التى يـــنظر من خلالها إلى الحياة والثالث هو تعميق الفلسفة الخاصة بالبحث والتأصيل الـــنظرى ويصـــل فيها الإنسان إلى المستوى الثالث أى البحث الفلسفى . ومن هنا فالـــبحث الفلسفى هو أولاً وقبل كل شىء موقف من الحياة وهو يمثل أحد مستويات تفكير الإنسان فى هذه الحياة .

والطـــريق الثانى هو التفرقة بين الحكمة العملية والحكمة النظرية . فالأولى تتصـــف بأنهـــا جـــزئية مقابـــلة الثانية كلية وهى حكمة بليدة لا تثير فينا الدهشة، وطابعهـــا التدبير يقوم به الإنسان فى صورة آلية، بينما الحكمة النظرية تقوم على الدهشـــة والتأمل ويرتبط بذلك سعة الأفق، وهى لذلك العلم الذى يبحث فى الأسس النظرية التى تدعم مجموعة المعتقدات التى يعتقدها كل منا فى حياته الخاصة .

ثم يحدد لنا خطوات الموقف الفلسفى، فهو ابتعاد عن الحياة الجارية بمشاكلها الجـــزئية المـــتعددة وطابعهـــا البـــليد الرتيب وثرثرتها الدائمة وخلوها من التأمل وتعصبها الزائف الأجوف، فالفلسفة، هى علم الوجود الكلى، والفيلسوف لن يستطيع البحث فى الوجود الكلى ويناقشه إلا إذا باعد بين نفسه وبين الحياة اليومية الجارية، تـــلك هى الخطـــوة الأولى من خطوات الموقف الفلسفى ويتم ذلك بعملية رد العالم الخـــارجى إلى الذات، حتى يتسنى للفيلسوف البحث فى الوجود فى صورته الكلية وهـــذه هى الخطوة الثانية، وعلى هذا فالتفلسف يقتضى حركتين الأولى يرجع فيما الفكـــر إلى نفسه فى نوع من الخلوة العقلية والثانى يخرج فيها إلى الواقع ليتفهمه.

ويحذرنـــا هويـــدى من خطأين يؤديان بنا إلى الحيدة عن طريق التفلسف : التعلق بجزيـــئات الحيـــاة اليومية العملية الجارية، واستمراء حياة الذات والاكتفاء بتأمل " الآنـــا " متناســـيين أن الإنســـان موجود فى العالم وسط الآخرين وعلى هذا النحو تســـتطيع الـــذات إدراك العـــالم عـــلى نحو احتفظ فيه باستقلال العالم نوعاً ما عن إدراكى الذاتى هنا " أكون واقعياً"(١١).

ثـــم أتجـــه هويـــدى بعد ذلك إلى قراءة الفكر الإسلامى من خلال الواقعية الجديدة بتوفيقه بينها وبين الاتجاهات العقلانية فى الفكر العربى المعاصر ومن هنا كـــانت رغبته فى إعادة النظر فى تاريخ الفلسفة والمشكلات الفلسفية كما يتضح فى كـــتابه الهام "نحو الواقع مقالات فلسفية"، وخاصة أبحاثه عن "بعثنا الفكرى كيف؟"، "العلاقـــة بيـــن الدين والفلسفة من زاوية حضارية" و"أهمية الدراسات الإنسانية فى المجتمعات النامية". بالإضافة إلى دراساته عن : "الدين والمجتمع" الشيخ مصطفى عبد الرازق" و"الفكر السياسى" عند أحمد لطفى السيد.

[٤]

ويهمـــنا أن نقـــف عـــند تأويلـــه الواقعى لفلسفة ديكارت بهدف التأكيد على توجهاتـــه هـــو، فـــفى ظنى أن الأفكار التى حاول التأكيد عليها لدى ديكارت هى الأسس التى يقوم عليها تفكيره الفلسفى(١٢).

يحدد هويدى فى تقديمه لديكارت الجديد الدافع الذى حفزه إلى ذلك، وهو أن يقـــدم إلى القارئ العربى منهجاً جديداً فى دراسة الفلسفة الحديثة والمعاصرة، وهذا المـــنهج يقـــوم فى صميمه على وضع الموضوع وجهاً لوجه أمام نقيضه أو وضع

---

(١١) د. يحيى هويدى: مقدمة فى الفلسفة العامة. دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، القاهرة، ص ٤٨

(١٢) د. يحيى هويدى : دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠ ص٥ وما بعدها.

جـــانب مـــن الصـــورة فى مواجهة جانب أخراج وليوضح أن المشكلة الواحدة فى الفلسفة لها جوانب متعددة وزوايا مختلفة ليوقفنا بهذا على الصراع بين الأفكار فى تاريخ الفلسفة بطريقة مباشرة وينتقل من ديكالتيك الفكرة الواحدة من الموضوع إلى نقيضـــه.(١٣) أنه يحدثنا عن ديكالينك الفكر وليس المادة، وهذا هو ما يشغله وهو ما يظهر فى دراسته المشار إليها.

يقـــدم لـــنا صاحب الفلسفة الواقعية الجديدة فى العربية، صورة مختلفة عن ديكـــارت، يهدف من ورائها رفض وهدم ما رسخ فى أذهان العربية عن الفيلسوف الفرنســـى ويحدد لنا أولاً تلك الصورة التقليدية التى عرف بها ديكارت، فقد استقر فى الأذهـــان أن ديكـــارت رائـــد مـــن رواد المثالية وأنه "فيلسوف الكوجيتو" وأنه فيلســـوف الأفكـــار الواضحة المتميزة، وأنه فيلسوف الشك المنهجى الذى اتخذ من الشـــك وســـيلة إلى اليقين واستقر فى الأذهان أنه بدأ فيلسوفاً لا عالما، وأن الفيزيقا الديكارتيـــة مســـتمدة مـــن الميـــتافيزيقا بمعـــنى أنه لم يفكر فى الفيزيقا إلا لخدمة ميتافيزيقاه.

يرى الدكتور هويدى أن هذا الاتجاه الذى أراد من ورائه أصحابه أن يصور لـــنا ديكـــارت عـــلى أنه مثالى مناف للروح الفلسفية الديكارتية، وهى الفلسفة التى أرادت طـــوال مراحل تطورها إلا تركن إلى الدعة وتعيش فى مستوى واحد، هو مســـتوى الفكر، على العكس من ذلك فإن فلسفة ديكارت لا يمكن أن تفهم ــ وهذه فكـــرة محوريـــة يؤكـــد عـــليها هويدى ــ إلا إذا أبعدناها ما عن المستوى الواحد وجعلـــناها تعيـــش بين مستويين الفكر والعلم والمعرفة الإنسانية من ناحية والمادة والطـــبيعة والوجـــود العام من ناحية أخرى، ومن هذه الزاوية فإن ديكارت سيكون فيلســـوفاً واقعيـــاً وليـــس مثالياً باعتبار أن الفلسفة الواقعية هى فى صميمها فلسفة الديالكتيك الحى بين الفكر والمادة.(١٤)

---

(١٣) المرجع السابق ص ١٠

(١٤) المرجع السابق ص، ١٠.

يحـــاول هويـــدى عـــلى امـــتداد أحدى عشر فقرة طويلة تقديم ذلك التفسير الواقـــعى. فقـــد اتجه ديكارت منذ فجر حياته الفكرية إلى أن يضع العلم على اسس جديـــدة، ويلاحـــظ أن ديكارت بدأ حياته عالماً لا فيلسوفاً، وأن العلم الذى أراده هو العـــلم الذى يسيطر على الطبيعة وعلى الأشياء. وديكارت فى "قواعد لهداية العقل" لـــم يكـــن قد أكتشف بعد ميتافيزيقاه، ذلك لان الميتافيزقيا الديكارتية لا قوام لها إلا باكتشـــاف مســـتويين: مســـتوى الاشـــياء ومســـتوى الوجود الذى يتحدى الطبيعة والأشـــياء. وديكـــارت فى هذه المرحلة كان يعيش فى مستوى واحد وكان مازال مـــأخذواً بالـــتفكير العلمى الآلى".[١٥] لم يفكر ديكارت فى الميتافيزيقا ــ فيما يرى هويـــدى ــ إلا فى ابـــريل ١٦٣٠ وأول مـــا اكتشفه ليس هو الكوجيتو بل وضع الحقـــائق الأبدية بالنسبة لله هنا أصبح لدينا مستويين. أن ديكارت باكتشافه هذا نجح فى إيجـــاد التوازن بين العلم والدين فديكارت كان يؤمن بالعلم خاصة الرياضيات، وكـــان يؤمـــن كذلك بالله. وهذا ما نجده لدى هويدى نفسه الذى لا يريد أن يضحى بأى بعد من هذين البعدين لحساب الآخر.

يخـــبرنا هويـــدى فى الفقـــرة التالية أن ديكارت بعد اكتشافه للوجود والبعد الميـــتافزيقى فى فلسفته كان لابد أن يعود للطبيعة والأشياء وإلى العالم لينظر إليها نظـــرة جديـــدة وهذا ما فعله بالفعل، ويرى أن الفكرة الرئيسية التى سيطرت على ديكـــارت هى أن الله بالـــرغم مـــن تعاليه على الكون والطبيعة، وبالرغم من عدم امتزاجه بهما إلا أنه يمثل مصدر المعرفة ومصدر العالم وأن وجود العالم ليس إلا أسطورة والنتيجة الأولى لهذه النظرة أنه أصبح يعتقد أكثر من أى وقت معنى آلية الاشياء والأجسام الحية جميعاً. والنتيجة الثانية دفاعه عن دوران الأرض. والنتيجة الثالـــثة هى اكتشـــافه لنظرية الخلق المستمر التى أعلن عنها فى الفصل السابع من كـــتاب "العـــالم"، والـــتى أراد من ورائها أن ينزع عن العالم كل فاعلية ويصوره باعتـــباره مجرد مادة تحتفظ بكيانها عن طريق تدخل الله فى كل لحظة من لحظات الزمان ليبقى الكون على تماسكه.[١٦]

---

(١٥) المرجع السابق ص١٧
(١٦) المرجع السابق ص٢٦

ومن رسائله عام ١٦٣٧ إلى "هويجنز" وإلى "بليموس" يصل هويدى إلى أن "المقال فى المنهج" يشتمل على الفيزيقا الديكارتية. وإذا كان قد وصل إلى الكوجيتو فإن الكوجيتو هنا مختلف عن كوجيتو "التأملات" فهو فى التأملات أساس كل حقيقة وكل يقين أما فى المقال فهو أوضح الحقائق وأكثرها يقيناً، والنتائج التى ترتبت على كوجيتو "التأملات" نتائج أنطولوجية أما نتائج كوجيتو "المقال" فكلها تتصل بالعلم.

إلا أن الوصول إلى الكوجيتو لا يمثل هدف الفلسفة الديكارتية لان هدفها هو الوصول إلى الوجود أو على الأقل الجرى وراءه والبحث فيه. فإذا كانت الأفكار الواضحة المتميزة قد اسلمتنا إلى "الانا" أو إلى الشىء المفكر ولا يمكن أن نتوقف عند هذا الشىء المفكر لأنه طريق أو معبر للوصول إلى الوجود، لقد أوصلتنا الفلسفة الديكارتية فى مراحل تطورها حتى "التأملات" إلى وجودين، وجود عالم يقدمه لنا العلم ووجود اله متعال منفصل عن هذا العالم تقدمه لنا الميتافيزيقا. ولكن هذا التباعد بين العالمين لم يكن ليستمر طويلاً لأنه لا يتفق مع الدور الذى نيط بالإنسان فى الفلسفة الديكارتية وهو أن يصل ما بين هذين العالمين.

ويبين هويدى أن أبحاث ديكارت اتجهت فى نهاية حياته إلى الاهتداء بالإنسان، والإنسان الواقعى بصفة خاصة، والإنسان الواقعى لا يمكن أن يكون مجرد عقل، لأنه نفس متحدة اتحاداً طبيعياً بالجسد أو البدن، فالنفس عند ديكارت متحدة بالبدن على نحو أكثر واقعية من الوحدة التى تربط الربان بسفينته. ولا تكتمل دراسة الإنسان إلا بمعرفة المذهب الأخلاقى والأسس التى قامت عليها الأخلاق الديكارتية أسس دينية قدمها بطريقة تحافظ على استقلال الإنسان فى مواجهة الألهى مما جعل ديكارت فى رأى مفسره فيلسوف المحافظة على المستويات.

ويمزج هويدى هذا التفسير الواقعى لديكارت بتفسير وجودى بحيث يمكننا أن نحصر الجوانب الوجودية لفلسفة ديكارت على النحو التالى : الشك عند

ديكارت ليس شكاً عقلياً بل عاماً قوامه موقف رافض يستند إلى تجربة إنسانية شاملة، تصور ديكارت الكوجيتو لا على أنه مجرد تفكير عقلى بل على أنه "شىء يفكر" أى أن الوجود الإنسانى أكبر من أن يحصر فى مجرى التفكير العقلى، إذ أنه شىء أو كيان يمثل الفكر أحد أوجه نشاطه، الإدراك عند ديكارت ليس أبصارًا وليس لمساً وليس من عمل المخيلة بل هو شبيه بفعل الإدراك عند هوسرل إذ أنه أثناء فعل الإدراك ينظر الإنسان أمامه فيرى الأمتداد مع ملاحظة أن الامتداد هنا امتداد عقلى ـ الأنية الإنسانية عند ديكارت تعتمد على الإرادة والحرية، والحرية لدى الإنسان مساوية لإرادته، الحرية عند ديكارت حرية للاختيار وليست مثلاً حرية عقلية أو حرية استواء الطرفين، النفس متحدة بالجسد اتحاداً طبيعياً، لكن ديكارت لم يمضى فى القول بهذا الاتحاد الطبيعى بينهما إلى نهايته، إذا عاد وقال بالثنائية أو بالتوازى بينهما، وهو أمر طبيعى بالنسبة لفيلسوف المحافظة على المستويات.

[٥]

وتظهرنا اهتمامات هويدى على انشغاله ـ بحكمة تكوينه ودراسته ـ بالفلسفة الفرنسية كما ظهر فى رسالته الأولى للدكتوراه وفى ترجماته المختلفة، فقد اهتم بالقضايا الميتافيزيقية التى تدور حول الوعى والإنسان، حيث ترجم لنا عام ١٩٦١ كتاب بول جانيه وجبربيل سياى: مشكلات ما بعد الطبيعة[١٧] وقدم بالاشتراك ترجمة لكتاب جان لاكروا "نظرة شاملة على الفلسفة الفرنسية المعاصرة" وهو عمل كما يخبرنا مؤلفه خصص فى أغلبه لفلسفة التأمل العقلى التى

---

(١٧) وهو عمل يقدم لنا المشكلات الميتافيريقية الكبرى مثل: الشك واليقين، الوحدة والكثرة، مشكلة المادة، مشكلة النفس، الصلة بين النفس والبدن، راجع هويدى مترجم: بول جانيه وجبريل سياى: مشكلات ما بعد الطبيعة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٦١.

تواصل تقليدياً فرنسياً أصيلا"[١٨] يضاف إليهم ترجمة كتاب جارودى "نظرات حول الإنســان Erspectives de l Hamme وإذا تساءلنا عن مبررات اختياره لترجمة هــذا العمــل لوجدنــاه يخبرنا فى كلمة المترجم أن جارودى يتجه نحو البحث عن ماركســية حيــة متفتحة ذات طابع إنسانى ... ويحاول أن يبرز عدم اغفالها لدور الــذات والــوعى وهو يقدم لنا فى "نظرات حول الإنسان" نماذج متعددة للإنسان، الإنســان كمــا قدمــته الفلســـفة الوجودية الملحدة، الإنسان فى الفلسفة الكاثوليكية، الإنســان فى الوجودية المؤمنة أو السقراطية الجديدة المسيحية، الإنسان فى الفلسفة الشخصــانية، الإنسان فى فينيومنوجلوجية الطبيعية عند تيار دى شاردان، الإنسان فى الفلســفة البــنيوية، الإنســان فى الفلسفة الماركسية ولا يترجم هويدى اتفاقاً مع فلســفته واتســاقاً مــع معتقداته هذا الفصل الأخير[١٩] فهو يدعم كما نرى فى هذه الــترجمات التى تمثل اختياره الفلسفى اهتمامه المزدوج بكل من: الفلسفة الفرنسية فى تطويرها المعاصر، وانشغاله بالإنسان.

[٦]

ويؤكــد هــذا الإنشــغال بالأنســان، الأنســان الواقعى فى حياته السياسية والاجــتماعية والديــنية دراســاته المــتعددة خاصة تلك التى تدور حول الوجودية وســارتر والحرية بالإضافة إلى التوجه العام لكتابه "نحو الواقع"، والذى يؤكد فيه

---

(١٨) وهذا العمل يتكون من ثلاثة أقسام يشمل على التولى: فلسفات التأمل العقلى عند جان تابير وجابرييل مادينيه وأميديه بولفو وبول ريكور ولوى لافيل واريك فايل وهنرى دوميرى وفلسفات الوجود عند بردايائيف ومونييه وموريس نيدرونيسل ولفيناس ومارسيل وميرلو بونتى وميشيل هنرى وجان فال والقسم الثالث والاخير مخصص لفلاسفة الابستمولوجيا والانثروبولوجيا والسيكولوجيا مثل: لالاند وباشلار وفوكو وشتراوس وموريس برادين وجورج جورفيتش. أنظر جان لاكروا: نظرة شاملة على الفلسفة الفرنسية المعاصرة، ترجمة يحيى هويدى، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٩.

(١٩) د. يحيى هويدى [مترجم] كتاب جاروى : نظرات حول الإنسان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٨٣، المقدمة، ص٤.

علـى الجوانـب السياسـية والاجتماعية والدينية عند رواد الفكر الفلسفى العربى المعاصر، أحمد لطفى والشيخ مصطفى عبد الرازق.

ويتضـح هذا الموقف فى أخر ما أصدره يحيى هويدى من كتب وهو" قصة الفلسفة الغربية" ١٩٩٣، الذى يبدو أنه جزء من عمل أكبر لم يظهر حتى الأن فهو باب من كتاب كما يتضح من قوله فى المقدمة "سنحاول هنا فى هذا الباب أن نتتبع تلك المراحل "مراحل التفلسف" فى عرض تاريخ تكون الاولوية فيه لتطور المشكلة نفسـها ولـلطريقة التى اختارها إنسان الحضارة الغربية فى وضعه لها وفى كيفية طـرحه للتسـاؤلات حولهـا باعتبار أن الفلسفة هى علم إثارة التساؤلات وطرح المشكلات الخاصة بتلك العلاقة على وجه التحديد"[٢٠]. وإذا ما تساءلنا نحن بدورنا عـن هـذه العلاقة وجدنا إجابة هويدى أن موضوع الفلسفة هو دراسة العلاقة بين الإنسـان والعالم، ويصيغها لنا من خلال فهمه هو لطبيعة هذه العلاقة وكأنه ينطق الفكر الأوربى بما يريده هو، يقول: "وسواء تبلورت هذه العلاقة فى طراز معرفى إدراكى يقـوم على محاولة الإنسان الوصول إلى الحقيقة واليقين أو فى موقف عام يتخذه الإنسان من الحياة ويتسم بالجرأة والمواجهة، فإن هذا الإنسان قد فطن إلى أن استكشافه الفكرى للعالم الخارجى لابد أن يمر بعالمه الداخلى وهو الذات أو الشعور أو الـوعى. وفطن فى الوقت نفسه إلى أن هذه الذات ليست فقط ذاتاً عارفة بل هى طاقـة شـعورية وجدانيـة. وذلك لان الحكمة التى غالباً ما تفهم على أنها مرادفة للفلسـفة ليسـت هى بالدقـة المعرفة، ولأن الفلسفة ــ فى نهاية المطاف ــ ليست موضوعاً يطرح للبحث بقدر ما هى رسالة[٢١].

وعـلى ذلك يمكن القول أن كتابات هويدى الفلسفية تقدم عدة مراحل متمايزة يجمعهـا خيط واحدة مرحلة الكتابات الفلسفية الخالصة فى رسائله الأكاديمية حول باركـلى وحـول فكرة التعالى ثم مرحلة الواقعية الجديدة مع ميل للفلسفة الوجودية

(٢٠) د. يحيى هويدى: قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، ١٩٩٣ ص٧.
(٢١) نفس الموضع السابق

ومرحـــلة فلســـفة الـــوعى الإنســـانى. ونجد الأسس العامة لتفكيره هويدى فى هذه المراحل الثلاث:

(١) التأكيد على الواقع وأن الواقع ليس واقعاً مادياً فقط ولا فكرياً روحانياً خالصاً.

(٢) الـــتأكيد على الواقع مستويات متعددة وأن على الفيلسوف الحق المحافظة على المســـتويات الله، والطـــبيعة، العالم والإنسان. وقدم تفسيره لديكارت على هذا الأساس.

(٣) التأكيد على أهمية ودور الإنسان فى الواقع. ليس الإنسان العارف (الذات) ولا الواقع المادى الطبيعى ولكن الإنسان فى العالم.

(٤) الفلســـفة ليست تأملاً فكرياً منعزل عن القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية لكنها رؤية إنسانية، محورها الإنسان، الإنسان الحى الواقعى فى حياته العامة وفى قضـــاياه الكلية وبالتالى فهى (الفلسفة) تأكيد على المشاركة ليست العقلية فقـــط، أى الفلســـفة الـــنظرية، بل هى انخراط فى الواقع بكل مستويات وفى الصدارة منها الإنسان.

حسن حنفى :

حوار فكرى وجدل نقدى (*)

تثير كتابات حسن حنفى كثيراً من القضايا المهمة ليس فى مجال الفلسفة فقط وهو تخصصه العلمى وميدان عمله الأساسى ، ولكن فىالفكر الدينى والسياسى والاجتماعى والنقد الأدبى، ويثير ما يطرحه من آراء فى هذه المجالات كثيراً من الجدل والنقاش والنقد والهجوم، ولا نبالغ إن قلنا إن ما كتب عنه مثلما كتب عن الجابرى يفوق ما كتب عن أى مفكر عربى آخر من المفكرين المعاصرين. والملاحظة الأساسية التى تفرض التساؤل أن معظم – إن لم يكن كل – ما كتب حوله كان نقداً له وهجوماً عليه. ومما يزيد هذه الظاهرة تعقيداً أن يأتى هذا النقد وذاك الهجوم من اتجاهات فكرية مختلفة ومتباينة فيما بينها: إسلامية وماركسية وتفكيكية وتحليلية نفسية وغيرها.

والسؤال عن ما هو السبب فى هذا النقد الحاد والهجوم الشديد؟ وعن دور هذا النقد فى إيجاد حركة فلسفية واعية فى مصر وحركة نقدية قادرة على المتابعة والحوار؟ ومهمة الفصل الحالى مناقشة هذه المسألة، أو على الأقل طرحها للنقاش. فماذا قدم حسن حنفى من آراء فى القضايا التى تناولها فى كتاباته الكثيرة؟ وما هى وجهات النظر المختلفة التى طرحها واستوقفت معاصريه؟ أهى الأصالة والمعاصرة، التراث والتجديد، الذات والآخر، الشرق والغرب، الماركسية والإسلام، الهوية والخصوصية، الأصولية والاستغراب؟ وما هى المناهج التى قدمها معاصروه فى نقدهم لهذه الآراء؟ هل هى المناهج التقليدية السلفية النصية أو العقلية، الشعورية الحدسية أو الاجتماعية التاريخية الجدلية؟ وأين محور الخلاف

(*) هذه الدراسة اسهمنا بها فى تكريم حسن حنفى فىالكتاب الجماعى الذى اشرفنا عليه بعنوان "جدل الأنا والآخر" : قراءات نقدية فى فكر حسن حنفى ، وهو أول كتاب جماعى يصدر عنه فى العربية، وهو لا يعبر عن رأى فرد ما، بل هو محاولة جماعية لتقديم عدة رؤى ومناهج مختلفة من مواقف فلسفية متعددة حول اطروحات حسن حنفى. "قصد بها أصحابها الحوار العلمى الخالص مع أفكاره وكتاباته بعيداً عما يسود حياتنا الحالية من اتهام وتكفير. فالعمل ليس ذاتياً شخصى لكنه جهد جماعى لأجيال متعددة ومواقف متنوعة. سعت للحوار والإضافة. فالحوار والنقد الفكرى يضيف، فالأشجار تزدهر بثمارها وبالمياه التى تغذيها.

بيـــن حـــنفى ونقاده هل فى التحليل العلمى المعرفى أو الدينى العقائدى أو السياسى الأيديولـــوجى؟ ولمـــاذا أجمـــع كل مَنْ كتب عنه أو الغالبية العظمى منهم على نقد أفكـــاره بل أحياناً الهجوم العنيف عليها؟ هذا هو الإشكال الأساسى الذى تدور حوله الدراسة الحالية، أى قضايا النقد الفلسفى ومناهجه، أبعاده ومستوياته، ويهمنا قبل أن نتـــناول هذا الإشكال أن ندلى ببعض الملاحظات الأولية التى تلقى الضوء على ما نحن بصدده.

الملاحظـــة الأولى أنـــنا اخترنا بعض النماذج الممثلة لوجهات النظر النقدية المختلفة من أجل معرفة كيف تعاملت مع كتابات حسن حنفى، وهذه النماذج قدمت إمـــا فى شكل كتب مستقلة أو مقالات فى دوريات أو فصول فى كتب مثل: وجهة الـــنظر الديـــنية الـــتى نجدها لدى كل من: محسن الميلى فى كتابة "ظاهرة اليسار الإســـلامى" قـــراءة تحليـــلية نقدية" تونس ١٩٨٣، د. أحمد خضر فى "وقفات مع اليســـار الإســـلامى" سلسلة دراسات بمجلة المجتمع، اليمن، أو نقد د. محمد عمارة للـــتراث والـــتجديد مجلة المسلم المعاصر، العدد ٧٧، أو محمد إبراهيم مبروك فى كـــتابه "مواجهـــة المواجهـــة" وبعـــض كتبه الأخرى، وبالمقابل نجد وجهة النظر الماركســـية كمـــا طرحها ناهض حتر فى كتابه "التراث والغرب والثورة: فى فكر حســـن حنفى" الأردن ١٩٨٦، وأديب ديمترى : النخبة الحائرة بين اليمين واليسار (اليسار العربى، العدد ٦٥) وفيصل دراج "حسن حنفى وتنظير اللاعقلانية" (اليسار العـــربى)، ورفعـــت سلام تجديد التراث شرط النهوض فى كتابه "بحثاً عن التراث العـــربى" القاهـــرة ١٩٩٠، د. محمـــود إسماعيل فى "القراءة الأيديولوجية للتراث العـــربى" أدب ونقد، نوفمبر ١٩٨٧. وكذلك نجد وجهة النظر التفكيكية التى قدمها على حرب فى كتابه نقد النص بعنوان "حسن حنفى مشروع فكرى مثلث الجبهات" بيـــروت ١٩٩٣، وقـــد أســـهم بعض الكتاب فى تقديم دراسات من منظور التحليل النفسى كما فعل جورج طرابيشى فى كتابه "المثقفون العرب والتراث" لندن ١٩٩٣، وقـــراءات كـــل مـــن د. صلاح قنصوة لعلم الاستغراب (الهلال مايو ١٩٩٢) ود. نصـــر حـــامد أبـــو زيـــد "التراث بين التأويل والتلوين" قراءة فى مشروع اليسار الإســـلامى"، ود. فـــؤاد زكـــريا فى دراســـاته المتعددة خاصة "مستقبل الأصولية الإسلامية فى ضوء أفكار الدكتور حسن حنفى".

تلك مجرد نماذج نتوقف أمام بعضها بالدراسة التحليلية، وبالطبع هناك عدد من الكتابات الأخرى وبعض الدراسات الأكاديمية العربية والأوربية التى خصصت لدراسة فكر حسن حنفى نشير إليها بإيجاز فى مواضع مختلفة من الدراسة لكنها لا تـندرج مباشـرة ضـمن إطار هذه الدراسة، ونفس الأمر ينطبق على التحليلات والعـروض المختـلفة فى دراسات مستقلة أو مقدمات ترجمات أعماله إلى اللغات المختلفة الأندونيسية والتركية واليابانية والألمانية.

الملاحظة الثانية ولعلها تكون الأولى هى أن هدفنا ليس عرض أفكار حسن حنفى ولا تبيينها للدفاع عنها مقابل ما وجه إليها من انتقادات ولا الهجوم عليها عن طريق تكديس ما وجه إليها من اعتراضات ولا أيضاً وضع الموقفين تجاه بعضهما الـبعض باسم الحياد تاركين للقارئ استخلاص ما يراه من هذين الموقفين، بل هو تحـليل هذه الأعمال بقصد دراسة آليات النقد الفلسفى العربى المعاصر انطلاقاً مما طرحناه من أسئلة.

الملاحظة الثالثة والأخيرة أننا لن نعرض لكل سؤال من الأسئلة السابقة على حـدة موضـحين موقـف كل اتجاه نقدى من أفكار صاحب التراث والتجديد، بل سـنعرض لهذه الاتجاهات النقدية الأساسية فى واقعنا الثقافى والفكرى والتى يكمن خلفها تيارات عقائدية وسياسية؛ مستخلصين الدوافع والأسباب ووجهات النظر التى تقدمها مقابل ما اختارت أن تتعامل معه من قضايا طرحها حسن حنفى فى محاولة لـبيان حركة النقد الفلسفى فى مصر معقبين فى النهاية ببعض الملاحظات الختامية الـتى تحدد معالم هذا النقد الفلسفى فى أهم القضايا التى يطرحها المفكرون العرب المعاصرون.

أولاً : من الموقف من الغرب إلى مستقبل الأصولية الإسلامية :

(أ) الموقف الطبيعى و "التراث والتجديد" :

يمـثل الحـوار الدائـم والمستمر بين صاحب "الموقف الطبيعى" وصاحب "الـتراث والـتجديد" مـلمحاً أساسياً فى حياتنا الفكرية بدأ منذ أكثر من ربع قرن واسـتمر حتى اليوم. ويتحدد هذا الحوار حول الموقف من الغرب، حيث بدأ حسن حـنفى بكـتابة عدد من الدراسات فى مجلة الطليعة والكاتب والفكر المعاصر بعد

عودته من فرنسا وذلك فى أعقاب هزيمة يونيه ١٩٦٧. وتوقف فؤاد زكريا ليناقش "موقفنا من التراث الغربى" الذى نشره حنفى فى الفكر المعاصر (يناير ١٩٧٠) ورد عليه زكريا فى نفس العدد محدداً بداية حوار نقدى مثمر بدأ عقلانياً وأخذ يتحول إلى هجوم واستمر وكاد أن ينتهى انفعالياً. ووصل إلى ذروته فيما كتبه زكريا حول مستقبل الأصولية الإسلامية والذى نشر بعد ذلك فى كتابه "الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة – رداً على مقالات حسن حنفى "الحركة الإسلامية المعاصرة" بجريدة الوطن الكويتية محدداً هدفين له:

الأول : هو بيان أوجه الخطأ والتناقض التى يعرض لبحثها.

الثانى : هو الإدلاء برأيه الخاص فى الموضوعات الخطيرة التى تثيرها (ص٥٠).

والنغمة الأساسية التى تسود نقد زكريا هى التناقض الذى يسود كتابات حنفى، والذى يمثل بالنسبة له لغزٌ يعترف بوقوفه أمامه عاجزاً عن الفهم (ص٥٤)، فبالإضافة لما يرصده من تناقض فى أحكام حنفى على دور الفقهاء وتحليله لعقليتهم يقف أمام ما يسميه بالتناقض الأكبر بين الموقف العام لحنفى فى مقالات جريدة الوطن وموقفه المعروف فى كتبه وأبحاثه الأخرى؛ خاصة "التراث والتجديد" الذى دافع فيه حنفى بكل قوة عن تحويل النص الدينى إلى حقيقة تعاش فى العصر الحديث وهاجم بنفس القوة تجميد هذا النص وتقييده بمرحلة ماضية فى التاريخ (ص٥٦). ويصدر حكمه الذى ردده عدد كبير من الكتاب بعد ذلك وهو "كيف يمكن لمؤرخ يريد تحديد الموقف العام لحسن حنفى من هذه المسألة ويظل محتفظاً بقواه العقلية سليمة بعد أن يتراقص مع كاتبنا فى حلقة المتناقضات الجنونية التى تدور فيها معالجة الموضوع" (ص٥٧).

وهذا النقد الذى انتشر يندرج فى تصورنا فى إطار ما يسميه بيكون "أوهام المسرح" حيث ردده الكتاب لأن قائله فؤاد زكريا، بينما هو نقد لا يصمد أمام التحليل، فلا أخال ناقداً يتهم البنية الداخلية لنص ما بالتناقض بمجرد أن ما جاء فيه من أفكار يتناقض مع عمل آخر للمؤلف صاحب النص. إن استغراق زكريا فى الاهتمام المبالغ فيه بما يسمى بالاتساق الفكرى وحرصه على المنطق الصورى الشكلى أبعده عن الاهتمام بجوانب أخرى فى دراسته للظاهرة الإسلامية، وهى

الجوانب الاجتماعية والتاريخية كما تنبه إلى ذلك ألكسندر فلورس فى دراسته "فؤاد زكـريا وجدالياتـه لـلظاهرة الإسلامية المعاصر" مما يجعلنا نتساءل عن حقيقة التـناقض الـنظرى الـذى ينتج مواقف متماسكة اجتماعية وسياسية مقابل الاتساق النظرى الذى يؤدى إلى مواقف عملية متناقضة!

إن نقـد زكريا لا ينصب فقط على مقالات الوطن بل يمتد إلى معالجة حسن حـنفى للموضـوع، وهذا يجعلنا نتساءل هل القضية والغاية والتحليل والنتائج التى قدمـت فى "الـتراث والتجديد" هى نفسها ما نجده فى مقالات الوطن عن "الحركة الإسـلامية المعاصـرة" كما أراد زكريا أن يمرر علينا ذلك فى بحثه المشار إليه؟ أظـن أنـنا لو دققنا النظر وأعملنا الفكر نجد أننا بإزاء خطابين متمايزين أحدهما فلسـفى ابستمولوجى وهو ما نجده فى "التراث والتجديد" فهو عمل ذو غاية علمية موجـه للباحـثين والعـلماء، بينما الثانى خطابى دينى ذو غاية سياسية يختلف فى الموضـوع والتحليل عن الأول؟ والسؤال: ما الذى جعل فؤاد زكريا وهو أقدر من غيره على إدراك هذا التمايز – يجتمع بين الخطابين ويتعامل معهما خالطاً بينهما؟

فى تقديـرى أن خلافاً أساسياً فى التوجه بين حنفى وزكريا يكمن خلف هذا الـنقد "فزكـريا – كمـا يرى فلورس – من أصحاب الدعوة للعقلانية والحداثة فى الوطـن العربى، دونما تحفظ على غربية الأفكار العقلانية التى تغلغلت فى مصر والوطن العربى ولو عن طريق الهيمنة والغزو الفكرى وهدفه من وراء ذلك تثبيت الفكـر العقلانى الحديث فى الحياة الثقافية العربية". بينما حنفى فى أعماله الفلسفية المـتعددة يهـدف إلى تجديد الفكر العربى معطياً للتراث الفكرى العربى الإسلامى مكانـاً واسـعاً فى مذهـبه الـتجديدى". ومن هنا فإن نقاط الاختلاف بينهما شديدة الاتساع، ونستطيع تحديدها طبقاً لمقتضيات بحثنا الحالى فى قضيتين هما :

١– قضية الهوية والأصالة. ٢– قضية الموقف من الغرب.

وهما القضيتان اللتان اتخذ فيهما المفكران موقفين مختلفين.

ويتضـح هـذا الخلاف إذا ما تتبعنا تحليلات زكريا والتى تتخذ من مقالات حنفى ذريعة لمناقشة فكر الجماعات الإسلامية وهو الهدف الثانى – أو قل الرئيسى مـن دراسته – حيث يرى أن حنفى ينظر إلى نفسه فى كثير من الأحيان على أنه

امـتداد عصـرى لـتراث الفقهاء، وينتقى نصوصاً تكشف عن تعاطف وتقدير من حـنفى لأصـالة الفقهـاء القدامى، ويتوقف أمام فهم حنفى للأصالة بالنقد، يقول: "تـنطوى عبارات الكاتب على فهم شديد القصور لمعنى "الأصالة الإسلامية" حيث ترتـبط الأصـالة بالامتناع عن التأويل والتفسير، ويعد تحديث النص الدينى ابتعاداً عن الأصالة" (ص٥٢).

الحقيقة أن هذا النقد أو الاتهام يجعلنا نشك فى أن الناقد – الذى يعالج موقف حـنفى مـن هذه القضية فى مقالات الوطن وفى التراث والتجديد – حيث لم يكن كـتاب حـنفى "من العقيدة إلى الثورة" قد صدر بعد– لم يقف أمام موقف حنفى من الأصـالة ومن تحديث النص الدينى فى بقية إعماله المنشورة حتى ذلك الحين، فما جهد حنفى فى معظمه إلا تحديثاً للنص الدينى كما اعترف الناقد صراحة (صفحات ٥٧– ٦٧– ٧٢– ٩٨)، وكمـا يظهـر فى التراث والتجديد والمجلدات الخمسة فى "مـن العقيـدة إلى الـثورة". هـل النقد هنا موجه إلى مقالات الوطن عن الحركة الإسـلامية المعاصـرة و إلى فهم الكاتب لمعنى الأصالة الإسلامية وتحديث النص الديـنى؟ بـل عـلى العكس من ذلك، نحن نجد إن النقد الأساسى الموجه من دعاة الأصالة الإسلامية، هو أن حنفى تجاوز كل الحدود فى تحديث النص الدينى ويدور جهـد حنفى كله كما يتضح من عمله الأساسى حول تجديد التراث بحثاً عن نظرية معاصـرة فى التفسـير وذلك هو القسم الثالث والأخير من "التراث والتجديد" كما أشار إليه حنفى فى خطته للعمل.

وترتـبط هـذه القضية الأصالة (الهوية) أو ما يمكن أن نسميه العلاقات بين الأنا والآخر، أو الحداثة والتراث بنقد فؤاد زكريا لموقف حنفى من التحديث، الذى يتضـح فى مواضـع مـتعددة من بحثه المشار إليه خاصة فى تحليله لأسباب قتل جماعـة الجهـاد لـرئيس مصر السابق يقول: "بدافع الأمانة والموضوعية الفكرية أيضـاً نقول بأن هذا النوع الخاص من القتل أعنى قتل جماعة الجهاد للسادات بناء على الأسباب الخاصة التى وردت فى أقوالهم، إنما هو قتل للتحديث الذى هو جزء مـنا جميعاً – أعنى المثقفين المستنيرين – وقتل للعصر الحديث بأكمله ولكل تقدم وتحرر حققته الإنسانية فيه" (ص٩٤). ولا ينصب النقد الذى يقدمه كما يخبرنا على حـنفى وحـده فى هـذه النقطة بل على كل قوى المعارضة التى يرى زكريا أنها

تعـــاطفت مع الجماعة، ولم تتمكن بدورها من رؤية الحقيقة التى كانت تصرخ أمام عيـــنها وهى أن التـــنظيم لـــم يقـــتل السادات إلا من أجل الجوانب التى توجد فى المعارضــــة ذاتهـــا بدرجة تفوق وجودها فى السادات ألف مرة "العلمانية والتحديث وفصل الدين عن الدولة" (ص١٠٥-١٠٦).

هل لنا أن نستنتج أنن الناقد يبرز فى حكم السادات القيم نفسها التى يدعو هو إليهـــا مـــثل: العـــلمانية والتحديث وفصل الدين عن الدولة، وهى القيم التى وجدت بدرجـــات متفاوتة فى المراحل المختلفة التى مرت بها مصر تحت حكم ثورة يوليو الـــتى يـــدعى فى بداية مقالاته أن حنفى يعبر عنها. لا نقصد القول بتناقض أحكام فـــؤاد زكـــريا، ولكننا نشير إلى المنهج الانتقائى الصورى الشكلى فى التعامل مع الأفكـــار والأحـــداث، والذى يتضح فى الفقرة الأخيرة من دراسته موضع التحليل والتى يشخص فيها المأزق الحقيقى الذى تعانى منه مصر فى تطلعها إلى المستقبل وهـــو اضطرارها إلى أن تختار بين فكر بلا فعل، وفعل بلا فكر. وفى طريقة حله لهذا المأزق بطريقة أفلاطونية يقول : "لن يكون لنا خلاص إلا فى اليوم الذى يصل فيـــه الـــذى يفعـــلون إلى المســـتوى الذى يدركون فيه قيمة الفكر المتفتح والعقل المستنير" وهذا هو نفس الموقف الذى انتقده زكريا فى دراسته لمحاورة الجمهورية لأفلاطون. نعم التناقض موجود ولكن أين؟

(ب) التحليل النفسى، التراث وعقدة الماضى :

ونفـــس الموقـــف السابق من كتابات حنفى ونفس الاتهامات يكررها جورج طرابيشـــى فى كـــتابه "المثقفون العرب والتراث: التحليل النفسى لعصاب جماعى" حيـــث تتجلى القدرة الذاتية لمؤلفه فى الإضافة للتحليل النفسى الذى يمتد به ليطبقه عـــلى نتاج المفكرين العرب "إذ إن التحليل النفسى مهما ادعى لنفسه من قوام العلم الموضـــوعى، هو أيضاً فن ذاتى وخصوبته كمنهج مرهونة بهذا الشق المرتبط منه بشـــخص هـــو "مطبق" المنهج وبرؤيته ومعرفته وامتلاكه لأدواته وعمق حدوسه ورحابتها" (ص١٠). يتناول طرابيشى العصاب الجماعى، الذى يعرفه بأنه كل خلل أو اضـــطراب من طبيعة مرضية يصيب الشخصية أو قطاعاً منها نتيجة لتمحورها حـــول عقيـــدة نفسية. والعقيدة التى يتمحور حولها العصاب الجماعى العربى هى "عقيـــدة التثـــبيت عـــلى الماضى"؛ والذى يخصصه فى خطاب التراث أو الخطاب

التراثى فى نتاج الانتلجانسيا العربية المعاصرة أو ما يسمى نفسه بخطاب الأصالة، وكتاب طرابيشى يتكون من قسمين، الأول: العصاب الجماعى للانتلجانسيا العربية فى الحالة العامة لتمخضه واشتغاله وتعبيراته، والثانى حالة مشخصة وخاصة من تظاهره وهى الحالة التى تقدمها كتابات حسن حنفى "الذى هو بلا جدال الممارس الأكثر تميزاً والأشمل تمثيلية والأغزر إنتاجاً لخطاب التراث فى الأيديولوجيا العربية المعاصرة" (ص١١).

وينطلق تحليل طرابيشى فى دراسته من القول بازدواجية العقل فى كتابات حسن حنفى مردداً نقد فؤاد زكريا متوسعاً فيه مع طلاء فرويدى، فهو يرى أن أول وأكثر ما يلفت النظر فى كتابات حسن حنفى هو قدرة كاتبها شبه اللامحدودة على مناقضة نفسه (ص١٠٥)، ومن هنا فهو يصارع لبيان التناقض فى الموقف المنهجى وفى الموقف من القضايا وفى الموقف من الوقائع وفى الموقف من النصوص وفى الموقف من الأشخاص ولا يفعل سوى رصد ما يراه تناقض فى كتابات حسن حنفى. إن علينا أن نطرح على المحلل الناقد سؤال حول قدرة التحليل النفسى على التعامل مع الخطاب العربى المعاصر ونشير هنا إلى دراسة على الصراف "الخطابى العربى على سرير بروكوست" (الوحدة العدد ٩٢)؛ التى تقدم نقداً مهماً لمعالجة طرابيشى، وكما يخبرنا الصراف فإن معالجة التحليل النفسى للخطاب العربى المعاصر تقرأ هذا الخطاب من وجهة نظر ضيقة أولاً وأنها تتخلى عن الواقع بمقدار ما يتخلى "الخطاب العصابى" عنه ثانياً، وأنها تقدم قراءة انتقائية ولا تاريخية ثالثاً؛ انتقائية لأنها تنتخب من الخطاب العربى ما يلائم المنهج التحليلى النفسى وتجبر مفردات الخطاب على الدخول قسراً فى حقلها الدلالى ؛ لا تاريخية لأنها تقرأ الفكر لا بوصفه سيرورة تتصل بحركة الواقع بل بوصفه وضعاً وتحديداً لا بوصفه حركة بل سكوناً (ص١٨١)، الانتقائية التطبيقية، والتعميم النظرى والقياس من دون براهين وتثبيت ما يتحرك ويتبدل ومجانبة الواقع بل تجنبه هى من جملة ما يتسم به عمل جورج طرابيشى (ص١٧٧).

إن توقفنا أمام نقد طرابيشى الذى اعتمد فيه كما يظهر فى الفقرة الأولى من القسم الثانى على فؤاد زكريا تهدف فى المقام الأول – كما أسلفنا – إلى بيان المناهج المختلفة التى تعاملت مع كتابات حسن حنفى، فالتحليل النفسى كنهج

وطـريقة فى العلاج يعتمد على التداعى الحر الطليق للعصابى أو المريض النفسى لاستخراج العقدة النفسية المختفية فى أعماق اللاشعور، أما المعالجة التى يقدمها لنا طرابيشـى القائمة على تحليل نصوص حس حنفى فهى معالجة قاصرة تماماً لأن النصوص التى يتدخل فيها المؤلف عن وعى بالتنظيم والحذف والتعديل والصياغة بحيـث يقـدم لنا خطابه الواعى الذى يريد إيصاله للقارئ تختلف تماماً عن طبقات اللاشـعور وتسعى لإخفاء الكبت والعقد فهل تتيح النصوص المكتوبة الوصول إلى أعماق الكاتب والحفر فى طبقات شعوره؟

إن محـا حاوله طرابيشى يتفق فى توجهه الأساسى مع ما قدمه فؤاد زكريا وهـو البحث عن التماسك الفكرى خلف ما ظناه تناقضاً فى كتابات حسن حنفى فقد تعـامل مـع الظاهـر والمعـلن أكثر من تعاملها مع المكبوت والخفى والمقموع والمسكوت عنه، وهذا ما حاوله على حرب فى دراسته عن حسن حنفى مستغرباً.

(جـ) التفكيكية، للهوية وليس للغرب :

يعلن على حرب عن منهجه التفكيكى فى قراءة النصوص، وتفكيكياً يتعامل مـع حسن حنفى، الذى يعده واحداً من الذين يتصدرون الآن الواجهة على الساحة الفكـرية فى الوطن العربى من أصحاب مشاريع التجديد، فهو يتناول التراث تناولاً نقدياً لا يعيد من خلاله النظر فى المفاهيم والمذاهب وحسب بل أيضاً فى الأصول ذاتهـا وهـذا إذا لم نقل بأنه يحاول استئناف الوضع يكاد ينسف الأسس والمسلمات (حـرب: نقد النص ص٢٨)، ففى مقدمة كتابه "من العقيدة إلى الثورة" يعلن حنفى بوضـوح وصـراحة وجـرأة رفضـه لـلمقدمات التقليدية فى علم أصول الدين الإسلامى. "إنه يحاول أن يثور على العقيدة بالتحرر من مقدماتها الإيمانية وأسسها الثابـتة مـن أجل إعادة البناء والتأسيس. ولا نبالغ إذا قلنا بأنه يقوم بنقد المقدمات والأصـول وزعزعة أكثر البديهيات فى العقل العربى الإسلامى" (ص٣٠)، إلا أنه يـرى أن الفيلسـوف المسـلم لا يستطيع نقد العقائد والمذاهب إلا باسم الدين نفسه "وهـذا هـو الفصام بعينه" (ص٣٠)، هذا ما كتبه حرب بعنوان حسن حنفى ثائراً بمناسـبة صـدور كتابه "من العقيدة إلى الثورة" ويخصص له دراسة أطول بعنوان حسن حنفى مستغرباً يناقش فيها عمله "مقدمة فى علم الاستغراب".

يؤكد حرب على "قوة النص" عند حنفى: "فأنت قد تخالف وتنتقده. ولكن لا يمكنك إلا أن نعترف وأنت تقرأه بأنك أمام باحث قدير ومفكر كبير وكاتب لامع. إنه يفرض عليك نفسه بقوة أدائه ونصه" (ص٣٤)، ومن هنا لا يملك على حرب حسب منهجه إلا أن يبدأ بالهامش فهو لا يهتم – كما يذكر لنا – بما يصرح به حنفى بل بما يستبعده ولا يقوله، منقباً عن خروم نصه وهوامش كلامه منسجماً بذلك مع المنحى الذى ينحوه فى تناول النصوص وهو "مذهب أهل التفكيك" (ص٣٠). إن خطاب الهوية فقد حجيته ومصداقيته ومآله وينبغى أن نخضع هذا الخطاب عند حرب لفحص نقوم خلاله بتفكيك تلك الكليات المتعالية التى تتشكل منها طروحاته المعلنة وشعاراته الصريحة، والتفكيك يعنى هنا نبش المنسى والمكبوت والالتفات إلى الهامش والمستبعد والمسكوت عنه"، ومن هنا فهو يبدأ نقده من الفصل الأخير وبالتحديد من الخاتمة التى يتحدث فيها حنفى عن "النقد الذاتى وحدود العمر" ليظهر هاجس الكتابة عنده.

دعنا نستمع لما يستخرجه حرب من تجربة الكتابة عند حنفى ، يقول إن حنفى لا يعتبر الكتابة مجرد أداة لممارسة حريته واختلافه أو وسيلة للاهتمام بذاته. لا يعتبرها محاولة للخلاص الفردى بل هى عنده هم جماعى. إنها مهمة ورسالة، أداة لتحرير الأمة والجماعة. ولهذا فإن المفكر يتعامل مع نفسه بوصفه سليل العلماء والفقهاء ووارث المصلحين والدعاة فى حمل الأمانة الفكرية وفى الدفاع عن الهوية والذات. كذلك يتعامل مع نفسه كمثقف بالمعنى الحديث للكلمة (ص٣٦) ليخرج من ذلك، أن نموذج المثقف الداعية يخترق نص حنفى من أوله إلى آخره (ص٤٠)، وإن ما ركز عليه ناقدنا هو أن حنفى يركز فى عمله إلى التخلص من سطوة التراث الغربى ويضيف متناسياً كا سبق أن ما قدمه حنفى فى "من العقيدة إلى الثورة" إن دارس الغرب (حنفى) لا يريد درس التراث وموضعته"... يعطى حنفى الأولوية لدرس العقل الغربى وموضوعته دون العقل العربى، متغافلاً عن أمر وهو أن الفكر الغربى هو الذى أيقظنا من سباتنا الحضارى.. متستراً على أمر آخر وهو أن وجهاً من وجوه أزمتنا الفكرية يتمثل فى الخضوع للنصوص التراثية التى تسجننا فى زنزانتها" يستدرك حرب بعد حوالى أربع صفحات فى هامش طويل إلى أن حنفى يقف فى مواضع أخرى مواقف نقدية جريئة فى تعامله مع

التراث الإسلامى بل إنه يفوق الجابرى فى نقده كما يؤكد حرب مستشهداً بقول صادق العظيم، وإن كان يرى أن صاحب التراث والتجديد يتردد بين الانغلاق والانفتاح، فهو يقدم نفسه أحياناً بصفته الحارس والمدافع عن الهوية تجاه الآخر، وفى أحيان كثيرة يتكلم على التراث بإشارات نقدية يتجاوز فيها أركون الذى يعد الأكثر تفكيكاً للعقل الإسلامى" (هـ٣ص٤٤). والحقيقة إننا هنا وفى هذا الهامش بالذات أمام تردد على حرب أكثر من تردد، حنفى ذلك لأن ناقدنا التفكيكى، الذى لا يؤمن بالهوية والوحدة يأبى أن يتعامل مع نص حنفى ككل ويفصل بين أقسام عمله الواحد (التراث والتجديد) الذى يضم "من العقيدة إلى الثورة" كما يضم "مقدمة فى علم الاستغراب" ويراه فى أحدهما مدافعاً عن الهوية مهاجماً الغرب "الاستغراب" وفى الآخر صاحب مواقف جريئة . وهذا ما أوقعه فى عدة أوهام أسقطها على نص حسن حنفى أو أسقطها من نص حنفى المؤلف، فهو يحدثنا عن الوهم الفلسفى الذى مصدر الذاتية والتى ترجع إلى ديكارت بينما الأمر عند حنفى مرده إلى الشعور والخبرات المعاشة ومن ثم فلا فصل كما تصور الناقد بين الذات والموضوع، بل تداخل بينهما. ويحدثنا عن وهم التأسيس حتى يصل إلى صلب ما يهدف إليه منهجه وهو ما يطلق عليه وهم الأنا، ويعنى به "الاعتقاد بوجود هوية صافية فى ماهية ثابتة أو بداية لحظية أو أنا مركزية" يقول: "يواجه حسن حنفى الآخر أى الغرب بهوية غير قابلة للتحديد" (ص٥٢) ليؤكد لنا أن الهوية تنمو بالاختلاف عن المركز وتبدع وتجدد بتحويل الأصل وصرفه ولا تشذ الهوية الإسلامية عن ذلك. هنا أيضاً يمكن أن نحدد نقد حرب لحنفى فى موضوعين هما القول بالهوية والموقف من الغرب. يتحدد النقد إذن بالنقطة التى ينطلق منها الناقد أو قل بالإطار المرجعى له.

ثانياً : اليسار الإسلامى وضعية تاريخية مادية علمانية :

تعددت الكتابات النقدية لما قدمه حسن حنفى تحت عنوان اليسار الإسلامى من كتاب وباحثين فى الفكر الدينى وتراوحت هذه الكتابات بين الكتابة الحماسية الوعظية والتحليل العلمى الدقيق وأغلبها يقف عند النصف الأول من العنوان فيصف به عمل حنفى بأجمعه، فاليسار الإسلامى هو ماركسية مقنعة ومادية ملحدة ورفض مستتر للدين ومن هنا تصف هذه الكتابات جميعاً عمل حننفى بالمادية

والوضعية والتاريخية والعلمانية والتجريبية والعقلانية وكأن الفكر الديني يخلو من هذه الأسس التي يدين الداعيين لها عمل حنفي بأضدادها تماماً.

والعمل المبكر الذي سعى إلى تحليل ونقد كتابات حنفي يحمل عنوان "ظاهرة اليسار الإسلامي،، قراءة تحليلية نقدية" للكاتب التونسي محسن الميلي ١٩٨٣، فالكتاب قراءة في فكر حنفي، الذي يستشهد به المؤلف لبيان الجذور التاريخية والفكرية لظاهرة اليسار الإسلامي (ص١٧-١٨) وحين يعرض لليسار الإسلامي كمشروع حضاري (ص٢٧-٢٨-٢٩-٣١) مؤكداً أن حنفي يعطي لليسار الإسلامي تعريفاً أكثر شمولاً وأكثر وضوحاً وغموضاً في نفس الوقت حيث يتحول معه اليسار الإسلامي إلى مجموعة من كتابات ذات الاتجاهات الفكرية والسياسية المتباينة" (ص٣٣) ويحدد أهم الخصائص الفكرية لليسار الإسلامي اعتماداً على نصوص حنفي وهي: معاداة منهج النص أو العقلية النصية (ص٣٦)، ومحاربة السلفية (ص٤٠، ٤١) وهو موقف نقدي تاريخي من التراث يقوم بإحياء الجوانب الثورية والتقدمية فيه (ص٤٢-٤٣) مع القيام بعمل تجديدي واسع (ص٤٤) يعتمد الفهم المقاصدي للشريعة (ص٤٦).

ويرفض الميلي هذا الفهم الوضعي المادي التاريخي "لقد ظن حنفي أن الوحي أغلبه "وضعي" وكأن الوحي لا يأتي إلا تصديقاً للواقع ومصادقة عليه. نقول إن هذا التوظيف مخالف تماماً لطبيعة الوحي فهو ينتهي بنا منطقياً إلى تفسير الوحي تفسيراً مادياً تاريخياً" (ص٧٨). ذلك لأن اليسار الإسلامي يحتج بأسباب النزول لإثبات تاريخية الوحي، وبالتالي إمكانية تجاوزه. والنتيجة التي يصل إليها المؤلف هي الحكم على هذا الاتجاه بالقصور في الفهم والتسرع في الحكم (ص ١١٧-١٢٠) وأن المسكوت عنه أخطر من المصرح به (ص١٢٧) وهذا النقد يوجد لدى كل نقاد هذا الاتجاه إن حسن حنفي واع بما يقوله ومايكست عنه، إنه يريد أن يربط الوحي بظروف نزوله ويريد أن يتخذ من الناسخ والمنسوخ حجة لإتمام نسخ أحكام القرآن، ويريد أن يبرز الوحي كما أبرزه فرويد أو ماركس.. وينتهي إلى أن حنفي وإن لم يصرح بهذه النتائج فإنها لازمة لكلامه واستدلاله، وأنه يريد تفسير الوحي تفسيراً مادياً تاريخياً تمهيداً لتجاوزه" (ص١٢٨).

ونفــس هذا الموقف وربما نفس المقولات مع اختلاف فى التناول نجدها فى "وقفــات مع اليسار الإسلامى" وهى سبع مقالات متتالية كتبها الدكتور أحمد خضر فى مجــلة المجتمع اليمنية (الأعداد من ٩٠١ حتى ٩٠٦) وهى مقالات يغلب عليها الخطابيــة والوعظ والتحذير من التحليل والنقد. فالدكتور حنفى من أنصار فلاسفة التنوير، الذين اعتبروا العقل مقياس العقائد، وهو لا يرى حرجاً فى تطبيق فلسفاتهم عــلى القــرآن "هنا تظهر سمة أساسية فى كتابات أصحاب هذا الاتجاه النقدى هى الخــلط المتعمد بين الوحى والفكر الدينى فأى نقد للفكر الدينى والعلوم الإسلامية أو أيــة دراســة تحليلية لها، فهى تتجه لديهم مباشرة إلى هدم العقائد ورفض الوحى". وهو يرى ويريد أن يذكر الإسلاميين بأن فلسفة التنوير هذه قد أدت بالدكتور حسن حــنفى إلى رفــض ألفــاظ الحلال والحرام والدنيا والآخرة والجنة والنار والملائك والشيطان واستبدالها بأفكار أكثر عقلانية مثل: الشعور والذات والعقل والحركة... ونذكــر الإسلاميين (لاحظ التوجه الدينى لا العلمى فى الخطاب) بأن الدكتور حسن حــنفى قــال بالحرف الواحد "لا يحتاج الإنسان كى يكون مسلماً إلى الإيمان بالجن والملائكــة والشياطين والعفاريت. وقد أوصلته الفلسفة إلى الاعتقاد بأنها ليست إلا رموز" (العدد ٩٠١، ص٤٠) وهذا معناه أن خطاب التراث والتجديد مستورد ليس تراثياً، بل أوروبياً.

إن نظــرة حنفى للتراث القديم ما هى إلا نظرة بعين أوربية وبعقلية أوربية وبمــنهج أوربى... لا يهدف – من وجهة نظر الناقد – إلا إلى رفض الماضى بكل ثقلــه والمــوروث بكل الثقة الموضوعة فيه. فهو (أى حنفى) يحاول إعادة تفسير الماضــى الإســلامى ليس بوصفه عقيدة وإنما بوصفه ثقافة إنسانية فأصبح التراث ثقافة لا عقيدة يفسر بغية قتله لا إحيائه (ص٤١) فواقع الحال أن الإسلاميين – من ذوى الــنيات الطيــبة – لا يفهمون حقيقة الاتجاه الفكرى العام للدكتور حسن حنفى (ص٣٩).

لــن نــتوقف أمام خلط المفاهيم والمصطلحات ولا عدم التمييز بين التراث والعقيــدة والــثقافة ولا قدرة الكاتب على الولوج إلى أعماق حنفى للكشف عما لا يبصــره الإسلاميين الطيبين البسطاء لكن نتوقف أمام وصفه لجهد حنفى بالعقلانية والتــنوير والمــنهجية وقصر هذه الخصائص على الفكر الأوربى. وهذا فى نظره

يوضـــح الروافد اليهودية فى فكر حنفى، وهو العنوان الذى أطلقه الناقد على المقالة الــثانية مـــن مقالاته. فالذى فعله الدكتور أنه أراد أن يطبق نفس المنهج الذى طبقه ســبينوزا وأثبت به تحريف التوراة والإنجيل ، أراد الدكتور أن يطبقه على التراث الإسلامى عامة وعلى القرآن خاصة (العدد ٩٠٢ص٤٧) حينما اختار حنفى رسالة اسبينوزا لترجمتها لم يكن اختياره لها عشوائياً وإنما لحاجة فى نفسه. لقد وجد فيها المـــلاذ والمخرج والستار الذى يختبئ من ورائه ليحدث فى أمر الدين ما يريد أن يحدثـــه (ص٤٨). وهذا ما يكرره الناقد فىالمقالة التالية (العدد ٩٠٣) فالسبيل الذى يدعـــو إليـــه الدكتور هو طريق موالاة اليهود والنصارى (ص٢٧). وهى مسألة لا يقـــدم لـــنا الدليل عليها. وما نراه هو إن تقديم أسبينوزا فى العربية الهدف منه عند صـــاحبه هو أن يقدم نقداً لما أصاب الكتب الدينية من تشويه، وهذا هو ما نبهنا إليه الفكـــر الديـــنى الإسلامى، فأسبينوزا ضده الانحراف الذى طرأ على الفكر الدينى اليهـــودى لـــذا فهـــو مستبعداً من قبل رجال الدين الرسميين. وبالتالى فإن من يقدم اسبنيوزا لا يوالى اليهود، ولكن يكشف زيفهم!

إن النقد المشترك الذى يقدم لليسار الإسلامى هو محاولة تحويل الإسلام إلى أيديولوجيـــا. وتحـــت عنوان ثورة باسم الدين أو ثورة على الدين (المقالة الرابعة) يـــرى خضـــر أن اليســـار يستخدم كل معاول الهدم التى استخدمها مفكروا الغرب وفلاســـفته ليهـــدم بها الإسلام، يريد هذا اليسار يريد هذا اليسار تفريغ الإسلام من العقيدة وتحويله إلى أيديولوجية. فاليسار الإسلامى ماركسية مقنعة كما يؤكد الناقد، حيـــث لـــم يجـــد حســـن حنفى دليلاً أو برنامجاً أعظم من الماركسية (العدد ٩٠٦ ص٤٩)، اليسار الإسلامى يريد تقديم الفلسفة قبل الدين (العدد ٩٠٧ ص٤٤-٤٥).

هذه الانتقادات تظهر أكثر وضوحاً عد أبرز ممثلى التيار الإسلامى الدكتور محمـــد عمـــارة فيما كتبه عن التراث والتجديد (المسلم المعاصر، العدد ٧٧)، الذى يـــرى فى الـــتراث والتجديد محاولة لأنسنة الدين وتفريغه من محتواه، وذلك بإلغاء ثوابـــته و"مطـــلقاته" و"مقدســـاته". "فنحن إذن – من وجهة نظره – بازاء استعارة لفلسفة "التنوير – الغربى – العلمانى" يريد الدكتور حسن أن يتعامل بها مع الإسلام كمـــا تعـــامل التـــنويريون الغربيون مع التراث" المخزون النفسى" هو تصفية لهذا المخـــزون وتـــبخيراً له، وتخـــلص منه لا برفضه وإنما بإعادة تفسيره". فهو يلغيه

ويصـــفه لكن باسمه وبلغته وتحت مظلته. وهذا منهاج أذكى – ولا نقول "أخبث" – فى الـــتعامل مـــع هـــذا المخزون"! لأنه سبيل "غير مباشر" فى التصفية والإلغاء. وليؤكـــد ذلـــك يستشـــهد بقول حنفى – الذى ننتفق فيه معه – من أن مهمة التراث والـــتجديد هى التحرر من السلطة بكل أنواعها، سلطة الماضى، وسلطة الموروث، فلا سلطان إلا للعقل ولا سلطة إلا لضرورة الواقع الذى نعيش فيه وتحرير وجداننا المعاصـــر من الخوف والرهبة والطاعة والسلطان سواء كانت الموروث أم سلطة المنقول".

وتتضـــح الســـمة التعليمية فى كتابة عمارة من صيغة الخطاب المباشر إلى قارئـــه كما يتضح من العبارات التى يتوجه بها القارئ. ويوضح لقارئه كيف يحقق مذهب "التراث والتجديد" هدفه بأن ذلك يتم فى تركيز الفكر حول "الإنسان" بدلاً من الله. وأن هـــذا "الانتقال" و"الإلغاء" و"الاحتلال والتبديل " إن هو إلا التصحيح الذى يكشـــفه لنا "التنوير – الغربى" فى صورته التى جاء بها الدكتور حسن حنفى يقول شـــارحاً "فالـــتوحيد يعنى وحدة البشرية، ووحدة التاريخ،، ووحدة الحقيقة، ووحدة الإنســـان، ووحـــدة الجماعـــة، ووحدة الأسرة، فالمهم هو إيجاد الدلالة المعاصرة للموضـــوع القديـــم... ووضـــع المشـــكلة الوضع الصحيح وهو الوضع الإنسانى الاجـــتماعى" (ص٢١٣). ويســـتنتج من ذلك أن "المطلوب هو علم توحيد بلا "إله" وبلا "عقيدة" وتلك دلالة اختيار الدكتور حسن لمشروعه عنواناً هو "من العقيدة إلى الثورة" (ص٢١٣).

ولن نقف أمام تحليلات جزئية كأن نوضح مثلاً أن المشروع إذا جاز لنا أن نطـــلق على ما قدمه حسن حنفى لفظ مشروع، هو التسمية التى حددها له صاحبه وهى "الـــتراث والتجديد" الذى يحلو للدكتور عمارة أن يطلقه عليه باستمرار مذهب "التراث والتجديد" وليس عنوانها من العقيدة إلى الثورة الذى يمثل الجزء الأول من القســـم الأول مـــن العمل ولا توضح دلالة العنوان أى نوع من الإلغاء أو الإحلال والتـــبديل، بـــل تؤكـــد الجوانب الثورية فى العقيدة التى ينبغى أن تتحقق وذلك بأن تصبح واقعاً معاشاً والمثال الذى يقدمه لنا هو التوحيد فتحقق، التوحيد فعلياً وعملياً لا يعنى – ولا صرح حنفى بذلك – إلغاء "الإله" وتصفية "العقيدة".

أقــول إنــنا لا نهــدف إلا إلى تقديــم القضايا التى توقف أمامها نقاد حنفى وتحــليلاتهم لهذه القضايا لبيان الأسباب والدوافع التى أدت إلى توجهات كل منهم، وكمــا رأيــنا خاصة لدى أصحاب التيار الدينى فإن النقد الأساسى هو سعى حسن حــنفى إلى تحويــل الدين إلى أيديولوجية، وهى مصطلح غربى مما يتيح للتغريب القضاء على الإسلام.

يقــول عمارة مستشهداً بأقوال حنفى مستنكراً لها "إذا كان التجديد باستطاعته تحويل هذه العلوم التقليدية إلى علوم إنسانية فإن العصر الحاضر يود القيام بخطوة أكــثر تقدماً وهى تحويل العلوم الإنسانية إلى أيديولوجية، وتلك هى الغاية القصوى مــن "الــتراث والــتجديد" (ص٢١٤). إن هذا يقود إلى كل ما يرفضه كتاب التيار الديــنى؛ يقــود إلى العلمانية والمادية والإلحاد. لذا يناشد عمارة النصف الثانى من عــبارة حسن حنفى اليسار الإسلامى، الجانب الذى يراه مؤكداً للذاتية، فمع كل هذا "العــبث – التنويرى" الذى تجاوز به د. حنفى حدود المعقول والمقبول فإن للدكتور حســن ميــزة عــلى "التنويريين – المتغربين".. فهو داعية لاستقلالنا الحضارى، ومناضل ضد التغريب والإلحاق الحضارى والتبعية. ومن هنا يتحول بالخطاب إلى المؤلــف ويســأله من موقع الود والأمل: إذا كنت تجرد الإسلام من محتواه الدينى والإلــهى.. ألا يســهل هذا على "التغريب" مهمة الاحتياج لهذا الحصن المنيع الذى حفــظ ويحفظ لنا وعلينا الاستقلال ويضمن لنا الاستعصاء على التبعية والذوبان؟! إنــك حولــت إســلامنا إلى عــلمانية وإلحــاد.. فما الذى يبقى مميزاً لعقيدتنا عن الأيديولوجيا الغربية المادية الإلحادية العلمانية؟! وما المبرر إلى التمايز الحضارى عن النموذج الحضارى الغربى؟

إن إطــلاق المفاهيم بلا تحديد يظهر فى استخدام الناقد لمفهوم الأيديولوجية. فالدكتور عمارة الذى خصص فى السنوات الأخير جهداً كبيراً من عمله فى مفهوم العــلمانية يطــلق مفهــوم الأيديولوجيــا على الغرب كلية أو ما يسميه المشروع الحضــارى الغربى وكأن الغرب كتلة واحدة أو أيديولوجيا واحدة، وأن حنفى بعمله أو بحفــره فى العلوم الإسلامية – وهنا تتطابق هذه العلوم عند أصحاب هذا التيار مــع الوحى والعقيدة – يلقى بنا فى أحضان الغرب والتبعية فماذا سيقدم عمارة من

نقـد لعلم الاستغراب، الذى قدمه حنفى؟ هل سيعتبره أيديولوجية علمانية أو تحقيقاً للاستقلال الفكرى ضد الغرب استجابة لدعوة الود والأمل؟

إنـنا نتجنب أن نعقب على المواقف النقدية المختلفة مرجيئن ذلك إلى تعقيبنا الخـتامى لكنـنا نود أن نشير إلى خاصية مهمة تسود معظم كتابات أصحاب هذا الـتيار هى توظيـف انتقادات ممثلى التيارات الأخرى فى عملهم خاصة نقد فؤاد زكـريا الذى يشير له أحمد خضر (العدد ٩٠١ ص٣٩) ومحمد إبراهيم مبروك فى كـتابه "مواجهة المواجهة" وكتبه الأخرى كما يستخدم نقد هانى سليمان ذا التحليل الماركسـى الذى قدمه فى مجلة الفكر المعاصر تحت عنوان "التناقض والبراجماتية فى التجديد والترديد فى الفكر الدينى" (العدد ٦٤ يونيو ١٩٦٧)- دون أن يشير إلى صـاحبه فيجمع فى عمله (حسن حنفى) بين الماركسية والبراجماتية. "فالرؤية التى تحكـم نظرة الدكتور حسن حنفى إلى الإسلام هى رؤية مادية صرفة (ص٢٠٦)، وأهـم ما يميز فكر الدكتور هو وضوح منهجه البراجماتى (نفس الصفحة) ومادية الدكتور حنفى تطبع على كل شىء ماركسية معلنة لا خفاء فيها" (ص١١٠)، فهو يعمل على علمنة كل ما هو إسلامى ثم على ماركسته فى خطوة تالية" (ص١١٢)، فاليسـار هنا لدى معظم كتاب هذا التيار يعنى الماركسية، ويعنى التغريب ومن هنا يجـد أصـحاب هذا التيار قضايا فى فكر حنفى تستعصى لديهم على التحليل وهو عـدم توافـق قولهم بماركسية حنفى أو تحليلهم لتأييده للغرب مع نقد حنفى للتراث الغربى "وأغرب ما فى الأمر أن موقف الدكتور حنفى فى تحليله الماركسى للحقائق الدينية أو فى منهجه البراجماتى فى إقامة مشروعه القومى يتناقض تماماً مع موقفه مـن التراث الغربى وظاهرة التغريب بوجه عام" (ص٢٠٩). لماذا لا يجد أنصار هـذا التيار تفسيراً لذلك؟ وما حقيقة القول بماركسية كتابات حنفى لنتحول إلى اتجاه نقـدى آخـر يقـف على الضد تماماً لما عرضناه هو اتجاه أنصار المادية الجدلية والتحليل الاجتماعى لنتعرف على نقدهم الموجه لصاحب التراث والتجديد.

ثالثاً – التراث والتجديد مثالية سلفية أصولية ظلامية :

نقـد أراد أصحاب هذا النقد – والذى يمثل أصحابه الجناح الثانى من أجنحة الأمـة عند حنفى بينما يمثل أصحاب التيار السابق الجناح الأول – تقديم نقد للجزء الـثانى مـن "اليسار الإسلامى"، وهو ما يطلقون عليه سلفية أو أصولية أو ظلامية

حســن حنفى، كما كتب الباحث الأردنى ناهض حتى فى دراسته التى أراد بها كما يخـبرنا فى تصـديره القيـام بمهمة عاجلة، ألا وهى تقديم دحض مدعم لأفكار د. حســن حنفى وهو ما يمثل خطوة ضرورية على طريق العمل ضد الظلامية (ص ١٢)، فيعـرض للمشـروع الحنفى للأصالة والمعاصرة: إطار تاريخى فى الفصل الأول؛ موضحاً أن المشروع تمكن من طرح نفسه فقط على أرض تأزم المشروع الناصـرى وتراجعه، وكان استمرار هذا التراجع شرط ازدهار المشروع الحنفى" (ص١٨) ويحـدد لـنا فى الفصل الثانى معنى قضية الأصالة والمعاصرة، وبعض أوجـه طرحها فى الفكر العربى المعاصر (ص٣٥-٥٧) ليقدم لنا المشروع الحنفى للأصالة والمعاصرة فى الفصل الثالث موضحاً أن ما يسعى إليه د. حنفى هو تأكيد المشروع السلفى بإعطائه تأصيلاً نظرياً ومنهجاً محكماً ليس إلا (ص٦٠) المشروع الحـنفى ينـتمى فى إطاره العام إلى السلفية الحديثة، حيث المنطق الأساسى الذى ينهض عليه هو منطق تجديد التراث.

هذه هى الرؤية التى ينطلق منها حتر وكل أنصار المادية الجدلية، وخطورة حنفى عندهم تأتى فى الأساس من قدرته الفائقة والخارقة أحياناً على تدعيم السلفية بالأسـس النظرية والمنهج. ومن هنا يخصص حتر الباب الثانى من كتابه للأصول الفلسـفية والمـنهج فى فصول ثلاثة من الرابع حتى السادس يعرض فيها "المنهج الشعورى الاجتماعى – الذى يعد عنده (عند حتر) – تأليف ما يأتلف". والغريب أن الـباحث الماركسى يناقش فينومنيولوجية حنفى اعتماداً على مطالعته لمقالة مارفين فاربر "علم الظواهر" ضمن كتاب جونز: "فلسفة القرن العشرين" دون الاعتماد على أى مـن مصادر الفلسفة الفينومينولوجيا أو (الظاهريات) وليس – كما كتب الناقد – الظواهـر، ليبين لنا أن إحلال حنفى مضمون الوحى الإسلامى محل الماهيات غير ممكـن ظواهريا، يقول: "الوحى الإسلامى لا يمكن أن يكون محاثياً للوعى حسب المـنهج الظواهرى، وبالتالى فإن المنهج الظواهرى لن يستطيع خدمة أغراض د. حـنفى فى إيجاد تأصيل معرفى للوحى الإسلامى، أى منح هذا الوحى يقيناً فلسفياً". (ص٧٣) لـذا فإنـه يضيف – وكأن ما قرره ناقدنا حقيقة مؤكده – أن حنفى يدعم الـوحى الإسلامى (والأصوب أن يقول يدعم المنهج الشعورى) بدعامة أخرى هى دعامة تاريخية وهو أمر مناف للمنهج الظواهرى. (ص٧٤).

ولأننا نكتفى فقط ببيان موقف الناقد فلن نتحول إلى مناقشته فنحن نعرض للقضايا التى توقف أمامها أصحاب المادية التاريخية فى كتابات حنفى ومنهجهم فى تحليلها ونقدها. ولكننا نتساءل ألا يمكن أن نعتبر ما يقوم به مفكر عربى، أو مفكر ما بتطوير للمنهج الظاهرياتى وتدعيم بحيث يصبح قابلاً للتطبيق على موضوعات أوسع مما طبقه فيه صاحبه وتلاميذه، ويقدم لنا ما أطلق عليه حتر "المنهج الشعورى الاجتماعى" أو ما أطلق عليه حنفى فى ترجمته لكتاب سارتر "تعالى الأنا موجود اسم الفينومينولوجيا الحضارية، وهو عمل لم يرجع إليه الباحث" ألا نعد ذلك إضافة حقيقة للمنهج الفينومينولوجى، ويكون السؤال التالى هل يمكن تطبيق هذا المنهج على ظاهرة الوحى وعلى تحقيقها فى التاريخ؟

لنلاحظ اللغة العلمية الراقية التى يستخدمها الباحث : خلطة الدكتور حنفى الفلسفية إذن، وهى الخلطة المسماة "بالمنهج الشعورى الاجتماعى" غير انفعالات شخصية فردية يصر الدكتور حنفى مع ذلك على اعتبارها معيار الحقيقة. إنها هلوسة كاملة تعدو "الخطابة" معها شيئاً متماسكاً ومعقولاً" (ص٨٥).

يخبرنا الباحث فى صفحة ٨٣ أن المنهج الذى يستخدمه حنفى لا يستطيع خدمة أغراضه ويعود بعد ذلك ليقول "إن التحليل الحنفى بالطبع، يمكن أن يكون اقتراحاً ذا جدوى واقعية بالنسبة للحركة السلفية فى صراعها الأيديولوجية مع الحركات الاجتماعية السياسية الأخرى" (ص٩٣) ولم يفسر لنا كيف يكون منهجاً غير قادر على تقديم يقين نظرى أن تكون له جدوى في الصراع ضد الحركات الاجتماعية الأخرى – التى لا شك تمتلك أساساً نظرياً قوياً؟

إن موقف حتر وهو الموقف الذى سنجده فى كتابات أنصار هذا التيار هو "أن التنكر لموضوعية التراث، أى إنكار كون هذا التراث نتاجاً موضوعياً لبنية مجتمعية تاريخية، هى بنية المجتمع العربى الإسلامى فى العصر الوسيط، وإصراره على أن التراث مجرد ظاهرة شعورية، يقود عملياً، إلى إقصاء التراث كلياً، بإقامته جدار من الوهم بين الحاضر وبينه" (ص١٢١). ومن هنا فهو يحكم عليه الحكم الماركسى التقليدى بالمثالية، فكل من يخالف القوالب المادية الجدلية فى التفكير هو مثالى "إن الدكتور حنفى يقف فى صف المثالية، وهو يقف بصورة خاصة وراء هوسرل، أى أنه "يتحزب حيث لا أحزاب" والأمر أن المرء بالنسبة

للدكتور حنفى يكون "متحزباً حيث لا أحزاب" فقط إذا كان متحزباً لمعسكر المادية" (ص١٥٨).

ومن المهم أن نعرض للنتائج التى توصل إليها الباحث فى نهاية بحثه والتى تحدد لنا موقفه، أى المانيفستو "الحترى" فى أربع نقاط.

أولاً : أن المشروع الحنفى يفشل تماماً فى إعطاء أى تأصيل فلسفى أو منهج محكم للمشـــروع السلفى، ولا يستطيع فى ضوء اقتراحاته المنهجية أن يخرج عن موقف الأنا وحدى.

ثانيـــاً : أن الخطة الحنفية لتّجديد التراث عدا كونها متهافتة نظرياً فهى تكشف عن موقف عدمى تجاه التراث.

ثالـــثاً : أن الدكتور حنفى بعكس ادعاءاته "متحزب" لمعسكر المثالية – الإيمانية فى الثقافة الغربية ضد المعسكر المادى، وأن الرفض الحنفى للتراث الغربى هو فى واقـــع الأمـــر رفـــض لجانب واحد من هذا التراث هو الجانب المادى العقـــلانى العلمانى، ولكنه يكشف أيضاً وأساساً عن تورط الدكتور حنفى فى تـــرويج الإدعـــادات والأيديولوجيـــة البورجوزية الإمبريالية، وبالتالى فهو يخـــوض نيابـــة عـــنها صـــراعها الأيديولوجى ضد حركة التحرر الوطنى (هكذا)!.

رابعـــاً : تكشف الدلالات الأيديولوجية للمشروع الحنفى ونتائجه السياسية عن كونه يقـــدم نفسه (المشروع الحنفى) باعتباره خادماً الأيدلوجيا لكل من الرأسمالية الكولينالية فى البلدان الإسلامية التابعة وللثورة المضادة فى البلدان الإسلامية الاشتراكية والمتحررة.

ونـــترك الـــباحث الـــذى حمل المشروع الحنفى (كما يطلق عليه) كل هذه المسؤليات الجسام وجعل منه مناضلاً ضد التحرر الوطنى فى هذه الخطوة التى قام بهـــا ضد دحض الظلامية. ونهمس له أن يكون أكثر نضالاً فى خطوته التالية التى نرجو لها أن تنهض التحرر الوطنى من عثرته.

وأتوقف أمام المقولات الرئيسية التى جعلها محوراً لعمله وهى سعى حنفى لتقديم منهج فلسفى لتدعيم الفلسفة وهو المنهج الشعورى الاجتماعى الذى استعاره أو قام بتكوينه من خلال خلط هوسرل وهيجل وماركس، وأن هذا المنهج متهافت تماماً ومع هذا فهو مسئول عن كونه بمفرده يقف أمام كل حركات التحرر مؤيداً ومدعماً للإمبريالية والرأسمالية لتحقيق التبعية. وعلى الرغم من أن جميع نقاد حنفى من الماركسيين لا يصلون إلى ما وصل إلينا رسولنا ضد الظلامية – كما سيأتى لاحقاً – إلا أن تحليلاتهم لم تلتزم كما فعل بتطبيق مقولات جاهزة جامدة لا تستقرئ تاريخنا السياسى الاجتماعى – أشار حتر بإيجاز للإطار التاريخى. (ص ١٧-٢٢) – ولم يرجع إلى تاريخ الفكر الفلسفى ومذاهبه وتيارات من مصادرها الأساسية، بل إن تحليله لحنفى فى كتابه – الذى كان أصلاً أطروحة للماجستير لم يعتمد سوى أربعة كتب ومقالتين دون الرجوع إلى بقية أعمال حنفى. إن القراءة السريعة لتاريخ الفلسفة وتطبيق المقولات المادية بشكل ميكانيكى، تلك السمة التى نجدها لدى حتر، والتى تمتزج مع لغته العلمية الراقية التى أشرنا إليها تختفى لدى غيره من الباحثين الأكثر عمقاً – وبعضهم متخصص فى علوم إنسانية غير الفلسفة – وعلينا أن نشير إلى تحليلاتهم والقضايا التى عالجوها بإيجاز فى بقية هذه الفقرة.

يقدر د. محمود إسماعيل الباحث فى سيسولوجيا التاريخ الإسلامى مواقف حسن حنفى الوطنية فى نقده له فى "القراءة الأيديولوجية للتراث العربى" فى الإسلام السياسى بين الأصوليين والعلمانيين، والدراسة أصلاً هى تحليل نقدى لكتاب محمود أمين العالم "الوعى والوعى الزائف فى الفكر العربى المعاصر" والعالم نفسه على الرغم من اختلافه الجذرى مع أطروحات حنفى يقدم لها تحليلاً اجتماعياً تاريخياً عميقاً جاداً، ويرى فيها "حساً جدلياً وإدراكاً موضوعياً بل ومنهجاً علمياً عقلياً بل استبصاراً ورؤية تاريخية " (ص٢٥)، وقد حلل العالم عمل حنفى واعتبر "التراث والتجديد" ثورة فى الدراسات الإسلامية وجعل من صاحبه فيلسوفاً إسلامياً وليس مجرد مجدد أو مصلح دينى وذلك فى دراسته "الفكر العربى المعاصر فى مواجهة التراث والتجديد".

يناقش محمود – عمل العالم ويتوقف أمام تقيمه للسلفيين الجدد، ويرى أن الهدف المعلن لهذا التيار هو الخروج من التبعية الابستمولوجية للغرب وذلك

بالعودة إلى التراث، لكن حصاد معرفة منظريه المثالية الانتقائية تجعل منه سلفيين تقليديين، ذلك في رأيه جعلهم يرفضون الفكر الغربي بتياراته ومدارسه وأيديولوجياته المختلفة المتصارعة رفضاً قاطعاً دون تمييز بين ما هو عقلاني "هيوماني" وما هو تبريري نصي "شوفيني"، ودون تمييز بين التجارب الاشتراكية ونقضيتها الإمبريالية التسلطية، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يطرحون البديل المقابل المتمثل في "إحياء إيجابيات التراث". هذا ما يأخذه صاحب سولوجيا التاريخ الإسلامي على السلفيين الجدد الذي يرى في حنفي أهم أعمدة هذا التيار.

وبعد أن يناقش العالم في تقييمه لحنفي ويرفض هذا التقييم إلا أنه يستدرك بأن في جهد حنفي واستمرارية نضاله ومواقفه الجسورة والنبيلة المنحازة لقيم العدل والحرية إبان السبعينات بالإضافة لشخص حنفي وعلمه الغزير ودماثة خلقه وتواضعه هي الأسباب الحقيقية التي تبرر حكم العالم على حنفي. ومقابل ذلك يرى أن معالجات حنفي تبريرية دفاعية عن النصية ودفاعه خطابي مفرغ من "التاريخانية الاجتماعية" لا يقوى أمام أوليات وبديهيات المنهج العلمي ولا يرى مثل العالم أن منهجه أقرب إلى الفينومينولوجيا بل هو أقرب ما يكون للبنيوية. ودون أن يحدد لنا أحكامه، ويوضح لنا أين تحتفي الفينومينولوجيا وأين تظهر البنيوية، أو يعرض لأعمال حنفي نجد نوعاً من الازدواجية في نظرته وتتبع هذه الازدواجية إلى توقف محمود إسماعيل أمام ما يسميه كتابات حنفي في الستينات خاصة نقده الديني. بل إننا نجد دفاعاً عن حنفي ومواقفه يدفعان الباحث التاريخي إلى محاولة تقديم تفسير سيكولوجي أقرب إلى التحليل النفسي لما يسميه هروب حسن حنفي كمثقف مرهف في فترة تراجع المد الوطني. بل يرى في عكوف حنفي على مشروع لقراءة التراث في أصوله الأولى لإتمام رسالته في تغيير العالم عن طريق الارتقاء الطفرى بالبشرية قدماً، مبرراً لعدم تحليل عمله مكتفياً – كما يقول بإعطاء بعض النماذج التي تؤخذ على حنفي ، لكنها تبين في الوقت نفسه إنجازاته.

* ففي الوقت الذي يصب فيه جام غضبه على الماركسية لم ينس الإشادة بأهمية رؤيتها ومنهجها في تناول التراث.
* وفي الوقت الذي يرفض فيه قصور العقل كأداة للمعرفة ينتقد ما في التراث من روايات أسطورية أو ثيولوجية حتى لو تعلق الأمر بالعقيدة الإسلامية.

* وفي الوقت الذى يكرس إنتاجه للسلفية تصرخ كتاباته بالدعوى للشورى والحرية والعدالة الاجتماعية.

إن حســن حنفى عند الناقد التاريخى كسب كبير لقوى التنوير والتقدم وذلك إن ارتد عن ردته ، أى بتخليه عن الجانب الأول فى الأمثلة التى أشرنا إليها الآن. يـــريد محمود إسماعيل أن يتحول من البنية للتاريخ، فهو يرى فى جهد حسن حنفى مرحلــتين تاريخيتين الأولى فترة الستينيات والثانية هى ما تلى ذلك، وهو إذا كان يـــرفض المرحــلة الثانية على الرغم من تبريره ودفاعه عن الأسباب التى دفعت حــنفى إليهـــا إلا أن معالجته لها – إن صح أنه قدم لنا معالجة فهى نفسية وليست تاريخية، وكم كنا نتمنى أن يقدم التاريخى الكبير تحليلاً تاريخياً لكتابات حنفى لفترة الســتينات وكذلك تحليلاً تاريخياً اجتماعياً لكتاباته بعد ذلك. ونعتقد أن أعمال حنفى المختــلفة خاصـــة عــن الدين والثورة فى مصر تحتاج إلى قراءة تاريخية تتجاوز الإشـــارات الموجزة التى تناولها بها محمود إسماعيل عمل حنفى فى سياق تحليله لكتاب محمود أمين العالم.

ويســـهم الشـــاعر والباحث رفعت سلام بتقديم نظرية نقديه منهجية فى كتابه "بحــثاً عن التراث" القاهرة ١٩٩٠، حيث يخصص الفصل الثالث للتراث والتجديد تحــت عنوان تجديد التراث شرط النهوض" فهذا العمل يمثل عنده صرخة فى وجه تدهور وضعية الإنسان العربى الراهنة، صرخة ضد الخلل الكامن فى بنية المجتمع العـــربى، والــذى قــاد إلى التدهور الحالى. إنه بمعنى ما رؤية للتدهور ومشروع للخروج، ومن ثم فهو فى اكتماله مشروع للنهضة الشاملة. وسلام يبحث عن رؤية لــلعالم فى العمـــل لكــنه مثل معظم من تعرضوا لأطروحات حسن حنفى يعترف بصعوبة هذه المهمة نتيجة لأختلاط العديد من الأفكار والتصورات المطروحة كما يقول، بل وتضاربها أحياناً إلى الحد الذى يصبح معه استخلاص نسق فكرى متسق أمـــراً عســـيراً. إلا أنه يتعمق العمل بحيث يرى خصوصية تجعلنا نعتبر ما يقدمه حــنفى يمـــثل نسقاً خاصاً ينطوى على آلياته المتميزة. إن سلام لا يريد أن يطبق مقولات جاهزة يفرضها على العمل مسبقاً بل يستخلص منه روية صاحبه.

ويـــرى أن رؤية حنفى تبدأ من تفسير الحضارات عن طريق الوحى فيسهم انطلاقاً من تفسير برستيد للحضارة المصرية القديمة فى بيان العلاقة بين الحضارة

والديـــن ويخرج من ذلك إلى أن الدين انعكاس لواقع مادى وتعبير عنه، وأن البناء الشـــعورى هو أحد تعبيرات ونتائج العلاقة بين الإنسان والعالم المحيط بما هو بناء إنسانى إجتماعى. ويرى أن حسن حنفى إذا كان يقر بوجود أبنية اجتماعية وسياسية فـــإن توحيدهـــا فى الأبـــنية الشـــعورية لا يلغيها أو يبطل وجودها، بل تظل قائمة موضـــوعياً مستقلة عن تلك الأبنية الشعورية، ومن ثم يظل تأثيرها الفاعل فى هذه الأبنية الشعورية قائماً دون انقطاع" (ص ٩٠).

وكمـــا يفيـــض فى تحليل الدين المصرى القديم يؤسس على معرفته الوثيقة بالشـــعر العـــربى الحياة الدينية والمعتقدات المختلفة السابقة على الاسلام ليتفق مع حـــنفى فى القـــول بأن الوحى جاء قديماً على تراث سابق أخذه وطوره إلى مرحلة جديـــدة. وفيهـــا أن أهـــم مايميز التراث حركته وعدم ثباته. فالوحى قد تغير طبقاً لحاجات الواقع والتشريع يتغير طبقاً لتغيرات العصر" (ص ١١١). لكنه يرفض أن يكـــون هـــذا التراث جوهر الواقع وعلته الفاعلة الأولى (ص ١١٢)، ويتابع سلام قواعد حنفى للتجديد الذى يفترض فيه أساسيين مادى وفكرى، منتقداً إهدار أساسها المادى والاكتفاء بالأساس الفكرى.

ويقـــدم لنا فى الفقرة الرابعة والأخيرة من دراسته "رؤية عامة" للعمل، يراه فى بنيـــته نســـقاً مثالياً مكتملاً مع نظرات مادية متناثرة، لا تشكل كلاً أو نسقاً ما يمكن حذفها دون أن يصيب النسق المثالى خلل بنيوى. كما يتسم هذا النسق المثالى ــ كســـمة أولى ــ بالديـــنية. فـــالدين بداية مطلقة للتاريخ والعالم ومصدر الوجود الاجتماعى الفاعل (ص ١٣٣)، وينحصر التراث بالتالى فى التراث الدينى الصادر عـــن القرآن والسنة. ويمثل النص الدينى مطلقاً يتحول إلى أصل للحضارة العربية الإســـلامية حيث تغيب القوانين الموضوعية لحركة العالم والظواهر ويتم استبدالها بقوانيـــن ذاتية ذهنية (ص١٣٦). والخلاصة تحول المشروع (التراث والتجديد) إلى أداة دعم للقوى السلفية الرجعية ضرباً لكل حركات التقدم الاجتماعى والفكرى، مع فقـــرة ختامية ترى فى التراث والتجديد شاهداً على الفكر الإصلاحى الدينى العربى ومؤشر مضئ على تطوراته التالية فى هذه الحقبة العصبية من التاريخ العربى.

رابعاً: تأويل التلوين وتلوين التأويل :

نتـــناول فى هـــذه الفقرة الختامية النقد الذى قدمه د. نصر حامد أبو زيد فى دراســـته "الـــتراث بين التأويل والتلوين قراءة فى مشروع اليسار الإسلامى". وقد ترددنا فى تحديد مكانها فى هذه الدراسة هل نضعها فى نهاية الفقرة السابقة كامتداد لها، أو نجعلها فقرة مستقلة؟ وعلى الرغم من أن النقد الذى يوجهه الناقد لا يختلف مـــن حيـــث المبدأ عما جاء لدى أصحاب النقد التاريخى الاجتماعى، إلا أن دراسة نصـــر تختـــلف عما سبقها فى عدة أمور. أولها أنها تنطلق من نفس الأرضية التى ينطـــلق مـــنه عمـــل حسن حنفى، وتسعى إلى الهدف نفسه، وهى تمثل نقداً داخلياً "للتراث والتجديد" وليس نقداً خارجياً له. وهى ثانياً تضع التراث والتجديد فى سياقه الـــتاريخى الاجـــتماعى، وهى ثالـــثاً دراســـة علمية، ليست دينية ولا سياسية، ولا تســـتهدف ســـوى الوصف والتحليل والنقد وليس التشهير والتجريح والتفكير. فهى جهد علمى لأحد أساتذة الدراسات الإسلامية بجامعة القاهرة.(*)

ويهمـــنا فى الـــبداية أن نعرض للدراسة ثم نتوقف لتحليل أهم ما قدمته من انـــتقادات. يقـــدم لـــنا الـــناقد فى البداية تحديداً وتعريفاً للمفهومين المستخدمين فى الدراســـة: التأويل والتلوين اعتماداً على المصادر الأساسية فى الدراسات الإسلامية فيقـــف عـــند الدلالة اللغوية والدلالة الاصلاحية للتأويل مميزاً بين التأويل المحمود المستند إلى علوم القرآن، والتأويل المذموم أو المستكره والذى يقصدون به التأويل الشـــيعى بصفة خاصة، ويرى أن التركيز على دور القارئ وعلى آليات القراءة قد أدى إلى نمـــو نزعة ذاتية تهدر بدرجات متفاوتة الملابسات والحقائق الموضوعية سواء ما يرتبط بالنصوص الأدبية أم ما يرتبط بسواها من النصوص، وعلى رأسها نصوص التراث الإسلامى، موضوع قراءة اليسار الإسلامى.

(*) وقـــد قدمت هذه الدراسة فى الندوة السنوية للجمعية الفلسفية عام ١٩٩٠ ونشرت بمجلة "ألف" التى تصدر عن الجامعة الأمريكية العدد العاشر عام ١٩٩٠ ثم فى كتاب "نقد الخطاب الدينى" المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٤.

وهـــو يرجع التلوين إلى النزعة الذاتية النفعية فى التعامل مع النصوص أو الظواهـــر، والنزعة الوضعية الشكلية التى تخفى توجهاتها الأيديولوجية تحت شعار "الموضوعية العلمية" والحياد والمعرفى. (ص ٨١).

يهدف الناقد إذن إلى تحليل "التراث والتجديد" انطلاقاً من فهمه لمعنى التأويل إجابة عن سؤال هل استطاع هذا العمل أن يقدم لنا قراءة منتجة تأويلية للتراث أو على العكس من ذلك يقدم قراءة مغرضة تلوينية بسبب النزعة الذاتية النفعية الناتجة عن منهج المؤلف والنزعة الوضعية الشكلية التى تدعى المعرفة العلمية بينما الدافع إليهـــا الـــتوجه الأيديولـــوجى؟ وعـــلى الـــرغم مـــن أن المؤلف لا ينفى توجهاته الأيديولوجيـــة، بـــل يعترف بها فإن الناقد الذى يحلو له أن يطلق على عمل حسن حـــنفى "مشـــروع اليســـار الإسلامى" ــ وهى تسمية لعمل أيديولوجى فى الأساس موجـــة للقارئ العام والقارئ المثقف تختلف عن ما يقوم بتحليله الناقد بالفعل وهو "الـــتراث والتحديد"، خاصة فى القسم الأول منه "من العقيدة إلى الثورة"، وهو كما أشـــرنا عمـــل يختـــلف لغة وتوجهاً وغاية عن اليسار الإسلامى فى كونه محاولة للتعامل العلمى مع علم الكلام الإسلامى.

وهـــذا التمويه المتعمد فى اختيار عنوان لجهد حنفى ــ يختلف عن مضمون العمـــل موضـــوع الدراســـة ــ يســـاعد الناقد فى وصف التراث والتجديد بالتوجه الأيديولوجى (الواعىأو غير الواعى) لصاحبه مقابل جهد الناقد الذى ينحو فى عمله مـــنحى ابســـتمولوجى معـــرفى يهـــدف (إلىالتأسيس العلمى، أقول فى هذه النقطة بالـــتحديد تظهر السمة الأيديولوجية للناقد الابستمولوجى كما تظهر القراءة التلوينية المغرضة لعمله.

لـــنرى معـــا كيـــف تم تلوين التأويل. يعى الناقد جيداً جهُد حنفى، فهو من الباحثين الجادين المثابرين على قراءة وتحليل عمله يتابع كتاباته جيداً، ويتناولها فى ســـياقها الفكـــرى والـــتاريخى حيث ارتبطا معاً فى اهتمام علمى جاء بالدراسات الإسلامية. فقد درس الناقد على المؤلف وتتلمذ له، وأراد أن يكمل جهده، لكن على

طريقــته أو انطلاقــاً من منهجه، لقد أراد أن ينطق المؤلف بما يريد هو أن يقوله، ومن هنا جاءت قراءته المغرضة حيث يريد تقديم قراءة منتجة.

يســمى صــاحب"الــتأويل والتلوين" التراث والتجديد باسم اليسار الإسلامى واضــعاً إيــاه فى إطــار الخطاب الدينى، وهو تناول يفقد جهد حنفى أهم سماته، فــالمؤلف يقــدم لــنا خطاباً فلسفياً مصاغاً بلغة القدماء، خاصة علماء الكلام حيث يعــرض لــنا جهده التجديدى فى لغة تراثية ينتقده بسببها باعتبارها نوعاً من التقية بيــنما هى عند صاحبها مرحلة انتقالية يستخدم فيها لغة علماء الدين من أجل فض الاشــتباك مع القدماء حتى يتسنى له تقديم نظريته فى التفسير، أو تنظيره المباشر لــلواقع، فــالمؤلف هــنا لا يقــدم لنا خطاباً سياسياً ولا دينياً ولا تحليلاً للمشكلات المعاصرة بل هو تحليل علمى للتراث- انطلاقاً من منهجه- وليس كما يحلو للناقد أن يطلق عليه مشروع اليسار الإسلامى.

فمصــطلح "اليسَــار الإسلامى" أطلق فى الثمانينيات طرحه حسن حنفى فى العــدد الأول- والوحيــد- من المجلة التى صدرت إحياً لتقاليد العروة الوثقى التى كان يصدرها الأفغانى ومحمد عبده. والناقد على وعى بذلك، وأشار إلى هذا مرتين (ص ٨٣- ٨٥)، إلا أنه مع ذلك يضع جهد حنفى العلمى تحت هذا الإطار. ويهمنا أن نــبين آليات الإخفاء والإظهار التى يلجأ إليها الناقد ليقدم لنا تفسيره لجهد حنفى فى إطــار أيديولــوجى، يقول: أصدر [حنفى] العدد الأول والوحيد- والذى حرره تقريــباً- مــن اليسار الإسلامى ١٩٨١ وقبل ذلك بعام واحد كان قد أصدر مخطط اليســار الإسلامى تحت عنوان "التراث والتجديد"، وهو المخطط الذى صدر جزؤه الأول عــام ١٩٨٨ فى خمســة مجــلدات بعنوان "من العقيدة إلى الثورة" موضوع تحليلنا الأساسى فى هذه الدراسة (ص ٨٥).

يربط الناقد بين صدور اليسار الإسلامى كتأكيد وجود وتحديد هوية فى بداية الثمانيــنيات وبيــن كونــه إعــادة ترتيب للأوراق وتنظيم للأولويات فى مواجهة المخاطر التى يتعرض لها على المستويين السياسى والأيديولوجى.

ونستطيع أن نسعى محاولة صاحب التأويل والتلوين فى اتجاهين أساسين الأول ربط جهد حنفى- الذى نسميه باسمه، وهو "التراث والتجديد"- بالأحداث التاريخية التى واكبت صدور العدد الأول من اليسار الإسلامى ليصبغه بسمة سياسية. والاتجاه الثانى الفصل بين التراث والتجديد وبين البدايات الأولى له التى تمثلت فى دراسات حنفى الثلاثة بالفرنسية- مناهج التفسير: دراسة فى علم أصول الفقه، تفسير الظاهرات- وتحويله إلى مخطط لليسار الإسلامى، مع أن اليسار الإسلامى كان استجابة للواقع السياسى لمصر والعالم الإسلامى كما يشير الناقد بحق، بينما التراث والتجديد كان منهجاً لعمل علمى انخراط فيه حنفى منذ دراسته للدكتوراه عن علم أصول الفقه، وهذا المدخل المنهجى الذى يمتد لسنوات طويلة سابقة على اليسار الإسلامى لا ترد به أية إشارة لليسار الإسلامى. ومع هذا فإن الناقد يصر على وضع التراث والتجديد داخل إطار اليسار الإسلامى على الرغم من اختلافهما المشار إليه، وعلى الرغم من إصرار المؤلف على التأكيد على أن اليسار الإسلامى نوعا من الكتابات الشعبية الموجهة للجمهور العام الذى يختلف عن العلماء المتخصصين. فى هذا الإطار يصبح تجديد التراث هو قضية القضايا، وهو الأولوية الأولى فى مشروع اليسار الإسلامى، بل هو إبداعه الأصل وإسهامه الأكبر. ولأن المشروع كله يبدأ من منحى توفيقى؛ ولأن كل منحى توفيقى يجنح إلى إعطاء التراث أولوية وجودية ومعرفية على التجديد المنطلق من آفاق احتياجات اللحظة الحضارية الراهنة. (ص ٩١). لكن هذه الأولوية سرعان ما تتكشف عن أولية "استثمارية، استغلالية لغايات نفعية عملية، ويصبح الوجود السابق للتراث فى الزمان وجوداً مرهوناً بما يمكن أن يقدمه لنا من نفع، بصرف النظر عن دلالته الذاتية، أى فى سياق وجوده التاريخى. (ص ٩١).

يهدف الناقد إلى نقل اليسار الإسلامى من التوفيقية التلوينية إلى الموضوعية التأويلية. وإذا كان "من العقيدة إلى الثورة" يضاهى من حيث الحجم مؤلفات القاضى

عــبد الجبار المعتزلى فإن دعوة مؤلفه لاختصاره وتركيزه إنما يعنى من منظورنا كشــف المســتتر فى بــنية هــذا الخطــاب سعياً لتطويره وتجاوزه بشكل جدلى". (ص ٩٧).

ويميــز الــناقد تحــت عنوان "التراث: بناء شعورى أم بناء تاريخى"، البناء الشــعورى عــلى عكــس البناء التاريخى، فهو يتعامل مع الفكر عموماً والتراث خصوصــاً على أساس من استقلال الفكر عن الواقع، رغم التسليم بنشأته منه. من هــنا نفهم كثيراً من جوانب تحليلات اليسار الإسلامى للفكر على أساس من مفهوم "الأنمــاط المــثالية" المســتقلة عن التاريخ والواقع إن الفصل بين الفكر والتاريخ، والــنظر إليــه بوصفه أنماطاً مثالية قابلة للتكرار فى كل زمان ومكان يحول علم الكلام الإسلامى إلى علم كونى ويفقده "دلالته" الأساسية النابعة من سياقه التاريخى – الاجــتماعى، الأمر الذى يؤدى إلى وقوع التجديد – اكتشاف المغزى – فى هوة الذاتية التلوينية المتمثلة فى المنهج الشعورى. (ص٩٩) يتحول الموضوع – التراث – عــبر تجلياته إلى جوهر مطلق ويسهم الباحث فى الكشف عن بعض مجالى هذا الجوهــر التى لم يظهرها التاريخ بعد (٩٩) تمثل التجارب الشعورية للباحث نقطة الــبدء فى تحليل الموروث القديم لاكتشاف بنائه الشعورى. فالشعور يمثل الوسيط فى عملية التجديد بين "البناء النفسى للجماهير" و"أبنية الواقع".

إن مــا يعــترض عــليه أبو زيد هنا هو التوحيد الآلى الذى يقوم به منهج الشــعور بين مستويات معرفية يستحيل التوحيد بينها . وأن دافع "التيار الإسلامى" عــن هذا التوحيد أو تبريره له يردنا إلى الطبيعة التوفيقية للمشروع كله، حيث يتم إعلان "منهج الشعور" ليكون منهجاً لتحليل الوعى الاجتماعى".

يتســاءل صــاحب الــتأويل والتلوين إذا كان تجديد التراث يتم وفق المنهج الشعورى فما صورة التراث التى يكشفها المنهج الشعورى التوفيقى؟ ونجد الإجابة فيما كتبه تحت عنوان "التراث" إعادة بناء أم إعادة طلاء؟".

وحيـن يتـناول نصـر أبو زيد التراث والتجديد ابستمولوجيا أو حين يشده المشـروع تجـاه العلم، أى حين ينتقل من الذات إلىالموضوع تظهر جدة انتقاداته وعمقهـا . وتظهـر فى نفـس الوقت الدلالة الحقيقية لعمل حنفى ويقدم لنا الغاية الحقيقية للمشروع، وهى التجديد "التراث والتجديد" وليس "التيار الإسلامى". يقول : "إن مصـطلح الـتجديد" هنا شديد الدلالة فى إحالته إلى مفهوم "إعادة البناء خاصة وأن المصـطلح هـو عنوان المشروع، الأمر الذى يجعل إعادة النباء مجرد طلاء للبناء القديم" (ص١٠٤) وإذا تساءلنا ماذا يقصد بإعادة الطلاء؟

تتمـثل الإجابة فى كون"التراث والتجديد"، هو بقوله : يقول اليسار الإسلامى رغـم وعـوده بالعودة لبناء العلم "علم الكلام" الاعتزالى نحو "عقل الثورة من أجل لاهوت شامل للثورة فقد أبقى على بنية العلم كما صاغتها العصور المتـأخرة على غـرار البـنية الأشعرية. وهذا فى رأيه قد أصاب المشروع كله فى مقتل وسجن التجديد فى إطار إعادة الطلاء أعادة البناء (١٠٤).

إن الإشـكالية الحقيقيـة كمـا يراها نصر هى عجز هذا الخطاب عن إنتاج تحـليل سوسـيولوجى حقيقى لتفسير الوضع المقلوب فى بناء العلم (١٠٥) ويرجع هـذا إلى تحـول المـنهج التاريخى إلى "الشعور التطورى" وإهمال منهج التحليل السوسيولوجى رغم الإشادة به ومن هنا لا يبقى أمامه إلا منهج "الشعور البنائى".

يطالب أبوزيد صاحب التراث والتجديد باتخاذ التحليل التاريخى : الاجتماعى لنشـأة الأفكار وتولدها منهجاً فبذلك يحقق مشروع التجديد ما يسعى إليه من "إعادة بناء العلم" لاكتشاف بعدى الإنسان والتاريخ، وأن ينتقل من بناء العلم الأشعرى إلى بناء العلم الاعتزالى. ويكمن فى إهدار هذا المنهج كثير من تناقضات أحكام اليسار، والوثـب فى قـراءة الحاضر فى الماضى والتلوين فى تجديد التراث لحل أزمات العصر.(ص١١١).

هـنا يفشل مشروع اليسار الإسلامى رغم إيجابياته فى نظر أبو زيد أو هو أقـرب إلى الإخفاق منه إلى النجاح. ويقدم لنا مبررات حكمه هذا فى ثلاثة هى أن

المشروع يسعى إلى التوفيق بين أطراف لم ترصد جوانب الخلاف أو الاتفاق بينها بدقـــة. وهـــو ثانياً يجمد الحاضر فى إسار الماضى ويجعله خاضعاً له ولمعطياته خضـــوعاً شبه تام. وهو ثالثاً يتجاهل السياق التاريخى الاجتماعى للتراث ويتعامل معـــه بوصـــفه بـــناءً شـــعورياً مـــثالياً مفارقـــاً لزمانه ومكانه رغم نشأته منهما. (ص١٢٠).

وكـــاد أن يتحول هدف "إعادة البناء" إلى "إعادة طلاء"، وتحول التجديد إلى تجـــاور بيـــن القديـــم والجديد. ووقع المشروع كله فى التلوين بقدر ما تباعد عن الـــتأويل. (ص١٢٠) تلك إذن صورة نص حنفى فى قراءة نصر بصورة عامة. إلا إنه لا ينسى أن يضيف إلى ذلك بعض الحسنات إكمالاً للموضوعية العلمية والحياد المعـــرفى، فهذا الإخفاق الواضح على جميع المستويات لا يمثل الحقيقة كلها،، فقد انجـــز المشـــروع إنجازات فى دراسةالتراث لا سبيل إلى تجاهلها : ويعدد لنا هذه الإنجازات التى هى موضع نقد الاتجاهات الإسلامية السلفية لكتابات حنفى.

وأهـــم هـــذه الإنجازات الجهد الواضح لمحاولة تأويل العقائد، فهى محاولة مشـــروعة لـــتحويل اللاهـــوت إلى انثربولوجيا. والتعامل معها بوصفها تصورات ذهنية تمثل موجهات للسلوك (ص١٢١). وأن لديه انحيازاً واضحاً لجانب الشريعة على حساب جانب العقيدة فى نصوص الوحى مع أنهما جانبان جوهريان فى بنيته الأصلية.

إن محاولـــة صـــاحب التأويل فى تلوينه لمشروع حنفى يريد استبدال الجهد العـــلمى الابســـتمولوجى الـــذى يقدمـــه حنفى لإعادة بناء علم الكلام القديم بتفسر إيديـــولوجى غيـــر مباشر. إن ما يؤكد عليه أبو زيد من ضرورة الاهتمام بالمنهج التاريخى الاجتماعى فى تفسير نشأة العقائد لهو نفس ما يطالب به النقاد الماركسيين حـــنفى، لكـــن مع طلاء من المغزى والدلالة، النص والسياق التأويل والتلوين. لذا يحـــق لنا أن نتساءل من الذى يؤول ومن الذى يلون؟ إن اختلاف نصر عن حنفى

اخـــتلاف واضـــح، الأول يـــتعامل مع اليسار الإسلامى والثانى يتعامل مع التراث والتجديد، الأول يقدم لنا قراءة أيديولوجية والثانى يقدم لنا جهداً معرفياً واضحاً فى مقدمة التراث والتجديد و"من العقيدة إلى الثورة" جهداً موجهاً للعلماء وإن كنا نشعر أنـــه جهد تختلط فيه هموم العلم وهموم الوطن، على العكس من "اليسار الإسلامى" الــذى يصـــر أبو زيد على جعله عنواناً لما أطلق عليه مشروع حسن حنفى، وهو جهــد لا يــندرج فى المشـــروع العـــلمى لحنفى كباحث ومفكر وفيلسوف. ولكن كمواطن. وأعتقد أن من الضرورى ألا نخلط بين الجهد العلمى فى التراث والتجديد والصـــرخة أو الدعوة الإصلاحية فىاليسار الإسلامى مصدرهما واحد، لكن لغتهما ومنهجهما مختلفان.

أميرة مطر :

الدراسات الجمالية العربية المعاصرة

نريد أن نشير فى إيجاز فى مقدمة هذا الفصل إلى بعض الاتجاهات الجمالية فى العـــربية: النفسية والاجتماعية والفلسفية. تمهيد للحديث عن جهود أميرة حلمى الفلسفية فى علم الجمال. رائدة هذا المجال فى العربية، بمعنى أنها من قدمت عدد مـــن الدراسات النظرية الأصيلة حوله كما أعدت جيل من الباحثين المرموقين فى هذا الميدان، مخلصين لهذا الفرع من الفلسفة.

ويمكنـــنا القول أنه إذا كان مصطلح الجمالية، أو علم الجمال يثير العديد من القضايا حول طبيعته ومعناه ومدلوله فى اللغات والثقافات المختلفة بما فيها العربية، واذا كـــانت هـــناك جهود عديدة تحاول رصد الجمالية فى تاريخنا الفكرى لتوضيح جهـــود المفكرين العرب فى العصور الوسطى سواء الفلاسفة كالكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، والفقهاء كابن حزم، أو الادباء كالتوحيدي، أوالنقاد، وعلماء الـــلغة كالجـــرجانى وحـــازم القرطاجنى – ونحن فى أمس الحاجة إلى الدراسة الاســـتطيقية لجهـــود هؤلاء[1]، فإن مهمتنا الحالية تتناول جهود الرواد المعاصرين الذين أسسوا للجمالية ومهدوا لها بكتاباتهم المختلفة سواء بطرحهم القضايا الجمالية، أو تحديـــد الأطـــر الأساسية لدراستها أو استكمال للحلقات المختلفة فى تاريخ الفكر الجمالى.

وقـــد قصـــرنا بحثـــنا فى هذا الجزء الأول من هذا الفصل على الدراسات المعاصـــرة التى قدمت خلال الخمسين عاماً الأخيرة من القرن العشرين فى اطار العـــلوم الإنسانية المختلفة سواء السيوسيولوجيا، أو السيكولوجيا، أو الفلسفة[2]. فى

---

(١) الدراسات الحديثة حول الجمالية عند العرب راجع: د. عبد الرحمن بدوى: حازم القرطاجنى ونظريات ارسطو فى الشعر والبلاغة . القاهرة ١٩٦١ . ومقدمة تحقيق بدوى لكتاب فن الشعر لارسطو، النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٣ ومقدمة تحقيق الشعر من منطق الشفاء لابن سينا. الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٦. الفت محمد: نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين (القاهرة ١٩٨٤).

(٢) سوف نعرض للاتجاهات الأساسية سواء السيسيولوجيا أو السيكولوجية أو الفلسفية وذلك باختيار نماذج من الرواد الممثلين لهذه الاتجاهات . أما بالنسبة للاهتمامات الجمالية فى مجال

إطـــار الجامعة المصرية حيث ازدهرت الدراسة الجمالية الاكاديمية أولا فى مجال السيوســـيولوجيا على يد د. عبد العزيز عزت الذى قدم لنا ما يسمى "علم الاجتماع الجمـــالى"، ثـــم فى مجال السيكولوجيا خاصة فى مذهب يوسف مراد التكاملي. فقد توزعـــت الكـــتابات الجماليـــة بين النقاد، والأدباء وأساتذه الأدب، وعلماء النفس، والاجـــتماع قـــبل أن تـــبدأ الدراسة الفلسفية للاستطيقا، أو يصبح علم الجمال كيانا محـــددا له استقلاليته. سنعرض لجهود الاساتذة أصحاب الاتجاهات الواضحة فى مجـــال الجماليات والذين عرفوا بمواقفهم المتميزة مثل : أميرة حلمى مطر، وفؤاد زكـــريا، وزكـــريا ابـــراهيم، ومجاهد عبد المنعم. وسوف نبدأ أولا بجهود علماء الاجتماع.

أولا : الاتجاه السوسيولوجى (الفن وعلم الاجتماع الجمالي)

يـــرى أنصار هذا الإتجاه ان الفن نشاط جماعى فإذا كان يقال : "إن الفن هو أنا، والعلم هو نحن "فهو يقول إن الفن أيضا هو نحن، فالشعور الاستطيقى ؛حقيقة اجـــتماعية بقدر ماهى حقيقة شخصية"[٣]. ويرى شارل لالو أن هذا المبحث يؤلف مـــن الـــناحية الـــتاريخية أول اشكال علم الجميل. ذلك أن الفن إنما خطى باهتمام الفلاســـفة، أول مـــا حظي، من حيث شروطه، ومن حيث نتائجه الاجتماعية بوجه خاص[٤].

النقد والادب والبلاغة لدى أهم ممثليها مثل : عبد المنعم تليمة والدراسة العلمية للجمال كما يتمثل فى كتابيه مقدمة فى نظرية الادب (القاهرة ١٩٧٦) ومداخل إلى علم الجمال الادبى (القاهرة ١٩٧٨) وجابر عصفور والبحث فى الجهود الجمالية فى التراث البلاغى والفلسفى العربى الإسلامي، ورشاد رشدى وتناوله لجماليات الادب، فإننا نحيل إلى الدراسة الهامه للزميل سامى سليمان فى الجمالية العربية فى النقد العربى الحديث فى مصر، مجلة الفكر العربى عدد خاص عن الجمالية العربية العدد السابع والستون يناير – مارس ١٩٩٢، ص ١٣٤ – ١٤٥ .

(٣) شارل لالو : مبادئ علم الجمال ترجمة مصطفى ماهر، دار احياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٩ ص ١٣٦ .

(٤) شارل لا لو : الفن والحياة الاجتماعية، تعريب الدكتور عادل العوا، دار الانوار ،بيروت، لبنان ١٩٦٦ ص ٥ .

وإذا كـنا نعرض للاتجاه الاجتماعى فى دراسة الفن وعلم الجمال فى الثقافة العـربية المعاصـرة مـتخذين نموذجا لذلك جهد عبد العزيز عزت [٥]. فإنه من الضـرورى ان نشير إلى اسهام د. منصور فهمى فى هذا المجال فهو اول من قام بـتقديم عـلم الجمال فى الجامعة المصرية ورغم كونه استاذ للفلسفة الا ان كتاباته ومحاضراته كانت ذات منحى اجتماعى[٦].

يقدم عبد العزيز عزت فى كتاب "الفن وعلم الاجتماع الجمالى" وجهة النظر السيوسـيولوجية فى عـلم الجمال حيث يبين ان علماء الاجتماع خاصة دوركيم قد خصصـوا فرعا من فروع الاجتماع اسموه "علم الاجتماع الجمالى". ويرى ان ذلك يمـثل نظرية جديدة تعبر عن آخر ما وصل اليه التفكير فى دراسة الفن (١٩٨٤) مقـابل الـنزعات الفلسفية، ويقدم لنا كتابه كبداية وأساس للنظر العربى يبنى عليه غيـره فيمـا بعـد. وعـلم الاجتماع الجمالى كما يسميه دوركيم، او علم الجمال الاجـتماعى كما يسميه «لالو وفلدمان» يعنى بدراسة الفن من الوجهة الاجتماعية مـن حيـث نشـأته وتطـوره، وعلاقاتـه مـع النظم الاجتماعية وغير ذلك من الموضـوعات الـتى تربط الفن بالمجتمع. والفن عند عزت ظاهرة اجتماعية ومن طـبيعة الظاهرات الاجتماعية ان تترابط ويؤثر بعضها على بعض ويفسر بعضها بعضا[٧].

إن الفن عنده ظاهرة اجتماعية بمعنى ان الفن ظاهرة موجودة خارج عقليات الافراد، ومن هنا سيشعر بضرورة قيام الفهم الاجتماعى للفن وتفسير الجمال، وهذا ما قامت به الحركة الوضعية فى فرنسا بفضل تعاليم اوجست كونت.

---

(٥) راجع دراستنا عنه فى مجال التناول الاجتماعى للأخلاق فى كتابنا : الاخلاق فى الفكر العربى المعاصر، الفصل الثانى.

(٦) راجع عنه : مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، العدد الثاني، المجلد التاسع عشر ١٩٥٧، وكتابه : ابحاث وخطرات، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٣ ودراستنا عنه فى الاخلاق فى الفكر العربى المعاصر، دار قباء ، القاهرة، ١٩٩٨.

(٧) د. عبد العزيز عزت : الفن وعلم الاجتماع الجمالي، القاهرة، مطبعة كوستاتوماسى وشركاه، ١٩٤٨- ص ٩ .

وفى عرضه لوجهة النظر الاجتماعية فى الفن بوضح ان هيبوليت تين اول مـــن اجـــتهد فى تحقيـــق هـــذه النزعة فى كتابه "فلسفة الفن" وقدم لنا ما يعرف بالمذهب الطبيعى الاجتماعي، ويتميز هذا الاتجاه بتجاوز فكرة التقييم والقيمة حيث يعتـــبر الفـــن ظاهـــرة اجتماعية على الباحث ان يحدد صفاتها ويبحث عن اسبابها بحيـــث لا تصـــبح مهمة العالم المدح، او القدح، بل الملاحظة والتفسير ويرى ان هـــناك عناصـــر تعطى للفن صفته الاجتماعية وهى البيئة، والجنس، والعصر[٨]. وهذا نفس موقف دوركيم، وشارل لالو[٩].

ويعـــرض للتطور الاجتماعى للفن، ويرى ان علم الاجتماع الجمالى عندما يـــبحث فى تطـــور الفن ينظر اليه من ناحية تحديد الصفات الاساسية التى تحدد لنا الفـــن فى حقـــبة من حقبات تاريخه عند الاقوام المختلفين، فالفن لا يخضع لقانون واحـــد وانمـــا يخضـــع لظروف اجتماعية متعددة تجعله يكون بشكل معين حسب الاشـــكال الاجـــتماعية ونوع الحياة الاجتماعية السائدة. والفنان فى نظر المدرسة الاجـــتماعية شـــخص يمثل العقل الجمعى فى الفن فيصعب ان يكون له وجود فى ذاتـــه، وانما هو صدى للمجتمع فى فنه يعبر عن احاسيس الناس التى يشعرون بها فهو لا يعبر عن الانا" وإنما يعبر عن "النحن"[١٠]، وهذا ما جاءت الدراسة النفسية كرد فعل عليه.

ثانيا : الاتجاه السيكولوجى (الاستطيقا والمذهب التكاملي)

ومن هذه النقطة يواصل يوسف مراد دراساته العديدة التى تقدم وجهة النظر الســـيكولوجية فى الفن فرغم انه يرى تكامل الانا والنحن، أو الذات، والمجتمع، أو مايطـــلق عـــليه "المركـــز والاطار" فان البداية الاعمق والاكثر تأثيرا هو الانا او الداخل، ان العنوان الذى اطلقه كندنسكى على كتابه "الروحية فى الفن" ينقلنا دفعة

---

(٨) د. عبد العزيز عزت : ص ٢٤ .
(٩) عرف شارل لالو لدى قراء العربية وترجمت أعماله فقد ترجم مصطفى ماهر "علم الجمال" الاستطيقا، القاهرة دار احياء الكتب العربية، وترجم د. عادل العوا : الفن والحياة الاجتماعية، بيروت ، د. ت.
(١٠) د. عبد العزيز عزت : ص ٣٠ .

واحـــدة مـــن العالم الخارجى إلى عالم الروح والاحساس الداخلي، فالفن ليس سوى مظهـــر مـــن مظاهـــر القوى الروحية التى تهيمن على التطور والتى تعين نظرة الإنسان الدينية إلى الوجود فى اطواره المتغيره المتعاقبة(١١)، وهذا مانجده أيضا فى دراسته "السريالية فى الفنون التشكيلية" فهو يرفض الموافقة على القول بلا واقعية الســـريالية، ذلـــك ؛ لان هناك نموذجا يلهم الفنان السريالى هو نموذج واقعي، بل أكثر واقعية من اى نموذج آخر نجده فى الطبيعة لانه نموذج داخلى هو رؤيا الفنان مـــن وحى الفنان نفسه – من وحى دوافعه ورغباته اللاشعورية(١٢) فالواقع الداخلى اكـــثر اصـــالة وغزارة من الواقع الخارجي، لانه لا تقتصر دلالة الفنية على القيم التشكيلية البحتة فهناك مضمون إنسانى يعبر عن مكونات نفسية الفنان ويعبر خلال الفنان عن بعض التيارات الفكرية والوجدانيه السائدة فى بيئة الفنان الثقافية(١٣).

ويـــثير قضـــية إلى أى حـــد يلقى اطلاعنا على حياة الفنان ونشأته، طباعه وســـمات شخصيته، واتجاهاته الفكرية، وميوله الوجدانيه الضوء على اعماله الفنية ويساعدنا على فهمها وتذوقها، ويعرض لوجهتين من النظر: الاولى ترى ان معيار الحكم على ما يمدنا به تحليل شخصية الفنان هو تفسير اختياره بعض الموضوعات دون غيرها، ويرى فريق اخر ان علم الجمال عندما يحصر نفسه فى دائرة قوانينه عاجـــز عن ابراز ما يتسم به أسلوب الفنان من سمات اصلية خاصة؛ اذا كنا بصدد عـــبقرى بخلق اسلوبا جديدا. ويرى ان حياة مايكل انجلو ترجح كفة الفريق الثاني، ان فـــن مايكل انجلو تعبير صادق عن نفسه المعذبه عبر عنها فى نحته وتصويره وشعره وفى رسائله إلى أسرته وأصدقائه(١٤).

ويتضـــح مـــنهج يوســـف مراد السيكولوجى – الذى لا يلغى كلية العوامل الاجـــتماعية – فى بحثه "مشكلة الالهام" حيث يستخدم منهجا ثنائيا لمعالجة المشكلة

---

(١١) يوسف مراد : مرور خمسين عاما على كتاب الروحية فى الفن فى :كتاب يوسف مراد والمذهب التكاملي« الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ص ٣٠٥ .

(١٢) د. يوسف مراد : السريالية فى الفنون التشكيلية، مراد والمذهب التكاملى ص٣٠٦ – ٣٠٨.

(١٣) نستطيع أن نقدم نموذج الفنان امتزجت لديه السريالية بالوجودية هو رمسيس يونان، انظر صبحى الشارونى : المثقف المتمرد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢ ص٧١-٧٩.

(١٤) المرجع السابق صفحات : ٣٨٣ – ٣٨٥ .

يتمــثل فى محاصـــرتها من الخارج، ثم الاقتراب تدريجيا من لبها وصلبها بتحليل نفسية الفنان ويرى ان فهمنا الالهام مرهون بفهمنا اللاشعور. ويرى ان حل مشكلة الالهـــام حســب تصوره بدراسة التفاعل الذى يتم بين الحلم والواقع بين الايحاءات المنبــثقة مـــن عـــالم اللاشعور والمجهود العقلى الذى يبذله الفنان فى صياغه هذه الايحـــاءات فى صورة قادرة على أن تحقق التجاوب بين حساسية الفنان وحساسية المتذوق(١٥).

إن شخصية الفنان من حيث هو إنسان هى المركز يعطى لها الاهمية اكثر ممـــا يعـــطى للاطارات التى تحيط بها، فليس العمل الفنى اذن مجرد ترديد لما هو قـــائم فعـــلا فى مجـــتمع الفنان، هو بلا شك افصاح عنه لكنه افصاح يتسم بالجدة والابتكار، فضلا على انه يتسم ايضا بصفه تنبؤيه، وعلى ذلك يكون المحك الفارق هو شخصية الفنان بما تمتاز به من خصائص فردية فريدة(١٦).

وفى اطـــار مذهـــبه التكاملى يناقش قضية "التحليل النفسى والابداع" فالعمل الفنى باعتباره مظهرا من مظاهر السلوك فانه يمكن تفسيره بمفاهيم التحليل النفسى بـــربط شخصـــية الفنان باثره من حيث إنه يعبر بطريقة رمزيه عن هذه الشخصية فـــالعمل الفنى قابل للتحليل والتفسير فى ضوء شبكة العلل والمعلومات التى تكون تـــاريخ الشخص منذ ولادته، وللعمل الفنى كما للاحلام مضمونان : صريح وكامن ومهمـــة التحـــليل النفســـى تأويل الرموز التى يصطنعها الاديب وذلك للكشف عن المضـــمون الكلى(١٧) ويناقش مراد هذا الموقف فمعظم الدراسات التى تمت فى هذا المجـــال كانت اقرب إلى التحليل النفسى منها إلى النقد الفنى والجمالي، حيث ترمى إلى تشـــخيص ســـمات شخصية الاديب، وكثير من البحوث التى قام بها المحللون تقتصـــر عـــلى الانـــتقال من العمل الفنى إلى صاحبه للكشف عن عقده ومكوناته اللاشـــعوريه. ويـــرى ضرورة توسيع مفهوم التحليل النفسى وتجاوز حدود مذهبه المنغـــلق، فبعد ان يكشف الناقد المحلل بعض مصادر الرموز والصور التى ينبض

---

(١٥) المرجع نفسه : ص ٢٧٨ .

(١٦) د. مراد : الاتجاهات الراهنة فى الفن المعاصر، المرجع نفسه ص ٢٧٠ .

(١٧) د. يوسف مراد : التحليل النفسى والابداع، المرجع نفسه ص ٢٧٩ .

بهـــا العمــــل الفنى عليه ان يتتبع تفرع هذه الرموز وازدهارها واثرائها فى مناطق الـــنفس العـــليا، بفضـــل نشاط التخيل المبدع الذى هو اكثر من مجموع العوامل الغريزية والعقلية التى يعتقد انها هى وحدها التى يقوم عليها بناء النفس البشرية.

أن الشـــرط الاساســـى لتصبح مساهمة التحليل النفسى مجدية هو الجمع بين الـــنظرة الاســـتطيقية، والنظرة السيكولوجية، وهذا كفيل بدراسة التفاعل بين شكل العمـــل الفـــنى ومضمونه وشخصية الفنان وعمله، ويستشهد بيونج الذى يؤكد على نوعية النشاط الفنى واستحالة ارجاعه إلى انواع اخرى من النشاط، وان للدراسات الجمالية وللدراسات الفلسفية فى طبيعة الفن استقلالها الذاتى(١٨).

ويـــبدو مراد فى هذه الدراسة اميل إلى التأكيد على ضرورة، افادة الفن من التحـــليل النفســـى وتجاوز دراسات التحليل النفسى التقليدية التى تفيد هى من الفن لصـــالح التحـــليل وعلى هذا فهو يرغب فى تطوير الاستطيقا السيكولوجية وتأكيد استقلالية الدراسات الجمالية ؛فقد أصبح ما يسمى بعلم الجمال أو الاستطيقا، دراسة قائمة بذاتها تستمد أصولها ومبادئها ومناهجها من النشاط الفنى لامن اى فلسفة من الفلســـفات القائمة. وقد تؤدى هذه الدراسة الاستطيقية إلى الايحاء بفلسفة جديدة أو عـــلى اقل تقدير تطوير الفلسفة وتغذيتها برؤيا جديدة شأنها فى ذلك شأن الدراسات العلمية التى تطبع فلسفة كل عصر بطابع الاتجاه العلمى السائد(١٩).

ثالثا : الاتجاهات الفلسفية فى علم الجمال

(الموقف الطبيعى والتعبير الموسيقى)

يريد فؤاد زكريا الذى قدم لنا العديد من المؤلفات والترجمات فى علم الجمال ان يجمع الجانبين الاجتماعي، والنفسى سويا ويتجاوزهما معا حيث يؤكد العلاقات المتـــبادلة بين الفنان الفرد والمجتمع بمتطلباته التى يستطيع الفيلسوف ان يتعمقها. ومـــن هنا فهو يرى ضرورة البحث الفلسفى – فى الفن – الذى يعطى الاولوية للعمل الفني. وهو يشير إلى ضرورة اتخاذ العمل الفنى ذاته محورا لكل ما يقال فى

(١٨) المرجع السابق : ص ٢٨١ .
(١٩) المرجع نفسه : ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .

ميدان النقد، وأساس لكل تذوق، فمن الواجب الا نخرج عن نطاق العمل، وننتقل إلى ميدان الواقع الا بقدر ما يكون ذلك عونا على فهم ما هو موجود فى العمل ذاته، ويرى اننا لو طبقنا هذا المعيار على النقد الادبي، والفنى وعلى التذوق فى هذه المجالات لوجدنا ان قدرا كبيرا منه ينبغى ان يستبعد على اساس انه دراسات تاريخية،أو نفسيه، أو اجتماعية قد تكون لها قيمتها فى هذه المجالات الاخيرة ولكنها لا تساعد على تذوق العمل الفنى ذاته بطريقة افضل ولا تزيد فهمنا لعناصره.

وفى ترجمته كتاب جيروم ستولينز لا يرى تضادا بين النظرة الخالصة إلى الفن والنظرة النفسية، أو الاجتماعية اليه، فالمرء يستطيع ان يأتى بتحليلات اجتماعية ونفسيه كما يشاء بشرط ان يوضح بطريقة مقنعة كيف ترتبط هذه التحليلات بعناصر تنتمى إلى صميم العمل الفنى ذاته، وفى هذه الحالة تكون الارتباطات الاجتماعية، أو النفسية للفن مؤدية إلى فهم أعمق لما هو متضمن فى داخله وتكون النظرة الاجتماعية أو النفسية إلى الفن مكملة لا مناقضة للنظرة الخالصة إليه(٢٠).

ويقدم فى مقدمة ترجمته لكتاب جوليويس بورنتوى تطبيقا لوجهة نظره فى ميدانه المفضل الموسيقي، فالكتاب محاولة لدراسة ميدان لم يطرق من قبل على نطاق واسع، وهو العلاقة بين اراء الفلاسفة فى الموسيقى على مر العصور، ويخرج من ذلك إلى استنتاج نتيجتين انتهى اليهما المؤلَف: الاولي، ان الفنان لا الفيلسوف هو المحدد والمطور للفن، الثانية – ان التجديد فى الفن والموسيقى خاصة الشكلية سوف يفرض نفسه فى المستقبل، وان كان ينتقد هذه النتيجة الثانية(٢١) وتتفق اراؤه التى تجدها متناثره فى مقدمات ترجماته مع وجهة نظره الجمالية التى يقدمها لنا بوضوح فى مؤلفاته الجمالية والتى تنطلق جميعها من

---

(٢٠) د. فؤاد زكريا : مقدمة ترجمته كتاب جيروم ستوليتز : النقد الفني، دراسة جمالية وفلسفية، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٤ ص ١ .

(٢١) د. فؤاد زكريا : مقدمة كتاب جوليوس بورنترى : الفيلسوف وفن الموسيقي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤ – ص ١٣ .

تحـليلاته للموسـيقى الـتى قـدم فيها عدة كتيبات مثل : "مع الموسيقى ذكريات ودراسات"، و"ريتشارد فاجنر"، و"التعبير الموسيقى"[٢٢].

ويقدم تطبيقا لوجهة نظره على مشكلة "التعبير الموسيقى" فالحل الذى يتقدم بـه يـرى ان احـوال المجـتمع تنعكس على الفنان وتضفى على اعماله صيغتها الخاصـة ومـن ان هذا الانعكاس ينبغى ان يترك حتى يظهر من تلقاء ذاته بحرية دون ان تفرضـه عـلى الفـنان ايه قوة خارجية وان بهذا فقط ترفع موسيقانا إلى المستوى الذى بلغته الموسيقى العالمية[٢٣].

واتفاقـا مـع وجهـة نظره نجده يفرق بين وسائل الخلق الفنى (الموسيقي) والقـوة الدافعة إلى هذا الخلق، أو الاهداف التى يضعها الفنان نصب عينيه، وذلك لأن حساسـية الفـنان الصـادقة تجعله اكثر الناس تأثرا باحوال الحياة المحيطة به فتأتى موسيقاه معبره عن هذه الاحوال وان كانت وسيلته إلى الخلق الفنى ذاتيه فمن المحـال ان نفهـم موسـيقى ايـه فترة من الفترات الا اذا عرفنا كيف كان الناس يعيشون فيها، وماذا كانت نظرتهم إلى الحياة وإلى العالم المجتمع[٢٤].

ان فـؤاد زكريا صاحب الموقف الطبيعى لا يستطيع ان يكتفى فقط بالاراء الـنظرية دون ربطهـا بالسياق التى ترتبط به فهو يقدم لنا آراءه المختلفة اعتمادا على العقل والنقد كما يخبرنا فى كتابه "آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة" التى يقـدم لنا فيها موقفه عارضا "النظريات الفلسفية فى فلسفة الفن" سواء اليونانية، أو الحديثة، وأهمية هذه الدراسات التى يقدمها لنا أنها باعترافه "أقرب إلى التعبير عن

---

(٢٢) يمثل كتاب : التعبير الموسيقي، مساهمة فؤاد زكريا الجادة القائمة، على الخبرة والدراسة الشخصية لقضايا وظيفة الفن ودرو الفن ورسالته وحدود الإبداع والتعبير الفنى وغيرها من قضايا جمالية شغلت الساحة الثقافية فى مصر فى الستينات . وهى قضايا كتب عنها كثيرا فى عدد من المحلات مثل : علم الآثار الموسيقي، مجلة الثقافة العدد ٩٩ يونيه ١٩٦٥، خواطر حول الموسيقى الشعبية، الفكر المعاصر ٦٥ يوليو ١٩٧٠، محنة الموسيقى الغربية المعاصرة، الثقافة العدد ١٧ نوفمبر ١٩٦٣ موسيق الآلات والضجيج، مجلة الثقافة العدد٢٩ فبراير١٩٦٤، والأساسى العقلى للموسيقى الحديثة مجلة علم النفس فبراير١٩٥٢ .

(٢٣) د. فؤاد زكريا : التعبير الموسيقي، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٦، ص ٦.

(٢٤) المرجع نفسه ص ٢٢ – ١٨

فكــرى فى صورته الصريحة المباشره من أى شيء آخر كتبته من قبل وهى بهذا المعنى معيار صادق لما أومن به ولما أرفضه"(٢٥).

وفلســفة الفن عنده تتساوى بعلم الجمال ففى دراسته عن "النظريات اليونانية فى فلســفة الفن" يتناول الأسس الجمالية للخلق الفني، أو النظريات الجمالية الكبرى لأشهر الفلاسفة اليونان فيعرض للنظرية الاخلاقية عند أفلاطون والنظرية الواقعية عند أرسطو. والنظرية الصوفية عند أفلوطين وتكمل دراسته الثانيه "نظريات حديثة فى فلسفة الفن" – دراساته للنظريات الجمالية ويعرض فيها النظريات الحديثة التى ظهــرت فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر، فيعرض للنظرية العقلية عند كانط والرومانتيكية عند شوبنهور والتعبيرية عند كروتشه.

٢- (الخبرة الجمالية والكشف عن القيم)

لقــد ازدهــرت الكتابات الجمالية فى العربية بالدراسات العديدة التى قدمها الدكــتور زكريا ابراهيم حيث اثمرت واينعت جهوده التى تمثلت فى "دراسته فلسفة الفــن فى الفكر المعاصر"، و"الفنان والإنسان" و"مشكلة الفن" بالاضافة إلى ترجمته لكتاب ديوى "الفن خبرة"، حيث يرى أن من الضرورى ان يصحب نشاط الحركات الفــنية فى بلادنا تيارات فكرية تعرف بها ويوضح لنا انه رغم الجهود التى ارادت تأســيس الجمـــال موضوعيا فان معظم المشتغلين به لازالوا من أصحاب التكوين الفلسفى الذين يتأثرون فى دراساتهم بالاتجاهات الفكرية التى يدينون بها، وهو يقدم لــنا فى هــذا الكتاب خلاصة لأهم الاتجاهات الجمالية فى الفلسفة المعاصره، وهذا مايــبرر لــنا تســميته للكتاب "فلسفه الفن فى الفكر المعاصر" بسبب غلبة الطابع الفلسفى على معظم هذه الاتجاهات الجمالية وكون معظم اصحابها من الفلاسفة.

ويحــدد لــنا مهمـــة ودور الفن بأنه تحليل الخبرة الحمالية وهذا هو إسهام الدراســات الفلســفية فى هذا المجال، فاذا كانت الفلسفة فى صميمها وصفا شاملا للخــبرة الإنســانيه فليس بدعا ان نرى الفلاسفة يهتمون بتحليل "الخبرة الجمالية"،

(٢٥) د. فؤاد زكريا : آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، ص ٦ .

ويحرصـــون على فهم "الظاهرة الفنية" ويؤكد على ذلك بقوله : "ان علم الجمال لا يـــزعم لنفسه حق توجيه الفنان فى علمه، بل هو يقتصر على دراسة "الفن" بوصفه خبرة بشرية توسع افاق فهمنا للوجود الإنسانى بصفة عامة"[٢٦]. وهو بهذا يدخل بنا إلى مجـــال الايستمولوجيا فاذا كان الجمال عند القدماء يرتبط بالوجود وانه حقيقة كـــلية فهـــو هنا يندرج ويدخل فى نطاق نظرية المعرفة – وهو حين يحاول تفهم الجمـــال والـــنفاذ إلى معنى العمل الفنى انما يريد لفلسفته الجمالية ان تكون دراسة نظرية غايتها المعرفة، وعلى ذلك فعلم الجمال انما هو "علم وصفى" يدرس العمل الفنى باعتباره ظاهرة بشرية تدخل فى صميم النشاط الروحى للوجود البشرى"[٢٧].

ورغم ازدياد الاهتمام بدراسة الظاهرة الجمالية ضمن تخصصات متعددة الا ان الاهـــتمام الفلسفى جعل منها مدخلا إلى الوجود وتجاوز الواقع ووحد بينها وبين الحـــرية الإنسانية ويشير زكريا ابراهيم إلى هذا الاهتمام الفلسفى بالظاهرة الجمالية مقـــابل الاهـــتمامات التجريبية ويبدأ بكتاب كانط "نقد ملكة الحكم" ١٩٧٠ باعتباره الحـــدث الأكـــبر فى تـــاريخ الدراســـات الفلسفية الجمالية، ويذكر تعاقب الفلاسفة بعدكانط.

ويشير زكريا ابراهيم إلى أن عمله ليس مجرد عرض وتقديم نماذج للمذاهب الغـــربية الـــتى حاولت تفسير الخبرة الجمالية، وتحليل مفهوم الفن ويبين انه يختار بعـــض الـــنماذج الـــتى يراها أقدر على التعبير عن روح العصر. ويرى انه على الرغم من أنه توجد صعوبة فى الحديث عن سمات عامة وخصائص مشتركة تجمع المذاهب المعاصرة فى فلسفة الفن الا أنها جميعا تكشف عن حرص معظم الفلاسفة عـــلى فهـــم دور الفن باعتباره نشاطا ابداعيا يكشف عن حرية الإنسان ويعبر عن قدرته على تجاوز الواقع وهذا ما نجده ايضا فى عمله الثانى "الفنان والإنسان".

وتكشـــف مقدمـــة هـــذا العمل عن اهتمام بالغ بالخبرة الجمالية، فالفن نشاط بشـــرى عـــام يرتكز اولا بالذات على الخبرة الجمالية، والخبرة الفنية ليست تجربة

(٢٦) د. زكريا ابراهيم : فلسفة الفن فى الفكر المعاصر، مكتبة مصر القاهرة، ص٦ .
(٢٧) المرجع السابق ص ٧ ..

فــريدة اخــتص بها قوم دون قوم، أو جنس دون جنس، أو عصر دون عصر، بل هى ظاهــرة بشــرية عامـــة، وحيــن يتحدث عن "الخبرة الجمالية" فهو يعنى بها إحســاس الإنسان بالطبيعة إحساسا عميقا خصبا وفيرا واكتشاف لما فيها من نظام وانســجام وتوافق فالفن وثيق الصلة بالخبرة الجمالية ومهمة فلسفة الفن تحليل هذه الخــبرة، وهى خبرة كلية موحدة من خبرات الوجود البشرى بأسره ابتداء من أدنى انفعالاته حتى أرقاها"(٢٨).

يؤكــد زكــريا ابــراهيم على كون الظاهرة الجمالية ظاهرة إنسانية ويناقش مســألة الصلة بين الفن والإنسان ويتناول الفنان – فى أكثر من موضع وأكثر من كــتاب – باعتــباره باحثا عن القيم فالإنسان اولا وقبل كل شئ يحاول ان ينفذ إلى نــواة القيمة من خلال قشرة الواقع(٢٩). وعلى ذلك فمهمته هنا ادراك صلة الخبرة الجماليــة بالتجربة البشرية وان يكتشف دور الفن فى الحياة الإنسانية بعامة. فالفنان إنســان قــبل ان يكــون فنانا، وأن الخبرة الفنية تجربة بشرية قبل ان تكون الهاما خارقا أو وحيا فائقا للطبيعة، ويؤكد ذلك ان اهتمام علماء الجمال المحدثين بالخبرة نفسها أكثر من اهتمامهم بتحديد مفهوم الجمال، ويبين أن المقصود بالخبرة الجمالية هــنا هو تلك التجربة الكثيفة التى يقوم بها الفنان حين يحاول ان ينظر إلى الأشياء بطريقة جديدة غير معهودة(٣٠).

تظهــر رؤيــة زكريا إبراهيم وتعمقه فى كتابه "مشكلة الفن"، حيث يقدم لنا وصفا "للموضوع الاستطيقى" على نحو فينومنيولوجى".

وهــو يحدثــنا فى تصــديره بــلغة ذاتية يعترف فيها بأن الكتابة فى "ميدان الدراسات الفنية والجمالية"، تجربة تقتضى الصبر والاناة. ويظهر معارضته للقول بالجمــال المطلق، أو الجمال فى ذاته "كما لدى أفلاطون" . فليس هناك سوى أشياء جميــلة تقــع عــليها عيوننا وموضوعات استطيقية يكشف عنها تذوقنا الفنى. فهو يعــترف للموضــوع الجمــالى بوجود شيئيى. ومن هنا فهو يرى أن مهمة الفنان

(٢٨) د. زكريا ابراهيم : الفنان والانسان ص ١٠ .
(٢٩) المرجع السابق : ص ١٥ .
(٣٠) المرجع نفسه ص ١٥٤ .

تنحصر فى عملية تحويل "المحسوس الخام" إلى محسوس استطيقى – فالموضوع الاستطيقى على عكس الموضوع النفعى، هو الذى يستأثر بانتباهنا دون أن يحيلنا إلى شىء يخرج عنه لأنه "غاية فى ذاته" من جهة ولا ينطوى على أى فاصل بين المادة والصورة من جهة أخرى . وهذه الوحدة هى التى تجعل منه أقوى تعبير عن البعد الإنسانى من أبعاد الواقع[٣١]. ويوضح لنا أن مهمته فى هذه الدراسة الفلسفية للفن هى القيام بوصف الموضوع الاستطيقى على نحو فينومينولوجى وأن يحلل العمل الفنى ويتعمق الدلالة الإنسانية للفن موضحا أن الموضوع الجمالى ليس مجرد موضوع ميتافيزيقى، أو موضوع طبيعى، أو سيكولوجى يتميز بنوعية خاصة وفردية أصيلة[٣٢]. ومن هنا فهو يتناول فى فصول كتابه على التوالى تعريف الفن ثم العمل الفنى بناءه وعناصره والفصل الثالث بين الطبيعة والفن. والرابع بين الفن والصناعة . ثم الفن والمجتمع . ثم مشكلة الابداع الفنى فى الفصل الثامن فى دراسة شاملة تصف لنا الخبرة الجمالية التى هى أساس الابداع والتذوق وصفا فينوميـنولوجيا يكشف لنا عن حقيقة الفنان باعتباره رائى القيم والبوصلة التى توجه البشر تجاه هذه القيم .

٣- أميرة مطر والتأسيس الابستمولوجى للوعى الجمالى :

تواصل أميرة مطر جهودها وكتاباتها الجمالية لتقديم صورة متكاملة لماهية وحدود وموضوعات ما تطلق عليه أحيانا علم الجمال، أو فلسفة الجمال. وهى ترى أن المحاولات العلمية الحديثة لم تنجح فى رد الاستطيقا إلى علم من العلوم التجريبية؛ لأنها اقتصرت على البحث فى الظروف الاجتماعية، أو النفسية المحيطة بالفن ولم تتعرض للبحث فى طبيعة الفن أو قيمته، لذلك فإن علم الجمال أو فلسفة الفن وأن استفادت بنتائج هذه العلوم عند تفسيرها لطبيعة الفن والخبرة الجمالية إلا أنها ظلت فرعا من فروع الفلسفة[٣٣]. ومن هنا فإننا نرى أن المقصود بالاستطيقا عندها هى تلك الجهود التى قدمها الفلاسفة وسواء أطلقنا على هذا المجال اسم

(٣١) د. زكريا إبراهيم : مشكلة الفن، مكتبة مصر، القاهرة ص ٦ .
(٣٢) الموضع السابق .
(٣٣) د. أميرة حلمى مطر : مقدمة فى علم الجمال، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٠.

فلســفة الجمــال، أو علم الجمال فطبيعة التخصص تدور فى نطاق دراسة الخبرة الفنية والوعى الجمالى.

وهى تهــدف من كتابها "مقدمة فى علم الجمال وفلسفة الفن" أن تقدم الاطار الســليم لفهم قضايا هذا الفرع من فروع الفلسفة، وهو فرع يساهم فيه ليس الفلاسفة فقــط، بل المهتمون بالجماليات أيضا فهو تخصص - كما تخبرنا - يقف على حدود تأملات الفلاسفة وفكر المهتمين بقضايا الفن والأدب . أى أن هذا العلم يكون حلقة الوصل بين فكر الفلاسفة ونظريات نقاد الفن[٣٤]. وهذا المعنى تؤكد عليه فى جميع كتاباتها فمازال علم الجمال يتجول فى اروقة الفلسفة التى يستمد منها المعين الأول[٣٥]. ذلــك لأنــه عــلم محــدود بتصورات الفلاسفة للفن وتقييمهم للجمال ، والفــروض الفلســفية لمعاييــر الجمال وطبيعة العمل الفنى تظل باستمرار أساسية وراء فكــر الفنان والناقد، والمؤرخ، وعالم النفس والاجتماع وجملة هذه الفروض يكون قطاعا رئيسيا من فكر الفلاسفة على مدى التاريخ هو المعروف بعلم الجمال.

وتعنى فلسفة الجمال بنظريات الفلاسفة فى احساس الإنسان بالجمال وحكمه به وابداعه له فى الفنون الجميلة . وتتميز فلسفة الجمال عند تناولها للفنون الجميلة وتاريخهــا بأنهــا لا تتناول آثارا ماضية بقدر ما تتناول العوامل المؤثرة المكونة لــلوعى الجمالى عند الإنسان. هذا الوعى الذى تكون على مر العصور، على ذلك يصــبح الــبحث فى تاريخ النظرية الجمالية بحثا فى مكونات الوعى الجمالى عند الإنسان ومظاهره المختلفة[٣٦].

ويكــفى أن نــلقى نظرة على مؤلفاتها لنتبين مدى اهتمامها بهذا التخصص ووفــرة كــتاباتها فيه سواء أكانت كتبا أو مقالات ودراسات مثل: "فلسفة الجمال"،

(٣٤) د. أميرة حلمى مطر : مقدمة فى علم الجمال وفلسفة الفن، دار المعارف بمصر، ص ٥ .
(٣٥) د. أميرة مطر : فلسفة الجمال . دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٤، ص ٥ .
(٣٦) د. أميرة مطر : مقدمة ترجمة كتاب دينس هويسمان، الاستطيقا، دار احياء الكتب العربية، القاهرة ص ٣ .

و"مقدمـــة فى عــلم الجمال" "وفلسفة الجمال نشأتها وتطورها"، و"مقالات فى القيم والحضـــارة" و"مقدمـــة فى علم الجمال وفلسفة الفن" بالإضافة لمقالاتها العديدة فى مجلات "الفنون" و"الفكر المعاصر"، "الطليعة" وغيرها.

ويهمـــنا أن نبين انجازها ورؤيتها الجمالية ليس فقط من خلال تلك الخريطة المتســـعة التى حددتها لنطاق علم الجمال، والمشروع المتكامل التى أنجزت حلقاته ولكـــن فى ذلـــك المـــنهج الذى قدمته لدراسة علم الجمال ، بحيث يمكن القول أنها اســـتطاعت عبر رؤيتها الشمولية، وعمق استبصارها بتاريخ النظريات الفلسفية فى عـــلم الجمال أن تقدم وجهة نظر هامة فى الربط بين النظريات الجمالية والظروف الاجـــتماعية والسياسية. حيث نجدها فى بداية الباب الأول من كتاب "فلسفة الجمال نشـــأتها وتطورهـــا" حيـــن تعـــرض للعصر اليونانى، ترى أن خير منهج يوضح اتجاهـــات فلســـفة الجمال فى هذا العصر هو ذلك المنهج التاريخى الذى يفسر هذه الفلســـفة على ضوء تطور الظاهرة الفنية وارتباطها بالتطور التاريخى والاجتماعى والسياسى، لهذا المجتمع وحين تعرض للنزعة الطبيعية والواقعية فى الفن اليونانى التى سادت فى القرن الخامس ق.م وعبرت عنها النظرية السفسطائية ترى أن أهم أســـباب نشـــأة هذه الاتجاهات، هو تحول النظام السياسى فى مدينة أثينا إلى النظام الديموقـــراطى[٣٧]، فقـــد اعـــتمدت فلســـفة السفسطائيين على نظرياتهم الحسية فى المعـــرفة كذلـــك طالبت برأى الفرد وبحريته فى التعبير عن رأيه وعن احساساته وانفعالاته الخاصة، ومن جهة أخرى ناصرت السفسطائية سياسة الديمقراطية عندما طالـــبت بالمســـاواة بين المواطنين. ونفس المنهج نجده مستخدما فى تناولها للفلسفة والفن عند أفلاطون فهو يعد من أعظم من استطاع التعبير عن موقف الإنسان حين يجد نفسه ممزقا بين وجوده الأراضى الخاضع للصيرورة والتغير وبين تطلعه إلى العـــالم الأعلى حيث يتمثل له قيم الجمال والكمال والخلود[٣٨]. ونفس الموقف نجده

(٣٧) د. أميرة مطر : فلسفة الجمال ص ١٣ .
(٣٨) المرجع السابق : ص ٣١ .

حيــن تتــناول آراء المحدثيــن خاصة تولستوى[٣٩]. وفى بيانها للاطار المعاصر لفلسفة الفن.

ويمكــن أن نشــير هنا إلى خاصية أخرى من خصائص كتابات أميرة مطر الجمالية. وهى الميل إلى التصحيح، والنقد حيث نجدها تميل إلى توضيح وتصحيح كثيرا من النظريات الشائعة؛ مثل مفهوم المحاكاة وازدراء افلاطون له حيث تميز بيــن نوعين من المحاكاة عنده، وتفرق بين فهمه للمحاكاة وفهم أرسطو لها ، وهى أيضــا لا تكتفى بعرض أوجه النقد لها كما يتضح فى ثنايا كتابها "فلسفة الجمال من أفلاطــون إلى سارتر". الذى يعرض بشكل تاريخى للاتجاهات المتعددة للجمال منذ الســابقين عــلى ســقراط حتى التيارات المعاصرة فى ثلاثة أبواب، يتناول الأول العصر اليونانى فى أربعة فصول أولها ؛ نظريات الفن والجمال فى القرن السادس والخــامس ق.م تبين فيه علاقة الأفكار الجمالية بالنتائج الكلية للمفكر، أو الفيلسوف الــذى تدرسه وتربطها بأسسها الاجتماعية فى مرحلتها التاريخية حيث تأتى الفلسفة السفســطائية ومــا صــاحبها من فن واقعى فى القرن الخامس ق.م لتمثل النزعة الطــبيعة الحســية، التى سادت فترة الديمقراطية الاثينية وعبرت عنها وذلك مقابل النظرية الفيثاغورية فى الجمال القائمة على العلاقات الشكلية.

ومن خلال تحليل المحاورة الأفلاطونية باعتبارها نموذجا للعمل الفنى تصل إلى مفهــوم "الفــن ومحاكاة الجمال عند أفلاطون"، ويتبين إختلاف معنى المحاكاة عــند أفلاطون عنها عند أرسطو الذى جعل الفن تعبيرا عن جهد الإنسان لاكمال الطــبيعة فقــد حــدد أرسطو المصطلح الفلسفى بعد أن كان عند أفلاطون ذا معنى متســع يشمل كل أنواع الابداع سواء العقلي، أو الابداع الفني. حيث قصر أرسطو المحاكــاة عــلى الفــنون، بل خص بها الفنون الجميلة تمييزا لها عن باقى الفنون الأخرى.

---

(٣٩) المرجع السابق : ص ١٥٧ – ١١٦ .

ويتضـــمن الـــباب الثانى نظريات اعلام الفلسفة الجمالية الحديثة، وهى على الـــتوالى : الحكم الاستطيقى حكم الذوق عند كانط، أنماط الفن الثلاثة ونسق الفنون عـــند هيجـــل وتصنيف الفنون الجميلة عند شوبنهور و نيتشة ونشأة التراجيديا عند اليونـــان ثـــم الفن عند تولستوى والثورة الاشتراكية. وتفيض فى تناول فلسفة كانط الـــنقدية وتحـــلل أفكـــاره الجمالية وبعد بيان أهميتها فى تاريخ علم الجمال تنتقدها ونتـــبين بعـــض المـــآخذ الـــنقدية على صاحب الفلسفة النقدية، والذى كان مقود ا بـــنظريات ســـيكولوجية وخاضعا لعلم نفس الملكات حين كتب مؤلفه الرئيسى "نقد مـــلكة الحكم" أكثر مما كان مسترشدا بفنون عصره، وآدابه، ومقاييس الجمال عند فـــنانيه ونقـــاده . ثـــم تتـــناول هيجل الذى سلك فى عرض مذهبه الجمالى مسلكا ميـــتافيزيقيا ووضع مايشبه تاريخا للفن فى نظرية الانماط الرئيسة الثلاثة التى فسر بها تطور الفن عبر الحضارات الإنسانية. وتأخذ على هذه الفلسفة أنها تورطت فى كـــثير مـــن مـــتاهات الميتافيزيقا اذا خضعت للمنطق القبلى الذى يميل إلى فرض التقســـيمات الـــثلاثية لتطور الإنسانية، والأنماط الفنية. وجعلت محور التطور هو عملية الوعى الخاص بالروح المطلق وما يرتبط به من تطور للمفاهيم الدينية(٤٠).

وحين تتناول شوبنهور، ومصادر أفكاره الجمالية، وعلاقته بمعاصريه. وهو مـــن الموضوعات التى وجهت تلاميذها للبحث فيها تشير إلى تأثير فلسفته العميق مـــنذ منتصـــف القرن التاسع عشر خاصة عند نيتشه وبرجسون وكروتشه ورجال التحـــليل النفســـى وتـــبين مرجع هذا التأثير، وهو تأكيده على حقيقة الصراع بين الدوافـــع اللاعقلانيـــة ووظائف التأمل والمعرفة . ومن ارادية شوبنهور إلى حيوية نيتشـــة الـــذى رأى أن أصول الفن، ومنابع الخلق الإنسانى. إنما توجد فى المظهر المـــزدوج للطبيعة الإنسانية مظهرى الحلم Dream والاغنية Song وتوضح آراء تولستوى الجمالية التى عبر عنها فى كتابه الهام "ماهو الفن ؟".

(٤٠) المرجع السابق : ص ١٣٠ .

وتعــرض الاتجاهات المعاصرة فى فلسفة الجمال فى الباب الثالث والأخير، الــذى يبدأ "بمقدمة عامة" عن الاطار الفنى لفلسفة الجمال المعاصرة. اعتمادا على رأى أورتيجــا أى جاسيت وفلسفة الجمال المعاصرة عنده إنما تعبر عما عبر عنه الفــن المعاصر من ملامح الحضارة المحسوسة وما تصوغه الفلسفة من تصورات وأفكــار مجردة ومن هنا يصعب على الباحث فى فلسفة الجمال فى القرن العشرين أن يكتفى بمنظور واحد ذلك لأن لكل فنان ومفكر رؤيته الخاصة.

وتوضـــح حقيقة نقص المذاهب التى حاولت أن تؤكد ما للفن من قيمة مقابل العــلم والتى حاولت أن تثبت أن الفن يكشف عن حقيقة لايمكن للفلسفة أو العلم أن يكشــف عــنها . ومــن خلال هذه الرؤية ترصد تيارا حدسيا على رأسه برجسون وكروتشه واتجاهات رمزية (سيمانتيكية) تبحث فى المعانى المعبر عنها فى الفن . واتجاهات وضعية وتحليلية تنظر إلى الفن نظرتها إلى اللغة وبالفعل فقد يكون الفن لغة من الانفعالات كمايرى اتباع الوضعية : ريتشاردز ، وفتجنتشين وأير وكارناب أو لغــة من الرموز كما لدى كاسيرر وسوزان لانجر . وبالإضافة إلى ذلك تذكرنا بالفلسفات الجمالية التى تتخذ تفسيرات اجتماعية انثربولوجية كما فى الماركسية أو تلك التى تميل إلى تحليل ظهور الوعى الإنسانى المتمثل فى فعل الإبداع الفنى كما لــدى سارتر فى قوله بالخيال وعلاقته بالإدراك، وبالحرية التى هى جوهر وجود الإنســان . ومــن هــذه الاتجاهــات المتعددة تفيض فى تناول : الاتجاه الحدسي، والوجودى والرمزى .

وتوضـــح لــنا الإشــارة السابقة جهد الدكتورة أميرة مطر فى تناول فلسفة الجمـــال خـــلال تاريخ طويل يغلب عليه التناول المنهجى وربط النظريات الفلسفية الــتى كانت لها الغلبة بالتحليلات الاجتماعية لمذاهب الفلاسفة وتبرز السمة النقدية عــبر التــناول الفلسفى ويكتمل هذا بجهد آخر "مقدمة فى علم الجمال" تناولت فيه مســائل الجماليــة وقضاياها الأساسية من خلال موضوعات: العمل الفنى ماهيته وعناصره، الخبرة الجمالية معناها طبيعتها وحدودها فى الابداع أو التذوق، والحياة

الإنســانية حتى تؤسس لنا وعيا جماليا من خلال ربط الجمال بالابستمولوجيا الذى ظــل طيلة العصور القديمة والوسطى وأيضا الحديثة مرتبطا بالانطولوجيا وبدأ منذ منتصف القرن التاسع عشر والعشرين يرتبط بالمعرفة والإدراك.

الموضـــوع الأول الــذى تنطلق منه فى تحليلاتها الجمالية؛ هو العمل الفنى نفســه فإذا كان علم الجمال يقوم على تحليل الجمال ليس فى الطبيعة، بل فى الفن ويــدرس التعــبير الجميــل عن الموضوعات فإن الواقعة الأولى التى تنطلق منها الدراسة الجمالية؛ هى تحليل العمل الفنى إلا أن العمل الفنى ليس كيانا منفصلا عن المبدع والمتلقى الفنان والمتذوق والناقد أيضا.

فالأساس فى الفن هو الخبرة أو الخبرات الجمالية وهذه هى القضية الأساسية التى شغلت بها أميرة مطر وأفاضت فى بيانها. وهى تعنى بالخبرة الجمالية موقف الإنسان عند تذوقه للعمل الفني، أو ابداعه له أو نقده عليه . ودراسة الخبرة تحتاج لــبحث كثيرا من العناصر التى تتدخل فى هذه الخبرة وتحدد أنواعها، لأنها تختلف بحســب الفــنون وحسب الأفراد وحسب مناهج الدارسين لها بحسب الطابع الغالب فيها أن كان تذوقا أو خلقا أو نقدا[41].

وتعرض للنظريات الوضعية فى التذوق الفنى سواء أكانت انفعالية أو حسية أو لاذيــة والتى قد تنطوى على شيء من الحقيقة ، وفى الواقع أن أكثر النظريات الوصـــفية فى الــتذوق الفنى ليست نظريات علمية تستند إلى فروض قوية لايمكن لنقيضـــها أن يكــون صـــالحا، وذلــك يــرجع إلى ضعف فى المعطيات العلمية الســيكولوجية . ومــن هــنا فإن أميرة مطر ترى أن وضع المشكلة تفسير التذوق بالوصــف العــلمى ليس وضعا صحيحا لأنه لايكفى أن نبين كيف يستجيب الناس للأعمال الفنية، بل ينبغى أن ندخل فى الاعتبار المنهج الفلسفى الذى يلجأ للنظريات الــتقويمية، أى الــنظرية الــتى تــبين لنا كيف ينبغى للمشاهد أن يستجيب للعمل الفنى[42].

(٤١) د. أميرة حلمى مطر : مقدمة فى علم الجمال ص ٦٩ .
(٤٢) المرجع نفسه : ص ٩٢ .

وهـــناك جانب آخر تتناوله هو الخبرة الجمالية، وموقف الناقد حيث تعرض للـــتذوق والحكـــم بالقيمة وتبين أهم اتجاهات النقد سواء أكان النقد بواسطة القواعد (الـــنقد الكلاســـيكى الحديث) . الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى أوروبـــا. أو الـــنقد السياقى الذى يعتمد على تقييم العمل الفنى من جهة تأثره بالبيئة الـــتاريخية والاجتماعية والأخلاقية الذى بلغ أوجه فى منتصف القرن التاسع عشر حيـــث نظـــر إلى العمل الفنى نظرة تجريبية أى على أنه حادثة طبيعية، ومن أبرز أمثلة مذاهب هذا الاتجاه مذاهب النقد الماركسى ومذهب هيبوليت تين وما يمكن أن يســـمى بالحتمية سيكولوجية عند سانت بوف، وكذلك تأكدت هذه النظرية مع فرويد وتفسيره لمؤثرات الإبداع الفني، ثم تعرض بعد ذلك للنقد الحديث .

وأخيـــرا تتـــناول الخـــبرة الجمالية فى الخلق الفنى وتعرض لنظرية الالهام والهـــوس عند أفلاطون واللاشعور عند التحليل النفسى تلك النظرية التى تطورت مع يونج فى اللاشعور الجمعي، ثم نتناول فكرة العبقرية التى شاعت لتفسير الابداع الفنى . ونستطيع أن نعطى أمثلة أخرى لقضايا جمالية شغلت بها وكتبت فيها أميرة مطـــر وخصصـــت لهـــا أكـــثر من دراسة مثل قضية : "تصنيف الفنون الجميلة وجمالياتهـــا المقارنة" ألا أن أهم خصائص كتاباتها الجمالية هو هذا الاهتمام الدائم والاحالـــة المستمرة للجمالية العربية . وهى لاتخصص دراسة مستقلة لمناقشة هذا الموضـــوع وذلك لأنه لايمكن القول بوجود جمال مستقل يتصف بصفات قومية . لأن ذلك ممكن أن ينطبق على الابداع أكثر مما ينطبق على الاسهام النظري. لذلك فـــهى تتـــناول إسهام العلماء والفلاسفة والصوفية المسلمين فى النظريات الجمالية ضمن تناولها للقضايا الجمالية الرئيسة التى تعرض لها.

والحقيقة أن هذا الاهتمام بالاسهامات العربية فى الجماليات مما يميز موقف أميـــرة مطر بحيث إننا لانجد مثل هذه الاشارات فى التناول الاجتماعي، أو النفسى لـــلجمال أو لـــدى من يتناولون الجمال فى إطار إنسانى متسع مثل: زكريا إبراهيم ومجـــاهد عبد المنعم وربما صحيح أن زكريا أبراهيم يقدم تذييلا لكتابه "فلسفة الفن

فى القـــرن العشرين" لإسهام العرب المعاصرين إلا أن بيان جهود الفلاسفة العرب والمســـلمين قـــليل مـــا نعثر على اهتمام به سوى مقالات قليلة نجدها متناثرة هنا وهناك.

وتـــتدرج اشـــارات أميـــرة مطر من مجرد بيان رأى لأديب عربى يوضح نظـــرية جماليـــة. مثل أن تذكر رأى المازنى لشرح وجهة نظر ليسينج فى تقسيم الفـــنون وبيـــان إمكانيـــة كل فن منها ببيان أبيات أمرئ القيس، الذى يصف حركة الحصـــان لـــتحديد حدود فن الشعر[٤٣]. أو تتناول جهود الفلاسفة العرب فى سياق جماليـــات أرسطو، حيث تناقش لماذا أقبل العرب على ترجمة الفلسفة والعلوم. ولم يـــترجموا الشـــعر والمسرح بذكر موقف الجاحظ الذى يرى أن الشعر لايمكن أن يـــترجم ولايجـــوز عـــليه النقل، وإلا انقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه وسقط الـــتعجب مـــنه[٤٤]. وتتناول جهد الفارابى وابن سينا فى نقل وتلخيص كتاب الشعر وتبين ماتوصل إليه حازم القرطاجنى من آراء هامة فى التفرقة بين الشعر العربى واليونانى. كذلك نتناول اهتمامهم بالموسيقى الذى يعرفه الفارابى فى إحصاء العلوم ويقدم لنا فيها كتابا ضخما "الموسيقى الكبير"[٤٥].

كما تبين فى حديثها عن الفن والتصوف عند أفلوطين موقف بعض الصوفية فى الإســـلام الذيـــن تغنوا بجمال العالم الروحانى الحب الالهى مثل ابن الفارض ، وجلال الدين الرومى الذى أودع فى المثنوى آراء تفسر لنا ماذكره فلاسفة اليونان الافلاطونيون من نظريات فى الجمال المطلق.وتصل إلى تناول سمات وخصائص الفـــن العـــربى فى الفصل الخامس من "مدخل فى علم الجمال وفلسفة الفن" حيث تعرض للبيئة الفكرية لفلسفة الفن وتتوقف عند الحديث عن الواقعية والتجريدية فى الفـــن، حيث يظهرنا تاريخ الفن على وجود هذين الاتجاهين على مدى الحضارات

(٤٣) د. أميرة مطر : مقدمة فى علم الجمال وفلسفة الفن ص ٨٩ .
(٤٤) د. أميرة مطر : فلسفة الجمال ص ٧٠ .
(٤٥) د. أميرة مطر : المرجع السابق ص ٧١ .

فــتعرض للــتجريد فى الفــن اليونانى ثم التجريد فى الحضارات العربية فالنزعة التجريدية كانت هى النزعة الغالبة على فنون هذه الحضارة، فربما كان هناك نزعة ماديــة حســية فى الشــعر العربى ، إلا أنه بعد الإسلام غلب على الفن الإسلامى عمومــا روحانيــة مصدرها التعلق بما وراء الطبيعة من معقولية وتدبير الهى ، فالشعر بما فيه من وزن وقافية يقوم على وحدات متكررة . أما فى الفنون التشكيلية فكــانت الأشكال الهندسية والألوان هى طريقة التعبير فى هذه الفنون ، وبعد الفنان عن محاكاة الطبيعة فكانت النزعة التجريدية أشد وضوحا فى هذه الفنون . فالتجريد الإســلامى عــندها مصــدر تحول كبير فى روح الحضارة الإسلامية التى جعلت محــور الوجــود هو الذات الالهية والاحساس بقدراتها اللانهائية وتجردها عن كل تجســيم أو تحديــد فالمكان والزمان لا يمكن تحديدهما فى شكل محسوس أو صيغ محدودة"[٤٦].

هكــذا تربط أميرة مطر فلسفة الجمال بالعناصر الشكلية الداخلية التى تكون العمل الفنى من جهة والعناصر البيئية والاجتماعية والتاريخية الخارجية التى تمثل مــنظورات لهــذا العمل، فى رؤية فلسفية شاملة لا تفصل خصوصية العمل الفنى الــنوعية عــن شــمولية الواقع الموضوعى الخارجى، وقد تجلى ذلك فى جيل من الباحــثين الذين قدموا خلال فترة بحثهم تجت اشرافها وبعد ذلك أبحاث متميزة فى مجال علم الجمال مثل: رمضان بسطويسى ووفاء إبراهيم وآيات ريان وأخريين ما يــزالون مع الأستاذة يقدمون العطاء العلمى الجاد فى مجال الدراسات الجمالية فى العربية.

(٤٦) د. أميرة حلمى مطر : مقدمة فى علم الجمال وفلسفة الفن ص١٣١ ، ١٣٢.

المحتويات